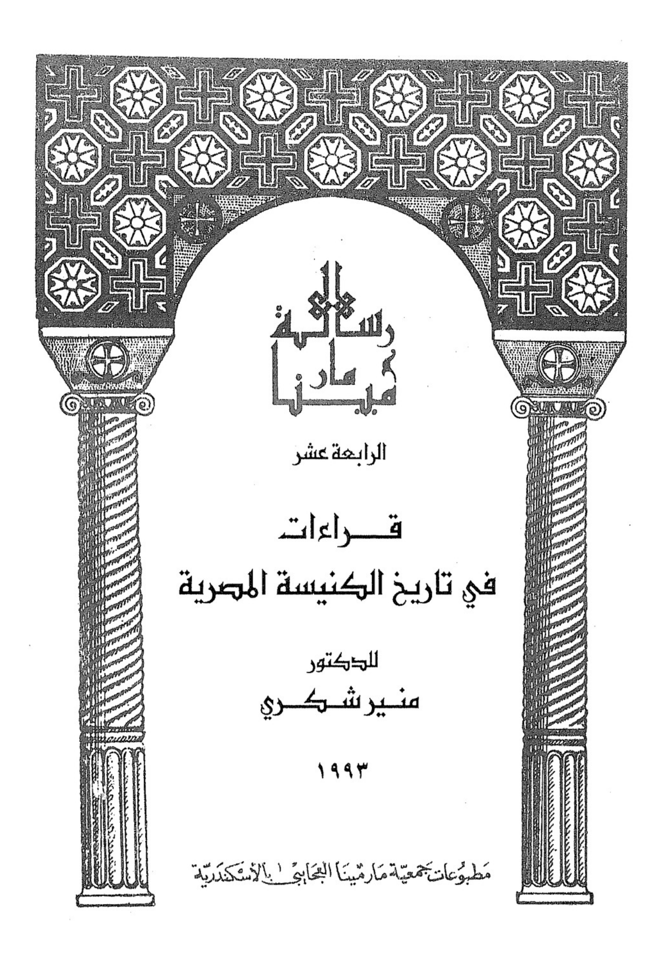


رسالة مار مينا

الرابعة عشر

قراءات في تاريخ الكنيسة المصرية

للدكتور

منير شكري

١٩٩٣

مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي بالإسكندرية

اهداءات ٢٠٠٢
السيدة/منى النشار
الاسكندرية

رسالة مارمينا
الرابعة عشر

قراءات
في تاريخ الكنيسة المصرية

للدكتور
منير شكري

١٩٩٣

مطبوعات جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية



الكتـــــاب : قراءات فى تاريخ الكنيسة المصرية .

بقلـــــم : الدكتور منير شكرى .

الطبعـــــة : ١٩٩٣ م .

الناشـــــر : جمعية مارمينا العجايبى للدراسات القبطية بالاسكندرية .

الجمع والطبـع: مركز الدلتا للجمع التصويرى .

٢٤ شارع الدلتا ــ اسبورتنج ــ الاسكندرية ــ

ت : ٥٩٥١٩٢٣ .

الغلاف والرسومات الداخلية : المرحوم الأستاذ بديع عبد الملك غطاس المتحف اليونانى الرومانى بالأسكندرية .

الصور الفوتوغرافية : المرحوم الأستاذ جورج غالى قلدس المصور الفنان وعضو الجمعية .



الشهيد المصرى العظيم مارمينا العجايبى
عميد شهدائنا القبط وشفيع مسيحى مصر

(٢٨٥ ــ ٣٠٩ م)

(عن لوحة رخامية من بقايا الكنيسة الأثرية للقديس
بمنطقة مريوط وموجودة حاليا بالمتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية)

الذكرى الخمسون

١٩٤٣م - ١٩٩٣م

أول خبر نشر عن مجهود الراهب مينا المتوحد، لإعادة تعمير دير مارمينا بمريوط هو ما نشرته إحدى المجلات القاهرية عام ١٩٤٣ م وجاء فيه ما يلى :

« وفى هذه الأيام قام أحد الرهبان وسعى بإجتهاد فى الحصول على تصريح من مصلحة الآثار ليسكن بالدير المذكور ، فتحصل على خطاب من سعادة مرقس باشا سميكة ، مدير المتحف القبطى لمدير الآثار ، وأخيرا توجه إلى الإسكندرية ، وبمساعدة حضرة الفاضل القبطى الغيور بانوب أفندى حبشى مفتش الآثار بالأسكندرية ، وقدم طلبا لمدير الآثار بالأسكندرية ، فوافق على تحويل الأوراق للمدير العام بمصر للموافقة ، ونحن نتوسل إلى الله أن يساعد ويتم تجديد هذا الدير فالواجب يحتم على أبناء الطائفة القبطية الأرثوذكسية بأن يهتموا بهذا الدير » .

فهرس الموضوعات

تنبيه واعتذارى للقارىء العزيز

كان الدكتور منير شكرى لا يمل من الحديث أو الكتابة للنشر فى الموضوعات الآتية : القديس مرقس الإنجيلى ، القديس مينا العجايبى ، البابا أثناسيوس الرسولى ، البابا كيرلس الرابع ، البابا كيرلس السادس ، كنيسة القديس مينا الأثرية بمريوط ، آباء البرية المصرية ، مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ، مجمع خلقيدونية ، تقليد كنيسة الإسكندرية فى إقامة البابا البطريرك ، المجلس الملى .

لذلك عندما قامت الجمعية بجمع مقالات هذا الكتاب أستبعدنا العديد من المقالات التى بها تكراراً لنفس الأفكار والتعبيرات لكننا لم نستطع أستبعاد مقالات أخرى بها من عمق الفكر والرؤية الثاقبة وأن كان فيها بعض التكرار فى التعبيرات المستخدمة لكنه بنسبة بسيطة وهذا أمر وارد عند الحديث فى نفس الموضوع عدة مرات فى عدة مناسبات .

لذلك نعتذر للقارىء إن كان يجد بعض التكرار لبعض التعبيرات فى بعض الموضوعات .

الجمعية

كلمة الجمعية

على مدى نصف قرن من الزمان سجل الدكتور منير شكرى المؤرخ الكنسى القدير ورئيس جمعيتنا السابق العديد من المقالات والكتابات وقد إمتلأت بها أسماع المؤمنين فى الكنائس والزائرين للأديرة واستمتعت بها أعين وأفكار القراء بالرسائل التى أصدرتها جمعية مارمينا ومجلة مدارس الأحد ومجلة مرقس ورسالة المحبة ومجلة الطليعة وجريدة وطنى وجريدة مصر المسائية . وبكل الصدق تعتبر هذه المقالات التاريخية أثمن ما يملكه الأقباط فى أيامنا هذه لما تحويها من غزارة فى الفكر وأمانة فى العرض ودقة فى التسجيل وفوق ذلك كله كانت هذه الكتابات من أكبر العوامل التى ساعدت على نشر الثقافة القبطية نشراً علمياً سليماً ستذكره له هذه الأمة طوال أيامها وتسجله له جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية على مدى الأعوام .

لذلك من أجل الفائدة العامة وبقدر ما أستطعنا أمكن جمع جزء هام من هذه المقالات التى نشرت فى جهات مختلفة والكلمات التى قيلت فى أماكن عدة ما عدا المقالات التى ظهرت فى رسائل الجمعية . لذلك فهذا الكتاب — الذى بين يديك أيها القارىء العزيز — يعطى فكرة عن النهضة الثقافية فى المحيط القبطى والتى ساهم فيها الدكتور منير شكرى مع أعضاء جمعية مارمينا العجايبى زهاء نصف قرن .

لذلك يطيب لنا أن نهدى هذا العمل المتواضع إلى ...

أرواح آباء الكنيسة الذين أمدوا العالم بتراث روحى عريق .

أرواح الآباء الذين كان لهم دور إيجابى فى مجال الدراسات القبطية ومنهم من عملوا فى تحرير رسائل الجمعية فقدموا باقة رائعة من تاريخ كنيستنا المجيد .

ميخائيل بك شاروبيم	يعقوب نخله رفيله	جرجس فيلوثاؤس عوض
يسى عبد المسيح	دكتور مراد كامل	كامل صالح نخله
بانوب حبشى	القمص يعقوب مويزر	دكتور بورمستر
دكتور لافور	دكتور وليم ووريل	دكتور جورجى صبحى
موريس يوسف	جرجس عطاالله	اقلاديوس لبيب

دكتور عزيز سوريال عطية	دكتور توجو مينا	دكتور سامى جبره
القمص صموئيل تاوضروس السريانى	دكتور تادرس منقريوس	دكتور لبيب حبشى
المستشار اسكندر قصبجى	بديع عبد الملك غطاس	ملاك ميخائيل
رمزى عبد الملك غطاس	عبد المسيح برسوم	عبد الملك نقولا
الأستاذ بستى رزق الله	القمص منصور البراموسى	إبراهيم نصر الله
حنا غبريال ..	كامل لطفى	بطرس ميخائيل
مريت بطرس غالى	جورج غالى قلّدس	فتحى يونان الملاخ

روح الدكتور منير شكرى الذى ثبّت فى أذهاننا تاريخ كنيستنا وتقاليدها بأسلوب عذب .

وأخيرا وليس آخرا الى روح القديس :

البابا كيرلس السادس

أبو النهضة القبطية المعاصرة والباعث لتاريخ وأمجاد مدينة مارمينا العجايبى .

لكل هؤلاء نهدى هذا العمل القبطى الأصيل .

شكر خاص من الجمعية

لقد جُمع هذا الكتاب تصويرياً وطُبع بمركز الدلتا للجمع التصويرى بالأسكندرية تحت أشراف المهندس نبيل رشدى خليل فكان الإخراج بهذه الصورة الطيبة ، وقام بالإشراف على مراحل طبع الكتاب بداية من المقالات الخطّية وتجميع المقالات المنشورة فى مصادر مختلفة كل من الدكتور رشاد منير شكرى والدكتور مينا بديع عبد الملك، وقام بمراجعة قواعد اللغة العربية ونحو الكلام الأستاذ مرقس عبد الملك غطاس . وساهم فى تكاليف طبع هذا الكتاب : أسرة طيب الذكر الدكتور منير شكرى ، أسرة طيب الذكر الأستاذ بانوب حبشى ، وأسرة طيب الذكر الأستاذ حافظ جبران ، وأسرة طيب الذكر الأستاذ بديع عبد الملك غطاس . فكان توزيع الكتاب بأقل من تكاليفه الحقيقية .

لكل هؤلاء وجميع العاملين بمركز الدلتا للجمع التصويرى خالص الشكر والتقدير ، ونستودع هذا الكتاب بالمجهود المبذول فيه ، طوال فترة تزيد عن نصف قرن من الزمان ، ليد القارىء المصرى الشغوف بهذا التراث المجيد .

صدر فى نوفمبر ١٩٩٣ م
هاتور ١٧١٠ ش

الجمعية

الدكتور منير شكرى
وتاريخ جمعية مارمينا للدراسات القبطية
بالاسكندرية



الدكتور منير شكرى

١٩ /٥/ ١٩٠٨ ـــ ١٧ /٤/ ١٩٩٠

أحد مؤسسى جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية

ورئيسها زهاء ثلاثون عاماً

للأيام حوادث ... وبتكرار الأيام وبتجميع الشهور وبترابط السنين تكونت القرون وفيها يسجل التاريخ . وككل شيء عظيم خالد ، التاريخ القبطي ... الأدب القبطي ... الفن القبطي ... الثقافة القبطية ... اللغة القبطية ... الموسيقى القبطية ... الآثار القبطية ... يكتب فيها وعنها الكاتبون والمؤرخون جيلاً وراء جيل ، ويظل في أعماق الحضارة القبطية نهر متدفق يروى صفحات التاريخ بأروع صور الأمجاد ويسجل للأبناء أعمال الآباء وعظمتهم ... ويحتفظ للأحفاد بأمجاد الأجداد وروعتهم ... فهى بكل المقاييس وبشهادة المؤرخين ... حضارة رائعة مبدعة ممتعة ... ملحمة جميلة ترعرعت حول ضفاف نهر النيل الخالد وساهم بها شعب مصر في ركب الحضارة العالمية ... لكن من يكشفها لنا ويُنقب عن أغوارها في زمن تغلبت فيه الماديات وضعفت فيه المثاليات وإختفت فيه تقاليد الآباء وتوارت ملامحهم عن الأنظار لفترة من الزمن لن تطول ... لن تطول ... لذلك لا عجب إنه مع منتصف القرن العشرين سخر الله راهبا متعبداً في صحراء مصر العظيمة ومجموعة من الشباب السكندري المثقف لا يجمعهم إلا فكر واحد :

إحياء ذكرى أبطال المسيحية والكنيسة

من هو هذا الراهب ؟... إلا القمص مينا البراموسي المتوحد الذي صار فيما بعد ـــ بنعمة الله وبحسب التقاليد الكنسية ـــ البابا كيرلس السادس البطريرك ١١٦ . ومن هم هؤلاء الشباب السكندري المثقف ؟... إلا النبته الأولى لجمعية مارمينا العجايبي بالاسكندرية .

ففي عام ١٩٥٨ م كتب الراهب مينا البراموسي المتوحد الجزء الآتي الذي لم يكمله من رسالة إلى الدكتور منير شكري ـــ رئيس الجمعية في ذلك الوقت ـــ وهذا نصه (راجع : مذكراتي عن حياة البابا كيرلس السادس ـــ الجزء الثاني ـــ للقس رافائيل آفا مينا ـــ صفحة ٤٥ ـــ إصدار أبناء البابا كيرلس السادس ـــ ١٩٨٤ م ـــ القاهرة) :

« رسالة من رسائل ميناء الخلاص للابن المبارك الدكتور منير شكري باركه الله » .

« ... أكتب لك هذه الرسالة فى ساعة متأخرة من الليل لكى أبشركم ببشرى مفرحة لكم ، ولجميع أعضاء جمعية الشهيد العظيم مارمينا بالاسكندرية . وقد عرفنى اليوم الأستاذ عوض الله ابراهيم عضو المجلس الملى العام ، وكذا الأستاذ يوسف جرجس سكرتير البطركخانة ، أنه تقرر ترميم هيكل الكنيسة الموجود بدير مارمينا بمريوط . من عظيم فرحى وسرورى بذلك الخبر لم أستطع أن أنام قبل أن أسطر لكم هذه الرسالة . وربما تستغرب من ذلك ، ولكن لو علمت السبب لما إستغربت . أعلم يا ابنى العزيز أنه فى سنة ١٩٤٣ م حضرت إلى الاسكندرية ، وتوجهت لمقابلة الطيب الذكر المرحوم الأستاذ بانوب حبشى ، وعرضت عليه فكرة إقامة الشعائر الدينية ، والسكن بدير مارمينا ، ففرح جداً ، وسعى جهده لدى مدير الآثار ، وأنتم أول ما تعرفون ما قام به من خدمات فى سبيل إنتشار إسم الشهيد مارمينا ، ولكن لم تسمح إرادة الله فى ذلك الوقت إلى أن جاء الوقت المعين ، وأراد الله أن يحقق الآمال . ففى هذه الأيام ... » (انتهت الرسالة) .

وبدلاً من إرسال هذه الرسالة كتب الراهب مينا البراموسى المتوحد خطابين إلى شقيقه الأستاذ حنا يوسف عطا (سيرد ذكرهما فيمابعد) ، والغرض من ذكر هذا الجزء من رسالة لم ترسل هو إيضاح هذا اللقاء المذكور بها والذى تم عام ١٩٤٣ م بين الراهب مينا البراموسى المتوحد والأثرى بانوب حبشى . وكان هذا اللقاء بمثابة الإلهام فى بداية فكرة تكوين جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية ، وكان الأثرى بانوب حبشى يتردد على الدكتور فتحى الملاخ طبيب الأسنان بعيادته بمحطة الرمل ــ وسط البلد ــ لعلاج أسنانه ، وكانا قد تعرفا فى نادى موظفى الحكومة ــ ولكون الدكتور فتحى الملاخ ابن خالة الدكتور منير شكرى ، فمن هنا كانت همزة الوصل والتقابل الذى تم بين الدكتور منير شكرى والأثرى بانوب حبشى ، فكانت صداقة ووفاء داما بقية العمر .

إتفق الأثرى بانوب حبشى والدكتور منير شكرى مع نخبة قليلة من المفكرين الأقباط على تكوين جمعية ثقافية للمساهمة فى إحياء معالم التاريخ القبطى المهمَل والذى يمثل جزءاً هاماً من تاريخنا القومى .

الى أبناء الامة القبطيـــة

أيها الأخوة الأحباء :

تأسست جمعية مار مينا العجايبي بنعمة الرب لتخدم كنيستكم المجاهدة وأمتكم الخالدة عن طريق نشر الثقافة الدينية والتاريخيـة ، وهى ناحية لم تنل حتى الآن أية رعاية أو اهتمام جدى رغم مالها من أثر فعال فى حياة الامم ونهضـة الشعوب . فنحن أمة ذات تاريخ مجيد وتراث عريض . ألسنا ورثة أول دولة مسيحية فى العالم ينطوى تاريخها القوى على أروع صفحات البطولة والجهاد !؟ فمن حق الأمة علينا اذن أن نكشف الأحفاد عن مآثر الأجداد وأن نطلع الخلف على ما كان عليه السلف ليسترشدوا بهم ويقتفوا أثرهم وليشيدوا مستقبل ابنائهم وقد عمرت أذهانهم بصور آبائهم ، أولئك الذين عضوا على الأمانة بالنواجذ حتى أوصلوها لهم سليمة رغم الذئاب الكاسرة والوحوش الضارية .

لذلك تتقدم الجمعية لسد هذا الفراغ الملحوظ وفق البرنامج الموجز الآتى :

(١) احياء ذكرى شهداء الأمة القبطية وأبطالها ونوابغها فى كافة العصور بالخطابة والكتابة وما الى ذلك .

(٢) نشر رسائل ودراسات مبسطة عن أهم المواضيع التى يتعين على كل قبطى الالمام بها .

(٣) إعداد رحلات الأماكن الأثرية التى يهم كل قبطى زيارتها .

ويتولى هذه الأعمال جميعا إخصائيون .

فاذا وجدت الجمعية توفيقا وتأييداً فى خطواتها الأولى هذه فستوسع افق نشاطها حتى يشمل : اعادة طبع كتب التاريخ القبطى التى نفذت طبعاتها ، تأسيس مكتبة قبطية بالاسكندرية ، اصدار مجلة أو نشرة دورية تساعد على نشر رسالة الجمعية ، كما ستحاول الجمعية احياء اللغة القبطية بتدريسها بطرق عملية .

ومن أغراض الجمعية الجوهرية أيضا . تسعى لتشييد كنيسة باسم الشهيد القبطى العظيم مار مينا العجايبي وكذا القيام بأعمال البر والخير طبقا للوسائل الاجتماعية الحديثة .

والعاملون فى الجمعية يدركون تمام الادراك مايتطلبه ذلك كله من جهود وأعباء ، ولكنهم يؤمنون برسالتهم من الاعماق ، ويتطلعون الى الجميع راجين منهم النصح والارشاد والمعونة .

الجمعية

النداء الذى أصدرته جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية
عام ١٩٤٥ م

وكان هذا الراهب التقى القمص مينا البراموسى المتوحد ذو البصيرة النفاذة هو الملهم لإطلاق إسم القديس المصرى وشفيع مسيحى مصر مارمينا العجايبى ، على جمعيتهم ، وسميت الجمعية (جمعية مارمينا العجايبى) وتأسست فى يونيو ١٩٤٥ م وأصدرت النداء التالى :

« ... تأسست جمعية مارمينا بنعمة الرب لتخدم كنيستكم المجاهدة وأمتكم الخالدة عن طريق الثقافة الدينية والتاريخية ، وهى ناحية لم تنل حتى الآن أية رعاية أو إهتمام جدى رغم مالها من أثر فعال فى حياة الأمم ونهضة الشعوب ... » .

ونترك المجال هنا للدكتور منير شكرى ليسرد لنا بأسلوبه المتميز والشيق قصة هذا اللقاء التاريخى :

« ... وتبتدىء هذه الحقبة من التاريخ عندما قصد راهب تبدو عليه امارات الزهد والتقشف والدعة مع صدق العزيمة وسعة الأفق ، قصد المرحوم الأستاذ بانوب حبشى ، ويبدو فى حديثه وأفكاره ذلك الإيمان القوى الصادر من الأعماق فى حق أمتنا القبطية المجاهدة فى أن تنهض نهضة روحية علمية جديرة بماضيها العظيم . أقول عندما قصد القمص مينا البراموسى المتوحد المرحوم رئيسنا السابق الأثرى الأستاذ بانوب حبشى الذى كان مفتشاً بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية ، يرجوه أن يتوسط له لدى ولاة الأمور ليقيم بين أطلال كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط ، ولكن حال دون ذلك الحرب العالمية الثانية إذ كانت الصحراء الغربية منطقة حربية . وكان يُبدى دهشة كيف أن القبط لا يدرون حتى بأن لمارمينا مدينة أثرية مازال يطلق عليها أسمه إلى يومنا هذا ، وأن إحدى الطوائف المسيحية قامت تدعو إلى بناء كنيسة فى تلك المنطقة جمعت لها فى إجتماع واحد عشرة آلاف جنيه . فكان سعيه هذا لإقامة قلاية له هناك إنما ليحفظ للقبط حقهم وملكيتهم فى تلك المنطقة وليلفت أفكار القبط وأنظارهم إليها ... » .

كانت فكرة إقامة قلاية صغيرة بجانب أطلال كنيسة مارمينا الأثرية فى صحراء مريوط ، هى أساس الدير العظيم والكاتدرائية الفخمة اللذان أقامهما البابا كيرلس السادس فى صحراء مريوط شهادة على صدق عزمه وقوة إيمانه .

وكانت فكرة إقامة جمعية ثقافية قبطية ، هى أساس لمئات المؤلفات التى تعتبر من أثمن ما كتبه الأقباط فى تاريخنا الحديث مما كان له أثر عظيم فى النهضة القبطية المعاصرة ... بحق أنها إحدى عجائب العجائبى .

وكما يحفظ التاريخ أن ٦ يناير ١٨٧٤ م كان بداية حركة الاصلاح الكبرى بالقاهرة ، كذلك سيذكر التاريخ أن شهر يونيو ١٩٤٥ م هو أهم معالم النهضة القبطية الحديثة التى بقيت حول إسم القديس مارمينا العجايبى .

ثم يستكمل الدكتور منير شكرى سرد قصة الجمعية فيقول :

« ... هذا الاسم ـــ مارمينا العجايبى ـــ وتلك الملحوظات تلقفها بعض شباب ذاك الوقت الذين كانوا يجتمعون مع الأستاذ بانوب حبشى ويتدارسون فيما يجب عليهم عمله ليقوموا بواجبهم نحو كنيستهم وخصوصاً تاريخها المجيد الذى يجهله جمهرة أبنائها ، بينما البعض الآخر يتشكك فيه ، ووجدوا فى تاريخ مارمينا العجايبى صفحة مجيدة من صميم تاريخنا القويم تؤيدها المخطوطات وتؤكدها المجموعات الأثرية المنتشرة فى كل مكان . فأتخذوا من إسمه شعاراً لهم ودافعاً قوياً للسير فى رسالتهم ، أخذوها على عاتقهم ، وكان من أهم أهدافهم القيام بحركة ثقافية تهدف إلى الإفادة والتثقيف فى أوسع مدى مستطاع وذلك بتبسيط الدراسات التاريخية القبطية وعرضها فى أسلوب سهل مشوق ... » .

وفى ١٥ مارس ١٩٤٦ م قامت جمعية مارمينا بتنظيم أول رحلة إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط . فكانت أول رحلة تنظم إلى هذه المنطقة منذ عشرة قرون . ثم كانت الرحلة الثانية إلى أديرة وادى النطرون فى ٤ مايو ١٩٤٦ م وأعقبها رحلة ثالثة إلى كنيسة مارمينا بأبيار (غربية) فى ٢٤ نوفمبر ١٩٤٦ م . وكان الدكتور منير شكرى هو المسئول عن تنظيم هذه الرحلات ، كما عمل زهاء ثلاثين عاماً على تنظيم زيارتين كل عام إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط إبتداءً من عام ١٩٥٠ م أولهما فى ٢٢ يونيو (١٥ بؤونه) حيث تذكار تكريس كنيسة مارمينا بمريوط وثانيهما فى ٢٤ نوفمبر (١٥ هاتور) حيث تذكار إستشهاد القديس مارمينا . كذلك فإن الدكتور منير شكرى كان له الفضل الكبير فى مواصلة الليل بالنهار عاكفاً على مراجعة الطبعات المتتالية



د. منير شكرى فى عيادته وكانت محجاً للباحثين فى
التاريخ المصرى زهاء نصف قرن



عيادة الدكتور منير شكرى الكائنة فى
أول شارع سعد زغلول بالاسكندرية

من رسائل الجمعية التى صدرت منذ عام ١٩٤٧ م فى وقت كان فيه مجال الدراسات القبطية مجهولاً فأشترك فى تحريرها نخبة من كبار المفكرين الأقباط ومن بينهم الأثرى بانوب حبشى والدكتور عزيز سوريال عطية والدكتور باهور لبيب والدكتور لبيب حبشى والدكتور مراد كامل والأستاذ يسى عبد المسيح والدكتور بورمستر والمستشرق الهولندى القمص يعقوب مويزر وغيرهم من المهتمين بالدراسات القبطية .

وفى هذا الصدد يستطرد الدكتور منير شكرى ويقول :

« ... وتتوالى المؤلفات عن تاريخ الكنيسة من أفراد وجماعات أخرى وبعد ذلك ترتاح نفوسنا عندما نجد جميع هؤلاء يذكرون مؤلفاتنا كأحد المراجع التى أخذوا عنها . حتى الدكتور حسين فوزى وكيل وزارة الثقافة سابقاً ورئيس المجمع العلمى المصرى يذكر كتبنا كمراجع لكتابه (سندباد مصرى) ... » .

وفى عام ١٩٥٥ م رحل عن عالمنا الأرضى رئيس جمعيتنا الأثرى الأستاذ بانوب حبشى . وقد سجل الدكتور منير شكرى تأثره الشديد بهذا الرحيل فى خطاب أرسله للأثرى لبيب حبشى بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٥٦ م جاء فيه :

« ... لقد كانت خسارتنا بفقد الأخ بانوب خسارة فادحة ، خسرنا فيه صديقاً مخلصاً كريماً وفياً ، ورائداً قوى الشخصية ، ورجلاً مضحياً فى سبيل رسالتنا إلى أبعد حدود التضحية ، منكراً لذاته ، وإنى لأشعر شعوراً صادقاً ، بأن الفراغ الذى تركه بيننا ليس من السهل ملئه ، وتعزيتنا الوحيدة بأن مدرستنا تضم أمثالكم بين روادها ، فعسى أن يكون إتصالنا مستمراً ، فنتبادل معاً الأفكار المتجاوبة ، والإقتراحات المؤدية دوام تحقيق رسالتنا ، حتى لا تخبو الشعلة . هذه على ما أعتقد أفضل وسيلة لإحياء ذكرى من يسقط منا فى ميدان الجهاد لإحياء مجد كنيستنا وأمتنا ... » .

ومنذ ذلك الوقت شغل الدكتور منير شكرى مركز رئيس الجمعية طوال ثلاثين عاماً كان فى خلالها يحرص بأمانة شديدة على نشر الوعى الثقافى ليجعل الثقافة التاريخية فى متناول عامة الشعب وقد ساعده فى ذلك سعة أفقه ومعرفته هذا الذى تجلى فى تعدد وتنوع الموضوعات التى تناول الكتابة فيها وعنها كما أن

تفتحه للثقافة الغربية لم يَطْغَ على ثقافته المصرية فظل وفياً للكنيسة الوطنية القبطية الأرثوذكسية التى تربى وترعرع فى أحضانها وأحبها وكان دائماً يعتز بأصالة تقاليد كنيسة الاسكندرية . كل هذه الروح الوثابة والعالية تجلت بوضوح فى العديد من المحاضرات التى قام بالقائها والمقالات التى دونها (أنظر الثبت التاريخى لأعماله بآخر هذا الكتاب) فكان يحرص أن يشعر الأقباط بعظمة تاريخهم المجيد ، وما ساهمت به كنيسة الاسكندرية فى ركب الحضارة العالمية ، متمثلاً فى الشهيد وعالم اللاهوت والناسك ... لذلك نجد كثيراً من كتاباته على صفحات جريدة مصر المسائية وجريدة وطنى ومجلة مدارس الأحد ومجلة مرقس ورسالة المحبة ومجلة الطليعة بالاضافة إلى النشرات والرسائل التى أصدرتها جمعية مارمينا العجايبى . ففى عام ١٩٤٨ م ساهم بدراساته فى إحياء الذكرى المئوية السادسة عشر لنياحة الأنبا باخوم واضع أسس قوانين الشركة الرهبانية المتبع فى العالم أجمع (وقد كتب كتاباً عن عبقرية الأنبا باخوم بالاشتراك مع الدكتور عزيز سوريال عطية عام ١٩٨١ م) . وفى عام ١٩٥١ م ساهم أيضاً بدراسته بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة عشر لنياحة الأنبا شنوده رئيس المتوحدين ، وفى عام ١٩٦١ م ساهم فى إحياء الذكرى المئوية لأبى الإصلاح القبطى البابا كيرلس الرابع ، وألقى كلمة بليغة فى الاحتفال الذى أقيم بالكنيسة المرقسية بالاسكندرية فى الاحتفال بالذكرى المئوية التاسعة عشر لإستشهاد مارمرقس الانجيلى فى مايو ١٩٦٨ م ونشر كتاباً عن البابا أثناسيوس الرسولى عام ١٩٧٨ م بمناسبة الذكرى المئوية السادسة عشر لنياحة هذا الحبر الجليل (والتى كانت توافق عام ١٩٧٣ م) وكان شديد الإعجاب به حتى أنه وصفه بقوله : (... أسطع أمجاد كنيسة الاسكندرية وأعظم معلمى الكنيسة) ، وكان يعمل فى كتاب عن حياة وكتابات العلامة الكنسى أوريجانوس حتى وافته المنية فى ١٧ أبريل ١٩٩٠ .

ولكن أجمل ما دونه كان عن القديس مارمينا العجايبى ومدينته العجيبة وسط صحراء مريوط (أنظر رسالة الجمعية الثالثة عشر) وكان دائماً يردد كلمة الأثرى بانوب حبشى : (... ان الآثار كما هو معروف هى المصدر الأمين والأساس المكين للتاريخ الصميم ... وكانت مدينة مارمينا تضيق بما عليها

من كنائس وأديرة وحمامات ومنازل وغيرها . وكانت تتوسطها جميعاً الكنيسة الرئيسية الرائعة التى طالما إنتزعت إعجاب المؤرخين ، فدعوها « أجمل وأعظم كنيسة مصرية » ، و« تحفة من روائع الفن المسيحى » ، و« مسرة لجميع شعوب مصر » ... فلنتصور أعمدتها الرخامية قائمة فى موقعها ومعها أعمدة المذبح والمقابر وغيرها ، وقد زينت تيجانها جميعاً بالفسيفساء المذهبة والألوان الزاهية ، وأنعكس بريق ذلك على جدران الكنيسة وأرضيتها المبطنة كلها بألواح الرخام الجميل المصقول ...) .

عمل الدكتور منير شكرى بالتعاون مع القمص منصور البراموسى والخواجا منصور قلاده أنطون على نقل أربعة أعمدة من كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط لوضعها حول مذبح كنيسة مارمينا بفلمنج بالاسكندرية والتى تم تكريسها عام ١٩٤٨ م لتكون أثراً خالداً من الكنيسة الأولى بإسم الشهيد مارمينا العجايبى يوضع فى الكنيسة . وفى هذا الصدد يدوّن الدكتور منير شكرى هذا التاريخ فيقول :

« ... وكنا قد عاهدنا أعضاءنا على السعى لإقامة كنيسة فخمة باسم مارمينا فى الاسكندرية مركز الكرسى المرقسى ، فسنحت الفرصة عندما قام المجلس الملى السكندرى ببناء هذه الكنيسة ... فقدمنا الرسومات والزخارف القبطية وإقتراحات أخرى كان أهمها الإتيان بأربعة أعمدة من الكنيسة الأثرية ووضعها حول المذبح كما كان الأمر فى الكنيسة الأثرية . وقد ساعد الجمعية فى تنفيذ ذلك صديقنا المرحوم الدكتور توجو مينا مدير المتحف القبطى فى ذلك الوقت والمرحوم الدكتور شفيق غربال وكيل وزارة المعارف حينذاك . فكانت أول كنيسة فى الاسكندرية توضع الأعمدة حول مذبحها ، وإذا بتلك الحركة الفكرية تجد صدى لها فى جماعات وأفراد آخرين ، فيضع الأستاذ دريشر الانجليزى الأستاذ بجامعة القاهرة كتاباً عن مارمينا تطبعه على نفقتها جمعية الآثار القبطية بالقاهرة ويشترك معنا فى مؤلفاتنا المستشرق القمص يعقوب مويزر وينشر المرحوم المؤرخ جرجس فيلوثاؤس عوض ميمراً مخطوطاً عن مارمينا العجايبى وتتوالى النشرات عن مارمينا وكنيسته الأثرية ، ويتولى شباب مدارس أحد كنيسة مارمينا بفلمنج إخراج مرجع وافٍ عن مارمينا العجايبى ... » .

وفى عام ١٩٥٨ م كتب القمص مينا البراموسى المتوحد رسالة إلى شقيقه الأستاذ حنا يوسف عطا (أنظر كتاب : مذكراتى عن حياة البابا كيرلس السادس ـــ الجزء الثانى ـــ للقس رافائيل آفا مينا ، صفحات ٤٥ ـــ ٤٨ ، إصدار أبناء البابا كيرلس السادس ، ١٩٨٤ م ، القاهرة) يقول :

« ... أنت تعلم ما هو اشتياق ، ورغبتى من عشرين سنة تقريباً فى تعمير دير مارمينا بمريوط » ... ثم يضيف : « ... أنا منتظر بفارغ الصبر الرد علينا حالاً ، وتجدنى مسروراً جداً ، وسلام كلى يشملنى لكى أتمم هذه الرغبة » .

« ... والآن كل ما أرجوه مقابلة الدكتور منير شكرى بالاسكندرية والتفاهم معه : هل جمعية مارمينا مسجلة . وهل بلغهم أمر ترميم الهيكل ، لأن لى رغبة فى المساهمة فى هذا المشروع ، بل فى نيتى أن أكتب كل شىء بإسم دير مارمينا ، لأن المطامع من جهات أخرى ظهرت جلياً . كان مشرف عندنا الأنبا مرقص مطران أبو تيج ، والأنبا أنطونيوس مطران سوهاج ومكثا عدة ساعات .

ضرورى من البحث عما ذكرته من أمر دير مارمينا ، وتتفق مع الدكتور منير شكرى عند سفره إلى مصر يتصل بنا ضرورى للمفاوضة فى هذا الموضوع هذا إذا وافقتم عليه .....

وأنا أتضرع إلى الرب يسوع الذى بيده مقاليد الأمور أن يعلن إرادته ، ويعطينى سؤل قلبى لكى أرى بعينى عمارة هذا الدير » .

« أما بخصوص مارمينا ، فهو دائماً يلح فى عمارة الدير بمريوط » وفى هذا اشارة إلى التكليف السمائى الذى نقول به ، ونثق أنه قد صدر له .

ثم يضيف فى خطاب آخر :

« فاهتم مع الدكتور منير شكرى ، ذلك لأنك وعدت . فنبدأ أولاً ببناء صومعة ، أو اثنتين خارج الدير بجوار الاستراحة الموجودة هناك ، ثم نبتدىء بترميم المذبح بواسطة مدير المتحف القبطى ، لأن بيده ذلك ، ومتى وضعنا أرجلنا هناك ، فتأكد أن الرب سيعمل معنا . ضرورى الأهتام ، ومقابلة

الدكتور منير شكرى ، ومن له شأن فى هذا الموضوع ، ويوجد بالبطريركية بالاسكندرية خطاب من مصلحة الآثار بالتصريح باقامة الشعائر الدينية بدير مارمينا بمريوط .

نكرر القول ، ضرورى الاهتمام بذلك . إله مارمينا صاحب العجائب يدبر كل الأمور حسب إرادته » .

وكان الأستاذ حنا يوسف عطا شقيق البابا كيرلس السادس على أتصال تليفونى مستمر بالدكتور منير شكرى ، وكانا يتباحثان بإستمرار فى مناقشات طويلة فى مشاريع الراهب مينا البراموسى المتوحد وكيفية تنفيذها ، وبينما هما يتباحثان إذ بالعناية الإلهية تختار الراهب مينا البراموسى المتوحد ليجلس على كرسى أسقفية المدينة العظمى الاسكندرية خليفة للقديس مرقس الانجيلى وتتم رسامته فى ١٠ مايو ١٩٥٩ م ، وفى يوم الجمعة ١٨ هاتور ١٦٧٦ ش الموافق ٢٧ نوفمبر ١٩٥٩ م قام البابا كيرلس السادس بوضع حجر أساس الدير الحديث للقديس مارمينا بمريوط ، وكان يوماً مشهوداً أقيم فيه القداس الإلهى لأول مرة منذ عشرة قرون فوق أطلال كنيسة أركاديوس الأثرية أمام جموع غفيرة ، وألقى الدكتور منير شكرى كلمة تاريخية بعد قراءة إنجيل القداس ، أستعرض فيها تاريخ مدينة مارمينا العجايبى بمريوط والجهود التى بذلها الراهب مينا البراموسى المتوحد منذ عشرين عاماً لإعادة الروح إلى هذه المدينة . وعند وضع حجر أساس الدير التفت البابا كيرلس السادس إلى أحد سكرتاريته وقال له : « انده الدكتور منير » فتقدم الدكتور منير شكرى وطلب منه قداسة البابا أن يكتب اسمه على الأوراق التى كان قداسته سيودعها داخل حجر الأساس (وهذا الحجر وعليه اللوحة الرخامية التى كتبها بخط يده أحد أعضاء الجمعية وهو الأستاذ بديع عبد الملك غطاس ، يمكن رؤيته بالمعرض المقام أمام مدفن البابا كيرلس السادس بدير مارمينا بمريوط) . وكان البابا كيرلس السادس قد أتصل تليفونياً بالدكتور منير شكرى عشية يوم الاحتفال وطلب منه أن تمر عربة البطريركية لتسطحب أنجال المرحوم الأثرى بانوب حبشى ، أول رئيس لجمعية مارمينا العجايبى ، وهما مينا (١٥ سنة) وميلاد (١٣ سنة) ،

ليحضرا حفل وضع حجر أساس الدير الحديث وذلك تخليداً لذكرى والدهما العظيم .

وآخر عمل قام به الدكتور منير شكرى قبل أن يبدأ رحلته السعيدة إلى الأبدية ، المساهمة بعدة مقالات فى الموسوعة القبطية Coptic Encyclopedia التى أشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية .

كانت عيادة الدكتور منير شكرى ، فى أول شارع سعد زغلول بالاسكندرية ، محجاً لكل الباحثين فى تاريخ الكنيسة زهاء نصف قرن من الزمان ، كذلك كان له نشاطاً إجتماعياً ملحوظاً لنشر الوعى الاجتماعى بين الشباب السكندرى ، كما كان عضواً لمدة سنين كثيرة فى مجلس إدارة جمعية الشبان المسيحية بالاسكندرية .

والجدير بالذكر إن جندى بك يوسف قصبجى وهو من رواد حركة الإصلاح التى دعت إلى تكوين أول مجلس ملى عام ١٨٧٤ م ، هو جد والدة الدكتور منير شكرى ، وكان الدكتور منير شكرى على اتصال وثيق بنجله المستشار اسكندر قصبجى الذى كان عضواً فى المجلس الملى العام وعضواً فى مجلس إدارة معهد الدراسات القبطية ، ذلك المعهد الذى كان ثمرة من ثمار رسائل جمعية مارمينا العجايبى والذى أسسه الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية ، فتشرب الدكتور منير شكرى منذ صباه من البيئة العائلية التى نشأ فيها روح الإصلاح التى وضع بذورها الأنبا كيرلس الرابع فى منتصف القرن التاسع عشر .

وبعد أن أكمل جهاده بسلام أنطلق للأمجاد تاركاً لنا فكراً مستنيراً وروحاً وثابة وأعمالاً ضخمة من تاريخ كنيستنا المجيد لتواصل الجمعية تأدية رسالتها فى مجال الدراسات القبطية .





الدكتور منير شكرى مع الدكتور ابراهيم عبد السيد باشا
فى مستشفى المواساة بالاسكندرية عام ١٩٤٠ م

فى ٣ يناير ١٩٤٠ م كتب الدكتور ابراهيم عبد السيد باشا رئيس قسم الأمراض الباطنية بمستشفى المواساة ، فى ذلك الوقت ، الشهادة التالية :

يسرنى أن أذكر أنه حين كلفت بقسم الأمراض الباطنية بمستشفى المواساة مدة من الزمن تناهز السنتين وأكثر كان يعاوننى فى كل عملى الدكتور منير شكرى وقد أتيح لى طول هذه المدة أن أقدر ما كان عليه الدكتور منير من جدارة ممتازة وحسن اعتناء بالمرضى وتنظيم للعمل فكان مثالاً للكفاءة العظيمة والسماحة والاخلاص فى عمله الفنى ويسرنى كثيراً أن ينتفع الجمهور بمثل هذه الصفات النادرة والخلال العظيمة .

الباب الأول

القديس مينا العجايبي وكنيسته الأثرية بمريوط



منظر عام لبقايا كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط

الفصل الأول

الأحتفال بذكرى إستشهاد مارمينا العجايبى
فى الكنيسة المرقسية بالأسكندرية
(١٥ هاتور ١٦٦٢ ش ـــ ٢٤ نوفمبر ١٩٤٥ م)

سيداتى سادتى

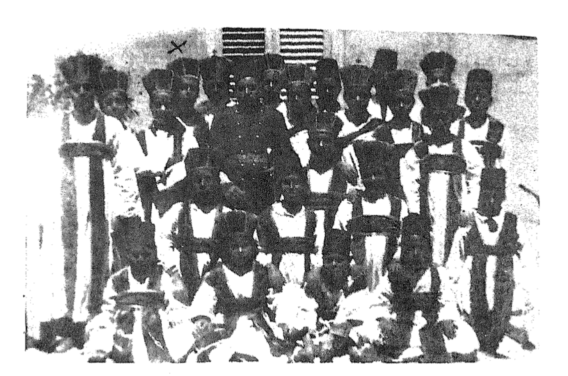
تقوم لجنة إحياء ذكرى أبطال المسيحية والكنيسة للمرة الثانية هذا العام بإحياء ذكرى مارمينا العجايبى ولا عجب فى ذلك ، إذ الحديث عنه وعن مدينته هو ـــ كما يقولون ـــ موضوع اليوم لدى علماء التاريخ المسيحى فى مصر أثر أبحاث نشرت عنه فى البضعة أشهر الأخيرة نتيجة إكتشافات حديثة عن بعض المخطوطات القبطية . ولقد بدأنا فعثر على مخطوطات قبطية عنه وعن معجزاته ومدينته منذ سنة ١٩١٠ م عندما كانت أعمال الحفريات الأثرية قائمة بجهة الحامول بمديرية الفيوم إذ عثر وقتئذ عن مخطوطات قبطية قيمه تكون الآن جزءاً مما يسمى مجموعة Morgan وكان بعضها عن قديسنا . وأما قبل ذلك فكانت المصادر عنه وعن معجزاته مستمدة عن مخطوطات حبشية وإغريقية ولاتينية . ولقد قام أستاذ أجنبى فى جامعة فؤاد الأول فى السنين الأخيرة بنشر بضعة أبحاث عنه تعم فائدتها لو قام من يترجمها . وبعد هذا وذاك فإننا نقدم فى نفس الوقت للشبيبة القبطية مثلاً عالياً فى التمسك بالدين من شاب إلى حد تضحية النفس فى سبيله .

إنحدر مارمينا العجايبى من أصل مصرى نبيل . كان جده بلوديانوس حاكماً فى عهد الإمبراطور بروباس خليفة فرومانتيوس . وكان على جانب كبير من الجاه والثروة وخلفه فى ذلك المنصب إبنه أناطوليوس . وأما إبنه الثانى بودكسيوس والد القديس مينا فلم يتفق مع أخيه ونقل إلى مقاطعة فريجيا باسيا الصغرى حيث شب مارمينا واستشهد . ولكن أصله من بلدة نقيوس أو نيقيو ومعناها المنتصرون وتسمى أيضاً بشاتى وهو إسم أحد الولاة الذى قام بأعمال إنشائية جليلة . وتسمى حالياً منوف بمديرية المنوفية .

إشتهر الشاب مينا الجندى بين رفاقه بتدينه وإعتزازه بمسيحيته مع سلوك مسيحى لا تشوبه أى شائبة . وفى أحد الأيام أصدر الإمبراطور دقليديانوس

قراره المشهور إلى جميع الرعية ذكوراً وإناثاً بالإضافة إلى مختلف الجيش بأن تقدم فروض الشكر والسجود للآلهة لما أضفت عليه من نعم وبركات . ولقد تعود مسيحيو مصر الرد على هذا القرار بدمائهم كما هو معروف وكان أبعدهم بعد الإستشهاد قديسنا مارمينا ، إذ وجد فى ذلك القرار ليس فقط على الحرية الشخصية بل فرصة مناسبة لنموه الروحى فترك الجيش دون إستئذان وذهب إلى أحد الجبال متعبدا متنسكا مقتفيا آثار المتوحدين الذين سبقوه فى الصحراء فى ذلك الوقت فى مصر وظل كذلك خمس سنوات . ولكن لم يقتنع بذلك بل أراد أن يقوم بدور إيجابى فى نشر المسيحية فانتهز فرصة أحد الأعياد الوثنية وإنحدر من صومعته وقام يبشر بين الجموع . فأصدر الوالى أمرا بالقبض عليه ويسجل لنا التاريخ محاورة بينه وبين الوالى الذى هدده بأن يقوم بتعذيبه فيها كل الإيمان والشهامة وبأشد صنوف التعذيب من أجل السيد المسيح حتى لقد نفذ صبر أهل الرأى فأشاروا على الوالى بقطع رأسه إذ لم يجدوا وسيلة للوصول للغاية المرجوة فأمر الوالى بقطع رأسه حوالى سنة ٢٩٦ م . ويوجد فى المتحف البريطانى بلندن صندوق نُقش عليه برسم بارز صور تمثل محاكمة القديس وإستشهاده ونواله إكليل المجد . وظنوا أنهم بذلك قد اسكتوا ذلك الصوت الجسدى إلى الأبد . وما دروا أن رفاته وهى موضوعة فى قلب الصحراء ستكون سبباً فى إيمان الكثيرين وفى تمجيد الله فى كل بقعة وصل إليها إسم القديس مينا . فكانت المعجزة العظيمة التى كرم الله بها رفات قديسه أن جعلها فى صمتها أبلغ منها حية .

وأراد الله أن يظهر مجده وقوته فى قديسه ففى ذات يوم نام فتى مقعد فوق القبر ثم قام من النوم وقد شفى تماماً . وتفجرت بجوار القبر فى جوف الصحراء عين غزيرة من الماء كان لها قوة عظيمة للشفاء . هذا وذاع خبره فى أقليم مريوط فأقاموا فوق القبر غرفة فسيحة علقوا فى وسطها مشكاة ظلت موقدة ليلاً ونهاراً . فكان كل من أخذ من زيت السراج أو من الماء ينال الشفاء من أمراضه . وإشتد الاقبال على ذلك المكان . فالتمس أهالى الإسكندرية ومريوط من بطريرك ذلك الزمان أن تقيم كنيسة عظيمة تمجيدا للرب ولراحة من يقصده . فأقيمت أول كنيسة سنة ٣٥٠ م . وإتسع نطاق الزوار فكانوا يأتون من مختلف



منير شكرى (×) بملابس الشماس بالكنيسة المرقسية الكبرى بالاسكندرية
حوالى عام ١٩١٨ م



فى رحلة لجمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية عام ١٩٤٨ م
ويرى من اليمين الى اليسار طيب الذكر : د منير شكرى ، الأثرى بانوب حبشى ،
د. لبيب حبشى ، د. عزيز سوريال عطية ، د. دريشر ، أحد أعضاء الجمعية

بلدان العالم المعروف فى ذلك الوقت ومعهم الهدايا القيمة للكنيسة وكانت أهم المواسم (١) فى ١٥ هاتور يوم استشهاده (٢) فى ١٥ بؤونة يوم إكتشاف قبره (٣) وفى أول أبيب عند تكريس كنيسته . وترامت أخبار معجزاته إلى أسماع أباطرة الرومان . فإهتموا بأمر المدينة فكـان نتيجة ذلك أن تكونت مدينة فيها قصور للأمراء ومنازل لغيرهم وفيها حامية من الجنود للمحافظة عليها . وأعفيت من المكوس بل وخصص مكوس بعض الجهات القريبة للصرف على التحسينات فيها وسميت متيروبوليس . وقام يتوج هذه الأعمال الإمبراطور أركاديوس الذى تولى المُلك بين سنة ٣٩٥ ، سنة ٤٠٨ أو بنى كنيسة قل وجود مثيل لها فى أنحاء العالم لا يزال المؤرخون يطنبون فى وصفها . فيها الكثير من مظاهر الفخامة والعظمة وذات نقوش وزخارف تضاهى التى كانت فى هيكل سليمان وضم إليها الكنيسة السابقة وأحضر لها أفخر أنواع المرمر والرخام والبورفير والفسيفساء وكان فيها ثلاثة هياكل ورفعت القبة على ٥٦ عامود من الرخام وبطنت الجدران من الداخل بألواح من المرمر . وكان صحن الكنيسة يبلغ ٦٠ مترا طول فى ٢٦ مترا عرض . وكتب أحد مؤرخى العرب حوالى القرن العاشر عما كان فى الكنيسة فيقول أنها كانت على أعظم جانب من الروعة والجمال . وبها مسارج تضاء ليلا ونهارا دون إنقطاع ، وبها لوح من الرخام فوقه رسم لرجل يدعى أبو مينا يضع قدميه على جملين يحيطان به ، والهيكل فيه صورة للسيد المسيح من جهة ، وفى جهة أخرى صورة للسيدة العذراء ، أما قبة الكنيسة فمزينة برسوم للملائكة .

وكان أحد الولاة ويدعى فيلوكسانوس قد أراد إعترافاً بجميل للقديس صنعة فيه أن يزيد فى رونق مدينته ولكنه ساعده أن الأباطرة الرومان لم يتركوا شيئاً إلا صنعوه فيها لزيادة تجميلها ففكر فى أن تقيم فنادق على شاطىء بحيرة مريوط لراحة الزوار الذين يأتون عن طريقها وبنى أيضاً مخازن لأمتعتهم وللهدايا التى كانوا يأتون بها . ونشأت مدينة فى وسط ذلك وسميت المدينة فلوكسانيت حسب إسمه . ولم يكتف بذلك بل أراد أن يكون أقوى تعبير فى إعترافه بالجميل فبنى إستراحات على طول الطريق إلى المدينة لراحة الحجاج .

ومن القرن الخامس إلى السابع بلغت تلك المدينة أوج عظمتها . فكان فيها القصور والفنادق والحمامات الفخمة للمرضى وحوانيت مختلفة بل أن شوارعها كان يكسوها الرخام حتى سميت بحق مدينة المرمر . وكان بها دير عظيم وأفران لصنع قنانى من الفخار تملأ من الماء العجيبية أو من زيت الأسرجة وعليها بشكل بارز رسم القديس مينا فى ملابس رومانية وحوله جملان ساجدان . وكانت هذه القنانى ترسل لمن يُقعدهم مرضهم عن الحركة كلية بواسطة ذويهم واصدقائهم ويوجد فى متحف الاسكندرية الرومانى مئات من هذه القنانى كما توجد آثار باسم مارمينا فى كافة أنحاء العالم . ولم تقتصر قدرة قديسنا على الشفاء فقط بل كان أيضاً شفيع القوافل التى تجتاز الصحراء ، ولذلك كانت القوافل الذاهبة من وإلى وادى النطرون وواحة سيوه وطرابلس تعرج على كنيسته لتستمد البركة على أمل أن تتم رحلتها فى سلام . وقد يكون ذلك سبب احاطة رسمه دائماً بجملين ساجدين له شكراً . وقد شبه المؤرخون مدينة القديس مينا بمدينة نوتر دام دى لورد فى فرنسا الآن . وكان من أثر ذيوع صيت القديس وما يجرى من عجائب فى أنحاء العالم المعروف إذ ذاك أن بُنيت كنائس بإسمه فى آرل بفرنسا وفى كولونيا وألمانيا وفى روما بإيطاليا بين باب أوستا وكنيسة القديس بولس وذلك سنة ٥٨٩ وبُنيت مستشفى بجوار الكنيسة فى روما للمرضى عسى أن ينالهم الشفاء هناك . وكان الإسكندريون الذين يذهبون إلى روما لمعاملات تجارية يتخذونه مركزا دينيا لهم .

وجاء الفتح العربى وجاء معه إنحطاط تلك المدينة التدريجى ، وجاءت عوامل طبيعية وغيرها فتألبتَ على تلك المدينة العظيمة حتى كانت سنة ٨٣٦ م وهنا يحدثنا بعض المؤرخين أن الخليفة العباسى أراد أن يجعل من مدينة سر من رأى بجوار بغداد أعظم ما رأت عين أو سمعت به أذن من حيث فخامة قصورها ، فذكروا له كنيسة القديس مينا وتوابعها فهدمها ليأخذ منها أفخر أنواع الرخام الذى نُقل منه إلى العراق مئات آلاف الأطنان .

ولكن المسيحية فى مصر إمتازت بمرونتها العجيبة فكانت تقوم بعد كل مصيبة تنزل بها وتوقد الشموع فى الهيكل وترفع البخور أمام المذبح ولذلك قام المسيحيون بكل هدوء يعيدون بناء الكنسية بما تيسر لهم من مواد . وحوالى القرن العاشر خيم السكون على تلك المدينة ونضبت عين الماء . إلا أن الأقباط

لم يسلموا بهذه النهاية فى سكوت فقاموا يلقبون قديسنا بالعجايبى فكان القديس الوحيد الذى أطلقوا عليه هذا الإسم ليكون صدى على مر العصور لتلك العجائب والمعجزات التى سارت بذكرها الركبان . وقامت فى أنحاء القطر كنائس كثيرة تحمل إسمه . وفى أثار إحدى تلك الكنائس فى منطقة الدخيلة وُجدت لوحة من الرخام عليها رسم القديس وهو الرسم الذى يسر اللجنة أن تقدم صورة شمسية منه اليوم .

وفى سنة ١٩٠٥ م جاء المونسنيور كوفمان من فرانكفورت يبحث وينقب فى الصحراء فعثر على مدينة القديس مينا التى كان يقال لها فى ذلك الوقت كرم أبومينا . وكانت لا تكاد ترتفع عن سطح الأرض . فكشف عن بقايا الكنائس والحمامات وكتب عنها مؤلفا قيما فى ٧٠٠ صفحة . وأخذ معه فى نحو ١٠٠ صندوق كثيرا من القطع الأثرية الثمينة التى عثر عليها .

وتقع تلك البقايا على بعد عشرة كيلو مترات جنوبى محطة بهيج فى خط سكة حديد الصحراء الغربية . هل يأتى اليوم الذى نستطيع فيه إحياء تلك المنطقة الأثرية ؟ لن يكون ذلك بالأمر العسير عندما يعرف السواد الأعظم عن أبطال المسيحية والكنيسة فيقومون بإرادة قوية معتزمين السير على آثارهم .

وان من أكبر أمانى اللجنة أن تتوفر سبل المواصلات فندعو من يريد من حضراتكم معنا لنقيم مثل هذا الحفل فى كنيسته الخالدة بمريوط . حيث دفن جسد القديس وحيث صُنعت معجزات عظيمة فيكون الإحتفال أوقع ونأخذ فكرة أدق عن هذه المدينة العظيمة .

ونأمل أن تخلد مدينتنا هذه الذكرى بإقامة كنيسة يوماً ما فى القريب العاجل وقد أخبرنى بعد المهتمين بشئون الأثار أنه لن يكون من العسير نقل بعض الأثار من المنطقة التاريخية لإدخالها فى تلك الكنيسة .

وقبل أن أختتم كلمتى أود أن أشكر صديقى وزميلى الأستاذ بانوب حبشى الذى كان له الفضل الأول فى سهولة الحصول على المصادر التاريخية الموثوق بها .

وبما أن القديس مينا كان مثالاً للمسيحى الذى يعبد الله من كل قلبه ومن كل فكره فى تقوى وتواضع وأخيراً وهب جسده ذبيحة حية مقدسة ليرضى

الله فلنسأله أن يشفع فينا إذ أنه جدير بأن يذكرنا أمام من يشملنا برحمته ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح له المجد والإكرام الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين .



صوت صارخ من برية مريوط ....

ابنائي المحبوبين

أما وقد رفعت صلوات من أجلكم [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] بالروح [illegible]

[illegible] الكنيسة [illegible]

وإذا لم تعلموا أنهم يرمون من وراء ذلك إلى إعلاء [illegible] المسيحية العليا في الوديان

والبراري والمستشفيات حتى إذا ما غرست في قلوب المؤمنين محبة المسيح ارتفعت صلوات

التقديس .

ولعل أسمى الصلوات المرفوعة منذ نشأة البرية المباركة [illegible]

[illegible] العهد الجديد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ! [illegible]

[illegible] ... د. [illegible]

كلمة خطّية بخط يد الدكتور منير شكرى



صورتان من إحدى الرحلات التى نظمتها جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط . ويرى فى الصورة اعضاء الجمعية امام اطلال الكنيسة الاثرية ويظهر فى منتصف الصورة السفلى طيب الذكر الاثرى بانوب حبشى وعلى يمينه د. عزيز سوريال عطية .

الفصل الثانى

كلمة ألقيت فى
ذكرى تكريس كنيسة مارمينا العجايبى
يونيو ١٩٤٦

سيداتى سادتى

عندما شاء الرب بأن أقف بينكم يوم ذكرى إستشهاد مارمينا العجايبى فى ١٥ هاتور الماضى ختمت كلمتى بهذه الفقرة « وإن من أكبر أمانى اللجنة ــ أى لجنة أحياء ذكرى أبطال المسيحية والكنيسة ــ أن تتوفر سبل المواصلات فندعو من يريد من حضراتكم معنا لنقيم مثل هذا الحفل فى كنيسته الخالدة بمريوط . حيث دفن جسد القديس وحيث صُنعت معجزات عظيمة ، فيكون الأحتفال أوقع ونأخذ فكرة أدق عن هذه المدينة العظيمة ، ونأمل أن تخلد مدينتنا هذه الذكرى بإقامة كنيسة يوماًمافىالقريب العاجل ، وقد أخبرنى بعض المهتمين بشئون الآثار أنه لن يكون من العسير نقل بعض الآثار من المنطقة التاريخية لادخالها فى هذه الكنيسة » .

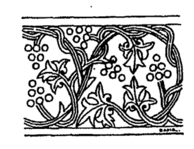
لقد كانت أمانى . ولكن العلى القدير الذى يرعى كنيسته دائماً والذى يتمجد فى قديسيه أراد أن يضيف معجزة أخرى إلى سلسلة معجزات مارمينا العجايبى ، وشاءت إرادته أن أقف بينكم مرة أخرى اليوم بعد بضعة أشهر لأبشركم بخبر ستفرحون له كثيرا وهو أنه فى القريب العاجل إن شاء الله ستقام كنيسة فخمة باسم مارمينا العجايبى تعيد إلى الذاكرة نموذجاً مصغراً من عظمة الكنيسة القديمة . وإذا كانت الكنيسة القديمة وسطا لنهضة روحية عظيمة فكلنا أمل أن تكون الكنيسة الجديدة نواة لنهضة روحية وإجتماعية تتناقلها الأجيال المقبلة وتضيفها إلى مفاخر كنيستنا الخالدة .

وفى يوم ١٥ مارس سنة ١٩٤٦ سمحت الإرادة الإلهية الحكيمة بأن نقف على أطلال مدينة مارمينا الأثرية لنستجلى ما كانت عليه من إتساع وفخامة ولنرى ما بقى فيها من أحجار غارقاً فى بحر من الرمال ممسكاً بعضه من الذعر بعضاً ولنلقى عليها فى خشوع وتأمل نظرة تجيش بكثير من المعانى فيها تحية

وإحترام لقديسنا العظيم ويشع منها عهد بإسترجاع بعض مجد تلك الكنيسة العظيمة .

لقد حركت فينا هذه الأحجار كثيراً من المشاعر الروحية السامية ولقد كانت فى صمتها ونكبتها أبلغ من المؤرخين والخطباء فى تبيان تاريخها الماضى المجيد . أما الأعمدة الستة والخمسون التى كانت تحمل السقف المذهب والتى لم يبق منها سوى قواعدها فقد كانت رمزا لكنيستنا التى أدبرت وولت أيام مجدها وعزها ولكن أسسها وقواعدها ما زالت باقية سليمة تنتظر منا أن نبنى وأن نشيد فى جد وعزم .

إن محاضراتنا ورحلاتنا ليست سوى الفاتحة لبرنامج ثقافى دينى تاريخى أخذنا على عاتقنا القيام به وهدفنا تجنيد ذوى الكفاية من أبناء الأمة القبطية إلى القيام بواجبهم فى المحيط الروحى والاجتماعى أو بعبارة أخرى جعلهم يهتمون فى لذة وسرور بهذه الأمور بواسطة تسهيل معرفة تاريخ كنيستهم لهم ليكون لهم منها عبرة وحافز ومرشد .



جمعية مار مينا العجايبي
مركزها المؤقت : كنيسة السيدة العذراء
محرم بك - الاسكندرية

زيارة كنيسة مار مينـــا بأبيار (غربية)

تحتفل الجمعية بعيد الشهيد القبطي العظيم مار مينا العجايبي يوم الأحد ١٥ هاتور ١٦٦٣ الموافق ٢٤ نوفمبر ١٩٤٦ بكنيسته الشهيرة ببلدة أبيار (غربية) ، حيث تقام بهذه المناسبة السعيدة سنوياً ، احتفالات دينية كبيرة . وذلك منذ قرون عديدة .

وقد أعدت الجمعية لهذا الغرض ، رحلة خاصة لحضرات أعضائها وعائلاتهم ، طبقاً للبيانات الموضحة فيما بعد :-

أولا — برنامج الرحلة :

تبدأ الرحلة من فناء كنيسة السيدة العذراء بمحرم بك ، الساعة السابعة صباحاً بالضبط ، يوم الأحد ٢٤ نوفمبر الجاري ، ويستقل المشتركون أتوبيساً خاصاً إلى أبيار فيصلونها حوالي التاسعة صباحاً ، ومن ثم يتوجهون رأساً إلى الكنيسة لحضور قداس العيد والتبرك بالاحتفال الديني ، على أن تكون العودة للاسكندرية بمشيئة الله حوالي الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم نفسه .

ثانياً — الاشتراكات :

١ - عدد المشتركين محدود وهو ٣٠ (ثلاثون) شخصاً ، والأفضلية المطلقة لحضرات أعضاء الجمعية ، ولكل عضو أن يستصحب أحد أفراد عائلته فقط وذلك لإمكان تهيئة الفرصة لاشتراك أكبر عدد ممكن من أعضاء الجمعية .

٢ - قيمة الاشتراك ٦٠ (ستون) قرشاً للشخص الواحد مهما كان سنه ، أما الأعضاء الذين ائل انتقال خاصة ، وكذلك الذين يقيمون خارج الاسكندرية فيدفعون ٥ (خمسة) قروش لكل شخص على ألا تتحمل سئولية انتقالاتهم .

٣ - تقيد أسماء المشتركين ، وتدفع الاشتراكات بالكامل مقدماً لحضرة وكيل الجمعية ومنظم الرحـ كتور منير شكري بشارع سعد زغلول رقم ٣٨ (تليفون ٢٠٠٢١)

٤ - تحدد موعد قبول الاشتراكات فيما بين يومي ١١ ، ١٨ نوفمبر الجاري . ويجوز قفل باب الاشترا بل ذلك إذا تكامل العدد المطلوب .

ثالثاً — بيانات أخرى :

١ - سيوزع على الأعضاء ، بهذه المناسبة ، بيان تاريخي تزينه صورة لمار مينا العجايبي ، كما ستلقى على حضراتهم كلمة تاريخية أخرى في نفس الموضوع .

٢ - ستنظم الجمعية ، فيما بعد ، مسابقة لحضرات المشتركين ، لكتابة كلمة تاريخية أدبية في موضوع هذه الرحلة ، وسيحدد موعد المسابقة وجائزتها وبقية التفاصيل الأخرى في الوقت المناسب .

٣ - على كل مشترك أن يتزود بما يكفيه شخصياً من طعام وماء .

٤ - لزيادة الاستيضاح يتصل بحضرة الدكتور منير شكري بعنوانه المشار اليه بعاليه .

والجمعية ، إذ تنظم هذه الرحلات باذلة غاية الجهد لفائدة أعضائها وراحتهم إلى أقصى حد مستطاع ، لتتطلع إلى حضراتهم بكامل الثقة والرجاء ، داعية الجميع إلى معاونتها على تحقيق الفائدة المرجوة ، بالتقيد بالبيانات السابقة بكل دقة واتباع ارشادات المشرف على هذه الزيارة المباركة ان شاء الله ؟

الاسكندرية في ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٦   رئيس الجمعيـــة

بانوب حبشي

الإعلان عن أول رحلة تنظمها جمعية مارمينا العجايبي بالاسكندرية
إلى كنيسة مارمينا بأبيار (غربية) عام ١٩٤٦ م



صورة من إحدى رحلات جمعية مارمينا العجايبى بالأسكندرية إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط حيث يرى فى الصورة طيب الذكر الدكتور عزيز سوريال عطية فى حديث مع الأثرى بانوب حبشى .

الفصل الثالث

الأحتفال بذكرى إستشهاد مارمينا العجايبى
فى كنيسة مارمينا بالاسكندرية (نوفمبر ١٩٤٧)

عندما أقفُ اليومَ بنعمةِ الله ومشيئته ، فى بيعة الشهيدِ العظيمِ مارمينا العجايبى ، لأحييَ باسمِ جمعيةِ مارمينا ، ذكرى استشهاده ، تتواردُ إلى خاطرى ذكرياتٌ ، عن سلسلةٍ أخرى من الوقفات ، تتصلُ بهذه الذكرى المجيدة .

ففى يومِ ١٥ هاتور منذ سنتين ، شاءت ارادةُ الرب ، أن القىَ كلمةَ جمعيةِ مارمينا فى الكنيسة المرقسية ، تحيةً لذكرى استشهاد قديسنا العظيم ، وتمنيتُ فيها ــ وصدقونى كنت أظنِ ، أنى أرفع فقط الروحَ المعنوية ، فى نفوسِ أعضاءِ جمعيتنا تمنيتُ أن تتاحَ لنا الفرصةُ، لزيارةِ آثار مدينةِ مارمينا بمريوط، وأن تقومَ الاسكندريةُ فى يومٍ قريب ، ببناءِ كنيسة ، تخليداً لذكرى من كان فى الصفِ الأولِ للشهداءِ الأبرارِ ، ومن كان دمُه ودمُهم سيلاً جارفاً ، إقتلعَ الدولةَ الرومانيةَ الوثنيةَ من جذورها .

ولكن تبارك اسم الله القدوس ، وتمجد فى قديسيه ، فلم يمر على هذه الكلمةِ بضعةُ أشهر، حتى تم ما يمكن أن يسمى بالمعجزة، إذ قامَ رهطٌ من أهل الاسكندرية ، يبلغ نحو الخمسينَ من مختلف الطبقات ، لزيارةِ كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط ، فكنا أوَلَ جماعةٍ من مسيحيى تلك المدينة يقتفون أثرَ أسلافِهم منذُ أكثر من عشرةِ قرون .

وتشرفتُ بعد ذلك ، بالقاءِ كلمةِ الجمعيةِ ، يوم ذكرى تكريسِ كنيستهِ ، فأختتمتُ كلمتى قائلاً « وإذا كانت الكنيسةُ القديمة اشتهرت فى التاريخ ، بأن جعلت مدينةً عظمى تُبنى حولَها فى وسطِ الصحراء ، فكلُنا أملٌ أن تكونَ الكنيسةِ الجديدة ، نواةً لإصلاحٍ روحيٍ ، يخلدُه التاريخ ، وتتناقلهُ الأجيالُ المقبلة ، فتضيف صفحةً ذهبيةً إلى تاريخ كنيستنا الخالدة » .

وبالقربِ من أبيار كنيسةٌ باسمِ مارمينَا ، يظَنُّ بعضُ المؤرخين ، أنها أقيمت قرب المكان الذى ولد فيه قديسنا العظيمُ ، وهى أسعدُ حالا من كنيسةِ مريوط ، إذ يُرفع فيها البخورُ فى أيامِ العيد فقط ، ذهبنا إليها فى صُحبةِ بعض أعضاءِ الجمعية وسررنا برؤيةِ بناء جدرانِ كنيستِنا هذه ، مازال قائماً على قدمٍ وساق ، فأحسست بغبطة وتفاؤل عظيمين ، بذلك الوعي الديني والقومي ، الذى بدأ يدبُ فى نفوسِ شعبِنا القبطىّ ، والذى أوحَى لنا بأقامةِ كنيسةٍ باسمِ قديسنا العظيم ، فقمت أبشر اخوانى قائلاً « إذا مامددنا نظرَنا إلى المستقبلِ القريب ، وجدنا نورَ الأملِ يشعُ بقوةٍ تتضاعف ، وأبوابَ الرجاءِ تتفتحُ بنَسبةٍ تتصاعدُ فى الكثرةِ والقوة وسنجدُ ما يبهجُ قلوبَنا ويشيرُ إلى مستقبلٍ باسمٍ زاهرٍ لأمتنا ، إذ سنقفُ بكم فى القريبِ العاجلِ إن شاء الله ، فى بيعةٍ عظيمةٍ لمارمينا العجايبى ، فى مدينتنا العظمى الاسكندرية « وهى كنيسة مارمينا بفلمنج حالياً » ، وإذا كانت أثار كنيستهِ فى الصحراءِ ، تتمثلُ فيها قصةُ كنيستِنا ، التى تدهورت بعد مجد وسؤدد ، فإن كنيسة الغد ستكونُ رمزاً لنهضتنا الحديثة ، وإيذاناً بالعملِ الجدىِ فى سبيلِ إرجاعِ مجدِ الكنيسة ، وعُنوانًا للعملِ الذى أخذ شبابُنا على عاتِقه القيامَ به .

وكما كانت مدينتُنا يوماً ما ، منبع الحضارةِ المسيحية ، يجب أن نرجعَ إليها من رحلتنا هذه ، ونحن أشدَ عزماً ، وأقوى تصميماً ، على أن نتحلى بالفضائلِ المسيحية ، التى تجعلُنا نوراً يضىءُ لمن حولَنا ، ومثالا يُحتذى ، وسبباً فى تمجيدِ اسْمِ رب الكنيسة ، فنُرجِعَ لمدينتِنا شهرتها السابقة » .

واليوم أيها السادة ، بعد سنتين تماماً ، من ذلك الجهادِ الذى بدأتهُ جمعيتُنا ، لتعريف الأقباط بمجد كنيستهم ، وتقديمها المستنداتِ التاريخيةَ والأدبيةَ والروحيةَ لذلك ، فى شخصِ قديسنا العظيمِ ، وكنيستهِ الأثرية ، ينطلقُ قلبى ولسانى ، بل قلوبُنا والسنتُنا جميعاً ، بالشكر للعزة الإلهية ، إذ أقِفُ بينَكم فى بيعةٍ عظيمةٍ لشهيدِنا القبطىِ العظيم ، الذى تتمثلُ فى سيرتِه ، سيرةُ ١٤٤٠٠٠ شهيداً قبطياً ، كانت دماؤهم أزكى دماءٍ بُذلت لأسمى غاية ، مما جعلَ المؤرخين يُجمعون كلمتَهم ، على أن الكنيسةَ القبطيةَ ، قد عانت من الإضطهادات المروعة ، ما لم تعانِ مثلهَا أىُ كنيسةٍ مسيحية . وإذا كانت متاعبُ الكنائس

الأخرى ، قد إقتصرت على القرون الثلاثة الأولى للمسيحية . عندما كانت الوثنيةُ مسيطرةً على الدولة الرومانية ، وكان الرومان متعطشون إلى الدماءِ ، يروُون هذا العطشَ مجانا ، بمنظرِ المسيحيين يُنكَّل بهم فى حلبات المصارعة ، فإن مما يحُز فى النفس أن الكنيسة القبطية الأرثودكسية ، قاست كثيراً بعد ذلك ، من البيزنطيين وغيرهِم ، فى القرون الوسطى كما تعلمون ، حتى أن كان المؤرخين المنصفين يروْن أن بقاءَ الكنيسةَ والأمة القبطية ، بعد هذا كله ، ورغمَ هذا كله ، يعتبرُ معجزةً لا شك فيها . وعندما بدأنا نستنشقُ قليلاً نسيمَ الحريةِ ، فى بدايةِ القرنِ الماضى ، إنقضت علينا البعثّاتُ الدينيةُ الأجنبيةُ ، محاولةً إختطافَ من تتوسمُ فيهم الضعفَ الروحىَ والخُلُقى .

لم يكد القديسُ مرقسُ الانجيلى تطأ قدمُه أرضَ مدينتِنا ، ويبشرُ بكلمةِ الخلاص ، حتى قام الامبراطور نيرون « بالاضطهاد الأول » ، والذى ذهب ضحيتَه قديسُنا ، ومؤسسُ كُرسِي الاسكندريةِ الرسولى

وجاء القيصر دومتيان الذى تولى من « ٨١ إلى ٩٦ م » ، فاضطهد المسيحيين الاضطهادُ المشهورُ فى التاريخ « الاضطهاد الثانى » .

واعقبه القيصر تراجان « ٩٨ — ١١٧ م » فاضطهد المسيحيينَ وقتل كرذونس ، أسقفَ الإسكندرية ، فكان ضحية ما يعرفُ « بالاضطهاد الثالث » .

وأخلفه القيصر أدريانوس (١١٧ — ١٣٨ م) وكان سريع التقلب ، اضطهد المسيحيين « الاضطهاد الرابع » وجاء القيصر مرقس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠ م) الذى اتخذ معظم جيشه من المسيحيين ، وما لبث أن انقلب عليهم ، فأصبح قتلُ المسيحى فى حكمِه أمراً محتماً ، وكان ذلك إبانَ الاضطهادِ المشهورِ فى التاريخ « بالاضطهاد الخامس »

ووجد القيصرُ سويرس (١٩٤ — ٢١١ م) أن أسلافَه كان ينقُصهم شيءٌ من الحزمِ نحو المسيحية ، فأصدر مرسوماً سنة ٢٠٢ م يحرمُ فيه التدينَ بالمسيحية ، وتشاءُ سُخريةُ القدر ، أن يزورَ مصرَ بعد ذلك ، ليرى أثر قانونه ، فراعهُ انتشارَ دين الحق فى ربوعها ، فنسب ذلك إلى إهمال الوالى لتيوس ، أو

تهاونه فى تطبيقِ القانون ، فشدد عليه الوصيةَ ، فى محو آثار ذلك الدين . ونفذ الوالى وصيةَ القيصر ، واضطهدَ المسيحيين اضطهادا شديدا عُرف « بالاضطهاد السادس » ، وقد اختُصَتْ مصرُ وحدَها ، بهذا الإضطهاد مدة سَبع سنوات ، لأن القيصرَ ساويرس ، كان يَخشى بأسَ القبط ، لوفرة ثروتهم ، وكثرة علومهم ومعارفهم . ولما كان لا ينقصُ القبطَ فى ذاك الوقت ، للتخلص من نير الرومان غيرُ الاتحادِ والوئامَ، وكان الدينُ المسيحىُ فرصةً مواتيةً للمِ شعثِهم ونظمِ عَقْدِهم ، حاول القيصرُ محوَ اثار ذلك الدين من مصر ، مركزا فى ذلك كلَ ما يملك من قوة ، غير مكترثٍ بمسيحيي باقى الأقطارِ ، لما كان عليه أهلُها من الضعف والاستكانة .

ومرت أيامٌ وتولى القيصرُ مكسيمينوس (٢٣٥ ـــ ٢٣٨ م) فأثار على المسيحيين « الاضطهاد السابع » وقد إضطرمت نارُ ذلك الاضطهاد ، فى أنحاء المملكة الرومانية عموماً ، وفى مصرَ خصوصاً .

وأثار « الاضطهادَ الثامن » الامبراطورُ دَيسيوس أوداكيوس (٢٤٩ ـــ ٢٥١ م) .

وظن القيصر فالريان (٢٥٣ ـــ ٢٦٠م) أنه قد توصل إلى طريقةٍ لاستئصالِ شأفة المسيحيين ، فأثار « الاضطهادَ التاسع » وأصدر مرسوماً سنة ٢٥٧ بنفي الأساقفةِ ، وبالحيلولةِ دون الاجتماعاتِ المسيحيةِ ، وخطا خطوةً أخرى فأصدر أمرا سنة ٢٥٨ م قاضياً باعدامِ الأساقفةِ والقسوسِ والشمامسةِ ، وبمصادرةِ أموالِهم وأملاكِهم .

ولم يكن لجميع هذه الاضطهادات ، من نتيجة فى مصر ، سوى إنتشارُ كلمةِ الخلاصِ ، ووقفنا نبراساً ونوراً للعالم المسيحى ومثلاً حياً فى الثباتِ والتضحية . ولكن دقلديانوس الطاغية قيصرَ الرومان (٢٨٤ ـــ ٣٠٣ م) ظن أنه قادرٌ على محو الدين المسيحي من الوجود ، فأمر معتمدَه فى مصر ، أن يجبرُ القبط وأمراءَهم عَلى عِبادةِ الأصنامِ ، وإلا أشهر فيهم سوْطَ عَذابه ، وسيفَ إنتقامه ، ولما كان القبطُ شديدى المراس ، فى كل ما يَمسُ عقيدتَهم ، لا يؤثرَ فيهم تهديدٌ ولَا يُرجعَهم عن الحق وعيدٌ ، أبوا بالاجماع رجالا ونساء ،

الانقيادَ لأوامرِ دقلديانوس ، وقد أطاعوا فى ذلك ضمائرَ حرةً ، سكنت بين جنوبهم ، بل قلوبا مُلئَتْ ايمانا ، ونفوساً زادت بالمسيح إطمئنانا ، ولا سيفَ بيدهم يدافعون به عن أنفسِهم ، إلا ذلك الصليبُ العظيمُ والانجيلُ المقدسُ الكريمُ .

هذا ما كان من أمرِ أجدادِنا ، إزاء دقلديانوس الذى أثار « الاضطهاد العاشر »، بعكس أوروبا التى أطاعته ، ورجعت إلى عبادةِ الأصنام ، ولذلك كبُر عليه أن يَعصيَه القبط ، فازداد خوفهُ منهم، واشتد حنقُه عليهم ، ومن ثم حضر بنفسه إلى مصر ، بعد أن سبقته إليها مراكبُه الحربية ، ومقذوفاته الجهنمية ، وسيوفه المشرفية ، فحصد من القبط مئاتٍ وألوف ، وأذاقهم كؤوسَ العذاب ألوانا وصنوفا ، فمن جلدٍ وتعذيب إلى ذبحٍ وقتلٍ ، دام هذا الاضطهادُ تسعَ سنوات استشهد فيه مئات الألوف ، ورد ذكرُ أشهرِهم فى السنكسار القبطى . يخبرنا أوسابيوس القيصرى ، أن فى فترةٍ واحدةٍ من هذا الاضطهاد ، استشهد عشرةُ الاف رجلٍ غيرَ النساءِ والأطفالِ ، ويقول « وأنا الذى كنت هناك فى ذاك الوقت ، رأيت عدداً كبيراً يقتلُ فى أحدِ الأيام ، البعض بواسطة السيوف والبعضُ بواسطة النار ، ورأيت السيوفَ تبلغُ حدا أن صارتْ لا تقطَع ، والبعضُ ينكسر ، بينمَا الجلادون قد أخذ منهم التعبُ كلَ مأخذ ، فكانوا يتبادلون العمل » .

ترونَ أيها السادة ، أن هذا الاضطهادَ الرومانيَ ، دام طوالَ القرونِ الثلاثةِ الأولى للمسيحية ، وكان اعتناق المسيحيةِ بمثابةِ أن يحكمَ الانسانُ على نفسِه بالاعدام ، وأن يتلوَ هذا الحكمَ يومياً على نفسه ، أى أن يكونَ شهيدا طوالَ أيامِ حياته. وكان كُلِ مسيحيٍ يشعر، بأن سيفَ ديموكليس معلق من فوق رأسه. ولم يكن عليه أن يفكرَ فى الموتِ بكلِ هدوءٍ ، وأن يقبلَه كأمرٍ مسلمٍ به بينِ آونةٍ وأخرى فقط ، بل وأن يتقبلَ ما كان يصاحبهُ عادةً من أنواعِ التعذيب . لم تكن بطولةُ مسيحيي ذاك الوقت ، كامنةً فى كونهم كانوا يهزأون بالموت حباً فى الدم الزكى ، الذى أراقه الفادى الحبيب ، فى حين أن كلمةً واحدةً كانت كافيةً لانقاذه وإنما كانت البطولةُ فى أن يعيشوا أمناءً لعقيدتِهم ، تحت التهديدِ المستمرِ بالموت . هذا هو الاستشهادُ فى أروع مظاهره ، أو ما

نسميه بلغتِنا بحربِ الأعصاب ، وهى حربٌ مدمرةٌ للروح كان عليهم أن يقاسوها طوالَ أيامِهم ، بكل ما تحويه من صنوفِ الرهبةِ والفزع . كان يجب أن يسبقَ قتلُ المسيحى أنواعا وصنوفاً من التعذيب ، تفنن فيها الرومان ، وإذا كان من الصعب علينا ، أن نتصور أن هناك حكاماً تجردوا من الانسانيةِ ، إلى درجةٍ أن يحكموا بصنوف من التعذيب ، فإن الأصعبَ والأغربَ ، أن نتصورَ أن هناك آدميين استطاعوا أن يتحملوها ، فى هدوءٍ وتواضع ، دون أىِّ زهوٍ أو مباهاة، قيل لأحد هؤلاء الشهداء «فكرْ فى شبابكِ قبل أن تضحىَ به» فأجاب « إنى أفكرُ فى الحياةِ الأبديةِ ولا أستطيعَ أن أضحى بها » ، وكان من هؤلاءِ الشهداءِ ، الأغنياءُ والفلاسفةُ والعلماءُ ومن إليهم ، وكانوا ينظرون إلى هذه الأمجاد أنها من سقط المتاع ، إذا قيست بالأمجادِ السماويةِ .

كانت قوةُ العلى تظللهم فى جهادِهم وتجعلُهم يقاسون بشجاعةٍ وصبر ، ودون تململٍ أو شكوى ، هذه العذاباتِ الطويلةِ المريرة . وكانوا هم أيضا يؤمنونَ بالمساعدةِ الإلهية التى وعد بها يسوع . لقد سمعنا عن أناسٍ ، يموتون فى سبيل عقيدةٍ أو مبدأ ، ولكنَّ المعجزةَ هنا أن نساءً ضعيفات، وصبيةً فى اعداد كبيرة ، يقاسون موتاً بطيئاً ، مسبوقاً بكلِ ما تفتقتْ عنه عقولُ الوثنيةِ من وحشيةٍ وتعذيب ، فيتألمون ويموتون أبطالاً ، لم نقرأ مثل ذلك فى مواضعَ أخرى من التاريخ . إن بطولة هؤلاءِ الشهداء تفوقُ الحدَ البشرى ، والسرُ فى ذلك هو الربُ يسوع .

كانت القوةُ الإلهيةُ ظاهرةً إلى حد أن الذين كانوا يشهدون استشهادَ المسيحيين ، كانوا يعتنقون المسيحيةَ أفواجاً ، وكان منهم السجانون والجنودُ بل والجلادون ذاتُهم ، دون حتى أن يُلموا بأى شيءٍ عن تعاليمها . فعلوا ذلك بمجرد رؤيتهم حالةَ الشهداء ، وهم يتعذبون ، ثم يقتلون ، وهكذا كانوا حتى فى عذابهم وموتهم ، سبباً فى تمجيدِ أبيهم الذى فى السموات ، كانت تخرجُ منهم قوةٌ خفيةٌ ، تلمس القلوبَ وتهزُ أوتارها ، وتوقظُ النفوسَ ، فتوقنَ أن هناك قوةٌ إلهيةٌ تتجلى فى موقفهم ، وتحسُ بجاذبيةٍ نحو المسيحية ، لما كانت توحى به من أعمال البطولة .

خرجت الكنيسةُ القبطيةُ الأرثوذكسية من هذه الاضطهاداتِ ظافرةً ، وأنوفُ الأباطرةِ جميعاً فى الرغام ، وجعل القبط بدايةَ تقويمهم ، اضطهادُ دقلديانوس لَهم ، ليذكروه دائماً فى معاملاتِهم اليومية وليذكروا الخَلَف بما فعله السَلَف ، فى سبيل المحافظة على دينه الأرثوذكسى القويم ، وكيف أنهم اشتروا استقلالهم الدينى بأموالهم التى سُلبت وأرواحهم البريئة التى أزهقتْ ، ويبتدىء هذا التاريخ المسمى تاريخُ الشهداء من سنة ٢٨٤ م وهو التاريخُ الذى أعطى الأقباطَ لقبَ البطولةِ فى المسيحية .

ويعتبر مارمينا العجايبى ، رمزا وعميدا لهؤلاء الشهداء جميعاً ، قضَى حياته مجاهدا ، وتحمل جميعَ أنواع التعذيب ، وبلغت شهرته بعد استشهاده حوالى سنة ٣٠٠ م جميعَ افاقِ العالم المسيحى ، فشُيدت باسمه كنائسُ فى أوروبا ، ويدلُ على شهرتِه أيضاً ، المجموعاتُ الهائلة من الأوانى الأثرية ، التى كانت تملأ بالمياه الشافية ، المتفجرةِ بالقرب من قبره ، والتى وُجدت فى كافةِ أنحاءِ العالم المسيحى ، إن لهذه الأوانى بالذات ، أهميةً قصوى ، إذ أن وجودَها بهذه الكثرةِ ، وبهذا التنوع ، وفى مُختلفِ الأنحاء ، ينهضُ دليلا لا يَرْقى إليه الشك ، على كثرةِ الحُجاج والزوار ، الذين كانوا يفدون من كافةِ أنحاء العالم ، لزيارةِ قبر القديس مينا فى مريوط ، وناهيكم عن مشاقِ السفر وتكاليفه واثقاله فى العصر القديم . لماذا كل ذلك ؟ وما سببَ هذه الشهرة العالمية ؟ أنها لسَبب واحد فقط ، هُو المعجزاتُ والعجائب ، التى كرم اللهُ بها قديسَه فصنَعها على جسده الطاهر فى مريوط . هذا تعليلٌ تاريخى ، ثم لدينا تعليلٌ أدبى ألا وهو المخطوطات ، التى احتوتْ كثيرا من المعجزاتِ ، وهى مكتوبة بالقبطيةِ واليونانيةِ والحبشيةِ واللاتينيةِ والعربيةِ ، ولدينا أيضاً تعليلٌ روحىّ ، وهو انفرادُ القديس من بين أبطالِ الكنيسةِ القبطية ، بلقبِ العجايبى ، مما لا يحتاجُ إلى تفسير .

لذلك حق لنا أن نرفعَ قلوبنا شكراً للرب ، الذى حقق أمالنَا سريعاً ، فبُنيتْ باسمِ عمَيدِ الشهداءِ الأقباط ، هذه الكنيسةُ الرحبة برملِ الاسكندرية . لقد كان ذلكَ واجباً على الاسكندرية لا مناصَ منه ، إذ يتصلُ تاريخَهَا بسيرتهِ وبكنيستهِ الأثريةِ فى كثيرِ من المناسبات .

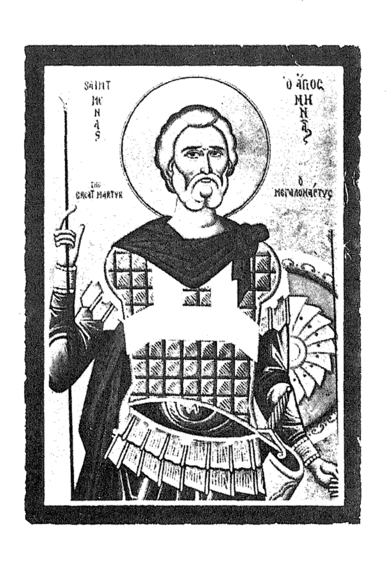
ويزيد فى رونقِ كنيستنا هذه ، وفى رَوْعتِها ، أن استطعنا أن ننقل إليها أربعة أعمدةٍ بقواعدها وتيجانها من كنيسةِ قديسِنا الأثريةِ فى مريوط التى تقومُ فوق قبره .

سيداتى سادتى

كان لإجدادِنا فى العصرِ الذهبي مشاغُلُهم ومشاكُلُهم ، ولكن كانت رسالةُ المسيحيةُ تملأ قلوبَهم ، وكانوا يعملون ويتصرفون طبقا لتوجيهاتها . وكانت فكرة « الصليب » أو الآلام فى سبيل الرب ، وفكرةُ الاكليلِ السماوىِ تتجاوب اصداؤُها فى نفوسِهم .

كان إذا مر بهم موكبُ شهيد مساقٍ ، وتساءل أحدُهم إلى أين يسوقونه ؟ سَمَع الجواب : إلى الموت !.... إلى المجد !....





أيقونة يونانية للقديس مينا العجايبى فى زى جندى رومانى

إستشهاد مار مينا العجايبي



يرى القديس إلى اليسار راكعا على ركبته اليسرى وقد أمسك الجلاد بشعره ،
وهم بقطع رأسه ، ويرفرف ملاك الرب خلف القديس استعداداً لتلقى روحه الطاهرة

نقلا عن صندوق من العاج وجد بالاسكندرية
ومحفوظ الآن بالمتحف البريطانى

الفصل الرابع

تعليق على الصورة التى فى الصفحة المقابلة

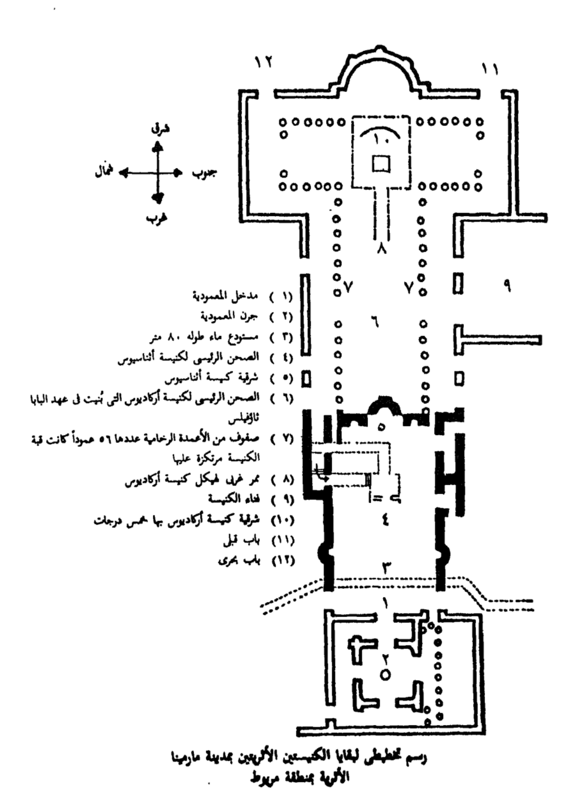
إستشهاد مارمينا العجايبى
(حوالى عام ٣٠٠ م)

من بين التحف الأثرية الثمينة التى يحتفظ بها المتحف البريطانى ، صندوق صغير من العاج سبق العثور عليه فى الاسكندرية ثم تناقلته الأيدى حتى وصل إلى مقره الحالى ، وترجع أهمية هذا الأثر إلى أن جوانبه مزينة برسوم تمثل محاكمة واستشهاد القديس المصرى العظيم مارمينا العجايبى ، ومن بينها المنظر المنشور صورته هنا ، وفيه يُرى القديس راكعاً على ركبته اليسرى بينما قُيدت يداه خلف ظهره ، وإلى جانبه جلاد يمسك باحدى يديه شعر القديس وبالأخرى سيفاً مسلولاً ، وقد ظهر إلى الخلف ملاك على أهبة الاستعداد لتلقى روحه الطاهرة .

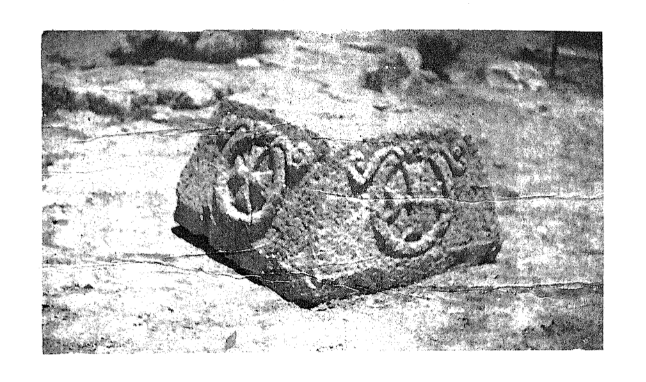
وهنا ظاهرة فائقة الأهمية نشير إليها مسرعين ، فالقديس يبدو أمامنا فى لحظاته الأخيرة وقد مد عنقه لجلاده الذى كاد يهوى بسيفه عليه ، وذلك بعد أن كان قد أمضى أيامه الأخيرة بطبيعة الحال فى تعذيب وحشى بغية تحويله عن عقيدته وهيهات ، ومع ذلك كله فأنت لا ترى على وجهه الملائكى المشرق أى أثر للاضطراب أو الضيق أو ما إلى ذلك ، ويشترك مع قديسنا العظيم فى هذه الظاهرة الرائعة كافة شهداء القبط ، وتستطيع ان شئت ان تعاين ايقوناتهم ورسومهم التى تزخر بها الكنائس والأديرة ، فستجدهم دائماً أبدا فى فيض من الرضى والغبطة والرجاء العتيد .

فلنتأمل قليلاً ...! لعلنا نستطيع أن نردد بايمان ورجاء ، كما فعل أباؤنا الأولون من قبل ، كلمات رسول الجهاد الخالدة « من سيفصلنا عن محبة المسيح أشد أم ضيق أم أضطهاد أم جوع أم عرى أم خطر أم سيف » (رومية ٨ : ٥) .

الاسكندرية فى ٢٤ نوفمبر ١٩٤٨ / ١٥ هاتور ١٦٦٥



رسم تخطيطى لبقايا الكنيستين الأثريتين بمدينة مارمينا الأثرية بمنطقة مريوط



تاج أحد أعمدة الكنيسة الأثرية
للقديس مارمينا العجايبى بمريوط



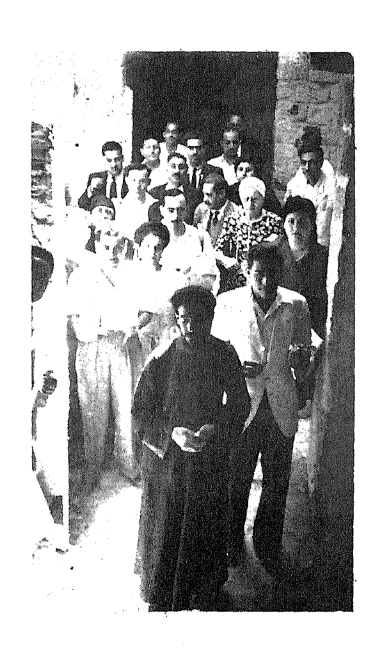
السيد المسيح ومارمينا العجايبي بريشة الفنان رشدى إسكندر ، نقلاً عن لوحة فى متحف اللوفر Louvres بفرنسا ، وقد أهداها إلى العلامة باحث القبطيات الدكتور منير شكرى عام ١٩٨٤ م .

الفصل الخامس

تذكار تكريس كنيسة مارمينا العجايبي
الأثرية بمريوط

فى اليوم الخامس عشر من شهر بؤونة المبارك تعيد الكنيسة تذكار تكريس كنيسة مارمينا العجايبي الأثرية بمريوط . هذه الكنيسة تتكون فى واقع الأمر من كنيستين متلاصقتين بنيت الأولى فوق قبره حوالى عام ٣٥٠ م وفى عهد القديس أثناسيوس الرسولى ، البابا العشرين ، وسرعان ما تبين عدم كفايتها لجموع الزائرين التى وفدت من دانى الأرض وقاصيها ، للتبرك بزيارة قبر القديس القبطى مارمينا العجايبي ، ولالتماس شفاعته فى شفاء أمراضهم . ولذلك قام الامبراطور اركاديوس حوالى عام ٤٠٠ م بتشييد كنيسة أخرى ، فى عهد البابا الثالث والعشرين الأنبا ثاوفيلس ، على أفخم طراز ، ولم يدخر وسعاً فى زخرفتها وتزيينها بالأحجار النادرة ، حتى أتت قطعة رائعة من الفن والجمال . ثم أقيمت بعد ذلك كنائس أخرى وأديرة متعددة ومنازل للغرباء وحمامات عامة ، كان الماء يأتيها من نبع تفجر بجوار قبر القديس ... وغير ذلك . وما لبثت الصحراء المقفرة أن عمرت ، والأرض المجدبة أن أينعت ، وتحولت هذه البقعة بإيجاز إلى مدينة كاملة شاملة ، ظلت كذلك حتى القرن العاشر الميلادى ، حينما تألبت عليها عوامل الشر والتخريب المعروفة ، فأسدلت عليها ستاراً من النسيان ، حتى أتى الدكتور كاوفمان على رأس بعثة أثرية ألمانية خصيصاً للكشف عن هذه المدينة ، فوفق لذلك عام ١٩٠٥ م .

ولكن العجايبي ، الذى انفرد بهذا اللقب دون باقى الشهداء أجمعين ، والذى ذاع صيته فى كافة أرجاء العالم القديم ، حتى ليندر أن تجد أمة مسيحية لم تدشن باسمه إحدى كنائسها ، أرسل منذ ربع قرن مستكشفاً آخر من بنى القبط ، أتى هذه المرة فى مسوح الرهبان ، الذين طالما وطئت أقدامهم هذه البقعة الطاهرة ، لا ليحمى بعض الآثار النفيسة ثم يرحل عنها ، ولكن ليفتح صفحة مجد جديدة لهذا الأثر الخالد ، لعصر المسيحية الذهبى وما زال يسعى بين الجهات المختصة فى القاهرة والاسكندرية ، لتأذن له بالإقامة بين الأطلال ، ليستوحى منها الإلهام الذى يضىء له الطريق لمستقبل أفضل لكنيسته ، حتى



صورة من إحدى الرحلات التي نظمتها جمعية مارمينا العجايبي بالأسكندرية إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط أثناء إقامة شعائر الصلاة عند قبر القديس مينا بمريوط .

دهمته الحرب الثانية الكبرى ، فأضطر القمص مينا المتوحد إلى الذهاب إلى صحراء القاهرة . إذ اعتبرت الصحراء الغربية منطقة عسكرية .

ولكنه ترك شيئاً من روحه فى الأسكندرية عند من كان يتصل بهم ، تزك عند المرحوم الأستاذ بانوب حبشى مفتش آثار الاسكندرية ، إعجاباً خاصاً واحتراماً عميقاً للقمص مينا المتوحد ، فسمى ابنه باسم مينا ، لعل بركة ذلك الراهب الروحانى تشمله فيعيش بعد أن كان أولاده يموتون ، فعاش مينا إلى الآن ، وخلد هذه الصلة بأن إستجاب لرغبة القمص مينا المتوحد فألف مع نفر من صحابه جمعية مار مينا العجايبى لنشر الثقافة التاريخية للعصر المسيحى ، بالمحاضرات والرحلات ، والمؤلفات التاريخية ، التى كان لها صدى عميق فى نفس كل من تصفحها ، وقد ساعدت هذه المؤلفات كثيراً فى نشر الوعى القومى والدينى فيما أعقب ذلك من نهضة علمية واسعة فى المحيط القبطى ، « رسالة مار مينا » أصبحت علماً على لون خاص من الثقافة القومية له مكانته فى الأوساط العلمية .

وها هى الأيام تدور ويجلس على رأس الكنيسة القمص مينا المتوحد باسم البابا كيرلس السادس ، فيسارع إلى إتمام العمل الذى بدأه ، فيطلب من الحكومة حوالى خمسة عشر فداناً بمدينة مار مينا بمريوط لإقامة دير عليها يكون بمثابة مركز دينى ثقافى ، فى تبادل فكرى مع الأسكندرية ، مع من يقصده من السياح وغيرهم ، ونقطة ارتكاز لإعادة مجد تلك البقعة ، مما يعود على البلاد بالخير العميم ، إذ يحيى بذلك بقعة سياحية فريدة فى نوعها ، وفى العصر الذى تمثله ، فالسائح الذى يقصد الصعيد لزيارة آثار للفراعنة ، يتم دراسته فيها عن العصر الذى يلى عصر الفراعنة مباشرة .

أما الناسك والراهب الذى يعيش فيها ، والقبطى الذى يقصدها ، فتظل أمام أعينهم جميعاً ، أثراً تاريخياً خالداً لمجد كنيستهم الغابر والآثار هى الوثائق الصحيحة التى تؤيد التاريخ ، ولعل حديث هذه الآثار إليهم فى صمتها أبلغ كثيراً من المحاضرات والعظات .

فعلى كل قبطى أن ينتهز الفرصة ليحج إلى ذلك المكان المقدس كلما أتيحت له الفرصة ، فى تذكار أعياد هذه الكنيسة ، ليؤدى للشهيد القديس مينا



د. منير شكرى ومجموعة من أعضاء جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية فى إحدى رحلات الجمعية لكنيسة القديس مينا الأثرية بمريوط .

العجايبى ، ذى الثلاثة أكاليل ، الذى اتخذه القبط رمْزاً لشهدائهم وشفيعاً لهم لنقدم ما يجب علينا جميعاً من تكريم لهؤلاء الشهداء فى شخصه ، وليتزود بما يلهمه منظر هذه الآثار من أحاسيس فى قرارة نفسه ، ومن أفكار فى خدمة الكنيسة وما أجمل أن يحضر قداساً فيها يقيمه بابا الاسكندرية ، فيشاهد بذلك يوماً من عهد الآباء أثناسيوس وبطرس وثاوفيلس وكيرلس الكبير وديسقورس وغيرهم من خلفائهم ، ويرجع بذاكراته إلى يوم من أيام مجد هذه الكنيسة ، التى كانت « أشهر وأعظم كنيسة مصرية » و « تحفة من روائع الفن المسيحى » و « مسرة لجميع شعوب مصر » .

وما أجمل أن نحيط جميعاً بطريركنا الأنبا كيرلس السادس ، فى ذلك المكان المقدس الذى كان يقصده الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحى ، ونبتهل من أعماق قلوبنا قائلين : « أيها الرب إله القوات ارجع الآن وأطلع من السماء ، وأنظر وتعهد هذه الكرمة ، أصلحها وثبتها هذه التى غرستها يمينك » ، حقاً لقد آن الأوان لإصلاحها فى هذا العهد المبارك .

(مجلة مدارس الأحد — يونيو ١٩٦٠)







كان الدكتور منير شكرى يهتم كثيرا بشرح معالم كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط للزوار ويتلو عليهم كلمة تاريخية عن تاريخ المنطقة .

الفصل السادس

زيارة كنيسة القديس مارمينا الأثرية بمريوط ٢٥ نوفمبر ١٩٦٠ ــ ١٦ هاتور ١٩٧٧ :

القديس مينا العجايبى وكنيسته

+ ولد مار مينا العجايبى حوالى عام ٢٥٠ م فى بلدة تدعى باليونانية نيقيوس ، وبالمصرية القديمة إبشاتى وبالعربية إبشادى ، وهى حاليا زاوية رزين مركز منوف . ونعلم من بعض مؤرخى العرب فى القرن التاسع أنه كان يقيم فى التقسيم الادارى للدلتا مديرية باسم « مديرية ابيار وجزيرة بنى نصر » وكان أول بلادها ابشادى . كما كانت ابيار تعرف أيضا قديما بنقياوس المدينة ، وكان بها الكنائس الآتية : بيعة السيدة ، وبيعة بيلاطس ، وبيعة فيلوثاؤس ، وبيعة بومينا بحرى الناحية بها قلاية الحبساء ، وبيعة جورجيوس وقد عدا عليها البحر ، وبيعة ميخائيل .
+ كان أبوه أودكسى حاكما لاحد الاقاليم الرومانية غربى مصر .
+ وكان هو جنديا فى الجيش الرومانى ، رفض أن يترك المسيحية إلى عبادة الاوثان فقطع رأسه حوالى عام ٢٩٦ م بعد أن سيم العذاب ألوانا وهو ثابت على الايمان .
+ دفن بإقليم مريوط ، واكتشف راعى غنم بالقرب من ضريحه ينبوع ماء يشفى الأمراض الجلدية المستعصية ، لم يلبث أن ذاع صيته فكان الناس يؤمونه من كل البلاد للاستشفاء ، وكان من بين من شفى ابنة أحد ملوك الرومان ، فأنشأ اركاديوس فى أواخر القرن الرابع كنيسة عظيمة . بدأ عمارتها حوالى عام ٣٩٥ م فى عهد الانبا ثاوفيلس البابا الثالث والعشرين ، وتمت فى عهد الانبا تيموثاوس البابا السادس والعشرين . وهى أقدم كنيسة عرف تاريخ إنشائها بالضبط .
+ وجد بجوار القبر نص « خذ من مياه مينا الطيبة وآلامك لاتلبث أن تزول » .
+ وفى عام ١٩٠٥ أسفرت حفائر كاوفمان عن اكتشاف بقايا هذه الكنيسة

الفخمة ولن تجد فى مصر كلها ــ على الارجح ــ أثراً كهذه البقايا ، تعطيك فكرة صحيحة عن العصر المسيحى .

+ توجد غربى هذه الكنيسة ، كنيسة أخرى أقدم وأهميتها أعظم ، وبأسفلها القبر الذى كان يضم رفات القديس ، وقد بنيت حوالى عام ٣٥٠م، يقع فى الناحية الشمالية لهاتين الكنيستين المؤسسات التى كانت تستعمل للشفاء .

+ كان الزوار يتقاطرون على هذه المدينة المقدسة طلبا للشفاء ، فكانت بمثابة مدينة (لورد) فى فرنسا الآن .

+ كان يوجد أيضا دير كبير فى الناحية البحْرية للكنيسة ، ويعتبر من أكبر المؤسسات الديرية التى عرفتها المسيحية فى القرون الأولى . ووجد به نقوش ترجع إلى أواخر القرن الخامس والسادس . ولدينا هنا مثل لعدد كبير من الرهبان الملحقين بخدمة كنيسة شهيرة كثيرة الزوار ، وربما كانوا مكلفين بالعناية بالمرضى والغرباء الوافدين فى كثرة ، طلبا لشفاعة مار مينا ، وكانوا يقيمون فى قلالى .

+ لم يكن القديس مينا للمرضى فقط ، بل كان راعى القوافل المارة بهذا المكان وشفيعها ، وربما كان ذلك سبب رسم جملين بجانبه .

+ كان لمار مينا ثلاثة أعياد تقع فى التواريخ الآتية : ١٥ هاتور و ١٥ بؤونه وأول أبيب ولكن كان أكبر هذه الأعياد الذى يقع فى ١٥ هاتور .

+ ليس هناك شك فى أن القديس مينا كان له شهرة خاصة بأنه (عجايبى) ، وكان العامل الرئيسى فى هذه العجائب ، تلك القوة الشافية فى (الماء) الذى تفجر بجوار قبره .

+ تمتع القديس مينا بشعبية خاصة ، وكانت شفاعته ترتجى فى كل الشدائد .

+ كان أول نزاع على ملكية الكنيسة بين القبط والملكيين فى عهد الأنبا ميخائيل الأول (٧٤٤ ــ ٧٦٨ م) .

+ فى باباوية يوساب الأول (٨٣٠ ــ ٨٤٩ م) جاء من قبل الخليفة من انتزع الأرضية الرخامية والكثير من التحف والرخام .

+ وفى عام ٨٥٢ م عذب البابا الانبا قزمان وأخذ منه كل دخل الكنيسة .

+ كان آخر ذكر للكنيسة فى عهد باباوية الانبا شنوده (٨٥٩ ـــ ٨٨٠ م) عندما خربها البدو .

+ تبدو آثار كنيسة أخرى بنيت فى القرن التاسع فى مكان الكنيسة القديمة بعد هذه الحوادث ، أما الكنيسة الكبرى فقد يكون قد تم بها بعض الاصلاحات البسيطة .

+ ظل قبر القديس هناك كما نعلم من بعض المصادر ، مثل المؤرخ البكرى ١٠٩٤ م ، الذى كتب عنه فيما كتب (وكان حول الكنيسة الكثير من أشجار الفواكه ، خصوصا أشجار اللوز ذى القشرة الملساء ، وأشجار الخروب التى كانت لفاكهتها وهى خضراء طعم الشهد ، ويصنع منه أنواع الشراب . ويوجد أيضا الكثير من الكروم التى ترسل منتجاتها إلى القاهرة سواء أكانت من العنب أو النبيذ ...
وفى كل عام يرسل (من الفسطاط ؟) بضعة آلاف من الدنانير لهذه الكنيسة .

+ يقول أبو صالح فى كتابه (الكنائس والديارات) انها كانت ماتزال قائمة فى أوائل القرن الثالث عشر ، وكان جسد القديس مايزال بها ، ويبدو أنه نقل إلى كنيسته فى مصر فى منتصف القرن الرابع عشر .

+ توالت بعد ذلك المصائب على الكنيسة ، وتجمعت عوامل الاضهاد الدينى ، وتدهور الكنيسة ، وهجرة سكان منطقة مريوط ، وغارات البدو ، فأسدلت عليها الرمال ستار الصمت والنسيان .

+ ظلت راقدة فى صحراء مريوط ، إلى أن كشف عن بقاياها كاوفمان عام ١٩٠٥ م .

+ ظلت المخطوطات القبطية التى تعطينا معلومات عن هذه الكنيسة وسيرة القديس ناقصة حتى عام ١٩١٠ م،عندما حدث اكتشاف هام سد هذا النقص ، إذ عثر الفلاحون أثناء حفرهم فى كوم سباخ فى جهة الحامول بالفيوم على مكتبة كاملة لأحد الأديرة القديمة ، تحتوى على نحو ستين مجلداً من المخطوطات القبطية ، وكان أحدها خاصا بالقديس مينا ، كما كان جزء من كل من مجلدين آخرين مخصصا له وكانت هذه المجلدات الثلاثة الاصل فى كل ماستجد لدينا من معلومات عنه . وقد استولت على معظم هذه

المخطوطات مكتبة بيربونت مورجان Pierpont Morgan بنيويورك . وقد أرسلت صوراً فوتوغرافية منها إلى أهم مكتبات العالم ، وكان من حظ المتحف القبطى أن حصل على مجموعة من هذه الصور . وأهم هذه المجموعة سيرة لمار مينا كتبها يوحنا رئيس أساقفة الاسكندرية ويرجع تاريخها إلى حوالى ۸۹۲ أو ۸۹۳ م .

مختصر لأهم الحوادث فى تاريخ كنيسة مارمينا بمريوط

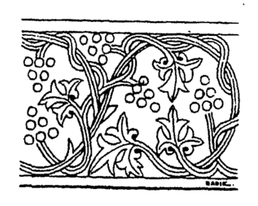
مرتب ترتيبا زمنيا

الامبراطور	بابا الاسكندرية	الحوادث
قسطنطين (٣٠٦ـ٣٣٧م)	....	بناء الكنيسة الأولى (؟)
جوليان (٣٦٣ـ٣٦٤)	اثناسيوس (٣٢٦ـ٣٧٣)	بناء الكنيسة الثانية (؟) أو كنيسة اثناسيوس
فالانس (٣٦٤ـ٣٧٨)	....	تكريس الكنيسة الثانية (؟) أو كنيسة اثناسيوس
اركاديوس (٣٩٥ـ٤٠٨)	ثاوفيلس (٣٨٥ـ٤١٢)	بناء الكنيسة الثالثة أو كنيسة أركاديوس
زينو (٤٧٤ـ٤٩١)	تيموثاوس (٤٥٧ـ٤٧٧)	هبات للكنيسة ـ ظهور مدينة حولها ـ وضع حامية خاصة
انستاسيوس (٤٩١ـ٥١٨)	....	عمل تسهيلات للحاج فى طريقهم إلى الكنيسة
	الانبا ميخائيل الاول (٧٤٣ـ٧٦٧)	خلاف على ملكية القبر
	الانبا يعقوب (٨١٩ـ٨٣٠)	انقطاع الحجاج بسبب الحروب
	الانبا يوساب الأول (٨٣١ـ٨٤٩)	انتزاع أرضية الكنيسة وبعض النفائس
	الانبا قزمان (٨٥١ ـ ٨٥٨)	مصادرة إيراد الكنيسة
	الانبا شنوده (٨٥٩ ـ ٨٨٠)	تخريب الكنيسة
	الانبا كيرلس السادس (١٩٥٩ ـ سنين عديدة)	نهضة عمرانية فى مدينة مار مينا بمريوط

وستضيف الأجيال المقبلة لهذا الجدول اسم قداسة البابا كيرلس السادس ، أطال الله حياته ، بعد أن انقطعت صلة الباباوات بكنيسة مار مينا العجايبى ، منذ القرن التاسع ، وستذكر أنه لم يرض بأن يظل القبط قانعين بأن يقفوا فى القرن العشرين أمام تلك الآثار العظيمة ، مكتوفى الأيدى ، مرددين إعجابهم بأمجاد الماضى ، وبما فعل آباؤهم ، بل تقدم الصفوف بروح جهاد أثناسيوس وعزيمة ثاوفيلس ، يحاول أن يرفع الغبار بيده المباركة عن صفحات مضيئة مشرقة فى تاريخنا ، وأن يعيد إقامة مؤسسة ديرية عظيمة ، كانت هي وأخواتها مثار إعجاب العالم ومحجا عالميا ، جاعلا منها شعلة تضيء فى ذلك المكان لكل من يحاول استجلاء معالم الماضى المجيد ، وعنوانا على روحه البناءة ونظرته العميقة .

وها هو أمله يتحقق ، وشرع فى التمهيد لإقامة ذلك الصرح العظيم ، وواجبنا نحن أبناءه أن نستلهم من تلك الروح ، وأن يضع كل منا حجراً فيه ، فنكون قد قمنا نحو كنيستنا بما قام به آباؤنا ، ونترك للأجيال المقبلة مثلا يحتذى .

فى مثل هذه الأيام بذل مار مينا العجايبى وأخوانه دماءهم فى سبيل الكنيسة فلنجعل من هذه الذكرى حافزاً لنا على البذل والجود فى كل ما من شأنه رفعة شأنها ، وكل عام وأنتم بخير .





قداسة البابا كيرلس السادس يضع بيده المباركة حجر أساس الدير الحديث للقديس مينا العجايبي بمريوط فى ١٧ هاتور ١٦٧٦ ش ــ الجمعة ٢٧ نوفمبر ١٩٥٩ م . وقام بكتابة اللوحة التذكارية لحجر الأساس بخطه البديع طيب الذكر الاستاذ بديع عبد الملك غطاس عضو جمعية مارمينا العجايبي بالأسكندرية .

الفصل السابع

دير أبو مينا
١٩٦٠

(١) تحتفل كنيسة الأسكندرية فى اليوم الخامس عشر من شهر هاتور (نوفمبر) بذكرى إستشهاد القديس القبطى العظيم شفيع مسيحيى مصر والذى إنفرد بلقب العجايبى .

(٢) بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة قام راهب يدعى (مينا البرموسى المتوحد) يحرك أبناء الكنيسة نحو نهضة روحية ثقافية بأسلوب يجد صدى فى نفوس الأجيال الحديثة فى عصر العلم والنور ، والذى إنتشر فيه الشك يزعزع الإيمان فهداه تفكيره إلى جذب الأنظار إلى أثار مدينة فسيحة فى الصحراء الغربية على بعد نحو خمسين كيلو متراً غربى مدينة الأسكندرية يرقد معظمها تحت الرمال ، والآثار هى وثائق التاريخ . كانت هذه المدينة أول محج عرف فى العالم المسيحى ، وكان القديس مينا من أشهر شهدائنا ، وكانت له شعبية تفوق الوصف طوال قرون عدة ، وكانت جموع غفيرة من الحجاج تُقبل من جميع أنحاء العالم المسيحى إلتماساً للعجائب والمعجزات التى كانت تجرى على قبره والتى كرم بها الرب قديسه ، فساهم أسمه فى ذلك التراث الروحى العريض لكنيسة الأسكندرية .

(٣) وكان يود لو أقام فى قلاية فى تلك البقعة وسعى لأجل التصريح بذلك . ولكن كانت مريوط لا تزال منطقة عسكرية فلم تتحقق أمنيته .

(٤) ولكن لم يلبث إسم مار مينا العجايبى أن صار عنواناً لتلك النهضة الروحية الثقافية التى إجتاحت الكنيسة فى الربع قرن الأخير .

(٥) وتدور الأيام ونفاجأ بإحدى معجزات العجايبى ، إذ جلس القمص البرموسى المتوحد على كرسى مار مرقس بابا للأسكندرية ، فكان أول ما إتجه إليه فكره أن يعطى لتلك النهضة دفعة قوية أخرى ، ورنا ببصره

إلى مدينة العجايبي يرجع إليها بعض ما كان لها من شهرة وتقديس ، فأقام ديراً عظيماً يحوى كاتدرائية وبضعة كنائس ومنزلاً للرياضة الروحية للشباب ، وإذا بالجموع تُهرع مرة أخرى بعد أكثر من أحد عشر قرنا لتتبرك بالقديس العجايبى ولقضاء فترة فى التأمل وتثبيت الإيمان .

(٦) لا شك أنه قام بنهضة روحية عندما أزاح بيمينه ستار النيسان عن تلك المدينة التى تحكى الكثير عن المسيحية فى عصرها الذهبى فى مصر ، كما قام بخدمة للتاريخ وللمسيحية عامة ولأبناء كنيسته فى الحاضر والمستقبل ، ولقد أثمرت لفتته وأثبتت الأيام بعد نظره وصدق فراسته . وها هي اليونسكو إعتبرت آثار مدينة مار مينا العجايبى تراثاً قومياً مسيحياً .

(٧) تبلغ مساحة الدير ١٣٠ فدان ، ويعمل الرهبان بالشئون الزراعية فيه ، وعددهم بلغ عشرين راهباً فى هذه الأيام ، وبه مكتبة فيها أكثر من ألف كتاب .

(٨) وقد وضع قداسة البابا كيرلس السادس حجر الأساس لإقامة دير الشهيد مار مينا العجايبى يوم الجمعة ٢٧ نوفمبر ١٩٥٩ ، وبدأ بذلك عهداً جديداً لتاريخ بومينا وتاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية إذ جعله رمزاً خالداً لتلك النهضة الروحية التى صاحبت عهده . وفى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٠ أقام كنيسة بإسم القديس صموئيل ، ثم نقل رفات القديس مينا من دير مار مينا بمصر القديمة حيث كانت محفوظة فى أنبوبة إلى الدير الجديد .

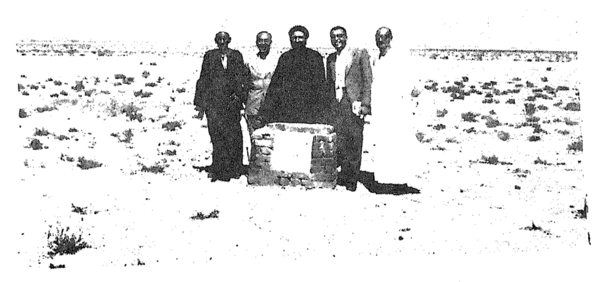
(٩) وفى عام ١٩٦١ وضع أساس كاتدرائية كبيرة تتوسط هذا الدير ومازال العمل جارياً لإتمامها فى أيامنا هذه .

المصادر

(دير الشهيد العظيم مار مينا العجايبى بمريوط) للدكتور منير شكرى .
(كتب للنشر فى الموسوعة القبطية)



القداس الإلهى الذى اقيم فوق أطلال الكنيسة الأثرية للقديس مينا العجايبى بمريوط ورأسه قداسة البابا كيرلس السادس بمناسبة وضع حجر أساس الدير الحديث للقديس مينا العجايبى بمريوط يوم الجمعة ٢٧ نوفمبر ١٩٥٩ م ــ ١٧ هاتور ١٦٧٦ ش ويرى الدكتور منير شكرى وهو يلقى نبذة تاريخية عن منطقة مارمينا الأثرية بمريوط .



د. منير شكرى مع المتنيح القمص يعقوب البراموس وكيل البطريركية بالاسكندرية (نيافة الانبا لوكاس مطران كرسى منفلوط فيما بعد) وبعض الزوار أمام حجر أساس الدير الحديث للقديس مينا بمريوط يوم الجمعة ٢٧ نوفمبر ١٩٥٩ م .



جمعية مار مينا العجايبى

بالاسكندرية

هدية من الجمعية

بمناسبة رحلتها إلى كنيسة مار مينا العجايبي الاثرية

بمريوط

ووضع لوحة تذكارية

بيد قداسة البابا المعظم الانبا كيرلس السادس



آنية فخارية كان يملأها زوار كنيسة مار مينا من الماء المقدس المتفجر بجوار القبر

ويحملونها للمرضى

٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٩

صورة قامت جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية بتوزيعها بمناسبة وضع حجر أساس الدير الحديث للقديس مينا العجايبى بمريوط عام ١٩٥٩ م .

الفصل الثامن

الأحتفال بوضع حجر أساس كنيسة الدير الجديدة بمريوط
١٥ هاتور ١٦٧٨ ــ ٢٤ نوفمبر ١٩٦١

القديس العجايبى

كان مارمينا فى مقدمة أولئك الأبطال الذين وصلت إلينا اسماؤهم ، فكانوا بمثابة معالم الطريق الذى سلكته المسيحية ، وإنهم لودوا لو أننا تركناهم يرقدون فى صمت ونسيان ، لولا أن الجماعات كان تقدر بطولتهم فتدفنهم فى اكبار واحترام وتتناقل أخبارهم . ولكن ذاكرة الجماهير كثيراً ماتخونها أو هى لا تحفظ إلا الأشياء البسيطة ، فليس إذن من العسير إيجاد تفسير للمعلومات الشحيحة التى وصلت إلينا عن حياة مارمينا العجايبى ، بل عن جميع شهداء ذلك العصر ، والتى كانت تنحصر غالبا فى اسم البطل مقروناً بلقب شهيد واسم البلدة التى استشهد فيها ، خصوصا إذا راعينا عددهم الذى كان يقدر بعشرات الألوف .

ولد مارمينا فى النصف الأخير من القرن الثالث الميلادى ، فى تلك الفترة التى حاولت فيها الوثنية أن تقف وقفة أخيرة أمام سيل المسيحية الجارف ، فأخذت الأباطرة ثورة جنونية على المسيحية وعلى كل ما يمت اليها بصلة ، مستعملين فى هذا السبيل شتى الوسائل الوحشية . ولد من أبوين مسيحيين من طبقة الحكام ، فى بلدة تدعو باللغة اليونانية (نقيوس) ، وتشترك فى هذا الاسم بلدتان (الأولى) تلك البلدة التى تعرف الآن بزاوية رزين بمركز منوف (والثانية) ناحية أبيار حيث توجد إلى الآن كنيسة أثرية تحمل اسمه بقيت من ست كنائس كانت تعمر هذه الجهة . ونرجح ناحية أبيار ، وأبيار إسم عربى جمع بئر ، واسم البلدة باللغة القبطية (هاهنشى) أى أبار .

وكعادة الأشراف فى ذلك الوقت دخل ضابطا فى الجيش الرومانى ، ولكن الاضطهاد وتربيته المسيحية حببا إليه عيشة العزلة فى الصحراء مثله فى ذلك مثل أبطال النسك والرهبنة فى عصره أمثال باخوميوس الذى كان جنديا رومانيا أيضا ومكاريوس ولكن مالبث أن نزل إلى المدن حيث شعر أن الواجب يدعوه

ليواسى المكروبين ويشدد عزائم الضعفاء ، كما فعل أيضا الأنبا انطونيوس . وهناك قبض عليه بوصفه ضابطا سابقا فى جيش الامبراطور ، وتسلمه أعوان الشر وأبالسة الجحيم الأرضى لينكلوا به ماشاءت لهم وحشيتهم ، فلم يتحول عن عقيدته قيد شعرة ، وانتهى الأمر باستشهاد رائع عظيم ، ضُرب فيه عنقه ، تقبله بفرح الخلاص القريب والرجاء العتيد فى ثقة وهدوء واطمئنان .

أما مكان الاستشهاد فنرجح أن يكون الاسكندرية ، وأما التاريخ ففى أواخر حكم دقلديانوس أو أوائل حكم خلفه مكسيميان (بين ٢٩٦ ، ٣٠٥ م) وأراد رفاقه أن ينقلوا رفاته إلى مكان خاص بعيد عن الأعين ، فنقلوه على جمل إلى إقليم مريوط ، وهناك فى مكان يبعد قليلا عن ضفاف البحيرة القديمة برك الجمل الذى كان يحمل الرفات الثمين ، فظنوه متعبا وأبدلوه بغيره فأبى هذا السير أيضا ، فأدركوا أخيراً إنها إرادة الرب أن يكون مثوى قديسه مينا فى هذه البقعة بالذات . ويعزو بعض العلماء إلى ذلك الحادث رسم القديس عادة بين جملين راكعين ، بينما يعزوه البعض الآخر إلى أنه كان حاميا للقوافل الصحراوية المارة قرب قبره فى طريقها من الاسكندرية إلى سيوه وبرقه وبالعكس .

القبـــر

أهم مافى تاريخ مارمينا العجايبى هى تلك الشهرة العالمية التى اكتسبها قبره بسرعة والتى جذبت اليها حجاج من جميع العالم المسيحى فى العصور الوسطى ، وكان من جرائها ليس فقط بناء كنيسة فوقه كانت مفخرة مصر ، بل أيضا بناء كنائس باسمه فى آرل بفرنسا وفى كولونيا بألمانيا ، وفى روما بإيطاليا عام ٥٨٩ م بين باب أوستا وكنيسة القديس بولس ، وقد بنى بجوار الكنيسة مستشفى للمرضى وكان الاسكندريون الذين يقصدون روما لمعاملات تجارية يتخذونه مركزاً دينيا لهم . وقد عثر على وثيقة فى مرسيليا تثبت أن الفرنسيين كانوا يطلقون اسم مينا على أبنائهم تيمنا باسم الشهيد المصرى العظيم .

وتؤيد هذه الشهرة المخطوطات وتؤكدها المجموعات الأثرية المنتشرة فى كل مكان وأهمها :

أولا ـــ تلك القنانى الكثيرة المصنوع أغلبها من الفحار ، والتى كان حجاج أبو مينا يعودون بها مملوءة من المياه الشافية أو الزيت المقدس . لقد وجدت هذه القنانى فى أمكنة متباعدة من كولونيا فى المانيا شمالا ، إلى دنجلا فى السودان جنوبا ، ومن مرسيليا فى فرنسا غربا إلى اورشليم شرقا . ويوجد منها الكثير فى متاحف أوربا ، وفى المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية المئات منها .

ثانيا ـــ تلك النصوص التاريخية بمختلف اللغات ، التى تتحدث عما كان يتمتع به قديسنا من شهرة ، وماجرى على قبره من عجائب ، وأهمها من الوجهة التاريخية :

١ ـــ مخطوطات باللغة النوبية والحبشية نشرها بادج (Budge) امين القسم المصرى فى المتحف البريطانى عام١٩٠٢م فى مؤلف خاص .

٢ ـــ مخطوطات قبطية وجدت ضمن بقايا مكتبة أحد الأديرة فى جهة الحامولى بالفيوم عام١٩١٠م بينما كان بعض الفلاحين يأخذون سباخا من أحد التلال . لقد وجد وقتئذ ستون مجلدا وكان أحدها مخصصا لتاريخ مارمينا فقط ولعجائبه ، وكذلك جزء من كل من مؤلفين آخرين . وقد أخذت جميعا إلى مكتبة بيربونت مورجان Pierpont Morgan بنيويورك .

٣ ـــ تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع ، ويمدنا على الأخص بأخبار عن المدة التى تلت الفتح العربى :

ثم لدينا أخيراً وليس آخراً .

مدينته الصحراوية العجيبة

التى لا تزال أثارها قائمة بمنطقة مريوط تنطق بما كانت عليه من روعة ورهبة ، وكانت تعرف أحيانا باسم المدينة الرخامية وأحيانا أخرى باسم المدينة العجيبة ، وإنه لعجيب حقا أن تقوم مدينة من الرخام الخالص فى قلب الصحراء ! . وأن تتحول الرمال القاحلة إلى مبان شاهقة تحوطها الحدائق والكروم اليانعة ! .. وأن يتفجر فى الصخر الصلد ينبوع ماء عذب يشفى النفوس والأبدان ! .. ثم أليس عجيباً أيضا ألا يتبقى من كل ذلك المجد الغابر

سوى أثار دارسة وأطلال خربة ! .. ولعل مما يدعو لمضاعفة الأسى أن العالم الأثرى الذى كشف عن بقايا هذه المدينة منذ نحو خمسين سنة قد أظهر منتهى أسفه وتألمه لما أصابها من النهب والتخريب على يدى ولاة العرب ، ولكنه تناسى ذلك عند عودته لبلاده فجمع كل ما أمكنه جمعه من آثارها الثمينة وملأ بها مائة صندوق كبير عاد بها إلى المانيا حيث لا تزال حتى وقتنا هذا .

الكنيسة

بنيت ثلاث كنائس فوق قبر مارمينا ، وكانت الأولى منها عبارة عن مقصورة ذات أربعة أعمدة بنيت فوق القبر مباشرة ، ولكن لم تلبث أن أحاطت بها كنيسة أكبر يبلغ طولها ٣٨ متراً وعرضها٢٢,٥ متراً ، تسمى كنيسة أثناسيوس إذ بناها ذلك البطريرك . وفى الجانب البحرى لهذه الكنيسة سلم رخامى كبير يؤدى إلى قبر مرتفع قد بطنت جوانبه بالرخام ، ويحيط به مسارج ثمينة موقدة ليلا ونهاراً ، وعلى ضوئها كان القبر يرى من صحن الكنيسة من أعلا . وكان فى الحائط القبلى للقبر لوحة رخامية مثبتة عليها رسم بارز يمثل القديس مينا بين جملين راكعين . وعلى بعد قليل من الجانب الغربى للكنيسة توجد المعمودية وهى منفصلة عنها تماما مما يجعل لها أهمية خاصة ، إذ لا يوجد بمصر معمودية أخرى منفصلة عن كنيستها ، وفى وسطها حوض مستدير يؤدى إليه سلمان متقابلان يتكون كل منهما من أربع درجات .

كنيسة أركاديوس

قام ببناء هذه الكنيسة الأنبا ثاوفيلس البطريرك الثالث والعشرون فى عهد الأمبراطور أركاديوس (٣٩٥ ــ ٤٠٨ م) ، وتقع شرق كنيسة أثناسيوس ، شيدت بالرخام الخالص تقريبا ، ولم يدخر وسعا فى تزيينها بالألوان الزاهية والزخارف البديعة وقطع الفسيفساء المذهبة مما أثار إعجاب المؤرخين القدامى فهى عندهم « أجمل وأعظم وأشهر كنيسة فى مصر » و « مفخرة ليبيا » و « تحفة من روائع الفن المسيحى » ولا ريب أننا لن نجد بين مخلفات العصر البيزنطى فى طول البلاد وعرضها أثراً كهذا ، يصور لنا كثيراً من مظاهر الحياة الدينية والمدنية فى صعيد واحد ، فضلا عما أمدنا به من معلومات قيمة عن

تاريخ الفن والحضارة فى القرون المسيحية الأولى ، خصوصا فيما يتصل بالاسكندرية .

والكنيسة مبنية على الطراز البازيليكــى ، ويبلغ طولها ٦٠ متراً وعرضها ٢٦,٥ متراً وكان السقف يرتكز على ٥٦ عاموداً فى صحنها جميعها من الرخام ، وإذا تخيل المرء هذه الأعمدة قائمة فى مواقعها كما كانت منذ قرون ، وقد زينت تيجانها بالألوان الزاهية وبقطع الفسيفساء المذهبة ، وانعكس بريق هذه جميعا على جدران الكنيسة المبطنة بالألواح الرخامية ، وعلى أرضيتها الرخامية أيضا أمكنه أن يكوّن فكرة تقريبية عما كانت عليه هذه الكنيسة من ثراء فنى عريض ، حتى وصفت بحق بأنها « تضاهى هيكل سليمان » ، أما الأبواب الخارجية فتوجد فى الجانب القبلى وتفتح على فناء متسع مرصوف بالرخام كذلك .

الاديــرة

هذه مؤسسة ديرية متسعة جداً ، بل لعلها أكبر مؤسسة من نوعها فى العالم المسيحى القديم ، وتقع بحرى الكنيسة القديمة وعلى اتصال مباشر بها . ومع أنه لم يكشف سوى عن جانب منها فقط ، إلا أنه يكفى لاعطائنا فكرة عن نظام حياة الرهبان وعن ترتيب القلالى وعن قاعة الطعام حيث كانوا يتناولون وجباتهم المشتركة . وهناك حجرات مخصصة للضيوف ... الخ . وقد كتب بعض الرهبان أسماءهم على جدران القلالى التى كانوا يعيشون فيها ، مما ساعدنا على تحديد تاريخ هذه المؤسسة فيما بين القرنين الخامس والسادس للميلاد .

ويحتمل أنه كان من واجبات هؤلاء الرهبان أو بعضهم العناية بالمرضى الوافدين على مدينة « أبو مينا » التماسا للشفاء .







قداسة البابا كيرلس السادس فى أحد القداسات الإلهية التى أقيمت بمنطقة مارمينا الأثرية بمريوط وهو يستمع الى الكلمة التاريخية التى يلقيها د. منير شكرى . ويرى فى الصورة العليا الشماس سليمان رزق تلميذ قداسة البابا كيرلس السادس (نيافة الأنبا مينا آفامينا) يقف فى أقصى اليسار بالصورة .

الفصل التاسع

زيارة غبطة البابا كيرلس السادس
إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط

سيدى قداسة البابا

فى هذا اليوم المبارك الذى تعيّد فيه الكنيسة ذكرى تكريس بيعة كانت أعظم وأثمن تحفة فى حيازة كرسى الإسكندرية .

فى هذا اليوم الذى تخلدون فيه أيضاً ذكرى أسلافكم العظام الذين وطئت أقدامهم هذه البقعة الطاهرة ، بإتباعكم تقليدهم فى الحضور على رأس الحجاج للإحتفال به ، يحق لنا أن نفرح ونبتهج بفضلكم فرحاً مضاعفاً ، فلم نعد نكتفى بالقول بأنه كانت هنا كنيسة فخمة وكان هنا دير عظيم ، فعيوننا تكتحل اليوم بمنظر كنائس تقام ودير يشيد .

إخوتى الأعزاء

كانت الصحراء الغربية ، منذ القدم ، ومنطقة مريوط بالذات ، موطنا للنساك والمتعبدين وكل من رام تطهير النفس وعلاجها من أدوائها وأسقامها . ولذلك أختار أسلافنا فيما إختاروا هذه البقعة لإقامة مؤسسة ديرية فخمة ذات طابع خاص ، إذ سرعان ما إشتهرت أيضاً بعلاج الأجسام من أوجاعها وألامها .

ومنذ القرن العاشر أسدل على هذا الدير وكنيسته ستار النسيان ، إذ خرب وتهدم وطوته الرمال ، ولكن كنيستنا المجاهدة ظلت تذكرها وتحتفل بمثل هذا اليوم سنوياً ، وظل المؤمنون يسمعون ما يُتلى عليهم فى تسليم وإستلام ، إلى أن جاء اليوم الذى وجد فيه السنكسار صدى له فى بعض النفوس فحركها لاستعادة مجد ضائع ، ومن حسن الحظ أن كان على رأسهم قداسة البابا كيرلس السادس الذى كان له نظرة خاصة لهذا المكان منذ عشرات السنين ، وها هو اليوم ببعد نظره وواسع أفق تفكيره يعيد لهذا المكان شهرته فيقيم ديراً يتفق وعصرنا هذا الذى بلغت فيه الاختراعات حداً يخلب الألباب وعم النفوس فقر

روحى شديد ، ديراً يغنى الناسك المتعبد عن التفكير فى احتياجاته الجسدية ، ولا يجعله يشعر بانتقاله من الوسط الذى تعوده إلا بمقدار بعده عن صخب المدن وضوضائها ، أنه يهيىء هذا المكان الهادىء المريح فى بقعة كل ما فيها يدعو إلى التأمل والانسكاب الروحى لكل شاب تتوق نفسه إلى حياة الرهبنة فى جميع الأجيال المقبلة ، بعد أن قاسى وهو متوحد شر وأهوال حياة بدائية فى مغارات برية شيهات ، ثم على تلال المقطم بين أنقاض طاحونة أثرية متهدمة . وكأنى به القديس باخوم أب الشركة الذى بعد أن ذاق قسوة الحياة النسكية وخشونتها على يدى بلامون سبع سنوات ، عز عليه أن ينعدم الإقبال يوماً ما على هذه الحياة الملائكية لشدة صرامتها ، إذ كان الشيوخ يصدون كل من يقبل إليهم ليتتلمذ عليهم ، فآلى على نفسه أن يضع نظاماً سهلاً مبسطاً يقبل عليه الضعفاء قبل الأقوياء ، فأنشأ نظام الشركة .

وكان أول خبر نشر عن مجهود القمص مينا المتوحد ، هو ما تضمنه مقال نشر فى مجلة صهيون فى العدد السابع الصادر عام ١٩٤٣ م عن كنيسة القديس مارمينا فى مريوط ، جاء فيه ما يلى « وفى هذه الأيام قام أحد الرهبان وسعى بإجتهاد فى الحصول على تصريح من مصلحة الآثار ليسكن بالدير المذكور ، فتحصل على خطاب من سعادة مرقس باشا سميكه ، مدير المتحف القبطى لمدير الأثار ، وأخيرا توجه إلى الاسكندرية ، وبمساعدة حضرة الفاضل القبطى الغيور بانوب أفندى حبشى مفتش الأثار بالاسكندرية ، وقدم طلبا لمدير الأثار بالاسكندرية ، فوافق على تحويل الأوراق للمدير العام بمصر للموافقة ، ونحن نتوسل إلى الله أن يساعده ويتم تجديد هذا الدير فالواجب يحتم على أبناء الطائفة القبطية الأرثوذكسية بأن يهتموا بهذا الدير » .

هذا المسعى من قبل القمص مينا المتوحد ، كان فى واقع الأمر إيذانا بنهضة ثقافية شاملة فى المحيط القبطى ، كان من أهم معالمها أن تألفت جمعية مارمينا العجايبى برآسة المرحوم الأستاذ بانوب حبشى ، متخذة من إسم مارمينا رمزا لشهداء وقديسى مصر الذين قامت تحيى ذكراهم ، وملهما لجهادها فى سبيل نشر الثقافة التاريخية للكنيسة الذى مازال صداه يدوى إلى الآن ، وتلفتت مصلحة الآثار فقامت لأول مرة فى تاريخها بعمل حفريات وترميمات فى هذه

الكنيسة ، وبُنيت فى الاسكندرية ولأول مرة منذ قرون كنيستان باسم مارمينا العجايبى ، وجاهدت الجمعية فأحضرت من أعظم كنيسة فى المسيحية أربعة أعمدة من المرمر بقواعدها وتيجانها ، وقام مشكورا بمجهود جبار فى نقلها القمص منصور البراموسى ، (الأنبا إيساك الآن) الذى كافأه الرب بجزاء حسن لما قدمت يداه ، والخواجا منصور قلاده انطون بالتعاون معنا[1] .

واليوم سيسعد زوار تلك البقعة الطاهرة ، بأن تكتحل عيونهم برؤية ثمرة جهاد ربع قرن ، لإحياء معالمها وإرجاع مجدها ، وبعد أن كانوا يشاهدون فى المرات السابقة بقاياها الأثرية فقط ، فسيشاهدون اليوم بجانبها أثراً آخر يترجم عن عمق الإيمان وبعد النظر وقوة العزيمة وحسن الإدراك ، وهو الدير الذى يقيمه قداسة البابا كيرلس السادس ، رمزاً للدير القديم وإحياء لذكراه ، وليكون صرحاً خالداً للحياة الروحية فى هذا المكان الجليل ، يتعهده تلاميذ آباء البرية ، وهكذا يُرجع إلى الحياة إحدى المعالم الشهيرة لكنيسة الإسكندرية فى أيام عصرها الذهبى ، وهو مظهر آخر لتلك الرغبة الملحة التى تجيش فى صدر قداسته لإرجاع مجد كنيسته وإظهار معالمها التى اشتهرت بها ، وحلقة أخرى تضيفها عزيمته البناءة إلى سلسلة إنشاءاته .

انها حقاً لنعمة من نعم العلى القدير على كنيستنا أن اختار لها رئيساً يحب البناء والتعمير — البناء بكل مظاهره المادية والمعنوية — ليقودها فى تأن وحزم وبخطى ثابتة إلى بر الأمان وإلى طريق المجد ، أطال الرب حياته وثبته على كرسيه سنين عديدة وأزمنة مديدة ، حتى يبنى ما تهدم من أسوار أورشليم ، كنيسته الأرثوذكسية وبركة صلوات الشهيد العظيم القديس مينا العجايبى وصلواته تكون معنا جميعاً وكل عام وأنتم بخير ،

(١) كان طيب الذكر منصور قلادة أنطون أول رئيس للجنة كنيسة مارمينا العجايبى بفلمنج ، وقد لعب دوراً هاما فى مختلف مراحل بناء هذه الكنيسة ، وكان من رجال الأعمال البارزين فى ثغر الإسكندرية .



قداسة البابا كيرلس السادس أمام المبانى الجديدة لدير القديس مارمينا بمريوط



د. منير شكرى يلقى كلمة تاريخية عن منطقة مارمينا الأثرية بمريوط بكنيسة السيدة العذراء بالدير الحديث للقديس مينا العجايبى بمريوط فى إحدى رحلات الجمعية للدير



د. منير شكرى مع الزوار فى إحدى الرحلات التى نظمتها جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط

جمعية مار مينا العجايبي

بالاسكندرية

زيارة كنيسة مار مينـــا العجايبي الأثرية بمريوط

تعتزم الجمعية بمشيئة الله القيام برحلة إلى آثار هذه الكنيسة العظيمة التي يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الرابع والتي ظلت محجا عالميا شهيرا قرابة الستة قرون إلى أن تألبت عليها الحدثان . وبذلك تتيح لأعضائها ولأصدقائهم فرصة فريدة ليلمسوا بأيديهم نفية من أمجاد الماضي فيتزودوا منها لحاضرهم ومستقبلهم

وستكون هذه الرحـلة طبقا للبيانات الموضحة فيما بعد :

أولا ـــ برنامج الرحـلة :

تبدأ الرحلة من فناء كنيسة مار مينا العجايبي بفلمنج ، الساعة السابعة والنصف صباحا بالضبط ، يوم الجمعة ٢٢ يونيو سنة ١٩٥٦ ، لتكان الوصول والساعة الثامنة صباحا من فناء الكنيسة المرقسية لسكان البلدة ويستقل المشتركون أوتوبيسا خاصا إلى كنيسة مار مينا العجايبي بمريوط فيصلونها حوالي الساعة العاشرة صباحا ، وهناك يحضرون صلاة شكر ، ويستمعون إلى كلمة عن تاريخ الكنيسة ثم يشاهدون آثارها . على أن تكون العودة إلى الاسكندرية بمشيئة الله حوالي الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم نفسه ، بعد زيارة برج العرب وأبو صير في طريق العودة .

ثانيـاً ـــ الاشتراكات :

١ ـ عدد المشتركين محدود وهو مقدر مبدئيا بثلاثين شخصا ، والأفضلية للأسبق في طلب الاشتراك ، وإذا زاد عدد طالبي الاشتراك إلى نحو الستين يصح قبولهم جميعا والتوصية على أتوبوس آخر .

٢ ـ قيمة الاشتراك ثلاثون قرشا (٣٠) للشخص الواحد مهما كان سنه ، ولأعضاء الجمعية عشرون (٢٠) أما الأعضاء الذين لديهم وسائل انتقال خاصة ، فيدفعون خمسة قروش (٥) لكل شخص على ألا تتحمل الجمعية مسئولية انتقالاتهم

٣ ـ تقيد أسماء المشتركين ، وتدفع الاشتراكات بالكامل مقدما للسيد وكيل الجمعية ومنظم الرحلة الدكتور منير شكرى بشارع سعد زغلول رقم ٥٩ (تليفون ٢٠٠٢٠)

٤ ـ تحدد موعد قبول الاشتراكات فيما بين يومي ١٥ ، ١٧ يونيو الجارى ، ويجوز قفل باب الاشتراك قبـل ذلك إذا تكامل العـدد المطلوب .

ثالثـاً ـــ بيـانات أخرى :

١ ـ ستلقى على الأعضاء كلمة تاريخية في موضوع هذه الزيارة .

٢ ـ على كل مشترك أن يتزود بما يكفيه شخصيا من طعام وماء .

٣ ـ لزيادة الاستيضاح يتصل بالدكتور منير شكرى بعنوانه المشار اليه عاليه

والجمعية ، إذ تنظم هذه الرحلات باذلة غاية الجهد لفائدة أعضائهم وراحتهم إلى أقصى حد مستطاع ، لتتطلع إلى حضراتهم بكامل الثقة والرجاء ، داعية الجميع إلى معاونتها على تحقيق الفائدة المرجوة ، بالتقيد بالبيانات السابقة بكل دقـة واتباع إرشادات المشرف على هذه الزيارة المباركة إن شاء الله ؟

الاسكندرية في ٩ يونيو سنة ١٩٥٦ — وكيل الجمعية

دكتور منير شكرى

مطبعة النهضة ومكتبتها ٢٦ شارع ...

صورة للإعلان عن رحلة نظمتها جمعية مارمينا العجايبي بالاسكندرية إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط عام ١٩٥٦ م

الفصل العاشر

البابا كيرلس السادس يبعث تراث الشهيد مار مينا العجايبى

تحتفل كنيسة الاسكندرية فى اليوم الخامس عشر من شهر هاتور، الرابع والعشرين من نوفمبر، بذكرى استشهاد القديس القبطى العظيم شفيع مسيحى مصر والذى انفرد بلقب العجائبى . والفضل فى لفت الانظار وتوجيه الافكار الى الاحتفال بهذه الذكرى احتفالا خاصا منذ أكثر من ربع قرن انما يرجع إلى راهب مصرى متوحد فى ذلك الوقت كان يدعى « مينا البرموسى المتوحد » . لقد أراد هذا الراهب بثاقب فكره أن يحرك أبناء الكنيسة نحو نهضة روحية ثقافية بأسلوب يجد صدى فى نفوس الاجيال الحديثة فى عصر العلم والنور والذى انتشر فيه الشك يزعزع الإيمان . فهداه تفكيره الى جذب الانظار الى آثار مدينة عظيمة فى الصحراء الغربية على بعد نحو خمسين كيلو مترا من مدينة الاسكندرية ، يرقد معظمها تحت الرمال ، والآثار هى وثائق التاريخ . كانت هذه المدينة أول محج عرف فى العالم المسيحى ، وكان القديس مينا من أشهر شهدائنا ، وكانت له شعبية تفوق الوصف طوال قرون عدة ، وكانت جموع غفيرة من الحجاج تُقبل من جميع الانحاء التماساً للعجائب والمعجزات التى كانت تجرى على قبره والتى كرم بها الرب قديسه ، فساهم اسمه فى ذلك التراث الروحى العريض لكنيسة الاسكندرية .

منعت ظروف الحرب الراهب «مينا البرموسى المتوحد» من الاقامة بين أطلال هذه المدينة المقدسة لانها كانت منطقة حربية . ولكن لم يلبث اسم مار مينا العجايبى ان صار عنوانا لتلك النهضة الروحية الثقافية التى اجتاحت الكنيسة فى ربع القرن الاخير .

ففى القاهرة قنع راهبنا الى أن تسنح له الفرص بتحقيق حلمه بالاقامة بين تلك الاطلال ، بينما دير «ميناالخلاص» فى مصر القديمة ، لم يلبث ان صار مقصدا لجمهرة من شبابنا المثقف الذين تجيش صدورهم برغبة ملحة فى خدمة الكنيسة ورفع شأنها ففتح لهم ذراعيه ووضع فى خدمتهم جميع إمكانياته ، وفتح

بذلك صفحة جديدة فى تاريخ الرهبنة ، وكم لاقى فى عمله هذا من عنت وتعسف من السلطات الدينية فى ذلك الوقت ، فوقف صامدا صابرا يحتضن أبناءه الرهبان وكم قرأنا فى ذاك الوقت فى ارتياح واعجاب من نشرات «مينا الخلاص» الروحية ... واعجبنا بتلك الرسالة الروحية التى تخرج من دير مار مينا بمصر القديمة .

وفى الاسكندرية وجدت دعوة الراهب «مينا البرموسى المتوحد» صدى فى نفوس رهط آخر من الشباب ، فأوحى اليهم بتكوين جمعية مار مينا العجايبى بالاسكندرية قامت بتخليد سير وتراجم آباء الكنيسة وقديسيها وشهدائها بالمحاضرات والنشرات والرسائل الى يومنا هذا فسدّت فراغا كبيرا فى مكتبتنا التاريخية والقومية . وقامت منذ ربع قرن برحلات الى تلك المدينة العجيبة ليرى شبابنا بأعينهم صفحة مجيدة من تاريخ كنيستهم ، واذا بالمؤرخين والاثريين يشتركون أيضا فى تلك الرحلات ، فتثبت فى أذهانهم تأسيس معهد عال للدراسات القبطية واذا بالمطابع تخرج بين آن وأخر دراسات عن مار مينا العجايبى ومدينته الرخامية العجيبة عن وثائق ومخطوطات واذا بأبناء الكنيسة يعنون بكتابة تاريخ كنيستهم كما يجب أن يكتب . كل ذلك واسم «مار مينا العجايبى» يقود هذه المجهودات ويوجهها ويوحد بين القائمين بها .

وتدور الايام وماذا أقول ؟ هل هى إحدى عجائب العجايبى ؟ القمص «مينا البرموسى المتوحد» يجلس على كرسى مار مرقس الانجيلى بابا الاسكندرية ، وبطريرك الكرازة المرقسية ، فكان أول ما أتجه اليه فكره أن يعطى لتلك النهضة دفعة قوية أخرى ، ورنا ببصره الى ذلك المكان التاريخى الفريد ، إلى مدينة العجايبى ، لا ليقيم بين الاطلال فى هذه المرة ، ولكن ليقيم ديرا عظيما ومجموعة من الكنائس فى تلك البقعة المقدسة ، وأيضا منزلا للرياضة الروحية فاذا بالجموع تُهرع للتزود ببركة القديس العجايبى ولرؤية تراث آبائهم ولقضاء فترة فى التأمل وتثبيت الايمان . انها لا شك نهضة روحية لم تشهدها الكنيسة منذ اكثر من احد عشر قرنا ، عندما ازاح بيمينه ستار النسيان عن تلك المدينة التى تحكى الكثير عن المسيحية فى عصرها الذهبى فى مصر خدمة للتاريخ وللمسيحية عامة ولابناء كنيسته فى الحاضر والمستقبل . وقد اثمرت لفتته واثبتت الايام بُعد نظره وصدق فراسته .

واما ابناؤه المثقفون الذين شاركوه فى «مينا الخلاص» السراء والضراء ، فقد انتقى منهم بعض اعوانه ، ومازال الباقون ينيرون الاديرة بتقواهم وعلمهم واذا بعهده يتميز بظاهرة أخرى طريفة، المثقفون واساتذة الجامعات، يقبلون على السلك الكهنوتى ، وهذه الاخرى نهضة ثقافية روحية صدى لتلك التى بدأت تحت عنوان العجايبى ، فتغمر المكتبات بعض مؤلفات قيمة تحمل أسماء أبائنا من الأكليروس .

ونظر الى اللغة القبطية فاعطاها دفعة قوية خدمة لكنيسته وتثبيتا لاحد اركانها ، فظهر فى السنوات العشر الاخيرة سلسلة من المؤلفات فى قواعدها وفى مفرداتها ومازالت المؤلفات فيها تتصاعد حتى بلغت ذروتها فى ذلك المؤلف الجليل الشامل المأخوذ عن أشهر وأحدث المصادر والذى امر قداسته بطبعه على نفقته الخاصة وهو كتاب (المرجع فى قواعد اللغة القبطية) .

الا ترى معى أيها القارىء العزيز إن ذكرى مار مينا العجايبى أصبح لها معنى آخر غير مجرد الذكرى ؟

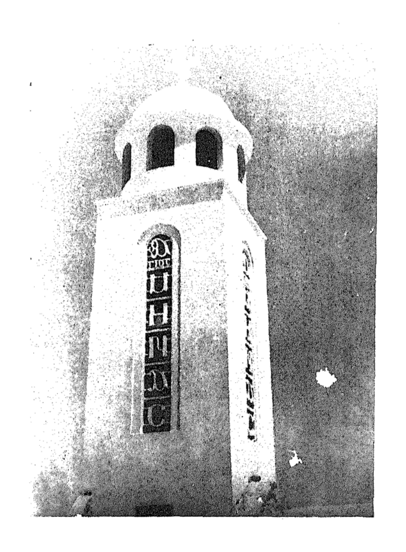
وكان الفضل كل الفضل فى ذلك لذلك الراهب البرموسى المتوحد الذى يجلس الان على كرسى القديس مرقس باسم البابا كيرلس السادس . الرب يعينه ويوفقه ويسبغ عليه الصحة والعافية لمجد اسمه القدوس .

(وطنى ٢٢ /١١ /١٩٧٠ م)





كاتدرائية الدير الحديث للقديس مارمينا العجايبي بمريوط كما تبدو الآن والذى وضع حجر أساسها قداسة البابا كيرلس السادس عام ١٩٦١ م .



منارة كنيسة السيدة العذراء بالدير الحديث للقديس مارمينا العجايبى بمريوط ، وقد قام برسم الأحرف القبطية لأسم القديس مينا طيب الذكر الأستاذ بديع عبد الملك غطاس عضو جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية .

جمعيـــة مار مينـا العجايبى
بالاسكندرية

زيارة مدينة العجايبى بمريوط

بمناسبة عيد تكريس كنيسة الشهيد القبطى العظيم مار مينا العجايبى الأثرية بمريوط .
تعتزم الجمعية بمشيئة الله زيارتها وزيارة الدير الذى أقامه المثلث الرحمات الطوباوى

الأنبا كيرلس السادس

كمشرلة خالدة فى تلك البقعة المباركة تعيد للأجيال صفحة مجيدة من تاريخنا .

وقد أعدت الجمعية لهذا الغرض أوتوبيسا فاخرا . وستبدأ الرحلة من باب الكنيسة المرقسية المطل على شارع النبى دانيال ، صباح يوم الجمعة ٢٥ يونيـو ١٩٧١ فى تمام الساعة السابعه والنصف صباحاً . وقيام العودة حوالى الساعة الثانية بعد الظهر .

بيــــانات

١ ــ قيمة الاشتراك ٥٠ خمسون قرشا للشخص الواحد مهما كان سنه ، والأفضلية الأسبق فى الاشتراك .

٢ ــ تحدد موعد قبول الاشتراكات فيما بين يومى ٥/٦/٧١ و ١٥/٦/٧١ ويجوز قفـل باب الاشتراك قبل ذلك اذا تكامل العدد المطلوب .

٣ ــ تقيد أسماء المشتركين وتدفع الاشتراكات مقدماً لعضو مجلس ادارة الجمعية ومنظم الرحله الأستاذ جورج المصور ١٩ شارع محرم بك تليفون ٣١١٠٢ والسيد / لسيم لبيب ببطريركية الأقباط الارثوذكس .

٤ ــ سيلقى على حضرات المشتركين بيان تاريخى عن مارمينا ومدينته بمريوط .

٥ ــ يتقبل الدير مايقدم من نذور وتبرعات لاستكمال الكنيسة الرئيسية .

٦ ــ على كل مشترك أن يتزود بما يكفيه من طعام وشراب .

والجمعية اذ تنظم هذه الرحلات باذلة غاية الجهد لفائدة المشتركين وراحتهم الى أقصى حد مستطاع ترجو معاونتها على تحقيق الفائدة المرجوة .

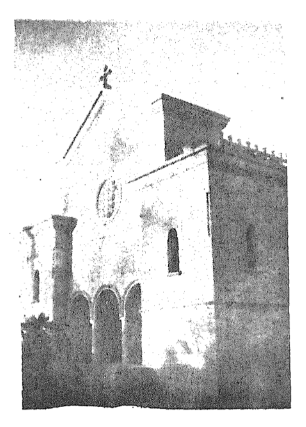
فى ٢ يونيـــو سنة ١٩٧١ — رئيس الجمعية

دكتور منير شكرى

صورة للإعلان عن رحلة نظمتها جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية
إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط عام ١٩٧١ م

الباب الثاني

القديس مينا العجايبي وكنيسته بمنطقة فلمنج بالأسكندرية



واجهة كنيسة مارمينا العجايبي بفلمنج بالإسكندرية

الفصل الأول

الإحتفال بتكريس كنيسة مارمينا العجايبي
بفلمنج بالاسكندرية
مساء الخميس ٢١ يونيو ١٩٤٨
عشية عيد تكريس كنيسته بمريوط

حضرة صاحب النيافة ، سيداتى سادتى

لا أجد ما أعبر به عن ذلك الشعور الفياض ، الذى يتأجج فى صدور أقباط الاسكندرية اليوم ، سوى قول داود النبى « هذا هو اليوم الذى صنعه الرب ، فلنبتهج ونفرح فيه » ، وهما فرح وابتهاج مقرونان ولا شك بالشكر والسجود للعزة الالهية ، إذ سمحت لنا بأن نشهد هذا اليوم المبارك .

أنه عيد مزدوج ، عيد تكريس كنيسة مارمينا بمريوط ، تعيده الكنيسة القبطية سنوياً منذ القرن الرابع إلى اليوم . وعيد بدء الصلاة بكنيسته الجديدة .

وان الذكرى لتذهب بنا فى مثل هذا اليوم ، إلى تلك القرون الأولى ، التى بلغت فيها مدينة الشهيد بمنطقة مريوط أوج عظمتها ، حينما كانت كنيسة أركاديوس تقوم على قبر مارمينا ، وهى أشهر كنيسة مصرية على وجه الاطلاق ، ذاع صيتها فى كافة أرجاء العالم القديم ، فقصدها المؤمنون يلتمسون الشفاء من أمراضهم بتلك المياه العجيبة التى تفجرت بجوار قبر القديس . ولقد كانت الطرق من الاسكندرية إلى مريوط فى مثل ذلك اليوم ، تزخر بالجموع الغفيرة ، يتقدمها البطريرك والأساقفة ، وشبّه بعض المؤرخين مدينة مارمينا فى ذلك الوقت ، بمدينة نوتردام دى لورد فى فرنسا الآن ، وكان من أثر ذيوع اسم القديس مينا وما يقترن به من عجائب ، ان بنيت كنائس بإسمه فى آرل بفرنسا ، وفى كولونيا بألمانيا ، وفى روما وغيرها ، وعندما خيمت على البلاد ظلمات العصور الوسطى البغيضة ، عصفت بتلك الكنيسة وغمرتها فى ظلال النسيان ، حتى عام ١٩٠٥ عندما وفق العالم الأثرى الدكتور كاوفمان للكشف عنها وعن جزء من المدينة الأثرية التى تحيط بها .

وقد اقتفينا أثر أسلافنا فى العام الماضى ، فتحسسنا الطريق الذى ضاعت معالمه ، منذ نحو عشرة قرون حتى وصلنا إلى اطلال تلك الكنيسة ، فوقفنا عليها فى تأثر بالغ ، ستجلى ما كانت عليه من اتساع وفخامة ، ونرمق فى أسى ، ما تبقى من تلك المدينة الرخامية ، وقد غرق فى بحر من الرمال ، ممسكاً بعضه من الذعر بعضا ، نعم ! وقفنا مأخوذين بتلك العظمة ، وذلك الجلال ، اللذين مازال يشع نورهما ، حتى بعد أن وصلت إلى تلك الحال التى يرثى لها . ولقد كانت أحجارها فى صمتها أبلغ من المؤرخين والخطباء ، فى تبيان تاريخها الماضى المجيد ، أما الأعمدة المرمرية الستة والخمسون ، التى كانت تحمل سقف صحنها المذهب ، والتى لم تستطع أيدى العدوان أن تقتلع قواعدها ، فقد ذكرتنا بالظلم والاضطهاد ، اللذين ذهبا بكثير من مجد وعز كنيستنا القبطية ، ولكن ظلت قواعدها وأسسها ثابتة سليمة . والقينا نظرة أخيرة على مكان المذبح الذى لم يبق فيه سوى قاعدة مربعة فى مستوى سطح الأرض ، تحرسها قواعد أربعة أعمدة مرمرية كانت مقامة عليها قبة المذبح ، ونتلفت بعد مضى نحو عام أو أكثر بقليل ، فإذا بتلك العزيمة القوية التى تحلى بها أعضاء مجلسنا الملى الموقر ، وذلك الايمان القوى الذى يغمر قلوبهم ، يقيمان مذبحاً لمارمينا فى كنيسته الجديدة ، وإذا بالشموع توقد مرة أخرى فى الهيكل ، ويستأنف رفع البخور أمام المذبح ، بعد حوالى تسعة قرون ، وهكذا تمتاز المسيحية فى مصر ، بتلك المرونة العجيبة التى أثارت اعجاب العالم .

وأنه لتوافق عجيب ، يدعو إلى كثير من الارتياح ، أنه فى الوقت الذى يحقق فيه المجلس الملى أمنية جمعية مارمينا العجايبى ، بأن تقيم الاسكندرية أثراً خالداً لذلك الجندى الباسل ، والشهيد العظيم ، تقوم مصلحة الآثار من جهة أخرى باتمام الحفر والكشف عن مدينته الأثرية كأننا كنا معها على ميعاد .

سيداتى ، سادتى

إذا كانت كنيسة أركاديوس العظيمة ، قد اشتهرت فى التاريخ ، بأن كانت نواة لمدينة عظيمة بنيت حولها من وسط الصحراء ، فكلنا أمل فى أن نجعل من كنيستنا الجديدة ، نواة لإصلاح روحى واجتماعى يعم مدينتنا ، يسجله التاريخ وتتناقله الأجيال ، فنضيف صفحة ذهبية إلى تاريخ كنيستنا الخالدة .

ولنبتهل إلى رب الكنيسة ، من أعماق قلوبنا مع داود النبى ، قائلين « أيها الرب إله القوات ، ارجع الآن واطلع من السماء ، وأنظر وتعهد هذه الكرمة ، أصلحها وثبتها ، هذه التى غرستها يمينك » .



بطريركية الاقباط الارثوذكس
بالاسكندرية

الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٩٤٨

حضرة الاستاذ المحترم الدكتور منير بك شكري

بعد الاحترام .

بجلسة المجلس الملي المنعقدة في ١٠/٦/١٩٤٨ قرر :-

اولا — تكوين لجنة رئيسية لكنيسة مارمينا بفلمنج بالرمل من حضرتكم وحضرات زملائكم حضرات الاتية اسماؤهم بعده :-

(١) الاستاذ فريد بك مرموني	(٥) البكباشي ابراهيم بك برسوم
(٢) الدكتور عزيز بك سوريال عطيه	(٦) الاستاذ زكي بك قسام
(٣) اسكندر بك فني عطيه	(٧) الاستاذ مدحت بك ميخائيل
(٤) الدكتور منير بك شكري	(٨) الاستاذ بانوب بك حبشي

وتكون مأمورية اللجنة

(١) تأليف لجان فرعية

(٢) جمع التبرعات

(٣) عمل كشوف بجميع العائلات القبطية التي تقيم بالرمل

(٤) الاتصال بالجمعيات القبطية لمعاونتها على جمع التبرعات

(٥) طبع دفاتر ايصالات من اصل وصورة بكل دفتر خمسين ايصالا

(٦) طبع تذاكر شكر ترفق بالايصالات

(٧) عمل كل ما من شأنه اعداد الكنيسة للصلاة في اقرب فرصة ممكنة

ثانيا — تقدم اللجنة الرئيسية تقريرها واقتراحاتها لحضرة منصور بك قلادة انطون عضو المجلس الملي لتقرير ما يراه .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ..

رئيس المجلس الملي



صورة خطاب وكيل البطريركية بالاسكندرية القمص منصور البراموس (نيافة الانبا إيساك مطران كرسي الغربية فيما بعد) الى الدكتور منير شكرى بشأن تشكيل مجلس كنيسة مارمينا العجايبى بفلمنج بالاسكندرية عام ١٩٤٨ م .

الفصل الثانى

الاحتفال بذكرى تكريس كنيسة
مارمينا بفلمنج بالاسكندرية ـــ ٢١ يونيو

سيداتى سادتى

عندما أعلن العلامة الأثرى كاوفمان فى صيف عام ١٩٠٥ ، نبأ توفيقه إلى العثور على مدينة مارمينا العجايبى بمريوط ، قابلت الأوساط الأثرية والتاريخية ـــ خصوصاً المعنيةمنها بالدراسات البيزنطية ـــ هذا الكشف العظيم ببالغ الاهتمام والترحيب ، فقد وجدت فيه معينا من المعلومات التاريخية التى كانت تنقصها ، وبصفة خاصة ، ما كان منها يختص بتاريخ الفن وحضارة الاسكندرية ، بل والحضارة المسيحية بشكل عام ، إذ قلما نجد أثرا كهذا يصور فى صعيد واحد ، كثيرا من ألوان الحياة الدينية والمدنية فى القرون المسيحية الأولى .

وفى عام ١٩١٠ عثر بجهة الحامول ، بمديرية الفيوم ، على مخطوطات قبطية قيمة ، عن مارمينا العجايبى وعن مدينته ومعجزاته ، تكون الآن جزءاً مما يسمى مجموعة Pierpont Morgan .

وفى عام ١٩٤٦ قام الدكتور دريشر الأستاذ بجامعة القاهرة ، بنشر مؤلف مأخوذ عن مخطوطات حبشية واغريقية ولاتينية وقبطية ، عن مارمينا العجايبى وكنيسته ومعجزاته ، باللغة الانجليزية ، فى نحو ١٨٠ صفحة من الحجم الكبير ، نشرته له جمعية الآثار القبطية .

كل ذلك وكأن الأمر لا يعنى القبط ، بل كأنَّ بيننا من لا يزال يتشكك فى سير قديسينا وشهدائنا ، بل وفى مجرد وجودهم يوما ما ، ولا يدرون شيئاً مما يدور حولهم من أبحاث فى صميم تاريخهم .

عند ذلك وجدنا أن الفرصة مواتية للقيام بحملة صادقة لتنبيه الأذهان إلى ضرورة العناية بتاريخنا ، ومعرفة التاريخ يا إخوانى هى التى تخلق الأمم وتبعثها من جديد ، وتخلق فى أبنائها روح الكفاح والاعتزاز بالنفس، وتدفعهم إلى

استعادة ماضيهم المجيد ، ووجدنا فى الشهيد العظيم القديس مينا شخصية قوية نبدأ بها رسالتنا ، فهو شفيع الاسكندرية والوحيد الذى لقب بالعجايبى ، كما أنه رمز لشهدائنا الأطهار الذين اتصفوا بقوة الروح وبالبطولة ، وبالاستمساك بالعقيدة والدفاع عنها ، وبالايمان الصادق الذى يزعزع الجبال ، بل بلغ من ذيوع صيته فى كافة أرجاء العالم القديم ، أن كانت تأتى وفود الحجاج لزيارة كنيسته من كل صوب ، بدليل وجود اثار باسمه فى متاحف العالم ، كما يندر أن نجد أمة مسيحية لم تدشن باسمه إحدى كنائسها ، فتاريخ سيرته إذن من صميم التاريخ ، لا تعتمد على الأساطير .

فنظمنا أول رحلة إلى مدينة مارمينا العجايبى عام ١٩٤٦ ، لنقدم لأبناء أمتنا صفحة من صميم التاريخ القديم ، تؤيدها المخطوطات ، وتؤكدها المجموعات الأثرية ، وكانت تنتظم نحو الخمسين شخصاً فيهم الكبير والصغير ، والكاهن والعلمانى ، فكانوا أول جماعة من مسيحيى الاسكندرية تطأ أقدامهم مدينة شفيعهم ، منذ أكثر من عشرة قرون .

وكانت زيارة مباركة حققت الغرض منها ، فرجعنا وكلنا إيمان قوى صادر من الأعماق ، فى حق أمتنا القبطية المجاهدة ، فى البعث والحياة والخلود ، وكان هذا الإيمان أساساً لنهضة روحية ثقافية اجتماعية عمت أرجاء البلاد ، فبنيت فى مدينتكم هذه كنيستان عظيمتان باسم مارمينا العجايبى ، وعنى القائمون على كنيسة مارمينا بفلمنج بإحياء الفن القبطى بوجه خاص فى كل جنب من جنباتها ، بل وكان من النعم الإلهية عليها ، أن حالف التوفيق لجنة الكنيسة فاستطاعت بعد مساعٍ متواصلة لدى مصلحة الاثار ووزارة المعارف ، أن تنقل أربعة أعمدة بقواعدها وتيجانها من كنيسة مريوط ، ووضعتها حول المذبح ، فكانت كنزا أثريا لا يثمن ، تزيد قيمته الأثرية كثيراً فى رونق وبهاء كنيستنا ، كما يعطى بما فيه من فن وجمال فكرة عن عظمة الكنيسة الأولى ، وحتى الحكومة المصرية تلفتت إلى القيمة التاريخية لاثار مدينة قديسنا ، فعهدت إلى المتحف القبطى ، بالقيام بإجراء حفريات هناك ، تستخلص لنا من صمت الأجيال صفحاتٍ مطويةً أخرى .

أما نحن فقد زادنا هذا النجاح إيماناً برسالتنا التاريخية ، فتابعنا محاضراتنا فى إحياء ذكرى أبطال الكنيسة وشهدائها ، وتعددت رِحْلاتنا ، وأصدرنا المنشورات تتلوها المؤلفات فى اللغة القبطية والرهبنة وقديسينا وحضارتنا وفضلها على العالم المسيحى أجمع ، يساعدنا فى ذلك بعض الأساتذة ، الذين عندما لمسوا تعطش الشباب إلى معرفة المزيد عن أمتهم وكنيستهم ، انشأوا المعهد العالى للدراسات القبطية الذى نرجو له كل نجاح فى رسالته.

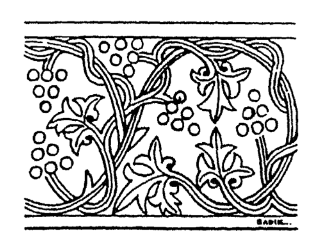
وباكر سنذهب بمشيئة الله ، مرة أخرى لنقف على أطلال تلك المدينة العظيمة ، لنلقى مرة أخرى نظرة على أثار ماضينا المجيد ، تدفعنا إلى العمل المثمر المنتج لمجد أمتنا .

وأنتم مستمعى الكرام ، لقد كانت الجماهير تملأ ارجاء كنيسة مارمينا العجايبى بمريوط ، حتى اضطروا إلى توسيعها وجعلوا طولها مائة وعشرين مترا ، هذا بينما كنائسنا تشكو فى هذه الأيام انصراف ابنائها عنها ، فهلا بدأنا حملة منذ اليوم لنقبل على كنائسنا فنملأ ارجاءها ، إن الكنيسة المملوءة من المصلين مظهر جليل للاتحاد الروحى والفكرى ، يعود علينا بفوائد عظيمة ، يضاف إلى هذا أن فى الصلاة الجماعية تأثير وفاعلية خاصة قوية ، ولذلك يقول بولس الرسول أنه نجا من أخطار كثيرة بواسطة صلوات كثيرين ، وخلص بطرس الرسول من السجن بصلوات مجمع المؤمنين ، كما اعتاد بطاركتنا فى أيام الفرح أو الضيق أن يدعوا الشعب لإقامة الصلوات والابتهالات فى الكنائس ، ويطيب لى فى هذا اليوم ، يوم تكريس كنيستكم ، أن أتلو عليكم ما قاله الرب لسليمان الملك يوم تكريس هيكل أورشليم قال له المجد « قد سمعت صلاتك ، وأخذت هذا المكان لى بيتَ ذبيحة ، إن أغلقتُ السماء ولم يكن مطر ، وإن أمرتُ الجرادَ أن يأكلَ الأرض ، وإن أرسلت وبأعلى شعبى ، فإذا تواضع شعبى ، الذين دُعى اسمى عليهم ، وصلوا وطلبوا وجهى ، ورجعوا عن طرقهم الردية ، فإنى أسمع من السماء ، واغفر خطيتهم وابرىء أرضهم ، الآن عيناى تكونان مفتوحتين ، وأذناى مصغيتان إلى صلاة هذا المكان ، والآن قد اخترتُ وقدستُ هذا البيت ، ليكون اسمى فيه إلى الأبد ، وتكون عيناى وقلبى هناك كل الأيام » .

هذه الوعود وعد بها الله سليمان ، اكراما لهيكل كان يقدم عليه الحيوانات ، فكم بالحرى يكون الحال إكراما لكنائسنا حيث يقدم لله جسد ابن الله عينه ؟

فليقدم كل منا لبيت الرب كل ما يستطيعه ، ولندخل كنائسنا بقلوب عامرة بالايمان ، ولنسجد للآب بالروح والحق ، وكل عام وأنتم بخير .

والمجد لله فى كنيسته



الفصل الثالث

زيارة غبطة البابا يوساب الثانى إلى كنيسة مارمينا بفلمنج بالاسكندرية

سيدى قداسة البابا ، سيداتى ، سادتى

عندما هدأت موجةُ الاضطهادات العاتية ، التى شنها الأباطرة الرومان على مسيحى مصر ، ونالت الكنيسة حريتَها ، وكان من ضمن الوسائل التى لجأ إليها أجدادنا ، لتخليد ذكرى شهدائهم الأمجاد ، بِناءُ الكنائسِ فوق أجسادِهم الطاهرة ، ليحدثَ كلُ حجر فيها الأجيال اللاحقة ، بقصصِ البطولةِ وانكارِ الذات والثباتِ على العقيدة إلى حد الاستشهاد ، واحتفلوا احتفالاتٍ رائعةٍ بتكريسِ تلك الكنائس ، وعيدوا يوم تكريسِها كل عام ، ففى مثل ذلك اليوم حوالى سنة ٣٥٠ ميلادية سار القديس أثناسيوس الرسولى البطريرك العشرون ، فى موكب شعبى رائع ، إلى ضاحيةِ مريوط ، لتكريس بيعةٍ بنيت على من نَصَّبه القبطُ شفيعا لهم ، الشهيد العظيم القديس مينا العجايبى ، إلا أنه سرعانَ ما تبين عدم كفايتها لجموع الزائرين ، التى وفدت من مدانى الأرض قاصيها ، للتبرك بزيارةِ قبرِ القديس القبطى العظيم ، ولإلتماس شفاعته فى شفاءِ أمراضهم ، ولذلك قام الامبراطور أركاديوس حوالى عام ٤٠٠ ميلادية ، بتشييد كنيسةٍ أخرى ملاصقةٍ للأولى على أفخم طراز ، ولم يدَّخِرْ وُسعا فى زخرفتها وتزيينهَا بالأحجارِ النادرة ، حتى أتت قطعةً رائعةً من الفن والجمال ، فاقت فيهما ما عُرف عن هيكل سليمان ، وكانت بحقٍ عنوانا لعصر المسيحية الذهبى فى مصر ، قد قام بتكريسها الأنبا ثاوفيلس البطريرك الثالث والعشرون فى مثل ذلك اليوم أيضاً ، وظلت ذكرى تكريسِها احتفالا تقليديا ، يتصدره باباوات الاسكندرية إلى عهد الأنبا يوساب الأول البطريرك الثانى والخمسين فى القرن التاسع ، وبعد ذلك تألبت عليها عوامل الشر والتخريب ، فأستدلت عليها ستارا من النسيان .

ولكن يقظةَ الوعى الملى فى نهضتِنا الحديثة ، وتلك الحيويةَ والغيرةَ على الكنيسة التى تجرى فى عروقنا مجرى الدماء ، كلَ ذلك جعل يكشف رويدا

رويدا عن تلك الأطلال ، إذ اهتمت الحكومة بالحرفيات والترميم فيها ، وقام أقباط الاسكندرية يشيدون كنيسةً باسم شهيدهم العظيم كرسوها فى مثل ذلك اليوم أيضا ، واستطاعوا أن يجلبوا إليها أربعة أعمدة مرمرية مع قواعدها وتيجانها ، من كنيسة مريوط ، وضعوها حول المذبح ، لتقص على الأجيال القادمة هى الأخرى طرفا من مجدنا الغابر ، كل ذلك تم فى بضع سنوات ، ويتوجُ تلك الحيويةَ اليقظةُ ، غبطةُ البابا المعظم الأنبا يوساب الثانى ، فيُرجع لنا ذكرى أيامِنا الغابرةِ فى عصرها الذهبى ، إذ يقتفى أثر أسلافه من أثناسيوس الرسولى إلى ثاوفيلس إلى يوساب الأول ، فيترأس الاحتفال بذكرى تكريس تلك الكنيسة العظيمة ، تكريما لشفيعِنا ولرمز شهدائنا ، فيشيع البهجةَ والفرحَ فى النفوس .

سيداتى سادتى

لنقبل على كنائسنا فنملأ أرجاءها ، إنه لمظهرٌ جليلٌ للاتحاد الروحى والفكرى ، الذى يعود علينا بفوائد عظيمةٍ ، وزيادةً على ذلك ففى الصلاة الجماعية تأثيرٌ وفاعلية خاصة قوية ، ولذلك يقول بولس الرسول أنه نجا من أخطارٍ كثيرةٍ بواسطة صلواتِ كثيرين ، وخُلِّصَ بطرس الرسول من السجن بصلواتِ مجمع المؤمنين ، واعتاد بطاركتُنا فى أيام الفرح أو الضيق ، أن يدعوا الشعب لإقامةِ الصلوات والابتهالات فى الكنائس . ولما كرس الملك سليمان هيكل أورشليم قال له الرب « قد سمعت صلاتك واخترتُ هذا المكان لى بيتُ ذبيحة ، إن أغلقتُ السماءَ ولم يكن مطر ، وإن أمرتُ الجرادَ أن يأكلَ الأرض ، وإن أرسلت وبأ على شعبى ، فإذا تواضع شعبى الذين دعى اسمى عليهم ، وصلوا وطلبوا وجهى ، ورجعوا عن طرقهم الردية ، فإنى أسمع من السماء ، واغفر خطيتَهم وابرىء أرضهم ، الآن عيناى تكونان مفتوحتين ، وأذناى مصغيتان إلى صلاة هذا المكان ، والآن قد اخترت وقدست هذا البيت ، ليكون اسمى فيه إلى الأبد ، وتكون عيناى وقلبى هناك كل الأيام » .

فإن كان الله تعالى قد وعد سليمان بهذه الوعود والمواهب ، إكراما لهيكل لم يكن يقدم فيه سوى بقرٍ وعجولٍ وغنمٍ وغيرُ ذلك من الحيوانات ، فكم بالحرى يكون الحال إكراماً لكنائسنا ، حيث يُقدمُ لله جسدُ ابن الله عينهُ ؟

فلندخل كنائسنا بقلوب عامرة بالايمان ! ولنكن دائماً من أولئك الساجدين الذين يسجدون للآب بالروح والحق .

والمجد لله دائماً

يونيو ١٩٥٣



طيب الذكر منصور قلادة أنطون رجل الأعمال السكندرى
ورئيس لجنة كنيسة مارمينا العجايبى بفلمنج
وقد لعب دورا هاما فى مختلف مراحل بناء هذه الكنيسة

الى الأخ والزميل الكريم
الأستاذ الدكتور منير شكرى
اعترافا بفضله العميم
على الثقافة القبطية
وبفضل رسائل مارمينا العجايبى
على هذا الكتاب
[توقيع]
١٥ سبتمبر ١٩٧٠

حسين فوزى

سندباد مصرى

جولات فى رحاب التاريخ

« من أرادها بسوء قصمه الله »
كعب الأحبار

الطبعة الثانية

دار المعارف بمصر

إهداء كتاب (سندباد مصرى) الى د. منير شكرى بخط يد د. حسين فوزى ، وفيه يقول (إلى الأخ والزميل الكريم الاستاذ الدكتور منير شكرى اعترافا بفضله العميم على الثقافة القبطية وبفضل رسائل مارمينا العجايبى على هذا الكتاب) ــ ١٥ سبتمبر ١٩٧٠ م .

الفصل الرابع

زيارة البابا كيرلس السادس الى كنيسة مارمينا بفلمنج بالأسكندرية

(١٣ ابريل ١٩٦٧)

قداسة البابا المعظم

سيداتى ، سادتى

منذ عشرين عاما أو أكثر كان يجتمع فريق من شباب الإسكندرية ، جمع بينهم حبهم لوطنهم ولكنيستهم ، ولا يتجاوزون أصابع اليدين عدا ، يتدارسون فى جهل الشبيبة بتاريخ كنيستهم ، وفى تشويه بعض مؤرخى الغرب عن عمد فى بعض الأحيان وعن جهل فى أحيان أخرى لتاريخ كنيسة الاسكندرية ، وبينما هم يتباحثون فى كيفية القيام بواجبهم نحو تلك الحالة ، اتصل راهب متوحد اشتهر بالزهد والتقى بأحد أفراد تلك الجماعة وهو المرحوم الأستاذ بانوب حبشى مفتش آثار الإسكندرية ، يرجوه التوسط لدى مصلحة الآثار لتسمح له بالإقامة بين خرائب مدينة مار مينا العجايبى الأثرية ، فكان هذا الاتصال سببا فى لفت نظر الجماعة إلى صفحة مشرقة من تاريخ الكنيسة والمسيحية فى مصر ترقد فى صحراء مريوط تحت ظلال الجهل والنسيان ، وكان هذا الراهب البرموسى المتوحد ذو البصيرة النفاذة والنظر البعيد ، هو الملهم لإطلاق اسم هذا القديس المصرى الصميم وشفيع مسيحيى مصر على جماعتنا ، وقمنا بخطوات عملية للتعريف بتاريخ كنيستنا بالمحاضرات والنشرات والرحلات ، واتخذنا من آثار مدينة العجايبى وثائق تاريخية نقدمها لمن يتشكك فى سير شهدائنا وأبطالنا ، لنصل منها إلى غرس الإيمان فى قلبه ، الإيمان فى معتقداتنا وفى أعمالنا وفى أقوالنا .

وعز علينا ألا تخلد الاسكندرية مركز كرسى مار مرقس ذكرى ذلك المجد العريق بإقامة كنيسة فيها باسم مار مينا العجايبى ، وكانت هذه البقعة التى نقف عليها اليوم أرضا كبيرة يتوسطها فيلا لسيدة قبطية تدعى السيدة دميانة

كانت قد وهبتها للبطريركية ، واستصدرت البطريركية عام ١٩٢٧م مرسوما ببناء كنيسة فيها ، ولكن المرسوم ظل فى أدراج البطريركية ، وكانت الروح الدافعة غير موجودة ، فقمنا ندعو إلى بناء كنيسة فى تلك البقعة باسم شهيدنا العظيم وكُلل مسعانا بالنجاح وقمنا بتقديم كل مشورة طُلبت منا من رسم الكنيسة الأثرية إلى النقوش القبطية الأصيلة حتى جاءت تحفة فريدة فى طرازها ، واستطعنا باتصالنا بالمرحوم الدكتور توجو مينا مدير المتحف القبطى الأسبق أن نحصل على موافقة وزارة المعارف على نقل أربعة أعمدة من المرمر بقواعدها وتيجانها من كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط وأقمناها حول المذبح . وأصدرنا فى هذه المناسبة أكثر من نشرة عن القديس الشهيد مار مينا العجايبى وعن مدينته العجيبة .

وتوالى بعد ذلك إصدارنا المؤلفات التاريخية العلمية بأسلوب مبسط التى لاقت إقبالا كبيرا من الأوساط العلمية ، وكان لها صدى بعيد فى طول البلاد وعرضها وفى خارجها إلى أوروبا شمالا وإلى أمريكا غربا واثيوبيا جنوبا .
بدأنا فأصدرنا رسالة تاريخية فى عيد القيامة .
ثم أصدرنا رسالتنا الثانية فى عيد النيروز عام ١٦٤٨ للشهداء عن اللغة القبطية ووجوب المحافظة عليها ، وكان أبرز مافيها مقالة بعنوان « أثار اللغة القبطية فى أسماء أولادنا فى خطر » بقلم المتنيح المستشرق وعالم اللغة القبطية القمص يعقوب مويزر .

وفى مناسبة الاحتفال بمرور ١٦٠٠ عام على نياحة القديس انبا باخوميوس أب الشركة الرهبانية أصدرنا رسالتنا الثالثة بعنوان «الرهبنة القبطية» وأقبل على اقتنائها العلماء والمستشرقون ومكتبات الجامعات . وبعد صدور تلك الرسالة بدأنا نسمع عن الشباب المتعلم الذى بدأ يطرق أبواب الأديرة . وعن رسالات علمية عن الأديرة والرهبنة تقدم إلى الجامعات لنيل درجات علمية، وجاءت الرسالة الرابعة بعنوان «صور من تاريخ القبط» فقدمنا للنشىء شخصيات قبطية يندر وجود مثيل لها فى أى زمان ، وجعلناها صورا حية .

وأتبعناها برسالة خامسة عنوانها «صفحة من تاريخ القبط» ، وفيها فضلا عن مواضيع مختلفة وشيقة بقلم ألمع الكتاب والمؤرخين المشتغلين بالدراسات القبطية ، فصل طويل بقلم المرحوم الاستاذ وليم ووريل بجامعة متشجان بأمريكا بعنوان «موجز تاريخ القبط» .

وأخيرا أصدرنا الرسالة السادسة بمناسبة مرور ١٦٠٠ عام على إنشاء أديرة وادى النطرون بعنوان «أديرة وادى النطرون» ـ « تاريخها ، عمارتها ، أنظمتها ، أباؤها» فجاءت أكبر مرجع باللغة العربية لتاريخ هذه الأديرة التى شع منها نور الرهبنة إلى العالم أجمع ، وما اتصل بها من أحداث على مر العصور .

ويوجد الآن تحت الطبع كتاب جامع شامل لقواعد اللغة القبطية مأخوذا من أوثق المصادر وأشهرها ليكون مرجعا للطالب والباحث واللغوى المتخصص ، وضعته لجنة شكلتها الجمعية من كبار المشتغلين بهذه اللغة .

ونذكر هنا أنه عندما ألف الاستاذ الدكتور حسين فوزى وكيل وزارة الثقافة السابق والحائز على جائزة الدولة التقديرية كتابه التاريخى « سندباد مصرى » فى تاريخ مصر استعان بمؤلفاتنا عندما تكلم عن العصر المسيحى واتخذها كمراجع علمية محترمة يعتد بها ويرجع إليها ، وذكر أسماء تلك المراجع وكتابها فى ذلك المؤلف .

وكان من أثر هذه المؤلفات أن أقبل الشباب المتعطش يريد الاستزادة فاضطرت الكلية الأكليريكية إلى فتح فصول ليلية . وقام المشتغلون بالدراسات القبطية فأنشأوا معهدا عاليا للدراسات القبطية بالقاهرة ، ومعهدا مماثلا فى الإسكندرية لم يطل به العهد . هذا غير إقبال بعض أبناء الكنيسة النابهين على البحث والتأليف .

أما الراهب المتوحد الذى لم يستطع أن يحصل على غرضه فى ذاك الوقت للموانع الحربية فى الصحراء الغربية ، فقد رجع إلى مصر القديمة حيث أقام

مدينة روحية باسم مارمينا العجايبى لقبت بميناء الخلاص ، استقبل فيها الرعيل الأول من الشباب الجامعى الذى لبس أسكيم الرهبنة ، وكانت تخرج منها نشرات روحية يتلقفها الشباب كان لها أثر عميق فى التثقيف الروحى .

وتشاء العناية الإلهية أن يقع عليه الإختيار عام ١٩٥٩م ليجلس على كرسى القديس مرقس الانجيلى باسم كيرلس السادس ، فإذا بفكره وبصره يتجهان إلى مدينة العجايبى ولسان حاله يقول «أنها الآن ساعة لنستيقظ» ، وفعلا لايلبث ان يوقظها من رقادها الطويل وتتدفق فيها الحياة مرة ثانية فتوقد الشموع على مذابحها مرة أخرى ويرفع البخور فى هياكلها ، وإذا بما كان حلما يتحقق بقوة العزيمة وعمق الإيمان، أنه لم يوقظ خرائب بل أيقظ أمة ، واصبحنا اليوم نجد سيل الزوار يتدفق للتبرك بتلك البقعة المقدسة طوال أيام السنة لا لزيارة الأطلال ولكن للصلاة والسجود والرياضة الروحية ، وهكذا استطاع كما كان فى الماضى ذلك العبقرى البعيد النظر بطريقته الخاصة أن يعمق الإيمان فى قلوب أبنائه ، الإيمان فى معتقداتنا وفى كنيستنا . وجعل من تلك الخرائب التى طواها الزمن فى لفائف النسيان إحدى المعالم الخالدة فى تاريخ نهضتنا الحديثة ، وتبارى المؤلفون فى كتابة تاريخها القديم والحديث .

هذا ياسيدى البابا هو حسابنا بالرغم من قلتنا وقلة مواردنا ، منذ ذلك اليوم الأغر الذى اتصلتم فيه بنا فكان فيه إلهام لنا وكان له الأثر كل الأثر فى توجيهنا ، وفى تلك النهضة الثقافية الشاملة ، التى اجتاحت الكنيسة طوال العشرين عاما الماضية ، والتى تتوجونها اليوم بتلك اللفتة الأبوية الكريمة ، التى نعتقد أنها ليست موجهة إلى ذواتنا ، بقدر ماهى موجهة إلى النشء ليعمل وليثابر متسلحا بالإيمان ، الإيمان القوى الصادر من الأعماق فى معتقداتنا وفى أعمالنا وفى أقوالنا ، ثم فى حق كنيستنا القبطية المجاهدة فى البعث والحياة والخلود .

وأختم كلمتى فى هذه المناسبة بالترحم على إخواننا المؤسسين الذين إنتقلوا إلى الأمجاد السماوية وهم :

المرحوم الأستاذ بانوب حبشى رائدنا الذى كان له أكبر الفضل فيما اتممناه وفيما وصلنا إليه .
والمرحوم الأستاذ الأثرى موريس يوسف والمرحوم كامل لطفى والمرحوم ابراهيم نصر الله والمرحوم جرجس عطا الله .



الباب الثالث

البابا كيرلس السادس وجمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية



قداسة البابا كيرلس السادس مع أعضاء مجلس إدارة جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية

الفصل الأول

خطاب لقداسة البابا كيرلس السادس

قداسة الأب الكلى الإحترام الأنبا كيرلس السادس
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

بكل إحترام وخضوع أتقدم إلى عرشكم لاثماً يديكم الكريمتين ملتمساً صالح الدعوات والبركات الرسولية ، ثم أتشرف بإحاطتكم علماً بأنى بكل زهو وفخر فى غمرة من الفرح والسرور القلبى ، تسلمت من السيد الأخ حنا أفندى صورتكم الكريمة التى تفضلتم بوضع إطار لها من حكمكم البليغة وتوقيعكم الكريم ، وإنى لأعتبر هذا التكريم ليس موجهاً إلى شخصى الحقير ، وإنما إلى الفكرة التى حملت جمعيتنا لواءها دون كلل أو ملل زهاء ثلاثة عشر عاماً .

وإن روح رئيس جمعيتنا السابق ورائدنا المرحوم الأستاذ بانوب حبشى لترفرف فى مثل هذا اليوم فرحاً بين الشهداء والقديسين ، إذ ترى وقد تحقق حلم راودنا جميعاً ، عندما أقتفيتم أثر أسلافكم الغر الميامين أثناسيوس وثاؤفيلس وكيرلس الكبير وديسقوروس وخائيل وشنوده ويوساب الأول وغيرهم وغيرهم ، فسرتم على الدرب الذى ساروا عليه يوماً ما نحو كنيسة القديس مينا العجايبى رمز الشهداء ، وشفيع مسيحى الاسكندرية ، بل شفيع العالم المسيحى فى زمن ما .

إن هذه الخطوة المباركة الكريمة ، إنما هى رمز وعلامة ظاهرية لما يجيش فى صدركم من عزم أكيد على إرجاع مجد كنيستنا العظيمة ، والنهوض بها من كبوتها ، لقد جعلتم القبط جميعاً والعالم ، يتلفتون إلى تلك البقعة الطاهرة ، التى هى كل ما تبقى من أثر للعصر الذهبى لكنيستنا ، وإنى لعلى يقين أكيد بأن هذه الخطوة ستتبعها خطوات ، ورب الكنيسة يؤيدكم بروحه القدوس ،

ابنكم المخلص : دكتور منير شكرى
٢٤ /٦ /١٩٥٩



بعض اللقاءات الكثيرة لقداسة البابا كيرلس السادس مع مجلس إدارة جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية بالمقر البابوى بالإسكندرية .

الفصل الثانى

بمناسبة العيد الأول لجلوس البابا كيرلس السادس

مجد الإسكندرية الروحى

لعل الاسكندرية ، مقر كرسى خليفة القديس مرقس بطريرك الكرازة المرقسية ، هى أكثر المدن شعوراً بما انتابها من انتعاش روحى طوال العام الذى انقضى منذ رسامة البابا القديس كيرلس السادس . فقد أيقظها بعد رقاد طويل استسلمت له منذ أن نقل البابا خريستودولوس أقامته إلى القاهرة ، فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى . وتبعه فى هذا الانتقال شعبه الذى ظل يتضاءل ويتقلص فى تلك المدينة منذ ذاك الوقت ، حتى بلغ فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بضع عشرة من عائلات بعض موظفى الدواوين والدوائر ، متناثرة بين (الحارة الواسعة) و (حمام الورشة) و (حارة البلقطرية) ، فى دائرة قسم اللبان .

ثم بدأ هذا العدد فى الازدياد والنمو مع اتساع العمران ونمو المدينة الاقتصادى ، وعند نهاية الثلث الأول من القرن العشرين كانوا قد بلغوا من العدد مالا يقل عن أى ايبارشية من ايبارشيات القطر . ومع ذلك ففى ذاك الوقت بالذات حرموا من وجود أى أسقف فى مدينتهم ، بل بلغ هضم حقوقهم إلى حد أن ترك كرسى مدينتهم الرسولى ذى الشهرة التاريخية التى تحسده عليها جميع الكراسى الأخرى فى العالم ، خالياً مدة تزيد على الثلاثين عاماً ، مع أن الكنيسة المصرية تفقد بذلك أهم معالمها وخصائصها ، وانطبق عليها قول المتنبى « يا أمة ضحكت من جهلها الأمم » . إذ كيف هان على أحبارنا وأكليروسنا وجميع القبط أن يتركوا هذا الكرسى ذا الماضى المجيد والتاريخ الخالد والذى أسس صاحبه كنيستهم خالياً دون أى مبالاة فى سبيل أن يولوا بعض أصحاب الكراسى الأخرى رئاسة الكنيسة المصرية ؟! أنها لغلطة فادحة نرجو الأ تتكرر فى تاريخ كنيستنا .

وفى ملء الزمان شاءت العناية الإلهية التى تسهر على الكنيسة وترعاها أن يجلس على كرسى القديس مرقس الانجيلى ، البابا كيرلس السادس ، وكأنه أخذ

على نفسه عهداً منذ أول يوم ، أن يُرجع إلى ذلك الكرسى مجده فى عهد الآباء ، وأن يجعل من نفسه مثالاً لحب الأسقف لرعيته وتوليه بنفسه الاهتمام بأمورهم ومشاكلهم فإذ به يطيل اقامته فى مقر كرسيه ويجلس مستقبلاً بنيه هاشاً باشاً فى حرم سلفه العظيم كاروز الديار المصرية سائلاً عنهم يستقبل الكبير والصغير ، مهتماً بكل ما يعرضون عليه . وافتتح لهم كنيستين فى خط الرمل الذى اتسع به العمران ورسم ثلاثة كهنة من خريجى الجامعات أو الإكليريكية ، وما كل ذلك إلا بداية ... وأول الغيث قطرة .

وتلفت نحو الغرب إلى صحراء مريوط حيث توجد جوهرة فريدة كانت تكمل مجد كنيسة الاسكندرية ، إلى مدينة مارمينا العجايبى حيث يريد أن يسترجع جزءاً من ذلك المجلد التالد ... وان دل ذلك على شىء فعلى ذلك الايمان الراسخ بحق أمته فى النهوض الذى يملأ قلبه ، وعلى تلك الإرادة الحديدية التى تمضى قدماً فى هدوء وثبات لتحقيق كل ما يجول فى قرارة نفسه وعقله .

كل ذلك وهو ما زال على عتبة سنى توليته الطويلة ان شاء الله ، وان مجال العمل أمامه لفسيح يقتضى (عمر نوح وصبر أيوب) كما كان يقول المتنيح سلفه العظيم الأنبا كيرلس الرابع .

فلنبتهل إلى العلى القدير جميعاً فى هذا اليوم المبارك ، ليمد فى حياته حتى يحقق لأمته كل ما يجول فى فكره من نهوض وتقدم ورقى ، ولنقف جميعاً وراءه صفاً واحداً مستعدين لتلبية كل اشارة أو نداء لمساعدته فى بلوغ هدفه ، فى محبة وانكار ذات ونظام ، والمجد للرب فى كنيسته .

(جريدة مصر — ١٠ مايو ١٩٦٠)



الفصل الثالث

بمناسبة العيد الخامس لجلوس
البابا كيرلس السادس

الإسكندرية تستعيد مجدها

ظلت الإسكندرية ، مركز كاروز الديار المصرية ، ردحاً من الزمن لا تشعر أن لها أسقفاً يعنى بشئونها الروحية ، وينهضها إلى المركز اللائق بها بصفتها عاصمة الكرازة المرقسية . إلى أن جلس على الكرسى الرسولى قداسة البابا كيرلس السادس ، فأعطى مدينة كرسيه ما تستحقه من عناية وإهتمام ، وكانت إقامته فيها بعض الوقت بين الفينة والفينة خير موقظ لحياة روحية دافقة لم نشهد مثيلا لها ، فالكنائس تفتح أبوابها يومياً لترفع البخور وتقيم القداسات ، والشعب يقف حول أسقفه وخلفه أثناء الصلاة كلما أتيحت له الفرصة ، وتأخذ الحياة الروحية حيزاً من حياة المؤمنين اليومية ، ولا يكاد الشعب يصدق أن أسقفه ورئيس الرعاة يجلس فى مقصورته مرحباً بالكبير والصغير، فهذا يأتى ليبث شكواه وذاك يأتى لنوال البركة الرسولية وثالث يأتى ليقدم إقتراحات ويسمع توجيهات ، وهكذا طوال ساعات . ويشتد الزحام بالكنائس وتزداد الحياة الروحية عمقاً فإذا الكنائس والمؤسسات الإجتماعية والثقافية بل والنسكية تشاد من شرق المدينة إلى مريوط غربا . وكما كان المؤمنون فى عهد الرسل يأتون ليضعوا أموالهم وما يملكون عند أرجلهم لأجل خدمة الإخوة كذلك قامت تلك المؤسسات على الهبات . وكان آخرها ذلك الذى جاء من الصعيد إلى قداسة البابا ليقدم له أرضاً بمريوط ليقام عليها كنيسة ومؤسسة ثقافية . وهكذا كانت إقامة البابا فى مدينة كرسيه منبها قوياً لنهضة روحية لم ترها مدينتنا فى مثل تلك المدة القصيرة .

فإذا ذهب إلى مدينة مار مينا العجايبى بالصحراء الغربية لإحياء عيده فى كنيسته وديره اللذين شيدهما فى قلب الصحراء هُرع الشعب وراءه بالألوف متجشما مشاق تلك الرحلة الشاقة ومصاريفها ليحظى بالبركة المزدوجة بركة صاحب العيد وبركة الجالس على كرسى القديس مرقس الذى يحيى سنن أسلافه فى عهد الآباء الغر الميامين .

وإذا أقام الصلاة فالشعب كله وراءه والمتناولون يوميا يعدون بالمئات حتى فى القداسات التى يبدأها قداسته فى الساعة الثالثة مساء .

وإذا ذهب لزيارة إحدى الكنائس فما يعلم شعب الحى الذى به الكنيسة حتى يُهرع للقائه والترحيب به ونوال بركته الرسولية .

وكأن الشعب ظمآنا بعد كل ذلك فما أن ينتهى قداسته من الصلاة ويجلس فى البطريركية حتى يُهرع إليه المريض وذو الحاجة والمستزيدين من البركة .

هذه المحبة إن دلت على شيء فعلى أن شعب الإسكندرية يشعر بأن له أسقفاً يعطيه الكثير من نفسه فيبادله حباً بحب ووفاء بوفاء ، ويتيه زهواً وفخراً بأن الأيام قد أتاحت له أسقفاً يعرف واجبه نحو رعيته ويحاول جهده إعطاء « المدينة العظمى الإسكندرية » حقها وأن يملأ كرسيه فيها .

وبمناسبة مرور تسعة عشر قرناً على وجود أول كنيسة بالإسكندرية أمر قداسته بطبع نبذة مزينة بالصور باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية ، تشرح فى إختصار ما طرأ على هذه الكنيسة من أحداث وتطورات حتى يومنا هذا . وكم كنا نشعر بفخر عند توزيع هذه النبذة على كبار الزوار الأجانب ، فيظهرون سرورهم بهذه المفاجأة إذ يرجعون ومعهم تاريخ مختصر عن كنيسة الإسكندرية .

وضاقت الكنيسة المرقسية بمذابحها الثلاث بالصلوات اليومية فأنشأ مذبحا رابعا بإسم مار مينا العجايبى يقام فيه القداس فى الصباح الباكر . ومما يشرح الصدر حقيقة أن يرى الإنسان جمهرة المصلين وهم يُهرعون منذ الفجر للتمتع ببركة القداس فى ذلك المذبح .

وبعد ... ماذا أقول غير أنها نهضة روحية لم نرها قبل فى الإسكندرية ، وعفا الله عن أيام كنا نذهب فيها للصلاة يوم الجمعة فى الكنيسة فنرى المصلين لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة عداً .

الرب يثبت قداسة البابا كيرلس السادس سنين عديدة على كرسيه حتى يسمو بنا روحيا الذى أنشأ « مينا الخلاص » .

(مجلة مدارس الأحد ــ مايو ١٩٦٤)



البابا كيرلس السادس أمام الكرسى المرقسى
بالكنيسة المرقسية الكبرى بالأسكندرية

الفصل الرابع

خواطـــر
فى
ذكرى الجلوس البابوى

لمدة أكثر من ثلاثين سنة تولى رئاسة كنيسة الاسكندرية منذ أواخر عشرينيات هذا القرن ، رؤساء هم أصحاب كراسى غير كرسى الاسكندرية ، فكان ذلك خروجاً على تقليدنا الكنسى ـــ وكل تقاليدنا الكنسية لها حكمة وأساس ـــ الذى يحتم أن يرأس الكنيسة المصرية الأسقف الجالس على كرسى الاسكندرية ، خليفة القديس مرقس الانجيلى .

وقد أحاط بتوليهم هذه الرئاسة ظروف واعتبارات جعلت عهودهم مليئة بالخلافات والمشاحنات ، مما أعاقهم إلى حد كبير عن الالتفات إلى شئون رعيتهم الروحية ، وباعد بينهم وبين الكثيرين ، فكان كل منهم ملازماً قلايته البطريركية ، ولا يظهر إلا فى مناسبات خاصة قليلة ، وكأنه ملازماً برجاً عاجياً ، كل ما يصل إليه عن رعيته يصله بطريق غير مباشر . وكان لهذه الحالة ولا شك أثرها فى الحالة الروحية والاجتماعية للرعاة والرعية ، ونشطت البعثات التبشيرية المحيطة بنا والمتربصة لنا ... إلى أن ترأف الله علينا فهدانا إلى ملء كرسى الاسكندرية ، الذى ظل شاغراً طوال هذه المدة ، ووقعت القرعة الهيكلية على الرجل الذى أرسله الروح القدس ليأخذ بيد تلك الكنيسة العريقة ويوقظها بعد سبات روحى طويل ...

وما أن جلس كيرلس السادس على كرسى المدينة العظمى الاسكندرية وتلفت حوله حتى أدرك أن الحالة تستدعى نشاطاً سريعاً ومجهوداً كبيراً ، ورأى بعين الطبيب المجرب وبإرشاد الروح القدس أنه لا تنفع فيها الرسائل أو الوعظ أو الإكثار من الرعاة مهما بلغت درجة علومهم ، وإنما تقتضى منه مجهوداً شخصياً عنيفاً يهز به الراقدين فى سباتهم الروحى ، وفى كل العصور من تاريخنا كان لنشاط الجالس على كرسى الاسكندرية الأثر كل الأثر على حالة الكنيسة ، وكأنى به قد تقمص روح أثناسيوس الرسولى فى حركته المستمرة، فترك القلاية البطريركية وجعل منها محطة يستجمع فيها قواه للوثبة التالية ، وقام

يذرع البلاد طولاً وعرضاً ويزور القرى والبنادر التى لم يمش على أديمها فى تاريخها الطويل راعى الرعاة وبابا الاسكندرية ، فهب القوم من أبنائه أينما حل يتبعونه ويقتفون أثره فى الصلاة والتعبد ، وخيل لمن يتتبعه أنه قد جعل من الكنائس مسكنه ومن الصلاة عمله اليومى ، ومازال بطريقته الخاصة يدعو الناس إلى التلفت نحو الكنيسة والقيام بواجبهم نحوها ، جاعلاً من شخصه نموذجاً حياً لتلك الدعوة وذلك التعليم ، حتى امتلأت كنائس الكرازة بقصادها ، وإذا بالرعاة ينشطون ويقتفون أثر راعيهم الأكبر ... تصرف الكنائس الأخرى فى أنحاء العالم أموالاً طائلة فى التفنن بشتى الوسائل فى جذب المؤمنين إلى الكنائس وفى النهوض بروحانياتهم ، وبالرغم من جهودها الجبارة فى بعض الأحيان ، لا أظن أنها قد أصابت النجاح الذى أصابه كيرلس السادس بمجهوده الشخصى فى هذا السبيل .

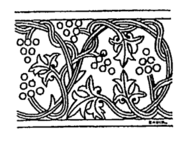
وفتح أبواب قلايته على مصراعيها ، ولم يجعل منها برجاً عاجياً ، وكلما حط رحاله فيها استقبل الأفواج من أبنائه الذين درجوا على الهروع إليه كلما افتقدوا البركة أو قابلتهم مشاكل روحية ، يستمع إلى كل منهم فى هدوء وطول روح وابتسامة جذابة .

وأراد أن يخطو خطوة أخرى إلى الأمام فى برنامجه الروحى ، فرنى ببصره إلى بقعة طاهرة ، غابت عن أذهان أبنائه فى غمرة عصر الإضطهادات فى القرون السالفة وفى زحمة الحياة ، أنها بقعة خلدها أثناسيوس الرسولى عندما أقام فيها نصباً تذكارياً للشهداء على قبر شهيد قبطى — فى صحراء مريوط — يدعى مينا ، وأراد الرب أن يكرم ذكراه فأحدث على قبره هذا معجزات وعجائب لا حصر لها حتى انفرد مينا بلقب العجايبى ، ووفد لزيارة قبره والتماس شفاعته فى شفاء أمراضهم جموع غفيرة من دانى الأرض وقاصيها ، فكان أول مجمع مسيحى فى ذاك الوقت ، قبل أن تشيد كنيسة القيامة ... كان قد لمس عدوى الشك التى اجتاحت العالم بعد الحروب فى هذا القرن ، وقد تسربت إلى أبناء كنيسته ، الشك فى سير شهدائنا وأبطالنا ، فرأى فى تلك البقعة بما فيها من آثار خير صفحة من صميم تاريخ كنيستنا القديم فى عصرها الذهبى يقدمها لأبنائه ، تؤيدها المخطوطات وتؤكدها المجموعات الأثرية المنتشرة فى كل مكان والآثار

وثائق التاريخ ، ورأى بثاقب فكره أن يقيم فيها نصباً تذكارياً يجذب اهتمام أبنائه بهذه الصفحة التاريخية ، وفعلاً قام بعمل جرىء لم يسبقه فيه أحد منذ خبا ضوء ذاك القبر طوال أحد عشر قرناً ، إذ أعاد بناء الكنيسة والدير فى تلك البقعة بما تيسر لديه من وسائل ، وبعد أن كانت مكاناً يهتم به بعض المشتغلين بالآثار والتاريخ فقط ، إذ بها تصبح محجاً لمسيحى مصر يقصدونها أفواجاً وجماعات طوال العام للبركة وللرياضة الروحية ، وما لبثت تلك البقعة الطاهرة أن عمرت بعد أن تألبت عليها عوامل الشر والتخريب فأسدلت عليها ستاراً من النسيان، وجذبت إليها أبناءه وكانت آثارها فى صمتها أبلغ من كثير من المؤلفات والرسائل والمواعظ ، وانطبق عليه قول أشعياء النبى « ومنك تبنى الخرب القديمة ، تقيم أساسات دور فدور ، فيسمونك مرمم الثغرة مرجع المسالك للسكنى » (أش ٥٨ : ١٢) .

أمثال البابا كيرلس السادس يحق لكل شعب ناهض يعرف أقدار الرجال أن يحتفل فى ذكرى جلوسه ببهجة وحبور ، تعبيراً عن الامتنان لتلك اليقظة الروحية التى شملت الكنيسة المصرية فى عهده ، والتى ستؤتى أكلها قريباً إن شاء الله .

(مجلة مدارس الأحد ــ مايو /يونيو ١٩٦٧)



الفصل الخامس

بمناسبة عيد الجلوس البابوى الحادى عشر

(٢ بشنس ١٦٨٦ ــ ١٠ مايو ١٩٧٠)

بين كيرلس الرابع وكيرلس السادس
١٨٥٤ م ــ ١٩٥٩ م

فى هذه المناسبة السعيدة، عيد الجالس السعيد على كرسى القديس مرقس الإنجيلى، صاحب الغبطة والقداسة البابا كيرلس السادس أسقف المدينة العظمى الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، يطيب لنا أن نحييه بتحرير شذرة للحقيقة والتاريخ ولأجل شباب هذه الأيام والأجيال المقبلة، ليقارنوا بين فترتين من أزهى فترات تاريخ كنيسة الاسكندرية فى العصر الحديث، وهما عصر الأنبا كيرلس الرابع والأنبا كيرلس السادس، فالتطابق بينهما يلفت النظر ويثير الإعجاب.

فى ٤ يونيو سنة ١٨٥٤ جلس الأنبا كيرلس الرابع على كرسى الاسكندرية بطريركاً للكرازة المرقسية، ولو أن تزكيته لهذا الكرسى ــ المنشورة إلى الآن فى المتحف القبطى ــ والتى تمت باسم القمص داود الأنطونى تمت قبل ذلك بسنة وشهرين، إلا أن الانقسام الذى كان سائداً بين القبط، والذى كان مظهراً لما كانوا عليه من الانحطاط، نتيجة ماقاسوه من ضربات الاستبداد المتتالية، أخرّ طوال تلك المدة جلوسه على كرسى الرسول. ومالبث أن قام فى همة لا تعرف الكلل، فى صبر ومثابرة وحكمة، يعمل على إقالة أمته من عثرات قرون الظلام، فأنشأ تلك المدرسة الكبرى التى أطلق عليها يومئذ إسم « دار العلوم »، غذت قصادها بالعلوم العصرية، وأدخل فيها جميع اللغات الحية من عربية وإنجليزية وفرنسية وإيطالية وتركية، ولم ينس القبطية التى كادت أن تندثر فشجع التأليف فى قواعدها. وأنشأ مدرسة أخرى فى حارة السقايين، كما أنشأ أول مدرسة للبنات فى مصر.

وأردف إنشاء المدارس بشراء مطبعة، فكانت ثانى مطبعة تدخل فى البلاد بعد المطبعة الأميرية ببولاق، وأعاد بناء الكنيسة المرقسية بالقاهرة.

وبالاختصار كان شديد الإيمان بحق أمته فى البعث والحياة ، وفى أن تتبوأ مكاناً لائقاً بها بين الأمم ، تنيح فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦١ بالغاً من العمر ٤٥ عاماً قبل أن يتم برنامجه الإصلاحى . وخلفه على كرسى القديس مرقس الأنبا ديمتريوس ، ثم الأنبا كيرلس الخامس ، وبعد ذلك طرأ على كنيسة الاسكندرية ما بلبل الأفكار وما اعتبره بعض المؤرخين بحق « عثرة الكنيسة القبطية فى القرن العشرين » فقد ظل كرسى القديس مرقس خالياً ، وولى على رآسة كنيسة الاسكندرية ثلاثة مطارنة لكراسى أخرى ، مما يخالف التقاليد منذ تأسيس الكنيسة ، كما يخالف قوانين مجمع نيقية المسكونى المنعقد عام٣٢٥م والذى جاهد أثناسيوس الرسولى وكيرلس الكبير فى تثبيت قوانينه وقراراته . لقد كانت كبوة خطيرة حلت بالكنيسة ، ولكن العناية الإلهية التى كانت ترعى الكنيسة دائماً وتتقذها ، امتدت يدها فى الوقت المناسب لتضع حداً لتلك السقطة ، فجلس على كرسى القديس مرقس وفقاً للعرف والتقاليد والقانون الكنسي قداسة البابا كيرلس السادس ، فكان انتخابه إيذاناً بعهد جديد تستقر فيه الأمور وتهدأ الأفكار ويطمئن الغيورون على قوانين كنيستنا ونظمها ، فتستأنف فيه الكنيسة سيرها إلى الأمام ... وتمر الأيام فاذا بنا نتبين فى كل يوم تطابقاً تاماً فى روحه وهمته مع سلفه العظيم الأنبا كيرلس الرابع .

بدأ فزار إيبارشيات القطر والكرازة حتى أثيوبيا مبشراً بعهد جديد يرجع فيه لكنيسته قوتها وعظمتها وجمالها ، ولا أرى أدل على قوة عزيمته وصدق إيمانه من تلك المحاولة الجريئة التى بدأ بها عهده ، إذ أزاح بيمينه ستار النسيان التى أسدلت على مدينة مار مينا العجايبى بمريوط ، ليرجع إلى شعبه ذكرى عزيزة غالية ، وليكشف له عن صفحة مجيدة فى تاريخ كنيسة الاسكندرية تؤيدها الآثار ، والآثار هى وثائق التاريخ ، إنها صفحة تاريخ الشهيد القبطى العظيم مار مينا العجايبى ، رمز شهدائنا الذين أثاروا إعجاب العالم بثباتهم وقوة إيمانهم ووفائهم للمبادىء والمثل العليا . كانت مدينة العجايبى أول محج فى العالم المسيحى ، يقصدها الحجاج بين القرنين الرابع والتاسع ليتبركوا ويستشفوا بتلك المياه المقدسة التى تفجرت فوق قبر شهيدنا فى وسط الصحراء .

لقد أقام قداسة البابا هناك ديراً ، وبيتاً ليخلو فيه قصاده فى سكون وهدوء

إلى ربهم فى تأمل روحى وعميق ، كما أقام كنيسة لم تلبث هى الأخرى أن أرجعت ذكرى سالفتها العظيمة التى لقبها مكتشفها كاوفمان . « اكروبول المسيحية القديم » ، إذ صارت هى الأخرى مقصداً ومحجاً للكثيرين ، وإن تدفق الشعب على هذه المدينة فى أعيادها لأكبر دليل على الأثر الروحى الذى كان لها .

وأيقن قداسته أن كنائس أفريقيا ستتلفت نحو كنيسة الاسكندرية بعد زوال الاستعمار من أراضيها ، فبدأ بانشاء كاتدرائية كبرى تتفق ومركز جمهوريتنا المرموق فى العصر الحديث ، هذه الكاتدرائية المرقسية التى ستظل هى الأخرى نصباً خالداً لهمة ذلك البابا ، وإذا بعظام القديس مرقس الإنجيلى تتحرك فى مرقدها الذى اختطفت إليه ، حنيناً إلى القارة التى نبت فيها وبشرها فتعود بعد غيبة عنها طوال أحد عشر قرناً ، وكان خليفته البابا كيرلس السادس هو السعيد الحظ الذى تشرف بحملها إلى مثواها الأخير ، إنها علامة رضا وبركة من السماء .

وتأتينا فى نفس الوقت علامة أخرى سماوية إذ تشترك أم النور مع الإنجيلى كاروز الديار المصرية فى إضفاء البركات على رجل الصلاة والسلام والإصلاح ، فتظهر فى كنيستها بالزيتون ذلك الظهور الفريد فى نوعه الذى بهر العالم .

ثم يتلفت إلى العلم والثقافة فيخطو خطوات ثلاث هى الأولى من نوعها فى تاريخنا الحديث . إذ يرفع من شأن الكلية الإكليريكية التى هى العامود الفقرى للإصلاح الروحى برسامة أسقف فاضل عليها اشتهر بالعلم والورع ، ويثبت رسالة المعهد العالى للدراسات القبطية فيرسم عليه أسقفاً آخر للدراسات العليا والبحث العلمى فجاء اختياراً موفقاً صادف أهله ، وأما الفقراء والمحتاجون والاستقرار العائلى وخدمة الأسرة الروحية فيخصص لها أسقفاً للخدمات الاجتماعية له باع طويل فى هذا الميدان ، وقد أتم بهذا المثلث المنتخب وضع أسس النهوض بالشئون الروحية والثقافية والجسدية لأبنائه .

ثم أحاطهم بصفوة من رجال الفكر والأدب والعلم ، حتى يعمل الجميع فى صعيد واحد بروح الجماعة فيما يعود على البلاد والكنيسة بالخير ، ويجعل منهم

سياجاً لحفظ تراثنا القومى من الضياع ثم لإحيائه ، فكان نعم العمل إذ نسمع عن لجان للغة وللتاريخ وللآثار وللفن وللعمارة وغيرها .

ولأجل أن تزيد صورة البابوين العظيمين تطابقاً نسمع فى هذه الأيام بقدوم مطبعة جديدة ، فيبادر قداسة البابا بتدشين دار خاصة لها فى حفل . وإذا كان الأنبا كيرلس الرابع قد أمر باستقبال المطبعة بموكب حافل يسير فيه الأكليروس بملابسهم الرسمية وينشد التلاميذ أناشيد الفرح ، فقد زاد الأنبا كيرلس السادس فى تقديره لأثر هذه الآلة على العلم والثقافة فأمر بأن يبنى لها مبنى خاص حتى تقوم بمهمتها على الوجه الأكمل ويغزر إنتاجها ويلحق بها كل ما من شأنه أن يجعلها وحدة متكاملة .

وعلم أن جمعية مار مينا العجايبى بالاسكندرية ، التى تخدم التاريخ القومى والثقافة منذ ربع قرن قد وضعت مرجعاً لقواعد اللغة القبطية قام به نخبة من المشتغلين والمعنيين بهذه اللغة ، شرح شرحاً وافياً باللغة العربية ، ليرجع إليه الطلبة والدارسون والباحثون ، فجاء كتاباً فريداً فى موضوعه ، شاملا لنواحيه المختلفة ، فطلب الاطلاع على أصوله ، ورأى شدة حاجة الكنيسة والدارسين فى هذه اللغة إليه ، فأمر بطبعه على نفقته الخاصة ، فكانت لفتة كريمة من قداسته توج بها ذلك المجهود المضنى فى موضوع لم يطرقه أحد من قبل فى بلادنا بذلك الشمول والاتساع ، وقد أسدى إلى العلم بإخراج ذلك الكتاب إلى عالم النور يداً لن تنسى أجيالا وقروناً عديدة .

ويرفع بصره إلى الأفق البعيد فيرفع منارة الكنيسة لأول مرة فى الدنيا الجديدة ، وفى استراليا ، إذ ينتقى من بين خيرة الرعاة من يرسلهم ليرعوا خرافه فى تلك الأقطار النائية فيدخل إلى قلوبهم دفء الطمأنينة الروحية ويوصل إتصالهم بأمهم التى أرضعتهم الإيمان .

ويرسل المبعوثين إلى جميع المؤتمرات الكنسية التى تدعى إليها ليعبروا عن حيوية كنيستنا فقد جاء وقت ليس بالبعيد كان العالم يجهل فيه أن فى مصر كنيسة وطنية حية .

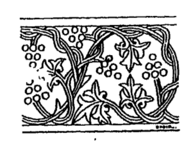
وبعد أن كنا نعلم دائماً أن رئيس كنيستنا يظل حبيس القلاية البطريركية لا يزوره إلا الخاصة المحظوظون لدى الحاشية لمدة لحظات عابرة يمنحون فيها

البركة ، ولا يراه رعيته إلا لماما ، إذا بالبابا كيرلس السادس يرجع بنا إلى ذلك التقليد الجميل فى عصر آباء الكنيسة ، عندما يستقبل أبناءه يومياً زرافات ووحدانا ، فقيرهم قبل غنيهم ، يلقون عليه أثقالهم وأحمالهم ، فيتقبلها بصدره الرحب ، وببشاشته المعهودة ، يزودهم بنصائحه ويمنحهم بركاته ، فيخرجون شاكرين غانمين وقد غمرتهم راحة نفسية عميقة ، ويلاحقهم بعد ذلك يومياً فى الكنيسة ليناولهم الأسرار المقدسة .

عندما كنا نحتفل فى العهود السابقة بذكرى الأنبا كيرلس الرابع ، لم يدر بخلدنا حينذاك أنه لن تمر على نياحته مائة عام ، حتى تكتحل عيوننا برؤية خليفة له هو صورة طبق الأصل منه فى روحه وهمته ومنجزاته .

هذا سجل رائع لم يطو بعد ، ومازالت صفحاته تتسع للكثير من همة ذلك البابا المصلح العظيم .

فإذا كنا نرفع إليه اليوم بمناسبة عيد جلوسه السعيد تحية بنوية خالصة ، فإنما نعبر عما يشعر به جميع أبنائه من محبة واحترام وسرور عميق ، وإننا لنسجد للرب شكراً إذ جعلنا نعيش حتى نرى ونسمع ما اشتهينا أن نراه ونسمعه منذ أكثر من أربعين عاماً . أطال الله حياته حتى يحقق الكثير مما تصبو إليه نفسه ، وثبته سنين عديدة على كرسيه حتى يرى ثمرة أعماله ، وللرب الشكر والمجد دائماً .



الفصل السادس

رسالته الخالدة
لا تموت

فى غمرة من الآسى والحزن العميق ، تنعى جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية الى الوطن والى كنيسة الإسكندرية بجميع طوائفها رجلا عظيما، عاش فى تواضع وانكار ذات ونسك طوال حياته . وكأن الجمعية التى عرفته أكثر من ربع قرن كانت ترسل له كلمة وداع وتأبين عندما اصدرت رسالتها الخاصة بعيد الجلوس البابوى فى مايو ١٩٧٠ تعدد فيه مناقبه وأعماله والتى ختمتها بقولها « فاذا كنا نرفع اليه بمناسبة عيد جلوسه السعيد تحية بنوية خالصة .. فإنما نعبر عما يشعر به جميع ابنائه من محبة واحترام وسرور عميق ، واننا لنسجد للرب شكرا اذ جعلنا نعيش حتى نرى ما اشتهينا أن نراه ونسمعه منذ أكثر من اربعين عاما . » .

ولقد أكرمه الرب إذ أظهر فى عهده المكرمات والمعجزات الشىء الكثير ، وكان مظهرها ذلك الظهور العجيب الفريد لأم النور فى ديارنا الذى بهر العالم ، واختاره ليحمل رفات الإنجيلى مرقس الرسول الى مثواها الأخير .

سيسطر له التاريخ صفحات مضيئة خالدة ، ولست هنا فى وضع لأعدد مآثره وأعماله ، ذلك الطوباوى الذى تقمص روح آباء الكنيسة والرهبنة فكان صورة حية لهم فى عمق إيمانهم وبعد نظره وصلاته ونسكه وعذوبته . ترك الكنيسة بعد أن جعل لها مركزا مرموقا على المستوى العالمى وصوتا مسموعا فى المؤتمرات والاوساط الكنسية . وكان آخر عمل قام به أن أراد تحقيق أمنية طالما جاشت بصدره ، وهى افتتاح مزكز للدراسات القبطية والمسيحية فى الإسكندرية عاصمة الكرازة المرقسية ومركز الكرسى البابوى ليرجع للكنيسة بعض مجدها فى عصر الآباء عندما اشتهرت الإسكندرية بمدرستها اللاهوتية .

رحمه الرب رحمة واسعة ، لقد استحق اكليل البر بعد أن جاهد الجهاد الحسن وحفظ الإيمان وليعزينا الرب جميعا .

وطنى ٢١/٣/١٩٧١

الفصل السابع

التراث الروحى للبابا كيرلس السادس

يقول القديس بولس فى رسالته الأولى إلى تيموثاؤس « أما الشيوخ المدبرون حسنا فليحسبوا أهلا لكرامة مضاعفة » ، هذا القول ينطبق كل الإنطباق على المتنيح المثلث الرحمات البابا كيرلس السادس . فقد آحطناه جميعا بحبنا وتقديرنا فى حياته ، وما رأيناه وما سمعناه من تقدير وتكريم بعد نياحته أيضا ، يجعلنا نردد قول الشاعر « علو فى الحياة وفى الممات » .

جلس الطوباوى الأنبا كيرلس السادس على كرسى القديس مرقس ، بعد فترة عصيبة فى تاريخ الكنيسة دامت أكثر من ثلاثين عاما ، اتسمت بالفرقة والخصام ، وبالفتور الروحي وبظواهر غريبة ، فلأول مرة فى تاريخ الكنيسة منذ عشرين قرنا ، يتولى رآستها ثلاثة مطارنة بصفة متتالية ، عوضا عن أن يرأسها أسقف المدينة العظمى الاسكندرية ، الذى يجلس على كرسى القديس مرقس ، ولذلك عرفت كنيستنا فى التاريخ بكنيسة الاسكندرية ، وتبع ذلك إبقاء كرسى أسقفية الاسكندرية خاليا طوال هذه المدة . ولم يقتصر الأمر على هذه الظاهرة الفريدة خلال هذه الفترة ، بل إقترنت بظواهر أغرب منها لا مجال لذكرها الآن .

وهناك عامل مؤثر آخر فى الفتور الروحى كانت قد بدأت بوادره تصل إلينا ، وهى موجة المادية والإلحاد الذى بدأ يجتاح العالم .

ولذلك جاء جلوسه ، نيح الله نفسه ، فى وقت كانت الكنيسة فيه فى أمس الحاجة إلى رجل مثله . كان البابا كيرلس عظيما ، تلك العظمة التى يدعوها غريغوريوس النازينسى العظمة الشخصية : فنرى فى شخصه أرثوذكسيا متحمسا ومسيحيا من نوع آباء الكنيسة الذين كانت لهم سمة خاصة ذهبت بذهابهم ، كان خادما لروح الإنجيل ، وكان ناسكا جديرا بهذا الإسم ، ولم يكن ناسكا فقط بل رئيسا للرهبنة ترك تلاميذ عديدين فيها .

ويقول غريغوريوس النازينسى أيضا هذه الجملة الجميلة عن القديس باسيليوس الكبير « لقد كان كاهناً قبل أن يكون كاهناً »، وها نحن قد لمسنا فى

فقيدنا العظيم فضائل الكهنوت كاملة قبل رسامته . كان كاهنا فى حماسه وتقواه ، وفى إتزان فضائله ، ونقاء حياته ، حتى قبل أن يتحلى بصفة الكهنوت . كما كان متواضعا وطاهرا . لقد كان ينبىء برسامته قبل تقبل سر الكهنوت ، إذ كان منذ نشأته مكرسا نفسه للرب بمثابرته على التقوى وأعمال المحبة . ولما كان واضعا نفسه دائما تحت مشيئته ، بإطاعة أوامره ووصاياه ، فقد أعدها أحسن إعداد لأن يهبها كلها ، عندما أرادت المشيئة الإلهية ، والمشيئة الإلهية وحدها ، أن توضع عليه الأيادى ليجلس على كرسى القديس مرقس ، وهكذا أعده نقاؤه لتقبل نعمة الروح القدس بالرسامة المقدسة . وما أن جلس حتى جذب إليه النفوس بفضائله وتقواه اللذين أرسلا ضوءهما النقى على الكنيسة بأسرها .

إن خدام الرب يسوع لهم وظيفتان رئيسيتان : أن يتحدثوا إلى الرب وأن يتحدثوا إلى الشعب . أن يتحدثوا إلى الرب بالصلاة ، وأن يتحدثوا إلى جمهور المؤمنين بالوعظ والإرشاد ، هاتان الوظيفتان متحدتان ، ونستطيع أن نلاحظهما فى أقوال الرسل فى سفر الأعمال « أما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة »، وكان البابا كيرلس السادس فى حياته مثلا حيا هذه الآية .

إنه بدأ فجعل من سلوكه الشخصى درسا عمليا لرعيته ، لم يصدر منشورات بما يجب وبما لا يجب ، لم يعتل منبرا ليلقى أقوالا قد تذهب مع الريح ، بل كان مثل آباء البرية الذين جعلوا من حياتهم وسلوكهم الشخصى أمثلة حية أمام مشاهديهم والمستمعين إليهم . كلنا نعلم أنه كان رجل صلاة قبل كل شيء ، حتى تساءل البعض فى بدء عهده : ما هو الوقت الذى يبقيه لتدبير شئون رعيته ؟ لم يلتفت إلى هذه الأقوال بل مضى فى طريقه ، ذلك الطريق الذى ترك لنا عليه معالم خالدة : ترك لنا وللأجيال دير مارمينا العجايبى ليرفع الغبار عن صفحة مجيدة خالدة من تاريخنا الذهبى ، مؤيدة بالآثار ، والآثار وثائق التاريخ ، وترك لنا تلك الكاتدرائية العظيمة الفخمة لينبىء الأجيال بأن رفات ذلك الرسول العظيم القديس مرقس الإنجيلى تحركت فى عهده وحنت إلى الرجوع إلى وطنها ، بعد أن تركته منذ أحد عشر قرنا عندما وصلت حال الكنيسة إلى درجة ، فضلت فيه أن تجد مثواها بعيدا عن وطنها ،

وترك لنا وللأجيال خبر تلك الظاهرة الروحية الفريدة عندما ظهر طيف السيدة العذراء فى عهده للمرة الأولى منذ عشرين قرنا على كنيستها فى الزيتون .

ليس ما هو أفعل لأجل إدخال التقوى فى النفوس ، من أن يجعل أولئك الذين يخدمون الرب من حياتهم أمثلة حية أمام أعين رعيتهم ، ولذلك ما لبثت حياة الصلاة هذه أن كان لها أثرها المباشر وغير المباشر فى حياة الكنيسة وفى نفوس المؤمنين . فإذا بالسلام يرفرف بجناحيه على محيط الكنيسة ، وإذا بالكنائس تفتح يوميا لإستقبال أفواج المؤمنين ، وإذا بالطقوس التى كانت تنوسيت تسترد حيويتها وتفعل فعلها فى نفوس المؤمنين ، وإذا بالشباب الحائر الذى يهيم على وجهه فى أمم أخرى ، عرفت كنيستنا كيف تحتضنه ، وكم هو منظر رائع منظر تلك الشبيبة التى تعد فى المتوسط بالمئات فى كل كنيسة ، تلتف حول المذبح طالبة ذلك القوت السماوى الذى يضفى على النفوس السلام وينزل عليهاالسكينة والطمأنينة ، ويعدها لحياة أفضل ، فتجد الكلمة فى نفوسهم أرضا خصبة تؤتى ثمارها ثلاثين وستين ومائة . ويثير هذا المظهر ما يكمن فى نفوس البعض من حب الخدمة والتضحية ، فيقبل على الكهنوت أفواج من المثقفين ليتلقف هؤلاء الشباب ، حتى أساتذة الجامعات فضلوا الإنخراط فى سلك الكهنوت ، وينشط بعض الكهنة فى تأليف الكتب الدينية بأنواعها ، للمساهمة فى التغذية الروحية لنفوس الشباب المتعطشة ، وتتكاثر فصول الخدمة الكنسية للنشىء،[1] حقا أنه لمظهر طريف فى تاريخ كنيستنا فى العصر الحديث لم نكن نحلم به ، وإنه لإنعاش روحى سيمتد أثره إلى أجيال عديدة . أنه تراث تركه لنا ، يقع على عاتقنا الحفاظ عليه ، وفاء منا لذلك الذى أحبنا من كل قلبه . كنا نرى كل ذلك ونمجد الرب إذ جعل من تلك الشخصية الفذة شخصية البابا كيرلس السادس وسيلة لخلاص نفوس كثيرة ، وإشعاع روحى فى كنيستنا فى الوقت الذى تشكو فيه فقرها منه أمم أخرى .

كان كل تفكيره متجها إلى ما يرفع من شأن الكنيسة ويقوى دعائمها، وخصوصا تلك الأجيال الصاعدة ذوى النفوس المهيأة لتقبل ما يلقى إليها . فعندما علم أن الشبيبة مقبلة على تعلم اللغة القبطية لتشارك فى المحافظة على لغة الكنيسة التى تسلمناها من أبائنا وأجدادنا والتى تكون ركنا لشخصيتنا ، والتى

جعلت من محيط الكنيسة القبطية ملجأها الأخير ، أمر بطبع مرجع فى قواعد هذه اللغة هو الأول من نوعه فى مصر منذ أن نهض بهذه اللغة المتنيح الأنبا كيرلس الرابع فى منتصف القرن الماضى .

وقبل نياحة الأنبا كيرلس السادس بأربعة أيام كان يحدثنى عن أمنيته فى أن يفتتح فى الاسكندرية مركز الكرسى الباباوى مركزا للدراسات المسيحية ليروى ظمأ الكثيرين من الشبيبة فى تلك المدينة العظيمة ، المتعطشين إلى المزيد من المعرفة عن كنيستهم : عقائدها وطقوسها وتاريخها .

ولقد كان حديثا طليا ، حدد فيه بنفسه نقطة البداية ، آملا أن يكبر مع الزمن ليكون مركز إشعاع ، كما كانت مدرسة الاسكندرية فى المسيحية فى عصر الآباء ولكن المنية لم تمهله . ولكنى على يقين بأن البابا كيرلس السادس خلف أبناء حريصين على تراثه ، سيتممون بعزيمة صادقة ما بدأه وتمناه ، وسيسيرون على نفس الطريق الذى سار عليه .

وبعد أن وهب جميع أيامه للرب ، فى تقوى ومثابرة فى الصلاة ، يقود النفوس بالصبر ، ويعمل لصالح الكنيسة بدون هدانة ، رقد فى شيخوخة صالحة ، ناداه الثالوث الأقدس إلى مثوى القديسين ، إلى حيث أسلافه من البطاركة والأنبياء والرسل والشهداء وجميع جنود العلى . فنال من التكريم عند تركه هذه الحياة ما لم يره حتى فى أحسن أيامه . وأقيم له من الدموع الغزيرة التى سكبت ومن الذكريات الخالدة نصب تذكارى .

(وقد كتب الدكتور منير شكرى فيما بعد فى إحدى رسائله : « ... كان قداسته يحبنى كثيراً ، وقد باركنى بيده الأثنين فى آخر مقابلة لى معه قبل وفاته . ») .



الفصل الثامن

فى رثاء قداسة البابا كيرلس السادس

أيها الإخوة الأحباء

ما أن جلس القمص مينا المتوحد البرموسى على كرسى القديس مرقس الإنجيلى حتى عم الفرح البلاد من أدناها إلى أقصاها ، إذ استبشرت فى البابا كيرلس السادس راعياً جليلاً وحبراً عظيماً وقائداً قديراً ، وكانت الكنيسة القبطية تمر بفترة من عدم الاستقرار منذ نياحة البابا كيرلس الخامس أثر على حياتها الروحية والطقسية ، فما أن جلس على كرسى المدينة العظمى الإسكندرية حتى قام بنهضة روحية تفتحت أمامها أبواب جميع كنائس القطر طوال أيام الأسبوع ، وجعل من نفسه مثلاً حياً يتقدم الجميع فى الصلوات بكرة وعشية موحياً لهم بإيمانه العميق بقوتها وفعاليتها فى أن نجتاز سيل التجارب الجارف إلى ميناء الخلاص . وأقبل الشعب الظمآن على الكنائس ينهل من ذلك الماء العذب الذى من يشرب منه لا يعطش أبداً . وامتلأت الهياكل بالمتناولين ، وكم كان منظراً مبهجاً حقاً أن نلاحظ الغالبية من عنصر الشباب .

أيها الإخوة

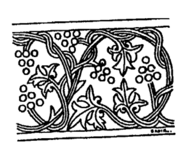
مضت قرون طويلة على مسيحيى مصر جعلتهم الظروف فيها ينسون تاريخ كنيستهم وما كان لها من مجد تاليد بفضل شهدائها الأبطال سواء منهم من وصلت إلينا أسماؤهم فكانوا بمثابة معالم الطريق الذى سلكته المسيحية فى مصر أو من لم تصل إلينا أسماؤهم فكانوا الذين مهدوا هذا الطريق وافترشوه بأجسامهم ، وكان من العسير على البعض أن يدرك ذلك المجد دون وثائق تثبت ذلك ، ولذلك ما أن تولى قداسة البابا كيرلس السادس رآسة كنيسة الإسكندرية حتى قام بتحقيق أمنية طالما جاشت فى صدره وسعى جاهداً إلى تحقيقها ، فاتجه ببصره إلى ذلك المكان التاريخى الفريد ، بل إلى تلك المدينة المرمرية العجيبة التى تحكى الكثير عن المسيحية فى عصرها الذهبى فى مصر ليزيح عنها ستار النسيان خدمة للتاريخ وللمسيحية عامة ولأبناء كنيسته فى الحاضر والمستقبل ، وامتدت يده التى تعودت على البناء والتشييد ، بناء

النفوس ودور العبادة ، وإذا بدير عظيم يقام تذكاراً للدير الأثرى وكنائس تقام تذكاراً لكنيسة أركاديوس العظيمة فيهرع الجموع مرة أخرى ، للتزود ببركة القديس العجايبى كما كان يفعل أباؤهم وأجدادهم .

وكرضاء على تلك النهضة الروحية توالت بركات السماء فالعذراء تظهر ظهوراً نورانياً ، وتأتى إليه رفات القديس مرقس الإنجيلى إذ أرادت أن يضمها فى عهده تراب مصر فيضعها بكل إجلال فى تلك الكاتدرائية العظيمة التى كان إنشاؤها أعجوبة هى الأخرى .

وهناك صرح آخر أقامه لشهيدة ميدان الثقافة التجأت إلى أحضان الكنيسة منذ أجيال ، وهى اللغة القبطية ، فأمرنا — جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية — بأن نقوم بإعداد أكبر مرجع فى قواعد اللغة القبطية فى العصر الحديث مشروحاً بالعربية ، على نفقته الخاصة ، فأسدى بذلك إلى لغة الكنيسة وإلى الدارسين بها وإلى التاريخ والآثار يدا سيخلدها له التاريخ ذكراً عاطراً .

قام بكل ذلك وبالكثير غيره فى تواضع وهدوء ينمان عما فى نفسه من قداسة ، ومن روح أباء البرية أولئك الذين قال فيهم الآب روسيلو فى كتاب (كرستوس) « إذا بحثنا بعناية المثل العليا التى كان هؤلاء النساك يضعونها نصب أعينهم تتملكنا الدهشة ويستولى علينا العجب لما كانوا يتحلون به من دقة الملاحظة النفسانية والحكمة العملية ، بل ما نضعه فى كلمة واحدة ، الذوق السليم فى روحانيتهم » ، وكان البابا كيرلس السادس مثلاً حياً لكل ذلك لكل من شاهده أو استمع إليه . الرب ينيح نفسه فى فردوس النعيم فى أحضان القديسين ابراهيم واسحاق ويعقوب ، والمجد والشكر لله دائماً .



الفصل التاسع

كلمة وفاء

« أما الشيوخ المدبرون حسنا فليحسبوا أهلا لكرامة مضاعفة » .

فى القرن الرابع دعا الأنبا أثناسيوس البابا العشرين صديقه الناسك دراكونيوس إلى خدمة الكنيسة كأحد أمرائها مبيناً له فى رسالة قوية أن خدمة الكنيسة لاتتعارض مع النسك والتعبد ولا تقل عنهما فى عينى الرب ، ومنذ ذلك الوقت دخل الرهبان فى خدمة الكنيسة فكان دخولهم خيراً وبركة عليها فى جميع أنحاء العالم ، وفى القرن العشرين دعا الأنبا أثناسيوس أسقف بنى سويف المتنيح الراهب القمص مينا المتوحد إلى ترك ديره ووحدته ليتقلد منصب رآسة الكنيسة إذا شاءت الإرادة الألهية ، أقول دعاه لأنه لم يسع إليها ولم يفكر فيها ، وجلس على كرسى القديس مرقس ، فكان صورة حية للناسك الذى جاء لخدمة الكنيسة ، جعل من نفسه ومن سلوكه صورة حية لمعلمى جامعة البرية ، فلم ينس قوة الصلاة وفاعليتها ، والحياة الروحية وقوتها ، ونظر إلى القطيع الذى قام لرعايته فإذا به فى شدة العطش الروحى ، فذرع البلاد طولاً وعرضاً ليدخل الكنائس صباحاً وعشية مصلياً ومسبحاً فى خشوع وتقوى ، جاعلاً من هذه الزيارة إشارة إلى بدء نهضة روحية عمت البلاد لم نسمع عنها من قبل فى عصرنا الحديث فإذا بالشموع توقد حول المذابح يومياً مرة أو أكثر وإذا بالبخور يرفع أمامها ، وإذا [بالعشيات] تمتلىء بالمصلين مئات وألوفاً بعد أن كان يحضرها الكاهن والمعلم والشماس ! ، ورنى ببصره إلى الماضى البعيد إلى العصر الذهبى لكنيسة الأسكندرية فطوى رحلة طويلة فى بطن الزمن بعزيمة قوية عندما نفض الرمال عن مدينة العجايبى وأعاد بناء ديرها العظيم ليضع أمام الشعب قطعة من التاريخ هى مصدر فخار قومى وروحى ، فإذا بالقطيع يهرع إليها متبركاً مستبشراً ويأتى الأجانب من بعيد ليشاهدوا ما تفعل قوة الإرادة وحب البناء . وإذا بالعمار يمتد إلى ما حولها وكأن بركة القديس كيرلس السادس قد عمت الصحراء فيتفجر البترول وتشق القنوات ، وإذا برمال الصحراء التى أنبتت القديسين تقدم لمصر الذهب الأحمر والذهب

الأسود كل ذلك يقوم فيه بهدوء وإنكار ذات ودون فرض أتاوات على واحد ، وأثمرت النهضة الروحية وآتت أكلها ، إذ كان من أثر تلك الصلوات التى ترفع صباحاً ومساء أن أظلت علينا والدة الاله القديسة مريم فى ظهور أدهش العالم وقوى حياة الإيمان والتقوى .

كان رحمه الله طموحاً عالى النفس ، أراد أن يجعل من كرسى كنيسة الأسكندرية منارة عالية فى القارة التى بشرها القديس مرقس ، فشرع فى بناء الكاتدرائية المرقسية الجديدة وفاوض لجلب رفات القديس مرقس إلى الأرض التى بشرها وشربت دماءه ، وكان من علائم الرضى على ذلك البابا العظيم أن حمل تلك الرفات إلى مثواها الأخير ، وحقق بذلك أمنية طالما جاشت بصدره .

وطوال ذلك الجهاد وتلك الحركة كان بابه مفتوحاً للغنى والفقير والكبير والصغير يومياً ، فلم يعرف للراحة طعماً وحتى فى مرضه الأخير لم يسمع نصح الأطباء بالخلود إلى الراحة وتنيح وهو واقف بين كرسيه وسريره كالجندى الباسل يموت وهو حامل علم الجهاد .

شجع الثقافة التاريخية والدينية فأمر بعمل اللجان للتأليف والنشر والبحث عن الآثار وجمع حوله نخبة من المثقفين ، وأخيراً وليس آخراً إستجاب إلى تعطش الشباب إلى تفهم القداس القبطى ، فذهب خدمة للعلم والعلماء إلى أبعد من ذلك وأمر بطبع [مرجع للغة القبطية] كانت جمعية مار مينا العجايبى قد كونت نخبة من الباحثين لوضعه فصرفوا الليالى الطويلة طوال خمس سنوات لوضعه والتحقق من كل كلمة ، أمر بطبعه على نفقته الخاصة .

هذه لمحة صغيرة ووقفة قصيرة على قبر ذلك الحبر العظيم الذى عاصرته وعاشرته فى نسكه وفى جلوسه على كرسى القديس مرقس ، فكنت أرى فيه فى الأولى صورة لعذوبة القديس باخوميوس وهو يعامل أولاده الرهبان ولشدة الأنبا شنودة وهو يدافع عن الكنيسة ، وفى الثانية صورة لعزيمة القديس كيرلس الكبير ، ومكملاً للنهضة الحديثة التى وضع أسسها الأنبا كيرلس الرابع ، أقدمها للحقيقة والتاريخ بمناسبة مرور عام على نياحته ، الرب ينيحه فى أحضان القديسين إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأسلافه آباء البرية وباباواتنا العظام .

(جريدة وطنى مارس ١٩٧٢)

الفصل العاشر

إنجازات هذا القديس ... كيرلس السادس

فى وقت إشتدت فيه حاجة الكنيسة القبطية الى الراعى القدير الذى يبعث فى ارجائها نهضة روحية شاملة متقمصا روح آباء البرية الذين كانوا يجعلون من أشخاصهم وسلوكهم صورة حية لتعاليمهم ، أرسل الرب اليها على كرسى القديس مرقس الانجيلى ـــ الذى ظل شاغرا ردحا من الزمن ـــ البابا كيرلس السادس ، ولا زالت فى آذاننا أصداء تلك الفرحة والبهجة اللتين استقبلت بهما المدينة العظمى الاسكندرية أسقفها ، ورنين الفرح فى سائر انحاء الكرازة المرقسية . وما أن جلس على كرسيه حتى تلفت الى الطقوس فأجرى فيها تصحيحا كانت فى حاجة ماسة اليه ، فالكنائس تفتح أبوابها يوميا للمصلين ، وكنيسة البطريركية تقام فيها ثلاث قداسات يوميا ، ويفتح أبوابه على مصراعيها للشعب المتعطش الى التبرك من أبيه الروحى ، واذا بالكنائس تغص بالمصلين ، وبالهياكل تمتلىء بالمتناولين ، وتزداد الدروس الدينية والمحاضرات التاريخية فى الكنائس فيقبل عليها الشباب فى نهم شديد ، وتمتد القداسات فى الاصوام إلى الثالثة بعد الظهر . وكم كان منظرا مبهجا حقا تسابق أبنائه فى السلام عليه التماسا لبركته ويستقبل الجميع بابتسامته الجذابة ، وكم كنا نشفق عليه من هذا المجهود ولكنه يرفض أن يوضع له حد .

يلقب المؤرخون باباوات الإسكندرية فى القرنين الرابع والخامس بالباباوات الفراعنة لضخامة الكنائس والاديرة التى شيدت فى عهدهم مثل كنيسة مارمينا العجايبى بمريوط ، وكأن كيرلس السادس قد تقمص روح كيرلس الكبير عامود الدين فاذا به يشيد اكبر كاتدرائية فى أفريقيا فجاءت فى فخامتها وعظمتها رمزا لتلك الروح الوثابة التى كان يتحلى بها ، وتلفت الى « بومنا » فى الصحراء الغربية ، مدينة شفيعه القديس مينا العجايبى ، تلك المدينة المرمرية التى غطتها رمال الصحراء وأسدلت عليها ستار النسيان ، فنفض عنها ذلك الستار وأرجع لها مجدها وعزها ، واذا بجموع الحجاج تهرع اليها زرافات ووحدانا ، كما فى سابق العصر والاوان ، يأتون اليها من جميع انحاء القطر ليروا بأعينهم ويلمسوا بأيديهم آثار ذلك المجد الذى أحاط به الرب أحد شهدائهم

الابطال ، وأقام هناك ديرا وكنائس ، وانتشرت الكنائس التى تحمل اسم العجايبى ، وانتشر اسمه بين أبنائنا ، بعد أن كان فى زوايا النسيان .

كان ناسكا فوق جبل المقطم ، وكان راهبا فى « مينا الخلاص » ولكنه كان على البعد يرنو بنظره الى مدينة العجايبى يرسل الينا الخطاب تلو الخطاب ، ويقابل المسئولين عن الاثار هنا وهناك ليسمحوا له أن يقيم قلاية فيها ، وتقف الحرب العالمية الثانية حائلا دون تحقيق رغبته ، اذ اعتبرت منطقة عسكرية ، ولكن العجايبى كان من فوق يرنو اليه أيضا ، ويعمل على تحقيق رغبته ويباركه ، فاتاح له الجلوس على كرسى القديس مرقس الانجيلى ليحقق حلمه فى النهوض بتلك المدينة . ولم ينس مدينة كرسيه فانتشرت الكنائس فى الاسكندرية ورسم عليها نخبة من الكهنة الطقسيين وكان يطيل اقامته فيها بين وقت وآخر ليتيح لشعب أسقفيته أن يشفى غليله ويروى ظماه .

وأرادت جمعية مار مينا العجايبى بالاسكندرية ، تلبية لسؤال الكثيرين ، أن تقوم باعداد « مرجع لقواعد اللغة القبطية » ، وما أن علم بذلك المشروع الجليل حتى شجع القائمين به ومنحهم بركاته ، وأمدهم بكل مايحتاجونه من مال ، فكان التوفيق ملازما لهذا المشروع الجليل ، ويكفى أن أذكر أن العثور على المسبك الخاص بالاحرف القبطية كان باعجوبة ، وقام بطبع الكتاب أى بصف حروفه القبطية شاب لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ولم يسبق له أن صف غير الحروف العربية .

فترك قداسته بذلك أثرا ثقافيا خالدا علاوة على ما ترك من آثار . وحق له أن يردد قول بولس الرسول « قد اكملت السعى وحفظت الايمان » ، طيب الله ثراه ونيحه فى أحضان القديسين ابراهيم وأسحاق ويعقوب .

(وطنى ٢٠ مارس ١٩٧٧)



الباب الرابع

جمعية مارمينا العجايبى للدراسات القبطية بالأسكندرية



اعضاء مجلس ادارة جمعية مارمينا العجايبى بالأسكندرية برئاسة د. منير شكرى فى اجتماع الجمعية العمومية عام ١٩٨٣م. ويرى فى اقصى يمين الصورة الأستاذ برهوم حنين منصور الرئيس الحالى للجمعية، وفى أقصى يسار الصورة طيب الذكر المصور جورج هالى.

الفصل الأول

الاحتفال باليوبيل الفضى
لجمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية

أوفد قداسة البابا كيرلس السادس نيافة الأنبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمى ليرأس إحتفال جمعية مارمينا العجايبى العلمية بالإسكندرية ، بمناسبة مرور ٣٠ عاماً على تأسيسها ، بوحى من قداسته وهو لا يزال متوحداً .

وقد أقيم الإحتفال فى كنيسة مارمينا بفلمنج ، وحضره جمع كبير من الأقباط يتقدمهم رئيس وأعضاء الجمعية أمضوا ثلاث ساعات فى تأملات عميقة ، وقام بمراسم صلاة عشية نيافة الأسقف غريغوريوس والقس يوحنا حنين والقس فليمون لبيب راعيا الكنيسة وفريق كبير من شمامستها .

وبعد جولة لأيقونة القديس الشهيد القى مندوب قداسة البابا كلمة ، نقل فيها إلى جمهور الحاضرين تمنيات البابا المعظم قائلاً : « أشكر الله الذى أتاح لى فرصة حضور الإحتفال بعيد الشهيد مارمينا الذى إتخذه البابا شفيعا له ...

ونرجو أن يبارك الله فى جهادها ، وفى رئيسها وأعضائها ، وأن يكافئهم على جهادهم من أجل رفعة الكنيسة وتاريخها وعلومها » .

ثم ألقى نيافته حديثا عن فلسفة رسالة الرسل والكهنة والمؤمنين بمناسبة عيد شهادة القديس مارمينا ، كما تحدث عن الشجاعة والبطولة والحكمة فى إستشهاد القديسين ، شرح فيها حكمة الرسالة وحكمة الإستشهاد .

ثم وقف الدكتور منير شكرى رئيس الجمعية ، وتلا رسالة قداسة البابا ، بمناسبة اليوبيل الفضى لتسجيل الجمعية فى عشية عيد شفيعها ، جاء فيها « وأننا اذ يهمنا دائماً تشجيع أى عمل يكون فيه رسالة لخير الكنيسة علمياً أو تاريخياً ، ندعو الله أن يوفقكم ويساعدكم ويعضدكم فى كل عمل لخير الكنيسة ومنفعتها » .

ثم تحدث عن ظروف تأسيس الجمعية عندما إتصل برئيس الجمعية السابق الأثرى بانوب حبشى منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، راهب إشتهر بالزهد والتوحد وإنكار الذات ، وطلب منه بصفته الموظف المسئول فى المتحف اليونانى — الرومانى فى ذلك الوقت ، التوسط للسماح له فى أن يقيم قلاية وسط أطلال كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط ، ولم يكن هذا الطلب هدفا ، وإنما كان سبيلا للفت نظر القبط إلى صفحة مجيدة فى تاريخ كنيستهم . ولم يكن فى الإستطاعة تحقيق هذا الطلب حينئذ بسبب الظروف العسكرية ، إلا أنه كان نقطة الإنطلاق لجماعة من الشباب تلقفوا إسم مارمينا العجايبى وإتخذوا منه شعارا لهم وقاموا بزيارة المدينة الرخامية العجيبة الراقدة تحت رمال الصحراء على بعد كيلو مترات قليلة من الإسكندرية للتعرف عليها ورجعوا وقد حفزتهم الزيارة للقيام بحركة ثقافية تهدف إلى كتابة تاريخ الكنيسة وسير وتراجم رجالها بأسلوب علمى مبسط وبدأنا طبعاً بتاريخ مارمينا وتاريخ مدينته .

وكانت هذه الحركة هي البداية لتكوين الجمعية التى حازت تقدير الدكتور عزيز سوريال عطية أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الإسكندرية .

واختتم الدكتور منير شكرى حديثه بشكر قداسة البابا على إيفاد نيافة الأنبا غريغوريوس لحضور الاحتفال ، ليؤكد اهتمامه للدور الثقافى الذى تقوم به الجمعية ، ثم تضرع إلى الله أن يحفظه ذخرا للكنيسة وأن يمتعه بتمام الصحة .

(وطنى ٢٩ نوفمبر ١٩٧٠ م)



مجلس إدارة جمعية مارمينا العجايبى فى إحدى اجتماعاته


بطريركية الأقباط الأرثوذكس
القاهرة

القاهرة فى ٣ هاتور سنة ١٦٨٧
موافق ١٢ نوفمبر سنة ١٩٧٠

الابن المبارك الدكتور منير شكرى رئيس جمعية مارمينا العجايبى باسكندرية

باركه الرب

بعد منحكم البركات وامدادكم بصالح الدعاء بنعمته تعالى تكونون وجميع ابنائنا المباركين فى سلام الله ورعايته

تلقينا بالارتياح خطاب بنوتكم المؤرخ فى ١٩٧٠/١١/٢ المتضمن اعتزام الجمعية بمشيئة الله الاحتفال بيوبيلها الفضى بمناسبة خمسة وعشرون عاما على تسجيلها فى عشية عيد شفيعها الشهيد العظيم مارمينا العجايبى يوم الثلاثاء ٢٤ نوفمبر الحالى وذلك عقب صلاة عشية العيد بكنيسة الشهيد مارمينا بفلمنج واننا اذ يهمنا دائما تشجيع اى عمل يكون فيه رسالة لخير الكنيسة علميا او تاريخيا ندعو الله ان يوفقكم ويساعدكم ويعضدكم فى كل عمل لخير الكنيسة ومنفعتها

ونعمة الرب تشملكم ولعظمته تعالى الشكر دائما ...

صورة الخطاب الذى أرسله قداسة البابا كيرلس السادس إلى الدكتور منير شكرى بمناسبة احتفال جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية بيوبيلها الفضى عام ١٩٧٠ م .

الفصل الثانى

نبذة بمناسبة الأحتفال باليوبيل الفضى لجمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية (١٩٤٥ ــ ١٩٧٠)

إلى صاحب الغبطة والقداسة الأنبا كيرلس السادس
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

ياصاحب القداسة :

أن خير مانستهل به هذا السجل لأعمال الجمعية خلال خمسة وعشرين عاما هو أن نتقدم إلى العزة الإلهية بالحمد والشكر إذ هيأت لأمتنا بجلوسكم على كرسى القديس مرقس الإنجيلى عهداً من أزهى عهودنا روحا وثقافة ، وكان ذلك إمتدادا لجهودكم منذ أكثر من ربع قرن عندما قام « القمص مينا المتوحد البرموسى » يلفت أنظار القبط إلى مدينة العجايبى بصحراء مريوط ، فكانت نقطة البدء وكان الملهم لإسم جمعيتنا ، واستمرت صلتنا الفكرية منذ ذاك الوقت ، وقد اثمرت واينعت والحمد لله ، وكانت دافعا قويا لها فى رسالتها ، فهاهى مدينة العجايبى ترجع إلى سابق مجدها فأقمتم صرحا خالدا للأجيال وقدمتم لهم صفحة من صميم تاريخنا القديم تؤكدها المجموعات الأثرية المنتشرة حول ذلك الصرح ، وأصبحت مدينة العجايبى محجا ومنارة لعزيمتكم وإيمانكم بحق كنيستكم المجاهدة فى البعث والحياة والخلود .

وفى ميدان الثقافة أقمتم صرحا آخر لشهيدة أخرى التجأت إلى أحضان الكنيسة منذ أجيال ، عندما تفضلتم فأمرتم بطبع أكبر مرجع فى قواعد اللغة القبطية فى العصر الحديث مشروحاً بالعربية ، وأسديتم بذلك إلى لغة الكنيسة وإلى الدارسين بها وإلى التاريخ والآثار يداً سيخلدها لكم التاريخ ذكرا عاطرا ، ومهدتم السبيل لجمعيتنا لأن تتوج هذه الحقبة من تاريخها بهذا المؤلف الجليل .

الرب يثبتكم على كرسيكم سنين عديدة كلها خير وبركة على البلاد وعلى الكنيسة ويمنحكم القوة والحكمة لتأدية رسالتكم على الوجه الأكمل .

اسمحوا لنا ياصاحب الغبطة نحن أعضاء جمعية مار مينا العجايبى بالاسكندرية أن نعرب لكم عن شكرنا وعرفاننا بالجميل بالتقدم للثم يديكم الكريمتين ونرجو أن تتفضلوا بمنحنا بركاتكم الرسولية ليعيننا الرب على السير فى طريقنا .

عن الجمعية
دكتور منير شكرى
نوفمبر ١٩٧٠
بابـه ١٦٨٧

جمعية مار مينا العجايبى بالاسكندرية

تتشرف الجمعيـــة بدعوة سيادتـكم لسماع الـكلمة التى يلقيها

الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطيه

بمناسبة الاحتفال بذكرى القديس الانبـا باخوميوس ، أب الشركة ، بالكنيسة المرقسية ، يوم الجمعـــة ٢١ مايو سنة ١٩٥٤ فى تمـام الساعة السابعة مساء ؟

جمعية مار مينا العجايبى

بالاسكندرية

تتشرف الجمعيـــة بدعوة سيادتكم لحضـــور محـــاضرة :

الدكتور مصطفى الامير

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

والعالم الأثرى للعصر القبطى

عن

فضل مصر على المسيحية فى العـــالم

وذلك بمشيئة الله ، يوم الخميس ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٥٥ الساعة السابعة مساء بقاعة محاضرات جمعية الشبان المسيحية ، ٨٨ شارع فؤاد ؟

٦ كيهك ١٦٧٢

---

١٦ ديسمبر ١٩٥٥

الجمعية

صور لبعض الدعاوى التى تعطى فكرة عن النشاط الذى كانت تقوم به جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية فى المجال الثقافى .

لمحة تاريخية عن الجمعية

لم تنل دراسة تاريخ العصر القبطى لسبب أو لآخر ، ردحا كبيرا من الزمن ، من المؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين ماهى جديرة به من الرعاية والاهتمام ، حتى قال عنهم البعض أنهم كانوا ينظرون إلى ذلك العصر كمن ينظر إلى واد عميق ومظلم يفصل بين القمم المجيدة للتاريخ الفرعونى والربى الجميلة لمصر الإسلامية . وقد تعود المؤرخون أن يعبروا هذا الوادى فوق جسر علوى دون أن يتكرموا بالوقوف لالقاء نظرة عليه من عليائهم .

ولسنا ننكر أن إهتمام علماء التاريخ المصرى الذى كاد أن يكون قاصرا على الحضارة الفرعونية طوال سنين عديدة ، قد امتد أخيرا فشمل لغة القبط وآدابهم وفلسفتهم وأفكارهم وعلومهم وفنونهم ، إلا أن الجهود المبذولة فى هذا السبيل ظلت غير متكافئة مع مايحق لهذه الدراسات من التقدير والاعتبار . يضاف إلى ذلك أن بعض ماكُتب تعوزه الأمانة العلمية أو على الأقل حسن النية ، لأن الغربيين من مذاهب مسيحية أخرى هم الذين تولوا ذلك ، وعلى ذلك ظلت صفحات عديدة من هذا التاريخ لم تكتب بعد . وهكذا ظل القبطى المثقف يعرف مع الأسف عن تاريخ غيره من الشعوب والأمم أكثر مما يعرف عن تاريخ آبائه واجداده ، أولئك الأمجاد الذين عاشوا منذ فجر التاريخ معدنا أصيلا قد تخبو أصالته حيناً لكنها لا تموت أبدا .

وهذا ما دعا فريقا من شباب مدينتنا منذ حوالى ربع قرن أو أكثر لا يتجاوزون أصابع اليدين عدا ، إلى العمل على نشر تاريخ هذا العصر بكل مشتملاته من سير وتراجم خدمة للكنيسة وللوطن إذ أن تاريخ هذا العصر ملىء بالأمجاد وفيه تجسم للروح المصرية التى نعتز بأرومتها وكرامتها ، كما أن له آثار بالغة الأهمية ليس على التاريخ المصرى فحسب ، وإنما على تاريخ العالم والحضارة الإنسانية جميعا . كما أنه جزء من تاريخنا القومى ويجب علينا نحن أبناء مصر أن نعنى به ، ونحن أحق من غيرنا بذلك إذ نستطيع أن نتبين فيه جوانب كثيرة تغيب عن الغريب .

وقد توصلوا إلى ذلك بمختلف وسائل النشر التى يستطيعونها بالمحاضرات وبالكتابة بأسلوب علمى مبسط وبالرحلات ، واتخذوا شعارا لجمعيتهم اسم قديس وشهيد مصرى ذاع صيته بضعة قرون فى آفاق العالم القديم ، هو القديس مينا العجايبى ، شفيع مسيحي مصر الذى كانت كنيسته فى اقليم مريوط أول محج عرف فى تاريخ المسيحية يقصدها كل قاص ودان من الحجاج للتبرك بقبره ولالتماس شفاعته فى شفاء أمراضهم ، ومع ذلك فقد وصل جهلنا بتاريخنا إلى حد أن اضحى الكثيرون من أبناء كنيستنا لا يعرفون أكثر من مجرد اسمه منذ ربع قرن . وكان رائدنا فى هذه الرسالة المرحوم الطيب الذكر الأستاذ بانوب حبشى مفتش الآثار بالمتحف اليونانى الرومانى ، وكان الملهم لإختيار اسم قديسنا هذا راهب تقى هو القمص مينا المتوحد البرموسى ، الذى حاول جهده ليلفت الأنظار إلى صفحة مشرقة من صميم تاريخنا ترقد فى صحراء مريوط . فكان عمله هذا نقطة الانطلاق فى رسالتنا .

ولقد بدأنا خطوتنا الأولى بنشر النداء الآتى ، مرفق به طلب اشتراك :

إلى أبناء الأمة القبطية

إيها الأخوة الأحباء

تأسست جمعية مار مينا العجايبى بنعمة الرب لتخدم كنيستكم المجاهدة وأمتكم الخالدة عن طريق نشر الثقافة الدينية والتاريخية ، وهى ناحية لم تنل حتى الآن أية رعاية أو إهتمام جدى رغم مالها من أثر فعال فى حياة الأمم ونهضة الشعوب . فنحن أمة ذات تاريخ مجيد وتراث عريض . ألسنا ورثة أول دولة مسيحية فى العالم ينطوى تاريخها القومى على أروع صفحات البطولة والجهاد . فمن حق الأمة علينا إذن أن نكشف للأحفاد عن مآثر الأجداد وأن نطلع الخلف على ماكان عليه السلف ليسترشدوا ويقتفوا أثرهم وليشيدوا مستقبل أبنائهم وقد عمرت أذهانهم بصور آبائهم ، أولئك الذين عضوا على الأمانة بالنواجذ حتى أوصلوها لهم سليمة رغم الذئاب الكاسرة والوحوش الضارية .

لذلك تتقدم الجمعية لسد هذا الفراغ الملحوظ وفق البرنامج الموجز الآتى :

١ ــ إحياء ذكرى شهداء الأمة القبطية وأبطالها ونوابغها فى كافة العصور بالخطابة والكتابة وما إلى ذلك .

٢ ــ نشر رسائل ودراسات مبسطة عن أهم المواضيع التى يتعين عن كل قبطى الإلمام بها .

٣ ــ إعداد رحلات للأماكن الأثرية التى يهم كل قبطى زيارتها .

ويتولى هذه الأعمال جميعا اخصائيون .

فإذا وجدت الجمعية توفيقا وتأييداً فى خطواتها هذه فستوسع أفق نشاطها حتى يشمل : إعادة طبع كتب التاريخ القبطى التى نفذت طبعاتها ، تأسيس مكتبة قبطية بالاسكندرية ، إصدار مجلة أو نشرة دورية تساعد على نشر رسالة الجمعية ، كما ستحاول الجمعية إحياء اللغة القبطية بتدريسها بطرق عملية .

ومن أغراض الجمعية الجوهرية أيضا ، السعى لتشييد كنيسة باسم الشهيد القبطى العظيم مار مينا العجايبى وكذا القيام بأعمال البر والخير طبقا للوسائل الاجتماعية الحديثة

والعاملون فى الجمعية يدركون تمام الإدراك مايتطلبه ذلك من جهود وأعباء ، ولكنهم يؤمنون برسالتهم من الأعماق ، ويتطلعون إلى الجميع راجين منهم النصح والإرشاد والمعونة (انتهى) .

وبدأت الجمعية فأصدرت نشرات بمناسبة بعض أعياد الشهداء والقديسين ، وألقى بعض أعضائها محاضرات . وكانت باكورة النشرات تلك التى أصدرتها بمناسبة عيد استشهاد مار مينا العجايبى فى نوفمبر ١٩٤٥ ، وقد جاء فيها « يتشكك بعض الناس فى سير شهدائنا وأبطالنا ، فهانحن نقدم لهم صفحة من صميم التاريخ القديم تؤيدها المخطوطات وتؤكدها المجموعات الأثرية المنتشرة فى كل مكان ، فليست الحقائق التاريخية إذن هى التى تعوزنا ، بل يعوزنا ماهو أسمى وأعظم ، نعم يعوزنا الإيمان ... الإيمان القوى الصادر من الأعماق .. فى معتقداتنا وفى أعمالنا وفى أقوالنا وفى حق أمتنا القبطية المجاهدة فى البعث والحياة والخلود . وقمنا بهذه المناسبة بأول رحلة وكانت إلى كنيسة مارمينا الأثرية بمريوط ، اشترك فيها بعض أعضاء المجلس الملى فى ذاك الوقت وعائلاتهم .

وفى عام ١٩٤٧ أصدرنا أولى رسالاتنا فى شهر ابريل بمناسبة عيد القيامة المجيد ، وتفضل بكتابة مقدمتها الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية ،وهانحن نورد بعضا منها إذ تعكس بوضوح تلك الروح القومية والثقافية التى كانت تدفع القائمين برسالتهم . قال حفظه الله :

« وشعلة اليوم هى تلك الجماعة الصغيرة المتواضعة التى التفت حول اسم مارمينا العجايبى معتصمة بأساليب المحبة ونكران الذات والتضحية التى مات هو من أجلها منذ قرابة سبعة عشر قرنا تحت حكم دقلديانوس العاتية فى القرن الثالث الميلادى .

ولقد درست نشاط هذه الجماعة ، فوجدته نشاطاً هادئاً مضطرداً ، تشمله بساطة المبدأ السليم ، وتظله أجنحة السلام الداخلى ، فى تواضع من غير ضعة ، وفى حماس من غير جلبة ، وتزينه ثقة العلم ورجحانه ، جنباً إلى جنب مع حرارة الايمان وحلاوته ، فتراهم يحجون فى رحلاتهم إلى أديرة أبى مينا بالصحراء الغربية والبراموس والسريان وأنبا بيشوى بوادى النطرون وغير ذلك من الأماكن الأثرية ، فيغذون أرواحهم بما تحمله هذه المؤسسات بين ظهرانينا من الورع ، ويسرون أعينهم بما تراه فيها من تاريخ حافل بالأحداث الجليلة فى سفر الإنسانية بأكملها . وها هم أيضاً ينظمون محاضراتهم فى جو العلم والإصلاح والتقى فى صعيد واحد ، فمن متكلم فى تاريخ القبط ، إلى متحدث عن أبى الإصلاح كيرلس الرابع . وها هم اليوم يساهمون بلا هوادة فى الدعوة إلى إقامة معبد سيكون من أجل معابد القبط فى العصر الحديث ، ذلك هو كنيسة مار مينا التى أراها بين القصور تحفة جمعت من آيات الفن القبطى البيزنطى ما ستقر له عين الأثرى الباحث وقلب المؤمن المتدين . وها هم قد بدأوا نشرات فى صفحات معدودات عن تاريخ آباء القبط وإحياء معالمهم وعلومهم الدارسة ، فإذا بهذه الصفحات تنمو إلى كتيبات فكتب حافلة بالتاريخ والفلسفة والأدب المسيحى القديم إن شاء الله ... أليس تاريخ القبط صفحة من صفحات تاريخ هذا الوطن العزيز على النفوس ؟ أليس تراث القبط جزءاً من تراث مصر جمعاء ؟ وإنى لا أرى واجبنا نحو هذه الدراسات إلا جزءاً لا يتجزأ من واجبنا القومى نحو الوطن والعلم والتاريخ » .

ذلك الكتاب الذى كان له صدى بعيد فى الأوساط العلمية وأثر عميق بين القبط ، إذ قدمنا لهم صفحة مشرقة مجيدة لذلك الحدث الروحى العجيب وهو الرهبنة المسيحية التى انتشرت من مصر إلى العالم أجمع ، وإذا ببعض شبابنا المثقف يترك مناصبه ومكاسبه ويطرق أبواب الأديرة ، ونود أن نسجل هنا للتاريخ أن باكورتهم تتلمذوا على الراهب القديس « القمص مينا المتوحد » ، الذى صار بعد ذلك بنعمة الله الأنبا كيرلس السادس ، وإذا بنا نقرأ لهم نشرات روحية صادرة عن « ميناء الخلاص » .

وقد نشرنا فى آخر الرسالة الثالثة هذه تقرير رئيس الجمعية المتنيح المرحوم بانوب حبشى الأثرى نقتطف منها ما يأتى لما فيه من فائدة فى تبيان بعض مجهود الجمعية وأغراضها ، وهو بتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٤٧ ، ومقدم للجمعية العمومية :

« كانت للثقة الكريمة التى تفضلتم بها على الهيئة التأسيسية عندما اجتمعت بحضراتكم فى مثل هذه الأيام من العام الماضى ، خير حافز لها على القيام بتحقيق الأغراض التى اضطلعت بها ، وفى مقدمتها نشر الثقافة التاريخية فى أوسع مدى مستطاع . وهو كما تعلمون نحو جديد من الخدمة العامرة كانت جمعيتكم أول من نبه الأذهان إلى حاجة الشعب الملحة إليه ، لما له من نتائج بعيدة الأثر وجليلة الخطر فى حياة الشعوب والأفراد ، على السواء .

وفى هذا المجال الخاص أخذت جمعيتكم تنهض بأعبائها فى جو من الهدوء تظلله أجنحة السلام والمحبة والاستعداد لخدمة الجميع ، متوسلة إلى ذلك بوسائل ثلاث : المحاضرات ، والرحلات ، والمطبوعات .

ومع أن المطبوعات تكلفنا جهدا ومالا ، ألا أنه يجب ألا يغيب عن أذهاننا ماتستفيده الجمعية بسبب ذلك من زيادة مضطردة فى عدد أعضائها .. وفوق ذلك فان الأغراض التى تسعى لتحقيقها أسمى من أن يقف فى سبيلها جهد أو مال .

وقد استجبنا لرغبات الهيئات التى طلبت تزويدها ببيانات ومعلومات تاريخية ، الأمر الذى يوحى باكتمال شخصية جمعيتكم وتوطيد مركزها الأدبى » .

وكان أعضاء مجلس إدارة الجمعية عام ١٩٤٨ كما يأتى مع حفظ الألقاب ، وهم بالترتيب الابجدى :

إبراهيم نصر الله	حنا غبريال
بانوب حبشى (الرئيس)	كامل لطفى
بديع عبد الملك	ملاك ميخائيل (أمين الصندوق)
برهوم حنين (السكرتير)	دكتور منير شكرى (نائب الرئيس)
بطرس ميخائيل	موريس مكرم
دكتور تادرس منقريوس تادرس	موريس يوسف حنا (سكرتير)
جرجس عطا الله	نسيم فوزى

والأستاذان رزق الله قديس ونصحى عوض لمراقبة الحسابات

وفى عام ١٩٥٠ أصدرنا رسالتنا الرابعة « صور من تاريخ القبط » ، تلك الرسالة التى نحونا فيها نحوا جديدا أيضا فى تناول تاريخ القبط على مدى القرون منذ دخول المسيحية إلى القرن التاسع عشر ، فقدمناه فى صور شخصيات ، انتقى كل من أراد من السادة الذين ساهموا فى تلك الرسالة شخصية منها ، حتى تأتى نتيجة لدراسة وافية منه .

وقدم المرحوم الأستاذ بانوب حبشى لهذه الرسالة بأسلوبه الرائع الممتاز شارحا هدف الجمعية بوضوح فى قطعة من البحث العلمى الراقى ، تعتبر بحق درة يتيمة ، قال طيب الله ثراه :

« من بين الفصول العديدة التى يتألف منها تاريخ مصر القومى يشغل القبط ولا شك فصلا رئيسيا أصيلا باعتبارهم سلالة قدماء المصريين بناة الحضارة الأولون ، فضلا عما كان لهم من آثار بالغة الأهمية على تاريخ مصر والمسيحية والإنسانية جميعا . ومع ذلك كان حظهم ضئيلا من اهتمام المؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين .

فالقبط أنفسهم لم يعنوا بتدوين تاريخهم ، ومؤرخو الأغريق واللاتين آثروا أن يغفلوا ذكرهم ويهونوا من أمرهم لما بين هؤلاء وأولئك من اختلافات دينية ولغوية وثقافية . أما كتاب العرب فقد اقتصرت عنايتهم على الحديث عن مأساة الاضطهادات المنكرة التى كانت تحل بهم من حين إلى حين خلال تاريخهم الطويل .

هذا ولما بدأ عصر النهضة العلمية الحديثة منذ نحو قرن ونصف من الزمان وأقبل علماء الغرب على دراسة أصول التاريخ المصرى استرعت انتباههم عظمة الحضارة الفرعونية ، فإذا بها تستهوى عقولهم وإذا بهم يختصونها باهتمامهم وجهودهم وكأن آثارها الشاهقة قد حجبت عن أبصارهم ماعداها من مظاهر الحضارة القبطية وغيرها من الحضارات التى ازدهرت على ضفاف وادى النيل . ومع أن هؤلاء الأثريين والمؤرخين فطنوا بعد حين إلى ماللدراسات القبطية من أهمية فائقة ليس بالنسبة للتاريخ المصرى فحسب وإنما للتاريخ العام أيضا ، ومن ثم سارع لفيف منهم إلى التوفر على النهوض بها ، إلا أن جهودهم ظلت دائما غير متكافئة مع مايحق لهذه الدراسات من الاعتبار والتقدير وهكذا ظل التاريخ القبطى دون أن يصاغ فى قالبه النهائى بعد ، فإلى أن يعنى عناية جدية بالكشف الأثرى المنظم عن بقايا معالم الحضارة القبطية فى طول البلاد وعرضها من ناحية وينشر تراثنا القديم من ناحية أخرى ، ذلك التراث الذى لا يزال مغمورا فى بطون المخطوطات المودعة فى شتى متاحف العالم ومكتباته (ولطالما نبه الأذهان إلى ذلك ببصيرته النافذة وغيرته العلمية المتقدة جناب العالم الجليل والأب الفاضل القمص يعقوب مويزر) ، وإلى أن يتولى علماؤنا ومؤرخونا هذا التراث الأثرى والأدبى بالبحث والدرس واستخلاص الحقائق التاريخية ، فلا شك أنهم أقدر على الاضطلاع بهذه المهمة الجليلة وأجدر بها بما أجتمع لهم من الإخلاص للعلم والتاريخ والإيمان بمجد هذا الوطن العزيز . وإلى أن يقبل طلابنا النابغون المعتزون بتاريخ بلادهم وأجدادهم على اختيار موضوعات رسائلهم الجامعية وغيرها من هذا الميدان الخصيب الذى لا يزال مليئا بالكنوز الدفينة أسوة بفروع التاريخ الأخرى ، فليس ثمة أساس علمى أو تاريخى أو قومى للادعاء الباطل بأن التاريخ القبطى ما هو إلا مسألة دينية . وإلى أن يسير إلى جانب هذه الحركة العلمية حركة أخرى ثقافية ترمى إلى الإفادة والتثقيف فى أوسع مدى مستطاع وذلك بتبسيط هذه الدراسات وعرضها فى أسلوب سهل مشوق لا يثقل حتى على القراء المترفين ، فما ينبغى أن يقتصر الأمر على مايكتبه العلماء للعلماء والأخصائيون للاخصائيين ، وإنما الواجب أن يصحب التقدم العلمى توسع ثقافى فتكون الفائدة أتم وأعم . أقول إلى أن يتم كل ذلك وماإليه، لا يسوغ لنا الزعم بأن الدراسات القبطية قد لقيت ماهى جديرة به

من العناية والتقدير وأن التاريخ القبطى قد وضع فى إطاره من تاريخ مصر القومى .

وهذا ماحفز جمعيتنا منذ نشأتها القريبة إلى السعى لإثارة الاهتمام بهذه الدراسات والعمل فى رحابها الفسيح فى حدود طاقاتها ومواردها المتواضعة ، وفى سبيل ذلك أصدرت جمعيتنا ، فيما أصدرت ، رسائلها الثلاث السابقة . وهايسعدنى الآن أن أضع بين يدى القارىء الكريم رسالتنا الرابعة هذه « صور من تاريخ القبط » متضمنة بحوثاً تاريخية مبسطة عن طائفة من عظماء الرجال ، أخترناهم من معرض التاريخ القبطى فيما بين فجر العصر المسيحى والقرن التاسع عشر .

على أننا لم نقصر عنايتنا على الأشخاص الذين ترجمنا لهم بل تجاوزنا ذلك فى كثير من الأحوال إلى البيئة التى عاشوا فيها والأحداث التى عاصروها والمثل العليا التى جاهدوا فى سبيلها ، وهكذا انعكست على صفحات تاريخهم صور شتى من الحياة الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية فى مصر خلال كثير من العصور . حقاًماأصدق القول بأن التاريخ ليس سوى تراجم عظماء الرجال .

وبعد ، فهذه الرسالة تحية وفاء وتقدير وتكريم لذكرى عظمائنا الأفذاذ الذين تحدثنا عنهم فى هذه الفصول وكذلك الذين لم نتحدث عنهم إكتفاء بمن ذكرنا على سبيل المثال ، أولئك وهؤلاء جميعاً من أنفقوا مواهبهم وقواهم وحياتهم ذاتها لخير بلادهم ومواطنيهم بل والانسانية جمعاء . ومع ماخلفوه من آثار جليلة الشأن بعضها على التاريخ المصرى وبعضها الآخر على تاريخ العالم إلا أننا لم نعن أبداً بتخليد ذكراهم كما ينبغى أن يكون خلود الأبطال الخالدين . فلا مؤلفات تعرفنا بهم ولا تماثيل تقام لهم ولا منشآت تحمل أسماءهم . أليس عجيباً مثلا أن باخوميوس مؤسس حياة الشركة الرهبانية ومنشىء أول الأديرة المنظمة فى العالم أجمع لا يطلق أسمه على أحد الأديرة المصرية ، وليكن الدير المحرق الذى يرجع تاريخه إلى عصره فيما يرجح . وأليس عجيبا أيضاً أن كيرلس الرابع مؤسس النهضة التعليمية الحديثة ومنشىء أول المعاهد الحرة لا يطلق أسمه على أحد المعاهد التعليمية وليكن مدرسة الأقباط الكبرى التى وضع أسسها ثم تعهد نموها وإزدهارها بنفسه . وحتى تلك الوسيلة التى

احتفظ بها آباؤنا آلاف السنين لتخليد ذكرى عظمائهم وأبطالهم باطلاق أسمائهم على أولادهم ، حتى تلك الوسيلة المتواضعة كادت تندثر الآن وأخذت الأسماء التقليدية المشتقة من تاريخ هذا الوطن العزيز تتوارى فى غمار التهاون والتفريط ، وهى ظاهرة أقل ماتوصف به أنها تدعو إلى الأسف العميق .

بيد أنه إذا كان قد فاتنا حتى الآن أن نحتفى بهم ونفى لهم بعض مايحق لهم علينا فلا أقل من أن نصوغ هنا للأحفاد من تاريخ الأجداد هذه الصور المجيدة لعلهم واجدون فيها ذكريات نافعة يتعظون بها مثلا عليا يهتدون بهديها وألحانا شجية يترنمون بإنشادها » .

هذه الكلمة الخالصة الصادرة من الأعماق إنما كانت ترجمانا صادقاً لما كان يجول بأفئدتنا ولعلها تلمس وتراً حساساً فى قلب كل قارىء .

وفى عام ١٩٥٤ أصدرنا رسالتنا الخامسة « صفحة من تاريخ القبط » التى اشترك معنا فيها المرحوم الأستاذ وليم وورل أستاذ الدراسات القبطية فى جامعة ميتشجان بالولايات المتحدة . وكانت وطأة المرض قد اشتدت على رئيسنا وواسطة عقدنا المرحوم الطيب الذكر الأستاذ بانوب حبشى ، حتى أصبح يمسك بالقلم بجهد عظيم ، وخط بالرغم من ذلك آخر ماكتب فى حياته وهى مقدمة هذه الرسالة ، وكان مما جاء فيها :

« وفى خلال تلك المدة كانت قد نبتت فى أذهان بعض المهتمين بالدراسات القبطية الذين اشتركوا معنا فى مسيرتنا ، وفى مقدمتهم الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية ، فكرة إنشاء معهد للدراسات القبطية ، إذ وجدت مؤلفاتنا أرضاً خصبة وجمهوراً متشوقا إلى المزيد من هذه الدراسات ، واستعدادا طيبا من شبابنا المتشوق إلى المعرفة والثقافة » .

وفى عام ١٩٥٥ رزئنا بالخطب الجلل بوفاة رئيسنا الأستاذ بانوب حبشى ، ففقدنا عالما جليلا وقلبا كبيرا يحوى الفضائل فى أسمى معانيها ، عامراً بالإيمان والمحبة ، محبة الرب ومحبة القريب ، وهذا الحب كان القوة الدافعة له فى الرسالة التى حملها والتى جعلته يتغلب على مرضه المزمن المستعصى حتى النفس الأخير ، تحمله بصبر وإيمان وشجاعة وتسليم . ومهما أطنبنا فى علمه وأخلاقه وتفانيه فى الخدمة العامة فلن نفيه حقه ، أسكنه الله فسيح جناته ، ولن أجد

أفضل من الرثاء الذى رثاه به فى ذكرى الأربعين الأستاذ الجليل عزيز سوريال عطية باسم معهد الدراسات القبطية ، قال حفظه :

السيد نائب رئيس جمعية مار مينا العجايبى

أتشرف بمناسبة جناز الأربعين على فقيدنا المرحوم الأستاذ بانوب حبشى رئيس جمعيتكم السابق ، بأن أتقدم إليكم بالاصالة عن إخوانى وزملائى أساتذة معهد الدراسات القبطية وبالنيابة عن نفسى بإرسال كلمات التعزية القلبية إليكم بما يتفق وقدر الفقيد ومكانه فى خدمة الكنيسة والتاريخ القبطى والآثار القبطية ، فقد قام رحمه الله بأجل الخدمات فى هذا الميدان إذ أسس جمعية مار مينا العجايبى الذى أنجزت برياسته منذ تأسيسها البحوث الحديثة فى الدراسات القبطية ، فامتلأت بها صفحات عدة مجلدات تعتبر من أثمن مايملكه الأقباط. فى أيامنا . وقد كان الفقيد بهذا العمل الجليل من أكبر العاملين على نشر الثقافة القبطية نشرا علميا سليما ستذكره له هذه الأمة طوال أيامها ويسجله له اليوم معهد الدراسات القبطية . وإننا لازلنا نترنم بشجاعة الفقيد الذى جعل يواصل جهوده أثناء مرضه الطويل وهو على فراش الموت مما يجب تسجيله له أمام الأجيال القادمة . وهو بهذا الجهاد يذكرنا بسيرة أولئك الآباء القديسين الذين زخرت بهم الكنيسة القبطية فى عهدها الأول الغابر ، فقد كان بانوب حبشى مقداما مخلصا لآخر لحظة من حياته العامرة بالخير والإنتاج العلمى والروحى .

تغمد الله الفقيد برحمته الواسعة وأسكنه مع قديسيه فى جنة الخلد .

القاهرة فى ١٩٥٥/٧/٢٥

مدير المعهد

دكتور عزيز سوريال عطية

هذه شهادة ثمينة من معهد الدراسات القبطية للمرحوم الأستاذ بانوب ولمجهود الجمعية وأثرها الثقافى نعتز بها كل الاعتزاز .

ولا شك أن وفاة الأستاذ بانوب كانت خسارة كبيرة للجمعية ، وتوالى بعد ذلك بعض المعوقات لنشاطها ، فقد إنتقل بعض أعضاء مجلس الإدارة إلى الرفيق الأعلى وكذلك بعض العلماء الذين كانوا يعاونوننا ، وتفرق البعض

الآخر ، ولذلك انتظرنا حتى عام ١٩٦٢ حين ظهرت رسالتنا السادسة عن « أديرة وادى النطرون » ، وقلنا فى المقدمة :

«سنتتبع فى كتابنا هذا جل ما طرأ على هذه الأديرة من حدثان عبر القرون، منذ إنشائها إلى اليوم ، وماكان لها من أثر على الكنيسة عامة ، وأنه لتاريخ جليل لا غنى عنه لكل قبطى ولكل الدارسين والباحثين فى موضوع الرهبنة والحياة الديرية وتطورها .

ووادى النطرون ، أن لم يكن مكان أول جماعة نسكية ، فقد كان من أكبر الأماكن الكنسية وأكثرها إزدهارا ، وكان له تأثير كبير مباشر فى تطور الرهبنة سواء فى الشرق أم فى الغرب ، كما كان له دور رئيسى فى النضال السياسى والكنسى فى القرون الخامس والسادس والسابع ، وقد كان له أكبر قوة فى تاريخ كنيسة الاسكندرية منذ الفتح العربى إلى منتصف القرن الرابع عشر ولذلك فان أهمية دراسة وافية لتاريخه أمر لا يحتاج إلى بيان لكل من يدرس تاريخ كنيسة مصر » .

وقد كان التفكير فى إخراج هذا المرجع الأول من نوعه فى اللغة العربية فى تاريخ هذه الأديرة بمناسبة مرور ستة عشر قرنا على تأسيسها .

ومما يذكر أنه إتماما للفائدة فقد زيلت الرسالات من الثالثة إلى السادسة بقائمة للمراجع العربية والأجنبية لمن يريد أن يرجع إليها للاستزادة .

وبعد ذلك أردنا أن نبر بوعدنا الذى قطعناه وهو « احياء اللغة القبطية » ، وأن نتبع رسالتنا الثانية « عن اللغة القبطية » بخطوة عملية تعين الدارسين . ولم نجد أحسن من أن توفر لهم مؤلفا يرجعون إليه فى كل ما اشكل عليهم من قواعد هذه اللغة ، مرجعا كفيلا بإستمرار المحافظة عليها فى آخر أشكالها . فكونت الجمعية لجنة من قمة المعنيين بهذه اللغة فى مدينتنا سهروا الليالى فى مجهود مضنٍ فى مختلف ما وصل إلى أيديهم من مؤلفات وقواميس ، يحققون فى هذه القاعدة ويبحثون عن تلك الكلمة ، وظلوا كذلك بضع سنوات حتى أتموا تلك المهمة الصعبة ، فى هدوء وانكار ذات ، وبدون أى ملل أو كلل ، وفيهم من كان فى حاجة إلى الراحة والهدوء صحيا ولكنه واصل العمل إلى نهايته .

وبعد أن تم هذا العمل التاريخى الجليل ، قابلتنا عقبة لم نستطع تذليلها لبعض الوقت ، ألا وهى المال اللازم لطبع هذا المرجع ، ونظرا لأن شبيهه الذى قام بوضعه المرحوم الأستاذ الدكتور جورجى صبحى وطبعته وزارة المعارف فى عام ١٩٢٤ على نفقتها قد مضى عليه قرابة نصف قرن ، فليس من المنظور أن يعاد طبعه قبل قرن آخر ، ولذلك كان هدفنا أن نطبع منه ثلاثة آلاف نسخة على الأقل .

وعلم قداسة البابا كيرلس السادس ، أطال الرب حياته وثبته على كرسيه سنين عديدة ، أثناء سؤاله عن نشاطنا بهذه العقبة المالية ، فطلب الاطلاع على أصول هذا المؤلف وكأنه أراد أن يكرم هذه اللغة التى جعلت من الكنيسة القبطية ملجأها الأخير ، لغة الآباء والأجداد ، والشهداء ، ولغة الكنيسة الرسمية ، فأمر حفظه الله بأن يطبع هذا الكتاب بالعدد الذى أرتأيناه على حسابه الخاص ، فأسدى بذلك لأجيال عديدة يدا سيذكرها له التاريخ وسيخلد اسمه فى ميدان العلم والثقافة ، وحل للجمعية مشكلة لم يكن فى إستطاعتها أن تتخطاها لولا أنه مد إليها يده الكريمة .

وبهذه المناسبة ندعو أبناء الأمة أن يبادروا باقتناء هذا الكتاب العلمى الذى تزيد قيمته مع مرور الزمن .

والآن يسعدنى حقا أن أنوب عن إخوانى أعضاء جمعية مار مينا العجايبى بالإسكندرية فى التعبير عما نشعر به من الامتنان العميق وعرفان الجميل لحضرات العلماء الأجلاء والأصدقاء الكرام الذين استجابوا لدعوة الجمعية فكتبوا لنا البحوث الممتعة وحبونا إرشادا وتشجيعا وعطفا كريما .

أما الذين رقدوا فى الرب فنطلب لهم رحمة ونياحا فى فردوس النعيم فى أحضان القديسين .

وننتهز هذه الفرصة فنسجل للجميع أسماءهم والمواضيع التى كتبوا فيها للذكرى والتاريخ :

الرسالة الأولى : « رسالة مار مينا فى عيد القيامة » ابريل ١٩٤٧

العالم المؤرخ دكتور عزيز سوريال عطية   تصدير

الأستاذ بانوب حبشى   بداية النهاية

دكتور منير شكرى	مع يسوع إلى الجلجثة
الأستاذ آنيس جبران	الصليب
دكتور منير شكرى	نهاية وبداية
دكتور تادرس منقريوس تادرس	كنيسة القيامة
دكتور فتحى الملاخ	على هامش القيامة
الأستاذ عزيز ابراهيم	المسيح قام
الأستاذ بانوب حبشى	من مذكراتى
العالم المستشرق القمص يعقوب مويزر	تسمير المسيح فى نظرالكنيسة القبطية .
الأستاذ بديع عبد الملك	رسم وتصميم الغلاف

الرسالة الثانية : « رسالة مار مينا فى عيد النيروز ١٦٦٤ » سبتمبر ١٩٤٧

الأستاذ الدكتور جورجى صبحى	كلمة عن اللغة القبطية
دكتور مراد كامل	صلة الأدب الحبشى بالأدب القبطى
الأستاذ بانوب حبشى	اللغة القبطية بين الكنائس والأديرة
الأستاذ لبيب حبشى	المخطوطات القبطية
دكتور منير شكرى	اللغة القبطية ونصيبها من الحركة الاصلاحية
دكتور تادرس م . تادرس	مقتطفات من الأدب القبطى
القمص يعقوب مويزر	اثار اللغة القبطية فى أسماء أولادنا فى خطر
الأستاذ يسى عبد المسيح	المقدمات والسلام
الأستاذ بديع عبد الملك	تصميم ورسم الغلاف

الرسالة الثالثة : « الرهبنة القبطية » ٢٢ مايو ١٩٤٨

بمناسبة الذكرى السادسة عشر للقديس أنبا باخوميوس

القمص صموئيل تاوضروس السريانى	الرهبنة بين العالم ومصر
دكتور جورجى بك صبحى	من تراث الكنيسة القبطية
دكتور منير شكرى	آباء البرية
الأستاذ الدكتور مراد كامل	الرهبنة فى الحبشة

الأستاذ لبيب حبشي	الأديرة الشرقية ودير المحرق
الأستاذ موريس مكرم	الأديرة الغربية
الأستاذ يسى عبد المسيح	نظام الرهبنة على مر الزمن
الأستاذ موريس يوسف حنا	الراهبات وأديرتهن
القمص يعقوب مويزر	تاريخ مجيد انطوى وآثار رهبنة انمحت
الأستاذ ملاك ميخائيل	من آداب الرهبنة
الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية	نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر
الأستاذ بانوب حبشي	حول تكوين الحياة الرهبانية فى مصر
الأستاذ بديع عبد الملك	الرسوم والصور

الرسالة الرابعة : « صور من تاريخ القبط » سنة ١٩٥٠

دكتور راغب عبد النور	أوريجانوس
الأستاذ ملاك ميخائيل	باخوميوس
دكتور منير شكرى	اثناسيوس الرسولى
الأستاذ فايق ميخائيل	كيرلس الكبير
الأستاذ بانوب حبشي	شنودة
الأستاذ الدكتور مراد كامل	يوحنا النقيوسى
الأستاذ يسى عبد المسيح	ساويرس بن المقفع
المستشرق القمص يعقوب مويزر	بولس البوشي
الأستاذ موريس مكرم	ابن كبر
الأستاذ كامل المصرى	إبراهيم الجوهرى
الأستاذ رؤوف حبيب	يعقوب حنا
دكتور فتحى يونان الملاخ	كيرلس الرابع

الرسالة الخامسة : « صفحة من تاريخ القبط » سنة ١٩٥٤

الأستاذ الدكتور مراد كامل	القبط فى ركب الحضارة العالمية
الأستاذ يسى عبد المسيح	اللهجات القبطية وآثارها الأدبية
دكتور منير شكرى	المسيحية وماتدين به القبط
دكتور صابر جبره	نصيب القبط فى تقدم العلوم

دكتور باهور لبيب　　　　الآثار القبطية

دكتور وليم وورل　　　　موجز تاريخ القبط

الرسالة السادسة : « أديرة وادى النطرون » سنة ١٩٦٢

دكتور منير شكرى

الرسالة السابعة : « الصوم والقيامة »

مجموعة مقالات من نشرات سابقة

الرسالة الثامنة : « المرجع فى قواعد اللغة القبطية » سنة ١٩٧٠

تولى الترجمة :

الأستاذ ملاك ميخائيل　　　　الأستاذ حبيب الشارونى

تولى تحقيق النصوص القبطية :　　الأستاذ بسنتى رزق الله

الأستاذ معوض داود عبد النور　　الأستاذ مرقس بطرس

تصميم الغلاف : الأستاذ بديع عبد الملك

مؤلفات جمعية مار مينا وأثرها على تاريخ الحركة الثقافية فى مصر

تطرق بعض المشتغلين بالتاريخ فى مصر إلى العصر القبطى وإلى تاريخ كنيسة الاسكندرية ، وإلى تاريخ المسيحية فى مصر فوجدوا فى مؤلفات جمعيتنا خير معين لهم وقد أشاروا بذلك فى المراجع التى رجعوا إليها ، وطبع المرحوم المؤرخ جرجس فيلوثاوس عوض ميمرا مخطوطا عن تاريخ مار مينا ومدينته كما قام الأستاذ دريشر الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقا بطبع مخطوطات قبطية وترجمتها عن قديسنا العجايبى على نفقة جمعية الآثار القبطية . وفى إهداء من الأستاذ دكتور حسين فوزى وكيل وزارة الثقافة السابق ورئيس المجمع العلمى المصرى لمؤلفه كتاب « سندباد مصرى » إلى د . منير شكرى يذكر فضل رسائل مار مينا العجايبى على هذا الكتاب .

بدأنا جمهرة وشعب الكنيسة لا يعرف عن مار مينا العجايبى سوى مجرد اسمه ولا يعرفون شيئا مطلقا عن مدينته الأثرية ، واليوم بعد خمس وعشرين سنة أصبحوا عارفين بتاريخه ويحجون سنويا إلى مدينته بمريوط حيث يجدون ديرا عظيما يسكنه الرهبان وأكثر من كنيسة تقاد فيها الشموع مرة أخرى بعد أحد عشر قرنا ويرفع البخور أمام مذبحها . أنها خطوة عظيمة فى المجال الروحى والتاريخى والثقافى .

جمعية مار مينا العجايبى
بالاسكندرية

ذكرى عيد الشــــهداء الأقباط

تحتفل الجمعية بأحياء ذكرى استشهاد القديس العظيم ذى الثلاثة أكاليل :

مار مينـا العجـايبى

وذلك يوم الاثنين القــــادم ١٤ هاتور سنة ١٦٦٤ الموافق ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٤٧ الساعة السادسة والنصف مساء ، بكنيسة اسيدة العــــذراء بمحرم بك ، حيث يتحدث فى هذه المناسبة الجليلة حضرتا الأب المحترم القمص مرقس باسيليوس راعى الكنيسة والدكتور منير شكرى وكيل الجمعية . كما تشترك فى الاحتفال جمعية نهضة كنائس الكرازة المرقسية .

أيها الاخوة : أننا نقلب صفحات تاريخنا لنجلوها وننفض عنها غبار الزمن ، لا لنقرأها وننساها أو نعيش على ذكراها وانما لنأخذ من أمسنا عبرة ليومنا وغدنا !!!

١٠ هاتور ١٦٦٤
٢٠ نوفمبر ١٩٤٧

الجمعية

مطبعة رمسيس باسكندرية

جمعية مار مينا العجايبى

بالاسكندرية

حضرة الزميل المحترم

أتشرف بدعوة حضرتكم لحضور اجتماع الجمعية العمومية الذى سيعقد بمشيئة الله بمركز الجمعية المؤقت (قاعة الاجتماعات بكنيسة السيدة العذراء بمحرم بك) يوم الجمعة ٢٥ هاتور ١٦٦٤ الموافق ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٧ الساعة الثالثة مساء . فاذا لم يتكامل العدد القانونى فسيؤجل الاجتماع ساعة واحدة وحينئذ تصبح الجلسة قانونية مهما كان عدد الحاضرين .

جدول الأعمال

١ — التصديق على محضر الجمعية العمومية السابق
٢ — تقرير عن اعمال مجلس ادارة الجمعية
٣ — عرض حسابات الجمعية والتصديق عليها
٤ — انتخاب اعضاء لمجلس الادارة عن العام الجديد
٥ — مايستجد من الاعمال

وعلى حضرات الاعضاء الراغبين فى الترشيح لعضويه مجلس الادارة ان يتفضلوا بابلاغنا ذلك بموجب خطاب موصى عليه فى موعد غايته ٣٠ نوفمبر ١٩٤٧ وسيكون حق الانتخاب قاصراً على حضرات الأعضاء الذين سددوا اشتراكاتهم حتى شهر نوفمبر الجارى.

وتفضلوا بقبول احترامى ؟

رئيس الجمعية
باخوم مبتى

الاسكندرية ١٠ هاتور ١٦٦٤
٢٠ نوفمبر ١٩٤٧

الفصل الثالث

جمعية مارمينا العجايبى بالأسكندرية
أو
« ثلاثون عاما فى خدمة »
« تاريخنا القومى »

فى نوفمبر عام ١٩٤٥ قام فريق من شباب الاسكندرية لا يتجاوزون أصابع اليدين عدا بالعمل على نشر تاريخ العصر القبطى . الذى هو جزء هام من تاريخنا القومى لم ينل ما يستحقه من دراسة لسبب أو لآخر . مع أن تاريخ هذا العصر ملىء بالامجاد وفيه تجسم للروح المصرية التى نعتز بأرومتها وكرامتها . اذ له آثار بالغة الأهمية ليس على التاريخ المصرى فحسب وانما على تاريخ العالم والحضارة والانسانية جميعا .

وقد بدأوا خطواتهم بنشر نداء يوجهون فيه الانظار إلى ذلك التاريخ المجيد والتراث العريق الذى يحتوى على أروع صفحات الوطنية والبطولة والجهاد . ويوجزون فيه برنامجهم وهو الكشف للأحفاد على مآثر الأجداد واطلاع الخلف على ما كان عليه السلف ليسترشدوا ويقتنفوا أثرهم وليشيدوا مستقبل أبنائهم وقد عمرت اذهانهم بصور آبائهم .

وكان من أهم ما توسلت به فى تأدية رسالتها نشر رسائل ودراسات علمية مبسطة عن أهم المواضيع التى يتعين على كل قبطى الالمام بها ، وكذلك احياء ذكرى شهداء القبط وابطالهم فى كافة العصور بالخطابة والكتابة ، وكذلك اعداد رحلات للأماكن الأثرية التى تهم كل قبطى زيارتها .

وكانت باكورة تلك النشرات تلك التى اصدرتها الجمعية فى عيد استشهاد مارمينا العجايبى عام ١٩٤٥ عندما قامت برحلة إلى تلك الجوهرة الراقدة فى اقليم مريوط والمدينة المرمرية الراقدة بين رمال الصحراء ، مدينة مارمينا العجايبى . وقد جاء فيها « يتشكك بعض الناس فى سير شهدائنا وأبطالنا . فها نحن نقدم لهم صفحة من صميم التاريخ القديم تؤيدها المخطوطات وتؤكدها المجموعات الأثرية المنتشرة فى كل مكان . فليست الحقائق التاريخية اذن هى

التى تعوزنا . بل يعوزنا ما هو أسمى واعظم . نعم يعوزنا الايمان ... الايمان القوى الصادر من الأعماق فى معتقداتنا وفى اعمالنا وفى أقوالنا وفى حق أمتنا القبطية المجتهدة فى البعث والحياة والخلود » .

وفى عام ١٩٤٧ أصدرنا أولى رسالاتنا بمناسبة عيد القيامة المجيد ، وفى صدرها كلمة للأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية . اطال الله بقاءه ، جاء فيها « وشعلة اليوم هى تلك الجماعة الصغيرة المتواضعة التى التفت حول اسم مارمينا العجايبى معتصمة بأساليب المحبة ونكران الذات والتضحية التى مات هو من أجلها منذ قرابة سبعة عشر قرنا تحت حكم دقلديانوس فى القرن الثالث الميلادى .

ان هذا الكتاب الذى بين يديك أيها القارىء الكريم انما هو بداية وليس نهاية وان هذه الجماعة سائرة ببركةالله على الدرب القويم ومن سار على الدرب وصل . وهى اذ تهيىء لك مزيجا متناسقا منسجما من الدين والتاريخ والعلم والفلسفة انما تبعث بذلك تراث أبائك وأجدادك بعثا سيملأ نفسك ثقة وفخرا وأملا . أليس تاريخ القبط جزءا من تاريخ مصر جمعاء . وانى لا أرى واجبنا نحو هذه الدراسات الا جزءا لا يتجزأ من واجبنا القومى نحو الوطن ونحو العلم والتاريخ » .

وتوالت الرسائل وانضم إلى الجمعية بالاسهام فى كتابتها باقة من علمائنا ومؤرخينا ففى نيروز ١٩٤٧ أصدرت الجمعية رسالة عن اللغة القبطية وضرورة العناية بها اشترك فيها مع بعض العلماء الأجلاء المستشرق المتنيح القمص يعقوب مويزر .

وفى عام ١٩٤٨ أصدرت رسالتها الثالثة بعنوان « الرهبنة القبطية » ذلك الكتاب الذى كان له صدى بعيد فى الأوساط العلمية وأثر عميق بين القبط مما حدا ببعض شبابنا المثقف أن يترك مناصبه ومكاسبه وأن يطرق أبواب الأديرة ، يقوده الرغبة الملحة فى خدمة الكنيسة .

وفى عام ١٩٥٠ أصدرت الجمعية رسالتها الرابعة « صور من تاريخ القبط » . قدمت الجمعية فيها صور شخصيات صنعت التاريخ أختارتهم من معرض التأريخ القبطى فيما بين فجر التاريخ المسيحى والقرن التاسع عشر ،

والتاريخ ليس سوى تراجم عظماء الرجال . وقد جاء فى مقدمه هده الرسالة اذا كان قد فاتنا حتى الآن أن نحتفى بهذه الشخصيات ونفى هم بعض ما يحق لهم علينا فلا أقل من أن نصوغ هنا للاحفاد من تاريخ الأجداد هده الصور المجيدة لعلهم يجدون فيها ذكريات نافعة يتعظون بها ومثلا عليا يهتدون بهديها والحانا شجية يترنمون بانشادها » .

وفى عام ١٩٥٤ أصدرت الجمعية الرسالة الخامسة « صفحة من تاريخ القبط » ، ولأجل أن يتبين القارىء ما كان من أثر لهذه الرسائل أورد هنا مقدمة هذه الرسالة بقلم رئيس الجمعية فى ذاك الوقت المرحوم الأستاذ بانوب حبشى اذ يقول فيها « وفى خلال تلك المدة كانت قد نبتت فى أذهان بعض المهتمين بالدراسات القبطية الذين اشتركوا معنا فى مسيرتنا . وفى مقدمتهم الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية ، فكرة انشاء معهد للدراسات القبطية . اذ وجدت مؤلفاتنا أرضا خصبة وجمهورا متشوقا إلى المزيد من هذه الدراسات . واستعدادا طيبا من شبابنا المتشوق إلى المعرفة والثقافة » .

وهكذا كان من أهم آثار تلك الرسائل التنبية إلى ضرورة انشاء مثل هذا المعهد ويكتب الدكتور عزيز سوريال مرة أخرى عن رسائل هذه الجمعية فيقول « انجزت هذه الجمعية منذ تأسيسها البحوث الحديثة فى الدراسات القبطية . فامتلأت بها صفحات عدة مجلدات تعتبر من أثمن ما يملكه الأقباط فى أيامنا » .

وأخيرا أصدرت الجمعية مرجعا كبيرا لقواعد اللغة القبطية ، يعتبر بحق مرجعا لأجيال عديدة مقبلة . وتحفة ثمينة يحرص على اقتنائها كل قبطى ليزين به مكتبته القبطية .

هذه هى الجمعية التى تحتفل فى هذه الأيام بعيدها الثلاثين ماضية فى رسالتها بهدوء ومثابرة عسى أن يكون فى تاريخها ما يحفز شبابنا على الاهتمام بتاريخ سواء منه البعيد أم الحديث فى حاجة إلى دراسة تنويرا للأذهان واستخلاصا للعبر ليكون لنا مستقبل جدير بماضينا .

وبهذه المناسبة نرسل تحية لمن آزرونا فى عملنا سواء منهم الأحياء وفى مقدمتهم الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية والدكتور لبيب حبشى والدكتور

باهور لبيب أطال الله بقاءهم . والذين رقدوا فى الرب نذكر منهم المرحومون يسى عبد المسيح والدكتور توجو مينا . والدكتور جورجى صبحى . والدكتور مراد كامل ، والمستشرق القمص يعقوب مويزر .

(مجلة مرقس — يناير ١٩٧٧)



جمعية مار مينا العجايبي
بالاسكندرية

لجنة مكافحة الأمية

الفصول الليليـــة لتعليم الكبـار

اعتزمت جمعية مار مينا العجايبي بالاسكندرية بمشيئة الله ، افتتاح فصول دراسية لتعليم من فاتهم التعليم من أبناء الاقباط وذلك حتى لا يبقى هناك قبطى محروم من نعمة المعرفة ونور العلم . وفوق ذلك ستلقى دروس مبسطة فى تاريخ الأمة القبطية المجيدة وفى شرح تعاليم الكتاب المقدس مما يحتاج اليه كل قبطى غيور ، جدير بمسيحيته وتواق للتحلى بفضائلها الخالدة .

وقد قررت الجمعية ان تكون الدراسة بالمجان حتى لا يتخلف عنها أحد .

وستبدأ هذه الدروس فى يوم الاثنين ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ بالدار الملحقة بكنيسة الملاك ميخائيل بغربال تحت إشراف حضرة الدكتور تادرس منقريوس عضو الجمعية ، ويقوم بالتدريس حضرتا الاستاذين يونان افندى رياض وعبد المسيح افندى رزق الله فى المواعيد التى سيعلن عنها فى ذلك المكان .

وعلى من يرغب فى تلقى هذه الدروس ان يقيد اسمه بطرف حضرة يونان افندى رياض بمدرسة تربية الطفولة رقم ٤٥ شارع راغب باشا فيما بين الساعة السادسة والثامنة من مساء كل يوم .

وجمعية مار مينا ، وقد أخذت على عاتقها نشر الثقافة بكل الوسائل الممكنة ، ترجو ان توفق فى خدمة أبناء الأمة القبطية ومحو عار الأمية من بينهم محواً تاماً فى مدينة الاسكندرية ذات التاريخ العظيم ومهبط الحضارة المسيحية فى الشرق .

وفقنا الله لعمل كل ما فيه مجد اسمه ورفعة كنيسته ؟

رئيس الجمعيـــة

بانوب حبشى

صورة لإعلان أصدرته الجمعية عام ١٩٤٧ يعطى فكرة عن نشاط الجمعية فى المجال الإجتماعى .

جمعية مار مينـــا العجايبي
بالاسكندرية

الاحتفال بتذكار تكريس
كنيسة مار مينـــا العجايبي بمريوط

تحتفل الجمعية بمشيئة الله بتذكار تكريس تلك الكنيسة العظيمة التي ظلت محجا عالميا حتى القرن العاشر الميلادي ، يوم الخميس ٢١ يونيو سنة ١٩٥٦ الساعة السابعة مساء ، في كنيسة مار مينا العجايبي بفلمنج التي يوافق تذكار تكريسها نفس اليوم أيضاً . فتلقى كلمة مناسبة ، وتوزع صورة تذكارية بها نبذة عن القديس وكنيسته بقـــلم الطبيب الذكر العالم الأثري والمؤرخ المرحوم الأستاذ بانوب حبشي .

والجميع مدعوون لنوال البركة ، وكل عام وأنتم بخير ؟

الجمعية

الاسكندرية في ١٦ يونيه ١٩٥٦ / ٩ بؤونة ١٦٧٢

مطبعة النهضة ومكتبتها ٢٦ شارع الملاحة
تليفون ٢٥١٠٢ بالاسكندرية

الباب الخامس

إهتمام جمعية مارمينا باللغة القبطية



قداسة البابا كيرلس السادس يتصفح كتاب (المرجع فى قواعد اللغة القبطية) وعن يمينه الأستاذ بذيع عبد الملك غطاس والدكتور فتحى الملاخ وعن يساره الدكتور منير شكرى والأستاذ حبيب الشارونى .

الفصل الأول

خطاب لقداسة البابا كيرلس السادس
بخصوص إصدار كتاب اللغة القبطية

حضرة صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم / الأنبا كيرلس السادس بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية .

أتقدم إليكم فى خضوع بنوى ، لاثما يديكم الكريمتين ، ملتمسا بركتكم الرسولية .

وبعد — كان موضوع اللغة القبطية من أهم المواضيع التى عنيت بها جمعية مارمينا العجايبى منذ تكوينها ، وكان من أهم ما لفت أنظارنا تلك الحركة الجديدة التى هى فى نمو مستمر بكنائسنا وهى احلال اللغة العربية مكان القبطية ، لا اضافة هذه إلى تلك كما كانوا يحاولون فى الماضى ، حتى انقلبت صلوات القداس القبطى فى سنوات معدودات إلى قطع عربية خالصة . ثم بدأوا الآن يستغنون فى بعض الكنائس عن قراءة انجيل القداس بالقبطية . وإذا سار الحال على هذا المنوال لا قدر الله فسيستغنون حتماً عن المطبوعات القبطية فى الكنائس ، ولهذا ما له من نتائج بعيدة الأثر . وكان مما لاحظناه أيضاً أن بعض المسئولين عن تقاليد الكنيسة الخالدة وعن كيان الشعب العريق وروحه ، كانوا ينظرون إلى هذا الأمر وكأنه لا يعنيهم وليس من أخص شئونهم ، ويعلم الله أنه أحرى بعنايتهم واهتمامهم من كل أمر آخر .

كل هذا حفزنا إلى اصدار رسالتنا الثانية عن اللغة القبطية فى مناسبة عيد النيروز عام ١٦٦٤ ش الموافق سبتمبر ١٩٤٧م، بينا فيها أن هذه اللغة التى أصبحت لغة الكنيسة حافظت عليها فى أشد الظروف قسوة ، وطالبنا بالمحافظة عليها فى كنائسنا فى عصر النور والحرية ، بعدما تخطت عصور الظلمة والجهالة ، إذ هى اللغة التقليدية لكنيستنا القبطية المحافظة ، وهى لغة آباء الكنيسة وشهدائها ، ثم هى اللغة التى سنحتاجها حتماً لكتابة تاريخ كنيستنا كما يجب .

وذكرنا الجميع من ناحية أخرى بوجوب التطلع إلى رهبان اليوم أو الغد القريب ان أردنا حقاً محاولة أحياء اللغة القبطية ، واقترحنا لأجل أن تتاح لهم الفرصة أن يعمم استعمال اللغة القبطية ولو فى أحد الأديرة على سبيل التجربة ، هذا الاقتراح الذى نرى فى عهدكم يا سيدنا أن الظروف كلها مواتية لتحقيقه .

ولقد تدفق علينا الكثير من الشباب منذ ذاك الوقت المتشوق إلى تعلم لغته والاستفادة من بركة القداس الالهى بفهم كل ما يتلى عليه ، يطلب منا بصفتنا الرواد فى الميدان الثقافى أن نتبع هذه الرسالة برسالة أخرى تحوى قواعد اللغة وتعتبر مرجعاً محترماً لجميع الدارسين والباحثين ، إذ لا يجدون مثل هذا المرجع . وأمام الالحاح المستمر المتزايد،كونت الجمعية لجنة من السادة :

الأستاذ بسنتى رزق الله
الأستاذ معوض داود عبد النور
الأستاذ حبيب الشارونى
الأستاذ مرقس بطرس
الأستاذ ملاك ميخائيل

وأمدت هذه اللجنة ببعض المراجع فى قواعد اللغة القبطية التى وضعها المستشرقون الأجانب ، وكان أهمها الطبعة الحديثة من كتاب قواعد اللغة القبطية للعالم المستشرق الآب الكسيس مالون اليسوعى . وقد والت هذه اللجنة عملها بعزم وتصميم ومثابرة ، حتى أنهت عملها الشاق وأعدت أصول كتاب قواعد اللغة القبطية منذ عام١٩٦٧م. وكانت العقبة أمام طبع هذا الكتاب القيم عدم وجود المادة اللازمة لدى الجمعية لتمويل طبعه .

سيدى البابا المعظم

ان طبع هذا الكتاب القيم الذى لم يطبع مثله فى مصر منذ عام١٩٢٤معندما قام بوضع كتاب لقواعد هذه اللغة المرحوم الدكتور جورجى بك صبحى بتكليف من وزارة المعارف ، وطبع فى المعهد الفرنسى الشرقى للآثار ونفذ منذ عشرات السنين ، أقول أن طبع هذا الكتاب القيم سيكون مفخرة لعهد قداستكم ، ومرجعاً قيماً لجمهرة شبابنا المتعطش لمعرفة لغة كنيسته ، ثم للباحثين والدارسين فى الآثار والتاريخ .

وتروم الجمعية أن يخصص دخل هذا الكتاب جميعه لمنشآت دير مارمينا العجايبى بمريوط ، وتقوم لجنة بعد طبعه بالاشراف على نشره وتوزيعه .

ومما يجدر ذكره أن جميع التمارين والتطبيقات فى هذا الكتاب مأخوذة من الكتاب المقدس بعهديه .

الرب يديمكم نصيراً للعلم ولكل ما يؤدى إلى رفع شأن الكنيسة التى أؤتمنتم عليها ، ونرجوه عز وجل أن يبارك جهودكم وأن يثبتكم على كرسيكم سنين مديدة حافلة بالخير والسلام ، بالمسيح يسوع ربنا .

إبنكم المخلص المطيع
دكتور منير شكرى

فى ٢٧ بشنس ١٦٨٥
٤ يونيو ١٩٦٩



د. منير شكرى يقدم لقداسة البابا كيرلس السادس نسخة من كتاب (المرجع فى قواعد اللغة القبطية) عام ١٩٦٩ م الذى أشرفت على وضعه جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية . وعن يمين قداسة البابا طيب الذكر الأستاذ بديع عبد الملك غطاس .

الفصل الثانى

قداسة البابا يبارك
مشروع جمعية مارمينا العجايبى
لاصدار كتاب للغة القبطية

إستقبل قداسة البابا فى الأسبوع الماضى الدكتور منير شكرى رئيس جمعية مارمينا العجايبى العلمية بالإسكندرية الذى عرض على قداسته أول (بروفة) لثامن رسالة تصدرها الجمعية فى سلسلة مطبوعاتها العلمية الثمينة وهى « قواعد اللغة القبطية وأصولها » ، وكان قداسته — كما سبق لجريدة وطنى أن أشارت — قد أبدى إهتماما خاصا بهذا الموضوع عندما عرض عليه كمشروع ، ورأت الجمعية وقد بدأت التنفيذ نيل بركة قداسته الرسولية .

والمؤلف شامل لكل ما يتعلق بقواعد اللغة القبطية بحيث يعتبر مرجعاً وعمودا علميا دقيقا لكل الدارسين والباحثين فى اللغة من رجال التاريخ والأثار وكذلك الشباب المثقف الذى يود الالمام بلغة كنيسته القبطية للإستمتاع الروحى بالقداس القبطى فضلا عن ضرورته للأباء الكهنة والشمامسة الأقباط ، وقد تولت إعداد الكتاب لجنة خاصة من خبراء وعلماء اللغة القبطية .

وقد بارك قداسة البابا هذا المشروع الجليل بإعتباره الأول من نوعه منذ نصف قرن ، فقد سبق للمرحوم الدكتور جورجى صبحى عام ١٩٢٤ بتكليف من وزارة المعارف فى ذلك الوقت — بوضع كتاب لقواعد اللغة القبطية لطلبة قسم الأثار بالجامعة المصرية ، وطبعت الوزارة الكتاب إلا أن الطبعة نفذت من وقت طويل وأصبحت الحاجة تدعو إلى كتاب آخر أحدث منه وأكثر شمولا ، ووعد قداسة البابا بتعضيد المشروع الذى لا غنى عنه للكنيسة القبطية بإعتبار أن اللغة القبطية هى لغة الكنيسة وقد كان رجال الإكليروس حريصين دائماً على الصلاة بها ولا يتكلمون فى الهيكل إلا بالقبطية فلم يهملوا لغة أجدادهم وكانوا يعتقدون أن الصلاة داخل الهيكل بغير القبطية أمر لا تقره القوانين الكنسية .

وقد حرصت الجمعية على تنفيذ المشروع الذى إستغرق منها الجهد الكبير ، ويحتاج إلى مال كثير إيماناً منها بأن هذه اللغة العريقة يجب أن تعيش وأن تزدهر لا كلغة للكنيسة وحدها بل كإحدى اللغات ذات الأهمية العلمية الكبرى ولا سيما وفى هذا القرن وقد إهتم بها الغرب وإحتضنها ودرسها فى جامعاته وأنشئت فى بعضها كراسى للأستاذية بها .

وبهذه المناسبة تفضل قداسة البابا فسلم الدكتور منير شكرى الميدالية الذهبية التذكارية للاحتفال بمرور تسعة عشر قرناً على إستشهاد القديس مرقس تقديرا للجمعية وجهودها التى تقوم بها فى الميدان الثقافى والتاريخ القبطى خلال ربع قرن .

نهضة كبيرة لتدريس اللغة القبطية

ونذكر بهذه المناسبة أن الإسكندرية تشهد هذا الصيف نهضة كبيرة وإهتماما مشكورا بتلقين شبابنا مبادىء اللغة القبطية فقد نظمت لجان الكنائس وأنديتها دراسات خاصة لهذا الغرض يتردد عليها أعداد

كبيرة من الشباب لتعلم لغة الكنيسة وشاركت جماعة الإصلاح القبطى فى هذا المجال فإستأنفت نشاطها فى تعليم اللغة القبطية بدارها يومى الاثنين والأربعاء ويشرف على تعليمها أساتذة متخصصون فى اللغة القبطية .

(وطنى ١٣ /٧ /١٩٦٩)

قداسة البابا يتسلم النسخة الأولى من كتاب (المرجع فى قواعد اللغة القبطية)

عشرة أيام قضاها قداسة البابا كيرلس السادس بمقر كرسى مار مرقس الرسول الانجيلى بمدينة الاسكندرية استقبل قداسته خلالها الآلاف من شعب كنيسة الاسكندرية كما تفقد قداسته أحوال رعايته الرسولية بالمدينة وقد زار قداسته العديد من الكنائس كما تشرف بمقابلة قداسته أمناء وخدام التربية الكنسية بالمدينة وأيضاً رئيس وأعضاء جمعية مار مينا العجايبى بالاسكندرية وقدم رئيس الجمعية الأستاذ المؤرخ الدكتور منير شكرى النسخة الأولى من كتاب (المرجع فى قواعد اللغة القبطية) الرسالة الثامنة من مطبوعات الجمعية وكان قداسة البابا قد تبنى مشروع هذا الكتاب وتحمل سائر تكاليفه على نفقة قداسته الخاصة وقد ارتجل رئيس الجمعية كلمة (عدد فيها الأعمال الجليلة التى تبناها قداسة البابا المعظم التى من بينها تشجيع ومساعدة قداستكم لصدور هذا الكتاب الأول من نوعه وأراد الله عز وجل شأنه أن يكون فى عهد قداستكم السعيد) .

(وطنى ٧ /٦ /١٩٧٠ م)

الفصل الثالث

كتاب جديد

المرجع فى قواعد اللغة القبطية

أصدرت جمعية مار مينا العجايبى بالاسكندرية كتاباً وافياً ضخماً فى اللغة القبطية باسم « المرجع فى قواعد اللغة القبطية » وهو الرسالة الثامنة التى أصدرتها هذه الجمعية النشطة التى توفرت منذ انشائها من مدة تزيد على ٢٥ سنة على الانتاج العلمى فى محيط الدراسات القبطية .

يقع هذا الكتاب فى ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير . وتستند مادته أساساً إلى كتاب مالون A. Mallon بعنوان «علم النحو للغة القبطية» Grammaire Copte مع اضافة بعض شروح من كتاب « م . شين » M. Chaine بعنوان « عناصر علم النحو القبطى بلهجاته » Eléments de Grammaire Dialectale Copte وبعض كتب أخرى .

وقد قام بالترجمة من اللغة الفرنسية الأستاذ ملاك ميخائيل ، والأستاذ حبيب الشاروني ، وحقق نصوصه القبطية وراجع مفرداته الأساتذة معوض داود وبسنتى رزق الله ومرقس بطرس وجميعهم رجال أكفاء .

والكتاب مهدى إلى صاحب القداسة والغبطة البابا كيرلس السادس بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الذى تفضل فأوحى بفكرة هذا الكتاب ، كما تفضل فأمر أن يكون طبع الكتاب على نفقته ، كما أمر برصد ايراده لاتمام مؤسسات دير مار مينا بصحراء مريوط .

والكتاب مصدر بكلمة افتتاحية من السيد الدكتور منير شكرى رئيس جمعية مار مينا العجايبى استعرض فيه الأسباب الملحة فى اصدار هذا الكتاب الضخم ليسد فراغاً فى المكتبة القبطية شعر به الكثيرون من الأقباط وغيرهم من المولعين بدراسة اللغة القبطية .

وقد جاء بعد الافتتاحية مقدمة قيمة عن اللغة القبطية كان قد كتبها فى حياته المرحوم العالم الأستاذ يسى عبد المسيح أضافت إليها الجمعية فصلاً بعنوان : « المراجع الحديثة للغة القبطية » ، وقد ذكرت الجمعية أسماء المراجع الأجنبية وبعض المراجع العربية . ولكنها أهملت مؤلفات المرحوم العلامة أقلاديوس لبيب الذى وضع عدة مؤلفات فى اللغة القبطية فى النحو وفى القواعد وفى الانشاء والنصوص كما وضع القاموس المعروف « القبطى العربى » . ولابد لكتاب فى اللغة القبطية باسم « المرجع فى قواعد اللغة القبطية » أن يعترف بفضل الرجل العظيم الذى يعزى إليه الفضل فى الجيل الماضى فى تعليم اللغة القبطية ونشرها بجميع وسائل النشر . ومن أقواله المأثورة : لقد آليت على نفسى أن أنشر اللغة القبطية بكل الوسائل ولو بالنبوت » وهو الرجل الذى تتلمذ عليه كل جيل أساتذة اللغة القبطية الذين تخرجوا فى الكلية الاكليريكية بالقاهرة منذ إنشائها ومن تتلمذ عليهم إلى اليوم

وكما أهملت الجمعية التنويه بجهود المرحوم اقلاديوس لبيب أهملت أيضاً التنويه بمؤلفات المرحوم شنوده عبد السيد ، والمتنيح القمص تاوضروس تادرس والأستاذ أيوب فرج والأستاذ شاكر باسيليوس ، وهم الذين اضطلعوا بتعليم اللغة القبطية فى الكلية الاكليريكية والمعهد العالى للدراسات القبطية وأصدروا كتباً فيها .

على أن الكتاب فى مجموعه سفر نفيس يشتمل على تمهيد وستة أقسام كبيرة . والقسم الأول منها يشتمل على عدة فصول فى « قواعد النطق » والقسم الثانى منها ــ الخاص بالنحو والقواعد ــ يشتمل على أربعة أبواب واثنين وعشرين فصلاً . وأما القسم الثالث فيتناول جدول الأفعال المتغيرة وصيغها المختلفة .. والقسم الرابع يختص باللهجات المختلفة والقسم الخامس يورد نصوصاً باللهجة البحيرية . والقسم السادس يشتمل على معجم قبطى عربى يتضمن المفردات الصعيدية والبحيرية واليونانية واللاتينية وأسماء الأشخاص وأسماء البلاد .

وفى نهاية الكتاب تصويب للأخطاء المطبعية ملأ ٥ صفحات كاملة من الكتاب والحق أن الأخطاء المطبعية فى كتاب يختص باللغة عيب كبير لا يغتفره القارىء .

أننا نهنىء جمعية مار مينا العجائبى على هذا العمل الضخم . وهذا المجهود الكبير فى خدمة اللغة القبطية . ونرجو للكتاب ما يستحقه من اقبال جميع الأقباط عليه . لينتفعوا بما فيه من علم واسع ومعرفة كبيرة .

الأنبا غريغوريوس
أسقف عام الدراسات العليا
والثقافة القبطية والبحث العلمى
(وطنى ٣١ /١ /١٩٧١ م)

الفصل الرابع

اللغة القبطية
ونصيبها من الحركة الاصلاحية

عندما قام الانبا كيرلس الرابع أبو الإصلاح القبطى بنهضته العلمية المباركة ، التى وضع بها أساس ما نسميه الآن « النهضة القبطية الحديثة » ، كان من أهم ما تضمنه برنامجه احياء اللغة القبطية . ومع أنه لم تكن قد قامت فى وقته الجامعات ، ولا تخرج منها آلاف الشبان الأقباط الذين عرفوا شيئا عن تاريخ أمتهم ، أقول بالرغم من عدم وجود هذا كله فقد نهض بتلك اللغة فى زمن قصير ، ومتوسلا لذلك بوسائل ثلاث :

أولا ــ جعل اللغة القبطية تدرس بجانب اللغات الحية الأخرى فى مدرسة الأقباط الكبرى التى انشأها وسماها إذ ذاك مدرسة « دار العلوم » وقد لمعت فى أيامه أسماء من قاموا بتدريس هذه اللغة ، نذكر منهم المرحوم المعلم عريان جرجس مفتاح الذى كان أول أستاذ لها والذى كانت له فيها مؤلفات هامة كما كان للمطبعة التى استحضرها من الخارج فضل طبع بعض الكتب القبطية بعد وفاته .

ثانيا ــ أصدر منشوراً يقضى بأن يصرف راتب شهرى من البطريركية للكهنة الذين يعرفون اللغة القبطية معرفة جيدة .

ثالثا ــ كلف القمص تكلا كاهن الكنيسة المرقسية الذى عرف باتقانه الألحان الكنسية ، بأن ينتخب حسنى الصوت من بين تلاميذ المدرسة لتعليمهم التراتيل والألحان ، وبهذا تحسنت معلوماتهم فى اللغة القبطية التى كانوا يتعلمونها فى مدرستهم . وفى هذا يقول المرحوم يعقوب بك نخلة رفيلة « فنتج عن هذا التحسين الظاهرى فائدتان : إحداهما إظهار فائدة المدارس وترغيب الأهالى فى وضع أولادهم بها . والثانية مواظبتهم على الحضور الى الكنيسة وهم منشرحى الصدر من سماع التراتيل والأناشيد اللطيفة » .

ولقد إمتد اثر النهضة الى خارج المحيط الطائفى فيخبرنا صاحب التوفيقات الإلهامية « وفى إبتداء ٢١ شوال سنة ١٢٧١ هـ إستعملت التواريخ القبطية بحسابات مصر » وهذا التاريخ يوافق أول أبيب سنة ١٥٧١ ش و ٧ يوليو سنة ١٨٥٥ م ، وكان ذلك كسبا أدبيا عظيما يرجع الفضل فيه إلى الانبا كيرلس الرابع . ألا رحم الله ذلك العبقرى البعيد النظر لما قدم للمسيحية وللأمة وللكنيسة من خدمات .

وجاء بعد ذلك تلاميذ ابى الإصلاح وافتتحوا المدرسة اللاهوتية سنة ١٨٧٥ م مؤملين ان يتمموا رسالته بتلك المؤسسة التى لم يطل به العمر لإتمام إنشائها . وكانت اللغة القبطية ستأخذ فيها حتما مركز الصدارة . ولكنها لم تعش سوى بضعة أشهر إذ سرعان ما عصفت بها ريح الجهل وقصر النظر .

وحدثت بعد هذا العصر الزاهر فترة ركود طويلة ، كان يسمع خلالها بين حين وآخر صوت بعض الذين درسوا اللغة القبطية واحبوها فنادوا باحيائها ، نذكر من هؤلاء المعلم برسوم ابراهيم الراهب وحنا يوسف حنا وفانوس جرجس ، على أن اعلى صوت ولا شك سمع قبل عصرنا الحالى هو صوت اقلاديوس بك لبيب فلقد أشربت نفسه بحب هذه اللغة ، فجعلها لغة التخاطب التى يتحدث بها فى منزله بين أهله وعشيرته . وإلى هذا فقد أصدر مجلة عين شمس ، وفيها نشر المباحث اللغوية والتاريخية ، ومنها أرسل صرخات عالية لوجوب الإهتمام بتلك اللغة منوها بأهمية ذلك لحفظ كياننا القومى ، وفيها صال وجال ضد هؤلاء الذين أهملوا أمرها سواء فى الكنائس أو خارجها ذاكرا أن التاريخ سيحمل الكهنة ونظار المدارس القبطية ومدرسيها والجمعيات القبطية مسئولية التخاذل فى تعليم الشعب اللغة القبطية وتفهيمه كل ما يتعلق بالخدمات الدينية بهذه اللغة . على ان هذه الأصوات للاسف لم يكن لها تأثير كبير .

واليوم تشاهد الأمة حركة إصلاحية مباركة تناولت كثيراً من النواحى الطيبة . فلقد انشئت منذ أكثر من ربع قرن كثير من الجمعيات التى تعنى فوق ما تعنى به من الشئون الإنسانية ، بالشئون الدينية ، فهى تعلم الالحان

الكنسية ، وهى تشترك فى الخدمات الدينية ، فتضفى عليها روح النظام والورع ، وإلى هذا فهى تنظم المحاضرات والرحلات الثقافية ، وتصدر بعض المجلات الدورية التى تعالج الموضوعات الدينية والتاريخية . هذه الجمعيات التى تساهم بقسط ملحوظ فى الأعمال الإنسانية والكنسية نرى اغلبها ـــ للأسف ـــ لا تعنى باللغة القبطية ، والجمعيات القليلة التى تعنى بها لا تهتم بها الإهتمام الواجب فضلا عن عدم سيرها على منهاج منظم .

واليوم وقد انشئت منذ زمن طويل المدرسة الأكليريكية التى يتخرج منها رعاتنا ، وفيها برنامج طويل مفصل لتعليم اللغة القبطية ، واليوم وقد مر على انشاء جامعة فؤاد الأول حوالى الربع قرن وقد جعلت اللغة القبطية من بين الدروس الأساسية لقسم الآثار بها ، نتطلع للأثر الذى أوجده خريجو هذه المعاهد لتقدم اللغة فلا نجد شيئا أمامنا .

إننا نعلم تمام العلم أن هناك مئات الشبان الذين يتحرقون شوقا لتعلم هذه اللغة حتى يستطيعوا أن يتتبعوا الخدمات الدينية ، وحتى يشبعوا عطشهم نحو تفهم الألحان الكنسية وغيرها .

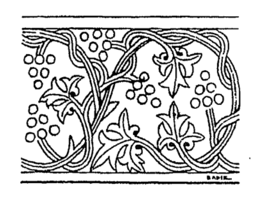
لهذا فإننا نناشد ضمائر كل من يتقدم الصفوف فى معرفة تلك اللغة وفى مقدمتهم الدكتور جورجى بك صبحى الذى ظل واقفا زهاء الأربعين عاما يدعو إلى النهوض بها ، ثم ضمائر الجمعيات الدينية وكل من امتلأت نفوسهم بحب لغة بلادهم كى يضموا صفوفهم ويكونوا من بينهم هيئة عليا تتولى رسم الخطط وتوفير الوسائل لأجل وضع تعليم تلك اللغة على أسس ثابتة تتفق ووسائل التعليم الحديثة .

بقيت لنا كلمة نتوجه بها إلى الرئاسة الدينية العليا ممثلة فى غبطة البطريرك واعضاء المجمع المقدس والمجلس الملى العام ، برجاء أن يولوا موضوع اللغة القبطيه ما يستحقه من الإهتمام بوصف كونها الصلة الوحيدة التى لا تزال تربط حاضرنا بماضينا وإحدى مقومات شخصيتنا ، وأن يبذلوا ما فى وسعهم من مساعدة وتأييد للهيئة العليا التى نقترح تكوينها للأشراف على انهاض

اللغة ، ولا اقول إحيائها لأن اللغة القبطية لن تموت بإذن الله . وليتأكد الجميع إن خيرة طبقات الأمة تقف وراءهم بكل قلوبها ترهف الآذان لسماع ما ينتهى إليه قرارهم وعسى أن يكون فى الرسالة الحالية ما يوقظ ضمائرنا .. انها الآن ساعة لنستيقظ ،،

فإلى الخطوة الاولى ونرجو ألا يطول إنتظارنا !

(من رسالة مارمينا فى عيد النيروز ـــ توت ١٦٦٤ ـــ سبتمبر ١٩٤٧ م) .



الفصل الخامس

في ذكرى الشهداء

اللغة القبطية

فى ملحق جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠ /٤ /١٩٦٢ نقرأ كلمة تحت عنوان «البابا وحده يحمى لواء الدفاع عن اللغة اللاتينية»، وضع أسقف رومية بها حداً فاصلاً للمناقشات التى ثارت حول إستعمال اللغة اللاتينية فى التراتيل الدينية والصلوات التى تقام فى الكنائس . وكان غالبية رجال الدين يرون أنها صارت فى عداد اللغات الميتة ، بعد أن إنعدم تداولها بين أبناء أى شعب من شعوب العالم . ولكن يوحنا الثالث والعشرين ذهب إلى العمق ، ووصف هذه اللغة القديمة بأنها « الصلة النبيلة المتينة التى تربط الأمم عبر القرون » وقال أن الكنيسة الكاثوليكية ستظل تتخذها لغة رسمية لها نظراً لما تتميز به من « المرونة والإيجاز والإنسجام والإمتلاء بالوقار والجلال » . وأوصى البابا بضرورة الإهتمام بضرورة اللغة اللاتينية ، قال هذا الكلام رغماً عن أن كنيسة روما إتخذت اللاتينية لغة رسمية لها منذ القرن الثالث الميلادى وأما قبل ذلك فلم تكن ثمة صلة بين هذه اللغة والمسيحية .

وفى هذه الأيام ونحن نستعيد ذكريات تنسج خيوطها من سير آبائنا الشهداء الأبرار ، ما أحرانا أن نتذكر شهيدة تقاسى إستشهادها على يدى أبنائها ولسان حالها يردد مع المرحوم حافظ إبراهيم شاعر النيل :

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى ومنكم وإن عز الدواء أساتى

نعم ! عوضاً عن أن يبرهن المصلحون فينا بفهمهم العميق لمعنى تمسكهم بلغة آبائهم فيدعون إلى التمسك بها ، فإنهم يشاهدون إستشهادها البطىء وكأن الأمر لا يعنيهم ، غير عالمين بأن فى ضياع هذا التراث هدماً لأحد تقاليد كنيستنا العريقة ، وتقويضاً لدعامة قوية من دعائم جنسيتنا وخسارة أدبية وعلمية لاتعوض !! وهى قبل كل ذلك لغة الآباء والأجداد التى عاشت خمسة آلاف سنة أو يزيد ، والتى ترجمت عن أعظم حضارة فى التاريخ .

إن كنيستنا هى الملجأ الأخير لهذه اللغة الكسيرة المهيضة الجناح ، وقد إلتجأت إليه بعد أن بطل إستعمالها فى الحياة المدنية . ولقد كانت لغة الكنيسة المصرية منذ فجر التاريخ المسيحى ، فتاريخ هذه اللغة إتصل بتاريخ الكنيسة منذ تأسيسها ، وإزدهرت على أيدى آبائها ، وحافظت عليها فيما بعد فى أشد الظروف قسوة .

هذه اللغة فى إضمحلال ومآلها إلى الزوال فى أيامنا هذه ، فى عصر النور والحرية ، بعد ما تخطت عصور الظلمة والجهالة . وكيف يستطيع شبابنا الذين يرومون كتابة تاريخ كنيستنا كما يجب ، أن يؤدوا واجبهم إذا لم يعرفوا اللغة التى سيحتاجون إليها حتما لترجمة النصوص ؟

يجب أن تقوم الكنيسة ممثلة فى كهنتها بحركة واسعة لنشر دراسة اللغة القبطية ، والإكثار من الصلوات والتراتيل القبطية ، وياحبذا لو أن مكاتبات الكنيسة تصير أيضاً باللغة القبطية ، بإعتبارها الصلة الوحيدة التى تربط حاضرنا بماضينا وإحدى مقومات شخصيتنا ، فينكب شبابنا على دراستها ، ويكثر بيننا المحافظون على لغتهم المحبون لها الذين يستطيعون الوقوف فخورين مرفوعى الرأس بين مصاف علماء هذه اللغة الأجانب .

هذه ناحية إيجابية يجب أن نعنى بها وأن نوجه الجهود إليها ، عوضاً عن سياسة النقد الهدام الذى يشب عليه بعض شبابنا . ولقد أتينا لهم فى مستهل كلمتنا هذه بما تراه الكنيسة الكاثوليكية فى لغتها اللاتينية الميتة وكيف تتشبث بها ، حتى نكفيهم نقدهم لتمسك البعض منا بضرورة إحياء اللغة القبطية فى صلواتنا وتراتيلنا . بل وفى جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٢ /٨ /١٩٦٢ نقرأ فى الصفحة الأخيرة أن جريدة الفاتيكان الرسمية اليومية تصدر باللغة اللاتينية ، فهل نطمع فى أن نعلم فى القريب أن طلبة كلية اللاهوت يطبعون مجلة شهرية لهم باللغة القبطية ولو على (الإستنسل) ؟ إن على عاتق كهنة المستقبل هؤلاء يقع العبء الأكبر فى إنهاض لغتنا الجزلة الجميلة ، بما لرجال الدين الأفاضل من نفوذ ووسائل للإرشاد .

ونحن نعلم أن قداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس ، وهو أصلاً من رهبان برية شيهات الذين حافظوا على اللغة القبطية فى أديرتهم ، ولم يسمحوا بأن يقام فى أديرتهم القداس بلغة غيرها ، نعلم بأنه شديد الإهتمام بإحياء هذه اللغة ، وقد شمل برعايته وتشجيعه مدرسة أنشئت فى الإسكندرية لتعليم البنات اللغة القبطية ، بإعتبار أن تربية البنت تنعكس على منزلها وعلى أبنائها . فإليه نرفع صوتنا ليصدر أوامره إلى الكهنة أدامه الله على كرسيه سنين عديدة ، وكل عام وهو وجميع شعب مصر بخير . .

(مجلة مدارس الأحد ـــ سبتمبر ١٩٦٤ م)



الباب السادس

بعض أعياد الكنيسة القبطية



أيقونة موزايكو لزيارة العائلة المقدسة لأرض مصر بالدير القبطى للقديس الانبا أنطونيوس بمدينة كريفلباخ بالمانيا . مهداة من القمص ميخائيل البراموسى أمين الدير. وقام برسمها الآب القمص يوساب السريانى .

الفصل الأول

هوذا حمل الله
الذى يرفع خطية العالم
يو ١ : ٢٩

حمل الله :

يالها من تسمية تثير فى نفوسنا تأملات الطهر والعذوبة والصبر ، مقرونة بذكريات مؤلمة .. ! كان كهنة أورشليم فى الزمن الغابر يقدمون حملاً كذبيحة فى ساعات الصباح الأولى وساعات المساء الأخيرة ، وتشاء الإرادة الإلهية أن تأتى ذبيحة العهد الجديد من بيت لحم ، من ذلك الوادى عينه الذى كانت تربى فيه قطعان الحملان توطئة لتقديمها فى الهيكل . وذهب إليه الرعاة يحيونه ، وهم يجهلون أن مجيئه سيغنى الهيكل عن خدماتهم ، بينما هو كان يعلم هذه الحقيقة . كم هو لطيف وبار حمل الله ، وذلك الطفل الذى يبتسم فى مذوده .

بدأ رسالته بعد ثلاثين عاماً ، ولا شىء يميزه عما حوله من الجماهير سوى وداعته ، ولين عريكته ، عرفه يوحنا المعمدان وأشار لتلاميذه نحوه قائلاً : « أنظروا ، هو ذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » ، كأن لسان حاله يقول إن جميع الذبائح التى قدمت قبله ، إنما ذهبت دماؤها هباء .. !

وبعد ثلاث سنوات حان وقت تقديمه هو الآخر ، وعوضاً عن أن يتنكر لهذا المصير ، لم يميز نفسه عن أى حمل آخر يساق إلى الذبح . لقد أراد الآب ذلك ، وإرادته مطاعة : « مثل شاة سيق إلى المذبح ومثل حمل صامت أمام الذى يجزه ، هكذا لم يفتح فاه »(أش ٥٣ : ٧) .

قد يتساءل البعض ، هل الآب فى حاجة إلى دماء ، ويا له من أب ! أجل أن يخلص قوماً خطاه يضحى بإبن برىء ، لا يا أخى إن الله لا يرضى بأى آلام أو عذاب ، وإن ما يتحمله البرىء منهما يثير شفقته ورحمته ، خصوصاً إذا كان فى نفس الوقت هو إبنه الحبيب . ولكن يوجد على الأرض شىء بشع كريه وهو الخطية ، وشىء آخر أكثر بشاعة وهو عدم المبالاة بإرتكاب الخطية ، هذا

فضلا عن الزهو والإفتخار بإرتكابها وهو شيء أقل إنتشاراً من سابقيه لحسن الحظ .

كما يوجد أشخاص قصروا فى واجباتهم نحو الله ونحو القريب ونحو أنفسهم ، يحملوّن ذكرى ذلك التقصير فى نفوسهم دون أن يشعروا بذلك العبءالثقيل الكريه الذى يحملونه وبينما هم يسرعون بإزالة بقعة واحدة تتسخ بها ملابسهم ليتقوا مظهراً موجباً للخزى ، فإنهم يتركون نفوسهم بلا علاج من الأدران المتراكمة عليها .

وهناك آخرون قد يندسون على خطاياهم ، ولكن قلما يفكرون فى التكفير عنها ، فإذاما مستهم تجربة صغيرة رأوا فيها ظلماً من السماء .

كل ذلك كان لابد له من منبه قوى يأخذ بمجامع النفس ، لأجل أن تتفتح عيوننا ، كان يكفى المسيح أن يسفك دمعة وأن يلفظ بكلمة تكفير عن خطايانا ، فإذا هى جميعها مغفورة ولكن كان ذلك يتركنا غير مقدرين ماتنطوى عليه الخطية من خبث وحقارة وما تستوجب من عقاب رادع . فلأجل أن يكون الدرس نافعاً حقاً وجب أن يترك أثراً ثابتاً على حواسنا مرسوماً بالدماء . ليست إذن هى قساوة الله التى جعلت حادث الجلجله ضرورياً ، ولكن هو سوء تفكيرنا ، وعدم تبصرنا وتجردنا من الإحساس والشعور .

وإذا علمنا لماذا وكيف تألم يسوع ، أمكننا أن نعرف كيف نصلح أنفسنا ، إن الخطوات الثلاث الرئيسية فى تضحيته هى : « الأولى » فى حديقة الجثسيمانى أمام أبيه ، و « الثانية » فى أورشليم أمام قضاته ومحاكميه ، و « الثالثة » على الصليب . هذه الخطوات تجعلنا نتبين ثلاث درجات الكمال ، ففى جبل الزيتون يستسلم للتجربة بروح التكفير ، وأمام قضاته يتحملها فى صمت ، وإلى النفس الأخير بثبات .

يا حمل الله الذى يرفع خطية العالم إرحمنا ! وأنت يا والدته ، يا من أرضعته وربيته لتقدميه يوماً على مذبح الصليب . صلى لأجلنا .

(مدارس الأحد ـــ أبريل ١٩٦٨)

الفصل الثانى

نهاية وبداية

عندما دفن يسوع كان كل شيء قد إنتهى كما إشتهى رؤساء الأمة اليهودية . إنتهى فى زعمهم بإنتصار واضح لا جدال فيه لمن كانوا يناصبونه العداء ! ولكن كانت هذه النهاية بداية لحادث آخر ، لأعجوبة العجائب : القيامة .

كان التلاميذ ينتظرون أن تكون قيامة المعلم مصحوبة بضجة عظمى ، وبمظاهر الإنتصار ، فيضرب أعداءه ، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ويجردهم من قوتهم ، وينتقم مما أذاقوه إياه من صنوف الذل والإحتقار التى فاقت كل تصور ، ثم يجلس على كرسى ملكه وبجانبه تلاميذه وقد أخضع العالم لإرادته الإلهية التى لا تقاوم . أليس المسيح هو الذى يرجع ملك إسرائيل ؟ ألا تتبين شيئاً من ذلك فى حديث تلميذى عمواس ؟ وكان هذا الأمل ما زال يداعبهم ولم يفارقهم حتى فى صبيحة يوم الصعود بينما كان معلمهم على وشك أن ينطلق إذ يسألونه فى تلهف ويأس عميق «يارب هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل) ؟

ولذلك عندما نقرأ فى الإنجيل عن موضوع القيامة ، تلفت نظرنا الصعوبة التى أظهرها التلاميذ فى تصديق قيامة السيد المسيح ونضيق ذرعاً عندما تتكرر هذه الجملة «وأما التلاميذ فلم يصدقوا» .

كيف يصدقون والقيامة تمت فى هدوء وفى السر بدون تلك الضجة العظيمة التى كانوا يتوقعونها ، ولم يصحبها أى تغير فى النظام القائم ، وتركت تلك الجريمة النكراء دون أى عقاب ، كما تركت الرومان الأجانب عباد الأصنام . قيامة لم يعلم بها سوى بعض الأخصاء وتركت للتلاميذ مهمة غزو العالم وإخضاعه . لم يكن من السهل أن يؤمنوا بمثل تلك القيامة .

تمت عملية الدفن فى عجلة ولم يصحبها بعض الإجراءات الخاصة فى مثل تلك الأحوال ، ولذلك تكفلت بعض النسوة القديسات بإتمامها . ففى صباح الأحد الباكر ذهبن إلى القبر ولم يكن يعلمن أن المجمع قد وضع حراساً على القبر ، ولذلك كن يفكرن فيمن يستطيع أن يدحرج لهن الحجر عن القبر .

ولكن قبل أن يصلن إلى حقل يوسف الذى من الرامة كان الحادث العجيب قد تم .

أما كيف كان ذلك فإن القديس متى وحده هو الذى إستطاع أن يشرحه لنا . ومن المتواتر أنه إستقى معلوماته من أحد الحراس الرومانيين وقد يكون من رئيس الحرس نفسه ، فيقول لنا «وإذا زلزلة عظيمة حدثت ، لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه . وكان منظره كالبرق ولباسه أبيض كالثلج ، فمن خوفه إرتعد الحراس وصاروا كأموات »(مت ٢٨ : ٢ــ٤) .

وما أن أفاق الحراس حتى أسرعوا إلى المجمع يقصون عليه بفم رئيسهم ما قد حدث فأسقط فى أيديهم وأغلق عليه ولم يدروا ماذا يفعلون ، ولكن القوم الذين لم يترددوا فى طلب الحكم بالموت على برىء لا يصعب عليهم أن يختلفوا ... وإجتمع المجمع فى عجلة وخان التوفيق أعضاءه عندما إتخذوا ذلك القرار الصبيانى بأن يعطوا « العسكر فضة كثيرة قائلين : قولوا إن تلاميذه أتوا ليلا وسرقوه ونحن نيام..» ولقد فعل الجند كما لقنوهم ، وذاع هذا الهذيان عند اليهود حتى اليوم الذى كان فيه القديس متى يكتب إنجيله .

ويظهر أن هذا الإدعاء لم ينظر إليه كثيرون بعين الجد ، إذ لا نجد فى الكلمات التى ألقاها القديس بطرس وباقى التلاميذ بعد حلول الروح القدس عليهم أثراً لأى محاولة لدفع هذه السخافة عنهم ، بل قد نستنتج أن تلك الفرية كانت سبباً فى ثباتهم وزيادة إطمئنانهم . بل قد يكون قد تبادر إلى أذهانهم لأول وهلة أن اليهود هم الذين أخذوا الجسد وأخفوه كما تبادر للنسوة القديسات . إما أن يلصق اليهود ذلك بهم بينما كانوا فى أعصب الأوقات التى مرت بهم يكتنفهم اليأس والحزن ، فما كان هذا إلا دليلاً فى نظر التلاميذ على درجة ما وصل إليه رؤساء الكهنة من إضطراب فكرى وشعور بالخزى الذى تردوا فيه أمام هذه الأعجوبة .

وبينما الحراس فى ركضتهم صوب المدينة ، إذ بمريم المجدلية ــ نظراً لسرعتها التى ساعدها عليها صغر سنها ــ تصل الأولى إلى القبر ، وإذا بها ترى أن

الحجر قد دحرج فأوجست خيفة وألقت نظرة داخل القبر فلم تجد الجسد وتملكها الرعب ، وتسرع راجعة فتجد سمعان ويوحنا فتصرخ فيهما « أخذوا السيد من القبر ولسنا نعلم أين وضعوه » ، وتدخل مريم أخت السيدة العذراء وسالومة إلى القبر فتتأكدان بأن القبر كان حقيقة خالياً وإضطربتا ، وإذا بهما تبصران فجأة رجلين فى ثياب براقة وزاد فى غرابة ذلك الحادث أن كان فى وقت السحر ، ويخاطبهما الشاب الجالس على اليمين « لاتندهشين ، أنتن تطلبن يسوع الناصرى المصلوب ، فقد قام ، ليس هو ههنا ، هو ذا الموضع الذى وضعوه فيه ، لكن إذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس أنه يسبقكم إلى الجليل ، هناك ترونه كما قال لكم ! إذكرن كيف كلمكن وهو بعد فى الجليل قائلاً أنه ينبغى أن يسلم ابن الإنسان فى أيدى أناس خطاة ويصلب وفى اليوم الثالث يقوم » ، ولقد إمتلأتا رعباً لهذا الظهور المفاجىء فخرجتا وقد إنعقد لسانهما ولم تستطيعا الكلام إلا بعد أن هدأ روعهما ، وأيقظ فيهما هذا الكلام ما تعلمانه من نبوات عن المسيح وعن قيامته .

وذهب بطرس ويوحنا إلى القبر ، وأول ما نعثر على نبأ هذه الزيارة فى إنجيل القديس لوقا ، ويقص علينا نبأها أحد اللذين قاما بها ، وهو القديس يوحنا فيقول « فخرج بطرس والتلميذ الآخر وأتيا إلى القبر . وكان الإثنان يركضان معاً ، فسبق التلميذ الآخر بطرس وجاء أولاً إلى القبر وإنحنى فنظر الأكفان موضوعة ولكنه لم يدخل . ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر ونظر الأكفان موضوعة والمنديل الذى كان على رأسه ليس موضوعاً مع الأكفان بل ملفوفاً فى موضع وحده . فحينئذ دخل أيضاً التلميذ الآخر الذى جاء أولاً إلى القبر ورأى فآمن ، لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب أنه ينبغى أن يقوم من الأموات فمضى التلميذان أيضاً إلى موضعهما» (يو ٢٠ : ٣ــ١٠).

ألا ترى التلميذين وهما يركضان ، ثم ألا تلاحظ أيضاً ما بينهما من تباين فى التفكير والسلوك : يوحنا أسرع وأعمق فى التفكير ، بينما بطرس أثبت وأكثر جرأة وأبطأ فى الإيمان ؟

ونخرج من هاتين الزيارتين ــ زيارة النسوة القديسات وزيارة التلميذين ــ بنتيجة على جانب عظيم من الأهمية وهى : أن القبر كان خالياً وجسد يسوع غير موجود فيه .

وإذا تذكرنا إتهام رؤساء الكهنة للتلاميذ بأنهم سرقوا جسد يسوع ، ثم حيرتهم وإضطرابهم مع عدم قيامهم بأى عمل إيجابى حيال ذلك ، كان فراغ القبر هذا الأعجوبة التى لا تُدفع والتى تأسس عليها الإيمان بيسوع المسيح فى الجيل الأول للمسيحية .

وهناك فى أورشليم ، فى تلك المدينة التى طاردته ، والتى تقع على قيد خطوات من القبر الذى أعدوه ليضم جسده ، أسس يسوع كنيسته ، وقام تلاميذه يبشرون بقيامته بينما رؤساء الكهنة لا يجدون جواباً ، والقبر الخالى شاهد عليهم !

وهناك يعطيهم إرشاداته السامية وينبههم إلى ما فى الكتب ويذكرهم بما عليهم من واجب فيخبرنا القديس لوقا « وقال لهم هذا هو الكلام الذى كلمتكم به وأنا بعدمعكم.. أنه لابد أن يتم جميع ما هو مكتوب عنى فى ناموس موسى والأنبياء والمزامير . حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب ، وقال لهم هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغى أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات فى اليوم الثالث ، وأن يكرز بإسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم ، وأنتم شهود بذلك ، وها أنا أرسل إليكم موعد أبى فأقيموا فى مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالى » .

ويضيف فى سفر الأعمال ما يجب عليهم القيام به كشهود « لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لى شهوداً فى أورشليم وفى كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض » .

والآن يسوع على وشك أن يتركهم ، إنه الصعود الذى سيختم حياته الأرضية ، وكما كان كل شىء بسيطاً يوحى بالعظمة فى أثناء بشارته ، كان كذلك كل شىء بسيطاً يوحى بالعظمة فى ذهابه ، فيقول القديس لوقا « وأخرجهم خارجاً إلى بيت عنيا ، ورفع يديه وباركهم ، وفيما هو يباركهم إنفرد عنهم وأصعد إلى السماء ، فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم » (لو ٢٤ : ٥٠ــ٥٢) .

الفصل الثالث

الإنتصار على الموت

نور صباح الأحد

فى الساعات الأولى لصباح صبوح لأحد أيام شهر إبريل ، إتسم بذلك النقاء العذرى الذى يضفيه الربيع على سماء فلسطين ، إذ يلوح من ناحية المشرق فوق أسطح منازل المدينة أفق لولى اللون بينما يترك الليل أثناء إنسحابه ببطء ناحية المغرب خمائل بنفسجية وسنجابية على التلال ، فتكون لوحة بديعة أطلق عليها البعض (الفجر ذو العيون السنجابية) بينما أطلقت عليها شاعرية البعض الآخر (السحر ذو الأصابع الوردية) ، فى ذلك الصباح إجتاز يسوع الموت بعد سلسلة من الآلام ليظهر لنا فى نور صباح عيد القيامة . هذه الحقيقة أخذت أهميتها فى المسيحية وتعاليمها منذ البدء كما يتضح ذلك من رسائل القديس بولس .

يقول الفيلسوف رينان «لا يدوم شىء مثل الحقيقة ، وكل ما يخدمها يصير كرأس مال بسيط مكتسب لها ، ولا يضيع شىء من هذا الكنز . هذا على عكس البهتان إذ ينهار . إن البهتان لا أساس له بينما صرح الحقيقة من الصلب وهو دائماً فى إرتفاع وعلو» ، وإن صرح عقيدة القيامة الذى قد يكون قد بدأ صغيراً ضعيفاً ما زال مقاماً ثابتاً بعد نحو ألفى عام وتقبله عقلية الملايين من البشر رغم كل ما قيل ضده .

إن جملة «وقام من الأموات» فى قانون الإيمان يجب أن تقبل كما هى بحروفها ليس فقط من المؤمن بل من المؤرخ أيضاً ، لقد خرج يسوع من القبر ورآه كثيرون أربعين يوما بعد ذلك ، إنها حقيقة تاريخية فى حياة يسوع ، بل نستطيع أن نحدد تاريخها إذ أنها حدثت فى ثالث يوم موته .

وكانت الدروس الأخيرة التى أعطاها يسوع لأتباعه فى هذه الحياة الثانية بعد القيامة التى ثبت فيها إيمانهم ، تهدف جميعاً لإعداد الكنيسة ولإعطائها التعليمات الأخيرة للقيام بمهمتها « إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم بإسم الآب والإبن والروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ،

وإكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها ، من آمن وإعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن هذه الآيات تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين بإسمى ويتكلمون بألسنة جديدة يحملون حيات وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون وها أنا معكم كل الأيام إلى إنقضاء الدهر » .

وهكذا بين يسوع فى وضوح حقوق وواجبات الكنيسة ، وعاش تلاميذه طوال أربعين يوما فى جو تلك الحقيقة التى تفوق عقول البشر ، فلا عجب إذا كان إيمانهم قد إزداد رسوخاً . وفى أحد الأيام وعلى بعد قليل من المدينة المقدسة وعلى جبل الزيتون حيث كانوا يتبعونه ، وبينا هو يرفع يديه ليباركهم إذ بهم يرونه وقد أخذ يرتفع فى الجو إلى أن إختفى تاركاً لهم المسرة .

الإيمان المسيحى

بعد قيامة المسيح بنحو ثلاثين عاما يكتب بولس الرسول إلى أهل كورنثوس فى رسالته الأولى فيقول لهم « إن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم » هذه الحقيقة هى حجر الزاوية فى بناء الكنيسة . ففى قلب تعاليمها تبرز صورة المعلم المنتصر على الموت ، التى ينبع منها الرجاء المسيحى إذ «إن كان لنا فى هذه الحياة فقط رجاء فى المسيح فإننا أشقى جميع الناس» وإذا كان رسول الأمم قد شرح عقيدة القيامة شرحاً وافياً فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ، فإن خطبة بطرس فى سفر أعمال الرسل شاهد آخر على الأهمية التي كان مسيحيو العصور الأولى يعلقونها عليها ، وعندما إنتخب متياس عوضاً عن يهوذا إنما كان ذلك ليكون «شاهداً على القيامة» . . ويأتى بعد ذلك جميع آباء الكنيسة ليؤكدوا الأهمية الأساسية لعقيدة المسيح المقام من الأموات .

إن القيامة أسمى الوعود المسيحية ، فالمسيح المقام من الأموات هو «باكورة الراقدين» ، وكما نجا من القبر كذلك يستطيع كل إنسان بعده أن يأمل أن ينجو منه ، ولذلك يصيح القديس بولس : «هو ذا سر أقوله لكم لا نرقد كلنا ولكننا نتغير فى لحظة فى طرفة عين عند البوق الأخير . فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد ونحن نتغير » .

ولكن القيامة أكثر من مجرد إعطاء الإنسان الموعود بالموت رجاء عنوياً ، إنها غيرت نظرة الإنسان إلى الحياة ، فبعد أن كانت الفلسفة القديمة تعلم بأن الجسد منفصل عن الروح وهو بمثابه السجن له ، أتت مسيحية على الضد من ذلك تشرك الجسد فى مجد الروح الأبدى ، وتؤكد أن كلا منهما يكمل الآخر وأن الإنسان مكون من جسد وروح يرتبط كل منهما بالآخر بمسئولية مشتركة وفى ذلك يقول القديس بولس «إن كان الأموات لا يقومون فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت» أى أنه بما أنهم يقومون فلنحترم فى أنفسنا وفى غيرنا هذا الجسد الموعود بالمجد . فإذا كان يسوع قد صار «باكورة» الراقدين فإنه أكد أيضاً الكرامة الآدمية .

«أين شوكتك يا موت . أين غلبتك يا هاوية»؟ إنها ليست فقط صيحة الفرح لقديس بولس يتردد صداها فى العالم المسيحى على مر الأجيال ، ولكنها أيضاً كلمة التعزية ، ولكنه لا يقف عند ذلك بل يضيف «أما شوكة الموت فهى الخطية» وفى هذه الكلمات القليلة قيل كل شيء عن مصير الإنسان ، إن يسوع عندما تغلب على الموت تغلب أيضاً على قوى الشر .

ليست القيامة حادثاً تاريخياً فقط تم فى مكان ما فى وقت معين ، ولكنها تفسير قصة الحياة الإنسانية .

المسيح حى فينا

صعد يسوع إلى أبيه ولن تراه بعد عيون الناس ، وبقيت رسالته التى أخذ تلاميذه على عاتقهم نشرها كما أوصاهم ، وكحبة المثل الإنجيلى فإن كلمته نمت فى جميع بلاد الإمبراطورية وأتت بحصاد وفير ، وإذا بعقيدة المهزوم تغزو العالم فى أقل من ثلاثمائة عام وهى أعجوبة أخرى أدهشت التاريخ .

ولكن هل ترك لنا يسوع رسالته فقط عندما صعد إلى السماء ؟ إن الإنسان إذا مات لا يخلف سوى الذكرى أو بضع كلمات مكتوبة أو منقولة وأما العبقريات العظيمة ورجال الفكر الذين يبدون لنا خلال ما تركوا من أعمال أو مذاهب فهم يبدون لنا بعد وفاتهم وقد إنكمشوا إلى صور أثرية لا أكثر ، ولكن الذى تخلف لنا عن الأله الحى هو شيء أكثر من مجرد تعاليم ، أنه وجود

دائم له . إن المسيحية كإيمان هي شيء يختلف كلية عن إتباع مذهب فلسفي ، إذ أن مشاركة يسوع تقتضى منا أن نجعله أنموذجاً يجب أن نتحقق دائماً من وجوده فينا ، وما يسميه المسيحيون «نعمة» ما هو فى الحقيقة إلا الإله الإنسان الحى الموجود فى كل منا .

فيما يقصه الإنجيل عن حياة يسوع بعد القيامة حادث بسيط ولكن ينبع منه غنى روحى عجيب يقصه علينا القديس لوقا ويؤكده القديس مرقس ، وهو ظهور المسيح لإثنين من التلاميذ فى طريق عمواس . كانا رجلين عاديين لا ميزة خاصة لهما . وكانا من أوائل أعضاء الكنيسة ، ويبدو أن هذه البساطة كانت سبب ظهور المسيح لهما إذ كانا يمثلان الفرد العادى فى القطيع المسيحى ، كانا يحبان يسوع من كل قلبيهما رغم عدم إحاطتهما إحاطة تامة برسالته التى كانت حديثة العهد بالنسبة لهما . وكل ما نعرفه عنهما أن أحدهما يسمى كليوباس .

كانا يسيران حزينين بعد أن حضرا قصة آلام المخلص ، قاصدين بلدتهما ليستأنفا عملهما اليومى بعد أن إنتهى ذلك الحادث العظيم الذى تركا لأجله حياتهما العادية وسما بهما فوق نفسيهما . ونقرأ قصة الظهور الإلهى فى الإصحاح الرابع والعشرين للقديس لوقا ويختمها بما يأتى « ثم إقتربوا إلى القرية التى كانا منطلقين إليها وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد ، فألزماه قائلين أمكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار فدخل ليمكث معهما فلما إتكأ معهما أخذ خبزاً وبارك وكسر وناولهما فإنفتحت أعينهما وعرفاه ثم إختفى عنهما . فقال بعضهما لبعض ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا فى الطريق ويوضح لنا الكتب فقاما فى تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم يقولون إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان وأما هما فكانا يخبران بما حدث فى الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز » .

وفى هذا المنظر الأخير ــ منظر يسوع وهو يكسر الخبز ــ نود أن نترك صورة يسوع . ولقد خلدها الرسام العالمى الذائع الصيت رمبراندت فى لوحة له فى متحف اللوفر بباريس يبن فيها السيد له المجد وقد شع منه نور وفى وسط المائدة قطعة الخبز التى ستصير سراً من أسرار الكنيسة . ويسوع يصلى

والرجلان يظهران ذلك الخشوع الذى يتميز به المؤمن عندما يتفتح قلبه إنها تنطق حقيقة « بأن قلبهما كان يلتهب فيهما إذ كان يكلمهما ويوضح لهما الكتب » .

هذا « الإلتهاب فى القلب » ماذا يعنى سوى « الوجود الحى » ؟ إنه الدافع الذى دفع الشهداء لتضحية حياتهم فى الجسد فى سبيل حياة أخرى أفضل ، وكان غذاء النساك فى عبادتهم التى سمت إلى مرتبة البطولة وفى قصصهم الصامتة ، أنه الحالة التى يصير عليها أبسط المؤمنين عندما يتناول « الخبز » فإذا به يشعر بأن قلبه قد إزداد قوة وكرما وإلتهابا .

إن المؤمنين بيسوع إستعملوا تعابير كثيرة على مر الأجيال ليترجموا عن ذلك « الوجود الحى » الذى يشعرون به ، ولكنهم أكدوه جميعاً ، ورددوا صدى صيحة القديس بولس « لست أنا ولكن المسيح الذى يحيا فىّ » .

إنها لحقيقة أن يسوع كائن حى يشعر به المؤمنون موجوداً فى أعماق نفوسهم وأن رسالته التى لم يحل دون إتمامها صلبه وموته مازالت مستمرة فى قلوبهم .

عندما حان وقت الحوادث التى فرقت بين يسوع وأتباعه نطق بهذه الكلمات التى ختم بها القديس متى إنجيله «ها أنا معكم إلى إنقضاء الدهر» لقد أعدهم فى مدة نحو ثلاثين شهراً أثناء رسالته على الأرض ، إنتقاهم وكونهم ونظمهم ووقع على عاتقهم أن يشهدوا فى العالم للنور الذى رأوه وحل عليهم ، ولقد قاموا بمهمتهم خير قيام .

وبعد ذلك إمتد تاريخ الإله الحى وتداخل فى تاريخ «جسده الروحى» الذى يهبه الحياة «بوجوده الحى» ، إمتد فى تلك الحقيقة العظيمة المحفورة فى قلب الأجيال . كنيسة يسوع المسيح .

(مجلة مدارس الأحد مارس /أبريل ١٩٦٩)

الفصل الرابع

الأسكندرية لمراسل وطنى الاستاذ جورج غالى قلدس :

ألقى الاستاذ المؤرخ الدكتور منير شكرى كلمة تاريخية عميقة عن ذكرى مجىء السيد المسيح إلى أرض مصر بكنيسة القديسين مارجرجس وأنبا أنطونيوس بمحرم بك — بالاسكندرية التابعة لوقف دير مارمينا العجايبى جاء فيها :

العائلة المقدسة
وأمجاد مصر المسيحية

إذا كان هناك فى السماء من يعنى بزنابق الحقل ويكسوها بأحسن مما كان يلبس سليمان فى عز مجده ، فمن باب أولى هناك فى الأعالى عناية إلهية تسهر على الشعوب وتقودها نحو حظها من السعادة الحقيقية . والسعادة الحقيقية للشعوب كما للأفراد ، هو أن يكون فيها شعاع من العظمة اللانهائية ومن القداسة الأزلية . ولأجل أن يعطى مصر السعادة كاملة ، فإن الرب الذى منه تنبع المواهب والعطايا أعطاها على التوالى باكورة العظمة المدينة منذ مهد العالم والتاريخ وبكورة القداسة منذ فجر المسيحية .

نعم كانت بلادنا مهد كل شىء عظيم فى العالم ، وبعبارة أخرى مهد الحضارة . فعندما كانت جميع شعوب الأرض غارقة فى البربرية وتحيا حياة همجية ، كانت بلادنا يحكمها الفراعنة الأقوياء وكانت فى قمة مجدها السياسى . وإذا كان من أهم معالم الحضارة الحقيقية وجود حكومة منظمة وقوية ، فكلما تعمقنا فى تاريخ بلادنا ، نجد فى مصر حكومة تعد من أحكم وأقوى الحكومات ، لها قوانين وأنظمة مدهشة فى شمولها إلى درجة تخيل إلينا كأنها أسطورة ، لو لم يشهد لها جميع أساتذة التاريخ القديم ، ويقوم على صدقهم تلك الآثار القائمة إلى الآن والمنتشرة فى أنحاء البلاد . حيا الله أباءنا وأجدادنا لقد كان مفهوم الحضارة لديهم غير مفهومها فى أيامنا هذه التى انتشرت فيها المادية والاباحية . كانت الفضيلة عندهم هى أساس المجتمع ، وحرية المواطنين وسعادتهم هما فى الأعمال الصالحة وتجنب الشر . ولم تترك قوانينهم صغيرة أو كبيرة لأجل أن تضمن ممارسة الفضائل .

وكما كانت مصر عظيمة فى نظامها الاجتماعى فقد كانت عظيمة أيضا فى علومها وفنونها ، فقدماء المصريين كانوا أول من لاحظ حركة الكواكب ،

وأول من وضعوا النظام الزمنى ، وهذه الملاحظات قادتهم إلى الرياضيات وإلى تحديد العام ، ثم تطرقوا إلى المساحة ومنها إلى الهندسة ثم إلى الطب . وكانوا أيضا آباء الفلسفة فكانت لديهم أرقى وأصح الأفكار عن الروح وعن الإله بالرغم من الوثنية التى انغمست فيها بعد ذلك الأغلبية . وهكذا كانت جميع العلوم لديهم على أرقى مستوى . وكان المصريون أول شعب اقتنى المكتبات ، وكان لها اسم يغرى بالدخول إليها بمحاولة معرفة مكنون أسرارها ، فقد كانت تسمى كنز أدوية النفس : لقد كان فيها شفاء فعلا للنفوس من الجهل ، أخطر الأمراض ومنبع كثير منها .

ويضاف إلى هذه الصورة الكاملة عن العلوم فى مصر ، الصناعة والفنون ، ولا أطيل عليكم فأمامكم المتاحف والمعابد والأهرام وأبو الهول وغيرها .

وكان من أهم ما يعنى به الأباء فى تربية الأبناء أن يزرعوا فى نفوسهم حب الوطن وتقديره ، وكان لهذا الحب أساسات متينة ، إذ كانت مصر أجمل بلاد العالم وأغناها بما أفاضت عليها الطبيعة ، أكثرها ثقافة بالفن ، وعنى ملوكها بتزيينها وتجميلها ، كان كل ما يقومون به من أعمال ومشاريع متصفا بالعظمة . وجاء البطالمة فافتقدوا أثارهم فى عظة العلوم والفنون ، فكان فنار الاسكندرية أحد عجائب العالم القديم السبع ، وأنشأوا مكتبة الاسكندرية ومدرستها الفلسفية العظيمة التى أخرجت عددا كبيرا من أشهر رجال العالم فى ذلك العهد .

هذه أيها الإخوان نظرة خاطفة لتاريخ وطننا قبل المسيحية : كان عظيما فى حضارته ، عظيما فى أثاره عظيما فى علومه وفى فنونه ، عظيما فى كل شىء . ولكن لا كان ينقصه العظمة الرئيسية تلك العظمةالتى تسمى القداسة والبطولة المسيحية . ولم يتأخر الرب فى أن يمنحه إياها . وهى أجمل العظمات وأكثرها تأثيرا وتضيف فخامة على العظمات السابقة ، والتى تزيد من معزة وطننا فى نفوسنا .

أنها تاريخ علماء اللاهوت العظام والباباوات الأمجاد والشهداء وآباء البرية . تاريخ جليل ومؤثر يدخل إلى القلوب فى حيوية ويحرك فيها أجمل المشاعر .

وقبل أن نتأمل معا ذلك المنظر الرائع ، منظر وطننا وقد صار موئلا العلوم المسيحية والقداسة والفضائل ، أرى من واجبنا أن نتسائل من أين أتت إلى بلادنا تلك البركة الثمينة ، لقد أتت يا أخوانى من السيد يسوع المسيح نفسه ، الإله المتجسد .

أنها حقيقة يجب أن تكون مقدمة لتاريخ مصر المسيحية : وبدونها يستحيل تفسير كل تلك الأشياء الرائعة التى تمت منذ البدء على أرض أسلافنا . ففى السنة الرابعة من حكم الإمبراطور أغسطس ، التى وافقت الألف الرابعة للخليقة استقبلت مصر زائرا عجيبا ، طفلا تحمله والدته ومعها رجل فى طور الكهولة . وحسب ما كان يبدو من كل المظاهر الخارجية ، كان هذا الطفل لاجئاً مسكيناً جاء مصر هربا من سيف جلاديه الذين كانوا يطلبون رأسه ، إلا أن هذه المظاهر يجب ألا تخدعنا : إن ضيف أجدادنا لم يكن طفلا كسائر الأطفال ، لقد ولد فى بيت لحم وتلك المدينة التى قال فيها النبى « لست الصغرى بين رؤساء يهوذا ، لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى اسرائيل » ، أما والدته فهى تلك العذراء الطوباوية التى رآها أشعيا عندما صرخ « ها هى العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعى اسمه عمانوئيل » ، وعند ولادة هذا الطفل نزلت الملائكة من السماء ورنموا فوق مهده ترنيمة كانت الأرض تسمعها للمرة الأولى (المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وفى الناس المسرة) . وفور ولادته قام ملوك من المشرق ، تحت إرشاد نجم عجيب ، ليضعوا عند قدميه هداياهم ومراسم خضوعهم . وعندما يكبر سيعلن هذا الطفل ، أمام جميع شعب اسرائيل ، أنه المسيح وأنه ابن الله . ولأجل أن يعطى البرهان على رسالته وعلى ألوهيته زرع الأرض بمعجزات وعجائب كما زرع السماء بالنجوم : فبسماع صوته الصم يسمعون والعمى يبصرون .،والمفلوجون يمشون ، والموتى يرجعون إلى الحياة . فلم يكن إذن طفل بيت لحم ، اللاجىء إلى مصر ، سوى الرب المخلص الذى اشتهى أن يراه الأنبياء والأمم . الذى فضلنا على أمم كثيرة . حقيقة أنه حكم عليه بالإعدام وهو فى مهده ، أصدر هذا الحكم ملك منافق ارتعد خوفا على تاجه ، وحقيقة جاء ملاك فى رؤيا ليوسف ليلا ليقول له : خذ الطفل وأمه وأهرب إلى مصر . ولكنا مقتنعون أن ابن العذراء لم يكن فى حاجة إلى أن يترك وطنه لينقذ حياته من هياج هيرودس ، بل لم يكن من الضرورى له

أن يلجأ إلى بلادنا . فإذا كان تنازل ووضع قدمه على أرض مصر ، فإنا نعتقد أن ذلك كان فقط لأجل أن يتم مقصد رحمة وطيبة نحو وطننا العزيز . وهذه العقيدة ليس من عندنا بل هى عقيدة أبائنا الذين فهموا زيارة الطفل المخلص على هذا النحو .

ولذلك تركوا لنا ترنيمة كانت يرتلونها فى تذكار هذا الحادث العظيم فى يوم ٢٤ بشنس يقولون فيها ما ترجمته « السيد يسوع المسيح رب الفضائل ، محبة فى صنع يديه ، جاء إلى مصرنا : فشمل المصريين بغيض رحمته مفضلهم على شعوب كثيرة ، فجدد بلادنا كلها . لم يرسل لنا نبيا أو ملاكا ولكنه تنازل فزارنا بنفسه » .

نرى من تلك الترنيمة التى كونها أباؤنا أنهم كانوا يرون أن يسوع زار وطننا ليجدده أى لكى يعطيه مجداوعظمة جديدين . لقد نالت كل الأمجاد العالمية ، فأتى ليعطيها أيضا الأمجاد الإلهية ، إذ كانت العناية الإلهية ترى أن مصر تستحق كل البواكير ، ولذلك ما أن أتى الإله المتجسد إلى العالم ، حتى سارع يحمل إلى بلادنا باكورة الخلاص . وهذا الحادث الجلل لم يفت تأملات النبى أشعياء الذى رأى فى نبواته كل ما يتعلق بالسيد المسيح بكل تفاصيله ، فصرخ ، وهو مأخوذ بما رأى من الأسرار الإلهية « ها هو الرب يأتى إلى مصر محمولا على سحابة خفيفة ، فتتكسر الأصنام ومصر تعبد خالقها » ، نعم فى يوم مملوء بركة إلى الأبد وطأت قدما عمانوئيل أرض أسلافنا تحمله من هى أطهر وأنصع بياضا من أية سحابة ، وفى تلك اللحظة السعيدة استقبلت مصر الخلاص وحلت البركة على وطن أسلافنا .

سيداتى سادتى ، لا تظنوا أن الزائر الإلهى لم يفعل أكثر من مجرد مرورة على أرض مصرايم ، لا فإن التقاليد القديمة تخبرنا بصوت واحد أنه مكث عندنا سبع سنوات كاملة . فماذا كان يصنع طوال هذه المدة ؟ إن تقاليدنا تقدمه لنا أثناء دخوله وقد ألقى نظرة على مدينة الاسكندرية ، ثم زار صحارى الوجه البحرى إلى أن وقف عند المطرية بجوار هليوبوليس : وفى هذا المكان مازال الزوار يتقاطرون للتبرك من النبع العجيب الذى فجره ومن الشجرة المقدسة التى استظلت بها العائلة المقدسة ، وبعد ذلك ذهب إلى ممفيس نفسها : عند

مصر القديمة حيث المكان الذى مكث فيه والدى تقوم عليه الآن كنيسة أبى سرجة . ومن هناك صعد فى النيل نحو الصعيد الذى كما نعلم كان مسرحا لجميع أمجاد مصر ، وتفضل فجاب تلك الصحارى التى سميت بعد ذلك صحارى القديس انطونيوس والقديس باخوم .

بماذا تعنى هذه الجولة التى قام بها معلمنا الإلهى عند إقامته فى بلادنا ؟ لنفهم ما تقوله لنا ، إذ أن الرب يحدثنا بالأحداث أكثر من الأقوال ، فكل أعمال الطفل الإلهى تنبئنا بأنه لم يأت إلى مصر إلا ليضع بذرة كل شىء عظيم وكل الفضائل وفتحت البركات . لقد ألقى نظرة على الاسكندرية وإذ بها تصبح أول كرسى باباوى فى العالم ومركزا للدراسات اللاهوتية المسيحية : ففيها توهج ضياء باباواتها وذاعت علوم علمائها العظام . وزار صحارى الوجه البحرى فإذا بالاف النساك يقصدونها ويقدمون للعالم الذى تلفت فى دهشة وإعجاب أكمل صورة للفردوس . ويتوغل فى الصعيد متجولا فى براريه فيلتجىء إليها الأنبا بولا ويتوغل فيها القديس انطونيوس ، ويقيم اديرته القديس باخوم ، ففيها تزدهر كل الفضائل النسكية وتتفتح وتنطلق عجائب الصعيد فى ذاك العهد . وهكذا لم ينس السيد له المجد شيئا إذ مر بجميع الجهات . فتباركت كل البقاع .

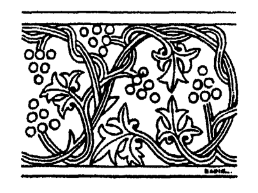
فإذا أردنا أن نفسر أمجادنا المسيحية يجب أن نتذكر إقامة السيد المسيح فى مصر . فإذا وضعنا هذا الحادث جانبا وتركناه ، لن نجد سببا ومصدرا آخر لهذه الأمجاد التى لم تكن لتوجد . ولكن إذا تذكرناه أمكننا أن نفسر كل شىء وألقينا الضوء على كل شىء . إن جميع الأمجاد التى نلاحظها بعد ذلك ما هى فى نظرنا إلا النتيجة الطبيعية للبذرة التى وضعها يوما مخلصنا .

فالسيد المسيح له المجد هو إذن الصفحة الأولى لتاريخنا الدينى ليس فقط لأن الإيمان به يتخلل كل حولياتنا ، ولكنه لأنه هو شخصيا مؤسس مصر المسيحية وأصل كل أمجادها . فالسيد المسيح هو سبب عظمة كنيستنا الرسولية ، القوة المحركة وراء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ، وبطولة نساكنا التى اثارت إعجاب العالم .

أيها السادة إن أصلنا المسيحى بالغ فى السمو ، وإننا لنذكر ذلك ليعزينا فيما أصابنا من نكسات ويرفع من روحنا المعنوية ، فلا نيأس من أن تتبوأ كنيستنا مكانها اللائق بها كما كانت فى السابق ، فالرب الذى شفى مصر الوثنية من عبادة الاصنام سيشفى مصر المسيحية من منغصاتها .

وأنه ليسعدنى فى اليوم أن أبدأ أحاديثى هنا بذكرى عزيزة لدينا للسيد المسيح له المجد ، إنها لذكرى تفرح القلب وتوحى بأرفع المشاعر . وفى ختام هذه الكلمة نردد مع أسلافنا ذكصولوجية دخول السيد المسيح أرض مصر والتى تقال فى يوم ٢٤ بشنس « الله الممجد فى مشورة القديسين . الجالس على الشاروبيم . نظر فى كورة مصر ــ الذى خلق السماء والأرض . رأيناه كصالح . فى حضن مريم السماء الجديدة والبار يوسف الصديق ــ عتيق الأيام . الذى تسبحه الملائكة . فى كدرة مصر جاء اليوم . حتى يخلصنا نحن شعبه ــ افرحوا وتهللوا يا مصر وبنيها وجميع حدودها . لأنه أتى إليك محب البشر . الكائن قبل كل الدهور . أشعياء العظيم قال : إنى رأيت الرب بمصر . فى سحابة خفيفة . هو ملك السماء والأرض » .

(ملخص لما نُشر فى جريدة وطنى ٦ /٦ /١٩٧١)



الفصل الخامس

الرســـل

الرسل أو التلاميذ ، هم الأشخاص الذين إنتقاهم سيدنا له المجد ، وميزهم عن غيرهم ، ليلازموه ويتبعوه . ثم أرسلهم من قبله ، ليكملوا رسالته على الأرض بإنشاء الكنيسة .

فبعد ليلة قضاها فى الصلاة ، إختار السيد له المجد تلاميذه الأثنى عشر ، من بين من كانوا حوله ، وأعطاهم لقب رسول . ويفسر إقتصاره على هذا العدد ، على رغبته فى أن يمثل فى أشخاصهم الأثنى عشر سبطا لبنى إسرائيل . ولقد إنتقاهم من عامة الشعب ، لا يملكون سلطة ، وليست لهم مميزات خاصة اللهم إلا محبتهم وإخلاصهم وبساطة قلوبهم ما عدا واحداً وهو يهوذا الإسخريوطى الذى أسلمه . وبعد أن أخذ متياس مكان يهوذا ، وقد وقعت القرعة عليه بإرداة إلهية ، فحسب مع الأحد عشر رسولاً .

ولقد حرص يسوع أن تكون هذه الجماعة متحدة دون تفريق أو تمييز ، متحدة فى الروح وفى المظهر وفى المستوى الإجتماعى ، ويبرز لهم هذا المعنى إذ يقول لهم « وصية جديدة أنا أعطيكم ، أن تحبوا بعضكم بعضاً . كما أحببتكم أنا ، تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً » . وهو عندما يحدثهم عن رسالتهم المزمعين أن يقوموا بها ، يخاطبهم كجماعة واحدة دائماً .

وعندما كثر المؤمنون أو الأخوة بعد صعود السيد له المجد ، ظهرت هذه الجماعة كهيئة ذات سلطة دينية عليا فى شئون الكنيسة ، ولو أننا نلحظ بعض التفاوت فى نشاط كل منهم . ولقد كانت إقامتهم جميعاً ، أو إقامة غالبيتهم فى أورشليم لمدة طويلة بعد الصعود تبلغ حوالى الإثنى عشر عاماً ، سبباً فى أن يكون لهم تأثير عميق فى الإدارة المركزية للكنيسة ، بينما إنتشر بقية السبعين رسولا فى مدن اليهودية والجليل والسامرة لأداء رسالتهم ، وبعد إثنى عشر عاما ، أو نحو ذلك ، تفرق الإثنا عشر فى أنحاء العالم من الهند والحبشة جنوباً وشرقاً إلى روما وأسبانيا شمالاً وغرباً ، ليسمعوا العالم بصوتهم .

وكانت رسالة الرسل تنقسم إلى ثلاثة أقسام : —

(أولاً) التبشير :

إذ كانوا شهوداً لحياة المخلص على الأرض ، وعلى الأخص لقيامته من الأموات ، فقاموا بتنفيذ أوامر من قال لهم « فإذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ، وعمدوهم بإسم الآب والإبن والروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ، وهأنا معكم كل الأيام إلى إنقضاء الدهر » ، أى أنه سيكون معهم ، ثم بواسطتهم مع كنيسته إلى إنقضاء الدهر . وكان يثبت تعاليمهم بالآيات والمعجزات ، ووعدهم بأن يكون معهم روح الحق . ولقد قاموا بهذه المهمة خير قيام فى غير خوف ولا وجل ، فنسمع بطرس ويوحنا يقولان « لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا » . ويكتب بولس إلى أهل كورنثوس « لأن المسيح لم يرسلنى لأعمد بل لأبشر » ، وغير ذلك شواهد كثيرة .

(ثانياً) القيادة :

قيادة روحية لنفوس المؤمنين ، إن المؤمن الذى آمن برسالتهم يجب عليه أن يطيع أوامرهم ، وإلا كان خارجاً على التعاليم وعلى الكنيسة « الذى يسمع منكم يسمع منى ، والذى يرذلكم يرذلنى ، والذى يرذلنى يرذل الذى أرسلنى » . بل أعطاهم أيضاً سلطانا أن يجبروا المؤمنين على الطاعة ، إذ يربطون أو يحلون فى السماء إذا ربطوا أو حلوا على الأرض . ولكنهم لم يستعملوا هذه السلطة سوى بكل رفق وإعتدال وتقدير للظروف ، إذ أغناهم عن ذلك ما فى المسيحية من جمال روحى يحمل الإنسان على قبول أحكامها فى إرتياح وسرور . ويتجلى ذلك الرفق بكل وضوح فيما كانوا يضعون من قوانين للأمم ، إذ يكتبون إليهم « لأنه قد رأى الروح القدس ، ونحن ، أن لا نضع عليكم ثقلا أكثر غير هذه الأشياء الواجبة » .

(ثالثاً) ممارسة الأسرار المقدسة :

يقول لهم السيد له المجد فى إنجيل متى « إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم بإسم الآب والإبن والروح القدس » . وفى ليلة العشاء السرى عندما إتكأ مع الإثنى عشر « أخذ خبزاً وشكر وكسر ، وأعطاهم قائلا هذا

هو جسدى الذى يبذل عنكم ، إصنعوا هذا لذكرى . وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم » ، ولذلك نقرأ فى سفر الأعمال « حينئذ وضعا الأيادى عليهم فقبلوا الروح القدس » ، ويكتب بولس الرسول إلى أهل كورنثوس « كأس البركة التى نباركها ، أليست هى شركة دم المسيح ، الخبز الذى نكسره أليس هو شركة جسد المسيح ؟ » .

وهكذا أتموا ما بدأه السيد المسيح وأسسوا كنيسته .

هناك أقوال للسيد له المجد يفسرها البعض على أنها تمييزاً لبعض التلاميذ على البعض الآخر ، وأن هذا التمييز يمتد إلى خلفاء هؤلاء الرسل ، ويجدر بنا هنا أن نرد بإختصار فنذكر أقوال سيدنا لهم فى المساواة وإنكار الذات والتواضع « وأما أنتم فلا تدعوا سيدى ، لأن معلمكم واحد المسيح ، وأنتم جميعاً أخوة . وأكبركم يكون خادماً لكم . فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع » ولقد كان جميع المسيحيين فى الأيام الأولى يعتبرون أنفسهم إخوة . وكان الإثنا عشر ممثلين للإخوة فى مجموعهم ، وكانوا يمتازون بأنهم شهود عيان أصليون لسيدنا له المجد ، تلقوا عنه مباشرة تعاليم المسيحية ، فأكسبهم ذلك تأثيراً روحياً إستخدموه فى رفق ولين فى الكنيسة الأولى ، وفى مرونة تدعو إلى الإعجاب تختلف بإختلاف عقلية المؤمنين ودرجة فهمهم . فلم تكن معاملتهم مثلا للمؤمنين فى فلسطين ، مثل معاملتهم للمؤمنين فى بلاد الإغريق .

ومن الإثنى عشر كتب إثنان رسالتيهما أى إنجيليهما هما القديس متى والقديس يوحنا ، ومن السبعين برز إنجيليان آخران ، هما القديس مرقس والقديس لوقا . وعندما نذكر الإنجيليين الأربعة ، تتردد فى أذهاننا الإثنا عشرة آية الأولى من الأصحاح الأول من نبوة حزقيال النبى . فبعد ذكر زمان ومكان النبوة ، يخبرنا أنه رأى أربعة حيوانات لها شبه إنسان « أما شبه وجوهها فوجه إنسان ، ووجه أسد لليمين لأربعتها ، ووجه ثور من الشمال لأربعتها ، ووجه نسر لأربعتها » . ففى هذه الوجوه المتحدة فى جسد واحد ، وجه الإنسان ، ووجه الأسد ، ووجه الثور ، ووجه النسر ، رأى الآباء الأولون رموزاً للإنجيليين الأربعة ، فالقديس متى الذى يبدأ إنجيله بكتاب ميلاد للمسيح

يرمز له بوجه إنسان . والقديس مرقس الذى ينتقل بنا فى إنجيله منذ الآيات الأولى إلى الصحراء حيث يزأر يوحنا المعمدان ، يرمز له بوجه أسد . وأما لوقا الذى يبدأ إنجيله بذكر الكاهن زكريا وكهنوته فيرمز إليه بوجه الثور رمز الذبيحة . وأما إنجيل يوحنا الذى يرفعنا إلى أعالى السموات حيث كرسى الله فيرمز لصاحبه بوجه نسر .

وكانوا يرون أيضاً أن إتحاد هذه الأوجه الأربعة فى جسد واحد هو رمز لوحدة هذه الأناجيل الأربعة فى الصميم بالرغم مما يبدو لأول وهلة كأنه إختلاف . ولو أن لكل منها طابعه الخاص ، إلا أنها تختلط وتتشابك فى الجذور .

يخبرنا يوحنا الإنجيلى أن السيد له المجد قال لتلاميذه « لا أعود أسميكم عبيداً ، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده . لكنى قد سميتكم أحباء ، لأنى أعلمتكم بكل ما سمعته من أبى ، ليس أنتم إخترتمونى بل أنا إخترتكم وأقمتكم ، لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم » .

لقد أرسلهم ليبشروا العالم بكلمة الخلاص ، وإنتشر فى كل الأرض منطقهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم .

وهناك رسول لم يكن فلسطينياً ، ولم يسعد بالإستماع إلى تعاليم سيدنا له المجد ، ولم تكن رسالته موجهة قبل كل شىء لليهود . فهو لم يكن من الإثنى عشر ، ولم تكن له صفاتهم ، كما لم يكن أيضاً من السبعين ، رسول إنفرد بنوع آخر من الرسالة وهى الرسالة إلى الأمم ، وله شخصية ذات لون خاص ، وصفات خاصة ، تتمشى مع هذه المهمة التى دعى لها . هذا الرسول هو بولس رسول الأمم ، يقف بين جميع الرسل كمثل فريد فى نوعه وصفاته . لقد نال أيضاً نعمة رؤية السيد المسيح إذ يقول « أما رأيت يسوع المسيح ربنا ؟ » ولكنه يفخر بأكثر من ذلك ، يفخر بأن الله قد أفرزه من بطن أمه ودعاه بنعمته ، ثم أعلن إبنه فيه ليبشر به بين الأمم . نعم لقد أحرز نجاحاً عظيماً بواسطة هذه النعمة ، مما أكسبه لقب المؤسس الثانى للمسيحية .

لقد قبلنا كلمة الخلاص ، نتيجة تعاليم وبشارة هؤلاء الرسل ، فيحق لنا أن

نفرح ، إذ يخاطبنا بولس الرسول قائلا « فلستم إذن بعد غرباء ونزلاء ، بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله ، مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية » . ونجيبه جميعاً فى صوت واحد « فلنشكر الرب » . نعم فلنشكر الرب لأجل النعمة التى أعطاها لنا بواسطة تعاليم رسله وخلفائهم ، ولنشعر بفخر روحى إذ جعلنا أهلا لأن نكون الأحجار الحية فى بناء الكنيسة الجامعة الرسولية العظيم . ولنحرص كل الحرص على كلمة الحق التى زرعها أولئك الزارعون بكل سخاء فى نفوسنا ، ولنكن نحن أيضاً بسلوكنا المسيحى الحقيقى كرسل للمسيح . إذهبوا أنتم أيضاً ، يقول لنا سيدنا له المجد ؛ أنتم أيضاً إئتوا بثمر ! .

(مجلة مدارس الأحد ـــ أغسطس ١٩٦٩)



الفصل السادس

القديس أسطفانوس
رئيس الشمامسة وأول الشهداء

نقرأ فى أول الاصحاح السادس من سفر أعمال الرسل :

« وفى تلك الأيام إذ تكاثر التلاميذ حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين أن أراملهم كن يغفل عنهن فى الخدمة اليومية » ، هذا الحادث أورده القديس لوقا فى سفر الأعمال ليفسر سبب تنصيب الشمامسة ، والدور الذى قام به القديس اسطفانوس ، وفى واقع الأمر يكمن وراءه معنى آخر ، يحسن أن نلقى عليه بعض الضوء .

كانت الجماعة الأولى من المسيحيين مكونةً من الجليليين ، ولكن خطبة يوم الخمسين ، يوم حلول الروح القدس على الرسل ، التى ألقاها القديس بطرس ، أدخلت إلى الكنيسة يهودا من جميع الأقطار ، وكان من بينهم يهود يونانيون ، ونشر هؤلاء الدعوة فى أوساطهم فأدخلوا المزيد من إخوانهم ، ومع ذلك فقد ظل رؤساء الكنيسة من العبرانيين ، وكان من نتيجة ذلك أنه عند توزيع المساعدات ، التى تذكر هنا للمرة الأولى ، كانت أواصر القربى ورابطة اللغة تلعب دورها بين العبرانيين ، فيهملون شأن أرامل اليونانيين ، مما جعل هؤلاء يشعرون كأنهم مسيحيون من الدرجة الثانية .

وكان هذا التفريق فى المعاملة خطرا على الجماعة المسيحية ، إذ كان يهدد وحدتها ، وهذا ما دعا القديس بولس بعد قليل من الوقت يحذر من أية تفرقة فيقول « ليس يونانى ويهودى ، ختان وغرلة ، بربرى وسكيثى ، عبد وحر بل المسيح الكل وفى الكل » ويكرر ذلك فى أكثر من رسالة ، فمنذ اللحظة الأولى كانت المساواة فى المعاملة شيئا مفهوما ، وهذا التوكيد للضمير المسيحى ينتصر على التفرقة من أية نوع وفى كل زمن .

فكان يجب العمل على إبطال شكوى اليونانيين ، ولم يكن فى مقدور الرسل أن يكرسوا كل وقتهم لخدمة الموائد على حساب واجباتهم الهامة فى الصلاة

التعليم ، فاقترحوا أن ينتخب الشعب المسيحى سبعة شمامسة ، كانت جميع أسمائهم يونانية ، وكانوا جميعا تقريبا من اليونانيين ، وكان أحدهم فقط وهو نيقولاوس وثنيا من إنطاكية اعتنق المسيحية ، وانتخاب هذا الوثنى الأصل يدل على أن الكنيسة منذ أيامها الأولى قبلت فى رحابها أناسا ولدوا فى حضن الوثنية بل ولا ترى حرجا فى أن ترشحهم للوظائف الكهنوتية .

ويلاحظ أن هؤلاء الشمامسة كانوا من الشبان ذوى الأفق الواسع والذهن المتفتح وأقل تزمتا من العبرانيين ، ولذلك أعطوا الكنيسة الوليدة قوة .

قد يتساءل البعض لماذا انتخبوا سبعة فقط ؟ يرد بعض المفسرين لأن مجلس المدن اليهودية فى ذاك الوقت كانت تتكون من سبعة أفراد ، ويرى البعض الآخر : أن ذلك كان وفقا للمعجزة الثانية لإطعام الشعب التى ذكرها القديس مرقس فى أول الأصحاح الثامن من انجيله والتى كانت فى أرض يونانية ، والتى ترمز إلى هداية غير اليهود ، فقد تمت بسبعة أرغفة وتبقى منها سبع سلال .

كان الغرض الرئيسى من انتخاب السبعة توزيع الصدقات ، ولكنهم كلفوا أيضا بمهمة الوعظ ، ويؤكد أهمية وظيفتهم ذلك التكريس الذى حصلوا عليه : فبعد أن انتخبهم الشعب قدموهم للرسل الذين صلوا ووضعوا عليهم الأيدى

هذا التكريس أعطى للبشارة بالإنجيل دفعة جديدة ، إذ صارت الدياكونية مهمة جليلة وذات مسئولية كبيرة ، بل أن اثنين منهم وهما اسطفانوس وفيلبس قاما بعد ذلك بدور ذات أهمية كبرى ، لا شك أنهم ظلوا يخضعون لسلطة الرسل ، فهم ليسوا رؤساء للكنيسة ، ولكنهم مبشرين بالإنجيل ، وبعد هذا الانتخاب وذلك التكريس للسبعة يكتب القديس لوقا « وكانت كلمة الله تنمو وعدد التلاميذ يتكاثر جدا فى أورشليم وجمهور كثير من الكهنة يطيعون الإيمان ، وأما أسطفانوس فإذ كان مملوءا إيمانا وقوة ، كان يصنع عجائب وآيات عظيمة فى الشعب » .

هذه الكلمات القليلة تبين لنا ثمرة هذا التعليم الجديد الذى يقوم به الشمامسة ، ويسركم أن تعلموا أن أسطفانوس يبدو أصلاً من يهود الاسكندرية المتكلمين باليونانية ، فكان أقدر من العبرانيين على الوصول إلى أسماع اليونانيين

ولقد قوبل عند البعض منهم بغضب شديد — كما يظهر ذلك استشهاده — بينما وجد قبولا عند الآخرين الذين أظهروا ميلا إلى الاستقلال عن التزمت الذى كان سائدا فى فلسطين ، ولقد ذهب فى تبشيره إلى حد أبعد مما ذهب إليه الرسل ، إذ كانت عظات القديس بطرس فى العلية والهيكل تظهر أن يسوع الذى أقامه الله قد صار ربا ومسيحا ، وترك تفاصيل أخرى من التعاليم الإنجيلية فى الظلام لتظهر بعد ذلك تدريجيا عندما يستطيع سامعوه فهمها وهضمها : مثل الهيكل الذى كان سيهدم ، وأن الناموس الذى لم يفهمه الآباء ، لم يكن سوى تعاليم تمهيدية يجب أن تخلى مكانها للإنجيل ، وأن الخمر الجديد لا يحفظ فى زق قديم ، والرقعة الجديدة لا توضع على ملابس قديمة .

كل ذلك وغيره بدأ يظهر فى تعاليم القديس أسطفانوس ، فإذا به يثير مقاومة عنيفة ، بدأ على هيئة خلاف بين يونانيى أورشليم ، وحاولوا النقاش مع أسطفانوس « ولكنهم لم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذى كان يتكلم به » كما يقول القديس لوقا ، فلجأوا إلى تأجير شهود يقولون « إننا سمعناه يتكلم بكلام تجديف على موسى وعلى الله » ، وهيجوا الشعب والشيوخ والكتبة ، وهكذا اثار كل اليهود عليه ، وأتوا به إلى المجمع وأحضروا شهود زور ضده يقولون « هذا الرجل لا يفتر عن أن يتكلم كلاماً تجديفاً ضد هذا الموضع المقدس والناموس لأننا سمعناه يقول إن يسوع الناصرى هذا ينقض هذا الموضع ، ويغير العوائد التى سلمنا إياها موسى » .

هذا الاتهام جديد ، وحتى إذا فصلنا عنه الافتراء الذى نطق به شهود الزور أنه جدف على الهيكل وعلى الناموس ، يتبقى ليس فقط أن يسوع هو المسيح المنتظر وهو ما بشر به القديس بطرس ، ولكن أيضاً أن هذا المسيح سيضع نظاماً جديداً لكل شىء ، خلافا لذلك الذى وضعه موسى ، هذا المعنى يبدو بشكل أوضح فى تلك الخطبة البليغة التى ألقاها القديس اسطفانوس فى الدفاع عن نفسه ، والتى تبدو تعليما وتبكيتا أكثر منها دفاعا ، تبكيتا تملك الأمة التى زاغت عن طريق الأمانة والحق ومن خلالها يبدو اسطفانوس أنه أول الشهداء : إذ أن المسيحيين الذين يقدمون إلى المحاكمة لم يهتموا بأن ينقذوا رقابهم قدر اهتمامهم بعرض إيمانهم والدفاع عنه ، كان ذلك هم أسطفانوس

الأكبر ، لقد ضحى بحياته لأجل معلمه ، لم يهتم بأن ينقذها من متهميه ، ولكن بما أنه يستطيع أن يجعل الهيئة الكبرى — وهى المجمع — تستمع إليه فقد أراد أن يدافع أمامها عن السيد المسيح كما فعل من قبل أمام خصومه من اليونانيين ، بدأ بقصة ابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف ، ثم قصة موسى الذى أراد الله له أن يكون مخلص شعبه ولكنهم لم يفهموا ، ثم يقول لهم « هذا هو موسى الذى قال لبنى اسرائيل نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم ، له تسمعون ، هذا هو الذى كان فى الكنيسة فى البرية مع الملاك الذى كان يكلمه فى جبل سيناء ومع آبائنا ، الذى قبل أقوالا حية ليعطينا إياها ، الذى لم يشأ أباؤنا أن يكونوا طائعين له بل دفعوه ورجعوا بقلوبهم إلى مصر ، فرجع الله وأسلمهم ليعبدوا جند السماء كما هو مكتوب فى كتاب الأنبياء » ، ويكمل اسطفانوس فى موضع آخر فيأتى على ذكر الهيكل الذى اتهموه بالتجديف عليه فيقول : فى البرية ثم فى الأرض المقدسة إلى أن جاء سليمان كانت مع آبائنا خيمة الشهادة ، وبنى سليمان للرب بيتا ، ولكن العلىّ لا يسكن فى هياكل مصنوعات الأيادى ، كما يقول النبى .

وختم هذه الخطبة الطويلة المليئة بالاتهامات بتلك العبارات الرهيبة « ياقساة الرقابة وغير المختونين بالقلوب والآذان ، أنتم دائماً تقاومون الروح القدس ، كما كان آباؤكم كذلك أنتم ، أى الأنبياء لم يضطهده آباؤكم ، وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذى أنتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه ، الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه » .

هذه الخطبة هى وثيقة من أثمن الوثائق التى لدينا للآداب المسيحية فى العصر الأول ، وعندما نتأملها نستطيع أن نقول أن الروح القدس إستخدم اسطفانوس ليقود الكنيسة المسيحية نحو استقلال أكبر عن اليهودية بطقوسها ونواميسها ، ولذلك تبين فيه اليهود المتعصبون خصماً خطيراً .

وقد أثارتهم هذه الفقرة الأخيرة ، وخصوصاً ذلك الاتهام الذى ختمها به بأنهم لم يحفظوا الناموس ، فهو خطير بالنسبة لهم ، فانتفضوا وعضوا على نواجزهم ، وبينما هم يتحفزون للانقضاض عليه ، إذ به يقول ها أنا أنظر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله ، فعلت الصيحات :

تجديف ! تجديف ! وهجموا عليه بنفس واحدة ، وأخرجوه خارج المدينة ورجموه ، وبينما الأحجار تنهال على الشماس البطل ، كان يصلى لأجل أعدائه وراجميه وبينما هو مازال واقفا كان أول ما إتجه إليه فكره أن يدعو ويقول أيها الرب يسوع إقبل روحى ، ثم بدأت قواه تخور فجثا على ركبتيه وعند ذلك صرخ بصوت عظيم يارب لا تقم لهم هذه الخطية ، وإذ قال هذا رقد رقدته الأخيرة ، هذا الشهيد الأول فى تاريخ الكنيسة تذكرنا صلاته الأخيرة التى أصعدها إلى يسوع ، بتلك الصلاة التى أصعدها يسوع إلى الآب وهو على الصليب ، وكأنه صدى أمين لحادث الصلبوت، وبينما كان يرجم تطوع شاب فريسى يدعى شاول بالجلوس فى أحد الأركان لحفظ ملابس الراجمين ، وكان يتتبع هذا المنظر بابتسامة فيها معنى الرضا والتشفى .

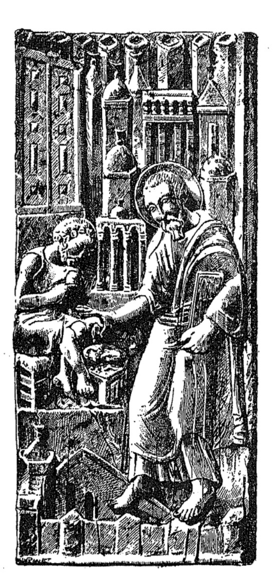
تنيح القديس أسطفانوس عام٣٦م، أى بعد أن تمتعت الكنيسة بهدوء نسبى طوال ستة أعوام منذ صعود المخلص ، وقد دام هذا الاضطهاد بعد ذلك طوال ولاية أجريبا أى حتى عام٤٤م، ومما يجدر ذكره أن هذا الاضطهاد هو الذى صنع من شاول القديس بولس ، ويرى بعض اللاهوتيين أن خطبة القديس اسطفانوس وصلاته لابد أن كان لها بعض الأثر فى قلب رسول الأمم .

لم يمض على استشهاد القديس اسطفانوس ثلاثون عاما حتى كانت أورشليم «بيتاخربا» كما تنبأ يسوع عندما قال « ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة ، فمنهم تقتلون وتصلبون ، ومنهم تجلدون فى مجامعكم وتطردون ... الحق أقول لكم إن هذا كله يأتى على هذا الجيل » ، نعم ! لقد دفع ذاك الجيل آلاما كثيرة ثمنا لدم الشهيد الأول ، الذى ساهم بقدر كبير فى ذيوع بشارة الخلاص عندما أعطى للمسيحية أول شهادة مختومة بالدماء .

وإن أروع ما فى حياة القديس اسطفانوس ، كما قدمها لنا القديس لوقا فى سفر أعمال الرسل ، والجدير باهتمامنا كشمامسة هو أنه كان ممتلئاً بالإيمان وبالحكمة وبالنعمة وبالقوة وبالروح القدس . وهذا ما يجب أن نعيه جيداً عن رئيسنا وأول شهدائنا ليكون رائدنا فى حياتنا الروحية .

الباب السابع

القديس مرقس الإنجيلي



مارمرقس يبرىء يد إينانوس
(نقلاً عن لوحة من العاج بمتحف ميلانو بايطاليا)

الفصل الأول

مازمرقـــس

من تاريخنا الديني

يفيض الكتاب المقدس بالحديث عن مصر ، تارة فى إيجاز لا يعدو الاشارة العابرة أو النبوءة الغامضة ، وطوراً فى تبسط يستوعب الفصول الطوال . ويصادفنا أول حديث عنها فى أول أسفار الكتاب أيضاً :

« وحدث جوع فى الأرض . فانحدر ابرام إلى مصر ليتغرب هناك . لأن الجوع فى الأرض كان شديداً » . ثم تتوالى الأحاديث فيما بعد ، وتترى الأخبار فى كثير من الأسفار ، ولدينا من قصة يوسف ومن حوادث الخروج العتيد ومن غير هذه وتلك فيض دافق من القصص التاريخية الشائقة. إلا أنها لا تعنينا كثيراً فى هذا المقام فلنمر عليها جميعاً مر الكرام ، ولنتمهل قليلاً عند سفر أشعياء لننقل عنه نبوءتين يهمنا تسجيلهما هنا :

« هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر داخلها » و « فى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعمود للرب عند تخمها » .

ثم فلنتابع جرينا مع الزمن حتى مطلع العهد الجديد ، فنجد الأسرة المقدسة تنشد الاختفاء من وجه الملك السفاك هيرودس ، فتأتى إلى مصر حيث يمضى الصبى الموعود سنة أو بعض السنة على ضفاف الوادى السعيد .

أليس هذا إيذاناً بشيء ! ألا تتخلل نسيج هذا الحادث خيوط لامعة تنبيء بأن هذه البلاد التى فتحت أبوابها للسيد له المجد فى « ملء الزمان » ، لابد أن تفتح له قلوب بنيها ولو بعد حين !

وثمت قرينة أصرح وأوضح . يحدثنا سفر أعمال الرسل أنه بعد صعود السيد المسيح بعشرة أيام ، حل الروح القدس على التلاميذ وزودهم بمقدرة خاصة على التكلم بلغات مختلفة ، بينها لغة مصر[1] .

(١) المقصود اللغة القبطية طبعاً . وقد أبطل استعمالها قصراً بالتدريج ، أولا فى دواوين الحكومة ثم فى الطرقات والبيوت ، وكان للأبناء والأجداد فضل المحافظة عليها داخل الكنائس محافظة تامة ، إلى أن

أليس ذلك لكرازة أهل مصر ! ألا يوحى إلينا كلا الحادثين بأن هذه البلاد التى وطئتها أقدام السيد وجرت لِغتها على ألسنة تلاميذه كانت معينة لتلقى شريعة الحق والحياة !

أجل ! وكان ذلك على يد مرقس الرسول .

والمصريون حينذاك كانوا شعباً يائساً منحلاً ، اضمحلت معتقداتهم الروحية القديمة وأصبحت ديانتهم ، كالعادة دائماً ، نوعاً من السحر والشعوذة وما إليها . ومن ثم انحطت معنوياتهم وانهارت مثلهم العليا ، فتفرقوا شيعاً حتى سهل غزوهم ، فغلبوا على أمرهم وفقدوا استقلالهم ، منذ منتصف القرن الرابع قبل الميلاد .

وكذلك كانت الحالة المعنوية عند حكامهم ، من سبق منهم ومن لحق . فاليونان أهل علم وثقافة ما فى هذا شك ، ولكن كانت تنقصهم حينذاك روح الايمان وحرارته ، بعد ما ولى عصرهم الذهبى ، فنسوا أساطير آلهتهم وأبطالهم ، وتحولوا إلى شعب مفكك مخنث . أما الرومان ، أصحاب الأمر والنهى فى ذلك الوقت ، فقد كانت شجاعتهم وسطوتهم مظهراً يخفى تحته أحط أنواع الفساد والظلم وما هو أشر من هذا وذاك .

ألا ترى معى أن الغالبين والمغلوبين جميعاً ، كانوا فى حاجة للهداية إلى طريق الحق والحياة !

أجل ! وكان ذلك على يد مرقس الرسول .

سيرة كاروز الديار المصرية

ليس فى نيتنا التحدث فى هذه السطور القليلة ، سوى عن الخطوط الرئيسية لحياة مارمرقس ، كما اتفق عليها أغلب المؤرخين الدينيين مع الكنيسة المصرية . فربما موطنه الأصلى اقليم الخمس مدن الغربية بشمال افريقيا ، إلا أن أبويه أرسطوبولوس ومريم هاجرا إلى فلسطين وأقاما فى أورشليم حيث ولد « يوحنا

** شرع بعض حضرات رعاتنا ، منذ وقت قصير ، فى أبطال استعمالها بالتدريج أيضاً ، فى الخدمات الدينية ثم فى القداس حيث استبدلوا بالألحان العزيزة المعزية أنغاماً من الغناء العربى . والأمر جد خطير ، وكلنا مسئول عن هذه الفضلة الباقية ، أمام العلم وأمام التاريخ القومى والدينى جميعاً .

الملقب مرقس »[1] حوالى سنة ١٥ م . وقد شب فى بيئة روحية سامية ، إذ كانت عائلته تمت بصلة القربى لكل من الرسولين بطرس وبرنابا ، وفوق ذلك كان السيد المسيح له المجد يتردد على منزله ، وفيه أكل الفصح الأخير مع تلاميذه . كما كان هؤلاء الأخيرون يجتمعون هناك أيضاً بعد الصعود ، حيث حل عليهم الروح القدس فى احدى حجراته يوم الخمسين .

بدأ كرازته باعتباره أحد السبعين رسولاً ، فى سن مبكرة . إلا أنه لم ينفرد عندئذ بمهمة خاصة ، بل كان يعمل فى صحبة بطرس وبولس وبرنابا . وكانت أولى رحلاته التبشيرية بصفة عامة حوالى سنة ٤٥ م ، مع الرسولين الأخيرين إلى بعض جهات فلسطين وآسيا الصغرى . وفى برجة بمفيلية تركهما عائداً إلى أورشليم . ثم ظهر مع خاله برنابا مرة أخرى فى قبرص[2] ، حيث افترقا فأبحر مرقس إلى اقليم الخمس مدن الغربية حوالى منتصف القرن الأول الميلادى . وبعد أن أسس هناك الكنيسة المسيحية الأولى ، قصد إلى الاسكندرية لأداء الرسالة العظيمة التى كان قد أعد لها أعداداً خاصاً من قبل . وهنا يحدثنا التاريخ الكنسى عن قصة أنيانوس التى تسترعى الانتباه . ففى أول يوم يدخل فيه مرقس الاسكندرية ، يكتشف أن حذاءه قد تهرأ من طول المسير ، ويمر على أول اسكاف يقابله ، فيوفق توفيقاً مزدوجاً ، إذ يصلح حذاءه ويلقى أولى بذاره ، ويكون الاسكاف انيانوس أول المؤمنين ، وخليفته على الكرسى المرقسى بعد حين . والقصة على طرافتها ، تعطينا فكرة محسوسة عن الجو المهيأ الذى لاقاه مرقس فى المدينة العظمى . فقبل ذلك بثلاثة قرون كان يهود الاسكندرية فى عصر بطليموس فيلادلف ، قد ترجموا العهد القديم من العبرية إلى اليونانية ، فمهدوا الطريق بذلك لرسالة العهد الجديد . ثم ان حجاجهم الذين اعتادوا زيارة أورشليم فى عيد الفصح كانوا قد نقلوا معهم أخبار السيد المسيح ومعجزاته والأحداث الرهيبة التى صاحبت صلبه وقيامته ، وقد أشار إلى ذلك صراحة المؤرخ اليهودي يوسيفوس الذى عاش فى القرن الأول الميلادى . ومن جهة أخرى كانت الديانة الجديدة غير غريبة على أذهان

(١) الاسم الأول يهودى والآخر رومانى .
(٢) لم يذكر سفر أعمال الرسل شيئاً آخر عنه بعد ذلك ، إنما أشير إليه إشارات قصيرة فى الرسائل الآتية : كولوسى ، فليمون ، تيموثاوس الثانية ، بطرس الأولى .

المصريين الأصليين . انها تبشر بالحياة الأخرى ، وبالثواب أو العقاب . وقد عرفوا ذلك منذ آلاف السنين . ثم ألم يروا على جدران مصاطب ممفيس ومقابر طيبة كيف سيحاكم ازوريس الموتى ، تماماً كما سيحاكمهم السيد المسيح عند انقضاء الدهر . وثمت أمور أخرى لابد أن سمعوا شيئاً عنها من آبائهم كفكرة التجسد والتثليث . وحتى الصليب رمز الديانة الجديدة ما هو إلا رمز الحياة عندهم .

كانت الأرض مهيأة والطريق معبدة ، فما كاد مار مرقس يبدأ تعاليمه حتى انسابت إلى القلوب انسياباً سهلاً ، فتحولت البلاد المصرية كلها فيما بعد إلى الديانة الجديدة ، وبذلك تأسست على ضفاف وادى النيل أول دولة مسيحية فى العالم .

استغرقت بشارة مار مرقس نحواً من عشر سنوات ، سافر أبانها مرة إلى روما ومرة أو أكثر إلى اقليم الخمس مدن الغربية . وفى خلال ذلك كان قد أسس كنيسة الاسكندرية والمدرسة اللاهوتية[1] ، وألف قداساً للصلاة ، وكتب انجيله الذى أودعه مجموعة طيبة من ذكريات القديس بطرس عن السيد المسيح ، وذلك استجابة لنداء المؤمنين من المصريين . واختتم حياته حوالى عام ٦٨ م[2] مستشهداً على أيدى كهنة السرابيوم الذى طوفوا به فى طرقات المدينة بصورة وحشية إلى أن أسلم الروح . ودفن فى الكنيسة التى أسسها بيده .

الكنيسة المرقسية الأولى

من المؤسف حقاً ألا يتبقى لنا شيء من آثار العصر المسيحى الذهبى فى الاسكندرية ، والآثار هى المصدر السليم للتاريخ الصحيح كما هو معروف . لذلك كانت كافة معلوماتنا فى هذا الشأن تستند إلى ما يسمونه بالتاريخ الأدبى ، بما قد يكون فيه من متناقضات أو مغالطات وعلى ضوء ذلك سنحاول فى إيجاز ، تتبع تاريخ أولى الكنائس المصرية .

(١) أسست فى عهد مار مرقس الرسول كنيسة صغيرة على شاطيء البحر

(١) ليست هى الكلية المشهورة التى أسست فى أواخر القرن الثانى الميلادى .
(٢) جميع هذه التواريخ تقريبية .

بجهة كانت تعرف بأسم «بوكوليا»أى « دار البقر » وموقعها الحالى بجوار « حمامات الشاطبى » .

(٢) بنيت فى نفس المكان فى القرن الثالث الميلادى ، كنيسة أكبر حجماً (أو ربما اكتفى بتوسيع الكنيسة الأصلية) ، وذلك بسبب إزدياد عدد الحجاج والزائرين .

(٣) لسبب غير معروف ، هجرت هذه الكنيسة فى منتصف القرن السادس الميلادى ، واستعيض عنها بكنيسة فخمة شيدت بجوار شاطىء الميناء الكبير (فى الغصر القديم) أى فى المكان الذى تشغله الآن الكنيسة المرقسية أو قريباً جداً منه . وقد كرست هذه أيضاً بأسم مار مرقس ونقلت إليها رفات القديس الطاهر[1] .

(٤) أحرقت هذه الكنيسة لأول مرة فى منتصف القرن السابع الميلادى ، وأعيد بناؤها . ثم تكرر التخريب والترميم أو إعادة البناء مراراً فى ظروف مضطربة خلال العصور الوسطى المظلمة ، ولا يمكن الجزم بأنه قد أعيد بناؤها فى نفس موقعها كل مرة .

(٥) الكنيسة المرقسية الحالية قائمة فى مكانها الحالى منذ عام ١٧٤٠ م على الأقل بشهادة الرحالة الانجليزى نوردن (Norden) .

(٦) يعتقد بعض المؤرخين أن رفات القديس مرقس نقلت خلسة من كنيسته إلى البندقية عام ٨٢٨ م . وهذا أمر لا يمكن اثباته أو نفيه على كل حال .

ومهما يكن من أمر ، فليس موقع الكنيسة ورفات القديس هما كل ما فى الأمر . إن للتاريخ أيضاً ناحية روحية خالصة . فلنذكر فى يوم ذكرى إستشهاد مار مرقس كيف صعدت روحه الطاهرة فى مثل هذا اليوم على مراقى التاريخ المخضب بالدم ، الطريق الذى تبعته فيه صفوف متراصة متلاحقة للأبطال الشجعان الذين إستمسكوا بعقيدتهم وشريعتهم ومثلهم العليا حتى الموت .

(١) يوجد بمتحف الاسكندرية ثلاثة تيجان أعمدة ، وبمتحف القاهرة تاج رابع ، وهى مصنوعة جميعاً من الرخام على الطراز البيزنطى الفاخر . ويرجح الأثريون أنها من مخلفات هذه الكنيسة .

هذا هو سجل الشرف الخالد !

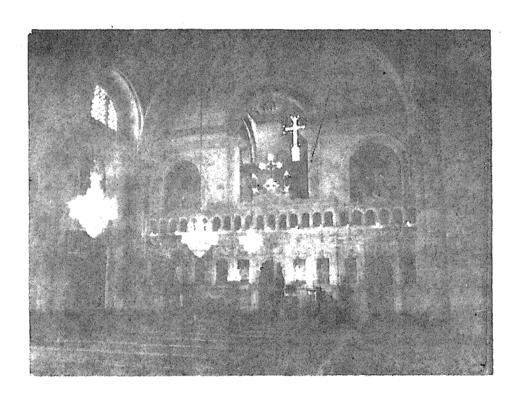
وهذا مار مرقس أول من كتب إسمه فيه بدمه !!

مراجع تاريخية للاستزادة :

تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع أسقف الاشمونين .

Eusèbe : Histoire Ecclésiastique.
Chronique de Jean, Evêque de Nikiou.
Dictionnaire d'Archéologie chrétienne et de Liturgie, t. I.
Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique, fasc. VII.
Ev. Breccia : Alexandrea ad Egyptum.
W. H. Thornton : Saint Mark and Alexandria.

(نبذة تاريخية نشرت فى ٨ مايو ١٩٤٧ ـــ ٣٠ برمودة ١٦٦٣)



منظر عام للكنيسة المرقسية الكبرى بالاسكندرية من الداخل

الفصل الثانى

الإحتفال بوجود رأس مارمرقس
بالكنيسة المرقسية

إخوانـــى :

حوالى منتصف القرن السابع نُهبت كنائس الاسكندرية وفى مقدمتها طبعاً الكنيسة المرقسية ، وكانت رأس القديس مرقس ضمن ما نُهب منها ، ولكن سرعان ما تم استردادها باعجوبة عظيمة ، خلدت الكنيسة القبطية ذكراها ، فأقامت احتفالاً سنوياً لهذا الحادث العجيب ، فى اليوم الثلاثين من شهر بابة ، ودُونت القصة مفصلةً فى سنكسار ذلك اليوم ، وفى سيرة البابا بنيامين البطريرك الثامن والثلاثين ، الذى جلس على كرسى مار مرقس بين سنتى ٦١٧ و ٦٥٦ م . ووضع البابا بنيامين الرأس المكرمة فى كنيسته المعلقة، المشيدة فوق الكنيسة القديمة بالاسكندرية .

فنحن اليوم نجتمع للاحتفال بذكرى استرجاع تلك الرأس ، ذات العبقرية الفذة والفكر الجبار ، التى أسست كنيسة مصر ، ووضعت أقدم إنجيل ، وأنشأت مدرسة لتفهيم الفلاسفة العقيدة المسيحية ، وللذود عنها أمام هجماتهم الجبارة ، ووضعت قداساً ، فوضعت بكل ذلك الأساس لذلك الصرح الشامخ الذى حافظ على التعاليم المسيحية الأرثوذكسية القويمة ، فى عالم سادت فيه الوثنية بوحشيتها وموبقاتها .

ولم تلبث القوة الدافعة القوية لتلك الرأس ، أن أوجدت لنا فى مصر فى منتصف القرن الثانى ، كنيسةً نشر نبأ نموها بين المسيحيين فى العالم ، متطلعة لتلقى اصفى التعاليم والتوجيهات ، بل حتى ولمعرفة ميعاد عيد الفصح من فم ذلك البطريرك الأمى الكرام ، الأنبا ديمتريوس واضع حساب الابقطى ، ولا نعرف إذا لم يكن أمياً ماذا كان وضع أكثر من ذلك ، ولكنا نعرف أن فى عهده بلغت مدرسة الاسكندرية السِّماك الأعلى ، فانتفى لها ببصيرته النافذة ، اكليمنتس الاسكندرى ثم بعده ذلك الشاب المصرى الصميم اليافع ، الملتهب حماسة وإيماناً ، والذى لم يكن قد تجاوز العام الثامن عشر من عمره ،

أوريجانوس ابن الشهيد القديس ليونيداس ، وواضع أساس علم اللاهوت المسيحى .

واستمر باباواتنا الأمجاد ، يتلقون الوحى ، من تلك الرأس ، فيزدادون اعتزازاً بكرسيهم ، وتقديراً لخطورة مهمتهم ، ويحاولون أن يكونوا جديرين بالجلوس عليه ، بل كان الأنبا بطرس البابا السابع عشر ، وخاتم الشهداء يجلس عند قدمى ذلك الكرسى ، حاسباً نفسه غير جدير بالجلوس عليه ، بالرغم من غزارة علمه وسعة فضله وإيمانه القويم الذى لا يتزعزع ، والذى أدى به إلى الاستشهاد ، وإن دل ذلك على شىء فعلى شعوره بعظمة تلك الرأس ، التى شادت ذلك البناء ، الذى نافس منارة الأسكندرية الشهيرة ، فى ضوئه الذى يضفيه على العالم .

واستمرت تلك القوة الدافعة لتلك الرأس فى قوتها ... ونتبينُها فى ذلك النضال المرير ، الذى قام به خليفة مار مرقس التاسع عشر الأنبا أثناسيوس طيلة نصف قرن ضد الأريوسية ، ظل ثابتاً فى موقفه يحاربها ، بينما أنصارُه يسقطون صرعى لها يميناً ويساراً من جميع الأجناس والبلاد ، إلى أن بقى وحيداً فى ميدان النضال والجهاد ، بينما أعداؤه يتكاثرون ، لا يسنده بعد الله ، سوى شعوره بعظمة المسئولية كخليفة لمار مرقس ، وشعبه الذى ظل واقفاً وراءه رجلاً واحداً ، حتى ضرب فى ذلك المثل اللاتينى المشهور « أثناسيوس ضد العالم » .

كانت محبة المصريين لتلك الرأس الجبارة لا حد لها ، فإذا ما جلس أحدهم بنعمة الله وارشاد الروح القدس على الكرسى الذى أنشأته ، عمل جاهداً بلا كلل ليصل إلى قمة القداسة والعلم ، فما أشرف الثلث الأول من القرن الخامس ، حتى كان الجالس عليه يرأس عن جدارة وبتسليم من الجميع ، مجتمع أفسس المسكونى الأول عام ٤٣١ م ، فشرف الأنبا كيرلس كنيسته ، وأكمل ما بدأه سلفه أثناسيوس إذ أوضح طبيعة السيد المسيح له المجد .

لم تقف عند ذلك القوة الدافعة لتلك الرأس ، بل امتد أثرها إلى صحارى مصر ورمالها ، فإذا الصحارى والرمال ، لأول مرة فى التاريخ ، تُنبت وتُزهر وتُخرج أثماراً يانعة ، وتقدم للعالم باقة عظيمة منها ، فاح أريجها فى أنحاء

المسكونة ، وإذا بأباء البرية يضعون أسس نهضة روحية خالدة مازال العالم يغترف منها ويهنأ بثمارها .

هذه الرأس التى وضعت أسس كل ذلك المجد الباهر الذى أحاط بالكنيسة المصرية فأكسبها ذكراً خالداً ، مازالت تستمد منه كيانها ، ظلت محفوظة فى الكنيسة حتى الجيل الحادى عشر للميلاد ، فخيف عليها من السرقة ، فأودعت عند أولاد السكرى بالاسكندرية ليحافظوا عليها فى دارهم ، وكان التقليد بعد ذلك أن يقوم البابا بعد اعتلاء كرسيه فى اليوم الثالث ، محاطا بالأساقفة والشعب والشمامسة ، قاصداً تلك الدار ، فيقيم فيها الصلاة ويرفع البخور ويأخذ الصندوق المحفوظة فيه فى حجره ، ويفتحه ويقبلها ، ويتبعه الشعب ، ثم يغلق الصندوق .

ونقرأ فى تاريخ البابا كيرلس الثانى السابع والستين أنه دخل الإسكندرية وطلب خروج رأس مار مرقس ليقبلها .

وبعد تكريس البابا مرقس بن زرعة ثالث سبعى البطاركة دخل المدينة وأتى إلى الدار التى فيها رأس القديس مرقس ، وأمضى الليلة هناك ، وفى الغد فتح الصندوق وأخذ الرأس فى حجره ، وهو جالس بالقراءة والتسبيح .

وركب البابا كيرلس بن لقلق الثالث فى الاسم ، والخامس بعد السبعين فى عداد البطاركة ، فى نهار الاثنين ٢٤ بؤونة سنة ٩٥٢ ش وخرج إلى دار ابن السكرى ، التى فيها رأس مرقس الانجيلى ، فأخرجها بعد أن كان مضى عليها فى موضعها ثمانية وأربعين عاماً من بعد رسامة سلفه ، ووضعها فى حجره ، وكساها كسوة فاخرة جديدة على جارى العادة .

ثم أعيدت الرأس إلى الكنيسة المرقسية فى زمن لم يُعلم تاريخه ، وبعد ذلك لم يرد أى ذكر للرأس فى تاريخ البطاركة لابن المقفع أو لأسقف فوه ، حتى سيرة البابا بطرس السادس البطريرك ١٠٤ الشهير بالأسيوطى الذى تولى من سنة ١٧١٨ إلى سنة ١٧٢٦ ، الذى توجه إلى الإسكندرية وقبل رأس مار مرقس الانجيلى ولما أراد الرجوع علم أن جماعات تكلمت على الرأس المقدسة ، فأخفاها فى الدير فى ذاك الوقت ، وأبطل تقليد احتضان الرأس بعد الرسامة منذ ذلك العهد .



أيقونة للقديس مارمرقس بمقصورته بالكنيسة المرقسية الكبرى بالإسكندرية

الفصل الثالث

القديس مرقس أمام التاريخ

منذ نحو تسعة عشر قرناً ، وفد إلى الاسكندرية رجل متوسط العمر ، مهيب الطلعة يتوسط وجهه المشرب بالسمرة أنف طويل وعينان صافيتان يشع منهما نور الرجاء والإيمان . كان هذا الرجل مرقس أحد الرسل السبعين ، وكاتب الانجيل الذى يحمل اسمه ، ومؤسس الكنيسة المصرية وأول شهدائها أجمعين .

كان مرقس أحد أفراد تلك الجماعة الصغيرة فى أورشليم التى ظلت على إيمانها بالسيد المسيح ، وفية لذكراه ، حل عليها الروح القدس فحولها إلى حياة جديدة كلها بطولة وقداسة ، وهيأ نفوسها بهيئة خاصة ، وجددها من قمة الرأس إلى أخمص القدم . ولقد شعروا منذ ذلك اليوم أنهم يكونون جنساً جديداً من البشر مرسلاً ليبذر بذوره فى الأرض .

هذه هى الجماعة التى تربى فى وسطها وشرب مبادئها وعقيدتها القديس مرقس . ولكن يمتاز مرقس بشيء آخر أيضاً ، فوالده أرسطوبولوس أخ لتوما وابن عم لزوجة بطرس ، ووالدته أخت لبرنابا ، وهى فوق ذلك إحدى اللواتى تقدمن الصفوف فى فجر المسيحية فى أورشليم ، وتحمل فى شخصيتها مثلاً عالياً لنشاط المسيحيات فى ذاك الوقت ، إذ لم تتردد فى جعل منزلها مركزاً مهما للنشاط المسيحى فى أورشليم ، وقد قصد بطرس منزلها مباشرة ، بعد خروجه العجيب من السجن ليذيع خبر إطلاق سراحه . ويظن أنه كان أيضاً مكان العشاء السرى ، وحل فيه الروح القدس على التلاميذ ، فهو من بيت كان مكرماً لدى جميع الأخوة فى أورشليم ، دعى فيه وحفظ الكثير من ذكريات عمد المسيحية أمثال بطرس وبرنابا وتوما وغيرهم ممن كانوا يجتمعون فى منزله يتذاكرون ويتناقلون أخبار تلك الحوادث العجيبة التى كانوا شهوداً لها ، والتى هزت الحياة الدينية فى أورشليم هزاً عنيفاً .

فهذا الرجل الذى اختاره الروح القدس ليذهب إلى الاسكندرية ، أعظم مركز ثقافى عالمى فى ذاك الوقت ، قد أعد إعداداً خاصاً ، يستطيع به أن يقف

فى وسط علماء التفسير اليهود فى مدرستهم ، وهم يبحثون فى الفلسفة اليونانية ، ليجيبهم عن تساؤلهم عن حقيقة ظهور المسيح فى أورشليم . ولا شك أن الكثيرين التفوا حوله، وأقبلوا عليه فى نهم، ليشفى غليلهم ويرشدهم إلى الخبر اليقين ، يسألونه فيجيبهم ، فوضع بذلك أساس مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، التى وضع عليها يسطس ليكمل ما بدأ به ، وما زالت تتطور حتى بلغت أوجها فى القرنين الثالث والرابع .

ولد يهودياً فى أورشليم عام ١٥ م وسمى يوحنا ، وكعادة اليهود فى ذاك الوقت ، اختير له بعد ذلك اسم لاتينى ، أكثر الاغريق من استعماله وهو مار مرقس ، ولذلك يسمى فى العهد الجديد تارة يوحنا وطورا مرقس ، وأحياناً يوحنا الملقب بمرقس .

كان أول عهد مرقس بالرحلات التبشيرية ذهابه مع برنابا وبولس عند رجوعهما من اليهودية بعد زيارتهما لها لإغاثة الإخوة . إذ أقاما أثناء وجودهما فى أورشليم ولا شك فى منزل مريم ، الذى كان مركزاً لإجتماع الرسل ، وأتيحت الفرصة للقديس بولس ، المبشر الأول ، لأن يتوسم فى مرقس مبشراً مثالياً مزوداً بكل المؤهلات اللازمة علمياً وأخلاقياً ، ذهب مرقس معهما إلى أنطاكيا ثم بعد ذلك إلى قبرص ، وكان مساعداً نشيطاً لهما ، وتركوا قبرص وذهبوا إلى برجة بمفيليا حيث تركهم مرقس ورجع إلى أورشليم لسبب حار فى تعليله الكثيرون . وربما كان أقرب تعليل إلى الحقيقة هو الذى يقول بأن مرقس ، ذاك الذى تتلمذ على كنيسة أورشليم ، والذى ينتسب والده إلى وسط يهودى فتربى فى جو اليهودية الصرفة ، قد شعر بشىء من الحرج وعدم الارتياح ، بل التخوف الشديد ، لتلك التجربة التى تعد الأولى من نوعها ، والتى أقدم عليها رسول الأمم المرن ، فيُدخل الأمم إلى حظيرة الكنيسة عن غير طريق الناموس .

ولما انعقد المجمع الرسولى بين سنتى ٥١ و ٥٢ م حضره مرقس الذى وقع الخلاف بسببه بين بولس وبرنابا بعد أنقضاض ذلك المجمع ، فانحاز برنابا إلى جانب قريبه وابحرا سوياً إلى جزيرة قبرص للمرة الثانية ، وهناك افترقا فيمم مرقس شطر افريقيا حيث بشر الخمس المدن الغربية بإسم يسوع الناصرى .

وفى عام ٥٥ م قصد الديار المصرية — وكان عدد سكانها يومئذ حوالى الاثنى عشر مليوناً — فنشر الديانة المسيحية فى معظم أقاليمها ومدنها ، وقد تتلمذ له كثيرون من القبط رجالاً ونساء كما يخبرنا أوسابيوس فعمدهم وكتب لهم انجيله المقدس ، ثم وضع قداسه باللغتين اليونانية والقبطية (راجع الدر المنظوم للسيد بولس مسعد المارونى) .

ويبدو أن مجىء مرقس إلى مصر إنما كان المقصود منه أولاً حمل البشارة إلى تلك الجالية اليهودية الكبيرة الموجودة فى الإسكندرية والتى تلى يهود أورشليم فى المكانة ، إذ كانوا من الكثرة بحيث كان يكتظ بهم حيان من أحياء المدينة الخمس ، وقد أتيحت لهم الفرصة فيها ليتصلوا بكل ما فى فلسفة الاغريق من سمو وجمال . ولذلك قصد إلى حيهم الرئيسى الذى يقع غرب مدافن القبط الآن ، حيث وجد أنيانوس فكان أول من آمن به هو وأهل بيته ، فرفعه إلى منصب أسقفيتها فى السنة الثامنة للملك نيرون (٦٢ م) على ما يشهد به أوسابيوس ، وقد ختم مرقس أعماله الأولى فى القطر المصرى ، بسيامة أثنى عشر قساً كعدد رسل الرب ، لينتخب الأسقف الاسكندرى من بينهم . وفى ذلك يقول أفتيخيوس فى كتابه (نظم الجوهر) المطبوع باكسفورد باللاتينية والعربية سنة ١٦٥٩م ص ٣٣١ « بعد انتخاب البطريرك من بين هؤلاء القسوس الإثنى عشر ، كان الأحد عشر الباقون ينتخبون رجلاً صالحاً من بين الشعب ، إتماماً للعدد الرسولى الذى حدده مؤسس الكرسى الاسكندرى » .

ثم رحل بعد ذلك إلى رومية كما يؤخذ من رسالة بولس التى بعث بها من رومية إلى أهل كولوسى سنة ٦٣ م ومن رسالته التى بعث بها من روما أيضاً إلى تلميذه فليمون سنة ٦٤ م ، حيث قال فى الأولى « إذ جاء إليكم مرقس فلاقوه بحفاوة لأنه تعب مثلى (هنا) فى حقل ملكوت الله » . أما فى الثانية فقد وضع مرقس فى مقدمة الذين عاونوه فى أسره برومية . ولابد أن يكون القديس مرقس قد ترك رومية بعد هذا التاريخ كما يؤخذ ذلك من الرسالة التى بعث بها بولس من تلك المدينة إلى تلميذه تيموثاؤس بأفسس سنة ٦٨ م حيث قال له « إن وقت اضمحلالى قد دنا ... فاحضر إلىّ وأحضر معك مرقس لأنه ينفعنى كثيراً فى الخدمة ... واجتهد أن يكون قدومك قبل الشتاء » . وبعد أن قضى

كاروز الديار المصرية شطراً من حياته فى تعليم وتهذيب الكنيسة الرومانية ، عاد إلى رعيته فتفقد أبناءه الاسكندريين وسر بالكنيسة الصغيرة التى شادوها ببوكوليا ، وأقام العلامة يسطس رئيساً على مدرسة الكاتشيز ، ثم أخذ يطوف مدن القطر والخمس مدن الغربية مثبتاً شعبه فى الإيمان الارثوذكسى بالتعليم والتقى المشفوعين بالايات والمعجزات . ولما كانت هذه المدرسة اللاهوتية قد انبتت ثمارها وأزهرت علومها ، تم لمرقس ما أراد حيث نكس علم الوثنية ورفع لواء المسيحية ، وهكذا أصبحت الاسكندرية أورشليم الثانية (راجع أخبار القديسين لمظلوم ج ٢ ص ٥٥٢) . وقد ظهر الدين المسيحى فى القطر المصرى وقتئذ بأجمل مظاهره ، فخلع قلوب الوثنيين الذين ارتعدوا خيفة على دينهم ، وكذلك خشى الرومان الحاكمون أن يكون الدين المسيحى سبباً فى لم شمل القبط وانتقاضهم عليهم فاضطربت قلوبهم سخطاً وحقداً وأضمروا لمرقس الخيانة والغدر . وفى يوم ٢٩ برموده (٢٦ أبريل) من السنة الرابعة عشرة لحكم نيرون (٦٨ م) بينما كان المسيحيون يحتفلون بعيد الفصح فى بيت أنيانوس ، والوثنيون بعيد إلههم سيرابيس ، هجم الرعاع على بيت الله وقبضوا على رسول مصر ، وطوقوا عنقه بحبل ضخم وسحبوه فوق اديم الاسكندرية ، فتمزق لحمه وسال دمه الزكى مخضباً أرضها ، وفى الليل ألقوه فى السجن ، وبينما هو غارق فى صلاته ظهر له ملاك الرب وقال (تشجع فقد كُتب اسمك فى سفر الحياة) . وما تدارى الملاك حتى ظهر له الرب وحياه قائلاً (السلام لك يا مرقس يا رجلى الانجيلى) . وفى صباح يوم ٣٠ برموده أعاد الوثنيون التنكيل بالرسول فجروه على الطرقات وهم يزأرون « جروا الثور إلى بوكوليا » أما هو فكان يصلى من أجلهم ، ثم لفظ آخر نسمة من حياته الغالية ، وفاز بأكليل الشهادة الخالدة .

ولما حاول الوثنيون أن يحرقوا جسده هبت العواصف وأرعدت السماء وهطلت أمطار غزيرة ، فارتاع الجناة ، وولوا مذعورين . وعند ذلك أسرع المؤمنون إلى أبيهم فحملوا جثته إلى كنيسة بوكوليا حيث صلى عليها أنيانوس يحف به أنصاره من المؤمنين . ثم دفنوه فى قبر نحتوه له بتلك الكنيسة ، التى لقبت من ذلك العهد « بكنيسة القديس مرقس » .

وقد شهد السنكسار (٤ أبيب) بأن كنيسة القديس مرقس كانت فى القرن الخامس فى عهد البابا كيرلس الكبير الرابع والعشرين قائمة ببوكوليا على شاطىء البحر تضم جسد القديس ، وكذلك شهد بأنه كانت هناك كنيسة أخرى جنوبى الإسكندرية باسم القديس مرقس أيضاً . وقد ظلت الكنيسة الأولى قائمة حتى القرن السابع حيث دخل العرب فخربوها فى جملة ما خربوه من الكنائس الأخرى (كما جاء فى سنكسار ٨ طوبة) . ومن ذلك العهد صغرت تلك الكنيسة وأطلق عليها اسم « الكنيسة التى تحت الأرض ». وقال الراهب برنار الفرنسى « إنه فى أوائل القرن التاسع كانت مدينة الإسكندرية تضم قبر الرسول خارج بابها الشرق ، وهذا ما مكن أهل البندقية من أن يحملوا جسد القديس على سفينة لهم ويقلعوا إلى بلدهم فائزين بهذا الكنز الثمين ». (راجع كتابه فى رحلة لزيارة الأماكن المقدسة سنة ٨٦٠ م) .

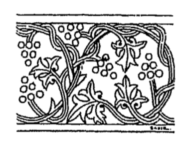
وقال الشيخ المؤتمن أبو المكارم جرجس بن مسعود فى كتابه الذى كتبه فى القرن العاشر ، والذى نسب فى وقت ما خطأ إلى أبو صالح الأرمنى « أنه لما حصل الخلاف فى الايمان الأرثوذكسى بمدينة خلقيدون عام ٤٥١ م ، طلب الملكيون أن تقسم كنائس الاسكندرية بينهم وبين القبط ، فاختص الملكيون بالكنيسة التى تحت الأرض والتى أبقى بها جسد الرسول ، واختص القبط بالكنيسة الأخرى (الجنوبية) التى نقل إليها رأس الرسول ، فما كان من الأفرنج إلا أن سرقوا هذا الجسد بوضعه فى عمود مجوف من الرخام ، ولما وصلوا بغنيمتهم إلى البندقية ، قابلهم أهاليها بفرح عظيم ، وجعلوا جمهوريتهم الحديثة تحت حماية الأسد المرقسى ، لما كان لمرقس الانجيلى من المآثر فى إيطاليا » . وقال العلامة أبن كبر فى كتابه (مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة) « إن الافرنج سرقوا جسد الرسول ، أما الرأس فنقل إلى دار أولاد السكرى بالاسكندرية » ثم نقل الرأس إلى ضريح البطاركة بالمرقسية الحالية بالاسكندرية وهى الكنيسة التى جددها البابا اسحق البرلسى الـ ٤١ (سنكسار ٩ هاتور) وظل الرأس محفوظاً بها بكل عناية . وقد كان بابوات الاسكندرية يُقبِّلون الرأس عند سيامتهم إلتماساً لبركات أبيهم الحبيب وسيدهم العظيم ، حتى جلس على الكرسى المرقسى البابا بطرس الـ ١٠٤ الذى ، بعد أن أدى الفريضة المقدسة ، علم أن هناك من يحاولون سرقة الرأس كما سرق الجسد من قبل ،

فأمر بحفظ تلك الدرة اليتيمة فى ضريح البطاركة المذكور بعيدة عن أيدى الطامعين . وقد جاء بكتاب رسامة البطاركة المطبوع برومية عام ١٧٦١ عن رأس الرسول مانصه « ليأخذ البطريرك فى حضنه الرأس الرسولى الذى للناطق بالإلهيات مرقس لأنه صار خليفة له » .

ومما ذكر عن البطريرك يؤانس الملوانى الخامس بعد المائة ، الذى سيم بطريركاً بعده ، فى يوم الأحد ٦ طوبى ١٤٤٣ ش ، أنه بعد قسمته قبل قراءة الانجيل ، فتحوا باب المقبرة كالعادة ليأخذ الصليب والعكاز من البطريرك المتنيح ، فلما نزل لأخذ الصليب سمع صوت طقطقة العظام من المقبرة ففزع وحتم بأن تبطل هذه العادة . فالبطريركان الرابع والخامس بعد المائة ، قد أبطل الأول الكشف عن رأس مار مرقس وأخفاها ولم يعرف محلها للآن ، والثانى أبطل عادة استلام الصليب من يد السلف المتنيح .

تعاقَب على الكرسى المرقسي بطاركة القبط ، فأتموا بناء الكنيسة ودعموا صرحها ، حتى إذا ما حلت الأيام العصيبة وهددت كيانها ومصيرها بعواصفها وأعاصيرها ، استطاعت أن تصمد لشتي التجارب طيلة العصور البغيضة ، مهيضة الجناح حينا ومثخنة بالجراح حيناً آخر ، إلا أنها ظلت وستظل بنعمة الله دائماً ، مرفوعة الرأس شامخة الأنف تتحدى الزمن .

فلنحافظ إذن على هذا الإرث الثمين الذى اشتريناه بدم شهدائنا وبالتضحية والاضطهادات المريعة . كما يجب علينا أن نمارس تعاليم أباء كنيستنا ونقتفى خطواتهم . فإنكار الذات والإخلاص والتضحية يجب أن تكون علماً فى جميع أعمالنا . وبتمسكنا الشديد بإيماننا يجب أن نحب قريبنا كما نحب أنفسنا ، هذا هو الفطر العالى والتعبير السامى لذلك التعليم الذى أوصانا به مار مرقس .



الفصل الرابع

بمناسبة مرور تسعة عشر قرناً على وجود أول كنيسة أقيمت فى مصر ، كنيسة مارمرقس بالاسكندرية ، أشار قداسة البابا كيرلس السادس بطبع هذه النبذة التاريخية (٦٢ م — ١٩٦٢ م)

كنيسة القديس مرقس
بالإسكندرية

لمحة تاريخية ...

يخبرنا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى القرن العاشر والمؤرخ المشهور ، فى كتابه عن تاريخ باباوات الاسكندرية المعروف بسير البيعة المقدسة ، أن القديس مرقس ، بعد أن بشر أهل الاسكندرية بالأنجيل ، ذهب إلى المدن الخمس الغربية وعند رجوعه ، بعد غياب دام حوالى السنتين ، سره أن يرى القطيع الصغير الذى كونه ، وقد نما وكبر وبنى لنفسه كنيسة فى ضاحية من المدينة تدعى « بوكوليا » ، قريباً من البحر ، وبجوار صخرة يقطعون منها الأحجار .

فإذا علمنا أن القديس مرقس أتى إلى الإسكندرية حوالى عام ٥٨ م وأن أنيانوس ، رق إلى الأسقفية تبعاً لبعض المصادر حوالى عام ٦٢ م ، فتكون هذه الكنيسة كانت قائمة حوالى عام ٦٢ م .

وهذا الاسم « بوكوليا » الذى يعنى « مرعى البقر » هو إسم قديم معروف فى تلك الأنحاء . ففى عهد الفراعنة كانت قرية راكوتيس ، قبل أن تشتهر باسم الاسكندرية ، محاطة بأرض يقيم بها رعاة البقر وكان عليهم أن يحرسوا أيضاً شواطىء الاسكندرية ، ليبعدوا عنها الأجانب الذين يحاولون النزول إليها . وقد أقام المسيحيون الأوائل كنيستهم المتواضعة فى احدى تلك المراعى القديمة التى تحولت إلى ضاحية للمدينة وما زال اسم راكوتيس مخلداً إلى الآن ، فقد أبت وطنية باباوات الاسكندرية عليهم أن يغيروا الاسم المصرى الصميم وأن يضعوا بدله فى أختامهم الرسمية اسم الفاتح الأجنبى ، وما زال ختم البطريركية إلى

يومنا هذا يحمل إسم راكوتيس باللغة القبطية بعد أن أنشأ الاسكندر الاسكندرية منذ ثلاثة وعشرين قرناً ! وفى ذلك معانى للتأمل .

وكان الوثنيون ينظرون بحقد وغضب إلى إنتشار الدين الجديد ، وفى أحد الأيام ، بينما كانوا يحتفلون بعيد الههم سيرابيس ، وكان موافقاً ليوم ٢٩ برمودة ، وفيه كان المسيحيون يحتفلون بعيد الفصح ، قبضوا على القديس مرقس وربطوه بالحبال وجروه على الأرض ، بينما يتهكمون عليه بالنسبة إلى المكان الذى تواجدوا فيه ، فكانوا يصيحون « لنجر الثور على أرض المراعى » ، وعندما أقبل الليل أودعوه السجن ، واستأنفوا وحشيتهم فى اليوم التالى ، وعندما استشهد القديس ألقوا بجثته لتحرق فى مكان قريب من الشاطىء يدعى « انجيليون » ، ولكن المسيحيين استطاعوا سحبها قبل أن تحرق وذهبوا بها إلى الكنيسة التى كان يقيم فيها القداس الالهى ، حيث حفروا قبراً ودفنوه جهة الشرق . وهكذا تم تكريس أول كنيسة فى مصر بدم مؤسسها وأول شهيد فيها .

ونعلم من تاريخ القديس بطرس خاتم الشهداء والخليفة السادس عشر للقديس مرقس ، أن هذه الكنيسة كانت صغيرة حتى أوائل القرن الرابع ، وأنها فى ناحية كانت تسمى قديماً « بوكوليا » بقرب البحر على الميناء الشرقى ، وأنها مكان استشهاد وقبر مؤسس كنيسة الاسكندرية ، وأن خلفاءه مدفونون بجواره . وقد اقتيد إليها القديس بطرس ليصلى صلاة أخيرة على قبر سلفه ، قبل أن يذهبوا به إلى مكان استشهاده شرق المدينة .

وفى السنة التالية ، حوالى عام ٣١٢ ، فى عهد باباوية اشيلاوس القصيرة ، وسعت ورسم عليها أريوس صاحب البدعة الشهيرة كاهناً . وفضلاً عن كونها أقدم كنيسة فى الاسكندرية وتحتوى جسد القديس الانجيلى ، فقد تميزت أيضاً بموقعها قرب الميناء الشرقى الكبير ، وفى وسط المركز التجارى للمدينة فى ذاك الوقت .

أحرقت هذه الكنيسة عام ٦٤١ م ، وفى أثناء الحريق حاول بعض النهابين الكشف عن القبر ، وسرق أحد قباطنة السفن رأس القديس وخبأها فى سفينته ، وعندما حاول أن يبتعد عن الشاطىء ظلت السفينة فى مكانها رغم

الجهود المتواصلة ، وعندئذ اضطر السارق لأن يعترف بجريمته ، فذهب البابا بنيامين وتسلمها باحتفال كبير . وقد أرسل له الدوق سانوتيوس بهذه المناسبة مبلغاً كبيراً من المال ليبني كنيسة القديس مرقس طالباً منه أن يصلي لأجله . ويكمل ساويرس بن المقفع كتابة هذه النبذة التاريخية فيقول « ورجع البابا الموقر إلى المدينة ... وأمر بعمل صندوق من الخشب عليه قفل ووضع فيه رأس القديس ، وظل ينتظر الظروف الملائمة لاعادة بناء الكنيسة » . وتعيد الكنيسة ذكرى العثور على رأس القديس يوم ٣٠ بابه .

ونعلم بعد ذلك أن البابا يوحنا الثالث السمنودى ، بابا الاسكندرية الأربعين (٦٧٧ — ٦٨٦ م) هو الذى أعاد بناء الكنيسة ، فأتمه عام ٦٨٠ م وتنيح فيها عام ٦٨٦ م بينما كان يقيم القداس الالهى ، وقد الحق بها ديراً .

ويقال أن جسد القديس مرقس سرق من هذه الكنيسة فى الأيام الأولى من عام ٨٢٨ م عندما سرقه تاجران من البندقية وأخذاه إلى بلديهما ، وهذا قول لانستطيع أن نؤيده أو ننفيه على كل حال .

دمرت الكنيسة مرة ثانية عام ١٢١٩ م ، وكان ذلك فى عهد الملك الكامل ، وكان الصليبيون قد حاصروا دمياط وهددوا الاسكندرية ، وخاف الشعب أن يقع فى أيديهم دير القديس مرقس الذى كان جيد التحصين فينتفعون به .

ولا نعثر بعد ذلك عن وثائق خاصة بتاريخ تلك الكنيسة حتى عام ١٥١٢ م ، عندما نعثر على ما كتبه بعض الزاور فى ذاك العهد ، ونعلم منه أن الكنيسة كان قد أعيد بناؤها .

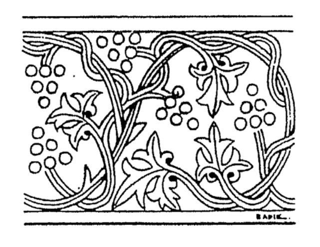
ويخبرنا من يدعى بيير بيلون دى مانز ، الذى أتى إلى مصر عام ١٥٢٧ أنه « يوجد دير يقيم به رهبان قبط ، وبه البطريركية ، وبجواره كنيسة لهم ، وهى المكان الذى كان يوجد به قديماً جسد القديس مرقس قبل أن يسرقه البنادقة » .

وقد دمرت مرة أخرى أثناء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ م ، ثم أعيد بناؤها فوق ما تبقى من قبر القديس الانجيلى ، ثم جددت مرة أخرى عام ١٨٧٠ م .

وقد هدمت عام ١٩٥٢ بعد أن كانت قبابها آيلة للسقوط وأقيم مكانها كنيسة أكبر وأجمل على الطراز البيزنطى ، وقد زينت بنقوش من الفن القبطى ، وصنعت تيجان أعمدتها على غرار تيجان لبعض أعمدة موجودة بالمتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية يعتقد أنها مأخوذة من كنيسة مارمرقس فى الزمن الغابر .

ويوجد مدفن للباباوات تحت الزاوية القبلية الغربية من الحائط به عدد كبير من خلفاء القديس حتى القرن الحادى عشر عندما نقل البابا خريستودولوس مركز البطريركية إلى القاهرة .

ومنذ أيام محمد على تدفع محافظة الاسكندرية مبلغاً اسمياً سنوياً لأجل قنديل خاص كان يوضع فى الكنيسة التى كانت فى ذاك الوقت بجوار الشاطىء فيضىء للسفن .



الفصل الخامس

القديس مرقس الإنجيلى
كاروز الديار المصرية والكرازة المرقسية

كان القديس مرقس أحد أولئك الرجال العظام الذين بذلوا النفس للعالم ، والذين إختارتهم العناية الإلهية وملأتهم من مواهب الروح القدس . كان مبشراً من الطراز الأول ، لم يكتف بأن يكرز وينذر ويعلم فى كنائس كثيرة بموجب شريعة الكمال ، بل سطر بقلمه أيضاً فى كتاب الإنجيل الإلهى هذا التعليم وتلك الشريعة التى استودعها السيد المسيح له المجد فى كنيسته المقدسة .

إذا تعمقنا فى تاريخ قديسنا قبل قيامه بمهمته التبشيرية نجده قد أعد لها إعداداً خاصاً . ولد يهوديا ربما فى مدينة القيروان بطرابلس الغرب حوالى عام ١٥ ميلادية وسمى يوحنا ، وكعادة اليهود فى ذاك الوقت اختير له بعد ذلك اسم لاتينى أكثر الإغريق من استعماله وهو مرقس ، ولذلك يدعى فى هذا العهد الجديد تارة مرقس وطورا يوحنا الملقب بمرقس . وكان والداه عارفين حقيقة المعرفة بشريعة موسى ، حافظين كتب العهد القديم كما يخبرنا ساويرس بن المقفع . ولسبب ما هاجر إلى فلسطين وأقاما بالقرب من أورشليم ، ثم توفى والده أرسطوبولس بعد ذلك بقليل ، وأقام مرقس مع والدته التى عنيت بتربيته الدينية ، فأرسلته ليتتلمذ على الرابى جمالائيل أعظم علماء عصره فى العهد القديم ومعلم القديس بولس .

وتشاء العناية الإلهية بعد ذلك أن يحيط بتفاصيل بشارة يسوع وأحداثها من مصادرها الأساسية ، فلم تكن مريم أمه إحدى اللواتى تقدمن الصفوف فى فجر المسيحية فى أورشليم فقط ، وتحمل فى شخصها مثلا عالياً عن نشاط المسيحيات فى ذاك الوقت ، بل كان الرسل توما وبرنابا وبطرس ممن يمتون إليه بصلة القرابة أو النسب ، فتهيأت له فرص ثمينة لسماع الكثير عن الدعوة الروحية الجديدة . وكان منزل مريم هذا هو أيضاً مكان العشاء السرى . وهناك حقيقة فيها شىء من الغرابة تؤيد ذلك ، ففى حديث القديس مرقس عن القبض على يسوع فى حديقة الجثسمانى توجد إشارة عابرة لاتوجد فى انجيل

آخر عن شاب كان يتبعه لابساً إزاراً على عريه ، وعندما حاولوا القبض عليه هرب تاركا إزاره فى أيدى الجنود ، فهل كان هذا الشاب هو القديس مرقس ؟ وهل كان يقظاً فى منزل والدته يتسمع مايقال فى ليلة العشاء السرى ، عالماً أن حادثا رهيبا على وشك الوقوع فى جبل الزيتون ، فمجرد انصراف يسوع وتلاميذه انسل من فراشه وتلفح بملاءة وتبعهم إلى الجبل عبر وادى يهو شافاط ؟ وإذا كان الأمر كذلك فمما لاشك فيه أن منزل مريم هذا كان مكرما لدى جميع الإخوة فى أورشليم كالمنزل الذى وضع فيه سر التناول .

وفى هذا المنزل أيضاً حل الروح القدس على التلاميذ فصار مرقس أحد تلك الجماعة التى أصبحت وحدة إنسانية ذات قدرة فائقة ، ومكونة من نفوس مهيأة تهيئة خاصة ومتجددة من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، ومستعدة لمواجهة جميع الصعاب فى سبيل إيمانها . فمنذ يوم العنصرة لم يرسخ فقط إيمان المؤمنين ويزداد قوة بل صار منتصراً لقد شعروا أنهم يكونون فى وسط الأمة اليهودية التى يشاركونها فى الوجود والعبادة فريقاً آخر من البشر ، وجنساً جديداً مرسلا ليبذر بذوره فى الأرض ، وأصبح فيهم تلك القوة التى تعطى للأقلية العزم وتلك الجرأة المؤدية إلى النصر .

هذه هى الجماعة التى تربى فى وسطها وتشرب من مبادئها وعقيدتها القديس مرقس ، فأتى إلى الاسكندرية وقد تسلح بتلك المبادىء وهذه العقيدة ، واثقا بنفسه وبقوة تلك الروح التى تتغلغل فيه .

وكانت المدينة العظمى الاسكندرية فى ذاك الوقت عاصمة البلاد المصرية ، وزينة العالم وبهجة الدنيا ، وأعرق المدن مدنية وحضارة وأعلاها كعبا فى العلوم والثقافة ، والميناء الوحيد لمن يقصد مصر بحراً ، وكعبة آمال العلماء والفلاسفة بمدرستها الشهيرة ومكتبتها ، فيها غرس الإغريق والرومان ماوعوه من علم وأدب ، واشترك منهم فى هذه الحركة الفكرية يهود الاسكندرية على وجه التقريب متنافسين فى الأخذ بأهداب الآداب والعلوم ، فيقول قيصر فى شروحاته «إن الفلاسفة كانوا يجلسون فى المفارق على قارعة الطريق يتباحثون » .

لم تكن إذن الطريق لينة هينة أمام المسيحية ، فكان عليها أن تواجه اليهودية أول أعدائها ثم تصطدم بالوثنية ، أى العالم كله الذى كان رومانيا فى نفس الوقت .

ولكن قد يهون من ذلك أن بعض التعاليم المسيحية كان قد تسرب إلى يهود الاسكندرية منذ فجر المسيحية بواسطة من كان يذهب منهم سنويا إلى أورشليم لحضور أعياد الفصح فيرجع ليخبر بما رأى وسمع ، ولذلك نقرأ فى سفر الأعمال فى الفصل الثامن عشر عن يهودى إسكندرى اسمه أبولس كان قد علم « فى بلده » بتعاليم السيد المسيح . ولكن كلمة « فى بلده » لا توجد بكل أسف فى جميع المخطوطات .

وهناك عامل آخر مهد لرسالة العهد الجديد ، وهو قيام يهود الاسكندرية بترجمة العهد القديم من العبرية إلى اليونانية (الترجمة السبعينية قبل ذلك بثلاثة قرون) .

ومن جهة أخرى لم تكن الديانة الجديدة غريبة كل الغرابة عن أذهان المصريين الأصليين ، فالحياة الآخرة وخلود الروح والثواب والعقاب ، كانت معروفة لديهم منذ آلاف السنين ، ولو أن ديانتهم كانت قد وصلت إلى درجة من الإضمحلال أضبحت معها نوعاً من السحر والشعوذةومالإليها . وكانوا فى حالة استعباد مستمر لملاك الأرض من الإغريق .

وأما الإغريق فقد ولى عصرهم الذهبى ، وأما الرومان أصحاب الأمر والنهى فى ذاك الوقت ، فقد كان بطشهم وسطوتهم يخفى تحته أحط أنواع الفساد والظلم وماهو أشر من هذا وذاك .

كانت الأرض إذن مهيأة لنشر كلمة الخلاص بواسطة مبشر قدير مثل القديس مرقس ، ولذلك ماكاد يضع عصا الترحال فى المدينة العظمى حتى ألقى بذار رسالته فإذا الأرض مهيأة والطريق معبدة ، وإذا المصريون يرون منهله العذب وكأنهم كانوا واقفين على أهبة الإستعداد يترقبون مجيئه ، وسرعان ماانتشرت المسيحية فى طول البلاد وعرضها فأيقظ أحفاد أولئك الأمجاد الذين صاغوا فى عنق الدهر عقود مجد لا تبلى ، والذين عاشوا منذ أقدم العصور

معدناً أصيلاً قد تخبو إصالته ولكن لا تموت . أيقظت شعبا أصيلا ساهم بقسط وافر فى الحضارة الإنسانية ، وأيقظت فيه كل ما ورثه من قوى روحية وفكرية ، إذ رغما عن أنه ظل يرزح قبل دخولها زهاء الخمسة قرون تحت نير استعمار الفرس ثم الإغريق ويليهم الرومان ، فقد إستمد من اعتزازه بأصله وبماضيه وبوحدته وتاريخه منبها قويا للوعى القومى ولتغذية الروح الوطنية التى لم تنطفىء أبداً . وقد ملأت المسيحية فراغا روحيا كان يشعر به منذ أن مسخ المستعمر معتقدات أجداده وطعمها بالهيلينية التى كانت بغيضة إليه ، ولذلك كان انتشارها سريعا ، ولا أدل على ذلك من بعض أجزاء العهد الجديد التى وجدت منذ بعض الوقت فى الفيوم ، والتى ترجع إلى أوائل القرن الثانى ، وكما يقول المؤرخ وورل « سرعان ما انتشرت المسيحية بين أهالى مصر الريفيين » .

أما الاسكندرية مدينة البذخ والترف ومعقل الثقافة والعلم ، فقد انتشرت المسيحية فى أوساط علمائها وفلاسفتها فكان نصراً عظيما لها ! وإذا بالمدينة العظمى تعنى بدراسة الديانة الجديدة كل العناية والذود عنها ضد كل مهاجميها فتضيف مجداً آخر إلى أمجادها وتتحول إلى عاصمة للمسيحية فى العالم ، إلى درجة يشبهها معها المؤرخ مكسيموس مظلوم فى كتابه (الكنز الثمين فى أخبار القديسين) بأورشليم بعد حلول الروح القدس على التلاميذ فى العلية . ونقرأ للمؤرخ دى ليسى أوليرى De Lacy O'Leary فى كتابه (ماساهمت به مصر فى الحضارة) : « إذا كان هناك قطر أو بلد ترك آثاراً عميقة على الديانة المسيحية فهذا البلد هو مصر ، أو بعبارة أدق إذا كان هناك مدينة من المدن أثرت على الديانة المسيحية تأثيراً عميقا فهذه المدينة هى بلاشك الاسكندرية » ، ويضيف إلى ذلك المؤرخ فورستر Forster « يمكن أن تدعى الاسكندرية قبل أية مدينة أخرى ، أنها صاحبة أكبر نصيب فى الجهاد للمسيحية وفى انتصارها » .

والحق أنه عندما قبل الوطنيون المصريون العقيدة المسيحية ، خلقت فيهم الديانة الجديدة شعوراً بقوتهم وقيمتهم ، وبدأوا فى استعمال لغتهم عوضا عن اليونانية ، وأخذت الكتب الدينية تنقل تباعا إلى اللغة القبطية ولم تقف حركة المعارضة للهيلينية إلى هذا الحد ، بل اتخذ المصريون لأنفسهم فنا قبطيا عارضوا

به الفن الإغريقى . وكان انتصار المسيحية على الوثنية فى حقيقة الأمر انتصاراً لمصر القبطية «الوطنية» على مصر البيزنطية ، وبدأ القبط يشعرون بقيمتهم وبالدور الهام الذى يحق لهم أن يلعبوه فى شئون البلاد كورثة للفراعنة ، وإمتلأت نفوسهم كراهية للرومان الذين طالما نكلوا بهم وساموهم سوء العذاب .

وكانت مصر فى نظرهم بلاد الله المختارة وأقربها إلى قلب السيد المسيح له المجد وأخلصها لقصيدته ولاشك فى أن تلك الحركة فى جملتها إنما هى حركة انتعاش قوى بلغت منتهاها من الحدة خارج مدينة الاسكندرية وعمت المدن المصرية جميعا . فلم يقتصر إذن أمر المسيحية فى مصر على مجرد حلولها محل الديانات الوثنية القديمة ، ولم يقتصر ماتناولته من تغيير على حياة المصريين الروحية فقط ، بل أنها أزكت فيهم الطموح إلى الإستقلال السياسى عن الدولة الرومانية واستعادة ثقتهم بأنفسهم ، كأنها بهم وقد ولدوا ولادة ثانية ! وهكذا أصبحت المسيحية رمز الوطنية المصرية ، وفى حجرها ترعرعت أول حركة قومية استقلالية فى التاريخ المصرى منذ انهيار الإمبراطورية المصرية القديمة . ولا يبعد أن هؤلاء البؤساء كانوا سيظلون بعيدين عن كل مدنية اذا لم تكن المسيحية قد وصلت اليهم فولدت فيهم مدنية مصرية جديدة . وأنها لظاهرة بالغة الأهمية تلك هى استعادة المصريين ثقتهم بأنفسهم بعد أن كانت قد عبثت بها أحداث الزمان خلال القرون الطوال ، وقد تطورت الحركة الوطنية بحيث سادت الحياة المصرية عامة ، وصاحبتها نهضة ثقافية ظلت مزدهرة طيلة قرون عدة .

وكانت مدرسة الاسكندرية اللاهوتية التى أسسها القديس مرقس والتى حفظت تعاليمه الثمينة تتفتح باستمرار فى أوار تلك الحركة وتزكيها . وهكذا كان دخول المسيحية مبعثا فى البلاد لحضارة مصرية جديدة صاحبت نشأة الكنيسة المصرية . ويقول الإمبراطور هدريان الذى زار الاسكندرية « إنا لا نجد هناك كهنة مسيحيين لم يكونوا علماء ورياضيين » . هذه المدرسة التى تخرج فيها هؤلاء الكهنة العلماء جعلت الكرسى السكندرى ، الذى دعى بكرسى القديس مرقس الانجيلى ، متقدماً فى الأجيال المسيحية الأولى على جميع

كراسى العالم ، وجعلت لباباواتنا المركز الأعلى فى المجامع المسكونية وقدمت للعالم المسيحى أسس علم اللاهوت .

كل ذلك زاد من ضغط الأجنبى على المصريين ، ولكن هذا الضغط لم يزدهم إلا عناداً وتمسكا بأهداب كنيستهم ونزعاتهم الإستقلالية ، كما لم يصرفهم عن نشاطهم الدينى والثقافى والإجتماعى فى إتجاهين . وكان الإتجاه الأول هو التبشير بالمسيحية فيما وراء الحدود المصرية شمالا حتى انجلترا وايرلندا وجنوبا حتى الهند ، فكانت كنيسة الاسكندرية أول كنيسة تقوم بالتبشير ، وفى ذلك تقول عالمة الآثار الانجليزيه مرجريت مرى Margeret Murray « كان المسيحيون فى مختلف الأصقاع جماعات صغيرة متفرقة ، أما مسيحيو مصر فكانوا هيئة منظمة بلغت من القوة حداً أدى إلى جعل المسيحية الدين الرسمى للبلاد عام ٣٨١ م ولهذا يحق لمصر أن تفخر بأنها أول قطر مسيحى فى العالم . وحتى قبل بلوغ ذلك أرسلت المبشرين إلى سكان أوروبا فى فرنسا وأسبانيا والبرتغال وإيرلندا وبريطانيا » .

ويعتقد ستانلى لين بول Stanley Lane Poole وهو كاتب ومؤرخ مشهور بدقة بحثه ، أن هناك صلة مباشرة بين الكنيسة الإيرلندية والقبطية . كما يؤكد المؤرخ بتلر Butler فى مقدمة كتابه (الكنائس القبطية القديمة) أن المبشرين القبط وصلوا إلى الجزر البريطانية .

أما الإتجاه الثانى فهو الرهبانية المصرية التى تعتبر من أينع ثمار الفكر بالمصرى ومن أبقى آثاره فى تاريخ الحضارة..

جاء القديس مرقس إلى الاسكندرية بين عامى ٥٨ و ٦٠ م واستمرت كرازته بين ثمانى وعشر سنوات ، كان يكرز وبيمينه انجيله يقص به تاريخ من عرفه باسم المسيح بن الله ، فخلص الاسكندرية من ظلمة الوثنية . ثم ذهب إلى المدن الخمس الغربية (بنتا بوليس) منسقط رأسه ومكث هناك بعض الوقت أسس فيها كنائس عدة من بينها كنيستا القيروان وليبيا . ويخبرنا المؤرخ ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ، أن عند رجوعه من بنتا بوليس سره أن يرى القطيع الصغير الذى كونه وقد نما وكبر وبنى لنفسه كنيسة فى ضاحية من

المدينة تدعى «بوكوليا» قريباً من البحر وبجوار صخرة يقطعون منها الأحجار .

وهذا الاسم «بوكوليا» الذى يعنى «مرعى البقر» هو اسم قديم معروف فى تلك الانحاء ففى عهد الفراعنة كانت قرية راكوتيس ، قبل أن تشتهر باسم الإسكندرية محاطة بأراضى يقيم بها رعاة البقر ، وكان عليهم أيضا أن يحرسوا شواطىء الإسكندرية ليبعدوا عنها الأجانب الذين يحاولون النزول إليها . وقد أقام المسيحيون الأوائل كنيستهم المتواضعة فى إحدى تلك المراعى القديمة التى تحولت إلى ضاحية ، ومازال إسم راكوتيس مخلداً إلى الآن ، فقد أبت وطنية باباوات الإسكندرية عليهم أن يغيروا الاسم المصرى الصميم وأن يضعوا بدله فى أختامهم الرسمية اسم الفاتح الإغريقى ، ولذلك مازال ختم البطريركية بالاسكندرية يحمل إلى يومنا هذا اسم راكوتيس باللغة القبطية بعد أن أنشأ الاسكندر مدينة الاسكندرية منذ ثلاثة وعشرين قرناً !

أضمر الوثنيون الشر للقديس مرقس الذى زعزع عقائدهم وأهان آلهتهم بتعاليمه ولذلك كانوا يتربصون به للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره وتتغلغل تعاليمه فى صميم البلاد . وفى أحد الأيام بينما كانوا يحتفلون بعيد إلههم سرابيس تفرق بعضهم فى كل مكان فى المدينة ليقبضوا عليه وينكلوا به فيضعوا بذلك حدا لشريعة الحق والكمال . وقد ظفروا به واقفا على المذبح يصلى فى كنيسة بوكوليا(ويجدر بناأن نذكر هنا التقليد الكنسى يخبرنا بأن القديس مرقس وضع قداسا يحمل اسمه ، ويعرف أيضا بالقداس الكيرلسى لبعض التعديل الذى أدخله عليه القديس كيرلس) .

أمسكوا بالقديس واستطاعوا بكثرة عددهم فى ذلك الوقت أن ينقلبوا على القطيع الصغير من المؤمنين وسحبوه فى الطرق وتخضبت الأرض بدمائه الطاهرة ثم طرحوه فى السجن وفى اليوم التالى.استأنفوا تلك القساوة حتى أسلم الروح وكان ذلك فى اليوم الثلاثين من شهر برموده عام ٦٨ م

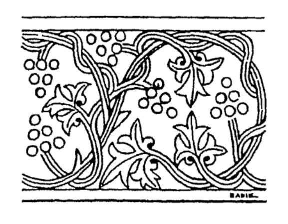
ولم يكتف الوثنيون بذلك بل حاولوا حرق جسده ولكن هبت عاصفة هوجاء وممطرة أفسدت عليهم عملهم ، فجمع المؤمنون جسده ودفنوه فى كنيسة بوكوليا شرقى الهيكل . وقد أضحى قبره ممجداً مكرما من المسيحيين فى

العالم وكانوا يأتون لزيارته من أمكنة بعيدة ، فنقرأ فى تاريخ القرن الرابع عن الكاهن القديس فيلوروموس أنه سافر من اقليم غلاطية وكبادوكيا إلى الاسكندرية ليزور هذا القبر الجليل الذى شيد عليه فيما بعد كنيسة فخمة مع دير عظيم ذاع صيتهما حتى القرن الثامن .

ويقول بعض المؤرخين أن كنيسة الإسكندرية كانت تحتفظ حتى القرن السادس الأموفوريون القديس مرقس أو وشاحه الكنسى ، وأن جميع البطاركة الذين جلسوا على السدة الاسكندرية بعد قديسنا كان يلتزم كل منهم بعد انتخابه خليفة له بأن يضع فى عنقه الأمور فوريون ثم يأخذ فى تملك قطيفته الرعائية .

هذا هو القديس مرقس الذى بشر مصر وافريقيا بالعهد الجديد فكان لبشارته صدى عالمياً، وسطر بيديه التعاليم التى بشر بها لتظل خالدة ثم شهد على صحتها بدمه وهى اسمى شهادة ، فكان أول شهداء كنيستنا .

(مجلة مدارس الأحد اغسطس /سبتمبر ١٩٦٨)



الفصل السادس

الاسكندرية تحتفل بذكرى مرور ١٩ قرناً على استشهاد القديس مرقس بالاسكندرية

احتفلت الكنيسة القبطية الارثوذكسية بالاسكندرية بذكرى مرور ١٩٠٠ سنة على استشهاد القديس مرقس الانجيلى فى الاسكندرية ، احتفالاً رسمياً وشعبياً ، أقيم الاحتفال بالكاتدرائية المرقسية يوم الثلاثاء الماضى وحضره السيد محمد حمدى عاشور محافظ الاسكندرية وأعضاء مجلس الأمة وكبار ضباط الشرطة ووكلاء الوزارات ورؤساء الأحياء ومديرو المصالح والهيئات وقناصل الدول وعمداء الجاليات الأجنبية وأشترك فيه أصحاب الفضيلة علماء المعهد الدينى بالأسكندرية ورؤساء الكنائس والطوائف المسيحية بالاسكندرية وألوف من أبناء الشعب القبطى ....

وختم الحفل ببحث تاريخى ألقاه الدكتور منير شكرى رئيس جمعية مار مينا العجايبى العلمية قال فيها « انتشرت المسيحية فى مصر فأيقظت شعباً أصيلاً ساهم بقسط وافر فى الحضارة الانسانية ، وأيقظت فيه كل ما ورثه من قوى روحية وفكرية مستمداً من اعتزازه بأصله وبماضيه وبوحدته وتاريخه منبهاً قوياً للوعى القومى ولتغذية الروح الوطنية ، وقد ملأت المسيحية فراغاً روحياً كان يشعر به منذ أن مسخ المستعمر معتقدات أجداده وطعمها بالهيلنية البغيضة إليه ولذلك كان انتشارها سريعاً .

ولم يقتصر أمر المسيحية على مجرد حلولها محل الديانات الوثنية القديمة ولم تغير حياة المصريين الروحية فقط بل أثرت على حياتهم الاجتماعية فقضت على نظام الطبقات والأجناس ورسمت للاشتراكية خطوطها الرئيسية وأزكت فيهم روح الطموح إلى الاستقلال السياسى عن الدولة الرومانية .

وكان دخول المسيحية على يد القديس مرقس مبعثاً لحضارة مصرية جديدة صاحبت نشأة الكنيسة المصرية التى عملت على نشر الايمان فى الأقطار البعيدة .

وقال الدكتور منير شكرى أن مسيحى مصر كانوا هيئة منظمة بلغت من القوة حدا قضى إلى جعل المسيحية الدين الرسمى للبلاد عام ٣٨١ م ولهذا يحق لمصر أن تفخر بأنها أول قطر مسيحى فى العالم وقبل ذلك بعثت المبشرين إلى بلاد أوروبا الوثنية لهدايتهم فوصلوا إلى الجزر البريطانية وايرلندا ولا يزال فى مدينة ديزرت أوليدة بايرلندا قبور سبعة من رهبان مصر تذكر أسماؤهم فى الصلاة فى كنيسة المنطقة .

وقال أن بشارة مرقس البشير أستغرقت نحو عشرة أعوام وختم جهاده يوم ٣٠ برموده عام ٦٨ باستشهاد رائع ودفن فى كنيسة بوكوليا أى مرعى البقر التى أسسها بنفسه .

وفى صباح الأربعاء أقيم القداس الإلهى فى جميع كنائس الاسكندرية بمناسبة ذكرى مار مرقس الانجيلى .

(وطنى ١٢ /٥ /١٩٦٨)

الباب الثامن

مدرسة الإسكندرية اللاهوتية



صورة للعلامة ديديموس الضرير أحد عمداء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية . مهداه من المهندس ميشيل بديع عبد الملك عضو الجمعية وباحث القبطيات بجامعة هايدلبرج Heidelberg بألمانيا .

الفصل الأول

بمناسبة انقضاء ٢٣ قرنا على تأسيس الإسكندرية

ما أهدته الإسكندرية إلى العالم المسيحى

نشأت الديانة المسيحية فى القدس ، وتلقفتها الاسكندرية ، عاصمة العالم الفكرى فى ذاك الوقت ، ملتقى الفلاسفة والمفكرين والشعراء والفنانين والرياضيين . وقد كان للاسكندرية قبل المسيح تاريخ مجيد من الناحية الدينية نفسها ، اذ تلاقى فيها الوحى الالهى والحكمة اليونانية باعمال المثقفين من أمثال فيلون الاسكندرى . وكانت ترجمة العهد القديم إلى اليونانية ومحاولة شرحه شرحا رمزيا مما أعطى البداية لحركة أدبية فائقة مهدت السبيل إلى قبول المسيحية بين رجال الفكر والعلم ، بينما الاسكندرية كانت فى القرنين السابقين للمسيح المركز الحقيقى للثقافة فى البلاد المتمدينة إذ بها تصبح فى القرون الأولى بعد المسيح مركزا هاما للتفكير الدينى ، وإذا بكنيسة الاسكندرية تصبح أولى الكنائس شأنا من حيث تفهمها لمضمون الوحى والرسالة المسيحية .

ولم يطل بنا الانتظار طويلا لنتبين مدى تغلغل الإيمان المسيحي فى قلوب المصريين ، ولجنى ثمرة ذلك البعث الفكرى الرائع وتلك الحركة الأدبية ، التى صاحبت دخول المسيحية مصر ، إذ لم يُشرف القرن الثانى الميلادى على نهايته حتى كانت الاسكندرية قد استطاعت أن تُهدى إلى المسيحية فى العالم « علم اللاهوت » من وضع فلاسفة مدرسة الاسكندرية المسيحية ، فجابه بذلك فلاسفة المسيحية المصريون الفلسفة الوثنية للعصر اليونانى الرومانى وهى فى ابانها ، عندما كانت أسماء مثال « سنيك » و « ابيكتاتوس » و « مارك أوريليوس » وغيرهم من فلاسفة الوثنية فى أوج مجدها ، ويقول فى ذلك الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان « ان نمو المسيحية لمنظر أخاذ مثير للاعجاب طالما كان فى الكنائس المسيحية رجال من أمثال أكليمنتس الاسكندرى واوريجانوس » . واوريجانوس هو الذى تلقف علم اللاهوت فى النصف الأول من القرن الثالث فاضاف اليه الكثير من عبقريته الموهوبة وكان له فيه أثر فريد خالد .

وتلقف الشرق والغرب بدورهما تعاليم أوريجانوس المصرى وكتاباته ، فراع علماء العالم ومفكريهم ذلك الفيض الزاخر من العلم والفكر ، وتبينوا من خلاله عبقرية نفاذه قلما يجود بمثلها الدهر . ففى الشرق اعتبره باسيليوس الكبير وغريغوريوس النازينيى معلما لهما ، وجمعا فى مؤلف لهما اسمياه (فيلوكاليا) بعض نبذ من مؤلفه (مبادىء الفلسفة المسيحية) . وأما فى الغرب فان مؤلفات معلمى الكنيسة اللاتينية وأعظم لاهوتييها ، ما هى الا مجرد نقل عن اوريجانوس . فاوسابيوس اسقف فرسيل بايطاليا لم ير فلسفة حقيقية فى غير مؤلفات هذا العلامة القبطى ، وهيلاريوس اسقف بواتييه بفرنسا نقل إلى اللاتينية تفاسيره لانجيل القديس متى وللمزامير ولسفر أيوب ، ولم يكن امبروسيوس معلم اغسطينوس فى شرحه للتوارة الا ناقلا عن اوريجانوس ، وكذلك القديس ايرونيموس .

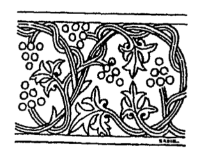
ومدرسة الاسكندرية هذه ميدان تجلى فيه بشكل واضح حيوية الكنيسة من الناحية الفكرية ، اذ تكون فيها للمرة الأولى فى تاريخ المسيحية آداب مسيحية وافرة المحصول ، قوية المبنى . ونعثر فى تاريخها على صفحات رائعة لمعلمى الكنيسة ، تلك الشخصيات التى ذاع صيتها وتركت لنا آثارا ثابتة على الزمن ، وقد بلغت تعاليم كنيسة الاسكندرية أوج مجدها فى القرن الرابع والخامس على عهد القديس اثناسيوس والقديس كيرلس ، وأن الذى يتتبع جهاد القديس اثناسيوس ونضاله عن العقيدة التى قررها مجمع نيقية ليأخذه العجب لذلك النور الوهاج الذى انقذ العالم من الأريوسية والذى كان مصدره الاسكندرية .

لم تكتف الاسكندرية بتقديم تلك الباقة من العلماء الافذاذ للعالم المسيحى ، ذوى الأثر الخالد ، بل قدمت ايضا له فى اشخاص الآلاف من شهدائها مثلا أعلى للبطولة كان له فى آخر الحساب الدور الحاسم ، لقد دفع الشهداء دماءهم ثمنا لانتصار الانجيل .

وتمجدت كنيسة الاسكندرية برهبانها واديرتها ، باولئك الالوف من النساك الذين ملأوا الديار المصرية صوامع تفوق الحصر ، وكان لهم أثر خالد فى النصرانية بأسرها ، اذ تلقت المسيحية عن « آباء البرية » طريقة خاصة للتأمل والتعبد والتنسك ما زالت مثالا يحتذى .

واليوم اذ نستعيد ذكريات تلك الامجاد ، نشكر الرب اذ جعل على رأس الكنيسة الاسكندرية قداسة البابا كيرلس السادس الذى يعمل جاهدا لتتبوأ الكنيسة مركزها اللائق الجدير بهذا الماضى المجيد .

(جريدة وطنى ٢٢ /٦ /١٩٦٦)



الفصل الثانى

مدرسة الاسكندرية المسيحية

يقول المؤرخ البريطانى De Lacy O'Leary فى كتابه The Legacy of Egypt أى ما ساهمت به مصر فى المدنية ، يقول عند حديثه عن العصر المسيحى « إذا كان هناك قطر أو بلد ترك آثاراً عميقة على الديانة المسيحية فهذا البلد هو مصر ، أو بعبارة أدق إذا كان هناك مدينة من المدن كان لها أثر عميق على الديانة المسيحية فهذه المدينة هى بلا شك الاسكندرية » ، ويضيف إلى ذلك مؤرخ بريطانى آخر هو Forster فيقول « يمكن أن تفاخر الاسكندرية قبل أية مدينة أخرى ، أنها صاحبة النصيب الأكبر فى الجهاد لأجل المسيحية وفى إنتصارها » .

حقاً يا إخوتى كانت الاسكندرية صاحبة النصيب الأكبر فى الجهاد لأجل المسيحية وفى إنتصارها ، وكان لذلك مظهران رئيسيان : المعلم والشهيد . وسأحدثكم هذه الليلة عن المظهر الأول فيهما وهو المعلم ، أى مدرسة الإسكندرية المسيحية التى كانت ميداناً تجلى فيه بشكل واضح حيوية الكنيسة من الناحية الفكرية ، إذ تكوّن فيها للمرة الأولى آداب مسيحية وافرة المحصول ، قوية المبنى . ونعثر فى تاريخها على صفحات رائعة لمعلمى الكنيسة ، تلك الشخصيات التى ذاع صيتها وتركت لنا آثاراً خالدة . كانت الإسكندرية فى ذاك الوقت من أكبر مدن العالم ، فى ملتقى ثلاث قارات ، وكانت المركز الرئيسى للثقافة الفلسفية فى العالم بعد أن تدهورت المكانة الأدبية لأثينا ، فكانت تصب فيها القيادات الفكرية من الشرق والغرب ، فحوت أناسا من أمم مختلفة ، نتج من احتكاك أفكارهم وأخلاقهم ودياناتهم وغليانها زبد عجيب . فكانت فيها مدارس فلسفية وثنية كان يتردد فيها على وجه الخصوص إسم أفلاطون ، ومدرسة فلسفية يهودية يرأسها الفيلسوف فيلون الذى كان معاصراً للقديس بولس ، كان متشبعاً بالفلسفة الأفلاطونية ومتعمقاً فى دراسة الكتاب . ويشرح يوليوس قيصر كيف كانت هذه الحركة الفكرية شاملة لجميع الأوساط فيقول « كنت ترى الفلاسفة يجلسون فى المفارق على قارعة الطريق يتباحثون » .

وجاء القديس مرقس يبشر بحقيقة وليس بفلسفة ، والحقيقة الكبرى التى تكمن فى جذور البشارة بالإنجيل هى تجسد ابن الله لأجل خلاص الإنسان وتجديده ، ولكنه سرعان ما وجد نفسه أمام مناهج فلسفية يهودية أو وثنية تبحث هى أيضا فى مصير الإنسان وعلاقته بالألوهية ، فكان عليه أن يوضح مايتنافى من هذه المناهج مع تعاليمه وأن يوضح ما بينها وبين تعاليمه من صلات إذا وُجدت . يضاف إلى ذلك أنه ليس من الممكن أن يتقبل الإنسان حقائق ذات أهمية عظمى لديه دون شرح لها ، ودون أن توضع فى قالب خاص ، ودون تباين مكانها من تاريخ العالم . لاشك بأن القديس مرقس قد رأى ببعد نظره ضرورة تأسيس مدرسة تتولى هذه المهمة فى وسط هذه التيارات الثقافية ، فيقول القديس جيروم أو إيرونيموس وهو يتحدث عن بانتينوس « هناك تقليد قديم جدا نعلم بمقتضاه أنه منذ زمن مرقس الإنجيلى كان يوجد علماء كنسيون » ، ويؤيده فى ذلك يوسابيوس القيصرى أبو التاريخ الكنسى . وبذلك تجنب القديس مرقس منذ بدء بشارته أن تختلط التعاليم المسيحية أو تمتزج بالمذاهب الأخرى التى كانت منتشرة ، وضمن بقاءها فى وسط ذلك الخضم ديانة سماوية قائمة بذاتها . وبدأت هذه المدرسة بإعداد الداخلين فى المسيحية لتقبل سر العماد ، ولكن كان على علمائها أيضا الدفاع عن المسيحية الأرثوذكسية ضد مهاجميها . وإلى علمائها يرجع الفضل فى محاربة الهرطقات التى إنتشرت فى القرن الثانى فى الأسكندرية وأهمها الغنوسطية والإفلاطونية الجديدة بعد ذلك . وفى ذلك يقول الإمبراطور هادريان الذى زار الأسكندرية حوالى عام ١٣٠ ميلادية « إنا لا نجد هناك كهنة مسيحيين لم يكونوا علماء ورياضيين . »

ونعلم من تاريخ كنيسة الأسكندرية أن يوستوس كان رئيسا لهذه المدرسة فى أيام البطريرك أنيانوس وفى السنين الأخيرة لمارمرقس الذى عمده ، ولما تولى يوستوس كرسى البطريركية خلفه فى رآسة المدرسة أومنيوس ومن بعدهما مركيانوس ثم بنتينوس .

كانت البشارة بالمسيحية أولا فى الأسكندرية باللغة اليونانية ، وكان لابد من إيصالها إلى المصريين الذين يتكلمون القبطية ، ويكاد يكون مؤكد أن اللغة المصرية كانت لغة التبشير فى الدلتا ، وكان ذلك مؤكدا دون شك فى

مصر العليا ، ولم ينته القرن الثانى حتى كانت المسيحية قد انتشرت إنتشارا واسعا بين المصريين الوطنيين ، وكان من الطبيعى أن تتطلب الأعمال التبشيرية التى أتت بهذه النتائج الإستعانة ببعض فصول الكتاب المقدس . ولذلك تمكن علماء مدرسة الأسكندرية على استحداث ما نسميه الآن اللغة القبطية ، التى ما هى فى الواقع سوى اللغة المصرية الدارجة لذاك العهد ، كتبت بحروف إغريقية ، وأضيفت إليها سبعة حروف مأخوذة عن الديموطيقية ، ثم وضعت لها قواعد النحو والهجاء ، فكان عملا فنيا رائعا ، قام به ولاشك لغويون على جانب كبير من الخبرة اللغوية ، ويظن أن بنتينوس كان أحدهم .

ولا نعرف عن بنتينوس بعد ذلك سوى أنه « كان من الحماس والحب للكلمة الممزوج بالشجاعة أن قام برحلة إلى البلاد الشرقية مبشرا بإنجيل يسوع المسيح ، وإستمر فى رحلته حتى وصل إلى الهند ، ورجع بنسخة عبرية وجدها لإنجيل متى » ، ثم يكتب عنه تلميذه أكليمنتس فى مؤلفه « الطرز أو المتفرقات » فيقول « قد أنتج من الأزهار التى جمعها من الأنبياء والرسل ، عصيرا نقيا من العلم الصحيح وطعمه لنفوس تلاميذه » .

إعتنق أكليمنتس المسيحية على يديه وتتلمذ له ثم عمل مساعدا له ثم تولى إدارة المدرسة مكانه عام ١٩٠ م . ولد أكليمنتس الاسكندرى وثنياً بالاسكندرية عام ١٥٠ ، وتاقت نفسه إلى المعرفة الإلهية فسافر وإستمع إلى أساتذة وعلماء كثيرين ، ولكن لم يجد ضالته سوى عند بنتينوس فإعتنق المسيحية على يديه ، ورسمه الأنبا ديمتريوس كاهناً وظل فى إدارة المدرسة اللاهوتية حتى عام ٢٠٢ م عندما زار مصر الإمبراطور ستبيموس ساويرس ليقضى على تلك المدرسة التى ذاع صيتها بأنها أصبحت عاملاً كبيراً فى التبشير فى البلاد بالدين الجديد ، فذهب أكليمنتس إلى كبادوكيا بجوار الأسقف اسكندر الذى كان أحد تلاميذه ليستأنف عمله هناك ، وتنيح عام ٢١٦ م .

كان أكليمنتس بحكم رحلاته مثقفاً درس الآداب اليونانية ، وكان رجلاً كبير القلب ، واسع الفكر ، عظيم النفس وكان له مؤلفات كثيرة ضاع معظمها ، وكان مما وصل إلينا منها كتابه « نداء إلى اليونانيين » وفيه يدعو الوثنيين إلى اعتناق المسيحية ، ويتدرج بالقارىء المأخوذ بجزالة العبارة وقوة

العارضة ، حتى يهيئه للنور الحقيقى المنبعث من الحياة المسيحية . ويقدم بعد ذلك فى كتابه « المعلم » المسيح الكلمة كدليل ومرشد فى حياة المسيحى اليومية . وله أيضاً كتاب « من هو الغنى الذى يخلص » وفيه نرى الكاهن الذى يعظ المؤمن ويرشده إلى طريق الحياة الأبدية ، وهو لا ينصحه بترك ثرواته ، والزهد فيها ، ولكن ينبهه إلى أنه يوجد هناك أشياء أسمى وأنبل من مجرد الإستمتاع بها ، ويبدو فى هذه الرسالة متأثراً بتعاليم معلمه بنتينوس . ثم وصل إلينا أيضاً مؤلفه (الطرز أو المتفرقات) فى ثمانية أجزاء وفيه يشرح العقائد ، ويعتبر هذا المؤلف من أثمن الأدبيات المسيحية التى لدينا من القرنين الثانى والثالث .

هذه المؤلفات وأمثالها من معلمى تلك المدرسة فى ذاك الوقت ، إنما كانت نوعا من « الجهاد » ضد المبادىء الوثنية التى كانت متغلغلة فى الحياة العامة والخاصة ، كما كان فيها أيضاً شرحاً لهذا الإيمان الجديد الذى أقبل عليه المصريون .

وإن أهم ما يتميز به تاريخ أكليمنتس الإسكندرى ، هو مجهوده الذى فاق مجهود من سبقه من مفكرى المسيحية ، فى أن يبرهن أن المسيحية تثبت أمام التمحيص العقلى ، وأنها لا تقل فى ذلك عن أى علم آخر ، وكان يرى أن إستعمال الفلسفة وسيلة ضرورية لذلك ، فيقول « إن ما أسميه فلسفة ليست هى الرواقية أو الأفلاطونية أو الأبيقورية أو الأرستوطالية ، وإنما هى مجموع ما تحويه هذه المذاهب من الحسن فى تعاليمها عن العدل والحق » ، إلا أن نظريته لم تأخذ فى حسابها ما يجب أن يلحظه المفكر المسيحى من بعض القصور فى العقل البشرى .

كان أكليمنتس عميقاً فى إيمانه ، ولكن عقله لم يبلغ مستوى قلبه ، فلم يستطع أن يحيط بكل ما يصادفه من مشاكل وأن يقضى عليها وخصوصاً مذهب الغنوسطية . هذا الذى قصرت الطاقة الفكرية لأكليمنتس عن الوصول إليه ، بلغة تلميذه وخليفته أوريجانوس .

كان أوريجانوس شخصية قوية جذابة ، وروحا تتأجج حمية ، وعبقرية قلما يجود بها الزمن ، وحماسا لا يعرف حدا يقف عنده .

يعد أوريجانوس من أعظم العبقريات المسيحية التى ظهرت فى عالمنا إلى يومنا هذا ، فهو مؤسس علم دراسة الكتاب المقدس بما قام به من أبحاث فى تفسيره اللفظى والرمزى والروحى للعهدين القديم والجديد فكان بذلك أول من وضع أسس علم اللاهوت المسيحى ، وأول من حاول شرح العقائد المسيحية بطريقة منطقية منظمة ، وهو بوصفه طرق الاتصال الروحانى بالرب يعتبر أيضاً مؤسس علم اللاهوت الروحى ، أو بتعبير أصح يعتبر أبا للحركة الرهبانية الكبرى ، التى تعتبر مصر مهدها ، والتى ظهرت فى القرن الرابع . وفى عهده بدت الاسكندرية العاصمة الفكرية ليس للعالم المسيحى فقط ولكن أيضاً للعالم الرومانى .

وتلقف الشرق والغرب بدورهما تعاليم أوريجانوس المصرى وكتاباته ، فراع علماءه ومفكريه ذلك الفيض الزاخر من العلم والفكر ، وتبينوا من خلاله عبقرية نفاذة قلما يجود الدهر بمثلها ، وإمتد أثره إلى أجيال بعده ، وإمتلأ القرنان الثالث والرابع بالعديد من تلاميذه ، نكتفى بذكر أشهرهم يوسابيوس القيصرى أبو التاريخ الكنسى خلفه فى مدرسة قيصرية وكان أحد الذين تأثروا به ودافعوا عنه ، وإمتد أثره إلى كبادوكيا بواسطة غريغوريوس صانع العجائب الذى تتلمذ عليه وحمل آراءه وأفكاره إلى الكبادوكيين ، ولم يكن ديديموس الضرير فى مدرسة الاسكندرية إلا متمماً لطريقته فى التفسير والتأملات .

وإعتبره باسيليوس الكبير وغريغوريوس النازينسى معلماً لهما ، وجمعا فى مؤلف لهما أسمياه « فيلو كاليا » بعض نبذ من مؤلفه « المبادىء » ، وأما فى الغرب فإن مؤلفات معلمى الكنيسة اللاتينية وأعظم لاهوتييها ما هى إلا مجرد نقل عن أوريجانوس ، فأوسابيوس أسقف فرسيل بإيطاليا لم ير فلسفة حقيقية فى غير مؤلفات هذا العلامة القبطى ، وهيلاريوس أسقف بواتييه بفرنسا نقل إلى اللاتينية تفسيره لإنجيل القديس متى وللمزامير ولسفر أيوب ، ولم يكن أمبروسيوس معلم أغسطينوس فى شرحه للتوراة إلا ناقلا عن أوريجانوس ، وكذلك القديس إيرونيموس . وأخذ إيفاجريوس البنطى أحد آئمة النسك عنه كل شيء فى الروحانيات ونشرها بين الرهبان فى جبل نتريا ، حيث كان يوجد كاسيان الذى نقل ما تلقفه إلى رهبان الغرب ، وتكفل روفينوس الأكويلى أيضاً بنقل تعاليمه إلى اللاتينية .

يمكننا أن نجمع مؤلفات أوريجانوس تحت أربعة عناوين ضخمة (أولاً) مؤلفات تتعلق بدراسة وتفاسير الكتب المقدسة ، وقد ذهب فيها شوطاً بعيداً فى التفسير الرمزى لما جاء فيها (ثانياً) كتب لاهوتية أهمها كتاب « المبادىء » ، الذى شرح فيه فلسفة الديانة المسيحية ، ورغما عن أنه لم يصل إلينا منه إلا النسخة اللاتينية المترجمة ، وهى نسخة حصل فيها الكثير من التنقيح والتصحيح إلا أننا نستطيع أن نجزم بأن أوريجانوس لم يأمن فيه الإنحراف من حيث لا يدرى ، وإنما عذره فى ذلك أن المجامع لم تكن قد وضعت بعد حدود الإيمان ، وقد يكون ما وقع فيه من أخطاء قد أفاد هذه المجامع فى تجنبها (ثالثاً) مؤلفات فى الفضائل والروحانيات وفى مقدمتها رسائل جديرة بالإعجاب عن « الصلاة » و « الدعوة إلى الاستشهاد » وهو الذى يراه بعض النقاد كتابه الذهبى . (رابعاً) سلسلات مؤلفات فى الدفاع عن المسيحية ، وهى تعتبر أتم وأحسن ما كُتب فى هذا الموضوع ، إذ تناول فيه كل ما وصمت به المسيحية فى زمنه نقطة نقطة ، وعلى الأخص ما رماها به الفيلسوف الوثنى « كلسوس » الذى كان قد أصدر رسالة فى أربعة أجزاء ضد المسيحية قبل ذلك بسبعين عاما ، فلم يجد من يرد عليه قارعاً الحجة بالحجة ، وفى أسلوب فلسفى يضارع أسلوبه سوى أوريجانوس فى ثمانية أجزاء .

وصلت مؤلفات أوريجانوس إلى حوالى ٦٠٠٠ كتاب ويتواضع البعض فيجعلها ٨٠٠ ، ورغما عن ضخامة هذا العدد وتعدد مواضيعه ، فلم يصل إلينا مما صنعه سوى أكوام من الحطام ، الأدلة التى تنسبها إليه ضعيفة والأسانيد مشكوك فيها . على أنها كانت تدور كلها ــ إذا أمكن أن يكون لمثل تلك المؤلفات العديدة المختلفة محور واحد ــ حول محور علم اللاهوت .

ولقد عبر أوريجانوس نفسه عن الهدف الأساسى الذى وضعه نصب عينيه فى كتاباته وتعاليمه ، فى مدينة مثل الإسكندرية ، تتصارع فيها اليونانية واليهودية والغنوسطية والمسيحية ، كل منها يروم أن يفرض على الناس سر ذلك العلم العلوى الذى يفوق إدراكهم ، وكل منها يدعى ملكيته لهذا السر ، فقال « لا يكفى نوع من الإيمان تتداوله العامة فقط ولا يسنده العقل » ، فقام بذلك المجهود الفكرى الجبار لنشر المسيحية . ولكن هذا النوع من التفكير قاده إلى

إدخال بعض تعاليم الأفلاطونية الجديدة فى المسيحية ، مما يؤخذ عليه بحق حتى قال عنه أحد معارضيه « كان يعيش كمسيحى وإنما كان يفكر كيونانى » ، وهذا ما دعا القديس بطرس خاتم الشهداء وأحد كبار معلمى الكنيسة إلى القيام بمجهود جبار لتخليص المسيحية من أية شبهة من الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، فكتب فى ذلك المؤلفات ، وقد ذهب هذا البطريرك فى سبيل تطهير المسيحية من الأفكار الدخيلة إلى حد إصدار حروم بأن « كل ما يأتى عن طريق الفلسفة اليونانية إنما هو غريب عن أولئك الذين يريدون أن يعيشوا فى المسيح فى تقى وورع » .

نعم ! سجل أوريجانوس خطوة هامة إلى الأمام فى نضوج الفكر المسيحى ، وكان الملهم للكثيرين ، ولكن يمكننا أيضاً أن نعتبره بمثابة تجربة للبعض الآخر وحجر عثرة إرتطموا بها .

ولد أوريجانوس عام ١٨٥ ميلادية من والدين مصريين مسيحيين ، أى من أبناء تلك الأمة التى يلقبها بعض المؤرخين ، أمة الشهداء ، التى كان يحتقرها اليونانيون ويعتبرها الرومان فى مرتبة العبيد ، فى مدينة الإسكندرية ، وأعطى اسم أحد آلهة بلاده « هوريجن يعنى ابن هورس إله النور » فاستمد من دمه المصرى ذلك الحماس النارى ، الذى كان تهدئه قليلا الشدائد ولكن لا تخمده . تفتحت عيناه على مسيحية الأجيال السابقة . واهتم والده القديس ليونيداس بتلقينه أدق المعلومات فى الكتب المقدسة الذى حفظ أجزاء كثيرة منه عن ظهر قلب فى صباه ، علاوة على اللغة والمنطق والعلوم التى تليق بالتربية العادية لشاب من عائلة كريمة فى ذاك العصر . وبدت عليه منذ نعومة أظفاره علامات كانت تحير والده ، فلم يكن يقنع بالمعنى الظاهرى للآيات ، بل كان دائماً يحاول التعمق فى معناها ، وكان والده ينصحه دائماً بألا يهتم بأشياء تفوق إدراكه ، بينما كان فى نفس الوقت شديد الإعجاب به فى قرارة نفسه ، إلى درجة أن كان يقف بجوار سريره أثناء نومه ، ويكشف عن صدره ويقبله بإحترام ، كما لو كان الروح القدس قد اتخذ منه هيكلا له .

وكان فى ذاك الوقت عامل آخر علاوة على الكتب المقدسة يغذى النفوس ، وهو وجود الاستشهاد . لقد شب وترعرع فى وقت بلغ فيه الاضطهاد مداه ،

فكانت روحه تتوق إلى مجابهة الأخطار وتحدى ذلك الظلم الذى كانت تعامل به السلطات الرومانية المصريين لمعتقداتهم ، ولكن كان يحول دون ذلك توسلات والدته وإشفاقه هو عليها ، حتى إذا قبض على والده حاول اللحاق به ، ولكن أضافت والدته إلى توسلاتها تخبئة جميع ملابسه ، فأجبرته على أن يلزم المنزل ، ولكنه لم يستطع السكوت ، فأرسل رسالة إلى والده يقويه ويشدد عزيمته ويقول له « حاذر أن تحيد عن طريقك بسببنا » .

وسيظل أوريجانوس طوال حياته ثائراً يمجد الإستشهاد ويدعو إليه ، وهو فى ذلك يمثل أتم تمثيل الروح المسيحية التى كانت سائدة فى عهده ، إلى أن ذاق هو أيضاً أنواعاً من العذاب فى عهد الإمبراطور ديكيوس .

إستشهد القديس ليونيداس وسن إبنه سبعة عشر عاما ، وتركه مع والدته وستة أخوة أصغر منه ، دون عائل لهم ، فريسة فى مخالب الفقر ، إذ صادرت الدولة كل أملاكهم . ولكن إستطاع أوريجانوس أن يمضى فى الدرس والتحصيل بجد بما كان يتلقاه من معونة من سيدة ثرية جداً ذات أخلاق فاضلة ، لم يذكر لنا أوسابيوس إسمها ، ولكنه يذكر لنا عنها خبرا يكشف لنا فيه مرة أخرى عن شخصية أوريجانوس الثائرة ، فقد كانت هذه السيدة تعامل بإحترام رجلا من إنطاكيا يدعى بولس إشتهر بأنه من الغنوسطيين بالإسكندرية ، وكان يجذب إليه بعلمه الكثيرين ليس فقط من الغنوسطيين ، بل ومن أبناء الكنيسة أيضاً ، ولكن لا واجب الشكر للسيدة ولا المعيشة المشتركة استطاعا دفع أوريجانوس بأن يجتمع مع هذا الرجل للصلاة ، محافظاً بذلك منذ شبابه على محبته للكنيسة ، ومعلنا إشمئزازه من تعاليم الهراطقة . كان هذا مبدأه دائماً ، فإذا تبين من يدهم الأمر بعد ذلك أنه قد صدرت منه فى وقت ما أفكار غير مقبولة ، فقد صدر منه ذلك وهو فى رحاب الكنيسة خاضعاً لها ، بإعتبار أنه نوع من الإجتهاد .

وفى الثامنة عشرة أصبح أوريجانوس رب عائلة ، فنزل إلى ميدان العمل ، لقد وعى الكثير من المعرفة وإختزن فى صدره علما مستفيضا ، فإجتمع التلاميذ حول هذا المعلم اليافع ، وعهد إليه الأنبا ديمتريوس الكرام بإدارة المدرسة اللاهوتية ، فكان ذلك اعترافا رسميا بعلمه وعبقريته فى تلك السن

المبكرة ، وفى هذا المنصب الخطير عرفه العالم كأحد أبطال المسيحية المدافعين عنها ، كما عرفه كمعلم لها يقصده المسيحيون وغير المسيحيين على حد سواء ، وسرعان ما كانت تتفتح قلوبهم لنور الإيمان فيغمرها وينضموا إلى أحضان الكنيسة . وأما أصحاب البدع والهرطقات فقد وجدوا فيه معلماً قديراً كفيلاً بردهم إلى جادة الصواب . وبينما هو يعلم تعلم العبرية والفلسفة ولم يجدّ وقتاً للإستذكار سوى على حساب النوم .

وتزدهر على يديه مدرسة الإسكندرية فيدخل فيها الرياضة والفلك والطبيعة والموسيقى ، وتتقدم كثيراً عما كانت عليه أيام أكليمنتس ، بل صارت هى الأخرى تطاول المدرسة الوثنية .

تثير فينا حياة ذلك العبقرى الموهوب مزيجا من الإعجاب والشفقة ، شعور جياش ونشاط خصيب متعدد النواحى ، بينما الموت يتهدده . كان يصاحب أصدقاءه وتلاميذه عارى القدمين إلى حيث يعذبون ليقبلهم قبلة السلام الأخيرة ، بينما الوثنيون يرقبونه بعين التهديد والوعيد . ولكن كيف يبالى بالموت وهو الذى وهب حياته لخدمة المسيح ، وكان يشعر بقوته تشد من أزره . وإذا كان أوريجانوس قد فاته شرف الإستشهاد هنا أيضاً ، فقد عوض ذلك بإتباعه نظاماً نسكياً صارماً فى معيشته ، إذ كان ينام أرضاً ، ويمشى بدون حذاء ولا يأكل اللحم أو يمس الخمر ، ولا يتملك أكثر من جلباب واحد ، ويقنع بالضرورى ليقيم به أوده ، فصارت قوته الروحية معادلة لقوته الفكرية . هذه الحياة النسكية التى جذبت إليه الكثير من تلاميذه إنما كانت بمثابة المثل الذى سيتبعه النساك فى الصحارى ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فطبق على نفسه حرفيا تلك الآية الانجيلية التى تقول « هناك أناس خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات » .

هذا الحماس الذى تبيناه فى حياته الزوحية ، يتجلى لنا أيضاً بوضوح أشد فى حياته الفكرية ، فلأجل أن يرد على اليهود الذى ادعوا على المسيحيين تحريف العهد القديم وضع كتابه الضخم « الهكسابلا » أى ذا الستة أعمدة عمود للنص العبرى وآخر للترجمة اليونانية ، ثم عمود للترجمة السبعينية ثم ترجمة اكويلا ثم ترجمة سيماخوس وأخيراً ترجمة تيودوسيون ، ويأخذ بعد ذلك فى

كتابة الشرح والتعليق فنتيين ذهناً جباراً إستوعب كل شيء ، كتب فى إحدى رسالاته يقول « إن عملية التصحيح لا تدع لنا وقتاً لتناول طعام العشاء ، وبعد تناول الطعام للرياضة والراحة ، وحتى فى هذه الأوقات نحن مجبرون لأجل مناقشة مواضيع التفسير . وفى الليل لا نستطيع التمتع بالنوم الذى نكون فى أشد الحاجة إليه لأن مناقشاتنا قد تمتد إلى وقت متأخر فى المساء . هذا غير عمل الصباح الذى يمتد من الفجر حتى الساعة التاسعة أو العاشرة ، لأن كل التلاميذ المجتهدين يخصصون هذا الوقت لدراسة الكتب المقدسة والقراءة » . لم تكن هذه حياته فى وقت الهكسابلا فقط بل فى كل الأوقات أيضاً فأنتج بذلك مؤلفات كثيرة ، وكان هناك رجل غنى وذكى يدعى أمبروسيوس إنتزعه أوريجانوس من أحضان الغنوسطية ، فحفظ له هذا الجميل وشجعه على التأليف وعين له جماعة من المختزلين والكتاب . . ومن الواضح أن الإنسان لا يستطيع أن يعطى أحسن ما عنده فى مثل هذه الظروف التى تتشابك فيها الأعمال دون راحة ، فبينما هو يتلقى أسئلة التلاميذ ويرد على طلباتهم ، إذ به يعمل بكل حماس وإجهاد عقلى لحل عقد الحقائق الصغيرة المتراكمة كالجبال ، وفى الفترات القصيرة التى يسترقها بين كل ذلك ، ينساب منه ذلك الينبوع الفياض من الحقائق التى تتلقفها أنامل المختزلين والكتاب التى أصابها الوهن والتعب . إن العجيب ليس فى أن أوريجانوس إستطاع أن يعمل كل ذلك ، بل فى أن يحسن عمل كل ذلك .

يضاف إلى كل ذلك العمل المهنى الشاق ذلك التأثير الشخصى الفريد الذى كان يتمتع به والذى له أيضاً مسئولياته وإلتزاماته . كان أوريجانوس فى حقيقته رجل عمل متواصل ، ولكن كان فى شخصيته تلك الجاذبية التى تلازم العبقرية عندما تتحد مع طبيعة عاطفية حارة .

فقامت البلاد الأخرى تستدعيه وتعرض عليه مشاكلها ، ذهب إلى روما ، وإستدعى إلى البلاد العربية ليشرح لهم العقائد المسيحية ، وإستدعته الإمبراطورة ماميا والدة الإمبراطور اسكندر ساويرس لتحظى بالإستماع إلى معلم الأساقفة وأمير الشراح ، الذى ذاع صيته فى جميع بلاد الإمبراطورية ، فذهب إليها فى أنطاكيا ، وأرشدها إلى طريق الحق والحياة .

ترك الاسكندرية عام ٢١٥ م أثناء إضطهاد الإمبراطور كاراكالا إلى قيصرية حيث قبل دعو. الأسقف إسكندر أسقف أورشليم وكذلك دعوة أسقف قيصرية ليعتلى المنبر لتفسير الكتاب المقدس للشعب هناك بينما كان ذلك محرماً العلمانيين فى كنيسة الإسكندرية ، فإستدعاه الانبا ديمتريوس ، وفى عام ٢٢٨ م أعطى رتبة الكهنوت عندما ذهب إليها للمرة الثانية بدعوة من نفس هؤلاء الأساقفة ، وفى عام ٢٢٠ م أصدر كتاب المبادىء الذى كان فيه بعض المبادىء والأفكار ما إعتبر منافيا لتعاليم المسيحية . فجمع الأنبا ديمتريوس مجمعا لم يعلن أن الرسامة باطلة بل أعلن أن أوريجانوس غير جدير بالتعليم فى مدرسته وطرده من كنيسة الإسكندرية .

أقام أوريجانوس فى قيصرية حيث رحب به إسكندر أسقف أورشليم وكذلك أسقف قيصرية وعهدا إليه بإستئناف نشاطه بينهما كما كان يفعل فى الإسكندرية . ومكث هناك بقية حياته التى جاوزت الستين يعلم ويعظ وتتلمذ عليه غريغوريوس صانع العجائب الذى يحدثنا عن « رقة أوريجانوس وإقناعه الممزوجين بقدر من القوة الملزمة » ، وقد كان غريغوريوس فى طريقه إلى بيروت ليدرس القانون ، عندما صادفته بعض الأحداث ، التى اعتبرها فيما بعد من ترتيب إلهى ، فقابل أوريجانوس فى قيصرية ولم يستطع بعد ذلك أن ينفصل عنه ويقول فى ذلك « كأن شرارة دخلت إلى قلبى فإتقد وتوهج ، كان هذا مقدار حبى للكلمة الإلهية ولذلك الرجل حبيبها والمدافع عنها . وكان من أثر هذا الحب علىّ أن جعلنى أنسى كل ما كان يبدو قريباً إلى قلبى : دراساتى القانونية المحبوبة ووطنى بل وأهلى » وظل غريغوريوس مع أوريجانوس خمس سنوات صار بعدها أسقفاً مشهوراً بعجائبه .

وإستدعى مرة أخرى للذهاب إلى البلاد العربية ، لينيرهم فى شئون العقائد وإشترك فى بضع مجامع عقدت لهذا الغرض أيضا ، وراسل الإمبراطور فيلبس العربى ، والمؤرخ يوليوس أفريكانس وأسقف روما وغيرهم من الشخصيات .

وزاد على كل ذلك الوعظ اليومى فى الكنائس ، شارحاً ما كرض من آيات الكتاب المقدس . وكان الكُتّاب ينقلون عظاته وتفاسيره ، وكان يعظ بكل قلبه

إذ كان يتوق إلى إسماع الناس ما يعرف عن كلمة الله . بدأت حياة أوريجانوس في عصر الاضطهاد وانتهت في عصر الاضطهاد ففي عام ٢٤٧ م تولى الامبراطور ديسكيوس الملك فقام يوجه ضربات قوية للمسيحية عسى أن يوقف إنتشارها ، ونال أوريجانوس نصيبه من التعذيب ، فمن سجن إلى جلد إلى ربط القدمين متباعدين لعدة أيام إلى كى بالنار وغير ذلك ولكنه تحمل كل ذلك بكل شجاعة وصبر . أثر كل ذلك على صحته ولكن كان عزاؤه أنه حقق أملاً طالما راوده منذ شبابه ، وهو أن يتعذب لأجل يسوع ، وكان لقب شهيد لديه أثمن بكثير من لقب معلم فى الكنيسة ، وهكذا كان أوريجانوس معلماً ومفسراً وعالماً وكاهناً وشهيداً ، حاز كل درجات المجد وتنيح فى عام ٢٥٤ م ودُفن فى صور فى جنوب لبنان . يقول المؤرخ بح كان أول عالم كبير وأول واعظ قدير وأول كاتب بليغ وأول مفسر عظيم وأول عقائدى عميق ولم يكن شيئا غير ذلك .

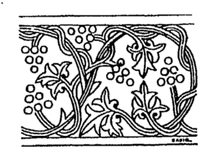
نستطيع أن نقول عن أوريجانوس مع القديس جيروم أنه كان عظيماً منذ صغره ، أو على الأصوب نستطيع أن نقول مع أوسابيوس أنه لم يكن حدثا يوما ما ولن يعرف شيخوخة . ويقول الفيلسوف الفرنسى رينان « إن نمو المسيحية لمنظر أخاذ طالما كان فى الكنائس المسيحية رجال أمثال أكليمنتس الإسكندرى وأوريجانوس » .

وبعد نياحته بثلاثة قرون أصدر مجمع القسطنطينية الخامس ـــ الذى لا نعترف به طبعا ـــ عام ٥٤٣ م بناء على أمر الامبراطور جوستنيان حرما على أوريجانوس، فكان بدعة وقرارا داعيا إلى السخرية أن يصدر حرم لإنسان أصبح فى رحاب الديان الأعظم ، ويقول المؤرخ بج ولكن عزاءنا أنه صدر بعد ثلاثة قرون من نياحته .

وبعد عصر أوريجانوس سار كل من تولى المدرسة على المنهاج الذى رسمه لها ، وإتخذوا منه إماما فتميزوا هم أيضاً بالعلم الغزير مع الفقر واستمرت المدرسة فى كنف الكنيسة ، يرقى رئيسها إلى رتبة الكهنوت ، بل زاد الشعب فى تكريم رؤسائها فكان ينتقى من بينهم بابا الاسكندرية ، وإشتهر بعد أوريجانوس تلميذاه ياروكلاس ثم القديس ديونيسيوس ، وفى عصر أثناسيوس

اشتهر ديديموس الضرير ، ثم إنشغل المصريون فى الاضطهادات المريرة التى أثيرت فى مصر بعد مجمع خلقيدونية ، فكانت الضربة القاضية على هذه المدرسة .

أطفأت الشعلة المضيئة لهذه المدرسة نور المعاهد الوثنية واليهودية على السواء ، وكانت دائماً هدفاً رئيسياً فى جميع الاضطهادات ، لأن على أيدى معلميها نمت القومية المصرية ، ونضج الشعور العام ، وإنتفض فى الوقت المناسب على الآثار الإغريقية والرومانية . وكان إنتصار المسيحية على الوثنية فى حقيقة الأمر ، إنتصارا لمصر الوطنية على الدولة البيزنطية ، وبدأ القبط يشعرون بقوميتهم ، وبالدور الهام الذى يحق لهم أن يلعبوه فى شئون البلاد كورثة للفراعنة وإمتلأت نفوسهم كراهية للرومان ، الذين طالما نكلوا بهم وساموهم سوء العذاب . وغدونا نرى منذ القرن السادس الميلادى شعبا مصريا يحس لنفسه بوجود شخصى مستقل . حتى لقد يحق أن يقال أن « المسيحية المصرية » كلمة رادفت « القومية المصرية » وأصبحت علماً عليها .



الفصل الثالث

بمناسبة مطبعة البطريركية

من مؤلفات اكليمنتس الإسكندرى

دراسات هامة من جامعة السوربون عن عميد مدرسة الاسكندرية المسيحية

حقا كان خبرا مبهجا ذلك الذى طلعت به علينا جريدة (وطنى) الغراء ، بأن صاحب الغبطة والقداسة الانبا كيرلس السادس ، اهتم بالمطبعة التى اهدتها للبطريركية جمهورية المانيا الديمقراطية ، فأمر حفظه الله بتأليف لجنة من بعض اعضاء هيئة الاوقاف لتعاين المطبعة والمكان الذى ستبنى عليه دارها .

لقد جاءت هذه المطبعة فى الوقت الذى يتعطش فيه شباب القبط المثقف ، فى معرفة المزيد عن كنيسته ، تاريخها ، طقوسها ، لغتها ، تقاليدها ، عقيدتها ، تعاليم أبائها ، آباء الرهبنة ، وغير ذلك كثير . وأن أهم مايعترض الباحثين والدارسين فى هذه الامور ، لنشر نتيجة دراستهم وابحاثهم ، هو وجود مطبعة مهيئة لمثل هذه الدراسات .

ولاجل أن نعرف أنه ينقصنا الكثير فى هذه الدراسات أسوق المثل الاتى : فقد وصلنى هذا الاسبوع كتاب دراسة تحليلية وتاريخية وعقائدية فى مؤلفات أكليمنتس الاسكندرى عميد مدرسة الاسكندرية المسيحية فى عهد الانبا ديمتريوس بابا الاسكندرية الثانى عشر ، المسماة « الطرز » Les Stromates ويقع هذا الكتاب فى ٥٧٩ صفحة من الحجم المتوسط ، وهذه الدراسة خارجة من جامعة السوربون بفرنسا . وفى آخر الكتاب وضع المؤلف قائمة بالمصادر التى لجأ اليها فى دراسته فاذا بها ٥٨٤ مصدرا ! اكثرها بالفرنسية ثم الالمانية ثم الإنجليزية . وان دلت كثرة هذه المصادر عن أكليمنتس الاسكندرى على شيء فانما تدل على الأهمية الكبرى التى يوليها علماء الغرب الأفذاذ لمؤلفات آباء كنيستنا ومعلمى مدرستنا المسيحية ، ولم أكن اتصور يوما ما أن من يريد ان يكتب دراسة على بعض مؤلفات اكليمنتس عليه ان يطلع ٥٨٤ مصدرا اكثرها يحمل اسمه .

ان اقامة المطبعة وايجاد مبنى لها فقط لا يكفى ، ولا يجعل المطبعة تتم رسالتها ، فمطبعة الانبا كيرلس الرابع التى أمر باستقبالها استقبالا رسميا يمشى امامها الشمامسة ينشدون الالحان (الفرايحى) ، والتى كانت ثانى مطبعة فى البلاد بعد المطبعة الاميرية ، باعتها البطريركية بصفة حديد خرده !

وانما يجب أن يقام بجوار دار المطبعة دار أخرى يأوى اليها جميع الرهبان الذين يديرونها ، وبجوارهم طقم آخر من الرهبان المتعلمين يحضرون من مكتبات الغرب هذه المصادر ال ٥٨٤ وغيرها مما يتعلق بتاريخنا ولغتنا وطقوسنا ، مما سلب من الاديرة ومكتباتها فى الازمنة الغابرة ، ويعكفون على ترجمتها وعلى نشرها بتكاليفها ، فيغترف منها شبابنا المتعطش المتلهف على هذه الدراسات ، لانه يؤمن بعظمة كنيسته ، ويود أن يقرأ هذه الصفحات فى تيه وفخر .

إن هذا العمل الذى يتخصص له الرهبان المتعلمون ، هو نوع من العبادة ، لا يقل عن التأمل فى الصحارى أسوة برهبان الغرب امثال البولانديست الذين يؤلفون الكتب الضخمة فى تاريخ الاباء وغيرهم وغيرهم بل هناك نظام رهبانى متخصص فى طبع الكتب الكنسية والدينية فقط .

حقا إن هذا الاهتمام من قداسة البابا لهذه المطبعة ، إنما هو اشارة الى بدء نهضة ثقافية لتتبوأ كنيستنا المكان اللائق بها ، فى نهضتنا الحديثة ، فتخرج كنوزها وتنشرها بين ابنائها ، وانى ادعو جميع رهباننا المتعلمين المثقفين فى اديرتنا ، ان يلتفوا حول قداسة البابا فى مشروعه الجليل هذا ، حتى يرجعوا لكنيسة الاسكندرية مجدها فيهتم بعضهم بترتيب المكتبة البطريركية وتنظيم فهارسها ، بينما يعمل البعض الآخر فى اقامة المطبعة وفى التمرين عليها بواسطة بعض الخبراء ، بينما يهتم قسم ثالث بالتحرير والترجمة ، وياحبذا لو ارسل اثنان أو ثلاثة منهم لزيارة بعض مكتبات امريكا وانجلترا وفرنسا وخصوصا مكتبة الفاتيكان لنقل مؤلفاتنا التى تسربت الى الخارج بواسطة الميكروفيلم ثم يرجعون لطبعها واكثرها ذو قيمة ثمينة لا تقدر .

وليس هذا الاهتمام الثقافى من قبل قداسة البابا هو الاول من نوعه فما أن تولى كرسى الباباوية ، حتى أولى مدينة مار مينا الاثرية بمريوط اهتماما خاصا

فهى احدى المخلفات الاثرية القليلة التى ابقى عليها الدهر من تراث العصر المسيحى العريض ، وتعتبر كنيستها اقدم كنيسة أمكن التحقق من تاريخ تشييدها بالضبط ، فضلا عن كونها اشهر كنيسة مصرية على وجه الاطلاق . فقد ذاع صيتها فى كافة ارجاء العالم القديم ، ووفدت اليها جماهير المسيحيين المؤمنين من اقاصى الارض ودانيها لزيارة قبر شهيدها العظيم مار مينا العجايبى . وظلت كذلك عدة قرون ، الى ان خيمت على البلاد ظلمات العصور الوسطى البغيضة وغمرتها فى ظلال النسيان ، فأقام بها قداسة البابا ديرا وكنائس عدة ، فازاح بيمينه بذلك مافعلته الرمال وكشف عن نصب خالد لعصر المسيحية الذهبى .

وأخيرا اشار بوضع مرجع لقواعد اللغة القبطية وشجع القائمين به ووضع المشروع تحت رعايته ، حتى يجد أبناء الكنيسة المتعطشون إلى تفهم لغتها مايُشبع نفوسهم ، فتزداد الصلة بين الكنيسة القبطية وأبنائها وثوقا وقوة . الرب يثبته على كرسيه سنين عديدة حتى يرى ثمرة غرسه فى مجهوده الثقافى .
(وطنى ١٩ /١١ /١٩٦٩)



الفصل الرابع

العائلة القبطية التى أنجبت أعظم عبقرية مسيحية

عائلة أوريجانوس

للوسط العائلى أثر كبير فى تنمية المواهب وتوجيه الأبناء وإظهار العبقريات . ومن يتصفح تاريخنا القديم فى القرون الخمسة الأولى للمسيحية ، عندما أخذت مصر على عاتقها نشر الدين المسيحى فى العالم ، ووضع أسس الأرثوذكسية والدفاع عنها والنضال فى سبيلها ثم تثبيت النظام الكنسى ، تقابله أسماء أخذت مكان الصدارة والزعامة ، لم تخلقها الحوادث أو لمعت بمحض الصدفة ، وإنما صهرتها وأعدتها بوتقة الوسط العائلى الذى وجدت فيه ، فأخرجتها للدين وللانسانية نفوساً نبيلة سامية وعبقريات عظيمة تركت آثاراً عالمية باقية على مر الدهور . فأثناسيوس تربى فى عائلة مسيحية ، بلغ من قيامها بالواجب فى تلقين أبنائها بمبادىء المسيحية أن تاقت نفس أثناسيوس لأن يتتلمذ على القديس أنطونيوس أب الرهبان وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ، وبعد أن أخذ عنه ما وسعه من دروس أكب على التأليف ، فألف كتاباً فى « سر التجسد » ، وكأن العناية الإلهية كانت تعده خصيصاً لهذا الموضوع ، الذى كان موضوع جهاده لأكثر من نصف قرن . وثاوفيلس وكيرلس الكبير كانا من عائلة اشتهرت بالجاه وبالعناية بتثقيف أبنائها وإعدادهم إعداداً خاصاً ، فكانا من عمد الكنيسة وكان ثانيهما أعظم لاهوتى ظهر بعد أوريجانوس .

بل إذا رجعنا إلى الثلث الأخير للقرن الثانى الميلادى ، وجدنا فى مدينة الاسكندرية عائلة مصرية صميمة مسيحية (قبطية) ، تقدم إلى الأسر المسيحية فى العالم أجمل مثلاً أعلى للعائلة المحبة لإله المحبة وللإنسانية جمعاء ، فأدت واجبها نحوهم جميعاً بما لم نسمع عن مثله فى أى عائلة مسيحية أخرى إلى يومنا هذا ، وإنى لأشكر رسالة مدارس الأحد إذ أتاحت لى فرصة التحدث عنها ، وخصوصاً ونحن فى شدة الحاجة إلى معرفة تاريخنا المجيد المملوء بأروع الأمثلة والحوادث .

فرب العائلة (ليونيداس) رجل ذو جاه عريض ونفوذ ، ومسيحى من المترددين على فلاسفة مدرسة الاسكندرية المسيحية ، فازداد عمقاً فى

مسيحيته . ورأى أول واجب عليه نحو ربه أن يُعنى شخصياً بتربية أبنائه ، وأن يبث فيهم روح الفضائل والتقوى كما أتت بها المسيحية ، ومازال بأكبرهم يزيد من معرفته ويرفع من ثقافته ، فشحذ فيه الكثير من المواهب الكامنة ، وتفتح عقله ونفسه عن فلتة من فلتات الطبيعة ، وإذا بالعائلة القبطية تهدى إلى المسيحية بعد قرنين فقط أعظم عبقرية لن يجود الزمن يوماً بمثيل لها ! وليس ذلك هو كل ما أداه (ليونيداس) نحو ربه ، ففى عام ٢٠٢ م قام فى عهد الإمبراطور سبتيموس ساويرس أول اضطهاد نظمته الدولة ضد المسيحية . وكان أول ما يهدف إليه توجيه ضربة قاضية إلى الوكر الذى يشع منه نور المسيحية فى العالم ، إلى مدرسة الاسكندرية المسيحية ، ففر اكليمنتس الاسكندرى رئيسها إلى بلاد الكبادوك ، وقبض على عدد من المترددين عليها والذين يغذونها بأموالهم ، وكان فى مقدمتهم صاحبنا (ليونيداس) ، وسيق إلى الإعدام تاركاً وراءه ثروة طائلة ، وسبعة أبناء ، وهى ظروف كانت كفيلة بأن تجعله يتردد ويبخر للأصنام ، ولكن أوريجانوس ، وقد كان تواقاً أن يلحق بأبيه فيلقى مصيره معه ، ارتمت عليه والدته متوسلة بل وجردته من ملابسه ، فأرسل إلى والده يحذره من أن يضعف أو يتردد بسببهم . وختم ذلك الأب البار حياته بأن نال إكليل الشهادة ، فكان إلى آخر نسمة من حياته مثلاً أعلى لعائلته فى محبته للإله .

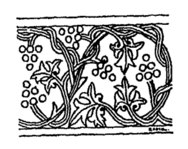
أما ابنه (أوريجانوس) ويؤكد إسمه مصريته الصميمة ، فقد راع والده منذ صغره لكثرة الأسئلة العويصة فى الدين التى كان يسأله عنها والتى كانت تسبب له حيرة عظيمة ، وكان والده يحبه إلى درجة عظيمة زادها ما تجلى عليه من عبقرية ، فكان يقترب من سريره ليلاً أثناء نومه ويتفرس فيه بحنو ، ثم يكشف عن صدره ويقبله لاحتوائه على قلب عظيم . وعندما استشهد الوالد وجد الأنبا ديمتريوس الكرام البابا الثانى عشر ، أن خير باقة يضعها على قبر ذلك القديس إنما هى تعهد تلك العبقرية ، وخير تكريم لتلك العبقرية إنما هو فى أن يعهد إليها أمور مدرسة الاسكندرية المسيحية ، فتولى أوريجانوس عمادة تلك المدرسة وسنه لم يتجاوز الثامنة عشرة ، مما لم نسمع فى التاريخ بحادث مماثل له . ولم ينتصف القرن الثالث حتى كان مواطننا قد أهدى إلى العالم المسيحى « علم اللاهوت » ، وضع من المؤلفات فى العلوم المسيحية ما قدره البعض بستة

آلاف ، وهون من شأنه ألد أعدائه فقدره بثمانمائة مؤلف ! وكان قد فاته الاستشهاد يعيش بجلباب واحد وبدون حذاء وينام على الأرض ولا يتذوق الخمر فكان رائداً لنظام الرهبنة ، بل زاد من نسكه وتقشفه فخصى نفسه . وارتقى بمدرسة الاسكندرية المسيحية فأدخل فيها الرياضة والطبيعة والفلك والنحو والموسيقى والفلسفة ، وجعل من كل ذلك أساساً لدراسة العلوم الدينية ، فجعلها بذلك جامعة دينية ، أمها المسيحيون والوثنيون لينهلوا من نبعها .

هذا هو ما قدمته العائلة القبطية فى العهد القديم للإله وللمسيحية ، ونحن اليوم فى القرن العشرين ، عصر النور والمعرفة والذرة ، ما زالت فينا روح عائلة (ليونيداس) ، وإنما ينقصنا لنبلغ مستواها فى محبة الإله والإنسانية جمعاء ، أن نعرف المسيحية وأن نتفهمها كما كانت تعرفها هى وتتفهمها . ينقصنا ذلك الأب الذى يجلس إلى أبنائه ليشرح لهم ما فى الكتب المقدسة من كنوز وأسرار ، والذى يجعل من كل فصل من فصول حياته حتى النفس الأخير مثلاً أعلى يرى الأبناء فيه توجيهاً لهم وإرشاداً لسلوكهم . وينقصنا الأبناء ذوى المقدرة الذين لا يحجمون عن تلبية نداء الكنيسة لهم مهما كلفهم ذلك من تضحية . كانوا سبعة إخوة فقدم أكبرهم نفسه كباكورة للخدمة فى حقل تعليم الكتب المقدسة حتى آخر نسمة من حياته .

لننشر ما فى تاريخنا من روائع بكافة الوسائل ، فذلك يوفر علينا الكثير من المتاعب التى نعانيها .

(مجلة مدارس الأحد ـــ ابريل ١٩٥٦)



ديديموس الضرير
(٣١٣ ـــ ٣٩٨ م)

كان ضريراً وكان المعجبون به يلقبونه « بالمبصر »، إذ كان يرى بعين فكره ـــ إذا صح هذا التعبير ـــ كل ما كان جديراً بالرؤية . وكان مجاهداً أكثر حماسة من أثناسيوس بابا الأسكندرية فى ذلك الوقت ، الذى وثق به إلى درجة أن جعله ممثلاً له على رأس مدرسة الأسكندرية اللاهوتية . وكانت عاهته وعيشته النسكية خير واق له من غضب وسخط الآريوسيين كما كانت داعية إلى تسامح الأرثوذكسين معه إذا جنح فى بعض كتاباته نحو الأوريجانية .

فقد ديديموس بصره وهو فى نحو الخامسة من عمره عقب مرض أصاب عينيه ، ولم تحل هذه العاهة بينه وبين تثقيف نفسه حتى نبغ نبوغاً منقطع النظير فى الفلسفة والرياضيات والموسيقى والهندسة وعلم الفلك ! وقرأ الكتب المقدسة وكل ما كتبه فى تفسيرها معلمو الأسكندرية أمثال بنتينوس وأكليمنتس الأسكندرى وأوريجانوس ، وبعد أن نصبه أثناسيوس عميدا لتلك المدرسة لم يترك قلايته التى كان يعيش فيها عيشة نسكية صرفة . وذاع صيته فى الأقطار المسيحية فقصده التلاميذ من جميع الأنحاء ليروا أعجوبة الزمن فى عمق الإطلاع وسعة الأفق ، ولينهلوا من منهل تعاليمه العذب . وذاع صيت نسكه أيضاً فى البرية فزاره فى قلايته القديس أنطونيوس ثلاث مرات حوالى عام ٣٥٥ م ، وجلس إليه كما يجلس التلميذ إلى معلمه . وإذا علمنا أن أبا الرهبان كان مصرياً يجهل اليونانية ، نكون على يقين أن ديديموس الضرير كان مصرياً أيضاً . وإذا علمنا أيضاً أن القديس أنطونيوس نزل إلى الأسكندرية ليؤيد القديس أثناسيوس ضد الآريوسية ، فلا شك أن زيارته للمعلم اللاهوتى الأول إنما كانت بمثابة تحية لشريك أثناسيوس فى ذلك الجهاد .

عاش ديديموس كما علمنا فى القرن الرابع فى ذلك العصر الذى كثرت فيه البدع والهرطقات ، التى كانت خير منبه لعلم التفسير وللكتابات اللاهوتية ، وكان ديديموس المعلم الأول والموجه الرئيسى فى ذلك الميدان ، كتب كثيراً ،

وهذه الكتابات التى تستدعى دراسة مطولة ، نكتفى هنا فقط بأن نبين أهميتها فى تاريخ العقيدة المسيحية وفى مجال دراسة الكتاب المقدس .

من أهم ما وصل إلينا من كتاباته رسالة قيمة عن الثالوث الأقدس تمثل أتم تمثيل الفكر المسيحى فى القرن الرابع عن عقيدة الثالوث . وهذه الرسالة نقل عنها اللاهوتيون بعد ذلك التعبير الأرثوذكسى « إله واحد فى ثلاثة أقانيم » ، وله أيضاً رسالة ضد إتباع مذهب (مانى) .

وأما تفاسيره للكتاب المقدس فالمعروف أنه كتب فيها كثيراً إلا أنه لم تصل إلينا منها سوى شذرات ، وعلى كل حال فمن العسير علينا أن ننسبها جميعاً إليه . وله أعمال أخرى كثيرة أشار القديس إيرونيموس إلى بعضها ، وينسب إليه بعض النقاد بعض الرسائل التى كتبها القديس أثناسيوس مثل رسالة التجسد الإلهى ، وكذلك رسالة القديس باسيليوس القيصرى ضد يونوموس ، ورسائل أخرى أيضاً . ولكن لا نستطيع أن نقطع بذلك . ونتبين من كتاباته أنه كان واسع الثقافة فى نواحى كثيرة ، كما كان معتدلاً فى لهجته ومتزن الفكير ، وكانت كتاباته فى التفسير واللاهوت ذات قيمة عظيمة . وقد جمع فى تفاسيره بين التفسير اللفظى والتفسير الرمزى بعد أن ينظر بعين الناقد إلى ماكتب . لا نستطيع أن نرى فيما كتب أنه كان أديباً كبيراً ولكنا نتبين من خلالها الرجل الكامل الأمين ، والمعلم المدقق الواسع الإطلاع .

بعد قانون مجمع نيقية الذى قرر مساواة الأبن للآب فى الجوهر ، والذى ينسب إلى ذلك الشاب الممتلىء حماسة رئيس الشمامسة أثناسيوس ، والذى رفعت لواءه كنيسة الأسكندرية فى كفاحها المرير ضد الأريوسية بما يقرب من قرن من الزمن ، كان من الطبيعى أن تتجه أنظار العالم المسيحى إليها مرة أخرى ليعرفوا ما تقرره فى الأقنوم الثالث ، الروح القدس ، فإنبرى لهم ديديموس وأجاب على تساؤلهم برسالة قيمة عن الروح القدس ترجمها ونقلها إلينا القديس إيرونيموس ، ولكن بابا الأسكندرية لم يكتف بذلك فى مثل ذلك الموضوع الخطير الذى يتعلق بأساس العقيدة فأشار على الإمبراطور بعقد مجمع مسكونى ليكمل قانون مجمع نيقية ، وإستجاب الإمبراطور وأمر بعقد المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية عام ٣٨١ م .

ونستطيع أن ندرك أن الإضافة التى قررها هذا المجمع على القانون النيقاوى والتى مطلعها « نعم نؤمن بالروح القدس ... الخ » إنما هى خلاصة كتابة ديديموس فى هذا الموضوع .

كان ديديموس مرهف الحس إلى درجة كبيرة قد تصل إلى ما نسميه (بالرؤية) ، وفى ذلك يخبرنا بلاديوس وسوزومين أنه عند وفاة يوليانوس عام ٣٦٣ م ، وتولية جوفيان ، كان ديديموس أول من أبلغ أثناسيوس بهذا الخبر ، إذ رأى أثناء نومه كوكبة من الفرسان على جياد بيضاء مطهمة يصيح بعضهم لبعض « أخبروا ديديموس أنه قد توفى فى هذه الساعة الإمبراطور يوليانوس ، فليبلغ أثناسيوس هذا الخبر » .

وبعد ، فقد كان أبوالعلاء المعرى ضريراً أيضاً ، وكانت له رسائل ، وقد قيض الله له من قام بدراسته ودراسة رسائله ، وصدر فى ذلك بضع مؤلفات ثمينة ، فكان بذلك أسعد حظاً من ديديموس . وعندنا الآن ولله الحمد معهد للدراسات القبطية وكلية إكليريكية عليا ، فهل نطمع فى بعض رسائل ممتعة فى دراسة تلك العبقرية الفذة ؟

(مجلة مدارس الأحد ـــ مايو ١٩٦٦)



الباب التاسع

النيروز وشهداء الكنيسة القبطية



القديسان أباكير ويوحنا عن أيقونة قديمة بكنيسة الروم الأرثوذكس
بأبو قير بالأسكندرية

الفصل الأول

الكنيسة فى مهب العاصفة
أو
ذكرى البطولة والإستشهاد

تميزت القرون الثلاثة الأولى للمسيحية باضطهادات دامية ، انتشرت خلالها المسيحية فى مصر إنتشارا عجيبا فى ظل حديد ونار جلاديها ، ولم نكتف بذلك إذا كان لنا القدح المعلى والفضل الأكبر فى توطيد أركان الأرثوذكسية وتوضيح معالمها وحدودها فى أوائل القرن الرابع بفضل أساقفتناالذين كانوا نجوماً لامعة فى مجمع نيقية المسكونى الأول .

هذا الانتشار السريع العجيب لفت أنظار المؤرخين اللاحقين على إختلاف مشاربهم ، ولا يسع المراقب المحايد إلا أن يعترف بأن انتشار المسيحية فى صميم مجتمع وثنى كان يعتبر لقب « مسيحى » بمثابة جريمة كبرى ، لا يمكن أن يفسر إلا إذا اعتبرنا أن عقيدتها ورسالتها هما عقيدة ورسالة إلهية .

كان على المسيحية أن تجتاز عقبات كثيرة ، فقد كانت جذور الوثنية ممتدة فى العادات والاعتقادات والآداب والقوانين والحياة الخاصة والعامة ، وكانت بذلك مستحوزة على جميع القوى وعلى عطف الجموع مكتسبة احترامهم وخضوعهم، تكونت فى ظلها العائلات وتأسست الإمبراطوريات ، وكان الاعتقاد فى آلهة الإمبراطورية يتساوى والشعور الوطنى إلى حد أن ترك الواحد يخل بالآخر ، وكان التهجم على قوانين تزكيها وتثبتها السيطرة العالمية لروما هو بمثابة أن يتهم المرء بالخيانة العظمى وبمهاجمة كيان الدولة من أساسه وأن يعلن نفسه عدو الشعب ، كانت تلك هى الأفكار السائدة والتى تكوّن سدا منيعا أمام مبشرى العهد الجديد ، كأنه كان من يعتنق المسيحية فى ذاك العهد يحكم على نفسه بنوع من النفى عن الحياة المدنية ، بل عن العالم كله كما تعرفه الوثنية ، فلا يستطيع أن يشترك فى الحفلات العامة الموضوعة تحت رعاية الآلهة ، أو فى المشاهد أو الألعاب التى تعشقها الجماهير ، وكان مبعدا عن

الحفلات الرسمية التى يحضرها الإمبراطور أو مندوبوه وعن كل الولائم العائلية أو العامة التى تقام بإسم الآلهة ، وكانت الجماهير الوثنية تبعاً لذلك ترى فى الحياة المسيحية نوعاً من الانطواء النابع فى كره المجتمع ، ويمكننا أن نقدر فى ذلك ما يقوله ترتليانوس « إن فكرة أن يجبر الانسان على البعد عن المسرات والشهوات ونزوات العصر تباعد بينه وبين المسيحية أكثر من الخوف من الحكم عليه بالإعدام إذا اعتنقها » .

ولأجل أن تقاوم الكنيسة جميع هذه العقبات التى فرضتها عليها المصالح والشهوات والاعتقادات والتقاليد والخزافات مجتمعة فإنها لم تستعمل سلاحاً آخر سوى قوة عقيدتها التى كانت تجذب إليها جموعاً حتى من صميم جلاديها .

وفى عام ٣٠٣ م أرادت الوثنية أن تقف وقفة أخيرة ضد المسيحية ، إذ قام الإمبراطور دقلديانوس بإصدار مراسيم متتالية يحرم فيها على الموظفين اعتناق المسيحية ويأمر بهدم الكنائس وإحراق الكتب المقدسة ، ويجرد المسيحيين من حماية القانون لهم ، وجعل الإرتداد عن الدين المسيحى علامة الأمانة للدولة .

وكان هدفه الأولى أن يسقط اعتبار المسيحية بالإكثار من المرتدين عنها ، ووجه جهوده نحو كنيسة مصر وظل اضطهاده لها عشر سنوات يقص علينا الكثير عن حوادثه يوسابيوس القيصرى أبو التاريخ الكنسى الذى كان فى مصر فى ذاك الوقت فيخبرنا « كانوا يقطعون لهم أوتار القدم اليسرى بالحديد الساخن ، ثم يقلعون العين بسكين ويكوون ما تبقى إلى العصب » . يصف بذلك ما يحدث لمن كان يرفض التبخير للأوثان ، فإذا استمر المسيحى فى الرفض « يدفعونه إلى مذبح آلهة الوثنيين ويضعون فى يده البخور ، وبذلك يعتبر كأنه ارتد عن المسيحية ، وأتوا بشخص آخر على وشك أن يموت ووضعوه على المذبح وعدوه بذلك كأحد المرتدين ، أما إذا صرخ أحد المحكوم عليهم معترفاً بإيمانه فيضربونه على فمه ويسكتونه بقوة الضرب ثم يدعون أنه قد خضع ، إذ كان المهم لديهم أن يعلنوا نجاحهم » ، بل كانت الشرطة تثير القلق والاضطراب بين المسيحيين بإطلاق سراح أحد الكهنة وتعلن أن قد خضع وارتد عن المسيحية .

ومن وقت لآخر كانوا ينفذون الإعدام الجماعى أمام الجماهير لأجل أن يخيفوا من كان لا يزال يدين بالمسيحية ، وكان الجلاد يتفنن فى زيادة بشاعة موتهم .

ويصف يوسابيوس حكم إعدام نفذ فى الاسكندرية فيقول « سبق شهيد من شهدائنا إلى وسط حلبة الصراع ليصارع فى سبيل الدين الحقيقى الوحيد وكان يدعى أغابيوس ، فى مرة سابقة كان قد تعرض وصاحبته تكلا للوحوش المفترسة ، ثم أحضر على الأقل ثلاث مرات من السجن إلى الحلبة مع بعض المجرمين ، وفى كل مرة كان القاضى بعد أن يهدده يؤجل الإلقاء به إلى الوحوش إلى مرة لاحقة سواء عن إشفاق أو عن أمل فى أن تلين قناته ، وفى هذه المرة أتوا به إلى الحلبة بحضور الإمبراطور ، وكأنها العناية الإلهية قد أبقت عليه ليتحقق قول المخلص الذى تنبأ به لتلاميذه أنهم سيقدمونهم أمام الملوك لأجل أن يشهدوا له ، هذا القول قد حققه هو أيضاً ، أتوا به إلى وسط الحلبة مع أحد المجرمين الذى قيل أنه قد حكم عليه لأنه قتل مخدومه ، هذا القاتل عند القيام بتقديمه إلى الوحوش المفترسة وجد جديراً بالرأفة والعناية مثل باراباس فى عصر المخلص ، فضج السيرك بالتصفيق لأن القاتل قد عفى عنه الامبراطور واسترد حريته ، أما المدافع عن إيمانه فقد أحضر أمام الامبراطور ووعدوه بالإفراج عنه لو أنكر إيمانه ، فاعترف بصوت عال أنه ليس لأجل جريمة ارتكبها ولكن لأجل دين رب العالم سيتحمل بشجاعة وإيمان كل العذاب الذى يتعرض له ، وبعد ذلك قدم نفسه للدب الذى أطلقوه عليه ليفترسه بكل سرور ، وعندما تركه كان مازال يتنفس فأرجعوه إلى السجن حتى مكث يوماً وفى اليوم التالى ربطوا حجرا إلى قدميه وألقوا به إلى اليم ، هذا هو استشهاد أغابيوس » .

هذا غير الذين أرسلوا إلى مناجم فاينو فى فلسطين ، وقد نجح البابا بطرس فى أن يدير شئون كنيسته بعض الوقت من مخبئه ، ولكنه سلم نفسه أخيراً وقطعت رأسه وفى هذا الاضطهاد سفك نحو عشرة آلاف مصرى دماءهم فى سبيل نزوة دموية لأحد الأباطرة .

هذه التجربة الطويلة تركت جماعات كثيرة هزيلة كما أفنيت بعضها عن بكرة أبيها ، وهناك أيضاً بعض الضعاف الذين أنكروا إيمانهم وبخروا للأوثان ،

وجاء السلام فإذا به يجر فى أذياله اضطرابات خطيرة أقلقت الكنيسة وكان لبعضها آثار بعيدة المدى ، فالبعض أظهروا أنفسهم كرجال مقاومة ليرضوا غرورهم ، وكل كاهن نجا من الاضطهاد سليماً ومعافى كان محل شك فى وسطه ، ونشأت تجمعات أطلقت على نفسها « جماعات الأطهار » الذين لم ينكروا إيمانهم فى اضطهاد دقلديانوس ، ومن هؤلاء ظهر مليتيوس أسقف أسيوط الذى أراد أن ينافس أسقف الإسكندرية الشرعى وأنشأ كنيسة منشقة مصرية ، وكان الخلاف على مبدأ إعادة المنشقين إلى حضن الكنيسة فالميليتيون كانوا يبغون التشدد فى إيقاع العقوبات الكنيسية عليهم بينما أساقفة القديس بطرس كانوا يدعون إلى مراعاة ظروف البعض وإلى إظهار بعض التسامح نحوهم .

ولقد استطاع الأنبا بطرس بابا الاسكندرية السابع عشر أن يختبىء بعض الوقت ليدير شئون كنيسته فى وسط تلك الفوضى ، ولكن ما علم أن الضغط شديد على الأكليروس كما استشهد البعض منهم حتى قدم نفسه فقبض عليه وقطعت رأسه فتوج بذلك عشرات الألوف من الشهداء ولقب « بخاتم الشهداء » .

لم يقتصر دفاع المصريين عن المسيحية أمام الوثنية بتلك المعارك الرائعة ، فما أن جلس الإمبراطور قسطنطين على العرش وأعطى السلام للمسيحية عام ٣١٣ م حتى قام أجدادنا يردون الصاع صاعين بالقلم والكلمة ، فما أن بلغ القديس أثناسيوس الثالثة والعشرين من عمره حتى كتب دعوة حارة إلى الوثنيين ورسالة عن سر التجسد وفى مجمع نيقية المسكونى الأول فى أوائل القرن الرابع (٣٢٥ م) كان القلب النابض لذلك المجمع الذى وضع أسس الأرثوذكسية السليمة .

وأقام المصريون نصباً خالداً لذكرى هؤلاء الشهداء الذين انتصروا على الوثنية بأن جعلوا تقويمهم يبدأ بعام ٢٨٤ م ذكرى اعتلاء دقلديانوس للعرش وجعلوا إسمه تقويم الشهداء ، وكل عام وأنتم بخير .

الفصل الثانى

رسالة مارمينا فى عيد النيروز

فى عشية عيد الشهداء تشاء العناية الألهية أن أجلس فى قلب مدينة الشهيد العظيم مار مينا العجايبى لأوجه هذه الرسالة وكأنى أستوحى كتابتها من الأرواح التى تحوم فوقى .

كان مار مينا العجايبى وإخوانه وأخواته الذين إستشهدوا فى مثل هذه الأيام منذ أكثر من ستة عشر قرناً ، أمثلة للبطولة والإيمان وإنكار الذات بدمائهم المقدسة وضعوا كنيستنا العظيمة على أسس قوية لم تنل منها الحدثان وتألبات الدهر .

كرمهم الرب فأجرى معجزات على أجسادهم وفى كنائسهم وكرمهم الشعب فوضع تقويما مسيحياً جديداً بإسمهم .

وأميط الطرف فيما حولى من آثار بقيت هى الأخرى تناضل الزمن . فاطأطىء الرأس إجلالاً لتلك القوة الكامنة فى (العجايبى) والتى أنبتت مدينة عظيمة حول قبره سار بحديث عجائبها الركبان وقصدها المرضى من كل مكان .

وأقف فى خشوع أمام بقايا تلك الكنيسة العظيمة وأمام مكان قبر العجايبى لأحيى فى شخصيته فى يوم عيدهم جميع الشهداء .

ونتوجه بأفكارنا إلى قداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس مثال قوة العزيمة والمثابرة وقوة الإيمان ، فما زال منذ نحو ربع قرن وهو ينادى بضرورة إحياء ذلك التراث العظيم وهاهو الرب يشاء أن يجزيه خير الجزاء فيجلسه على كرسى القديس مرقس وهاهو الرب على وشك أن يفجر على يديه مرة أخرى ذلك الماء المقدس الذى كان فيه شفاء الكثيرين .

نرسل إليه من قلب مدينة مارمينا العجايبى فى هذا اليوم العظيم تهانينا القلبية بعيد رأس السنة القبطية ونرسلها كذلك إلى جميع إخواننا فى الكرازة المرقسية أعاده الله عليهم جميعاً فى أحسن حال وحفظ لنا قائدنا العظيم الرئيس جمال عبد الناصر .

مدينة مار مينا العجايبى فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٦٠ .

(جريدة مصر ١٢ /٩/ ١٩٦٠)

الفصل الثالث

في ذكرى البطولة والإستشهاد

كيف إنتصرت الكنيسة
على عوامل الظلم والإستبداد

للمسيحية في مصر تاريخ عجيب ، وأعجب فترة فيه القرون الثلاثة الأولى ، ففيها رغماً عن الإضهادات الدامية ، إنتشرت المسيحية إنتشاراً واسع النطاق في ظل حديد ونار جلاديها ! وما أشرف القرن الرابع حتى كان فيها باقة من الأساقفة كانوا نجوماً لامعة في مجمع نيقية .

هذا الإنتشار السريع لفت أنظار حتى أشد المؤرخين عداء للكنيسة ، فحاولوا أن يرجعوه إلى أسباب طبيعية ، وإدعوا أن الإضطهادات ضد المؤمنين في القرون الثلاثة الأولى لم تكن بمثل القسوة والفظاعة والإستمرار ، التي نحاول أن نلصقها بها . كان هذا رأى بعض مؤرخي القرن الثامن عشر ، ومرت الأيام وتفتحت الأذهان وإنتشرت الدراسات التاريخية ، فإذا بالحقائق تزداد وثوقاً ووضوحاً .

ولا يسع المراقب المحايد إلا أن يعترف بأن إنتشار المسيحية في صميم مجتمع كان يعتبر فيه لقب «مسيحي» ، بمثابة جريمة كبرى ، هي معجزة ، أو بعبارة أخرى لايمكن أن يفسر إلا إذا إعتبرنا أن عقيدتها ورسالتها هي عقيدة ورسالة الهبة ، إذ إستعرض أمامه العقبات الكثيرة أمام إنتشارها . فالوثنية كانت جذورها ممتدة في العادات والمعتقدات والآداب والقوانين والحياة الخاصة والعامة ، وكان من الطبيعي أن تكون جميع القوى في جانبها وأن تستحوذ على عطف الجماهير ، مكتسبة إحترامهم وخضوعهم . ورغماً عن ضعف الوثنية من الناحية الخلقية ، وعن ضعف عقيدة الطبقات المتنورة فيها ، فلا يغرب عن بالنا أن غالبية الجماهير في بدء ظهور المسيحية . كان يربطها بعبادة الأوثان رباط قديم توارثته . وكان على العهد الجديد ليس فقط محاربة الآثار العميقة لعهود سابقة والتعاليم والعقائد الوثنية التي رضعها الأفراد مع اللبن ، بل كان ينظر إلى الوثنية ذاتها كدين الفطرة الذى يرجع في أصله إلى الماضي السحيق

والذى تكونت فى ظله العائلات وقامت الإمبراطوريات . وكان الإعتقاد فى آلهة الإمبراطورية يتساوى والوطنية ، إلى حد لا يستطاع معه أن يترك أحدهما دون الآخر . وكان التهجم على تقاليد تزكيها قوانين منذ قرون عديدة ، وتثبتها القوة المنتصرة والسيطرة العالمية لروما ، هو بمثابة أن يتهم المرء بالخيانة العظمى ، وبمهاجمة كيان الدولة من أساسه ، وأن ينظر إليه كعدو للمجتمع . هذه الحالة الفكرية والإجتماعية كانت تكوّن حاجزاً منيعاً يمتد إلى العمق ، ويخيل لمن يتأمله أن جميع جهود رسل العهد الجديد ستتكسر أمامه . لم تكن هذه هى كل العقبات التى كانت تقف حائلاً دون إنتشار المسيحية ، بل كانت هناك عقبات أخرى تنبع من داخلها ، تنبع من صرامة قوانينها الأخلاقية وما تدعو إليه من تجرد ثم من الأسرار التى تحيط بعبادتها . وكان من يعتنق المسيحية فى ذاك العهد يحكم على نفسه بنوع من الإبتعاد عن الحياة المدنية ، بل عن العالم كله كما تعرفه الوثنية . فلا يستطيع أن يشارك فى أعياد الآلهة ، أو فى المشاهد والألعاب التى تعشقها الجماهير ، أو أن يتلذذ بمشاهدة عراك المصارعين الدموى ، كما كان مبعداً أيضاً عن حضور الحفلات الرسمية التى يحضرها الأباطرة وعن كل الولائم العائلية أو العامة التى تقام بإسم الآلهة . كل ذلك جعل الجماهير الوثنية ترى فى الحياة المسيحية نوعا من الأنطواء النابع من الكراهية للمجتمع ، وكانت هذه الأفكار الخاطئة تنفرها من المسيحية ، وفى ذلك يقول ترتليانوس :

« إن فكرة أن يجبر الإنسان على البعد عن المسرات والشهوات ونزوات العصر ، تباعد بينه وبين المسيحية ، أكثر من الخوف من الحكم عليه بالإعدام إذا إعتنقها » .

إذا جمعنا جميع هذه العناصر التى تجعل الكنيسة على طرفى نقيض مع الوثنية ، أمكننا بسهولة معرفة ذلك الإنفجار العام من نوبات الإنتقام والإضطهاد والتعذيب الذى إتسمت به القرون الثلاثة الأولى .

أما الكنيسة وقد فرض عليها أن تقاوم جميع هذه العقبات التى فرضتها عليها المصالح والشهوات والإعتقادات والتقاليد والخرافات مجتمعة ، فإنها لم تلجأ إلى

سلاح آخر خلاف قوة عقيدتها ، وكان سلاحاً جباراً جذب إليها جماعات حتى من صميم جلاديها .

وكانت حياة المسيحيين المثالية وصفاء ضمائرهم وإحتقارهم لكل ما كان يستولى على إهتمام غيرهم والحماس الذى كانوا يستقبلون به الموت كمن كان على يقين أنه يذهب إلى حياة أفضل وأبقى ، كل ذلك كان يولد إنطباعاً عميقاً على نفوس صيرتها الوثنية عبدة لشهواتها ولحواسها ، فتشعر رغماً عنها أنه توجد فى هذه العقيدة الجديدة قوة للتجديد الروحى ولتأهيل القيم الإنسانية .

ويصف أوسابيوس حماس المسيحيين لعقيدتهم فى زمانه فيقول : « وكان غالبية تلاميذ الرسل هؤلاء ، بعد أن يتقبلوا المسيحية ، يذهبون إلى أقاصى البلاد ليبشروا أهلها بإسم يسوع المسيح ، ناشرين فى كل مكان الأناجيل ، وكان الألوف من الوثنين الذين يسمعونهم يفتحون قلوبهم لعبادة الإله الحق » .

وكانت الإضطهادات عوضاً عن أن تباعد بين المسيحيين وعقيدهم تزيدهم تمسكا بها فتنتج عكس المقصود ، وفى ذلك يقول القديس يوستينوس « كما أنه تقلم الكرمة لأجل أن تنمو البراعم أكثر قوة وأغزر ثماراً ، كذلك يفعل بنا الوثنيون رغم إرادتهم ، إذ أن الشعب المسيحى فرع غرسه الله الآب بواسطة يسوع المسيح المخلص » .

كان حد السيف أهم واسطة لجأت إليه الوثنية لتقضى على المسيحية ، ولكن الكتاب والفلاسفة الوثنيين حاولوا أن يستعملوا أقلامهم ليقوموا برسالة تطهير الأفكار من عقيدة يحاول الأباطرة والحكام محوها بعد أن إختلطت بالدماء .

ونذكر على سبيل المثال الفيلسوف كلسس الذى كان أول من ألف كتاباً ضد المسيحية بعنوان «منهاج الحق» وحشاه بإتهامات ضد المسيحية ومؤسسها ، وتصدى له ذلك المصرى الصميم — ومن غير مصر كان يدافع عن المسيحية فى ذاك الوقت ؟ — والعبقرى العظيم فيلسوف المسيحية الأول وواضع أسس علم اللاهوت أوريجانوس .

وحاول الفلاسفة أن يهاجموا أيضاً العجائب التى كانت تتم على قبور

الشهداء ، ومن عجب أنه لم يحاول أى منهم أن ينكرها ، بل كانت كل جهودهم موجهة نحو إيجاد تفسير لها ترتاح إليها أفكارهم !

وتلقف المسيحيون حملة الأقلام هذه الحملة وإنبروا ينشرون مؤلفات ورسالات تحوى إما دعوة إلى الأباطرة والحكام ليسلكوا نهجاً أكثر مسالمة نحو المسيحيين ، وإما تعريف المثقفين بالمسيحية المفترى عليها والمجهولة للعامة ، وإما إزاحة الستار عن نقائص الوثنية .

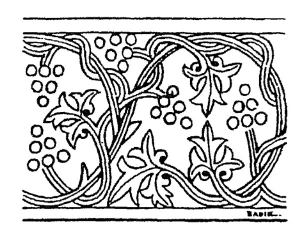
لم يكن على الكنيسة فى ذاك الوقت أن تدافع عن نفسها ضد العدو الخارجى فقط ، بل كان هناك أعداء داخليون أيضاً منذ البدء لا يقلون خطورة ، ولكن الكنيسة عرفت كيف تكسر شوكتهم وتحض أبناءها ضدهم ، وكان إنتصار الكنيسة عليهم أهم علامة مميزة لقوتها التى تستمدها من العلى . وقد وضع أساقفتها أسساً تكفل أوضاعاً سليمة على أسس روحية وعلمية ، إذ إستعانوا بعلماء مدرسة الإسكندرية أمثال بنتينوس . وإكليمنتس الإسكندرى وأوريجانوس لإعداد من يريد إعتناق المسيحية ، وكان هؤلاء العلماء يتعهدونهم ولا يقدمونهم إلى الكنيسة لتعميدهم إلا بعد إمتحان جدى عميق ، وكانوا قبل العماد يمضون وقتاً فى العزلة والصوم والصلاة ، وكان المؤمنون يشاركونهم فى هذه الرياضة الروحية ترحيباً وتوثيقاً للإتحاد والمحبة . وبعد دخولهم إلى رحاب الكنيسة ، كان للكنيسة ترتيب آخر لأجل رباط المحبة بينها وبين أبنائها لتجعلهم يشعرون بمشاركة يومية معها ، فأدخلت نظام «الأفلوجيا» أو ما يسمى اليوم «لقمة البركة» ، وهو أن يتقاسم المؤمنون بعض الخبز المبارك الذى إستعمل جزء منه فى خدمة القداس : وكذلك موائد « الأغابى » ، وبذلك يشعر الجميع بإتحادهم فى إيمان واحد ورجاء واحد .

هذه هى الكنيسة فى مجموعها العقائدى والتعليمى ، التى تكسرت عندها جهود الأباطرة والحكام الرومان ، وكان لها حياة داخلية وعلوية لا يستطيع الوصول إليها سيف الجلادين أو سخط الجماهير أو مجادلات الفلاسفة أو القوانين العدائية ، وكما خرج يسوع من قبره المختوم ، إنطلقت الكنيسة منتصرة رغم العقبات والأعداء ، لتمتلك أخيراً على العالم .

حتى الأباطرة إعتنقوا الدين الجديد الذى غير وجه العالم ، وعندما رأى قسطنطين الصليب النورانى ، لم يكن هذا الصليب فى واقع الأمر إلا دماء الآلاف المؤلفة من المسيحين نمت فى الظلام ثم إندفعت كنافورة نحو السماء ، ثم ظهرت للإمبراطور تحت هيئة الصليب المنتصر .

هذه الحرية العامة التى نالها المسيحيون بعد ذلك إنما هى ثمرة حرية أخلاقية فرضوها على أنفسهم لم يعرف لها العالم مثيلاً ، وإذا كانت المسيحية قد إتشحت بالثوب الأرجوانى بعد كل الدماء التى لطخت بها ، فإنها لم تترك يوماً بعد ذلك القلم والكلمة .

(مجلة مدارس الأحد ـــ سبتمبر ١٩٦٤)



الفصل الرابع

فى ذكرى الشهداء

طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات

(متى ٥ : ١٠)

تمر الأيام تباعا سراعا وتعود بنا إلى يوم نقف فيه هينهة خاشعين نحى ذكرى أبطال غيروا وجه العالم بصمودهم العجيب أمام مستعمر غاشم أراد أن يحول بينهم بين عقيدة ومبادىء رأى فيها زوالا لسلطانه وقضاء على قبضته عليهم ، ورأوا فيها وسيلة للخلاص منه ومن الخطية وطريقاً إلى الحياة الأبدية .

بدأ الرومان إضطهادهم للقبط منذ القرن الأول والمسيحية لا تزال فى المهد ، إذ إنتشرت بينهم إنتشار النار فى الهشيم . ولقد بدأت هذه الإضطهادات فى شكل مناوشات ومشاكسات بين طوائف السكان ، تساند الحكومة الوثنيين منهم ، ولكن ما لبثت أن إشتدت ، ونظمتها الحكومة حرباً علنية منذ أوائل القرن الثالث عندما قوى ساعد المسيحية وإستطاعت الوقوف ، وكان الرائد الأول فى ذلك الهجوم المنظم الإمبراطور سبتيموس ساويرس حوالى عام ٢٠٢ م وما لبث أن إقتفى آثاره الأباطرة ديسيوس وفالريان وأدريان ودقلديانوس ، الذين قاموا فى الواقع بحروب سياسية كانت تنتهى عادة بما يشبه معاهدات الصلح ، وكانت الكنيسة تخرج من هذه المعارك كاسبة ظافرة إلى أن إعترف الأباطرة أخيراً بحقها فى الوجود وأنفهم فى الرغام عام ٣١٣ م عندما أشركها الإمبراطور قسطنطين معه فى الحكم ووضع حداً للإضهادات .

وتمتد حقبة الإضطهادات هذه بين عامى ٦٤ م و ٣١٣ م أى لا تتعدى قرنين ونصف من الزمن ، وإذا علمنا أن سنى الإضطهاد كانت متعادلة مع سنى التسامح ، إذ بلغ مجموع الأولى ١٢٩ سنة والأخيرة ١٢٠ سنة ، أمكننا أن نكوّن فكرة عن مقدار الدم الذى سفكناه لنشترى به للعالم إنتصار المسيحية .

ويقدر أوسابيوس القيصرى ــ أبو التاريخ الكنسى ــ عدد الشهداء فى

تسع سنوات ، حكم دقلديانوس فقط ، بحوالى ١٤٤٠٠٠ ، وكان حضوره إلى الأسكندرية بعد هذا الإضطهاد . صحيح أن كل الكنائس عانت إضطهادات ، ولكن منذ ظهور المسيحية فى الوجود لم تر عين ولم تسمع أذن بسلسلة من الإضطهادات الشنيعة الفظيعة مثل ما حل بالبلاد المصرية . وقد خلد القبط تلك الأحداث الدامية بأن أرّخوا بها تاريخهم ، وها هم اليوم بعد ١٦٨٢ عاما يقفون مرة أخرى فى صمت وخشوع ، بل فى فرحة النصر ونشوته يستقبلون عاماً آخر بإذن الله .

ورغماً عما قاسته الكنيسة المصرية مما فاق إلى حد كبير ما قاسته أية كنيسة أخرى ، فإنها لم تفقد بسمتها ورجاءها فى حياتها الدينية ، ونتبين ذلك فى تاريخها الطويل على مر العصور ، بل نراه أيضاً إذا دخلنا أية كنيسة من كنائسنا الأثرية فى أية جهة من جهات القطر ، فلا نرى أثراً لجماجم أو هياكل بشرية — كما فى بعض الكنائس الغربية — تبعث فى النفس الإنقباض وشعور الأسى والحسرة ، كما لانرى صوراً تمثل حوادث التعذيب والإستشهاد ، بل تطل علينا صور شهدائنا من أعلى حجاب الهيكل وهم يبتسمون بهدوء ، وكأنى بهم قد نسوا منذ أمد بعيد ذكرياتهم المؤلمة ! ونقرأ فى ملامحهم كيف كان أجدادنا يقابلون هذه الموجات المتلاحقة من الشدائد بثبات وصبر وجهاد وقوة إحتمال وأيضاً بإتحاد ومحبة ورحمة .

قلت إن سنوات الهدوء بلغت ١٢٠ سنة ، هذه السنوات كانت سنوات جهاد آخر للكنيسة ، وكانت هذه الإضطهادات تشحذ همتها وتبعث فيها حيوية خاصة . فلم تقنع الكنيسة القبطية بنشر الإيمان المسيحى بين بنيها ، بل عملت على نشر هذا الإيمان فى الأقطار والبلدان التى لم تكن قد آمنت ، فكانت بذلك أول كنيسة تبشيرية ، ففى تلك الأيام كان المسيحيون فى مختلف الأصقاع جماعات صغيرة متفرقة . أما مسيحيو مصر فكانوا هيئة منظمة بلغت من القوة حداً كبيراً مما جعل المسيحية الدين الرسمى للبلاد عام ٣٨١ م ، ولهذا يحق لمصر أن تفخر بأنها كانت أول قطر مسيحى فى العالم . وقد أرسلت مبشريها إلى فرنسا وسويسرا وأسبانيا والبرتغال وإيرلندا وبريطانيا شمالاً وإلى البلاد العربية والهند جنوباً .

ليس ذلك هو كل ما قدموه للعالم المسيحى ... فمصر التى خرجت منها فى قديم الزمن النظم التى قادت الإنسانية المتمدينة وقوانين الفضائل والأخلاق ، التى تفوقت عليها الفضائل والأخلاق المسيحية ، إستطاع أبناؤها فى غمرة تلك الشدائد أن يتلقفوا كل ذلك التراث وأن يهدوا إلى العالم علم اللاهوت والرهبنة .

(مجلة مدارس الأحد ــ سبتمبر /أكتوبر ١٩٦٥)



الفصل الخامس

رأس السنة المصرية
١٦٨٣ للشهداء

منذ أكثر من سبعة آلاف سنة ، وقبل أن تظهر أية مدنية أخرى فى الوجود ، إستطاع المصريون أن يضعوا مقياساً للزمن من أدق وأضبط المقاييس ، وعنه أخذ الشرقيون والغربيون سنتهم الشمسية ، وضعه الرجل العظيم « توت » الذى يظن أنه أصلاً من (الأشمونين) ، والذى ألهه قدماء المصريين فى العصر الوثنى ودعوه رب العلم والقلم ، فهو الذى قسم الزمان ووضع الحروف الأولية قبل أن تعرف أية أمة فى الوجود الكتابة أو تقسيم الزمن ، ولذا قال المؤرخ الإغريقى هيرودوت والملقب بأبى التاريخ « وأما ما يتعلق بأمور البشر فالجميع على إتفاق فيه وهو أن المصريين أول من أبدع حساب السنة وقسموها إلى إثنى عشر قسماً بحسب ما كان لهم من معلومات بالنجوم » . وقد وضع « توت » أساس تقويمه ، ما لاحظه من أن الشعرى اليمانية أو (سيريوس) وهى أنور نجوم القطب الأكبر بل أنور الثوابت جميعها تشرق وتغرب مقارنة للشمس فى إبتداء زمان الفيضان النيلى الذى عليه تتوقف معيشة المصريين وثروتهم ، فجعل هذا الزمان مبدأ السنة المصرية ، وقد حفظ المصريون له هذا الجميل فدعوا الشهر الأول من السنة بإسمه (توت) ، وكان إحتفال مدينة الأشمونين برأس السنة يستمر طوال الشهر إكراماً له .

والمتأمل جيداً فى كيفية تقسيم السنة يجد أن المصريين راعوا فيها مصلحتهم فجعلوها ثلاثة فصول ، يحتوى كل منها على أربعة أشهر ، فالفصل الزراعى يتألف من توت وبابه وهاتور وكيهك ، وفصل الحصاد من طوبة وأمشير وبرمهات وبرموده ، وفصل الفيضان من بشنس وبؤونة وأبيب ومسرى ويتبعها النسىء . ولذلك ما زال الفلاح وكليات الزراعة يتبعون فى أعمالهم هذا التقويم إلى اليوم .

إحتفل المصريون بيوم رأس السنة فى العصر الفرعونى إحتفالات جامعة بين البهاء والعظمة والسرور يتصدرها الملك أو من ينوب عنه ، ليس فقط لأنه كان

عيداً قومياً أصيلاً يشترك فيه الجميع ، ولكن أيضاً لأن الكهنة قد ألبسوه حلة دينية بتأليههم (توت) ، ثم بتأليه النيل الذى يفيض على مصر بالخيرات والوجود . ولذلك أقاموا معابد خاصة لهذا الإحتفال ، وهيكل دندرة العظيم هو الأثر الباقى والوثيقة التاريخية التى تشهد بروعة هذا الإحتفال شرع فى إقامته بطليموس الثالث عشر (٤٧ــ٤٣ق.م) ليتقرب إلى المصريين ، وتم بناؤه فى عهد طيباريوس قيصر (١٤ ــ ٣٧ م) ، وفيه إثنا عشر عاموداً ضخماً يمثل كل واحد منها شهراً من أشهر السنة .

وبهذه المناسبة نود أن نذكر مواطنينا أنه قد نقل من هذا المعبد عام ١٨٢٢ م إلى باريس الحجر الشهير الفريد المنقوش عليه الأبراج الفلكية والذى أودع وقتها المكتبة الأهلية هناك .

وعندما دخلت المسيحية مصر حافظ المصريون الوثنيون منهم والمسيحيون على الإحتفال بهذا العيد بإعتباره عيداً قومياً لا دينياً ، إذ أن السنة ليست من وضع الأديان بل من وضع رجال العلم للمقياس الزمنى . وكان الجميع يتبادلون فيه الزيارات ويقصد كل من الوثنى والمسيحى إلى معبده للشكر على إجتياز العام المنصرم والوصول سالمين إلى بدء عامهم الجديد . ومن العجيب أن الدولة الرومانية الوثنية الحاكمة لم تتعرض للإحتفال بهذا اليوم للمسيحيين بإعتباره عيداً وطنياً وليس دينياً ، إلا أن الدولة الرومانية ظلت تضطهد المسيحيين طوال القرون الأربعة الأولى وقد بلغ هذا الإضطهاد ذروته فى عهد الإمبراطور دقلديانوس دون شفقة أملاً فى أن يمحو المسيحية من مصر ، فقام المصريون مستقتلين مطالبين بحريتهم الدينية وجادوا بالنفس والنفيس وإستشهد منهم الألوف وأخيراً قدم نفسه البابا بطرس البطريرك السابع عشر فداء عن رعيته . هذه الحوادث إعتبرها المصريون أهم ما يجب أن يتذكره أبناؤهم وأحفادهم ليعرفوا بأن أجدادهم لم يشتروا حريتهم بثمن رخيص بل بمال ودماء أبرياء أصفياء إستشهدوا فى سبيل المحافظة على دينهم ، فجعلوا بداية عهد دقلديانوس بدءاً لتاريخ دعوه بتاريخ الشهداء .وجعلوا بدأه أول توت عام ٢٨٤ م ، وهكذا جعلت المسيحية لهذا اليوم معنى خاصاً بها ، وأصبح التقويم المصرى يخلد أيضاً بطولة شعب مصر فى الجهاد والثبات على المبدأ .

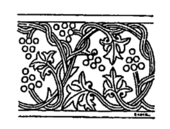
وعندما فتح العرب مصر لم يمنعوا الإحتفال بهذا العيد ، بل شاركوا فيه المصريين ، وكان معدوداً من الأعياد والمواسم الرسمية فى عهد الفاطميين ، فيذكر المقريزى فى خططه « وكان النوروز القبطى فى أيامهم من جملة المواسم فتتعطل فيه الأسواق ويقل فيه سعى الناس فى الطرقات وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم والرسوم من المال وحوائج النيروز » . ويذكر هذا العيد غيره من المؤرخين . ونظراً لحدوث بعض الحوادث المكررة من الفئات المنحطة فقد منع الإحتفال به فى أواخر القرن الرابع عشر أيام السلطان برقوق .

وإقتصر الإحتفال به على صلوات الشكر ترفع فى الكنائس ، وإحتفال الجمعيات القبطية به .

أعاده الله على بلادنا العزيزة فى سلام ومحبة ورفاهية فى ظل قائدنا ورائد السلام البطل الإنسان الرئيس جمال عبد الناصر .

ونرفع تهانينا القلبية إلى الجالس السعيد على كرسى القديس مرقس الإنجيلى قداسة البابا كيرلس السادس ، الرب يثبته على كرسيه سنين عديدة .

(وطنى ٤ /٩ /١٩٦٦)



الفصل السادس

أقدم عيد لأقدم أمة ...

النيروز أكليل السنة

كان فى مقدمة ما اهتم به قدماء المصريون تقسيم الزمن لترتيب الاعمال ترتيبا يدور عليه محور تقدم بلادهم ، فاليهم الفضل الاول فى تقسيم الزمن ، وفى ذلك يقول المؤرخ الاغريقى هيرودوت (٤٨٤ ـــ ٤٠٦ ق . م) « أما ما يتعلق بأمور البشر فالجميع على اتفاق فيه ، وهو أن المصريين أول من أبدع حساب السنة وقسموها الى اثنا عشر قسما ، بحسب ما كان لهم من معلومات بالنجوم ... » الى أن قال « أما المصريون فيحسبون الشهر ثلاثين يوما ويضيفون خمسة أيام لكى يدور الفصل ويرجع على نقطة واحدة .. » ، فامام المؤرخين لم يفته الاعتراف بحذق المصريين فى ابداع التقويم كما وصل الينا واستعملته الامم المتمدينة بمايشهد لهم ببراعتهم فى علم الفلك ، هذا مادعا جميع أساقفة الامم المسيحية المجتمعين فى المجمع المسكونى الاول عام ٣٢٥ م يوكلون إلى اسقف الاسكندرية مهمة تعيين يوم عيد الفصح .

وقد احتفل المصريون بيوم النيروز أو « اكليل السنة » كما يسمى فى اللغة المصرية ، منذ حكم أول ملوكهم الملك مينا إن لم يكن قبل ذلك ، وكان الاحتفال من الاحتفالات العظيمة ، يودعون فيه عامهم المنصرم ، ويستقبلون عاما جديدا ، يرجون فيه أن يكون نيلهم بالغا حده فى الفيضان ، ذلك النيل الذى هيأ للمدنية أن تظهر لأول مرة على وجه الارض ، فكان الأمير والحقير والغنى والفقير وفى مقدمتهم الملك ، يحتفلون به ، ليس فقط لانه كان عيدا وطنيا أصليا ، بل لان الكهنة البسوه حلة دينية ايضا بتأليهم توت مبدع هذا التقسيم ثم بتأليه النيل .

وقد جعلت الدلالة على السنة عند قدماء المصريين سعفة النخل كما ترى مرسومة على الاثار . وقد رمزوا بها للاسباب الاتية :

اولا : اشارة الى التجديد والثبات ، اللذين هما من طبيعة النخل والسنة .

ثانيا : لان النخل فى كل دورة قمرية ينبت قلبا أو غصنا ، ولما يتم النخل اثنا عشر غصنا تتم السنة أيضا .

ثالثا : اشارة الى الاستقامة والسمو والطهارة .

رابعا : لان غصون النخيل تشير إلى النصرة والفرح والبهجة ... فعادة أكل البلح فى هذا اليوم قديمة منذ أيام قدماء المصريين ، وهى تشير إلى هذه المعانى .

ومع أن مصر قد حكمها الاجانب بعد ذلك قرونا طويلة ، فلم يبطلوا عوائد المصريين المألوفة فى الاحتفال بهذا اليوم الذى كانوا يعطلون فيه الاعمال ويتبادلون الزيارات ويقضونه فى مرح وبهجة ، ويقصدون المعابد لتمجيد الرب على ما انعم به عليهم من اجتياز عام منصرم والوصول سالمين الى بدء عام جديد . ورغما عن اضطهاد المسيحيين فى العصر الرومانى ، سواء قبل أو بعد مجمع خلقيدونية ، والذى ذهب فيه ألوف من شهداء المصريين ، فلم يتعرض أحد لهذا العيد ، لانه لم يكن عيدا دينيا ، بل عيداً وطنياً، كان يجب على كل مصرى أن يشترك فيه ، لانه هو الباقى من آثار الاقدمين ، فهو أقدم عيد لاقدم أمة :

حقا ان الشعب الذى رحب بالمسيحية واقبل عليها بكل جوارحه ، ذاق الامرين من الاضطهادات فى العصر الرومانى ، ذهب ضحيتها اعداد لا حصر لها ، ولكن بالرغم من هذه الاضطهادات ، أو بعبارة أخرى بفضل هذه الاضطهادات ، أضاءت كنيسة مصر فى التاريخ بمجد لا يبارى . أنها لقائمة طويلة أولئك الذين لطخت الدماء جباههم فنالوا اكليل الشهادة ! رجال ونساء واطفال واغنياء وفقراء وأساقفة وكهنة ورهبان وراهبات وحكام وموظفون وجنود وفلاحون ، فتقدسوا بدماء أسمى شهادة !

واكثر هؤلاء الشهداء إستشهدوا فى عصور ثلاثة من الاباطرة اضطهدوا المسيحية فى مصر بنوع خاص ، وهم سبتيموس ساويرس (١٩٣ ـــ ٢١١م) وديكيـــوس(٢٤٩ـــ ٢٥١م) وديو كلديانـــوس(٢٨٥ـــ ٣٠٥م) ...... أما دماء هؤلاء الشهداء فقد سالت معظمها على اديم الاسكندرية ، وانطينوى المعروفة الآن بالشيخ عبادة بجوار ملوى ، ونظرا لجفاف الارض فى الوجه القبلى ، فان قطع النسيج القبطى الشهيرة فى متاحف العالم أخذت من أكفان الشهداء فى تلك المنطقة .

ولما كانت هذه الحوادث المهمة من أهم ما يجب أن يتذكره القبط على مر القرون ليعلموا بأنهم لم يشتروا الحرية الدينية بثمن رخيص ، بل بمال ودماء أبرياء اصفياء استشهدوا فى سبيل المحافظة على دينهم ، لم ير القبط أحسن من أن يتخذوا بدء تولية الطاغية ديوكلديانوس بدءا لتاريخ دعوه تاريخ الشهداء تخليدا لذكراهم .

يخبرنا المقريزي عن الاحتفال بهذا العيد فى العصر الفاطمى فيقول فى خطيطه « وكان النيروز القبطي فى أيامهم من جملة المواسم ، فتتعطل فيه الاسواق ويقل فيه سعي الناس فى الطرقات ، وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم والرسوم من المال وحوائج النيروز » .

وفى القرى ، كان أهل الريف على اختلاف دياناتهم الى وقت قريب يخرجون فى صباح هذا اليوم ويأخذون أبناءهم ومواشيهم الى النهر للاستحمام وينقلون المياه لرشها فى بيوتهم مبتدئين بالابواب الخارجية ، تيمنا وتبركا بمياه نيلهم ، مما يدل على شدة محافظة المصريين على الاحتفاء والاستبشار بهذا اليوم الذى داوموا على الاحتفال به منذ أكثر من خمسة آلاف سنة .

وفى هذه الذكرى ، ذكرى الشهداء ، نطاطيء الراس اكراما واجلالا لذكرى شهداء آخرين من إخوتنا وابنائنا ، استشهدوا فى ميدان الشرف ، دفاعا عن الحق والعدل والسلام ، فكتبوا بدمائهم صفحة أخرى مجيدة فى تاريخ مصر والانسانية .

(وطنى ١٣ /٩ /١٩٧٠)

البابا كيرلس السادس يصلى فى عيد النيروز

أحتفل أول أمس بعيد النيروز — رأس السنة القبطية لعام ١٦٨٧ للشهداء — فأقيمت الصلوات فى جميع الكنائس . وأدى قداسة البابا كيرلس السادس صلاة رفع بخور عشية مساء الخميس وصلاة القداس الإلهي بالكاتدرائية المرقسية صباح الجمعة وأختتمت الصلوات بالدعاء من أجل نصرة الوطن وسلام العالم .

وإستقبل قداسة البابا فى المقر البابوى يوم الجمعة المهنئين برأس السنة القبطية الجديدة .

وطنى ١٣ /٩ /١٩٧٠ م

الفصل السابع

ســــيرة

« أباكير ويوحنا »

كان بجوار مدينة كانوبيس (أبو قير الحالية) معبدان وثنيان ، أحدهما للأله سيرابيس ، والآخر شرق الأول للألهة ايزيس . وفى عهد الأنبا ثيؤفيلس البابا الثالث والعشرين تخرب المعبد الأول وأقيمت كنيسة باسم الأنجيليين الأربعة ، وكان يتمنى البطريرك أن يتحول معبد ايزيس إلى كنيسة ، ولكنه تنيح قبل أن يحقق أمله .

وعندما جلس القديس كيرلس الكبير على كرسى الاسكندرية ، شرع يحقق أمل خاله العظيم ، وهو بذلك يسدد ضربة قاضية للوثنيين فى ضواحى المدينة ، إذ كان معبد ايزيس عزيزاً عليهم ، وينسبون إليه معجزات كثيرة ، فكان يجذب إليه بعض المؤمنين الحديثى الايمان . كان يعرف صعوبة تلك المهمة فأكثر من الصلاة والصوم ، طالباً الألهام فى كيفية تحقيق أمنيته ، دون أن يولد احتكاكاً بين الوثنيين والمسيحيين فى المدينة ، وإذا برؤيا تظهر له تنير له الطريق بها يبهر الشعب بالمعجزات الألهية ، ويجابه تمثال ايزيس بفضائل معجزات خدام الرب . أمرته الرؤيا بأن ينقل باحتفال كبير من الاسكندرية إلى كنيسة الانجيليين بقايا القديسين أباكير ويوحنا ،اللذين استشهدا قبل ذلك بنحو قرن فى كانوبيس ، وعند ذلك سيظهر من المعجزات ما ينافس الدجل والخداع القائمين هناك .

وقام بهذا النقل فى يوم ٢٨ يونيو من عام ٤١٤ م ، فأخرج بقايا القديسين من مدفنهما تحت كنيسة القديس مرقس حيث رقدا ، ونقلهما فى احتفال مهيب إلى شرقى مدينة كانوبيس ، وفى اليوم الثانى من شهر يوليو فى ختام هذا الاحتفال قام البابا كيرلس بالقاء كلمة حفظها لنا المؤرخ سوفرنيوس فقال « أن شهيدينا قد أعطى لهما موهبة الانتصار على ابليس وطرد الأرواح النجسة كمكافأة لذلك الحب الذى يجمعهما بالسيد المسيح . فليأت هنا من كان يذهب إلى مكان آخر ، ليأت إلى هنا حيث يجوز نعمة الشفاء بدون

مقابل . لا أحد هنا يخترع الأكاذيب ويعطى وصفات ، ليأت إلى هنا المسيحيون ، بعد أن يطأوا بأقدامهم وعود السحرة الغاشة ، ليأتوا إلى الأطباء الحقيقيين الذين أعطاهم الرب القدرة على الشفاء » .

ومنذ ذاك اليوم حكم على ايزيس بالاختفاء ، فهدم تمثالها ومذبحها ، ولم يلبث معبدها بعد ذلك أن تهدم ، تاركاً المجد والعمار لكنيسة القديسين ، ومازالت كنيستنا إلى اليوم تحيى ذكرى ذلك العمل العظيم .

والقديسان أباكير ويوحنا تضمهما كنيسة مصر فى الصف الأول من قديسيها . وقد قربهما إلى قلوب معاصريهما كرم محتدهما ، وقوة شخصيتهما ، ونبل مهنتهما ، وعظمة استشهادهما ، ولذلك فقد شاركا مارمينا العجايبى فى التكريم الشعبى العظيم ، خصوصاً لأجل تلك العجائب الكثيرة التى جذبت الجماهير إلى مينوتيس ، بعد أن نقل إليهما رفاتهما الأنبا كيرلس .

وكان صيتهما قد ذاع فى القرن الثامن حتى أن القديس يوحنا الدمشقى مدحهما فى عظته الثالثة عن الايقونات ، وذكرهما المؤرخ سوفرنيوس بطريرك أورشليم بكل تكريم فى ميمر له ألقاه أمام أباء مجمع نيقية الثانى .

ولقد ولد القديس أباكير بالاسكندرية فى النصف الأخير من القرن الثالث الميلادى عندما أرادت الوثنية أن تقف وقفة أخيرة أمام قوة المسيحية الجارفة ، فى عهد الامبراطور دقلديانوس وكان أبواه مسيحيين تقيين ، انشآه تنشئة مسيحية مثالية ، ولما بلغ أشده أرسله والده إلى مدرسة الاسكندرية ليدرس الطب ، وبعد تخرجه مارس مهنته فى مدينته . ونما إلى الحاكم سريانوس حماسه للمسيحية فأصدر أمراً بالقبض عليه ، فترك المدينة ، وجعل بينه وبين سريانوس جبال الصحراء الشرقية ، حيث تنسك . وهناك لم يترك مهنته ، ولكن مرضاه قد تغيروا وكذلك علاجه ، وذاع خبر الشفاء الذى يجريه بواسطة صلاته ، وتعدى صيته الصحراء إلى فلسطين وسوريا وبلغ أقاصى بلاد ما بين النهرين ، حيث جذب إليه زميله يوحنا الذى لم يفارقه فى مجده وموته .

كان فى مدينة أورفا بالعراق حامية رومانية على رأسها قائد يمتاز بتقواه كما يمتاز بشجاعته وكانت نفسه تتوق منذ زمن إلى استبدال ملابس القائد بلباس

الناسك ، وانتهز أول فرصة فاستقال من عمله وذهب إلى أورشليم لزيارة الأماكن المقدسة ومن ثم ذهب إلى الصحراء ليقابل من أثر صيته على حياته ، وكان مناه أن يتحول يوماً ما إلى صورة طبق الأصل من كير .

فى ذاك الوقت كانت مصر تقاسى الأمرين ، واستشهد الكثيرون ومنذ اللحظة الأولى التى بدأ فيها دقلديانوس يوجه ضربات للمسيحية كان يضع فى يده أقوى سلاح لنشر دعوتها ألا وهو سلاح البطولة الذى يستهوى النفوس ، وكان الشهداء هم المنتصرون الحقيقيون فى هذا النضال الرهيب فلقد كان للبطولة الدور الحاسم فى آخر الأمر . لقد دفع الشهداء دماءهم ثمناً لانتصار المسيحية ولقد اشتركت المدن وقرى الدلتا الخضراء ، ومناطق طيبة الموحشة ، فى ارسال الكتائب إلى ذلك الجيش المظفر من الشهداء ، الذين خرجوا ميتهجين من هذا العالم ، مخضبين بدمائهم ليعملوا على نشر المسيحية فى مصر وفى العالم .

وبالرغم من أن الجماهير قد تعودت هذه المناظر ، إلا أنه قد خيم الوجوم على الاسكندرية صبيحة ذات يوم ، عندما انتشر نبأ القبض على الأم أثناسيا وبناتها الثلاث ، وذاع فى مصر بأجمعها وعلمت به البرية التى كانت تسترق السمع لكل حركة منذ بدء الأضطهاد .

وخاف أباكير على هذه العائلة التى كان يعرفها ، أن ينالها ضعف ، ورأى أن من واجبه أن يقف بجانبها فى محنتها هذه يقويها ويشدد عزائمها ، فنزل إلى الاسكندرية مع صديقه يوحنا ، وذهبا إلى كانوبيس حيث قبض سريانوس على هذه العائلة وبدأ فعذب الأم وبناتها الثلاث وكان عمر كبراهن خمسة عشر عاماً ، ثم عذب أباكير وزميله بأشد أنواع التعذيب ، إلى درجة أن المشاهدين تعذبوا أكثر من الشهداء . ثم قطع رؤوس الأم وبناتها أمامهما . ثم أمر سريانوس بقطع رأسيهما ، وقد تم ذلك بسرعة إلى درجة أن الاسكندرية علمت بهذا النبأ قبل أن تعلم بنبأ القبض على طبيبها الشهيد .

وجمع المؤمنين جسدى أباكير ويوحنا ودفنوهما تحت كنيسة القديس مرقس ، حيث ظلا قرنا إلى أن تولى نقلهما القديس كيرلس إلى جوار كانوبيس حيث جرت عجائب كثيرة لهما .

وظل منزل أباكير محجاً للمؤمنين يتبركون بزيارته إلى أن تحول بعد السلام القسطنطينى إلى كنيسة باسم الثلاث فتية الذين القاهم نابوخذ نصر فى الأتون ، وعندما تولى البابا أبوليناريوس الذى تنيح عام ٥٧٦ م أقام فى مكان هذا المنزل (بازيليكا) كنيسة عظيمة على الطراز البازيليكى حفظ لنا المؤرخون وصفها .

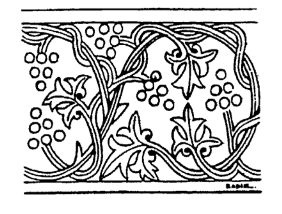
وقد حفظ لنا سوفرنيوس بطريرك أورشليم الكثير من العجائب والمعجزات التى جرت فى كنيسة مينوتيس حيث دفنا ، وكان قد زار الكنيسة مستشفعاً بالقديسين من رمد خبيث كان قد أصاب عينيه وقد تم شفاؤه فعلاً . وقد دون نحو ستين معجزة شاهدها بنفسه أو سمع بها ممن حدثت لهم . وفى هذه الوثيقة التاريخية تفاصيل رائعة عما شاهده بنفسه ، فيقول أن المرضى كانوا يحجون إلى هذا المكان المقدس من كل بقاع الأرض ، وكان بعضهم يأتى ماشياً زيادة فى التوسل والتذلل . وبعضهم محمولاً على أكتاف ذويهم ، والبعض الآخر محمولاً على نقالات صنعت خصيصاً لهذا الغرض . ويذكر أيضاً أن بعض المعجزات حصلت بمجرد رؤية المرضى منارة الكنيسة ، أو بمجرد لمسهم بابها ، أو الارتماء على قبر القديسين ، وفى الغالب بمجرد قضاء الليل فى الكنيسة . ويقص علينا قصة رائعة فيها امتحان قاس طويل لقوة الايمان ، وملخصها أن أحد أغنياء روما ، واسمه جون ، فقد بصره تماماً ، وبعد أن انفق الكثير من ثروته فى العلاج بدون جدوى سمع بالمعجزات التى كانت تجرى بكنيسة القديسين ، فحضر إليها بغية الشفاء وما كاد يقف أمام باب الكنيسة ، حتى قال بإيمان « أننى لن أدخل هذه البيعة إلا مبصراً » . وظل حيث هوّ بجوار البابِ ثمان سنوات ، تلفحه الشمس صيفاً ، ويقرصه البرد شتاءاً ، مصلياً متعبداً ، دون أن يتزعزع إيمانه ، حتى ظهر له القديسان ذات ليلة ، ولمسا عينيه ، فرجع إليهما الابصار مع بزوغ الشمس ، فدخل الكنيسة تواً وسجد لله شكراً ، ثم خرج وكتب على باب الكنيسة « أنا جون من أهالى مدينة روما العظيمة ، لقد قضيت ثمان سنوات أعمى ، فتشفع لى القديسان أباكير ويوحنا ، فعادت لى نعمة الابصار » ثم رحل إلى بلده مباشرة ليتحدث بهذه الأعجوبة التى كانت سبباً فى بناء أربع كنائس فى روما باسم القديسين ، وبنيت لهما كنائس فى بلاد أخرى .

وكانت أبو قير فى ذلك الوقت أشبه ما يكون بالبيئة التى كان يعيش فيها السيد المسيح ـــ كانت كما هى الآن ـــ بلدة الصيادين الذين يعملون فى صيد الأسماك المختلفة . وليس ببعيد أن نفراً من بينهم قد تركوا صيد السمك إلى صيد الناس ولهدايتهم للايمان القويم ـــ وإلى جوار هؤلاء كانت تجرى العجائب والمعجزات الغريبة فيشفى المرضى ويبصر العمى ويمشى المقعدون .

ويذكر المؤرخون أن كنيسة القديسين كانت مقامة على ربوة عالية، يحدها البحر من الشرق وكثبان الرمل العالية من الغرب وموقعها بجوار القلعة عند طرف اللسان ، وكان ملاحو السفن يرون منارتها العالية على بعد كبير . وكان يوجد بجوار الكنيسة منزل لرعاتها وخدمها ، وآخر كثير الحجرات للمرضى ، وكان دائماً مكتظاً بهم . ويقال أن رئيس الكنيسة كان يحتفظ بمجس كان يستعمله القديس أباكير فى حياته . وقد خرب كل ذلك فى القرن الثامن الميلادى ونقلت رفات القديسين العظيمين إلى روما فى ظروف غامضة .

وزال كل أثر لكنيسة أباكير ويوحنا ولكن بقى اسم الأول علماً على البلدة كلها حتى اليوم .

(عن كتاب : أبو قير الضاحية الجميلة لثغر الاسكندرية ـــ اصدار بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالاسكندرية ١٦٧٧ ش ـــ ١٩٦٠ م) .



الفصل الثامن

هذه النفس القبطية نبيلة رائعة فى كل مكان ...

سان موريس وصحبه

دار الفلك دورته واستقبلنا عاماً جديداً ، وشمرت جمعياتنا وهيئاتنا عن ساعدها للاحتفال به ، وبقيت هيئة واحدة هى أجدر جميع الهيئات بالاحتفال به ، وأكثرها تقديراً لمعناه ولما يحمل إليها من ذكريات ، لا تكاد تشعر بمغزاه ولا بجلاله ولا بتلك الصلة الوثيقة التى تربطها به ، بقيت « الكنيسة » لا تكاد تشعر بحركة تدل على يقظتها فى ذكرى الآلاف المؤلفة من شهدائها الأطهار الأبرار ، الذين سقوا جذورها بدمائهم ، فنمت وترعرعت وأصبحت وارفة الظلال ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وهم يكونون سلسلة طويلة من الكواكب ، يمسك بأحد طرفيها مؤسس كنيسة مصر القديس مرقس الرسول وبالطرف الآخر خليفته السابع عشر على كرسيه القديس بطرس خاتم الشهداء . أرأيت معى أن هذه الذكرى تعنى الكنيسة فى الصميم ، ولكنها مضت وضاع مغزاها فى وسط الخطب الرنانة والأشعار وأكل البلح والرمان ، وأصبحت الأجيال الناشئة لا تكاد تدرك ذلك المغزى الروحى العميق الذى يحمله معه الاحتفال برأس السنة المصرية من معان التضحية وإنكار الذات والشجاعة فى غير تحدى ، والاستعداد بأن يضحى الانسان بأسمى ما يملك فى سبيل القيم الروحية والمحافظة عليها . لقد كان جديراً بالكنيسة أن تنتهز هذه الفرصة بوجه خاص فترفع من الروح المعنوية لأبنائها وتطلب منهم أن يزيد كل منهم من ذلك البذل سواء مادياً أو أدبياً الذى يدفعه فى سبيلها ... ولكن لكل ذلك حديثاً آخر ، فإنا نحمل كنيستنا فى أيامنا هذه وزر الكثير مما لا يد لها فيه !!!

وتعالوا بنا إلى خارج مصر ، نذهب إلى ذلك السهل الذى تحوطه قمم الجبال الثلجية فى سويسرا ، والذى يقصده السياح والموسرون كل شتاء للإنزلاق على الثلج ولتمضية وقت بهيج لنذهب بأفكارنا إلى « سان موريس » .

هذا السهل كان يسمى حتى القرن الميلادى الثالث ، سهل أجون (Agaune) عسكر فيه عام ٢٨٨م بجيش رومانى بقيادة القيصر « مكسيميان

هرقل » ، أتى إليها عبر جبال الألب من شمال إيطاليا . بناء على أمر الامبراطور دقلديانوس ، كحملة تأديبية ضد الفرنسيين الثائرين . كان على مكسيميان أن ينتقى لمثل تلك المهمة جنوداً أشداء عرفوا بالقدرة على القتال وبالجلد فى تحمل الشدائد ، إذ لم يكن اجتياز جبال الألب بالشىء الهين ، فعجم عيدان فرقة، وانتقى أحسنها وأعلاها سمعة فى القتال ، وكان بينها فرقة مصرية ، كان جميع أفرادها مسيحيين . كانت مصر مستعمرة رومانية وكانوا على استعداد لخدمة الإمبراطور بسلاحهم بكل أمانة وإخلاص ، ولكنهم لم يكونوا مستعدين للذهاب إلى حد التضحية بإيمانهم . كانوا يعرفون كيف يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله !

كانت العادة المتبعة فى ذاك الوقت ، أن يبخر جنود الامبراطور للآلهة وأن يقدموا لها الذبائح التماساً لبركتها ولحمايتها لهم ، قبيل التحامهم بالعدو . وكأن مكسيميان أراد أيضاً بذلك أن يلمس مقدار إخلاص جنوده له وإستعدادهم لطاعته ، فأصدر أمره بالقيام بذلك التقليد . ولكن الضمير المسيحى رفض دون تردد ، غير مبال بما فى هذا الرفض من خروج على طاعة القيصر . ووصل إلى أسماع الامبراطور هذا الرفض ، فهاج وماج وعز عليه أن يقف المصريون هذا الموقف ، وأقسم أن يخضع الفرقة المصرية لأوامره ولو أدى ذلك إلى إفنائها .

وفى اليوم المعين أوقف جنود مصر فى وسط ساحة يحيط بها بقية الفرق ، ونوديت أسماؤهم وكان نصيب كل عاشر الجلد ثم قطع الرأس .

هذا المنظر الدامى المفزع لم ينل إطلاقاً من عزيمة الباقين ومن رباطة جأشهم ، بل ذهب قائدهم وضباطهم يمرون بين صفوفهم ، وكانوا ينظرون إليهم نظرة الآباء إلى الأبناء ، يأمرونهم بالثبات إلى النهاية إذا لزم الأمر ، مقتفين أثر إخوانهم الذين سبقوهم . وكان على رأسهم القائد العام موريس ومساعداه اكسوبيروس وكانديدوس .

بل أرادوا أن يتركوا للأجيال وثيقة شرف وفخار ، فكتبوا رسالة قصيرة إلى القيصر ، فيها اعتراف واضح بإيمانهم والتمسك به، وتتسم بالحزم والأدب فى نفس الوقت ، معبرة بكل وضوح عما يخالج نفوسهم ، قالوا فيها « أيها

القيصر العظيم ، نريد أن نعبر لكم بكل إخلاص عن الحقيقة الآتية ، وهى أننا نعتبر نفوسنا جنودك ، ولكننا خدام للرب فى نفس الوقت ، نضع أسلحتنا فى خدمتكم بينما نضع طهارة قلوبنا ونفوسنا فى خدمته ، نستمد منكم أجرنا اليومى ، بينما هو سيدفع لنا فى آخر حياتنا .

أيها القيصر العظيم ، إننا لا نستطيع أن نطيع أوامر تتعارض مع العبادة الواجبة لله وحده خالقنا ، وسيدنا وسيدك أيضاً ، سواء أردت أم لم ترد . وطالما أن أوامركم لا تتعارض مع تعاليمه ، فنحن مستعدون بتنفيذها بكل أمانة ، كما فعلنا إلى الآن ، أما إذا تعارضت فنرجو أن لا يسوءك إذا فضلنا طاعة الله على إطاعتك ، إذ لنا عهد مع ملك السماء قطعناه على أنفسنا قبل أن نعاهد أى شخص آخر . نحن لسنا بثائرين ، وقد كان فى مقدورنا أن نستعمل أسلحتنا ، وأن لا نبيع أنفسنا بيع السماح ، ولكننا نفضل أن نموت على أن نقتل الآخرين ، ونفضل أن نموت أنقياء أطهاراً على أن نعيش خطاة . نحن مستعدون لأن نتقبل ما تأمرون به من أنواع التعذيب . نحن مسيحيون ، ننادى بذلك بأعلى صوتنا » .

هذا الخطاب الهادىء الذى أعربوا فيه عن ولائهم أثار غضب مكسيميان وحرك فيه كل العواطف البهيمية التى تسكن فى قرارة الانسان ، فأمر فى الحال باستئناف عملية الإبادة .

ونودى على الأسماء فكان كل جندى يتقدم فى هدوء نحو الجلاد ، يسلم سلاحه ، ويرمى خوذته ودرعه أرضاً ، ثم يقدم ظهره للجلد ورأسه للقطع . وعندما بقيت منهم شرذمة صغيرة أراد مكسيميان أن يجربهم تجربة أخيرة ، فطلب منهم تقديم الذبائح لآلهة الحرب ، ولكن وجد نفس التصميم ونفس الجواب ، فأفناهم عن آخرهم .

وكانت نتيجة هذه المذبحة الكبيرة التى قل نظير لها فى التاريخ ، أن غطت جثث آبائنا الأطهار سهل أجون ، وقد غاصت فى دمائها . وألقيت أغلب الجثث فى مجرى نهر الرون الذى جرفها مع تياره السريع . ودفن البعض الآخر ، وجمعها بعد ذلك بقرن من الزمن القديس تيودور أسقف التيودور

فأقام كنيسة فخمة تكريماً لها . أما بقايا القديس موريس فقد وجدت على ضفاف نهر الرون فى جهة (دوفينى) ، فدفنها الأسقف باسكيس فى موكب فخم .

وليعذرنى القارىء العزيز إذا قرنت فى صدر مقالى اسم مصرى قديم « موريس » باللفظ اللاتينى « سان » الذى يعنى قديس ، إذ لجأت إلى ذلك ليعلم من سمع بهذا الاسم ، كيف أنه لم يكن يعلم أنه لقديس مصرى صميم .

وبعد ، لم يكن مبشرونا فقط هم الذين حملوا كلمة الانجيل فى أنحاء العالم القديم بين ايرلندا شمالاً إلى الهند جنوباً ، بل حملها أيضاً شهداؤنا الذين ختموا على صحتها وعلى شدة إيمانهم بها بدمائهم الزكية ، فصاروا شهداء عالميين .

لعلها باقة متواضعة من أحفاد القديس موريس وصحبه إلى مشتى « سان موريس » بسويسرا فى يوم الاحتفال بذكرى الشهداء !!

(أول توت ١٦٧٣ ش) .

(مجلة مدارس الأحد ـــ نوفمبر ١٩٥٦)



الفصل التاسع

المجتمع والكنيسة فى القرن الثالث

بعد أكثر من مائة وخمسين عاما من الجهاد أصبحت الكنيسة على علم بمصيرها ، عندما هل القرن الثالث الميلادى ، فقد تيقن مسيحيو ذاك الوقت حقيقة قول السيد المسيح لتلاميذه « ثقوا لقد غلبت العالم » ، إذ أن حبة الخردل التى استطاعت أن تمد جذورها فى جو مناهض لها ، لا يوجد شك فى أنها ستنمو إلى شجرة كبيرة وارفة الظلال . فقد أصبحت الكنيسة قوة يحسب حسابها وأصبح لها مدرسة تضارع المدرسة الفلسفية الوثنية فى الاسكندرية ، يتولى عمادتها فيلسوف مسيحى ذائع الصيت هو أكليمنتس الإسكندرى. وقد شعرت الإمبراطورية الرومانية بذلك فى أواخر القرن الثانى ، وكان السؤال الذى يتردد فى أنحائها هل تحاول القضاء على المسيحية بشكل منظم ، أم تتفاهم معها ؟ هذا السؤال ظل يتردد طوال القرن الثالث .

وفى نفس الوقت الذى كانت قوة الكنيسة تتزايد فيه ، كانت هناك عوامل سياسية واقتصادية تهدد كيان الإمبراطورية الرومانية ، فتاريخ القرن الثالث بالنسبة لروما هو تاريخ إنحلال لم ينفع فيه مطلقا أى جهد لإيقافه . وكان تاريخ هذا القرن عبارة عن دفتى كتاب ، سجل فى إحداهما إزدهار وانتشار وغزو وإندفاع الحياة التى لا يستطاع إيقافها ، وسجل فى الدفة الأخرى أعراض متعددة لمرض لا يقتل سريعا ولكن لا يعرف له علاج . عالم ولد وكبر كله آمال ، وعالم يستعد للموت ، وسيأتى اليوم الذى تضع الإمبراطورية المحتضرة فيه نفسها تحت حراسة الصليب .

ومن أهم الشواهد على إنتشار المسيحية فى ذاك الوقت فى البلاد العثور على برديات للعهد الجديد من إحدى القرى غرب بحيرة قارون فى محافظة الفيوم . ذكرت لكم فى كلمتى السابقة ذلك سوء التفاهم الذى نشأ بين الأنبا ديمتريوس وأوريجانوس ، ولكن التفاهم بين الكنيسة والمدرسة لم يلبث أن ساد بل واندمجا فى بعضهما ، فهيركلاس مساعد أوريجانوس ثم خليفته فى إدارة

المدرسة ، تولى البطريركية بعد نياحة الأنبا ديمتريوس عام ٢٣٣ م ، وكان متتبعا تعاليم أستاذه أوريجانوس الفلسفية ، وهو أول أسقف للأسكندرية بل فى العالم لقب بلقب بابا ، وكان هيركلاس قد عهد بمهمة التعليم فى المدرسة لتلميذ آخر لأوريجانوس هو القديس ديونيسيوش الذى تولى منصب البابابوية عام ٢٤٩ م . وكانت السبعة عشرة سنة (٢٤٩—٢٦٥ م) التى تولى فيها ذلك المنصب سنوات شدائد لكنيسة الإسكندرية وللمدنية . ولكن فى عهده نلحظ أن كرسى الاسكندرية أصبح له الرياسة على مصر جميعها ، كما له أثره على أعمال الكنيسة فى العالم المسيحى أجمع . فمنذ عهده بدأنا نرى أساقفة الاسكندرية يشغلون ذلك المنصب المزدوج الذى كان عليهم أن يشغلوه مدة طويلة ، كأكبر أحبار الكنيسة فى العالم وزعيم وطنى فى مصر .

وبعد توليه منصبه بفترة قصيرة بدأت الاضطهادات فى الكنيسة ، التى ازدادت شدتها فى العالم التالى عند ما صدر مرسوم الإمبراطور دكيوس عام ٢٥٠ م .

وكان مرسوم دكيوس يقضى بأن يبرز كل مسيحى شهادة بأنه قد قدم ذبيحة لآلهة الدولة ، فكان ذلك تحديا عاما للمسيحيين بأن ينبذوا معتقدهم أو يستعدوا للإستشهاد . وتصدر ديونيسيوس نفسه المسيحيين فيما يجب أن يتبعوه فهو لا يبحث عن الإستشهاد ولا يجتهد أن يتجنبه . وقد قبض عليه المسئولون وأرسلوه إلى تابوزيريس (برج العرب الآن) فى ذلك الدير الذى لم يبق منه الآن إلا الجدران وأثار لكنيسة فى وسطه ، وما أن علم الشعب من مسيحيين ووثنيين بذلك حتى قاموا على الجسد وإنتزعوه منهم وهكذا اختفت أمام الوطنية الفوارق الدينية ، ويذكر لنا ديونيسيوس بوجه خاص ذلك الخادم اسخيرون الذى قتله مخدومه عندما رفض أن يضحى للأوثان . ويوجد بالمتاحف عدد من تلك الشهادات التى كانت تعطى .

وبعد الاضطهاد أثيرت مشكلة المرتدين الذين يريدون الرجوع إلى الكنيسة وكيفية معاملتهم . وكان من رأيه قبولهم والعفو عنهم ، بعد فرض درجات من

العقوبة عليهم لأجل التوبة ، خصوصا بعد أن تشفع لهم المعترفون الذين قاسوا أنواعا من السجن والإضطهاد . وقدأرسل البابا رأيه هذا إلى جميع الأساقفة فى مصر وفى العالم فأرسل رسالة عن التوبة إلى مسيحيى أرمينياورسالة إلى نوفاسيان الكاهن الرومانى الذى قام يدعو إلى عدم قبولهم ، ورسالة إلى كرنيليوس أسقف روما ليتشدد ضده ، كما أرسل رسالة إلى أسقف أنطاكيا فابيوس ينهيه عن الإنضمام إلى بدعة نوفاسيان . وقد جاء فيما كتبه إلى نوفاسيان « يجب على الإنسان أن يتحمل أى شيء لأجل ألاّ يحدث إنشقاق فى كنيسة الرب ، وإن الإستشهاد فى سبيل منع الإنشقاق لا يقل مجدا عن الإستشهاد فى سبيل عدم السجود للأوثان ، بل فى رأيى أعظم منه مجدا . لأن الذى لا يسجد للأوثان إنما يخلص نفسه ، أما الذى يمنع الإنشقاق إنما يخلص الكنيسة أجمع » ، ياليت يا إخوتى هذه النصيحة الغالية كان يعيها من دعوا إلى مجتمع خلقيدونية عام ٤٥١ م .

بل ذهب القديس ديونيسيوس فى روحه المسيحية التى جلبت على التسامح والمحبة إلى أن الذين على فراش الموت يسمح لهم بالدخول إلى الكنيسة إذا أرادوا ، خصوصا إذا أظهروا علامات التوبة قبل ذلك ، وذكر فى هذا السبيل لفابيوس أسقف انطاكيا المتعنت قصة من يدعى سيرابيون ، الذي كان أحد أبناء الكنيسة ثم ضحى للآلهة فى أيام الإضطهاد ، ثم طالت أيامه إلى أن أرسل حفيده يوما إلى الكاهن يرجوه الحضور ليعترف عليه إستعدادا للتوبة قبل أن يموت ، ولكن تصادف أن كان الكاهن مريضا فى ذلك الوقت ولا يستطيع السير ، فأرسل مع الصبى الجسد المقدس ، وأوصاه أن يبله بقليل من الماء قبل أن يضعه فى فم سيرابيون ، وبذلك أخذ سيرابيون الحل . وتعرف من تلك القصة أيضا أن الكاهن فى تلك الأيام المضطربة كان يحتفظ بالجسد فى منزله ، ليستطيع إسعاف تلك الجموع من الشهداء والمرتدين فى أى وقت . مما يوحى بالشدائد التى كانت تقاسيها الكنيسة فى تلك الأيام .

وقد أثير أيضا فى تلك الأيام مسألة المعمودية التى كان يقوم بها بعض الهراطقة ، إذ كان بعض أتباع الهرطقات التى كانت منتشرة فى ذاك الوقت فى الأسكندرية يريدون الإنضمام إلى الكنيسة مع أولادهم . وكانت أهم تلك الهرطقات الغنوسطية التى كان أتباعها يخلطون العماد بطقوس غريبة . وهنا أيضا وقف ديونيسيوس موقفا وسطا كما نعرف من تلك الرسائل الطنانة التى زود بها أساقفة وكهنة روما ، فكان بحق مصلحا هاديا للأرثوذكسية ولنا أن نفخر بذلك القديس الذى لولاه لتفتتت المسيحية بجهود المتعصبين والتعصب الأعمى .

وجاء الإمبراطور فالريان فأثار موجة جديدة من الإضطهادات ، وكانت الإضطهادات فى هذه المرة هدفها قادة المسيحية ، وكان يروم من ذلك تفتيت نظامها لا أن يكثر من الشهداء . وسيق ديونيسيوس أمام الوالى اميليانوس مع مساعدة مكسيموس وثلاثة شمامسة ورفض البابا العفو الذى عرضه عليه الوالى بشرط أن يعبد الآلهة الأخرى مع عبادة إلهه ، فنفاه إلى واحة الكفرة فى صحراء ليبيا ومنع المسيحيين من عقد اجتماعات أو التجمع فى المقابر . وإختبأ فى الإسكندرية أربعة كهنة وثلاثة شمامسة ليديروا أعمال الكنيسة بما فيها تقوية المعترفين ودفن الشهداء ، وطاف كاهنان آخران فى أنحاء البلاد لتثبيت المؤمنين . أما البابا المنفى فكان يقوم بالخدمات الكنسية ويجلب معتنقين للمسيحية وكان يدير أعمال الكنيسة بالرسائل إلى أن كان عام ٢٦٢ م فجاء الإمبراطور جاليانوس وأصدر مرسوما بترك المسيحيين وشأنهم ، فعاد البابا إلى الإسكندرية . .

وحدث بعد ذلك حرب أهلية فى الإسكندرية كان ميدانها طريق الحرية وكان يدعى فى ذاك الوقت طريق كانوب ويصفه ديونيسيوس أنه كان مثل البحر الأحمر ، وعقب الحرب إنتشر الطاعون ويقص علينا ديونيسيوس أعمال المحبة التى قام بها مسيحيو الأسكندرية إذ كانوا يعتنون بالمرضى من إخوانهم سواء المسيحيين أم الوثنيين معرضين أنفسهم للخطر ومضحين بحياتهم ، ومات

عدد وفير من الأكليروس والمؤمنين ضحية المحبة . وفى وسط كل ذلك كان يتابع كتابة رسائله السنوية معلنا تاريخ عيد القيامة فى العالم ، علاوة على رسائل أخرى لجماعات الأسكندرية ولمصر .

وفى آخر أيامه اشترك فى المباحثات اللاهوتية التى كانت فى عصره فكتب رسالة شديدة ضد هرطقة سابليوس الليبى الذى انكر وجود الأقانيم الثلاثة فى الإله الواحد ، وهذه الرسالة ترينا الرياسة التى كانت لكرسى الاسكندرية على الخمس مدن الغربية . وفى آخر أيامه دعى ليترأس المجمع الذى عقد فى إنطاكيا ليحكم على هرطقة بولس الساموساطى الذى يرى فى المسيح إنسانا صار إلها . ولكن لم تساعده صحته وسنه فأرسل رسالة يشرح فيها وجهة نظره كان لها الإعتبار الأول . وتنيح بين عامى ٢٦٤ — ٢٦٥ قبل أن يصلوا إلى الرأى النهائى .

القديس ديونيسيوس العالم والراعى والهاوى للهراطقة والحافظ للكنيسة من الانشقاق تعتبر شخصيته من أكثر الشخصيات جاذبية فى سلسلة باباوات الإسكندرية، ومتعددة المناحى ، ونلمس فيها ناحية إنسانية خاصة . وإن ما قام به من أعمال كان لها توقعات ذات أثر بارز فى تاريخ كرسى الإسكندرية، بعده ، وتلقى ضوءا مهما على نظامه وتقاليده . وقد خلف لنا أخبارا هامة عن أعماله فى رسائله ، كما ترك كنيسة بإسمه ربما كانت بيتا خاصا إستعمل ككنيسة فى أيامه والذى ظل مركزا للبطريركية نحو قرن من الزمن .

خلف مكسيموس ديونيسيوس (٢٦٥ — ٢٨٢ م) وكان أحد كهنة كنيسة الإسكندرية ، وبعد ذلك تيوناس (٢٨٢ — ٣٠١ م) . ورسم أثنان من شمامسة ديونيسيوس أساقفة فى سوريا وهما يوسابيوس وأناطوليوس الذى ترك أثرا خالدا على حياة الكنيسة إذا كان حسابه لعيد الفصح على القواعد الفلكية الصحيحة الخاصة بدورة القمر لمدة تسعة عشرة عاما هى نقطة البداية لكل الجداول التى ظهرت بعد ذلك لعيد الفصح .

وكان عميد مدرسة الإسكندرية فى أواخر القرن هو أشيلاس ثم بييرياس الذى ترك لنا مع زميله ثيوجنوستاس بضع رسائل نتبين فيها أثر تعاليم أوريجانوس .

وقد رأى الجيل الأخير للقرن الثالث تطورين متصلين كان لهما أهمية كبيرة لكنيسة مصر وهما ظهور أوائل النساك ، وتمصير اللغة فى الكنيسة ، إذ صارت القبطية لغتها الرسمية فى الربع الثالث لهذا القرن .

وفى عام ٢٨٤م شن الإمبراطور دقلديانوس إضطهادا دام حوالى العشرين عاما ، هو فى الحقيقة وواقع الأمر وقفة أخيرة للإمبراطورية أمام قوة المسيحية الجارفة ، قاست فيه مصر الأمرين وإستشهد الكثيرون . ولم يجد المصريون وسيلة يخلدون بها ذكرى أبطال هذه الجزرة البشرية أحسن من أن يجعلوا عام ٢٨٤م بدءا لتقويمهم الوطنى وهو المعروف الآن بتاريخ الشهداء .

ولا ننسى فى مجال الحديث عن الشهداء فى ذلك القرن تلك الكتيبة القبطية التى كانت تحت قيادة الضابط القديس موريس ، والتى أرسلت من الصعيد لتعسكر فى سويسرا عند منبع نهر الرون فى (فاليه) ، وهناك تلقت الأوامر بالذهاب إلى فرنسا تقتل المسيحين هناك ، فرفض الجميع تنفيذ الأوامر ، وكان جزاؤها أن أبيدت عن آخر رجل فيها . وقد خلدت سويسرا ذكراهم بأن أطلقت على المكان الذى كانوا فيه إسم سان موريتس .

كما كان مارمينا العجايبى الجندى والمبشر والناسك أحد شهداء ذلك الاضطهاد حوالى عام ٢٩٦ م .

ويخبرنا أوسابيوس القيصرى ابو التاريخ الكنسى ، أن فى فترة واحدة من موجات الإضطهاد العديدة التى إجتاحت مصر ، إستشهد عشرة الاف رجل غير النساء والأطفال ، ويقول « وأنا الذى كنت هناك — أى فى مصر — فى ذاك الوقت ، رأيت عددا كبيرا يقتل فى أحد الأيام ، البعض بواسطة السيوف ، والبعض بواسطة النار . ورأيت السيوف وقد بلغت حدا أن

صارت لا تقطع ، والبعض ينكسر ، بينما الجلادون قد أخذ التعب منهم كل مأخذ ، فكانوا يتبادلون العمل » .

وهكذا ترون أن القرن الثالث للمسيحية فى مصر كان حافلا ، صنعه شعب مصر بما قدم من تضحيات وروح مسيحية نقية صافية وبطولة تحدت الوثنية بنارها وحديدها ، وصنعه باباواتنا بوضعهم أسسا للأنظمة الكنسية ولسمو فضائل الأساقفة فى أعمال الصلح والسلام وحفظ العقيدة ، وصنعته مدرسة الإسكندرية المسيحية التى ملأت ذلك القرن شهرة فقصدها القاصى والدانى والمسيحى والوثنى ، وأهدت للعالم علم اللاهوت المسيحى .

وكان للبطولة فى آخر المطاف بطولة شعب مصر الأثر المباشر فى إنتصار الصليب .



الباب العاشر

الرهبنة القبطية وآبائها



إحدى الزيارات لدير السريان بوادى النطرون

الفصل الأول

كلمة ألقيت فى أول رحلة تنظمها جمعية
مارمينا العجايبى إلى أديرة وادى النطرون سنة ١٩٤٦

أبائى وأخوتى

عندما نقف فى هذهِ البقعةِ الطاهرة ، نتوجه بأفكارنا فى خشوعٍ وتكريم ، إلى أرواحِ أولئك القديسين الأبطال ، الذين نفخر بهم ، ونضعهُم فى تاريخنا فى مكان الصدارةِ والشرفِ ، ونُدلل بسلوكهم على عمقِ فهمنا للمسيحية ، ومثلِها العليا ، وعلى ما قدمنا فى سبيلِ تثبيتِها ونشرها ، نتجه بأفكارنا إلى أولئك القديسين ، الذين نضع على رأسِهم فى أوشيةِ الآباء العظيمَ الأنبا أنطونيوس ، ثم إلى أولئك الجنودِ المجهولين منهم .

واننا لنسجد للعلى القدير شكرا ، أن هيأ لنا الظروفَ المواتية ، التى قادتنا إلى وطنٍ روحى ، يحن إليه جميعُ مسيحيى القطر ، وكلُ مسيحىٍ ينشد الطهرَ والزهد ، وفى مقدمةِ تلك الظروفِ الحسنةِ ، إنشاءُ جمعيةِ مارمينا العجايبى ، التى قامت تسدُ ثغرةً ، شعرنا جميعا بالحاجةِ الشديدةِ إلى ملئِها ، عندما قمنا نجمعُ كلَ كفاياتنا ، للسير حثيثا فى طريق الاصلاح . قامت جمعيةُ مارمينا العجايبى لنشرِ الثقافة الدينيةِ التاريخية فى أوساط الامة القبطية ، حتى يكونَ لنا من تاريخ أمتنا وكنيستنا حافزٌ قوىٌ للنهوضِ ، ونبراسٌ نهتدى به فى طريقنا . وهناك طريقان رئيسيان للتثقيف والتعليم « الأول » قراءةُ الكتب والاستماعُ إلى المحاضرات و « الثانى » المشاهدةُ والملاحظةُ وتطبيقُ ما نقرأه على ما نشاهُده إن أمكن ، ولهذه الطريقة قيمتُها الكبرى ، إذ تجعلنا نتعلم إيجابيا بعكس الطريقة الأولى السلبية ، إلا أن كلا منهما يكملُ الآخر ، ولذلك قامت جمعيتُنا بالقاءِ محاضرات وباصدارِ نشرات فى تاريخ أبطالِ المسيحية والكنيسة ، ولم تكتفِ بذلك بل قامت تُنظمُ رحلات ، لأفراد الأمة ، ليشاهدوا بأنفسهم ما يلقى إليهم ، مع اعطاءِ الفرصةِ لهم لزيادة البحثِ والإستقصاء .

وكلكم تعرفون قيمةَ هذا النوع من المجهود ، فى وسطٍ ينشر جاهداً شتى أنواع التواريخ ، إلا ما تعلق منها بتاريخ أمتنا وكنيستنا ، وإن حاجتنا الشديدة

إلى ذلك النوع من الثقافة ، ليتمثل لكم عندما تلاحظون ذلك الفتورَ ، الذى نبديه نحو شئوننا الطائفية والكنسية ، بل وخجلَ كثير من شبابنا من الإنتساب إلى الكنيسة القبطية خاصة ، وكفى دليل على ذلك ، النقصُ الملحوظُ فى عددِ ناخبى البطريرك ، فى هذه المرة ، بالنسبةِ إلى المرة الماضية ، مهما قيل فى تعليل ذلك .

وقد كان من علاماتِ التوفيقِ فى هذه الرحلةِ المباركة ، تفضلُ الأستاذِ العلامة الجليلِ الدكتور عزيز سوريال عطية ، بالاشتراك فيها ، ووعدُه بالقاءِ محاضرةٍ نفيسةٍ قيمة عن الرهبنة . وإذا وجب أن يتكلم أحدٌ عن هذا الموضوع الجليلِ ، فهو الدكتور عزيز سوريال عطية الأستاذ بجامعة فاروق الأول ، إذ نكون بذلك قد أعطينا القوس باريها وتمثلنا بقول الشاعر :ـــ

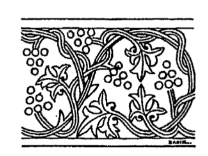
فخذوا العلم على أعلامه واطلبوا الحكمة عند الحكماء

ولا يقفَ فضلُ أستاذنا الجليل عند هذا الحد ، إذ هو فى مقدمة من يعملون فى هدوءٍ وسكون ، لتهيئة أسبابِ نهوضنا ، وذلك بالعملِ بكل ما وسعه ، لمساعدةِ أبناءِ الأمة ، الذين يدرسون عليه ، ثم يحثهم على دراسة مختلف نواحى تاريخ أمتِنا وكنيستِنا وعلى تأليف الكتب ، وكتابةِ الرسائل فى ذلك . كل ذلك فى تواضع وانكار ذات ، اننا نشكرُه ــ بل نعجز عن شكره ــ ونطلب من رب الكنيسة أن يكافئه عنا .

وإن جمعية مارمينا العجايبى لتدين فى تأليفها بالوضع الحالى وتكوين أغراضها إلى تلك الروح العالية التى طالما عمل الدكتور عزيز على بثها فى كثير من أعضائها والمشتركين فيها مما يجعلنا كلنا أمل فى مستقبل باسم لأمتنا العظيمة ، هذا كل ما أستطيع أن أقوله مع إعترافى بعجزى البين . ويحملنى الأستاذ بانوب حبشى فوق ما احتمل إذ أتكلم عن أبينا القمص فرنسيس شنوده على رأس رهبان هذا الدير لما أظهروه من كرم ولطف ومحبة أبوية مما سيترك صدى عميقا لن ينسى بعد رجوعنا ، وإذا كثر بيننا فى المستقبل القريب أمثال أبينا القمص فرنسيس من الناحية الروحية وأستاذنا الدكتور عزيز سوريال عطية من الناحية العلمية فلن تقف قوة على الأرض فى وجه تقدمنا إذ

يتم بذلك الأمل الذى قام ينشده المصلحون منذ نحو ٧٥ سنة إذ يسير التقدم الروحى والعلمى للأمة يداً بيد وأرجو أن أعيش حتى أرى ذلك اليوم .

ولو أن ظروفَ الرحلة ، لم تسمح لنا بالتوسعِ فى العددِ ، إلا أنى كلى أمل بأن نعودَ جميعاً إلى مدينتنا ، وقد وعينا المثلَ الأعلى الذى أمامنا وقد تطهرنا أيضاً من كثيرٍ مما يشوبُ نفوسَنا من نقصٍ أو ضعفٍ ، إذ أن البعدَ عن المدينة وزُخرفُها ، وعنِ العالم وأباطيله ، إلى مثلِ تلك الأماكنِ المقدسة ، يهيىء لنا فرصةً فريدةً للتأملِ والتفكير ، فنوطد العزم على أن نكوّنَ من أنفسِنا منارةً تضيىءُ الطريقَ ، لمن حولنا من أبناءِ أمتنا ، فينطبقَ علينا القولَ الالهى « فليضىء نوركم هكذا قدام الناس ، ليروا أعمالكمَ الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات » .



جمعية مار مينا العجايبي
مركزها المؤقت : كنيسة السيدة العذراء
محرم بك — الاسكندرية

زيارة أديرة وادى النطرون

نشأت الرهبنة بنظامها الحاضر فى أحضان كنيستنا القبطية الخالدة. فمنذ دخلت المسيحية أرض مصر ، أخذ المؤمنون يهرعون إلى صحارى الشمال والجنوب ، ناذرين أنفسهم للرب . وهناك وضعوا للرهبنة نظمها وتقاليدها التى لا تزال متبعة بصفة عامة من كافة الشعوب المسيحية حتى وقتنا هذا . ولم تكد تمضى القرون الأولى للميلاد حتى عمرت صحارى مصر بمئات الأديرة التى سرعان ما تحولت إلى معاهد عالية للدراسات اللاهوتية والبحوث الدينية . فلما طغت على هذه البلاد موجة الاضطهادات الطويلة المعروفة عصفت ، ضمن ما عصفت ، بهذا التراث العريض . ولم تبق لنا منه سوى بضعة أديرة تعد على أصابع اليد الواحدة بالوجه القبلى ، ومثلها بجنوب غرب الدلتا هى المعروفة حالياً باسم أديرة « وادى النطرون » . وإن جمعية مار مينا العجايبى ، وهى بسبيل السعى لنشر الثقافة التاريخية للأمة القبطية بكافة الوسائل المستطاعة ، لتشكر الرب الذى وفقها لتهيئة هذه الفرصة لفريق من أعضائها لزيارة هذه الأديرة الأخيرة حتى يروا بأعينهم أثراً باقياً ودليلاً ناطقاً على ما كان لأمتهم من تاريخ مجيد فى ماضيها البعيد .

وهذه الرحلة معدة خصيصاً لحضرات أعضاء الجمعية من الرجال والشبان طبقاً للبيانات الآتية :

اولا — برنامج الرحلة

تبدأ الرحلة من فناء كنيسة السيدة العذراء بمحرم بك ، حيث يجتمع المشتركون ، فى تمام الساعة الثالثة بعد ظهر يوم السبت ٤ مايو سنة ١٩٤٦ ، ومن ثم يتوجهون رأساً ، فى اتوبيس خاص ، إلى دير السيدة العذراء بالبرموس حيث يبيتون ثم يمضون يومى الأحد والاثنين بين أديرة البرموس والأنبا بشوى والسريان ، على أن تكون عودتهم الأسكندرية حوالى الساعة السادسة بعد ظهر يوم الاثنين ٦ مايو سنة ١٩٤٦ بمشيئة الله .

ثانياً — الاشتراكات

١ - عدد المشتركين محدود وهو ٣٠ (ثلاثون) شخصا ، والأفضلية المطلقة لاعضاء الجمعية ، ثم للأسبقية فى طلب الاشتراك .
٢ - قيمة الاشتراك ١٢٠ قرشاً (مائة وعشرون قرشاً صاغاً) .
٣ - تقيد أسماء المشتركين ، وتدفع الاشتراكات مقدماً بالكامل لحضرة وكيل الجمعية ومنظم الرحلة الدكتور منير شكرى بشارع سعد زغلول رقم ٣٨ تليفون ٢٠٠٢١ .
٤ - تحدد موعد قبول الاشتراكات فيما بين يومى ٢٣ و ٢٧ أبريل سنة ١٩٤٦ ، وسيراعى ذلك بمنتهى الدقة . أما اذا تكامل العدد المطلوب قبل ذلك ، فيجوز قفل باب الاشتراكات حينئذ .

ثالثاً — بيانات متنوعة

١ - أعدت الجمعية لحضرات المشتركين فى هذه الرحلة ، برنامجاً ثقافياً حافلا ، تتوجه محاضرة لاستاذنا العلامة الكبير الدكتور عزيز سوريال عطية بك عن « تاريخ الرهبنة » .
٢ - سيوزع على الأعضاء بمناسبة هذه الزيارة بيان تاريخى عن « أديرة وادى النطرون » .
٣ - سيقدم الطعام فى الأديرة حيث سينزل حضرات المشتركين ضيوفاً على حضرات الرهبان ، ولكل عضو أن يتزود بما يشاء من المأكولات الخفيفة .
٤ - يتطلع مجلس الادارة الى حضرات الأعضاء ، بكل ثقة ومحبة ، راجياً من الجميع التقيد بالبيانات السابقة ، وإتباع ارشادات المشرفين على هذه الزيارة المباركة ان شاء الله .
٥ - لزيادة الاستيضاح ، يتصل بحضرة الدكتور منير شكرى بعنوانه المشار اليه بعاليه .

رئيس الجمعيـــة
بانوب حبشى

الاسكندرية فى ١٩ أبريل ١٩٤٦

الإعلان عن أول رحلة تنظمها جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية

الفصل الثانى

تاريخ القديسين
أو
تاريخ الآباء وتعاليمهم

تعريف عام

الباترولوجيا أو تاريخ الآباء وهو قسم العلوم المقدسة الذى يدرس حياة ومؤلفات وتعاليم الآباء الأرثوذكسيين وبوجه خاص أولئك الذين عاصروا العهد المسيحى القديم .

ونقصد هنا بالعهد المسيحى القديم القرون الخمسة الأولى للمسيحية ، التى أنارها آباء عظام سواء منهم من عاش فى القرون الثلاثة الأولى فكان قريباً من مصادرها ، أو من تميز بعمق التفكير فى القرنين الرابع والخامس إلى مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ م .

لقد كان لفظ « الآباء » مقصوراً فى بادىء الأمر على رؤساء الكنائس والأساقفة ، الذين تتركز فيهم السلطة الروحية والعقائدية ، ولكن لقب به فيما بعد جميع من دافعوا عن المسيحية ضد الهراطقة وأصحاب البدع حتى إذا لم يكونوا من الأساقفة .

وقد تستتبع هذه الدراسة معرفة شىء عن الهراطقة وأصحاب البدع هؤلاء لفهم سبب رفض تعاليمهم ، أما من تعترف الكنيسة بتعاليمهم وكتاباتهم فهم الوحيدون الجديرون بأن يكونوا المرشدين والمعلمين والآباء لجميع المسيحيين .

فلأجل أن يكون أحد المؤلفين معتبرا كأحد الآباء يجب إذن أن تتوفر فيه الصفات الآتية : « أن يكون أحد رجال ذلك العهد القديم ، أرثوذكسى ، قديساً فى حياته ، تعترف الكنيسة بتعاليمه » ، هناك بعض من لا تنطبق عليهم جميع هذه الصفات مثل ترتليانوس وأوريجانوس وأوسابيوس القيصرى وغيرهم ومع ذلك يعدون فى زمرة الآباء ، يشفع لهم فى ذلك الخدمات الجليلة التى أدوها للكنيسة .

ولفظ أب الكنيسة هو شيء آخر غير معلم الكنيسة ، فمعلمو الكنيسة عدد محدود جداً من رجال العهد المسيحى القديم وهم بهذا الوصف يكونون أباء للكنيسة فى نفس الوقت ، ولكنهم يتميزون بعمل غزير ومعرفة عميقة للحقائق المسيحية وأرثوذكسية نقية وقداسة فى المعيشة يضرب بها المثل ، وتتميز الكنيسة المصرية بوجود عدد من هؤلاء فى عصرها الذهبى ، يصح أن يعتبروا معلمين مسكونيين مثل البابا بطرس خاتم الشهداء والبابا ديونيسيوس والباباوات أثناسيوس وكيرلس وديوسقورس ، وينسب القديسون غريغوريوس وباسيليوس ويوحنا فم الذهب إلى كنيسة القسطنطينية أو البيزنطية ، وينسب القديس أغسطينوس إلى الكنيسة اللاتينية ، ويعتبر اللاتينيون أن هناك معلمين ظهروا فى كنيستهم فى جميع الأجيال تقريباً .

الغرض من دراسة الباترولوجيا

الغرض من دراسة الباترولوجيا هو معرفة تاريخ وتعاليم آباء الكنيسة ، وتشمل ما يأتى :ـــ

(١) السيرة : وبها ندرس الشخصية توطئة لفهم ما يصدر عنها .
(٢) المؤلفات : تحليلها وتأكيد نسبتها إلى صاحبها .
(٣) التعاليم ويقصد من دراستها :ـــ

ا ـــ معرفة النقط المهمة التى أوضحها كل منهم .
ب ـــ موقفه فيما أثير فى عهده من نقاش وما حدث من خلاف .
حـ ـــ معرفة النقط الضعيفة فى تعاليمه إن وجدت .

الباترولوجيا وتاريخ علم اللاهوت

ا ـــ نروم أن نجعل علم تاريخ الآباء حاوياً لسيرتهم وتعاليمهم وفلسفتهم وروحانيتهم ، ولن يتيسر لنا ذلك إلا إذا عملنا على حصرهم ثم ركزنا دراستنا فى أكبر المؤلفين فيهم فى كل قرن . والمؤلفات التى تعنى بها الباترولوجيا مكتوبة باللغات القبطية واليونانية والسريانية واللاتينية ، والمؤلفات القبطية التى ظهرت أخيراً كثيرة ومهمة ، ولكن أغلب الأباء كتب باليونانية .

ب ــ مكان الباترولوجيا من التاريخ : بوصفه العلم الذى يعنى بدراسة كل المؤلفات الأرثوذكسية القديمة يصح أن يمتد بالنسبة لنا إلى حوالى القرن التاسع ، إذ كان بطاركتنا يتبادلون رسائل فى الأرثوذكسية مع بطاركة السريان .

حـ ــ أقسام الباترولوجيا : للباترولوجيا ثلاثة أقسام رئيسية :

(١) دراسة الآباء الذين يعتبرون كمصادر للمسيحية وهؤلاء فى المدة منذ بـدء ظهور المسيحية إلى عام ٣١٣ م « السلام القسطنطينى » .

(٢) دراسة الآباء الذين يعتبرون عمد المسيحية وهؤلاء فى المدة بين ٣١٣ و ٤٥١ م .

(٣) ختام عهد الآباء ٤٥١م حوالى منتصف القرن التاسع .

ولا يمنع ذلك أن هناك آباء للكنيسة ظهروا فى أوقات متفرقة متباعدة بعد هذا التاريخ .

أهمية دراسة تاريخ الآباء

معرفة تاريخ الآباء مهمة من أوجه كثيرة ، وللكاهن بوجه خاص للأسباب الآتية :

(١) يكون تكوينه اللاهوتى ناقصاً دون عناصر تاريخ المعتقدات واللاهوت الايجابى وهو ما تجده فى تاريخ الآباء .

(٢) ان تاريخ الآباء ذو أهمية خاصة فى بلادنا ، إذ على الكاهن القبطى أن يدافع عن كنيسته أمام طوائف البروتستانت والكاثوليك ، وقد تكون الاستعانة فى بعض الأحيان بآراء آباء الكنيسة ، الوسيلة الوحيدة لاقناع المعارضين إذ مازالت لهم مكانتهم عند هذه الطوائف .

(٣) نظراً لما تشتمل عليه الباترولوجيا من تاريخ التعاليم والعقائد ، فوجود هذه العناصر مجتمعة فيها تجعل دراستها مفيدة للكاهن بالنسبة للعقائد .

(٤) انها ذات نفع مؤكد فى تكوين الوعاظ ، فهى مع الكتاب المقدس فيها الكثير من العبر والعظات .

(٥) انها ينبوع لا ينضب للفكر المسيحى الناضج ، إذ أن الآباء قد سجلوا فيها كل ما اختص به صفوة من المسيحيين ذوى الايمان النقى .

(٦) فوق كل ذلك فإن الاباء جديرون بالدراسة لذاتهم ، فكل منهم مثل حى لرجل الكنيسة الذى يجمع مواهب كثيرة فى شخصية عظيمة ، ويكاد جميعهم يتصفون بالقداسة .

فالباترولوجيا تقدم للباحث فى القداسة متحفاً لا يبارى يتتبع صوره المختلفة ويدرس ما فيه من نفوس عظيمة .

مؤلفات الآباء وما كتب عنهم

ترك آباء كنيستنا القبطية الأرثوذكسية كثيراً من مؤلفاتهم باللغة القبطية فى مكتبات اديرتنا التى ظلت حريصة على هذا التراث الروحى طوال عصور الاضطهاد المظلمة ، وكان بها أيضاً الكثير من المخطوطات السريانية ، وما كتب عن هؤلاء الآباء سواء بالقبطية أو العربية ، وبدأت فى أوروبا فى القرن الخامس عشر والسادس عشر نهضة روحية شاملة نتيجة ظهور البروتستانتية ورميها كنيسة روما بالانحراف عن معتقدات الأباء نتيجة البدع الكثيرة التى دخلت عليها ، وسرعان ما تذكر الجميع كنيسة الاسكندرية الرسولية التى ظلت ردحاً كبيراً من الزمن معلمة الكنائس وناشرة الايمان المسيحى الحقيقى على العالم ، فوفد إلى مصر الغربيون الموفد بعضهم من الفاتيكان أمثال أخوان السمعانى منذ القرن السادس عشر ، وفدوا لا ليأخذوا عن الأحياء الذين أصبحوا كالأموات ولكن ليأخذوا عن الكتب التى فيها حياة عن طريق السطو عليها بمختلف الطرق والحيل ، وأخذوا ما عثروا عليه من مخطوطات إلى بلادهم حيث فحصوها بدقة وعناية واستخلصوا منها ما يعتبر مثالاً فى التعاليم وبدأت المطبوعات عن الأباء تترى منذ القرن السابع عشر والثامن عشر من أشهرها :ـــ

(١) تلك المجموعة التى أخرجها الآب مرجران دى لابنى Marguerin de la Bigne المتوفى عام ١٥٨٩ م التى جمع فيها مؤلفات نحو مائتى منهم فى ثمانية

مجلدات ضخمة ــ أضيف إليها بمرور الزمن إلى أن بلغت ٢٧ مجلدا عام ١٦٧٧ م .

(٢) بدأ الرهبان البولندست Bollandistes عام ١٦٤٣ م بوضع مؤلف عن حياة الاباء ــ طبقاً لأعيادهم بترتيب أيام السنة ، وقد وصلوا إلى الآن إلى شهر نوفمبر فأتموا كتابة سبعين مجلداً ضخماً ، ومازالوا جادين فى اتمامه .

(٣) وضع منسى J.D. Mansi (١٧٥٩ ــ ١٧٩٨م) تاريخاً جامعاً للآباء والمجامع فى أحد وثلاثين مجلدا من الحجم الكبير ، ويقوم باتمامه فى أيامنا هذه Mgr. Le Petit, J.B. Martin .

(٤) أما أهم مجموعة ظهرت إلى الآن ، تقدم مؤلفات الآباء لمدارس اللاهوت فهى بلا شك مجموعة الآب مينى (Migne) المتوفى ١٨٦٥ م . وهى مجموعة لا تبارى ولا تثمن ولو أنها مازالت فى حاجة إلى بعض التصحيحات والتكملة خصوصاً على ضوء تاريخ كنيستنا ، وقد شغل الأباء اللاتين ٢٢١ مجلدا من هذه المجموعة والأباء اليونانيين (وقد أدخل فى زمرتهم أباء الكنيسة القبطية) ١٦١ مجلدا .

وقد استغرق طبع مجلدات الأول المدة من ١٨٤٤ إلى ١٨٥٥ ومجلدات الأخيرين من ١٨٥٧ إلى ١٨٦٦ م .

تكفل الغربيون بعد ذلك بدراسة مؤلفات الأباء وتحليلها ، وقيض الله للسريان يوسف السمعانى المتوفى عام ١٧٦٨ م فأخرج مؤلفاً من أربع مجلدات بروما باسم Bibliotheca Orientalis عرف فيه العالم بمؤلفات الآباء السريان وحللها ووضع فيه كتالوج هؤلاء الأباء الذى وضعه عبيد جيزو (عبد يسوع) عام ١٢٩٨ م .

وحتى البروتستانت وضعوا فى القرن التاسع عشر مؤلفاً عن الأباء ، فجرهارد J. Gerhard المتوفى عام ١٦٣٧ م والذى أطلق كلمة باترولوجيا على هذه الدراسات وضع مؤلفاً عنهم عام ١٦٥٣ م .

وما زال القبط ينتظرون فى القرن العشرين ذلك القبطى سواء أكان من الرهبان أو الكهنة أو العلمانيين الذى يضع مؤلفات عن أباء كنيسته يدرس فيها كتاباتهم وتعاليمهم ويحللها . (محاضرة فى الكلية الإكليريكية بالإسكندرية)

جمعية مار مينا العجايبي
بالاسكندرية
مركزها المؤقت : كنيسة السيدة العذراء

الرحلة الخامسة

زيارة دير أبو مقار بوادى النطرون

للأديرة القبطية مكانة خطيرة فى تاريخ المسيحية . ليس فى مصر فحسب ، بل وفى كافة أنحاء الشرق والغرب جميعاً . فهى مهد الرهبنة . فيها نشأت وازدهرت ودعمت بالنظم والقوانين التى لا يزال يتبعها رهبان العالم أجمعين ، منذ القرن الرابع الميلادى حتى وقتنا هذا . وفيها أيضاً تأسست المعاهد العالية للدراسات اللاهوتية حيث وضعت خيرة المراجع الدينية والتاريخية ، كما رتبت الطقوس الكنسية . ثم وفيها تخرج بطاركتنا وأساقفتنا السابقون منهم واللاحقون .

لذلك حرصت جمعية مارمينا العجايبي على أن تتيح لأعضائها من وقت لآخر فرصة التبرك بزيارة هذه الأرض المقدسة التى وطأتها أقدام آبائنا الأولين الذين ضربوا للعالم أجمع أروع الأمثلة فى الزهد والتقشف بل وفى الفضاء على كل ما تنطوى عليه النفس البشرية من ميول وأهواء ورغبات . وهدفنا هذه المرة بمشيئة الله دير أبو مقار الكبير أو البرية الغربية وأحد مؤسسى الرهبنة القبطية .

برنامج الرحلة

١) تبدأ الرحلة من فناء كنيسة السيدة العذراء بمحرم بك ، حيث يجتمع المشتركون الساعة ٧ السابعة صباحاً بالضبط يوم السبت ١٦ اغسطس سنة ١٩٤٧ ، ومن ثم يتوجهون فى أوتوبيس خاص . رأساً إلى دير أبو مقار بالبرية الغربية حيث يمضون ، بمشيئة الله ، يومى السبت والأحد ، على أن تكون العودة للاسكندرية حوالى الساعة ٥ الخامسة بعد ظهر اليوم الأخير .

الاشتراكات :

٢) عدد المشتركين محدود وهو ٣٠ ثلاثون . والأفضلية المطلقة لأعضاء الجمعية ثم للأسبقية فى طلب الاشتراك .
٣) قيمة الاشتراك ١٠٠ مائة قرشاً للشخص الواحد .
٤) تقيد أسماء المشتركين وتدفع الاشتراكات مقدماً لحضرة وكيل الجمعية ومنظم الرحلة الدكتور منير شكرى شارع سعد زغلول رقم ٣٨ (تليفون ٢٠٠٢١) .
٥) تحدد موعد قبول الاشتراكات فيما بين يومى ٣ و ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٧ . ويجوز قفل باب الاشتراكات قبل ذلك إذا تكامل العدد المطلوب .

بيانات أخرى :

٦) يتضمن برنامج الرحلة الثقافى حديثاً تاريخياً عن نشأة الرهبنة للأستاذ الجليل الدكتور عزيز سوريال عطيه .
٧) سيقدم الطعام فى الدير كالعادة ، ولكل عضو أن يتزود بما يشاء من الأطعمة الخفيفة .
٨) لزيادة الاستيضاح يتصل بحضرة الدكتور منير شكرى بعنوانه المشار اليه بعاليه .

الاسكندرية فى { ٢ اغسطس ١٩٤٧ / ٢٦ أبيب ١٦٦٣ }

رئيس الجمعية
بانوب حبشى

الإعلان عن أول رحلة تنظمها جمعية مارمينا العجايبي بالإسكندرية إلى دير أبو مقار بوادى النطرون عام ١٩٤٧ م .

الفصل الثالث

آباء البرية

لاأجدماأبدأ به موضوعى هذا أحسن من أن أقدم للقارىء ترجمة صفحة مما كتبه كاسيان (Cassien) ، ولن أنتقى صفحة خاصة فهى جميعها مشوقة ممتعة فيها لذة روحية ، ولتكن مثلا تلك الصفحة التى يختتم بها القطعة الأولى من كتابه (المواعظ Conférences) .

المكان برية شيهات ، وقد أرخى الليل سدوله فساد المكان سكون عجيب ، وقد جلس كاسيان مع صديقه جرمان فى قلاية الانبا موسى الذى استقبل هذين الحاجين وجلس معهما مدة طويلة ، وقد أتيا من فلسطين لينهلا من ذلك المورد العذب للتعاليم الروحية وليسترشدا بتلك المثل العليا فى النسك والفضيلة التى تقدمها لهم البرية ...

« وبهذه الكلمات ختم قديسنا المتقدم فى السن أقواله ولم يزد عليها رغما عن رغبتنا الملحة فى المزيد ، وعن أننا كنا نستمع إليه بكليتنا . ثم أشار علينا بأن نغمض أعيننا وأن نرتاح قليلا على الحصيرة التى كنا جالسين عليها عندما كان يتكلم . وأعطانا حزمة من البوص الهش لأجل أن نسند عليها رؤوسنا . وهذا البوص ناعم الملمس يجمعونه حزما ، ويجلس عليه النساك عندما يجتمعون عوضا عن الكراسى ، كما يستعمل أيضا كوسائد فى الليل نظرا لطراوته ونظافته وسهولة نقلها . وهو سهل الجمع ولا يكلفهم شيئا . وينمو هذا البوص بكثرة على شاطىء النيل ويستطيع من يشاء أن يجمع منه كما يشاء فى سهولة وخفيف فى حمله ونقله .. إمتثلنا اذن لنصيحة ذلك الرجل الطيب ، وتمددنا فى هذا المكان ملتمسين شيئا من الراحة ، ولكن كيف يدخل النوم إلى جفوننا وقد هز نفوسنا طربا ما سمعناه وكنا نتوق شوقا إلى سماع ما وعدنا به » .

فإذا لم تكن هذه الأسطر القليلة كافية لأن تجعلك تشعر برغبة ملحة فى قراءة تاريخ أباء الرهبنة فلتسمح لى بأن أقدم لك فى أسطر قليلة أيضا مقدمة الموعظة الثامنة عسى أن تحقق ما أسعى إليه . « فبعد أن قمنا بما يتطلبه منا يوم

الأحد من تقديس وانصرفنا من الكنيسة ، رجعنا إلى قلاية القديس المسن سيرينيوس الذى أحسن استقبالنا ، اذ عوضا عن ذاك الحساء الكثير الملح الذى تعود أن يشربه كغذاء بعد أن يضع عليه نقطة زيت ، قدم لنا فى ذلك اليوم قليلا من نوع آخر من الحساء وزاد قليلا كمية الزيت التى تعود أن يضعها ، ونقطة الزيت هذه لم يكن الغرض منها الاستمتاع بطعمها ، اذ هى ليست من الكثرة بحيث يستساغ لها طعم ، وانما غرض هؤلاء النساك من وضعها أن يمنعوا الزهو والخيلاء من التسرب إلى نفوسهم اذا اشتد بهم الحرمان والتقشف ... وأعطانا أيضا ثلاثة زيتونات بعد طهيها فى الملح ، وأتى لنا بصحفة فيها بعض من حبات الفول فى قليل من المرق كانت لهم بمثابة الحلو من الطعام . ولم نأخذ سوى خمس وحدات وبرقوقتين وتينه اذ أن تجاوز هذا العدد يعد جريمة فى البرية . وبعد أن انتهينا من الطعام مباشرة ، رجوناه أن يفى لنا بوعده فيفسر لنا أصحاحا تعذر علينا فهمه من رسائل القديس بولس » .

لا أقصد من تقديم هاتين القطعتين أن أجعل خيال القارىء يسبح معتقداً بأنى سأقدم له بعد ذلك صورا ممتعة عن جمال الصحراء ومافيها من سحر وجاذبية . ولكن على العكس أردت أن أبدأ بإعطاء ذلك الخيال شيئا يشبعه منذ البداية حتى يرقد ساكنا ويترك المجال لكل ماهو عميق فى النفس يتحرك ويتفتح لاشياء بالغة فى السمو .

وكاسيان هذا هو كاتب لأحد المصادر المهمة لتاريخ أباء الرهبنة سأتكلم عنه بشىء من الاسهاب عند التكلم عن المصادر عامة . والمصدران الآخران المهمان هما ماكتبه بلاديوس وماكتبه كليماك وروفان (Ruffin). ولقد ظل العالم المسيحى عامة يحترم هذه المصادر بحذافيرها ، حتى أنه عندما قام هربرت روزويد (Herbert Rosweyd) فى القرن السابع عشر يجمع فى مؤلف ضخم (حياة الاباء) كان لهذا العمل صداه العميق وقوبل بكل ترحاب .

ولكن النقد العلمى الجاف الذى يعنى بالهدم اكثر منه بالبناء مالبث أن طلع علينا فى أواخر القرن التاسع عشر بعاصفة هوجاء على الرهبنة المصرية مشككا فى

قيمتها بل وفى جودها ، وهنا ينطبق المثل الذى يقول رب ضارة نافعة فقد حفز ذلك كثيرا من العلماء الى الاهتمام بذلك الموضوع وزادت الدراسات فيه تعمقا ومن حسن حظ الانسانية أن خرجوا من تلك الابحاث العلمية وقد ارجعوا آباء البرية إلى مكانهم من التاريخ . حقا قد تبلبلت الأفكار حقبة من الزمن ولكنها رست أخيرا على أسس قوية راسخة . وسأفصل فيما يأتى ماأجملته من هذه الحركة التى مازالت تزداد حماسا واتساعا أكثر من أى وقت مضى وسأجتهد فى إعطاء خطوط واضحة تبين خط سيرها .

بدأت هذه الحركة فى المانيا مهد البروتستانتيه . وقد تناول علماء البروتستانت كل ما يمت إلى الكنائس التقليدية بالنقد والتفنيد . وكانت الرهبنة وتاريخ مؤسسيها مما تناوله التفنيد والتجريح . ففى القرن الماضى قام وينجارت ولوسيوس (Weingarten and Lucius) يدقان الطبول أمام تاريخ أباء البرية وهم يشيعونه إلى خارج حدود الحقيقة والواقع ، وحتى فى انجلترا — تلك القلعة المحافظة — وجد من قام ينشر الدعوة إلى إنكار وجود القديس انطونيوس أمثال (Farrar) . وإذا نقلنا نظرنا نحو فرنسا وجدنا اميلينو (Amelineau) يتزعم ذلك الحزب فيها وهو ولو أنه لا يذهب إلى الحد الذى ذهب إليه أقرانه فى المانيا وإنجلترا إلا أنه حاول أن ينتقص كثيراً من قيمة الوثائق التى لدينا وعلى الأخص كتاب (Historia Lausiaca) أو ما يُطلق عليه البعض كتاب بستان الرهبان لبلاديوس (Palladius) وهو كما ذكرت آنفا أحد المصادر الرئيسية .

ولكن ما أوشك هذا القرن على نهايته حتى قام رد فعل شديد لهذا الاتجاه حتى فى المانيا ذاتها. وقام الفريق المحافظ بشن هجوم مضاد فجائى وناجح فيما بين سنتى ١٨٩٨ — ١٩٠٤ م . وقاد هذا الهجوم الموفق إلى النصر ، زعيمان من الدرجة الأولى هما المنسنيور لادوز (Mgr. Ladeuze) ودوم كثبرت بتلر (Dom Kuthbert Butler) وقد أخرج لنا الأول كتابه عن « الرهبنة الباخومية فى القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس » فى سنة ١٨٩٨ م الذى فتح به عهدا جديدا فى بحث ما يتعلق بالرهبنة الباخومية . وقد إقتفى اثره كثير

من العلماء منذ ذلك الوقت نذكر منهم على الخصوص لوفور (Mgr. Lefort). وأخرج لنا الثانى كتابه فى اثبات القيمة التاريخية Historia Lausiaca لبلاديوس بين سنتى ١٨٩٨ ، ١٩٠٤ م .

وقد كان لهذين الكتابين تأثير شديد فى الحملة المتعلقة بموضوع الرهبنة وإيذانا بعهد اشتدت فيه حركة البحث والتأليف فى ذلك الموضوع . ولا أستطيع هنا أن ألم بكل ما صدر فيه ، وإنما أكتفى بذكر المؤلفات التى سهل تداولها فى الغرب ، فهناك الفصل الضخم فى كتاب دوشين (Duchesne) « رهبان الشرق فى تاريخ الكنيسة القديم » المطبوع سنة ١٩٠٧ م ، ثم فصل فى رهبنة الشركة لدوم لكليرك (Dom Leclerc) فى كتاب « قاموس الأثار المسيحية والطقوس » الافرنجى المطبوع فى سنة ١٩١٠ م ويقع فى مائتى عامود ، وقد أحاط فيها بالموضوع إحاطة تامة وعالجه بروح حماسية بلغ بها الذروة فى الحماس ، وهناك أيضا كتاب (الوثائق والمتون) Textes et (Documents تأليف Paul Lejay et M. Memmer ، وظهرت فى سنة ١٩١٢ ترجمة لوكو (M. Lucot) الفرنسية لكتاب بلاديوس فقوبلت بترحاب وشغف من الكثيرين فى فرنسا .

وتأتى الفترة بين سنتى ١٩١٦ ، ١٩٢٣ م فإذا هى أيضا مليئة بتلك الابحاث والمؤلفات وانما تميزت بتلك الجرأة وبذلك الاستفزاز الذى بدأ من ريتزنشتين (Reitzenstein) عندما قام بنقد كتاب ال Historia Lausiaca تحت عنوان : أقوال الآباء (Apophtegmata Patrum) .

وانت اثناء قراءة كتاب Reitzenstein تكشف عن موقف المذاهب البروتستانتيه نحو تاريخ المسيحية وعلى الاخص تاريخ الرهبنة . وتمر فيه على فقرة لهرنك (Harnack) تعطيك فكرة واضحة عن نظرة البروتستانتيه إلى الرهبنة اذ يقول فيها « لا أتردد فى القول بأنه ما من كتاب سبب انحطاطا فكريا فى مصر وأسيا الغربية وأوروبا مثل كتاب حياة انطونيوس تأليف اثناسيوس الرسولى » فهذه الفقرة تبين بأجلى بيان كيف يعلن البروتستانت احتقارهم للرهبنة .

وانت تتبين أيضا اثناء قراءة هذا الكتاب كيف أنهم ــ أى البروتساتنت ــ لم يروا أو لم يريدوا أن يروا من الرهبنة سوى مظاهرها من تقشف وما وصلنا عنها من رؤى وعجائب . ولكن هل الرهبنة هى كل ذلك ؟ إن هذه الأشياء ماهى إلا مظاهر ثانوية بالنسبة لذلك الكمال المسيحى التى تنطوى عليه تعاليم الرهبنة . ثم تلاحظ بعد ذلك التحول الذى طرأ على نظرة بروتستانت المانيا بعد أن كانت مضادة على خط مستقيم واذ بك ترى ريزنشتين ذاته ــ وهو من فريق المعتدلين ــ وقد جلس على إحدى تلك الحزم من البوص الهش التى سبق وصفها فى قلاية بفنوثيوس أو أنا أمون !

وأما كتاب بوسيه (Bousset) فقد القى ضوءا عظيما على موضوعنا هذا . ولقد ترك لنا كتابه هذا بعد أن أكمله فتولى طبعه ونشره (G.Krüger) . وهو يحيط بما يخص رهبان برية شيهات المصريين ، حوى كثيرا مما حوته المخطوطات ومالم ينشر من قبل . وهو يعرفنا بهؤلاء الرهبان الذين عاشوا فى برية شيهات بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس ، ويبرز بينهم الانبا بامون ومدرسته . ولقد تنوقلت هذه الأقوال شفويا فى المبدأ ثم قيدت بعد ذلك ويظن أن مؤلف بستان الرهبان وكذا كاسيان استعانوا أيضا بمعلومات مخطوطة . والمتصفح لهذه الأقوال لا يسعه إلا أن يعجب بما فيها من قوة ومن روح قدسية . وصدق أحد تلامذتهم اذ يقول «إن أقوالهم ماضية كالسيف» ، وأنت تجدهم فى هذه الأقوال يكثرون من الأمثال ومن انواع القصص القصير ، كما أنهم يتجنبون النقاش الحاد والمواعظ ويقلون من ذكر المعجزات والرؤى . وأظهر مافيها تعبيرهم بفصاحة وبساطة عن الحياة الروحية العميقة . وإن الباحث عن الحياة الجماعية للرهبنة فى برية شيهات يجد فى هذا الكتاب قيمة تاريخية عظيمة .

لقد كان تلاميذ هؤلاء الآباء يوجهون اليهم دائما هذا السؤال «ماذا نصنع لكى نخلص وننال الحياة الأبدية؟» ويذكرنا هذا السؤال بذلك الذى كان يوجه إلى يسوع من الشاب الغنى وأحد الكتبة وكثير غيرهم . والأقوال فى

كلتا الحالين تنوقلت شفويا ثم لم تلبث أن قيدت بعد زمن . ولو أن الشبه ليس كاملا إلا أن تتبع أقوال أباء البرية وكيفية تناقلها وتسجيلها يعطينا فكرة عن أصل وتكوين الأناجيل . وهذا مما يزيد فى قيمة ذلك الموضوع والرغبة فى تتبعه والشوق إليه .

يقول أحد الباحثين أن أداب البرية يسهل تصورها كطبقات جيولوجية متتالية ، ففى الطبقة العليا الأرض المفلحة ذات المحصول الوفير وهى تمثل ماكتبه أمثال كاسيان وكليماك ، هذه الطبقة هى التى بنى فوقها كاتدرائيات بعد زمن وهى كتابات القديسين اللاحقين أمثال القديس توما الأكوينى الافرنجى ، ويأتى تحت تلك الطبقة ذلك القصص البسيط الذى جمعه أمثال بلاديوس وروفان (Ruffin) ، وتحت هذه تأتى الوثائق التى أفسدها التناقل مظهرها الأولى ، ويأتى بعد ذلك فى القاع تلك الطبقة الرقيقة ، أو بعبارة أخرى أوراق الذهب الصافى أى أقوال الأباء الأولين الأصلية . وكل هذه الطبقات تكون كتلة . وقد نلاحظ بين طبقة وأخرى بعض التشقق الذى يشع منه وهج الطبقة السفلى ، بل نستطيع أن نجد حتى فوق الطبقة العليا بعض قطع من ذلك الذهب الأولى مبعثرة هنا وهناك ، بفعل ماأصاب تلك الأرض من حرث وتقليب .

ولا نريد أن نقول أنه باستثناء تلك القطع الذهبية المبعثرة لا نجد سوى معدن رخيص فى تلك الأداب التى نشأت من الأقوال فى مثل كتاب «المواعظ» لكاسيان ، ذلك الكتاب الفريد فى نوعه والذى لا يثمن . وإنما أقصد أن فى استطاعتنا أن نتبين فى مثل هذا الكتاب بعض الأقوال التى تحمل ذلك الطابع الأولى الأصيل أى التى أخذت مباشرة من أفواه أباء الرهبنة بدون أى تنمين أو صقل . ويكون مثلنا كمثل ذلك المؤرخ الفلسفى الذى يجتهد فى التعرف على مايحمل طابع سقراط فى أقوال أفلاطون ، على أن التشبيه هنا يكون إلى حد ما فقط ، اذ أن فكرة سقراط الفلسفية قد نستطيع أن نضعها فى أكثر من قالب وأن نعبر عنها بطرق مختلفة ، ولكننا هنا نبحث عن جمل ذات

طابع خاص غير قابل للتغيير ، نبحث عن أقوال نتوق إلى العثور عليها كما لفظت يوما ما سبقت ولحقت بصمت تام ، جملا تهز النفوس ولكنها تحتاج إلى شيء من التأمل ، وهى نصائح اكثر منها دروسا ، وقد تكون أحاجى أكثر منها أقوالا عادية .

لقد وصفها بعضهم بأنها «تعبير طبيعى غير منمق للحياة الروحية العميقة» . وهذا لتمييزها عن الأقوال التى تصدر بعد أول وهلة وأعمال الفكر ، ولكن هناك أيضا من يعتقد — وأظن هذا أصح — أن هذه الأقوال لم تكن بنت ساعتها كما تبدو ولكنها تعبير عن عوامل نفسانية بطيئة النمو والنضوج تبرز فيها الناحية الروحية ، وهى فى أثناء هذا النمو أتيح لها الوقت لتصقل ويعاد صقلها حتى أخرجت لنا أشعارا قصيرة أو فيما يشبه الأشعار جزالة وجمالا .

إذا علمنا ذلك تبدو لنا شخصية أباء البرية ومعلميها فريدة فى بابها بل غريبة لأول وهلة ، اذ يصدر كل ذلك عن جمع من النساك اكثرهم من الأميين لم يكن فى ماضى حياتهم مايلفت النظر ، يصعب عليك أن تميز شخصية كل منهم على حدة . لم ينل بلاديوس وكاسيان شهرتهما العبقرية فيهما وإنما كانت شهرتهما بوصف كونهما شهود بل ولا تتردد فى القول ومبشرين . إذ كانا أكثر من ناقلين عاديين ، وكم يلذ لنا أن نسمع الأنبا اسحق والانبا موسى وغيرهم يتكلمون عن لسان كاسيان !

وليس فى هذه الأقوال مايحمل طابعا خاصا لكل من هؤلاء الاباء ، فإن من السهل أن تنسب أقوال الأنبا موسى مثلا إلى الأنبا مكاريوس . لقد كانت البرية كجامعة كبيرة ذات الف رواق ومن السهولة بمكان أن نضل فى أروقتها إذا حاولنا تمييز ماقاله كل منهم كما ضل الأنبا مكاريوس فى أرجاء الصحراء عندما غافله الشيطان وسرق العيدان التى كان القديس قد غرسها لتكون بمثابة معالم لنواحيها ، فلا نتشبث بضرورة تمييز صاحب التعاليم أو أن نتساءل إلى مدرسة من منهم تنتمى هذه الأقوال أو تلك . ولكن الذى يجب أن نعلمه جيدا عن هذه الآداب المتفرقة التى لا تحمل طابع شخصية خاصة ولا تنتمى إلى مذهب

خاص أنه كان لها التأثير الواسع المدى العميق والثابت على الدهر ، على تقاليد وعادات الشعوب المسيحية فى مختلف أرجاء العالم ، بل على المدنية ذاتها . لقد تخرج أكبر العلماء والفلاسفة من جامعة البرية ، ومسيحيو اليوم مازالوا يغترفون ـــ دون أن يعلموا ـــ من ذلك البحر الزاخر العجيب .

بعد عصر الاضطهادات العنيفة التى لاقتها المسيحية ، وعندما بدأ الوثنيون يتدفقون مقبلين عليها ، كان هناك خوف على الفضائل المسيحية من أن تتلوث ببعض العادات الوثنية ، كما كان هناك خوف من أن يحاول فريق ما أن يوفق بين تعاليم الأنجيل والروح الوثنية . نعم كان هناك الأكليروس متيقظاً لمثل هذه المحاولات ، وكان لديهم من السلطة مايقضى عليها بأصدار قوانين وأوامر ، ولكن تهذيب النفوس وتكوين الضمائر أو تحويلها لا يكون بالأوامر والقوانين فقط ، كما كان لابد من إيجاد حالة نفسية وروحية جديدة مهيئة لقبول مثل هذه الأوامر والتعاليم . فكانت الصحراء أو البرية هى المهد الجديد الذى تكفل بحفظ سمو ونقاوة التعاليم الأدبية للسيد المسيح مثل الزهد ونكران الذات والمحبة بكل ماتحمل هذه الكلمة من معان سامية ، والعلم بأن الروح فى عراك مستمر مع شهوات الجسد مع هذا العالم الذى إزداد إغراء وخطرا بعد سقوط الامبراطورية التى كانت تقاوم المسيحية فى ذاك الوقت .

وبالرغم مما فى إمتلاء الصحراء بالنساك والمتعبدين وأساتذة الرهبنة من عمل عظيم فريد فى تاريخ الأديان فقد قام البعض بمحاولة فاشلة للتقليل بما فيها من قوة وشأن ، وأرادوا أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك فأرادوا أن يتخذوا من المبالغة فى التقشف والشدة التى ذهب إليها بعض الآباء وسيلة لأتهام الانجيل بأنه قد أخل بتعاليمه ذلك التوازن والتناسق بين القوانين والذى عملت الوثنية على تدعيمه والمحافظة عليه ، وقام البعض الآخر ينكرعلى هذه الدعوة طرافتها ورموا هؤلاء النساك بأنهم عملوا على إحياء تقليد وثنى قديم ، وفاتهم أن عظمة هؤلاء الأباء لم تكن فى تركهم العالم ـــ وهى حقيقة فكرة قديمة ـــ بل هى فى جعل هذه الفكرة تجد قبولا لدى العالم كله الذى تلفت نحو مدرسة البرية .

وإن انتزاع المسيحيين مما فى العالم من مفاسد أقامت صرحها الوثنية وكانت مازالت محتفظة بقوة تأثيرها ، ومما فى المدينة القديمة من إغراء ، ثم بعد ذلك جذب الوثنيين الذين أبهرهم منظر هذه الميادين الجديدة وماتجلى فيها من بطولة ومظاهر القوة الروحية ، هذا هو الذى يقف الإنسان أمامه حائرا ، هذه هى المعجزة !

لقد قام هؤلاء النساك بتلقين مبادئهم وتعاليمهم فى جامعة شعبية ديمقراطية لم نسمع فى التاريخ عن مثيل لها ، فبالرغم مما فى هذه التعاليم من حكم عالية وأفكار سامية فكانت تلقى على بسطاء القلوب من جميع الطبقات الاجتماعية على إختلاف درجة ثقافتهم كما كانوا يلقنونهم أسرار لأشد أنواع الخضوع والنظام ، كانوا يلقون هذه التعاليم وهم فى نفس الوقت أمثلة حية لها أمام ناظرى مشاهديهم والمستمعين إليهم . لقد كانوا فى سهولة وطلاقه وبدون أى محاولة للكلفة والتنميق تصدر عنهم فى أقوالهم وأعمالهم تلك المبادىء السامية التى تنم عما فى نفوسهم من قداسة .

وإننا لعلى يقين بأن علماء الاخلاق والاديان حتى فى هذه الأيام يجدون فى هؤلاء البسطاء مادة ومعينا لاينضب لأى دعوة إلى التقدم فى النواحى الروحية والتهذيبية ، وهم على بساطتهم وقدم العهد بهم لايقلون عن قديسى الغرب فى العصور الوسطى الذين لمعت أسماؤهم فى سماء فلسفة الروحانيات ، بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك ونعلم من يقرأ أقوالهم وحكمهم ويعجب كيف أنها تتمشى مع أسمى المبادىء التى ننادى بها اليوم ، نعلمه بأن هؤلاء الفلاحين المجهولين الذين لم يكونوا يمتازوا عن صيادى الجليل فى علومهم قد وضعوا فى الحقيقة الأسس والمبادىء الخالدة التى تقوم عليها كل ما يتعلق بالحياة الروحية إلى الأبد !

يقول الأب (Rousselot) فى كتابه (كرسيتوس Christus) « إذا بحثنا بشىء من التدقيق فى المثل العليا الذى كان هؤلاء النساك يضعونه نصب أعينهم تتملكنا الدهشة ويستولى علينا العجب لما كانوا يتحلون به من قوة الملاحظة

النفسانية والحكمة العملية ، بل مانضعه فى كلمة واحدة : سلامة الذوق فى روحانياتهم » .

وإنه لأولى واكرم باولئك الذين يتخذون من تاريخ هؤلاء الآباء مادة للسخرية والتهكم لو أنهم استعملوا إدراكهم لإستخلاص مافى هذه الصفحات من دلائل التدين العميق ودقة الشعور التى تتوج كثيرا من فضائلهم ، ومافيها أيضا من إنسانية تعطينا أسمى الأفكار عن الانسانية المسيحية .

ويقودنا هذا البحث إلى استعراض وجهة نظرهم عن إبليس أو (العدو) كما كانوا يسمونه ، وإن لاهوتيى البرية هؤلاء هم الذين كشفوا لنا عن ضعفه التام ، وبينوا لنا أنه يستمد قوته من نقط الضعف الموجودة فينا فهى التى تغريه بمهاجمتنا ولكنه سرعان مايهرب إذا لمس أى قوة فى مقاومته ، فيقول عنه أحد هؤلاء الاباء «إنه ثعبان بلا اسنان» ،وأن التحصين ضد سمومه متاح للجميع . ويوضح لنا بلاديوس ماكانوا يشعرون به من قوة روحيه وما كانوا يبدونه من مقاومة عنيفة فيقول « إننا نخاف الذباب أكثر مما يخاف الأنبا موسى إبليس » ، وهم لم يقفوا أمامه موقف الدفاع فقط بل علمونا أن هناك مجالا للهجوم فى متناول كل ضعيف. وكان من أثر هذا النضال ضد الشيطان والخطية أن درسوا جميع خطط ذلك العدو بكل دقة ، وإننا حين نقرأ عن أخبار هذه الخطط وتدبيراتهم لإخفاقه والإستهزاء به والسخرية منه نخرج من ذلك وقد علمنا أن ليس من السهل غزو النفس القوية كما انها تستطيع الصمود إلى النهاية ، كما أنه يجب أن نخفى عن هذا العدو حركاتنا واتجاهاتنا ولنورد فى ذلك المعنى تلك الأقوال الخالدة التى نقلها كاسيان عن الاب سيرينيوس « يتفق الجميع على أن ليس فى استطاعة الأرواح النجسة أن تعلم أفكارنا ، إنما يتاح لها ذلك بمراقبة حركاتنا وسكناتنا وأقوالنا ، إذ من كل ذلك يستخلصون أميالنا ورغباتنا ، وبغير ذلك فإنها تظل على جهل تام بكل ماتنطوى عليه صدورنا . ليس ذلك فقط بل إنها لا تستطيع أن تعلم أيضا أنها قد أصابت منا مقتلا إلا بملاحظة مايبدو علينا من تعابير أو حركات بوجه عام . ولأضرب لك مثلا على ذلك ،

فإذا جرب أحد الإخوة بتجربة عدم الصبر مثلا ، فإن هذه الأرواح تلاحظ عليه أنه يطل كثيرا من الطاقة ليرى الشمس حتى يعرف الساعة ، أو تراه يسأل فى إلحاح اذا كان الوقت قد أمسى . وهى تعرف من ذلك أن عدم الصبر قد ترك أثرا فى نفسه » .

يقص علينا جليوم دى توكو (Guillaume de Tocco) تلميذ القديس توما الأكوينى أن معلمه كان يقرأ يوميا بعض صفحات من مواعظ كاسيان وكان يقول عنها «أنى بهذه القراءة أشعر بقوة روحية كما أشعر بعد ذلك بالسهولة التى أرتفع بها نحو التأملات السماوية » .

تبدو بعض ضروب النسك والتقشف لنا اليوم غريبة ولكنها كانت تبدو غريبة أيضا لمن عاصروهم وها هو بلاديوس يسجل لنا قطعة ــ بدت وقائعها غريبة فى نظره ــ عن مكاريوس الأسكندرى ، ذلك الرجل الذى حاز بطولة البرية ، كما يقول عنه دوم بتلر (Dom Butler) :

« عندما سمع مكاريوس عما يقال عن رهبان ديرطابنيس (رهبان القديس باخوميوس) وقواعد حياتهم الدقيقة ، أبدل ملابسه ولبس ثوب عامل عادى وسار حتى وصل إلى نواحى طيبة بعد خمسة عشر يوما ... وما أن أدرك طابنيس حتى طلب رئيسهم الذى يسمى باخوميوس وهو رجل محنك ، نافذ البصيرة له موهبة التنبؤ ولكن لم تكشف له شخصية هذا الزائر ، وعندما أدخلوه عليه طلب منه أن يقبله فى ديره فأجابه باخوميوس «أنك رجل بلغت من العمر عتيا ، وليس هذا هو السن الذى يطلب فيه النسك . وأنك لن تستطيع مجاراة الرهبان هنا فى عبادتهم وتقشفهم ، ولن تلبث حتى تشعر بملل ومضايقة فتتركنا ساخطا» . وظل رافضا طلبه لمدة أسبوع ، وظل مكاريوس ثابتا صائما طوال تلك المدة ثم كرر سؤاله قائلا: «اقبلنى يا أبتى وإذا صادف أن لم أتمكن من مجاراتهم فى صومهم ومعيشتهم فلتأمر بأن يقذفوا بى إلى الخارج» . وقبل طلبه وبعد وقت قصير بدأ الصوم الكبير وقام الرهبان كل يروض نفسه على نوع من الصيام فهذا لا يأكل حتى المساء .. وذاك يظل على

الطوى خمسة أيام وآخر يظل واقفا طوال الليل ويجلس أثناء النهار . وأما هو فقد وقف فى أحد الأركان ، وكان طوال الأربعين يوما حتى عيد الفصح لا يذوق الخبز ولم يثن ركبته مرة أو يرقد ولم يمسس شيئا سوى بعض أوراق الكرمب فى أيام الآحاد فقط حتى يظهر أنه يأكل ، وإذا خرج لقضاء حاجة فإنه يرجع مباشرة ودون أن ينبث ببنت شفة ليظل واقفا صامتا .

وعندما رأى الرهبان هذا المنظر صغرت نفوسهم فى أعينهم ، ونفذ صبرهم فذهبوا إلى باخوميوس فى سخط وتبرم وقالوا : «من أين أتيت لنا بهذا الرجل الهزيل ليملأنا مذلة ، إطرده وإلا تركنا لكما الدير » .

وإهتم باخوميوس بهذه الحالة فى ديره التى سببت لنا شيئا من القلق وصلى إلى الله آن يكشف له عن شخصية هذا الزجل العجيب ، فإستجاب له الله ، وعند ذلك أخذه من يده وأدخله إلى الكنيسة أمام المذبح وقال له «والآن أيها العجوز ! أنت مكاريوس وقد أخفيت نفسك عنى ولقد كنت أتوق إلى رؤيتك منذ سنين ! إنى أشكرك اذ جعلت أولادى أيضا يرونك ، وعسى أن يتخذوا منك مثلا فيزيدوا فى توبتهم ونسكهم ولا تكون لتجربة الغرور والخيلاء أى مكان فى نفوسهم . والآن لتمض بسلام إلى حيث تقيم فقد وعظتنا بما فيه الكفاية ، صل لأجلنا ولتصحبك السلامة » .(٩)

يقرأ الكثيرون هذه القصة فيثير إعجاب البعض ذلك الصيام لمدة اربعين يوما والذى لم يتخلله سوى بعض أوراق الكرمب . ويرى البعض الآخر أن البطولة هنا كانت لباخوميوس الذى أدرك ماخالج نفوس رهبانه ، ورأى أن القلق الذى استولى عليهم لم يكن سببه عجزهم عن مجاراة ذلك الناسك العجيب وإنما هو فيما تولد عن هذا المنظر من شعور مختلط من الحسد والغضب واليأس ، ولقد أدرك مافى ذلك من الخطر كل الخطر على روحهم المعنوية فتدخل فى الوقت المناسب وإستطاع بذلك أن ينقذ الدير وأنظمته ودون أى تغيير ، ومسألة «الروح المعنوية» وعلاقتها بالنظام فى تدبير شئون الجماعة أو «الشركة» وأهميتها الحيوية ، كان يدرك كل ذلك باخوميوس منذ

ستة عشر قرنا . ونحن فى أيامنا هذه لم نعلم عنها شيئا قبل الحرب الأخيرة وقد كانت العناية بها مما نجا الجيوش من كثير من الكوارث !

وإننا نخرج من قراءة أمثال هذه الصفحات وقد ادركنا ذلك المعنى العميق الذى تنطوى عليه هذه الحياة النسكية من مأكل ومسكن وفروض للتوبة والندم وهذا المعنى هو الجهاد ، الجهاد الروحى الجبار الذى كان بالأمس كما هو اليوم ضد الشهوات الجسدية التى لم تتغير ، والذى وضع منهاجه الإنجيل والقديس بولس .

وقد حرص أباء الرهبنة على أن يبينوا لكل من يطرق بابها ماينتظره من جهاد عنيف وأن من يريد أن يدخل الدير يجب أن يعلم قبل كل شيء أنه لا يدخل ملجأ وأن الطريق أمامه شاقه متعبة تتطلب إرادة من حديد ، ولذلك يلاحظ القديس باخوميوس للملاك الذى أملا عليه قوانين الشركة أن فروض الصلاة الإجبارية قليلة ، فيجيبه الملاك « ولكن هذا هو بالضبط ما أرمى إليه . إذ لا يجب أن تنهك قوى الحديثين بما يفرض عليهم من واجبات ، وأما من هم أقوى وأكمل فلا يحتاجون لقوانين ، وإنى فيما أعطيك من قوانين أفكر قبل كل شيء فى جمهور الضعاف ، إذ أود أن أجنبهم مايتحملونه من عذاب إذا كان لهم ضمير خائر العزيمة مثبط للهمة » .

وباخوميوس هذا هو مثال عظيم قل وجود نظير له . أجمع مؤرخو الرهبنة على أنه الرئيس النموذجى ، أعطى كثيرا من روحه لأداب البرية ولونها بلونه الخاص .

ولقد إنفرد أباء البرية ، وتميزوا بتلك الموهبة العجيبة التي نسميها « الفن السمائى أو السحرى فى جعل الغير يستعذبون آلامهم» ، وهو فن لم يسبقهم أحد فيه قط ولم يتركوا فيه زيادة لمستزيد بعدهم ، أو هو كما يقول كاسيان « فن توجيه النفوس » و ماذا نقول أيضا ؟ لعل الروح القدس قد حل مرة أخرى على هؤلاء الأميين فمنحهم موهبة توجيه النفوس .

المصادر الرئيسية لتاريخ الرهبنة

أشرت فى كلمات عابرة عن بعض المصادر الرئيسية لتاريخ الرهبنة وهأنا أرجع إليها ببعض التفصيل إذ أرى فى ذلك كل الفائدة للشاب القبطى المثقف .

كان القديس أثناسيوس أول من كتب سيرة عن أحد هؤلاء القديسين ، ولقد حُمل هذا التاريخ إلى الغرب كأول رسالة من رهبنة الشرق ولا زال إسم بطله القديس أنطونيوس يحتل مركز الشرف فى جميع التقاويم .

وفى «حياة القديس أنطونيوس» نستطيع أن نتبين تلك العلاقة التى كانت بين طهارة العقيدة والأرثوذكسية النسكية ، والتأثير المتبادل الذى كان بين المدافع الأول عن الايمان الحقيقى والفيلسوف الروحى ، كما نتبين أيضا بإعجاب ذلك الشعور بالإحترام للسلطة الكهنوتية عند القديس أنطونيوس يقابله تواضع اللاهوتى العظيم أثناسيوس الذى ينزل إلى مرتبة التلميذ لأحد النساك .

وتأتى بعد ذلك «حياة باخوميوس» التى كانت أقل انتشارا ولكنها تكشف لنا عن تلك الروح التى كانت تغذى حماسة هؤلاء النساك . ولقد أثبت المنسنيور لادوز (Mgr. Ladeuze) أن كتاب حياة باخوميوس هذا هو مستند حقيقى كتب بعد وفاة القديس بمدة قصيرة بواسطة راهب لا يعرف اسمه .

ويأتى بعد ذلك كتاب " Historia Lausiaca " أو مايسميه البعض بستان الرهبان وقد أثبت قيمته التاريخية دوم بتلر (Dom Butler) . والذى كتبه بلاديوس وهو رجل من غلاطية قام بسياحتين إلى مصر ، الأولى سنة ٣٨٨م ودرس الفلسفة النسكية وأقام حتى سنة ٣٩٩ م ، وفى سنة ٤٠٠ م رُسم أسقفا لهيلينوبوليس . وقد دافع عن القديس يوحنا فم الذهب ، ثم نفى إلى أسوان سنة ٤٠٦م ومكث فى مصر ست سنوات . وعندما رجع إلى غلاطية كتب تاريخا حوالى سنة ٤٢٠م واهداه إلى لوزاس (Lausus) أمين الامبراطور تيودورسيوس الثانى وهو الذى نحن بصدده . وأنت تقرأ تاريخه فتلاحظ أن كاتبه لم يتبع نهجا معينا أو مدرسة معينة ، كما أنه لم يكن له أى مطمح أدبى فلا

تنميق ولا ترتيب ولا إختيار خاص للألفاظ . كما أنك تلاحظ أنه لم يكن فى كتابته يميل إلى بطل خاص يمدحه ولايرى . إلاكلمايقول ويفعل . فهو يتكلم عن كلمارأى وماسمع دون أى تحيز خاص . وأنت بعد ذلك ترتاح إلى مايتجلىفى كتابته من صراحة وبساطة وإستقلال . وهو يضع فى كتابته هذا خلاصة دراسة سبعة عشر عاما .

ويأتى بعد ذلك ماكتبه روفان (Ruffin) ويرى البعض أن روفان لم يكن سوى مترجم لكتاب بلاديوس إلى اللاتينيه . ولكن مما لا شك فيه أنه زار نفس الأماكن التى زارها بلاديوس وعرف أكثر أبطاله وإن التشابه فى كثير من المواضع بينهما هو مما يقوى قيمتهما التاريخية .

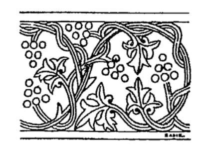
ونحن عندنا نفس الثقة فيما كتبه كاسيان (Cassien) فهو يسجل تجاربه ومشاهداته ولكن بطريقة مختلفة . اذ أن كتابه «المعاهد Institutions » له سمة الرسالة كما أن « المواعظ Conférences » الشهيرة فيها إسلوب المؤلفات الدينية الخاصة .

وجان كاسيان توفى سنة ٤٣٥م ولم يتفق إلى الآن على وطنه الأصلى .فمن قائل أنه شرق أوروبا ومن قائل فلسطين وآخر أواسط فرنسا والله أعلم . كان ناسكا فى بيت لحم مع صديقه جرمان (Germain) وذاعت فى ذاك المكان شهرة المتوحدين المصريين فذهبا إليهم . وقد زارا مصر السفلى وعاشا على الأخص فى برية شيهات ولا يبدو أنهما ذهبا إلى مصر العليا . ثم رجعا إلى بيت لحم لمدة قصيرة إذ كانا قد وعدا بالرجوع إلى ديرهما ثم قفلا راجعين إلى برية شيهات التى استهوتهما إلى درجة كبيرة . وذهبا بعد ذلك إلى القسطنطينية وكانا ضمن المدافعين عن يوحنا فم الذهب الذى رسم كاسيان كاهنا . وحملا إلى البابا خطابات اكليروس القسطنطينية قدحا فى أسقفهم . ثم عين كاسيان كاهنا فى روما . وذهب بعد ذلك إلى مرسيليا حيث أسس دير القديس فيكتور وديرا آخر للسيدات . ويقال أنه كتب هناك كتابيه . وإجابة للبابا لاون Leon كتب كتابا فى تجسد المسيح (De Incarnatione Christe)ضدنسطر .

وهو يعتبر فى الحقيقة زعيم أدبياتنا الروحية ، إذ يلخص بريشة أستاذ كبير كل ماوعاه من دروس صحراء مصر وعنه أخذ جميع الكتاب . ولم يكن القديس توما الأكوينى سوى معلن على هذه الشروط النسكية .

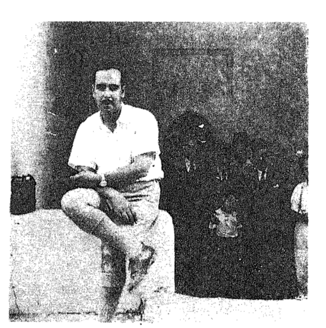
وهو بهذه الكتب وبهذا الدير الذى أسسه فى مرسيليا قد حمل معه إلى الغرب تراث الرهبنة كما أخذها من مصر . كان يدخل إلى قلايات الرهبان فى وادى النطرون ويحادثهم ويسجل هذه المحادثات . وهو يدخل شيئا من صناعة الأدب فى كتابته فيقسم الكتاب إلى أربعة وعشرين فصلا . وإن لهجة الكتابة والتناسق وقداسة المؤلف كل ذلك يجعلنا نرى فى كاسيان شاهدا لتعليم البرية لايرقى إليه الشك .

وكتب كاسيان كتاب المعاهد قبل المواعظ إلا أنه أقل منه تداولا فى الازمنة الحديثة . وقد زُوِّد هذا الكتاب بوثائق على جانب كبير من الأهمية .





أعضاء جمعية مارمينا العجايبي داخل احدى كنائس دير
القديس أنبا مقار بوادى النطرون فى أغسطس ١٩٤٧



وكيل جمعية مارمينا العجايبي ــ دكتور منير شكرى ــ مع أعضاء الجمعية
أمام احدى كنائس دير البراموس بوادى النطرون فى أغسطس ١٩٤٧



صورة للآباء رهبان دير البراموس بوادى النطرون أما باب الدير
مع بعض أعضاء جمعية مارمينا العجايبى فى أغسطس ١٩٤٧



أعضاء جمعية مارمينا العجايبى يتوسطهم الأب قرياقوس الحبشى وبجواره دكتور مراد كامل
على سطح كنيسة الملاك بدير البراموس بوادى النطرون فى أغسطس ١٩٤٧

الفصل الرابع

جامعة البرية

فى رسالة تصدر عن أحد أديرة الصحراء الغربية ، وعن دير مار مينا العجايبى بالذات . الذى جدد ليكون مركزاً ثقافياً روحياً ، ليس أنسب من التحدث عن تلك الجامعة الروحية العظيمة ، التى أنشأها آباء البرية ، والتى كان مركزها الرئيسى برية شيهيت ، تلك الأديرة الأربعة التى قامت هناك منذ منتصف القرن الرابع ، والتى كان يحج إليها المسيحيون المتعطشون إلى تعاليمها من أنحاء العالم المسيحى .

ولن أجد وسيلة لذلك أحسن من أن أترجم صفحة مما كتبه القديس يوحنا كاسيان ، وهو فى مقدمة من كتبوا عن آباء البرية كان ناسكا فى بيت لحم مع صديقه جرمان وذاع هناك حديث النساك المصريين وتعاليمهم الروحية فذهبا إليهم ، ومكثا فى برية شيهيت حوالى العشرين عاما من عام ٣٨٠ إلى ٤٠٠ م يرتشفان من ذلك النبع الصافى . وذهب بعد ذلك كاسيان إلى مرسيليا حيث أسس دير القديس فيكتور للرجال ودير المخلص للسيدات ، وكتب هناك كل ماوعاه من تعاليم جامعة البرية فى كتابيه الشهيرين : « المعاهد » و « المواعظ » ، فكان بذلك زعيم أدبياتنا الروحية ، إذ لخص بريشة أستاذ كبير كل ماتلقاه من دروس صحراء مصر وعنه أخذ معظم الكتاب فى هذا الموضوع . وهو بهذين المؤلفين وبهذين الديرين اللذين أسسهما فى مرسيليا ، كان فى مقدمة من حملوا إلى الغرب تراث الرهبنة كما تلقوها من مصر مهد هذه الحركة الروحية . كان يدخل إلى قلالى الرهبان فى وادى النطرون ويحادثهم ويسجل مايسمعه منهم ، مما يجعلنا نرى فى كاسيان شاهداً لتعاليم البرية لا يرقى إليه الشك .

والآن لأقدم للقارىء صفحة مما كتب ، ولتكن من الفصلين اللذين كتبهما عن الصلاة ، واللذين يقول عنهما دوم تبلر « فى هاتين العظتين العجيبتين نرى نظرية الصلاة وممارستها ناميتين فى غزارة وسمو وبطريقة عملية ، مما لا مثيل له » .

كلنا نشعر فى حياتنا اليومية بحاجتنا إلى التماس معونة علوية ، فالصلاة نلجأ اليها للرجاء أو التوسل . أما آباء البرية فينظرون إلى قيمتها من حيث هى : فأهم مافيها فى نظرهم أنها ترفعنا إلى الله ، وتحافظ على اتحادنا معه ، وتزيد عرى اتحادنا هذا وثوقا . ولننصت مع كاسيان إلى الأنبا إيساك وهو يحدثه عن الصلاة وسموها ذلك الحديث العذب فيقول « .... فالصلاة إذا نظرنا إليها من حيث هى فهى علاقة مقدسة وإتحاد مقدس للإنسان مع الرب . ولكن إذا نظرنا إليها من حيث أثارها ونتائجها فهى عماد وحفظ العالم ومصالحة الإنسان مع الرب . وبينما هى أم الدموع المنبهة لإدرارها ، إذ هى فى نفس الوقت إبنة هذه الدموع ، وهى واسطة غفران الخطايا ، والقنطرة التى نعبر عليها بثقة سيل التجارب الجارف ، والجدار الذى يقف حائلا دون كوارث هذه الحياة ومصائبها ، وهى التى تقضى على جميع أعدائنا الخفيين ، وهى رياضة الملائكة ، والمن الروحى الذى يغذى جميع النفوس ، وهى بهجة الصالحين فى غبطة الحياة الآتية ... » .

ويمضى الأنبا إيساك فى ذلك الحديث الروحى الذى نلمس فيه ذلك الجمال والسمو اللذين يمتاز بهما كل ماخط وسطر عن أباء البرية فيقول « إن هدف الراهب الوحيد والكمال الأسمى الذى ينشده ، هو فى مواصلة الصلاة دون انقطاع وفى بذل مجهود ليحصل ، بقدر مايسمح له الضعف الإنسانى ، على فضائل الهدوء النفسى المستقر والنقاء الفكرى الدائم . هذا هو الدافع الذى نبذل فى سبيله كل مانستطيع من تعب وإجهاد جسمانى وانسحاق القلب . وهناك رابطة متبادلة وغير منفصمة بين هذين الهدفين ، إذ إذا كان صرح هذه الفضائل جميعها لا يهدف سوى إلى السمو بالصلاة ، فلن يكون له قدرة أو صمود فى نفس الوقت إذا لم يتوجه ذلك السمو ويربط بين أجزائه . وفى واقع الأمر كما أنه بغير الفضائل فلا يمكن الحصول على ذلك الهدوء النفسانى المستقر فى الصلاة أو الإنتفاع به ، كذلك فإن تلك الفضائل التى هى كالأساس ، لاتستطيع بدون الصلاة أن تحصل على كمالها الأخير » .

ويتابع الأنبا إيساك حديثه قائلا :

أود أن أضيف كلمة سامية فوق المستوى البشرى للطوباوى أنطونيوس عن

كمال الصلاة ، كان يقول « لا تبلغ مرتبة الكمال تلك الصلاة التى يؤديها الراهب وهو يشعر بنفسه ويدرك أنه يصلى » .

وأخيراً لأترك القارىء العزيز ليصحو ويتحرك فيه كل ماهو عميق فى النفس لأشياء بالغة فى السمو ....

(من رسالة دير الشهيد العظيم مارمينا بمريوط
توت ١٦٨٣ — سبتمبر ١٩٦٦)



الفصل الخامس

الرهبنة القبطية

أهدت مصر إلى العالم المسيحي وإلى الحضارة ثلاثة مظاهر لذلك الإيمان الذى تغلغل فى قلوب المصريين وإختلط بدمائهم وهى : معلم اللاهوت والشهيد والناسك ، وحديث معلم الليلة عن المظهر الثالث، مصر مهد الرهبنة ، وأصول النظام الرهبانى المسيحى ظهرت لأول مرة فى مصر المسيحية خلال القرون الأولى من إنتشار هذه الديانة فى العالم المتمدين، وإن إستعراض محتويات الكتب القديمة فى حياة الرهبان فى مصر المسيحية تدل دلالة واضحة على أن بذور التعاليم الرهبانية غرست على ضفاف وادى النيل منذ ظهور الديانة الجديدة بين المصريين ، وقد ظهر من الكشوف البردية القبطية الحديثة وغيرها أن الناس أخذوا بقواعد هذه الديانة زرافات فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى الميلادى ، ولا غرابة فى تهافتهم على إعتناق تلك الديانة وإتباع بعضهم النظم الرهبانية فى هذا العصر السحيق ، إذ كانت أذهانهم وأفكارهم وما ورثوه من التقاليد والآراء ، أساسا لتفهم معنى الديانة الجديدة واستساغة تعاليمها ، والإقبالِ عليها بشكل لم يتوفر لسكان الأقطارِ الأخرى من المسكونة ، ولذلك يرجع يوسابيوس القيصرى — أبو التاريخ الكنسى — الحياة الرهبانية ، مثلُها فى ذلك مثلُ مدرسة الاسكندرية ، إلى زمن القديس مرقس ، عندما التجأ إلى التلال المحيطة بغرب الاسكندرية ، جماعات تعيش حياة ملؤها القداسة وفقا لما دعوه من التعاليم الجديدة ، تتسم بمظاهر النسك والتقشف ، وهى نفس الحياة التى كان يعيشها فى نفس الوقت علماء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ، وكانت مقدمةً لتلك الروائع التى نعلمها فيما بعد عن أباء البرية ، وكأن العناية الإلهية أرادت أن تربط تاريخيا ، بين مدرسة الإسكندرية والحركة الرهبانية ، فبينما كان أوريجانوس أشهر معلم فى تلك المدرسة العظيمة ، يكيل للوثنية الضربة الأخيرة بكتابه ، الذى رد به على ادعاءات الفيلسوف الوثنى كلسوس ضد المسيحية، ويختم حياته فى فلسطين بعظاته الشهيرة التى يشرح فيها بوضوح الكتب المقدسة ، كان الأنبا بولا أول السواح الذى عاش ١١٣ سنة (٢٢٩ — ٣٤٢ م) يتوغل فى جبال الصحراء الشرقية ، وولد الأنبا

أنطونيوس أب الرهبان عام ٢٥١ م فى قمن العروس من أعمال بنى سويف وعاش إلى الخامسة بعد المائة .

وفى كلمتى هذه الليلة عن الرهبنة القبطية سأقصر حديثى على هذين البطلين ، الأنبا بولا أول السواح والقديس أنطونيوس أب الرهبان .

عاش الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس مدة طويلة فى الصحراء كل منهما على حدة دون أن يتعارفا ، ولكن لحكمة إلهية أراد الرب أن يكشف كلا منهما للآخر .

كان أنطونيوس قد أمضى حينذاك أكثر من ستين عاما فى الصحراء ، بعد أن باع ما ورثه عن والده وفرقه على الفقراء ، وأعطى لشقيقته نصيبها ، بمجرد سماعه فى الكنيسة فى إنجيل القداس ، قول السيد له المجد للشاب الغنى « إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال إتبعنى » ، ثم ذهب إلى الصحراء متوحداً ، وبعد أن عاش فى بقايا معبد متهدم طوال عشرين عاماً ، إضطر أن يتركه إذ تجمع حوله جماعات من التلاميذ الذين سمعوا عن قداسته ونسكه وإحتاجوا إلى معونته وإرشاده . وبعد أن قام القديس أنطونيوس بأعماله الباهرة فى إنشاء الحياة الرهبانية وكان قد بلغ التسعين من عمره ، تفكر فى نفسه أنه كان الأول بلا شك الذى عاش تلك الحياة النسكية التوحدية ، وإذا به يرى رؤيا فى الليل بينما كان نائماً ، أنه يوجد فى الصحراء قبله ناسك يفوقه ويجب عليه أن يسرع بزيارته ، فقام فى الفجر يسير متوكئاً على عصاه ، لا يعلم بالضبط أين يتجه ، ولكن يسيره إيمان راسخ ، بأن الرب سيتعهده ليَريه خادمَه الذى أخبره عنه . وبعد مسيرة يومين رأى فيها معجزات وصل فى فجر اليوم الثالث إلى مغارة الأنبا بولا . ونظرا لظلام المدخل إلى هذه المغارة فقد تعثرت قدمه وأحدث صوتاً ، فقام الأنبا بولا وأغلق الباب الذى كان مفتوحاً . علم القديس أنطونيوس أنه قد وصل إلى مكان الرجل الذى أرشده إليه الرب ، فركع عند بابه إلى الظهر متوسلاً إليه أن يفتح له قائلاً « أنت تعلم من أنا ومن أين أتيت ولماذا . حقيقة أنا لا أستحق أن أراك ، ولكنى لن أبرح مكانى حتى أراك . وإذا كنت تستقبل البهائم فلماذا

ترفض استقبال رجل ؟ لقد سألت فوجدت ، والآن أقرع فليفتح لى . أما إذا لم تجبنى فإنى أموت هنا عند قدميك ، حتى على الأقل تقوم بدفن جسدى » .
فأجابه الأنبا بولا « إن التهديد لا يصاحب الرجاء ، والدموعَ لا تصاحب التقريع ، هل تتعجب من رفضى بينما أنت لم تأت هنا إلا لكى تموت ؟ » ثم فتح له الباب خرج مبتسماً ، فتعانق القديسان وكل منهما ينادى الآخر باسمه وقدما للرب صلاة شكر . وبعد القبلة المقدسة جلسا وبدأ الأنبا بولا الحديث قائلاً « ها هو من سألت عنه بتعب كثير : جسم أفنته الشيخوخة ، يغطيه المشيب ، ورجل لن يلبث طويلا حتى يتحول إلى تراب . ولكن أخبرنى كيف حال الجنس البشرى ؟ هل يبنون منازل جديدة فى المدن القديمة ؟ ما هى الإمبراطورية التى تحكم العالم ؟ هل مازال هناك من يعبدون الشياطين ؟ » وبينما هو فى حديثه إذا بالقديس أنطونيوس يلمح غرابا فوق شجرة قريبة ، لم يلبث أن طار بهدوء ووضع أمام الصديقين رغيفاً كاملاً من الخبز . فقال الأنبا بولا « لنبارك الرب الذى شاءت محبته أن يرسل لنا طعامنا ، لقد كنت طوال ستين عاماً أتسلم يومياً نصف رغيف ، وبمناسبة حضورك فإن السيد المسيح قد ضاعف النصيب » ، عند ذلك قاما وصليا سويا وجلسا على حافة نبع ماء فى تلك الجهة . ولكن فى ذاك المكان قام بينهما نقاش عن أيهما الذى يقسم الرغيف وإستمر حتى المساء ، فالأنبا بولا يرى أن واجبات الاستضافة تقضى أن يترك ذلك للأنبا أنطونيوس ، بينما كان الأنبا أنطونيوس يرى أن الأنبا بولا أحق بحكم سنه . وأخيراً إتفقا على أن كلا منهما يمسك بالرغيف من جهته ويجذبانه وبذلك يخص كلا منهما نصيبه . وبعد أن فرغا من الطعام شربا من النبع وأمضيا الليل فى سهر وصلاة .

وفى صباح اليوم التالى قال الأنبا بولا للأنبا أنطونيوس « يا أخى إنى أعلم منذ زمن طويل أنك كنت تعيش غير بعيد عنى وقد وعدنى الرب برؤية وجهك . والآن وقد دنت ساعة راحتى ، فقد أرسلك لتغطى جسدى بالتراب » ، عند سماعه ذلك بكى القديس أنطونيوس ، ورجا الأنبا بولا أن الا يتركه بل أن يأخذه معه . فأجابه الشيخ « لا يجب أن تهتم بنفسك ، بل بما للآخرين ، إن الإخوة مازالوا محتاجين إلى أن يتعلموا من مثالك . ولذلك أرجوك ، إذا لم يكن فى ذلك تعب لك ، أن تذهب لتحضر الرداء الذى كان

قد أعطاه لك البابا أثناسيوس لتلف به جسدى كفنا » ، وكان يشير بذلك إلى أنه يموت فى العقيدة الأرثوذكسية التى كان يمثلها ذلك البابا العظيم .

دهش القديس أنطونيوس بما قاله الأنبا بولا عن القديس أثناسيوس وعن ردائه إذ المفروض أنه يجهله ، واعتقد أن يسوع المسيح هو الذى يتكلم بفمه ، فلم يجسر على الاعتراض . وقام فقبل عينيه ويديه وهو يبكى ورجع إلى ديره بأسرع مما كان يحتمل جسده الضعيف . وإستقبله إثنان من تلاميذه اللذان كانا يقومان منذ زمن طويل على خدمته وسألاه « أين كنت يا أبانا فى هذه الغيبة الطويلة ؟ » فأجاب « ويل لى أنا الخاطىء الذى يحمل دون جدارة اسم راهب ! لقد رأيت إيليا ، رأيت يوحنا فى البرية ، رأيت بولا فى الفردوس ! » ولم يزد على ذلك بل دق صدره وأخذ الرداء من قلايته ودون أن يتناول أى طعام قفل راجعاً إلى الأنبا بولا ، قائلاً لهما « يوجد وقت للكلام ووقت للسكوت » .

وفى اليوم التالى بعد السير ثلاث ساعات رأى الأنبا بولا صاعدا إلى السماء تحمله الملائكة ويحيط به الأنبياء والرسل ، يحيطه بياض ناصع . فخر ساجدا ووضع يمناه على رأسه وقال باكيا « لماذا تتركنى يا بولا ؟ إنى لم أودعك . هل كان يجب أن أعرفك فى وقت متأخر لأجل أن أفقدك سريعاً ؟ » ، وخيل إليه أنه كان يطير فى باقى الطريق . وعندما وصل إلى المغارة وجد جسد الأنبا بولا راكعاً ورافعاً رأسه واليدين مبسوطتين نحو السماء ، وظن لأول وهلة أنه كان حياً وكان يصلى ، فبدأ يصلى بجانبه ، ولكنه عندما لم يسمع تنهداته كالعادة ، إحتضنه وفى عينيه الدموع ولف الجسد فى الرداء وسحبه من المغارة وهو يرنم بعض الترانيم والمزامير حسب التقليد المتبع فى الكنيسة . وتحير أنطونيوس إذ لم يكن معه ما يستطيع أن يحفر به حفرة ، وفكر فى الرجوع إلى الدير ، عندما ظهر له أسدان قادمان من الصحراء ، وإرتعد لرؤيتهما ولكن الرب قواه . ذهب الأسدان إلى جسد الأنبا بولا مباشرة ورقدا عند قدميه وهما يزمجران فى حزن كأنهما كانا يعربان عن حزنهما ، وبعد ذلك حفرا حفرة بأظافرهما ، وبعد أن أتما مهمتهما إتجها نحو القديس أنطونيوس وهما يطأطئان رأسيهما ويحركان أذنيهما كأنهما كانا يطلبان منه مكافأتهما . وعلم قديسنا أنهما

يطلبان بركته ، فقال متأثراً « أيها السيد الذى لا تذبل ورقة ولا يسقط طير على الأرض بدون إرادتك أعطهما ما يلائمهما » . وبعد تلك الصلاة القصيرة أشار لهما بالإنصراف فأطاعا فى الحال . وحمل أنطونيوس على كتفيه النحيلتين الحمل الثمين ووضع جسد القديس فى الحفرة التى أعدت له ودفنه .

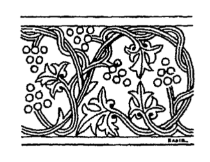
تنيح الأنبا بولا فى الثالثة عشرة بعد المائة بعد أن مكث متوحدا ٩٢ عاما فى الصحراء ، ترك العالم عندما أراد زوج شقيقته أن يسلمه للإضطهاد طمعاً فى ماله ، فأحتقر العالم بما فيه من أطماع وخيانة وحب للمادة طغى على العلاقات الإنسانية حتى بين ذوى القربى ودفن فى مكان ديره فى الصحراء الشرقية .

وفى اليوم التالى أخذ الرداء الذى كان قد صنعه الأنبا بولا لنفسه من سعف النخيل ورجع إلى ديره حاملاً ذلك الإرث الثمين . وقص على تلاميذه هذه القصة بأكملها ، وكان القديس أنطونيوس يرتدى هذا الرداء كلباس يفخر به فى عيدى القيامة والعنصرة .

وفى أثناء ذلك كان تلاميذ القديس أنطونيوس فى إزدياد وكان صيته يزداد إنتشاراً . وكما كان الأباطرة الوثنيون قبل ذلك بقرن من الزمن يحنون رؤوسهم أمام علوم مدرسة الإسكندرية المسيحية ، فإن الأباطرة المسيحيين ، قسطنطين وأولاده أصبحوا يظهرون إحترامهم وإعجابهم لقداسة أباء البرية الأبطال . فيخبرنا القديس أثناسيوس فى كتابه عن حياة القديس أنطونيوس أنهم أرسلوا إليه وإلى تلاميذه رسالة مطولة مؤثرة يرجونهم فيها بكل تواضع أن يذكروهم فى صلواتهم ، بعد أن أشاروا بفضائلهم العظيمة . ولم يحرك هذا المديح أب الرهبان إذ كان كل ما يطمح إليه فى حياته أن ينال رضاء الرب ملك الملوك . وكان منى أنطونيوس أن يرى فى الصحراء غرب الدلتا جنودا له يعتنقون الحياة النسكية ، وعندما ذهب إلى جبل نتريا شاب يبلغ الثانية والعشرين من عمره يدعى أمونيوس ، استطاع باستشارة القديس أنطونيوس أن يبنى العديد من الأديرة . وجاء بعده المكاريوسان ، الأنبا مكاريوس الكبير والأنبا مكاريوس الإسكندرى فحولا منطقة القلالى ثم شيهيت إلى جنة عدن يسكنها ملائكة من السماء .

وفى عام ٣٥٦م كان القديس أنطونيوس قد بلغ آخر أيامه وقد بلغ السنة الخامسة بعد المائة فزار أديرته مرة أخيرة ، مثبتا تلاميذه فى عقيدة أبائهم ، ورقد بسلام فى الرب محاطاً بالملائكة التى حملت روحه إلى السماء ، وقبل نياحته أوصى بردائه إلى القديس أثناسيوس الذى قبل هذا الإرث الثمين وقد ترقرت الدموع فى عينيه .

أوصى القديس أب الرهبان فى العالم تلميذيه بـالاّ يعرف أحد مكان قبره ، ولكن قيل أنه بموالاة السؤال والبحث أمكن العثور على قبره بعد نحو قرن فنقل إلى الإسكندرية ودفن فى كنيسة يوحنا المعمدان التى أقيمت مكان السرابيوم فى منطقة عمود السوارى ، ولكن فى عصر الإمبراطور جوستنيان نقل إلى القسطنطينية ومنها إلى مدينة آرل فى فرنسا حيث بنى دير للرهبان الأنطونيين ، وقد شفى كل من قصده عندما إجتاح فرنسا وباء الطاعون فى القرون الوسطى . وقد أخذ ذراع من جسده إلى بلجيكا .



الفصل السادس

القديس أنبا بولا
أول السواح

وهذا كوكب آخر من كواكب البرية — وما أكثرهم فى تاريخ كنيستنا — تعيد الكنيسة بتذكار نياحته فى هذا الشهر ، ويأتى أسمه الثانى فى تلك الباقة الرائعة التى تفوح منها رائحة النسك والطهر والقداسة الذكية ، والتى يضعها الشمامسة حول المذبح كلما أقيم قداس إلهى ، عندما ينشدون فى صوت رخيم ونغمة عذبة الأنا فورا التى مطلعها (بنيشتى آفا أنطونى ...) .

كتب سيرته القديس إيرونيموس باللاتينية فى القرن الرابع وتناقلتها الأجيال فى أنحاء العالم ، إلى أن عثر المؤرخ إميلينو على سيرة له بالقبطية فى القرن الماضى فترجمها إلى الفرنسية ، فإذا أضفنا إلى هذين المصدرين ما ورد عنه فى السنكسار القبطى نجد أن الخطوط العريضة فى هذه المصادر المختلفة متماثلة إلى حد كبير ، وربما ينحصر الإختلاف فى المكان الذى ولد فيه وفى الدافع له على التوحد .

ولد فى مصر الوسطى فى قرية تل كفرو على الضفة اليمنى للنيل فى مواجهة قلوصنا من عائلة ثرية . عنى والداه بتربيته تربية مسيحية ، وتيتم فى الخامسة عشرة من عمره ، وكان هادىء الطبع متواضعاً ، يميل بطبعه إلى التقوى والفضيلة ، وكان يعيش مع أخت له تكبره سناً فى بيت عائلته ، مما ورثه من ثراء واسع ، وإذا بعاصفة تهب على هذا البيت تحدد له المستقبل الذى إختاره ، فقد تزوجت أخته وإضطرته ظروف الإضطهاد الذى كان قد أثاره الإمبراطور دليسيوس فى ذاك الوقت إلى أن يحتمى فى منزل شقيقته ، وإذا بزوجها ، يغريه حبه فى المال ، أن يوقع بذلك اليتيم لدى الحاكم ولم تنفع دموع الزوجة الشابة وتوسلاتها ولا منظر ذلك اليتيم فى وحدته ولا سند له يحميه ، إذ أن حب المال يقتل الشعور ويبلبل العقل ويدفع إلى أدنى أنواع الخيانة . عندما رأى بولا ذلك الطمع الأشعبى وحب المادة الذى سيطر على جميع الحواس ، دفعه إشمئزازه إلى أن يتنازل لشقيقته عن كل ما يملك . وفى أحد الأيام خرج لا ينوى على شىء ،

متجهاً نحو الصحراء ليعيش فى سلام فى عناية الرب ونعمته وكان يبلغ الثانية والعشرين من عمره . وقد وجد مغارة بجوارها نخلة ونبع ماء ، ولأكثر من عشرين عاماً كان يقتات من ثمر النخلة ويلبس من أليفاها أما بعد ذلك فقد تكفل الرب بإحتياجاته ، كما فعل مع إيليا فى البرية إذ كان يرسل إليه يومياً غراباً حاملاً زاده اليومى .

ظل أنبا بولا فى مغارته ينعم بالبعد عن الأطماع العالمية وبالسلام والجمال فى الحياة التأملية حتى أنه لم يفكر إطلاقاً فى الرجوع إلى العالم ، وكأنه أخذ عهداً أن يهب نفسه للرب إلى آخر حياته .

وبينما هو يتذوق ما فى وحدته هذه من جمال ، وقد جاوز المائة ، إذا به يستقبل القديس أنطونيوس الذى كان قد بلغ التسعين من عمره ، وإذا بنا أمام رجلين مجموع عمريهما قرنان ، وقضيا ما مجموعه مائة وخمسين عاماً فى النسك ومكثا فى الصحراء ما مجموعه قرن من الزمان ! ... إنها لصورة عظيمة منظر هذين الشيخين ، اللذين وقد تجعد وخشن جلداهما وزاد التقشف والزمن من صلابة جسديهما ، بينما هما يتسامران فى مغاور جبل القلزم ، ومما له مغزى فى حديث الأنبا بولا مما يعود بنا إلى الدافع له على ترك العالم قوله « أخبرنى يا أخى أنطونيوس ماذا يفعل الآن الجنس البشرى ؟ هل مازالوا يقيمون الأبنية الضخمة فى البلدان القديمة فى مصر ، وهل ما زال يوجد ملك على الأرض ، وهل مازال الشيطان يسيطر على تصرفات الولاة ؟ » .

وبعد حديث قصير أخبره الأنبا بولا أن نهايته قد قربت ، وكم كانت دهشة القديس أنطونيوس عندما طلب منه الأنبا بولا أن يأتى إليه بالحلة التى كان أهداها له البابا إثنا سيوس ليكفنه بها ، إذ أن الأنبا بولا الذى قضى تسعين عاماً أو أكثر بعيداً عن العالم لا يستطيع أن يعلم بأمر هذه الحلة إلا برؤيا . فأحضر له الأنبا أنطونيوس حلة القديس أثناسيوس وكفنه بها حسب وصيته ، وكأن العناية الإلهية أرادت أن تجعل من حلة المجاهد العظيم أثناسيوس الذى إنتصر على الهرطقة ، وساما يتدثر به أول السواح الذى إنتصر على التوحد وإزدرى بالثراء والمال ووهب ذاته للرب . أما الأنبا أنطونيوس فقد أخذ لباس الأنبا بولا

المضفور من ألياف النخيل وجعله حلته التى يتزين بها فى عيدى القيامة وحلول الروح القدس .

نعلم من تاريخ الأنبا بولا أنه كان من عائلة ثرية وأنه قرأ وحفظ الكتب المقدسة ، فلسنا إذن أمام شاب جاهل إتجه نحو حياة النسك بنزعة لاشعورية . لقد كان الأنبا بولا شاباً مثقفاً متزن العقل وإنسحب من العالم وله هدف يسعى إليه ، مثله فى ذلك مثل القديس أنطونيوس والقديس باخوم .

لقد وضع بولا أسس حياة التوحد والتأمل . كان المتوحد يقضى جزءاً كبيراً من الليل فى صلاة حتى لا يغلب عليه النوم ، « لأن كثيرين قد ماتوا لأنهم ناموا كثيراً » ، ولأجل أن يتغلب على النوم ، كان المتوحد يظل فى حركة دائمة ، ينقل أحجاراً أو مقاطف مملوءة بالرمال ، بينما يرتل المزامير ، ويزاول الحرمان والصوم إلى أن يجعل جسده فى حالة من الإنهاك بحيث يتغلب عليه الفكر فيتولد عن ذلك نوع من التصوف العميق . أما إذا وصل التعب إلى حد أن تغلب النوم على الجسد ، فإن المتوحد يعمد إلى جعل النوم أمراً متعباً وذلك بأن ينام جالساً (القرفصاء) دون أن يسند ظهره . وكان المتوحد يعتقد أنه بذلك ينال نعمة خاصة ، بمقاومته لإحتياجات الجسد .

وكان المتوحد ، الذى يهدف إلى حياة التأمل ، يبحث عن الأماكن الصحراوية ، ويتوغل فى الصحراء إلى حيث الرمال التى لم تطأها قدم . لا يشعر يوماً ما بجمال الصحراء ولم يبال بأى شىء حوله وكان التأمل يمتص الإرادة لكى يبث المثل العليا فى الفكر فلا يشعر بمباهج الفجر أو الغروب . كان المتوحد إذن يتوغل فى الأماكن التى لا يوجد بها شىء يلفت أنتباهه ، أو يشوش عليه أفكاره مثل هذا المكان الذى عاش فيه الأنبا بولا إلى سن الثالثة عشرة بعد المائة ، وقد خلده مسيحيو مصر إذ أحاطوه بأسوار دير شهير فجعلوا منه نصباً تذكارياً خالداً لأول السواح أو المتوحدين . بركة صلواته تكون معنا جميعاً .

(مجلة مدارس الأحد ـــ فبراير ١٩٦٥)

الفصل السابع

القديس أنطونيوس
أبو الرهبان ورسالته قديماً وحديثاً

تعيد الكنيسة ذكرى نياحة القديس أنطونيوس أبو الرهبان ، فى اليوم الثانى والعشرين من شهر طوبة المبارك ، وما أجمل أن نردد فى هذه الأيام بعض أقواله وبعض سمات فى تاريخ حياته ، إذ أن بعض الأخبار التى تتسرب من أسوار بعض الأديرة تولد قلقاً فى النفوس وبلبلة فى الأفكار ، وهذه جميعاً تنعكس على الرهبنة بما لا تحبه ولا يحبه لها المعجبون بها وبأثارها فى العالم . وستحدثنا من خلال الظلام الذى يخيم على الأديرة تلك الشخصية الحية ، التى مازالت موجات صلاتها العجيبة تطوف بالعالم فتهز النفوس التى تتبين جاذبية خاصة فى كلمتى الصمت والوحدة .

ولا تتسع هذه العجالة لدراسة تفصيلية لحياته ، بل من يريد ذلك عليه بقراءة آخر مؤلف ظهر عنه فى أكثر من مائتين وثمانين صفحة باللغة الفرنسية للكاتب هنرى كيفيليك Henry Queffeleq وإنما سنكتفى بالتحدث عنه وقد هرم وشاخ فى أخريات أيامه ، وأصبح ما ينطق به خلاصة تجارب حياة نسكية طويلة . وكان من أبرز ما نطق به فى تلك الأيام (إنى لا أخاف الرب بل صرت أحبه) . وهو قول من يشعر بسلام عميق بينه وبين خالقه .

وعندما تقدمت به السن ، انتهز الشيوخ فى إحدى المرات فرصة زيارته لهم ، فأحاطوا به وطلبوا منه أن يعرفهم بالفضيلة التى تقود القلب نحو الكمال الإلهى ، والتى يجب عليهم أن يحافظوا عليها مهما كلفهم الأمر ، أمام هجمات ابليس . وتحدث كل منهم مبدياً رأيه فى الفضيلة التى يراها أجدر من غيرها ، وطال النقاش وأقبل الليل وظلوا يتكلمون حتى ساعة متأخرة منه بينما لزم أنطونيوس الصمت . وبعد أن أفرغ كل منهم ما فى جعبته بدأ هو يتكلم ، فأطرى كل الفضائل التى ذكرت بأسلوب منمق جميل يتملك زمامه ، ومدح خصائصها جميعاً ، ولكنه أضاف بأن التجربة وهى التى لها القول الفصل فى آخر الأمر ، قد أثبتت أن هذه الفضائل لم تؤد إلى نتائج طيبة فى ظروف خاصة ، والسبب فى ذلك أن هذه الفضائل تتيه على فضيلة أخرى فى منتهى

البساطة ولكن لا غنى عنها ، وهى فضيلة « التحفظ » ، التحفظ فى القول والعمل ، هذه الفضيلة هى فى الصف الأول من الفضائل « بل هى أم الفضائل وهى التى تحميها وتملك زمامها » ، فى هذه الأقوال تتبين عبقرية أنطونيوس وقد بلغت ذروتها ، كما تتبين فيها إحدى تلك الحقائق التى تصل إليها النفس بعد تأمل طويل بلغ أقصى مداه ، وأصبح كضوء قوى يضىء الشيخوخة .

وتحير الكثيرون فى تفسير كلمة التحفظ هذه ، خصوصاً وقد أصبحت ذات معنى محدود فى أيامنا هذه ، ولكن الآب جان بريمون ، الذى كتب كثيراً عن الرهبنة ، يفسرها تفسيراً مناسباً على مانعتقد ، إذ يقول « بأنها علم التجربة والفرصة » فكون الإنسان متحفظاً ، يعنى أنه يعرف كيف يمارس فضيلة خاصة ، ويضعها موضعها المناسب ، وهذا ليس بالأمر السهل ، بل إنه نتيجة تجارب طويلة فى حياة الناسك الداخلية ، ومن سمات الناسك المتحفظ أن يلتزم منتهى البساطة ولا يجتهد أن يميز نفسه ويتجنب جميع المظاهر . هذه الفضيلة فى حياة أنطونيوس ، وفى حياة أباء البرية بعده ، نستطيع أن نضعها فى مكان يقع بين فضيلتى الإعتدال والحكمة . وهى ليست وليدة يوم وليلة بل وليدة تجارب وجهاد طويلين فى حياة الناسك .

هذا ما كان من أمر الشيوخ ، شيوخ الرهبنة ، مع أنطونيوس .

أما شباب الرهبان فلهم معه حديث آخر ، كان شباب الرهبان يعرفون عن أنطونيوس طيبته وعذوبة نفسه التى يتفوق فيها على رؤسائهم ، وكان مظهره هذا وحسن استقباله يبعث فى نفوسهم الثقة والطمأنينة ، قصدوه يوماً فى شيخوخته وسألوه « كيف نخلص ؟ » وكانوا يتوقعون منه أن يطلب منهم أن يزيدوا من تقشفهم وحرمانهم ، ولكن ما كان أشد عجبهم أن رأوه يثور ويجيبهم «.هل تحسبوننى منجماً ؟ إقرأوا الأناجيل وأنتم تعرفون كل شىء » ، ولكنهم احتجوا قائلين « لا تتواضع أكثر مما يجب يا أبانا نحن نعلم واسع معرفتك ، إنك أب الرهبان ويجب أن تجيبنا بكلمة من خلاصة تجاربك ... » ، وتثاقل أنطونيوس فى نفسه ، كمن يريد أن يتظاهر أن مثل ذلك المديح لا يغره وأجاب « ألم تقرأوا أن من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ... » ، وأخفى شباب النساك تضايقهم ، وأراد أحدهم أن يبدى ما

تصور أنه شجاعة فريدة فأعلن « إنك تنسى يا ابتى أننا لسنا بأبطال السيد المسيح ، وأننا لا نستطيع أن نصنع ما تطلب .. » ، فابتسم أنطونيوس وأجاب « حسناً ! لا تصنعوا ذلك ! فقط عندما يصفعونكم على خد واحد ، اجتهدوا أن تتحملوا الصفعة » ، فأجابوا « يستحيل علينا ذلك أيضاً » فالتفت أنطونيوس بهدوء نحو أحد مساعديه وقال « هؤلاء الأشخاص مرضى ، هل لك أن تتفضل بعمل قليل من الحساء لهم » .

وعندما علم أنطونيوس بقرب نياحته ، بعد أن بلغ الخامسة بعد المائة ، قام بزيارة أخيرة للأديرة ليتفقد أبناءه قائلاً « سلام لكم ياحملانى وياخرافى » ، و « يجب على الناسك أن يقول كل صباح سأموت اليوم » .

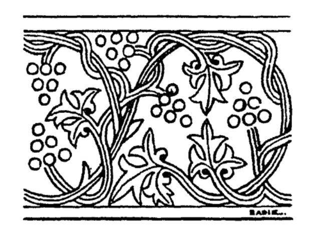
وعندما رقد رقدته الأخيرة ، أراد أن يلقى تعليماته الأخيرة الخاصة بالواجبات النسكية فقال لمساعديه « لا تقفوا فى الطريق ، حافظوا على بهجتكم ، ابتعدوا عن الهرطقات ... » ، ثم قال بلهجة الآمر « لا تدعوا أحداً يعرف مكان جسدى بعد الدفن.... فرقوا ثيابى ، أعطوا للأسقف أثناسيوس حرملة ، والرداء الذى كنت أتدثر فيه ، لقد أعطانيه جديداً فاستعملته حتى تهرأ ، وإعطوا الأسقف سرابيون الحرملة الأخرى ، وأما أنتما فخذا اللباس الخشن المصنوع من الألياف » ، ثم التفت إليهما وعلى فمه ابتسامة باهتة وقال « والآن يا أبنائى إن أنطونيوس ماض فى الطريق ، لم يعد بينكم » ، وظلت الابتسامة على شفتيه ، لقد مات دون ألم ، نعم لقد كانت أبسط الميتات ولكنها لم تكن أقلها جمالاً ، لقد مات أنطونيوس وكأن الموت لم يكن أكثر من مجرد موعد بينه وبين الرب .

واليوم يفخر دير القديس أنطونيوس بأن يضم جسد القديس داخل أسواره، وليمكننا جميعاً أن نتساءل ما هو حال الرهبنة فى بلاد مؤسسها؟ تلك البلاد التى كانت عزيزة عليه ولم يتكلم بغير لغتها . أين ذهبت تلك الغيرة المتقدة ؟

هل الحال التى وصلت إليها الرهبنة اليوم فى مصر دليل على أن رسالة أنطونيوس قد فشلت ؟ إذا قلنا بذلك لحق لنا أن نقول أيضاً أن رسالة السيد المسيح قد فشلت لأن اليهود قد رفضوا الاعتراف بأنه المسيا ، فكما أن

المسيحية ذات طابع عالمى ، فان رسالة أنطونيوس ذات طابع عالمى أيضاً ، وإذا كانت الرهبنة قد انحطت فى مصر ، فقد أزهرت وأينعت فى العالم المسيحى خارج مصر ، نعم إن الرهبنة فى يومنا هذا قد أتخذت بعض مبادىء الرهبنة الباخومية ولكن لا ننسى أنها أخذت عن أنطونيوس الشيخ التحفظ والمحبة الخالصة .

(مجلة مدارس الأحد ــ مارس ١٩٦٢)



الفصل الثامن

القديس أنبا أنطونيوس أبو الرهبان

فى جميع أرجاء العالم وأينما يوجد إنسان يلبس مسوح الرهبنة يذكر إسم القديس أنطونيوس أبو الرهبان وأحد أمجاد مصر وأمجاد عصر المسيحية الذهبى فى مصر ، الرجل القبطى الصميم الذى خرج من قرية قمن العروس فى أواسط الوجه القبلى ، وترك الأموال التى ورثها مولياً وجهه شطر الصحراء ليعيش فى فقر وتجرد ، وإذا بشخصيته تجذب أتباعاً حوله ، يقلدونه ويكثرون فتضطره الظروف إلى وضع بعض قواعد لينظم لهم معيشتهم ، وينتشرون فى بعض أنحاء القطر فإذا الصحارى المحيطة بمصر تنبت أبطال النسك .

إن الذى كون عظمة حياة القديس أنطونيوس وطرافتها ، هو أنه كان مزيجاً عجيباً من رجل التأمل والصلاة ورجل الحركة والعمل ، فبينما نراه قابعاً فى صومعته يتكون طعامه من الخبز والماء والملح ، جالساً على الأرض يجدل الحصر ويترنم بالمزامير ، وإذا بنا نعلم أنه ذهب شمالاً وغرباً إلى جبل نتريا (البرنوجى الآن) التى كانت تقع على الساحل الجنوبى لبحيرة مريوط ليتفقد شئون تلك المؤسسة الديرية الشهيرة التى كان يتزعمها الأنبا أمون ، ثم يؤسس أديرة منطقة القلالى . فقد كان يعيش حياة مزدوجة من حياة النسك والعمل . وكان منظماً وإدارياً عظيماً ، أسس وأدار أديرة عديدة وعرف كيف يقود ويسوس جموعاً غفيرة مختلفة الثقافة والمستوى المعيشى ... هذا الشيخ الذى كانت تصوره لنا قصص ورسومات العصور الوسطى يقضى وقته فى محاربة الشيطان ، يؤسس فى الصحراء الشرقية مؤسسة ديرية كبيرة وإذا بالصحراء تصير مأهولة بالنساك ، وكان فى منطقة بسبيرعلى ضفة النيل اليمنى خمسة آلاف ناسك وهو ليس بأكبر الأديرة التى أسسها ، ففى شمالها فى منطقتى منفيس ووادى النطرون أسس تلاميذه أديرة كان فيها أكثر من عشرين ألف ناسك .

كان هذا الرجل يقود جيشاً كبيراً مطيعاً متحمساً قوياً وصامداً لهجمات الشيطان ، وكانت عينه تحيط بكل شىء وتنفذ إلى أدق التفاصيل . وكان يعرف كيف يعامل كل شخص كأعظم علماء علم النفس ، وكان سياسياً

بارعاً ، فمن عزلته كان يقضى فى كل ما يعرض عليه من مشاكل أبنائه ، وكان يراسل الأساقفة وعلماء اللاهوت ، ويتسلم رسائل من الإمبراطور قسطنطين وأبنائه ، ويقود وينظم كل شيء فى شئون الكنيسة . هذا الرجل الذى يصورونه لنا نصف عار جالساً على حصير فى جبل بالصحراء القاحلة الجرداء ، هذا القروى الذى لم يكن يتكلم غير القبطية كان فى واقع الأمر رئيس الكنيسة المحترم .

كان نشاطه يفوق الحد ، فقد نزل إلى الاسكندرية مرتين ، وكأنه النسر ينقض عليها ، لأجل أن يساند المؤمنين المضطهدين ولأجل أن يحارب الهرطقة الاريوسية ، وقد حاز أثناء حياته على لقب (القديس أنطونيوس الكبير) عن جدارة وإستحقاق ، لقد كان كبيراً بما كان ينبغ عنه من أخلاق وخصال ، لقد كان ذا نفس جبارة أغنته عن العلم . كان رجلاً حديدياً ، ولكن كان نشاطه تحت رداء من الرقة والوداعة ، وكان كل من حوله يعجب بحزمه وبالنعمة التى تبدو على وجهه ولصبره ، وقد احتفظ حتى آخر أيامه بمرح الأطفال ، وكان يرى فى مظهر البهجة والمزاح إحدى الفضائل ، وكان يقول فى ذلك « إن القوس إذا زاد توتره يكسر » .

هذا هو القديس أنطونيوس على حقيقته : رجل من أعجب الرجال الذين رآهم العالم ، حتى أن بعض كتاب القرن الثامن عشر والتاسع عشر كانوا يعتقدون أنه رجل خرافى ، لولا أن أذيع بعد ذلك ترجمة المؤلف الذى تركه لنا عن حياته القديس أثناسيوس ، فأتى به إلى عالم الواقع ، والذى يخبرنا فيه أنه « أسلم روحه إلى الرب فى اليوم الثلاثين من شهر يناير عام ٣٥٦ م بالغاً من العمر الخامسة بعد المائة » ، بركة صلواتهما تكون معنا .

(مجلة مدارس الأحد ـــ يناير ١٩٦٥)



الفصل التاسع

الرهبنة الأنطونية

خلد لنا القديس أثناسيوس الرسولى بابا الإسكندرية العشرون ذكر القديس أنطونيوس ، فى كتاب له وضعه عن حياته .

ونعرف منه أن القديس أنطونيوس قد ولد عام ٢٥١ م فى بلدة قمن العروس بمركز الواسطى بإقليم بنى سويف ، وفى أحد الأيام بينما كان فى الكنيسة سمع فصل الإنجيل يقرأ وفيه قول السيد المسيح له المجد للشاب الغنى « إن أردت أن تكون كاملاً فإذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال إتبعنى » ، فخرج مصمما على أن يبيع ما ورثه ، وأن يوزع ثمنه على الفقراء ، مبقياً القليل ليصرف منه على شقيقته ، ولم يلبث أن باع أيضاً هذا القليل وأدخل أخته إحدى بيوت النسك للعذارى .

بدأ الحياة النسكية بالقرب من قريته ، وحوالى عام ٢٨٥ م أى فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، عبر النيل وتوغل فى الصحراء الشرقية ، حيث أقام فى قلعة مهجورة طوالى عشرين عاماً ، وسكن بجواره بعض المعجبين به من النساك ، ولكنه كان يتجاهلهم .

وفى عام ٣٠٥ م أجبره مريدوه وقصاده على ترك وحدته ، وبدأوا فى تكوين جماعة كان هو على رأسها ، وهكذا تكونت الرهبنة المسيحية دون إستعداد سابق ، أو بناء على أسس وضعت لها خصيصاً وكان المصرى يعتقد أن الصحراء مأوى الأشباح والأرواح الشريرة[١]، ولذلك كان الناسك كلما مر به الزمن زاد توغلاً فى الصحراء ، إذ يحارب بذلك الشيطان وجهاً لوجه فى عقر داره ، ولا يكون صالحاً لذلك إلا بعد تدريب خاص فى كيفية مقابلة هذا العدو . ولذلك كان هذا التدريب جزءاً مهماً فى نظام الرهبنة الأنطونية .

والمتوحدين إذاً يأتون بعد النساك ، ويخبرنا تاريخ الرهبنة أن الأنبا أنطونيوس إشترك بنفسه فى تأسيس منطقة «القلالى»، عندما إزدحم جبل نتريا أو جبل

البرنوج بالنساك ، وأراد البعض منهم أن يتركه إلى مكان ينعم فيه بعيشة الوحدة .

وكان الأنبا أنطونيوس يوصى رهبانه بأن يثقوا فى الرب وأن يحبوه ، وأن يحفظوا أنفسهم من الأفكار الشريرة والملذات ، وألا ينقادوا لشهوات بطونهم ، وأن يبتعدوا عن التفاخر الباطل ، وأن يداوموا على الصلاة ، وأن يرتلوا بمزامير قبل وبعد النوم ، وأن يعوا فى قلوبهم تعاليم الكتب المقدسة وإنتصارات القديسين ، ناظرين إليهم كأمثلة يحتذون بها ، وألا يدع الناسك الشمس تغرب على غضبه ، أو على خطية له قبل أن يندم عليها ، كما أن واجبه أن يفحص نفسه بكل دقة . وأن ينظم أفكاره وأعماله على إعتبار إنها ليست إسراراً .

يبدو أن هذه فقط كانت التعاليم أو المبادىء التى أعطاها أنطونيوس لتلاميذه وأتباعه . على أن تشمل أيضاً العمل اليدوى .

نستطيع إذن أن نلخص النظام الأنطونى فيما يلى : —

١ — كان للنظام درجتان (أ) نصف الشركة : وهى الفترة التى يتدرب فيها النساك الجدد (ب) ثم التوحد .

٢ — كان التنظيم بسيطاً : فكان هناك أب (وهو أنطونيوس نفسه) له سلطة تامة على الجماعة بأسرها . وكان هناك شيوخ يلونه فى المرتبة يرشدون ويعلمون الناشئين .

٣ — لم تكن هناك قواعد ثابتة لها أصول وتدرج .

أما ما طرأ بعد ذلك على هذا النظام من تطور . فليس مجال دراسته فى الصحراء الشرقية . حيث أسس أنطونيوس أول جماعة رهبانية . ولكن فى الصحراء الشمالية والغربية لمصر . فى جبل نتريا والقلالى وبرية شيهات . وهى الأمكنة التى تدين فى الكثير لأنطونيوس نفسه .

(مجلة مدارس الأحد — يونيو ١٩٦١)

الفصل العاشر

أضـــواء
على الرهبنة القبطية

لعل الكثيرين يعتقدون أن الحياة الرهبانية ما هى سوى الهروب من العالم والعمل على خلاص النفس بالعزلة والتأمل وحياة الاتصال الفردى بالله ، وأن الرهبان قوم انعزاليون يأبون التزام مشاكل عصرهم ويتنكرون لحاجات المؤمنين الروحية والجسدية .

حقيقة أن البرية كانت المكان الذى تكفل بتأمين الجو الملائم لخلاص النفس ، فى وقت دخلت فيه الجماهير الوثنية إلى المسيحية يحملون معهم عاداتهم وتقاليدهم ، خصوصاً عندما ازداد العالم إغراءً وخطراً بعد عام ٣١٣ ، عندما انهارت المقاومة التى كانت تقابلها المسيحية فى ذاك الوقت . فامتلأت الصحراء بالنساك والمتعبدين وأساتذة الرهبنة ، ولكن كانت أعينهم دائماً يقظة لكل أحوال المؤمنين فى وقت كانت الاضطهادات فيه تتوالى دون هوادة ، وكلنا نعلم من المصادر التاريخية أن الأنبا أنطونيوس أب الرهبان نزل من عزلته مرتين على الأقل إلى الاسكندرية ، مرة لتثبيت المؤمنين فى غمرة الاضطهادات وشد أزرهم وتقوية عزيمتهم ، ومرة ليعلن مساندته للقديس أثناسيوس فى نضاله ضد الأريوسية . هذا غير الرسائل التى كان يرسلها فى هذا الموضوع إلى الامبراطور قسطنطين .

وعندما انتظمت حياة الشركة الرهبانية بفضل عبقرية القديس أنبا باخوم ، أصبحت الأديرة معاهد ملأى بالنشاط الإرسالى والإجتماعى والثقافى .

النشاط الإرسالى :

كانت كنائس الأديرة الباخومية تفتح أبوابها لاستقبال الجماعات الوثنية حولها لتسمع العظات والتعاليم المسيحية ، وكان الرهبان يؤجرون أنفسهم للأعمال الزراعية فى الحقول حولهم لأجل أن يوجدوا صلات مع الجماهير فيها ، ويجذبونهم بأعمال المحبة ، فتصدر عنهم فى أقوالهم وأعمالهم تلك المبادىء التى تنم عما فى نفوسهم من قداسة .

ولم يكتف رهباننا بالتبشير فى طول البلاد وعرضها ، بل قادهم روح الجهاد إلى عبور البحر الأبيض المتوسط ، فنسمع عن دير شهير فى جزيرة ليرين جنوبى فرنسا أنشىء عام ٤٠٠ م طبقاً للقوانين الباخومية ، وواصلوا أسفارهم التبشيرية حتى وصلوا إلى ايرلندا شمالاً ، ومعروف أن هناك سبعة من رهبان القبط دفنوا فى ديزرت أولده (Desert Ulidh) بمقاطعة دونيجال (County Donegal) وكانت قوانين باخوميوس متبعة أيضاً فى جلاستونبرى (Glastonbury) بانجلترا .

وانتشروا أيضاً فى رحلاتهم التبشيرية فى الجنوب فبشروا النوبة وحولوها إلى المسيحية .

النشاط الإجتماعى :

كان المجتمع فى عصر آباء البرية تنتابه الكثير من الاضطرابات والحروب ، وكانت الأديرة لبعدها عن المدن ملجأ أمينا للكثيرين ، ولذلك اتخذت الضيافة لديهم أبعاداً كبيرة ومعنى إجتماعياً عميقاً، وكان رهباناً يقومون بها ليس فقط لأنها جزء من واجباتهم ومما تمليه عليهم قوانينهم ، بل أيضاً لما كان يملأ قلوبهم من حنو على الانسانية المعذبة ، وكان لهم تقاليدهم الكريمة فى الترحيب بالزوار واللاجئين وما أروع وصف تلك الزيارة التى ذكرها صاحب كتاب (تاريخ الرهبنة) عندما زار جبل نتريا حوالى عام ٣٩٥ م ، إذ يقول « وصلنا بعد ذلك إلى نتريا التى تبعد عن الاسكندرية بنحو أربعين ميلاً ، وهو أشهر مكان بين جميع أديرة مصر ، يستمد اسمه من مكان قريب جداً حيث يوجد النطرون بكثرة ونعتقد أن العناية الإلهية هى التى أرادت ذلك ، فكما أنه سيأتى يوم فيه يجب أن يغتسل الناس من أدران خطاياهم ، كذلك يستعمل النطرون فى تنظيف الملابس . ويوجد هنا نحو خمسين مسكناً مختلفاً وكلها تحت قيادة أب واحد ، وفى بعضها يعيش النساك معاً ، وفى البعض الآخر يقل عددهم ، وفى غيرها يعيشون متوحدين ، ولكن ولو أنهم متباعدين عن بعضهم إلا أنهم متحدين فى الإيمان والمحبة التى جعلت منهم روحاً واحدة .

وعند اقترابنا منهم ، وعندما علموا أننا أخوة لهم غرباء ، خرجوا جميعاً من قلاليهم كأنهم قطيع من النمل ، وأتوا مسرورين للقيانا ، وكانت غالبيتهم تحمل

لنا خبزاً وماء فى جلد ماعز ، اتباعاً لتلك الأقوال التى كان النبى ينطق بها فى لوم (لماذا لم تذهبوا أمام أبناء اسرائيل بخبز وماء ؟) . ثم قادونا بعد ذلك إلى الكنيسة وهم يرنمون المزامير ، ثم غسلوا أرجلنا وجففوها بملابسهم الكتانية ، كما لكى يزيلوا التعب الذى سببه لنا السير . ولكنهم قد أدخلوا فى الحقيقة إلى نفوسنا قوة روحية بأعمال المحبة التى قاموا بها نحونا .

وماذا أقول أكثر من ذلك عن إنسانيتهم وعن محبتهم وعن السرور الذى كان يداخلهم بما كانوا يقومون به من واجبات وخدمات ، كان كل منهم يحاول مجتهداً أن يدخلنا إلى قلايته ، ولم بقيامهم بكل ما تتطلبه واجبات الضيافة ، بل كانوا يلقون علينا دروساً فى التواضع الذى كانوا يمارسونه إلى درجة الكمال وفى وداعة الروح ، وغير ذلك من الفضائل الروحية التى يتحلون بها كأناس اعتزلوا العالم ، ذوى نعم مختلفة ، ولكن متحدين فى عقيدتهم الراسخة .

لم نر فى أى مكان آخر أعمال محبة بمثل ذلك الحماس ، ولم نجد فى أى مكان آخر أعمال الرحمة والتسامح تؤدى بمثل تلك الغيرة والحمية ، ولم نر فى مكان آخر مثل هذه الضيافة الجديرة بالإعجاب ولم نر أبداً مثل ذلك التعبد ، ومثل هذه المعرفة العميقة للكتب المقدسة ولا مثل ذلك الاهتمام المتواصل بأخبار القديسين وأعمالهم ، إلى درجة أن حسبنا كل واحد منهم أستاذاً فى العلوم الإلهية » .

وسيرة الأنبا شنوده نرى فيها مثلاً صارخاً لناسك ربط أفكاره الاجتماعية بعقيدته الدينية ، بحيث أصبح الدين فى نظره لا يقتصر على تأدية الفروض والمحافظة على العقيدة والدعوة إليها ، وإنما أضاف إلى هذه جميعاً عمل البر والخير فى أوسع نطاق ممكن ، وهو على كل حال من أوليات المبادىء المسيحية . لذلك حرص شنوده على فتح أبواب ديره لكل سائل أو محتاج أو ملهوف ، فلم يرفض معونة أحد أيا كانت المساعدة المطلوبة . وكان يسعى لقضاء حاجات الناس . بوسائل لعلها لا تختلف كثيراً عما يسمونه. الآن وسائل الخدمة الاجتماعية الحديثة .

وتبعه رهبان الدير الأبيض في هذه الأعمال بعد نياحته ، إذ يحدثنا الأنبا ويصا تلميذه وخليفته فى إحدى خطبه عن ضحايا الأوبئة والمجاعات التى حدثت فى السنة السادسة لنياحة شنوده ، وكيف أنهم كانوا لا يجدون (ما يقاتلون به سوى عشب الحقل) ولقد بادر رهبان الدير الأبيض بإغاثة عدة آلاف منهم بالطعام والتمريض .

كل هذه الخدمات الجليلة التى حققها رهبان الدير الأبيض سواء بالمحافظة على العقيدة والذود عنها ونشر تعاليمها الصحيحة ، أو بإغاثة الملهوفين وإعانة المرضى والمحرومين فى عصر سادته الفوضى والحروب والمجاعات ، جعلت من الدير الأبيض معهداً دينياً وإجتماعياً عظيم الشأن ، وهى تعتبر ولا شك فاتحة وباكورة صالحة لما قدمته أديرة العالم للانسانية من أعمال باهرة ونبيلة على مر الأجيال .

ولقد كان فى الاسكندرية مستشفى ودار ضيافة بدير رهبان جبل نتريا (وهو الآن منطقة البرنوجى) ، كما كان بجوار كنيسة مارمينا العجايبى بمريوط مستشفى كبير يديره الرهبان ، مازالت آثاره باقية إلى الآن .

هذه عجالة مختصرة عن النشاط الاجتماعى .

النشاط الثقافى :

كان النشاط الثقافى عنصراً هاماً وثابتاً من عناصر الحياة الرهبانية القبطية . وكان الكتاب المقدس قراءته وحفظ أجزاء منه ثم التأمل فى معانيه تأملات عميقة من أهم واجبات الراهب ، وقد تطرق بهم ذلك إلى التفسير واللاهوت ، ويحضرنا فى هذا المجال بعض أسماء مثل ابن كاتب قيصر وسمعان بن كليل وبطرس السدمنتى . ويمكننا القول بأن صوامع الرهبان وأديرتهم كانت مصدر إنتاج نسخى كبير ، بل كانت تشكل (مطابع) تلك الأيام ، وكان بعض الرهبان يتخصصون فى تزيين تلك المخطوطات ، وكان الدير الأبيض مهداً للأدب الصعيدى ، بينما كانت أديرة وادى النطرون مهداً للأدب البحيرى .

ولم ينحصر اهتمام البعض منهم فى الكتاب المقدس فقط ، بل تعداه إلى حقول أخرى فنعلم أن يوحنا النقيوس يضع كتاباً قيماً فى التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الفتح العربى . وقد سجل باخوميوس وتلاميذه الذين خلفوه أول نتاج فى الأدب القبطى الصعيدى الأصيل أى الذى لم يترجم عن الإغريقية .

هذا النشاط الواسع فى التأليف والنسخ أدى إلى اقتناء مكتبات كبيرة ذاع صيتها فى العالم ، فجاءت البعثات من مختلف الأنحاء منذ القرن السادس عشر تتسابق على اقتفاء تلك الكنوز ، وقد فازت بالكثير منها ، وما زالت مصادر ثمينة يرجعون إليها ويعملون على نشرها فى محيطهم .

لم يقتصر أثر النساك عند هذا الحد فى الميدان الثقافى ، بل قاموا بتلقين مبادئهم وتعاليمهم فى جامعة شعبية ديمقراطية لم نسمع عن مثيل لها فى التاريخ إذ بالرغم مما فى هذه التعاليم من حكم عالية وأفكار سامية فقد كان ينهل من مواردها العذبة بسطاء القلوب من جميع الطبقات الاجتماعية على اختلاف درجة ثقافتهم . وكانوا يعنون بأن يكشفوا لهم عن أسرار أشد أنواع الخضوع والطاعة ، وكان التعليم علمياً وعملياً فى وقت واحد ، إذ كانوا يلقون هذه التعاليم وهم فى نفس الوقت أمثلة حية أمام ناظرى مشاهديهم والمستمعين إليهم .

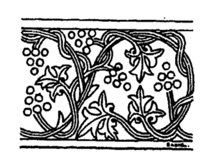
تتلمذ الكثيرون على آباء البرية نذكر منهم القديس باسيليوس الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية وهيلاريون الذى أدخل الرهبنة إلى فلسطين وروفينوس الأكويلى ومعه ميلانيا ، والقديس ايرونيموس ومعه بولا ، وبلاديوس أسقف هيلينوبوليس واضع كتاب (التاريخ اللوزياكى) ويوحنا كاسيان الذى سجل زيارته فى كتابيه (المواعظ) و (المعاهد) ، وهى تراث أدبى للرهبنة واعتبر ما فيها تعاليم لرهبان العالم فى كل وقت .

هذا علاوة على أنه كان فى كل دير مدرسة لتعليم أبناء النواحى القريبة منه .

وهكذا كانت الرهبنة القبطية تشعر دائماً بواجبها نحو القريب ، فتفانت فى سبيل المجتمع الإنسانى فى أوسع الحدود ، مؤدية أعظم الخدمات للإنسانية ، دون أن تتخلى عن علاقتها الوثيقة بالله ، فأتمت بذلك شعار المسيحية : محبة الله

ومحبة القريب . فإذا لاحظنا فى العصور المتأخرة أن النشاط فى الرسالة وفى الحقلين الاجتماعى والثقافى قد خبا نتيجة لظروف أدت إلى ضعف الحياة الرهبانية فمنعت الرهبان من الحفاظ على مستواهم العلمى وعاقتهم عن أداء دورهم التقليدى فى خدمة الكنيسة والمجتمع ، فإننا فى عهد قداسة البابا الأنبا كيرلس السادس يحدونا أمل كبير فى أن ترجع الرهبنة إلى سيرتها وتقاليدها الأولى الفنية التى استعرضنا نبذة منها ، لأجل أن نسترشد بها فى العمل على ما تقتضيه ظروف عصرنا وحاجاته الحاضرة.

(مجلة مدارس الأحد ـــ يناير وفبراير ١٩٧٠)



الفصل الحادى عشر

الاحتفال بالذكرى المئوية السادسة عشر
للقديس الأنبا باخوميوس
(٣٤٦ م — ١٩٤٦ م)

سيداتى ، سادتى

فى مصر نشأت الأديرة ، والرهبنةُ هبةُ مصر للكنيسة ، فإذا قامت جميعُ الطوائف المسيحية ، فى بلادنا العزيزة ، لاحياء الذكرى المئوية السادسة عشرة ، للقديس القبطى العظيمِ الانبا باخوميوس اب الشركة ، فان فى هذا الاجماع وفى هذا الاحياءَ تحيةً رائعةً لمصر ومبعثَ فخر لنا نحن الاقباطَ ، واعترافا بما أسدت مصرُ للمَسيحية ، اذ الرهبنةُ هى بمثابةِ العامودِ الفقرى للكنائس التقليدية .

وواجبنا نحن الأقباط أن ننتهز فرصةَ هذه الذكرى الجليلة ، لنكشفَ عما فى تاريخنا من كنوزٍ ينتفعُ بها كثيرٌ من شبابنا ، ونرفعُ بها الروحَ المعنوية ، من الوجهةِ الروحيةِ والاخلاقيةِ لأمتنا . فإذا قمنا باحياءِ هذه الذكرى ، فإننا نحيى فى شخصِ صاحبها ذكرى اباءِ البريةِ أو الرهبنة ، امثالِ الانبا بولا والانبا انطونيوس ، والانبا مكاريوس والأنبا شنودة وغيرِهم من سواحٍ ومتوحدينَ ورهبان ، الذين قاموا يؤدون واجبَهم نحو المسيحية ، إبان دخولها وانتشارها فى هذه البلاد ، جنبا إلى جنب مع شهدائنا الاطهار . ولئن فاتتهم فرصةُ سفكِ دمائِهم فى سبيلِ المحافظةِ على المسيحية ، وإعلاءِ شأنها ، فقد قاموا يميتون اجسادَهم وما يتصلُ بها من غرائزَ وشهواتٍ ، فى سبيلِ حفظِ التعاليمِ المسيحية ، وادابها السامية ، وعدمِ تلوثِها بتعاليمِ الوثنية .

ففى القرن الثالث الميلادى بدأ بعضُ المسيحيين يولون ظهورهُم للعالم ، ويتوغلون فى الصحراء ، لينفردوا مع الله ، وليمضوا البقيةَ الباقيةَ من حياتهم ، فى صومٍ وصلاةٍ ، وما أسرع أن انتشرت هذه الدعوة فى أرض مصر . وبعد تلك الحياة المرحة ، حياةِ الدعةِ والترف التى اشتهر بها المصريون فى عهد الوثنية ، انقلب كثيرٌ من المصريين فى تلك الأيام إلى نساك نصفِ عراة ، فى

أسمال بالية ، يعيشون فى الصحارى ، فى فقر وجهاد ، ويقضون معظم أوقاتهم رافعين اذرعا ضامرة ، فى صلوات وابتهالات للرب . هؤلاء أباء البرية .

ولم يكن الأمر يقتضى فقط البعدَ عن العالم وعما فيه من اغراء وحركة ، بالرغم مما يتطلب ذلك من جهد وبطولة روحية ، بل يجب على الناس بعد ذلك أن يكون فى يقظةٍ دائمة ، دون أى هوادة أو تَراخٍ ، وإلا تغلب عليه ابليس العدو اللِدود . وهو بعد ذلك يجب أن يتغلب على أى ميلٍ يبدو من نفسه إلى حبِ التملك ، واقتناء الاشياء ، لأن الفقر الاختيارى من أهم شروط الرهبنة .

وكانت الصلاةُ المستمرةُ من أهم اسلحتهم فى التغلبِ على ابليس . كان كل منهم يحصن نفسه داخلَ اسوار منيعة من الصلوات ، تزداد على مر السنين ضخامةً وقوةً . وكانت كل ليلة يمضيها الناسكُ جاثياً على ركبتَيه مسبحا ، يضيف بها حجرا إلى تلك الاسوار . وكانت الشمس إذا اشرقت على الانبا انطونيوس بينما هو مستغرقا فى تأملاته ومتوجها بكل أفكاره نحو السماء قال لها (أنك تضايقيننى أيتها الشمس وتحولين بينى وبين تأملاتى ، ويُخيَّل إلى أنك لا تشرقين إلا لكى تحجبى عنى نورى الحقيقى) نعم ! علمونا أن الصلاة ليست مجرد سلسلة من التسابيح والطلبات نتبرعُ لها بِبضع لحظاتٍ من حياتنا اليومية ، وانما هى انسكابُ النفس أمام الخالق والشعورُ بالاتحاد التام معه . وكانوا يتخذون من اسم المسيح له المجد ومن علامة الصليب أهم أسباب الوقاية لهم من الشرير .

كان كل ما يحتاج اليه الناسك فى الصحراء حب الإله والطاعةُ والتواضعُ وإرادةٌ لا تكل فى قهر جميع شهوات الجسد وكانوا يمارسون فى سبيل ذلك ضروبا مختلفة من أساليب التقشف والحرمان مما ادهش بعضها وما زال يدهش العالم . كان طعامهم اليومى يتكون من الخبز الذى يخبز مرة كل سنة أو كل ستة أشهر وقليل من الملح والاعشاب . وكان بعضهم يأكل كل يومين أو اكثر وكان البعض يأكل مرة فى الاسبوع . وحتى هذا الخبز الجاف كان البعض يحجم عنه إمعانا فى إماتة الشهوات . وكان البعض يرفض أن يمس الاعشاب المطبوخة وكانوا يتمثلون بالقول (كل الحشائش والبس منها ونم عليها) . وكان الصمت أيضا من مستلزمات الحياة النسكية وكذلك الاقلالُ من النوم .

وبعد أن يتم للناسك كُل ذلك كان عليه أن يأخذَ حذرَه من الزهد والخيلاء والغرور وفى ذلك كتب أحد الذين زاروا هؤلاء الأباء وهو القديس جان كاسيان ما يأتى (فبعد أن قمنّا بما يتطلبّه منا يوم الأحد من تقديس وانصرفنا من الكنيسة ، رجعناإلى قلاية القديس المسن انبا سيرسينيوس الذى أحسن استقبالنا ، اذ عوضا عن ذلك الحساء الزائد الملوحة الذى تعود أن يشربَه بعد أن يضعَ عليه نقطةَ زيت قدم لنا فى ذلك اليوم قَليلا من حساءٍ آخر وزاد قليلا كمية الزيت التى تعود أن يضعها ، ونقطةُ الزيتِ هذه لم يكن الغرضُ منها الاستمتاعَ بما فيها من طعمٍ ، اذ هى ليست من الكمية بحيث يستساغُ لها طعم ، وانما غرضُ هؤلاءِ النساك من وضعها أن يمنعوا الزهد والخيلاء من التسرب إلى نفوسهم اذا اشتد بهم الحرمان والتقشف » .

ومؤسس الرهبنة المسيحية هو الأنبا انطونيوس لا بسبب أنه كان الأول الذى توحد فى الصحراء اذ سبقه آخرون إلى ذلك أهمهم الأنبا بولا . ولكن بسبب كونه الأول الذى تجمع حوله جمهور من النساك برغبة اتباع طرقه وتعاليمه . لم يكن لهم من قوانين سوى ما تمليه عليهم ضمائرهُ وكانوا يتتبعون خطوات معلمهم فى القيام بفروض النسك والعبادة . واستمرت الحالُ كذلك إلى أن قام بتنظيمَ تلكَ الحياة الأنبا باخوميوس بقوانينه وانظمته المشهورة بوحى إلهى .

والأنبا باخوميوس هذا مصرى صميم ولد من أبوين وثنيين حوالى سنة ٢٩٢ ميلادية فى مصر العليا . ويقال أنه اعتنق المسيحية عندما كان يشاهد ما كان يتحمله الشهداء الابرار فى عصر دقلديانوس،خدم فى الجيش أيام ولاية الامبراطور قسطنطين حيث تشرب ما فى المبادىء العسكرية من نظام وطاعة . وعندما ترك الجندية ذهب إلى البرية وتتلمذ فى ناحية طيبة للانبا بلامون . وفى حوالى عام ٣٢٥ بدأ فى انشاء اديرة ذات انظمة خاصة للحياة فيها . ونقرأ فى حياة القديس باخوميوس أن الملاك الذى سلمه هذه القوانين قال له (اسمح لكل ناسك بأن يأكل ويشرب حسب طاقته وأعط لكل منهم عملا يناسب غذاءَه . ولا تمنعهم من الاقلال من الطعام أو من الصوْم . أعط أشَقَ الأعمال لأقواهم بنية وأكثرهم أكلاً بالنسبة إلى اخوانه ، وأخفف الأعمال للضعفاء .

الذين يكثرون من الصوم . وضع كل ثلاثةٍ منهم فى قلاية على أن يتناولوا طعامهم معًا فى مكانٍ خاص . وليلبسوا اثناء الليل لباسا من الكتان وليربطوا حقويهم بحزام . وليضعوا فوقه لباسا من جلد الماعز الابيض يلبسونه دائما اثناء تناولهم الطعام واثناء نومهم . ولكن ليخلعوا ذلك الجلد عند التناول وكذلك احزمتهم على أن يغطوا رؤوسهم فقط) وقال أيضا الملاك لباخوميوس يجب أن يتلو الناسك اثنى عشر مزمورا فى أول النهار واثنى عشر فى المساء واثنى عشر فى الليل . فرد باخوميوس قائلا (أن ذلكِ قليل) فأجاب الملاك (لا أطلب منك أكثرَ من ذلك حتى يستطيعَ الضعيفُ والحديثُ أن يقومَ به دون أى إحراج . أما هؤلاء الذين وصلوا إلى درجة الكمال فانهم لا يحتاجون إلى هذا القانون ، إذ أن لهم من نقاوة قلوبهم ما يجعلهم ينشدون غذاءهم فى التأملات الروحية فيداومون الصلوات والتسابيح كلما خلوا إلى أنفسهم فى قلاياتهم) .

وهكذا كان على الرهبان أن يعملوا كل فيما يعرف من صناعة لأجل أن يسدوا عوزهم ولأجل أن يقوموا بما تتطلبه منهم المحبة المسيحية نحو الغريب والقريب . وكنت تدخل فى الدير فيخيل إليك أنك فى مدينة صناعية زراعية ، ففيه صناعات مختلفة وكنيسة ومكتبة وغرفة فسيحة للطعام ومطبخ ومحل للغسيل ومستشفى وحديقة وكل ذلك داخل سور ونلاحظ أن هذا النظام قائم على الطهر والفقر والطاعة والعمل . ويسير كل ذلك تحت نظام دقيق .

وسرعان ما جذبت هذه الحياةُ الجديدةُ أنظارَ الالوف من الرجال الأتقياء الذين رغبوا فى أن يعيشوا عيشةَ الكمال المسيحى فتأسست الأديرةُ فى طولَ البلاد وعرضها . وهذه الأديرة هى التى حافظت على العقيدة المسيحية فى أشد العصور ظلاما وجهلا كما أن أباءنا الرهبان بتقواهم وفضائلهم ومبادئهم الخُلقية السامية ، قد أصبحوا أنوار شعت بالفضائل على جميع أنحاء العالَم ، لذلك سرعان ما وفد إلى مصر لفيفُ من قديسى وعلماء الكنائس الشرقية والغربية فتتلمذوا على أيدى ابائنا الرهبان ثم عادوا إلى بلادهم ممتلئين إجلالا واكبارا لما رأوا وسمعوا .

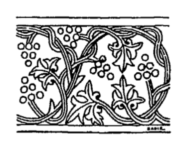
وعلى ذلك تأسست الأديرة فى الغرب وفقا لنظام باخوميوس وصارت سيرُ ابائنا الرهبان المصريين نماذجُ يحتذيها رهبانُ الغرب .

ولم يلبث خبر هذه الحركة أن تجاوز تخوم مصر وسرى فى الأمصار المجاورة وبلغ منها إلى البلدان الأوربية فقامت هناك الرهبنة وانشئت الأديرة وفقا لانظمة باخوميوس وهذه الأديرة هى التى حافظت على العلوم والآداب فى العصور الوسطى المظلمة وأوصلتها إلى وقتنا الحاضر فأرتوت من نبعها الصافى مدينتنا الحديثة وعلى ذلك تكون أنظمة باخوميوس قد أثرت على تاريخ الانسانية كلها .

يخيل إلى البعض أن الأنبا باخوميوس بحكم تربيته العسكرية ونظامه الدقيق كان خشنا صارما متغطرسا . ولكن الأمر على عكس ذلك تماما . فقد اشتهر الانبا باخوميوس مع كل ذلك بطيبة القلب ودعة الاخلاق والتسامح وكانت هذه الأوصاف مقترنة ببصيرة نفاذة ونظر بعيد وتقدير لكل قلب باسل يدير وجهه شطر الدير وإحاطة تامة بضعفات النفس الإنسانية . وكان يعرف كيف يتدخل فى الوقت المناسب ليحول دون أى حركة تبدو من جانب أحد الرهبان تهز أنظمة الدير ، كما كان يحافظ على الروح المعنوية بين الرهبان بجميع الوسائل وهذا ما لا يغيب عن قائد ما هو جدير بالقيادة مثل الأنبا باخوميوس .

رقد فى الرب فى مثل غد من سنة ٣٤٨ وتحت قيادته تسعة آلاف راهب وديرين للرهبات . بركة صلواته لتكن معكم ومعنا يا أبائى واخوتى . آمين .

وفق الله الجمعية بمناسبة هذه الذكرى المباركة إلى اصدار كتاب الأول من نوعه عن الرهبنة وتاريخها . حرره لفيف من كبار علماء الدراسات القبطية . وهو مؤلف فى حوالى مائتى صفحة تعرضه الجمعية بتكاليف الطبع رغبة منها فى نشر صفحات تفوح عطرا وفخرا من تاريخنا المجهول وسيكون معداً للتوزيع يوم الأحد ٣٠ الجارى بكافة الكنائس .



الفصل الثانى عشر

في الرهبنة القبطية

الرهبنة الباخومية

مغبوط القديس مرقس فى سمائه ، فلم تقتصر ثمرة بشارته على تلك السلسلة الطويلة من خلفائه الذين جاهدوا الجهاد الحسن وحفظوا الإيمان ، وأبانوا للعالم المسيحى فى وضوح حدود الإيمان الأرثوذكسى ، التى مازال المسيحيون يتبعونها إلى اليوم ، وهم يرددون قانون إيمان أثناسيوس ، ولم تقتصر على وضع قواعد علم اللاهوت الذى أهدته مصر للمسيحية ، ولم تقتصر على تلك الجمهرة من الشهداء الذين لفتوا أنظار العالم ببطولتهم ، ورووا بدمائهم الزكية أرض الإسكندرية ، ليشيدوا عليها أثبت كنيسة فى المسيحية إلى اليوم ، رغم ما قابلها من عواصف وأعاصير ، نعم لم تقتصر ثمرة تلك البشارة المباركة على كل ذلك ، بل كان هناك مظهر آخر لذلك الإيمان الذى تغلغل فى قلوب المصريين ، وملك عليهم أفئدتهم وإختلط بدمائهم ، عندما قام فريق منهم ينشدون الكمال المسيحى بإعتناق الحياة النسكية ، فوضعوا بذلك الأسس والمبادىء الخالدة لكل ما يتعلق بالحياة الروحية إلى يومنا هذا ، وكان فى مقدمة هؤلاء القديس الأنبا باخوميوس ، الذى كان أول من بدأ العيشة الرهبانية المشتركة داخل الأديرة ، تحت قانون واحد ورئيس يعيش الرهبان تحت طاعته .

ولد بالقرب من إسنا حوالى عام ٢٨٦ م من والدين وثنيين ، وفى سن العشرين جند فى الجيش الرومانى ، أعظم الجيوش تنظيماً فى ذاك العهد ، وتمتاز تلك الفترة من حياته بحادث كان له تأثير عميق فى مستقبله . فعندما وصل مع كتيبته إلى نواحى الأقصر ، رأى قوماً أقبلوا عليهم يمدونهم بالمؤن والأطعمة ويوفرون لهم أسباب الراحة ، وراعته هذه المحبة وذلك الكرم وسأل فقيل له هذه الأعمال يقوم بها المسيحيون ، أتباع الدين الجديد الذى إجتاح البلاد حينذاك ، وقد حركت هذه الأعمال قلباً رقيقاً ، إذ تأثر باخوميوس ، إلى حد أن أخذ على نفسه عهداً ، بأن يضع نفسه هو الآخر لخدمة الآخرين ، بعد أن يترك الجندية .

وبعد أن وصل إلى ناحية الشيخ عبادة مركز ملوى سرح من الجيش ، فكان أول ما فعله أن رجع إلى قرية تعرف الآن بكفر الصياد بمركز دشنا بمديرية قنا ، وكان جميع سكانها من المسيحيين فإنتظم فى سلك الموعوظين وتقبل سر العماد . ثم قصد ناسكاً متوحداً بقرب تلك القرية يدعى أنبا بلامون مشهوراً بشدة نسكه وتقشفه ، يريد أن يتتلمذ عليه ، قصده مبيناً له صعوبة حياته ، ولكن باخوميوس أخذ يتوسل إليه أن يقبله ، فقبله وألبسه ثوب الرهبنة ، أمضى قديسنا سبع سنوات متتلمذاً عليه فى حياة تقشفية صارمة ، يمارس ما كان يشاهده فى معلمه ، من ضروب الحرمان والقمع والصلاة والتأملات والأعمال اليدوية ، خصوصاً صنع السلال ، وكانا يقتاتان من ثمنها ، ويساعدان الفقراء أيضاً ، وعندما كان بلامون يشاهد تلميذه فى بعض الليالى وقد أثقل النوم جفنه ، كان يأخذه خارج القلاية ويأمره أن ينقل الرمال فى المقاطف من مكان إلى آخر . وكان يتعلم غيباً آيات الكتاب المقدس مستوعباً معانيها ، ومباشراً بالعمل كل فضيلة لا سيما التواضع والصبر والحب الشديد للرب وللقريب . وإذا كانت حياة الجندية قد تركت طابعها النظامى فى نفسه ، فإن حياة التوحد هذه لم تحطه علماً بأنواع الحرمان والغلو فى النسك فقط ــ التى يتحملها قلب شجاع ــ بل خرج منها وقد أشفق على هذه الحياة الملائكية ألا تجد مع الزمن من يقبل عليها ، بصد الكثيرين عنها كما فعل معه الأنبا بلامون لولا إصراره ، مع أنها تكون خيراً عميماً على الإنسانية ، لو أنه وضعت لها قواعد وأصول ، ليس فيها ذلك الغلو فى الفروض والتقشف والقمع . خرج من حياته مع الأنبا بلامون ، وهو يتأمل فى هذه المعانى تأملاً عميقاً ، وقد خبر بنفسه كيف كان يعيش المتوحد طبقاً لقواعد يفرضها على نفسه ، ويقاسى وحيداً ذلك الضجر المضنى ، فى بعض الأيام التى كانت تبدو وكأن لا نهاية لها ، وتلك الخواطر والأشباح المقلقة المخيفة ليلاً . وكان الناسك فى وحدته يبدو كالمصباح الذى يخبو نوره بسرعة ، سواء بسبب تلك الوحدة التى يستسلم لها ، أو بسبب المغالاة فى أنواع التقشف والحرمان ، التى لم تكن تخضع لقاعدة ، أو تحد منها تقاليد لها إحترامها ، فكانت إما أن تتعدى حد المعقول ، أو تثير نوعاً من التفانى يمليه حب التفوق .

خبر الأنبا باخوميوس كل هذا ، وكان يتأمل فيه تأملاً عميقاً فى خلواته ،

عندما سمع يوماً صوتاً يدعوه إلى « خدمة الناس بدعوتهم إلى الله » ، فجاشت فى نفسه رغبة ملحة فى أن يضع حياة الكمال هذه فى متناول جميع النفوس التى ترغب فيها ، لا ليرفعها إلى أسمى الطبقات ، بل ليذهب بها فى رفق إلى أبعد مدى تستطيع أن تصل إليه دون إرهاق . ففكر فى حياة الشركة الديرية ، وتراءى له أن حياة الجماعة ، بإخضاعها الفرد للمجموع ، تكون سياجاً له يحميه من سوء التصرف ويسهل معها ترويض النفوس إذ ترى أمامها أمثلة لإتباعها ، وينتفع الجميع بما تقوم به النفوس من جهود للسمو . ورأى أن فرض العمل ، فضلاً عن كونه شريعة إلهية ، فإنه أيضاً تمرين مفيد ضد الأفكار الشريرة ، ووسيلة لجلب موارد لأجل أعمال الإحسان ، ومن ثم صار قانوناً ثابتاً فى حياة الشركة الرهبانية .

وفى إحدى الليالى ، بينما كان صدر باخوميوس يفيض بهذه الأمانى والتأملات ، وبينما هو يصلى ، ظهر له ملاك الرب قائلاً « يريد منك الرب ، إستمراراً لخدمتك النقية ، أن تجمع عدداً كبيراً من الرهبان ، وأن تجتهد فى جعلهم حائزين لرضائه تعالى ، وذلك بأن تعرفهم جميعاً القوانين التى أعطيها إياك . » .

أما القوانين التى أعطاها إياه الملاك فكان بها ما يأتى : ــ

* إسمح لكل شخص أن يتناول من الطعام والشراب ما يتفق وبنيته ، وأجبرهم على العمل بنسبة ما يأكلون ، ولا تمنعهم من الإقلال من الطعام أو من الصوم .
* أعط أشق الأعمال للأشداء وللذين يتناولون طعاماً معتدلاً ، وأضعف الأعمال للصغار وللذين يصومون .
* إبن لهم قلالى يسكن كلا منهما ثلاثة رهبان ، وليتناولوا طعامهم جميعاً فى مكان واحد . ليلبسوا أثناء الليل لباساً من كتان وليتمنطقوا بحزام ، وليكن لهم جميعاً حرملة بيضاء من دبر الماعز ، لا يخلعونها مطلقاً أثناء الطعام أو أثناء النوم . ولكن عند التناول ليخلعوا أحزمتهم وهذه الحرملة ، مبقين فقط القلنسوة على رؤوسهم .

وقال الملاك أيضاً لباخوميوس ، ليتلو الرهبان إثنتى عشر صلوة أثناء النهار وإثنتى عشر صلوة فى آخر النهار ، وإثنتى عشر أخرى أثناء الليل ، فأجاب باخوميوس أن هذا قليل ، فأجاب الملاك لا آمرك إلا بذلك فقط ، حتى يستطيع الضعاف أن يقوموا بها دون مشقة أما من بلغوا درجة الكمال فهم ليسوا بحاجة إلى هذا القانون ، إذ أنهم عندما ينسحبون إلى قلاليهم فى نقاء قلب يتناهى فى السموات فإنهم يصلون بإستمرار ويكون التأمل غذاؤهم (وأود أن أرفع النظر هنا أن هذا القانون هو السبب فى أن تتكون التسبحة من إثنى عشر مزموراً) .

وإنصرف السفير السماوى بعد أن سلمه كل ذلك ، وأما باخوميوس فشكر الله ومجده كعادته ولم يشك فى تلك الرؤيا التى أكدت لديه بعد ظهورها ثلاث مرات كما نقرأ فى تاريخ حياته .

نرى من ذلك أن القوانين الباخومية أتت بكثير من التسامح ، الذى كان صاحبها يصبو إليه وكان على الراهب أن يقدم عملاً من صنع يديه ذا كمية محدودة ، فيجدل الخوص المنتشر على ضفاف النيل لعمل حصر أو مقاطف ، وكذلك سعف النخيل ، مع إلتزام الصمت ، فيما عدا الترنيم بالمزامير . أما الطعام فبالرغم من قلة ألوانه ، إلا أنه كان بوفرة لا بأس بها ليعطى فرصة لمن يرغب فى بعض أنواع الحرمان .

كانت هناك عقوبات طبعاً تفرض فى مثل هذه الجماعة ، أقلها التوبيخ وأكبرها الطرد من الدير . ولم يطلب من الرهبان أى تعهد ، بل كان عليهم فقط أن يمارسوا الفضائل الرهبانية ، وهى البتولية والفقر الإختيارى ، يتوجها جميعاً تلك الفضيلة الأساسية فى حياة مثل هذه الجماعة وهى الطاعة . وكانوا يستطيعون بعد الإستئذان أن يستقبلوا زوارا .

لا يجب علينا أن ننظر إلى حياة الشركة الرهبانية كإستنكار لحياة التوحد أو كتصحيح لها ، إذ كان الأنبا باخوميوس يبدى أشد الإعجاب بالأنبا أنطونيوس أب الرهبان ، وكان يعتبره أحد « العجائب الثلاثة » فى زمنه وغالباً ما كان المتوحدون يطرقون أبواب الأديرة لدخولها كرهبان ، كما أنه كان يحدث أن يترك الرهبان حياة الأديرة إلى حياة التوحد .

طبق الأنبا باخوميوس تلك القوانين التي تلمسها ، والتي طالما تأمل فيها في رفق وتدرج ، وكان ينتهز الفرص للتوسع في تطبيقها ، إذ كان مثالاً لا يبارى كمرشد سامي مثالي ، كما نعلم مما وصل إلينا من سيرته ، فكان يتصرف مع الرهبان بالحلم والرفق ، ولا سيما مع الشيوخ والمرضى منهم ، وأما الرهبان الأحداث فكان يعاملهم بطول أناة . ويتساهل التصرف معهم . مرقياً إياهم إلى الكمال بالتدريج بإهتمام كبير ومداراة معتدلة . وكان يقول لرهبانه إن الطاعة لا تأذن للراهب أن يفحص تصرفات رئيسه . فإن ذلك مما يسوغ له . أنما عليه أن يطيع بسرعة وبسرور . يؤثر عنهم أنهم بلغوا من سرعة الطاعة للرؤساء حدا كان الراهب منهم لا يتمم كتابة كلمة بدأها في سبيل تلبية نداء لرئيسه .

بدأت جماعته الأولى في طبانيس بداية متواضعة ، إذ قبل بعض المتوحدين أن يتناولوا طعامهم معاً ، وأن يجمعوا نتاج عملهم ليستفيد منه الجميع ، بينما يلزم كل منهم قلايته ، وبعد ذلك قبل ثلاثة نساك أن يتبعوا بدقة القوانين التي عرضها باخوميوس ، وقسموا الأعمال التي تقتضيها حياتهم الجماعية فيما بينهم ، ولم يلبث الدير بعد قليل أن ضاق بقصاده ، الذين بلغوا ١٤٠٠ ، فأسس باخوميوس ديراً على مسافة قصيرة شمالاً في جهة بباو (فاو الآن) وبعد ذلك إضطر لإنشاء دير آخر على الضفة اليمنى للنيل عند قصر الصياد ، ثم رابع مقابله على الضفة اليسرى ، وخامس في مكان يقع بين قصر الصياد وفاو . وذهب إلى أبعد من ذلك شمالاً فأسس ثلاثة أديرة قرب أخميم ، وديراً تاسعاً في الجنوب قرب إسنا .

وفي هذه الفترة تأسس ديران للراهبات ، الأول في طبانيس تحت رآسة شقيقته مريم والآخر بالقرب من أخميم .

تنيح الأنبا باخوميوس في اليوم الرابع عشر من شهر بشنس عام ٣٤٦ م ، وجاء خلفاؤه فعملوا على تنمية تلك المؤسسات ، وخصوصاً تلميذه تادرس الذي كان ينحدر من عائلة شريفة غنية ، والذي تولى الرآسة مدة ثمانية عشر عاماً ، إذ أسس ديرين على الضفة اليسرى للنيل بالقرب من الأشمونين وثالثاً في أرمنت ورابعاً شمالي قصر الصياد .

وبعد نياحة تادرس عام ٣٦٨ م شحت المعلومات التى لدينا عن تقدم هذه المؤسسات فى مصر ، ولكن القديس جيروم يخبرنا عن دير باخومى فى أبو قير يسمى دير التوبة ، ونستنتج من ذلك أن هذه الأديرة غزت الوجه البحرى فى أواخر القرن الرابع .

ترك الأنبا باخوميوس عندنياحته نحو سبعة آلاف راهباً فى أديرته ، وترك أديرته مزدهرة بالقداسة والفضائل والسلام ووحدة الرأى والحب المتبادل ، بعيدة عن البلبلة والإنقسام وعن روح الغيرة والحسد ، مشرقة بضياء التعاليم الإلهية وحسن العبادة ، مطيعة لرئيسها متبعة إرشاداته . وكان هو نفسه مثلاً حياً للفضائل المسيحية والكمال الإنجيلى وبالإجمال كان رهبانه جماعة ملائكية متمتعة على الأرض بنوع من السعادة السمائية ، وكان كثيرون يأتون من أمكنة بعيدة ليشاهدوا ملائكة أرضيين وأناساً سمائيين فى تلك الأديرة الذائعة الصيت بكل نوع من القداسة .

* * *

إنتشرت قوانين الأنبا باخوميوس فيما وراء حدود مصر ، تلك القوانين التى سردت لكم بعضاً منها وضم إليها البعض الآخر تدريجياً حسب الحاجة ، وقد ترجمها إلى اللاتينية القديس جيروم عام ٤٠٤م ونشرها بين الرهبان فى إيطاليا .

وترجم أحد رهبان الغرب المدعو ديونيسيوس الصغير المتوفى عام ٥٤٥ م إلى اللغة اللاتينية تاريخ حياة باخوميوس وأنظمته وقوانينه عن اليونانية ، مما ساعد على إنتشار تلك القوانين فى أوروبا .

وفى القرن السادس قام أبو الرهبنة الغربية بندكت بإقتباس الكثير من أنظمة القديس باخوميوس وقوانينه ، وعن طريقه إنتشرت التعاليم الباخومية فى أوروبا إنتشاراً سريعاً ، وحفظوا لها صبغتها الروحية والإنسانية معاً .

وفى القرن العاشر كانت الأديرة فى أوروبا قد بلغت درجة كبيرة من التأخر والإنحطاط مما دعا إلى قيام حركة إصلاح ديرية قوية تعرف بالحركة الكلونية ، نسبة إلى مدينة كلونى على الحدود الفرنسية الألمانية ، وكان من أهم ما تميزت به

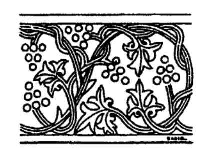
هذه الحركة عقد مجمع كبير ضم جميع رؤساء الأديرة وممثلى المنظمات الرهبانية المختلفة لدراسة النصوص الباخومية وقد تبينوا من هذه الدراسة أنهم أغفلوا نصين مهمين فى القوانين الباخومية (الأول) ضرورة عقد مجمع من رؤساء الأديرة مرتين على الأقل سنوياً (والثانى) وجوب معاملة الأديرة على أنها وحدة واحدة غير مستقلة عن بعضها البعض . فأخذوا بهذه النصوص التى أغفلها بتذكت وعملوا بها ، وسرعان ما أدى ذلك إلى النهوض بالأديرة نهضة سريعة قوية . وكان لهذا النهوض أثره العميق فى توجيه المدنية إلى يومنا هذا إذ قامت الجماعات الرهبانية مهتدية بقبس القديس باخوميوس المصرى ، وتبع ذلك تلك النهضة الأدبية الفكرية فى القرنين الثانى والثالث عشر ، التى إقترنت بقيام العلوم ونشأة الجامعات فى القرون الوسطى . كل ذلك يرجع الفضل فيه إلى عبقرية الأنبا باخوميوس .

أدركت كنيستنا الحية النامية منذ زمن بعيد . أن القديس باخوميوس وزملاءه من آباء الرهبنة يكونون لآلىء ثمينة فريدة فى جيدها . لا مثيل لها فى أية كنيسة أخرى فى العالم . فوضعت أسماءهم فى قداساتها وأنتظمتهم جميعاً فى تلك القطعة التى تبدأ بالقبطية بلفظ بينشتى آفا أنطونى. أى العظيم أنبا أنطونى . والتى يرنمها شمامسة الهيكل فى صوت شجى ولحن قوى . وكأنها باقة زكية يختلط أريجها بالبخور . يقدمونها للسيد المسيح له المجد على المذبح . على مر الأيام والعصور : وكأنى بهم وهم يرددون أسماءهم يقصون على الأجيال المتعاقبة قصة أولئك الشهداء ، الذين كانت جروحهم تدمى من الداخل ولا يعلم أحد سوى الله شيئاً من أمر إنتصاراتهم الطويلة . وأولئك الرواد للحركة الروحية العظيمة ، التى ما زالت إلى الآن تلعب دوراً رئيسياً فى تاريخ الكنيسة المسيحية فى جميع أرجاء العالم ، وقد تركت عليها طابعاً لا يمحى ، يعترف بآثاره حتى أولئك الذين لا تهمهم المثل الرهبانية .

فهل آن الأوان لنستمع إلى تلك القصة فى يقظة وإنتباه . نحن أحفاد القديس باخوميوس . فننهض بأديرتنا لتقوم بنصيبها فى خدمة بلادنا العزيزة وكنيستنا أدبياً وعلمياً وإجتماعياً ؟ إن أملنا لكبير فى عهد قداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس . الذى بدأ عهده بخطوة عظيمة جريئة فى هذا الإتجاه .

عندما أمر الرهبان بالرجوع إلى أديرتهم ليعمروها بعد أن تركوها خراباً يبابا تنعى من بناها . إنه أب الرهبنة القبطية فى العصر الحاضر ، وأجد تلاميذ الأنبا باخوميوس الأوفياء تشرب كثيراً من روحه ومن خلاله . وعلى الأخص عذوبته ودماثة أخلاقه وصبره وطول أناته . ودقة إحساسه . حقاً إنها علامة تبعث على التفاؤل وتحيى الأمل . أن يقيض الله لنا فى القرن العشرين أحد آباء البرية ليكون رئيس كنيستنا . إنه لحادث فريد فى تاريخ الرهبنة وتاريخ الكنيسة معاً مبشر بخير عميم إن شاء الله .

(مجلة مدارس الأحد ــ يوليو ١٩٦١ م)



الفصل الثالث عشر

من سنكسار شهر بشنس

الأنبا باخوم والديرية الباخومية

(٢٩٠ ـ ٣٤٦ م)

بالرغم من الأبحاث والمؤلفات التى ظهرت منذ أوائل هذا القرن ، عن تاريخ مصادر الرهبنة فى القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس ، فإننا نعتقد أن هذا التاريخ لم يكتب بعد ، بل على الأرجح مازلنا بعيدين عن كتابته .

كما يأخذ البحث والتحقيق فيه جهداً كبيراً ، لم يتفرغ له سوى الرهبان فى الغرب ، ونكتفى فى هذا المقام بإقتباس مثالين ، من بين الأعمال الخالدة التى قام بها هؤلاء الرهبان ، والأول هو مجموعة «حياة القديسين» التى بدأ يجمعها البولانديست عام ١٦٤٣م بمدينة أنتوزب ببلجيكا . وقد بلغ عدد مجلداتها الضخمة للقديسين الذين تقع تذكارات حياتهم من يناير إلى أكتوبر ٦٢ مجلداً ، ثم أعمال الأب مينى الجبارة فى مجموعة الأباء الإغريق (الشرقيين) التى تبلغ ١٦٥ مجلداً .

والحقيقة الثابتة المعترف بها عالمياً ، أن مصر مهد الرهبنة ، وأن آباء البرية هم خلفاء الشهداء ، ويكونون الجيل الثانى لأبطال الجهاد المسيحى . ولم تكن الحركة الرهبانية فى أصولها حركة كنسية ، بل قام بها جموع من العلمانيين الأتقياء الذين ليس لهم أن يقيموا القداسات . فأنطونيوس عاش وتنيح علمانيا وكذلك باخوم ومكاريوس وغيرهم من آباء البرية . هؤلاء الآباء الذين لا يمتاز غالبيتهم عن صيادى الجليل فى علومهم ، قد وضعوا فى الحقيقة الأسس والمبادىء الخالدة على الدهر لكل ما يتعلق بالحياة الروحية ، وفى ذلك يقول الأب روسولو فى مؤلفاته « إذ بحثنا بعناية المثل العليا التى كان هؤلاء النساك يضعونها نصب أعينهم ، تتملكنا الدهشة ويستولى علينا العجب ، لما كانوا يتحلون به من دقة الملاحظة النفسانية والحكمة العملية ، بل ما نضعه فى جملة واحدة : « الإدراك السليم فى روحانيتهم » .

أخذت الرهبنة المسيحية وضعها الثابت المعروف ، وصبغتها العالمية الواسعة

النطاق ، على يدى القديس أنطونيوس . وأبو الرهبنة الأنطونية فى عهدها الأول كان ينطوى على العزلة الفردية التامة ، وإغراق الراهب فى ضروب الزهد ، ومبالغته فى التقشف والصوم ، وتعذيب الجسد لخلاص الروح ، وربما كانت حياة القديس أنطونيوس ذاتها من أبلغ المثل لهذا النوع من الرهبنة .

غير أن نظام العزلة الذى زاوله هؤلاء الجبابرة من المتوحدين كان مصيره أن يتطور تطوراً بطيئاً إلى نوع من الرهبنة الجماعية المخففة ، لمجابهة الصعاب المادية والروحية ، التى كانوا يتعرضون لها فى تلك القفار ، وأخذت بوادر هذا التطور فى الظهور رويداً رويداً حتى فى أثناء حياة القديس أنطونيوس ذاته .

★ ★ ★

وتعتبر الباخومية الطور الثالث فى تطور الحياة الرهبانية فى مصر ، وهى التى إصطلح على تسميتها بحياة الشركة . وللمرة الأولى فى تاريخ الرهبنة المسيحية نسمع عن أديرة منظمة ذات قوانين وضعية ونظم محبوكة ، حجر الزاوية فيها الطاعة الفورية المطلقة ، تخضع لها الجماعة كبيرها وصغيرها . وهذا الفصل الجديد فى تطور التعاليم الرهبانية من أروع الفصول وأهمها فى كل تاريخها السابق واللاحق . ولكى ندرك كنه هذه التعاليم الفذة لابد لنا من دراسة حياة القديس باخوم ، لأن فى هذه الدراسة مفتاح ذلك النظام الذى طلع به على العالم .

ولد باخوم فى بلدة كينوبوسكيون ، الآن (قصر الصياد) بمنطقة طيبة بمحافظة قنا ، من أبوين وثنيين . وكان ميلاده على وجه التقريب عام ٢٩٠ م . ونستنتج من ذلك أن باخوم قضى صباه فى التقاليد والعبادات الوثنية ، ونعلم بعد ذلك أنه إنخرط فى سلك الجندية الرومانية وهو فى العشرين من عمره ، وإشترك فى الحروب التى أثارها الإمبراطور مكسيميانوس على قسطنطين سنة ٣١٠م ، ولكنها كانت حروبا قصيرة الأجل لإندحار الأول وقتله فى نفس السنة بأمر قسطنطين. ومع أن خدمته الحربية كانت قصيرة الأجل ، إلا أن تأثيرها فى حياته كان بالغاً إلى أقصى حد . وأول أثارها أنها أخرجته من الجو الوثنى الذى يعيش فيه ببلدته ، وأتاحت له فرصة الإختلاط والتعرف بالمسيحيين وعاداتهم ودينهم فى مناطق أخرى . وقد حدث أن الكتيبة

التى كان باخوم أحد أفرادها عسكرت فى مدينة لاتوبوليس (إسنا) ، فخرج سكانها إلى الجند يطعمونهم ويقضون حاجاتهم فى رقة ودماثة خلق ، فتعجب باخوم من مظاهر المحبة والإحسان هذه وسأل عن هؤلاء الناس الذين أكرموهم كما لو كانوا أقرباء لهم بينما لا يوجد سابق معرفة ، فقيل له إنهم مسيحيون ، فما أن إنصرف من الجندية ، إلا وعكف على دراسة قواعد هذا الدين الجديد ، وإنتهى الأمر إلى إعتناقه المسيحية عام ٣١٤م ، وبذلك وجدت الديانة الجديدة واحداً من أكبر زعمائها . غير أن الحياة العسكرية كان لها أثر آخر فى تكوين شخصية باخوم ، فتعلم فيها النظام والطاعة والعيشة الإجتماعية والعمل البدنى ، مما نلحظه فى الصفات التى إمتازت بها قوانينه الرهبانية فيما بعد .

ملكت الديانة الجديدة كل مشاعره حتى قرر ترك العالم ، وإعتنق الرهبانية وتتبع القديس بلامون وتتلمذ عليه ، بعد أن حاول صده مبديا له أن حياة النسك والتوحد حياة قاسية محفوفة بالأتعاب والآلام التى تعدو حدود التصور .

وقد كان دور التلمذة عنيفاً فى مجمله ، مليئاً بتعذيب الجسد والصيام والسهر . وكان باخوم موضع إعجاب أستاذه الذى رضى فى النهاية عما وصل إليه تلميذه من السمو ودرجة الإعتماد على النفس ، وقد قضى فى رعاية بلامون سبع سنوات .

إنصرف باخوميوس بعد ذلك ليحيا حياة التوحد فى جهة مقفرة فى منطقة طابنا أوطابنيس بالقرب من قنا فى مواجهة دندرة ، عاكفاً على العبادة والتأمل ، وأخيراً ظهر له ملاك بينما هو فى تأملاته يوماً ، وأخبره بأن عليه أن يجمع المتوحدين والنساك ، وأن يسكنهم معا فى دير يقام لهم ، وأن يخضع الجميع لقانون موحد ، ثم دفع إليه الملاك بلوح نقشت عليه الوصايا التى يجب على الإخوة أن يسيروا بموجبها وعددها ستة ، والكلام فيها موجه فى صيغة الأمر إلى باخوميوس ننقلها فيما يلى :

١ — دع الرجل (والمقصود الراهب) يتناول من المأكل والمشرب ما يشاء ، على قدر قوة هؤلاء (أى الرهبان) ممن يأكلون ويشربون تلزمهم

بالعمل ، ولا تنهاهم عن الأكل أو عن الصوم،أما الضعفاء والصائمون فتطالبهم بالأعمال الخفيفة .

٢ ـــ عليك أن تقيم لهم القلالى يسكنونها كل ثلاثة معاً .

٣ ـــ عليهم جميعاً أن يتناولوا الطعام معا فى قاعة واحدة .

٤ ـــ عليهم الا ينامو وقد إستلقوا أفقياً على الأرض ، بل أصنع لهم مضاجع خاصة حتى إذا ما إستلقوا عليها أمكنهم أن يسندوا رؤوسهم .

٥ ـــ عليهم أن يلبسوا جلبابا بدون أكمام أثناء الليل ، وأن يشدوا أوساطهم بحزام ، وأن يعطى لكل منهم طاقية لغطاء رأسه . وعليهم أن يتناولوا العشاء الربانى فى يوم الرب (أى يوم الأحد) وطواقيهم فوق رؤوسهم ، وعلى صدر كل طاقية منها صليب قرمزى .

٦ ـــ وعليك أن تقسم الرهبان إلى أربع وعشرين مرتبة (أو درجة) وأن تميز كل مرتبة بحرف من الحروف الأبجدية اليونانية من الألف إلى الأوميجا لكل مرتبة منها حرف .

هذه هى الوصايا الستة كما أوردها الأسقف بلاديوس فى كتابه «التاريخ اللوزياكى»، وقد عقّب فيها الكاتب على الفقرة الأخيرة بما يفهم من منطوقة أن كل حرف يرمز به إلى صفة من الصفات تشترك فيها طبائع جماعة من الرهبان الذين ينتمون إلى هذا الحرف ، فالبسطاء فى الروح مثلا يرمز لهم بحرف «يوتا» ، وصعاب الرأس والمعاندين يرمز لهم بحرف «اكسى» وهكذا . ويجب أن نعرف أنه كان لباخوميوس نفس رقيقة حساسة وعقل دقيق منظم ، ونظرة تنفذ إلى أعماق النفس ، حتى يستطيع أن يميز أنواع الأخلاق والحالة الفكرية لكل راهب ، ويقسم الجميع إلى أربعة وعشرين نوعاً ، وقد إقتضت حكمته الا يعطى مفتاح هذه الأحرف إلا لمن بلغ درجة عالية من الحياة الروحية من مساعديه .

ويذكر بلاديوس بعد ذلك أن ملاك الرب أضاف شفويا إلى ما جاء فى اللوح المكتوب ، أنه إذا جاء إلى الدير راهب غريب يرتدى زياً مخالفاً لزيهم ، لن يدخل معهم إلى المائدة . وعلى الشخص الذى يقبل راهباً فى الدير ، أن يكلف بالعمل اليدوى ثلاث سنين قبل أن يمنح (زى الرهبان فى هذا الدير)

وحلقة الرأس (التى تميز هؤلاء الرهبان) أى حلق ذؤابة شعر الرأس فى المكان الذى يضعون عليه طواقيهم . وعلى الرهبان إبان تناولهم الطعام أن يضعوا على رؤوسهم القلانس التى تحجب رؤوسهم ووجوههم ، حتى لا يرمقوا بعضهم بعضاً وهم يأكلون . وعليهم أن لا يتجاذبوا أطراف الحديث وهم على المائدة ، وأن لا يتطلعوا من جانب إلى آخر .

كذلك أمر الملاك باخوم أن يطلب إلى رهبانه ترديد إثنى عشر مزموراً صباحاً وإثنى عشر آخرين مساء ، وإثنى عشر إبان الليل ، وعندما يتقدمون إلى الطعام يرتلون المزمور الكبير .

ولكن باخوميوس ، الذى بهت من خفة الأعباء المفروضة على الرهبان ، قال للملاك « إن الأجزاء التى عينتها للقراءة قليلة جداً » . فأجابه الملاك « حقاً إن الأجزاء التى عينتها قليلة ، وما ذلك إلا لكى يكون فى وسع الضعفاء من الرهبان تنفيذ القوانين دون أن يتقاعسوا عنها ، أما الرهبان الذين بلغوا الكمال ، فإن إجتهادهم لا يحدده قانون بأية حال ، لأن أذهانهم فى كل الأوقات متجهة نحو الله ، غير أن القانون الموضوع فلهؤلاء الذين لم تكتمل أذهانهم حتى يمكنهم أداء الفروض ، وعلى وجوههم مظاهر الإرتياح والرضا » .

هذه القوانين لها أهمية تاريخية فائقة ، إذ كانت النواة المبدئية التى بنى عليها القديس باخوم قوانينه الشهيرة التى أحدثت إنقلاباً هائلاً فى الأوضاع الرهبانية المألوفة فى ذلك الوقت وأثرت أبلغ التأثير فى توجيه الأجيال اللاحقة فى كل أقطار المسكونة ، لأنها أصبحت الأساس العظيم الذى بنى عليه الخلف الصالح ، تلك الأنظمة الديرية التى كانت الوسيلة الوحيدة الناجمة للإحتفاظ بنور المدنية والحضارة فى عصور الظلام ، بعد إنهيار الدولة الرومانية ونزول جحافل المتبربرين فى أكنافها بالغرب والشرق .

باخوم الذى عانى فى السنين الأولى من حياته الرهبانية ، كل ما كان يعانيه النساك والمتوحدين من الويلات ، إنتفع بتجاربه الأولى المفزعة كل الإنتفاع ، وتفتحت عيناه إلى ما فيها من أعباء مفزعة لا طائل تحتها ، وتيقن أن التقرب إلى

الرب ، ونجاة النفوس من شرور هذا العالم ، وكسب ملكوت السموات وفردوس النعيم ، أدرك أن كل ذلك لا يحتم أن يخضع الراهب نفسه لضروب من تعذيب الجسد تفوق التصور ! وأن يكون جلاداً للنسك .

نعم كان باخوم جباراً مثل أولئك الجبابرة الذين كانوا يقضون عشرات السنين الطوال فى عقر كهف مظلم أو قبر مهجور أو غرفة مهملة ، فى بطن صحراء موحشة . ولكنه كان إلى جانب ذلك إنساناً يتميز عليهم بسعة الأفق ، وتقدير الممكن والغير ممكن فى طبيعة البشر ، ولذلك أرتاع من هول ما كان يجرى فى أكناف الصحارى من ضروب البطولة التى لا تدعو إليها الحاجة ، ولا تحتمها قواعد الدين ، فثار ثورته الهادئة الناضجة على تلك التقاليد ، وكان عبقرياً بدأ فى وضع قوانينه التى أصبحت هدى ونبراساً يضىء الطريق لجمهرة الرهبان ، فإهتدوا بذلك النور الساطع الجديد ، وإزدحموا حوله زرافات ووحدانا من كل فج عميق ، فيخبرنا بلاديوس أنه كان يوجد سبعة آلاف راهب باخومى ، موزعين فى وقت حياة باخوم على تسعة أديرة .

ولعل أبقى آثار قوانين باخوميوس وأهمها فى أوربا ، هو ذلك الأثر الذى إنطبع به نظام الديرية البندكتيه ، إذ أقتبس القديس بندكت الكثير من قوانين باخوم التى تلائم أحوال إيطاليا فى القرن السادس ، وإنتشرت التعاليم الباخومية عن طريقه فى أوروبا إنتشاراً واسعاً وسريعاً ، ومنذ ذلك الوقت أخذ التاريخ الرهبانى فى الغرب صبغة مصرية جديدة إنسانية وروحية فى نفس الوقت . ويقول فى ذلك المؤرخ سالفاتوريللى « إن إختفاء العالم القديم ومجىء عالم جديد إلى النور ، كان له بذوره فى قوانين القديس بندكت » .

لقد أعطى باخوم للنفوس التى تتوق إلى النسك وحياة الرهبنة ، والتى تريد خدمة الرب تحت حماية الحياة الجماعية ، أعطاها قانوناً ثابتاً ، أراد به أن يجعل حياة الكمال المسيحى فى متناول جميع النساك ، وهو لم يحاول أن يصل بها إلى السماك الأعزل ، بل أراد أن يذهب بها إلى أبعد مدى ، وبواسطة إستغلال القدرات الإنسانية كفل هذا القانون دوام اللهيب الذى يتأجج فى تلك النفوس .

ولذلك لم يكن من العجيب أنه بعد أكثر من ستة عشر قرناً فإن جميع

الهيئات الرهبانية فى العالم ليس لها من قانون سوى ذلك القانون الذى وضع فى طابنيس فى النصف الأول من القرن الرابع .

رفض باخوم الرتب الكنسية ، كما منع أيضاً أية مظاهر خاصة لأخوته ، وكان يعمل جهده لإزالة كل سبب للغيرة والشقاق والتنافس ، وكان يقول فى ذلك « أن شرارة من هذا تكفى لأن تدمر فى لحظة ، ثمار سنين كثيرة ، ولذلك لا يدخل أى منا فى الرتب الكهنوتية ، ويجب الأ نفكر فى أية ميزة صغيرة لنا ، ويجب أن نخضع للكنيسة فى كل شىء ، وأى كاهن يرسله إلينا الأسقف يجب أن نحترمه بكل ما فى نفوسنا من غيرة وحماس » .

وكان يحرم على الرهبان حمل النقود بتاتا ، أو دخول قلاية أحد الإخوة دون إذن الرئيس ، ومن أقواله « الغرور سبب الشرور فى هذا العالم » و « إن من أكبر الضربات التى تصيب هيئة دينية هى روح النقد ؟ إذ كل الثمار تمر من بين خروقها » . ومن أهم قوانينه إجتماع رؤساء الأديرة مرتين فى العام : فى وقت عيد القيامة وفى العشرين من شهر مسرى ، يجتمعون فى الدير الرئيسى فى بباو (فاو الآن) تحت رئاسة الأنبا باخوم ، يؤدون حساب أمانتهم ويتلقون التوجيهات أو الثناء ثم يرجعون إلى أديرتهم إلا إذا رأى الرئيس الأعلى أن يجرى بعض تعديلات فيهم .

وأختتم هذه الشذرة ببعض قوانين الأنبا باخوم كما نقلها القديس جيروم إلى اللاتينية :

القانون التاسع : عندما يسمع صوت البوق أثناء النهار داعياً الرهبان إلى الإجتماع فإن من يصل متأخراً يوبخه الرئيس ، ويظل واقفاً فى غرفة المائدة .

القانون العشرون : يقوم رؤساء الجماعات بالوعظ ثلاث مرات أسبوعياً ، ولايغير الإخوة أثناء العظة أماكنهم سواء أكانوا واقفين أم جالسين ، بل يحافظ كل منهم على المكان المخصص لكل جماعة ولكل واحد منهم .

القانون الثامن والعشرون : بعد إنتهاء الإجتماع يتأمل الجميع فى الكتاب المقدس سواء أكانوا ذاهبين إلى قلاليهم أم إلى غرفة المائدة ، ويجب أن يكشف الجميع عن رؤوسهم أثناء هذا التأمل .

القانون التاسع والعشرون : عندما يصل الإخوة إلى غرفة المائدة ، ليجلس كل واحد منهم حسب مرتبته ، فى أماكن مخصصة ويغطون رؤوسهم .

القانون الثالث والثلاثون : إذا أراد أحد وهو على المائدة شيئاً ضرورياً ، فلا يتكلم مطلقاً ، بل يشير بذلك إلى القائمين بالخدمة بواسطة الطرق على المائدة .

القانون السادس والأربعون : لا يتناول المريض الطعام مع بقية الإخوة ، بل يتناول الطعام فى مكان آخر ، وليأخذ كفايته من الطعام حتى لا يشعر بأية مرارة .

القانون السادس والخمسون : لا يرسل أى شخص وحيداً إلى الخارج لقضاء أعمال دون أن يعطى له رفيق .

القانون التاسع والخمسون : لا يتحدث الإخوة أثناء العمل فى أشياء عالمية ، بل يتأملون فى بعض آيات أصحاح من الكتاب المقدس أو فليصمتوا .

القانون السادس والثمانون : من كان فى سفر بالبر أو بالبحر أو كان يعمل خارج الدير ، فلا يقص فى الدير شيئاً مما رآه فى الخارج .

القانون المائة والأربعون : يجب على كل راهب أن يجيد القراءة والكتابة ، وأن يحفظ عن ظهر قلب شيئاً من الكتاب المقدس ، على الأقل العهد الجديد والمزامير .

القانون المائة والستون : المحبة هى القانون بأوسع معانيه ، أنتم تعرفون فى أى وقت نعيش ، إنها الآن ساعة لنستيقظ ، فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنا ، قد إنقضى الليل وإقترب النهار ، فلنخلع أعمال الظلمة التى هى الخصام والكراهية وغرور نفس تثق فى نفسها . وكل من يميل إلى الإغتياب والنميمة ويكررها ويضبط متلبسا ينذر مرتين ، فإذا لم يمتثل يفصل عن الإخوة لمدة سبعة أيام ويكون طعامه الخبز والماء ، إلى أن يتعهد بإصلاح نفسه ويعطى الأمثلة لذلك ، عندئذ يعفى عنه .

وتنيح الأنبا باخوم عام ٣٤٦ م بركة صلواته وطلباته فلتكن معنا آمين .

(مجلة مدارس الأحد ـــ مايو /يونية ١٩٦٩ م)

الفصل الرابع عشر

الأحتفال بذكرى الأنبا شنودة رئيس المتوحدين

٤٩ ش ــ ١٦٨ ش
٣٣٣ م ــ ٤٥١ م

حضرة صاحب النيافة الحبر الجليل مندوب البابا المعظم

سيداتى ، سادتى

لعل فى اجتماعنا هذا اليوم ،ردابليغاعلىمن يرمينا بضعف الشعور الملى فى نفوسنا ، ودليلا قويا على اهتمامنا بدرس تاريخ كنيستنا وأديرتنا ، وإذا كانت جميع الطوائف المسيحية قد هبت فى العام الماضى لاحياء ذكرى الراهب القبطى العظيم الأنبا باخوميوس أب الشركة معلنة بذلك ما له من الفضل عليها ، فإن إحياء ذكرى الأنبا شنوده يقع على كاهل الأقباط الأرثوذكس وحدهم ، وهم برهانا على تلك الحياة التى تدب فى نفوسهم ، وبأنهم لا يستمدون الوحى والحركة من غيرهم ، لم يدعوا هذا العام يمر حتى قاموا وعلى رأسهم غبط البابا المعظم الأنبا يوساب الثانى ادام الله حياته سنين عديدة وثبته على كرسيه ، يحيون ذكرى من بدأنا نعرف قيمته الحقيقية ويعتبر أشهر أباء الرهبنة ، وقد جنى عليه التاريخ ردحا من الزمن فلم يوفه حقه،ولكن عندما تجرد التاريخ من الأهواء والتحيز ونظر إلى الحقيقة المجردة على أساس البحث العلمى قام المؤرخون فى العصر الحديث يقولون إنه أعجب رجل أنجبه الأقباط وأنه المؤسس الحقيقى للمسيحية القبطية .

ولد فى شندويل بالقرب من أخميم فى ٧ بشنس سنة ٤٩ للشهداء الموافق ٢ مايو سنة ٣٣٣ م وكان فى صغره يرعى الغنم ولما بلغ التاسعة أرسله والداه ليتعلم بدير « أتريب » الذى كان يرأسه خاله بيجول وهناك اختلط منذ حداثته بمن كانت تضمهم الأديرة فى تلك الأيام من رجال المعرفة والأدب والتقى ، وبدأت تنفتح فى ذلك الجو الدينى والعلمى تلك الشخصية الجبارة التى اقتضت مجهوداً كبيراً من الباحثين فى تفهمها وفى تحليلها فشبهت تارة بايليا

وطورا بإليشع وأخرى بيوحنا المعمدان ، ظهرت عبقريته ونبوغه بين الرهبان فاتفقت كلمتهم على انتخابه رئيساً عليهم بعد نياحة الأنبا بيجول سنة ٣٨٣ م فأصلح الدير ونظم إدارته ووسع نطاقه ، وقد بلغ عدد الرهبان فى أيامه الفين ومائتين بالدير الأبيض وألفا وثمانمائة بدير الراهبات التابع له ، وكان يتولى شنوده بنفسه ما يلزم لتعليمهن وتثقيفهن ، وقد عثر البعض على مؤلفات مكتوبة بخط الراهبات واستدلوا على أنه كان يوجد بينهن آنسات من بنات العائلات الشهيرة بالاسكندرية .

وأقام شنوده الدير الأبيض من حجارة المعابد المصرية القديمة التي هدمها وأقام به أماكن للصلاة ودورا للعلم ومعامل للصناعة ودعاه أورشليم الأرضية ، وكان يشتغل بكليات وجزئيات هذه الدائرة الواسعة ويهتم كثيراً بترقية أخوته وأبنائه الرهبان من الناحية الروحية والفكرية والأخلاقية ، حصر السلطة كلها بين يديه ، عدل قوانين باخوميوس فجعلها أشد صرامة وأميل إلى حياة النسك والتوحد ولعل ذلك سبب تسميته برئيس المتوحدين ، وكان يوزع الأعمال على رهبانه كل حسب أهليته واستعداده للزراعة أم للصناعة أم للتعليم أم للنسخ ، وكان الرهبان يطيعونه طاعة عمياء وكثيراً ما استعان بهم لمحاربة اليونانيين الوثنيين وتحرير الأقباط المسيحيين مما كانوا يرزحون تحته من عبودية على أيدى أصحاب الأراضى منهم .

لم يقتصر ديره على الصلاة والعبادة بل كان به دور واسعة للعلم والأدب ومدارس زاهرة للصنائع والفنون وكان الرهبان تلامذتها الداخليين وأبناء العائلات المقيمة بالبلاد المجاورة تلامذتها الخارجيين ، فأسس بذلك فى الوجه القبلى مدرسة قبطية محضة ، وازدهرت الصناعة والفنون القبطية فى أقليم أتريب تحت ظل دير أنبا شنوده العظيم إذ بلغ رهبانه فى هندسة البناء والتصوير والنقش والحفر شأنا عظيما .

كان الأنبا شنوده كاتبا كبيرا بل هو يعتبر أكبر كتاب اللغة القبطية ، ترك لنا كثيرا من الرسائل والعظات ، إليه يرجع الفضل فى جعل اللهجة الصعيدية لغة مصر العليا من منف إلى أسوان ، ونلحظ فى كتابته أسلوبا خاصا به كما

نستشف دراسة عميقة لأقوال الأنبياء والحكماء والرسل ، كان يفحم معارضيه بقوة عقله ويؤثر على سامعيه بفصاحة لسانه .

عثر اميلينو وماسبرو على بعض مؤلفاته باللهجة القبطية الصعيدية بالدير الأبيض ونشرت ١٨٨٩ م بالفرنسية ، ومعظم ما عثر عليه مازال حتى اليوم يزين متاحف نابولى والبندقية بإيطاليا واللوفر والمكتبة الأهلية بباريس ومكتبة اكسفورد بانجلترا .

تلفت إلى مواطنيه فوجد أن العقائد المسيحية قد اختلط بها شيء من تقاليد وطقوس الوثنية مثل السحر والأحجبة والتعاويذ فقاومها أشد مقاومة وكان يحرض الجماهير على تكسير التماثيل وهدم المعابد الوثنية ولا أدرى ماذا كان يقول لنا لو كان معنا فى هذه الأيام ورأى تمثالاً يقال أنه للعذراء يتوج بتاج من الذهب بواسطة أحد الأساقفة فى الطوائف الأخرى ويعزى إليه عجائب؟ أقول لو كان حاضرا لهاله الأمر أن يرى مسيحيى القرن العشرين وقد رجعوا إلى عهد الوثنية الذى كان يود القضاء عليه إلى غير رجعة ، إنها لمأساة .

كان شديد الغيرة على المسيحية وعلى المذهب الأرثوذكسى ولقد دفعه ذلك إلى السفر أكثر من مرة إلى القسطنطينية وغيرها للدفاع عن مبادىء الكنيسة القبطية ودحض أقوال المعارضين لها من أبناء الكنائس الأخرى ، وهو الذى قصد إلى مجمع أفسس مصحوباً بكيرلس الكبير ليدحض بدعة نسطور لم يثنه عن ذلك كبر سنه إذ أنه كان يبلغ الثامنة والتسعين فى ذاك الوقت وكان صوته وهو يتكلم متوكئا على عكازه الرهبانى مع ما يبدو عليه من حماس وقوة ذا تأثير عظيم ، وقد تعقب أصحاب البدع الدينية حتى قضى عليهم والمتواتر أن آخر أقوال فاه بها وهو على سرير الموت هى « ليتنى التقيت بنسطور لأضربه الضربة القاضية بعصاى هذه واقتلع لسانه من فمه حتى لا يعود فيجدف باسم الله القدوس » .

وإليه يرجع الفضل والفضل له مع القديس كيرلس الكبير فى نشر عقيدة الكنيسة الأرثوذكسية بطبيعة واحدة للكلمة المتجسدة ، وهو المذهب الذى دافع عنه ديوسقورس فى مجمع خلقيدونية والذى اجتمعت عليه الكنيسة منذ

تأسيسها ، وهذا هو السبب الذى حدا بالكاثوليك إلى اسقاط اسم الأنبا شنوده من بين القديسين وفاتهم أنهم بهذا العمل قد ناقضوا القديس كيرلس الكبير عامود الدين وعماد الأرثوذكسية الذى قرر أن الأنبا شنوده لم يكن قديساً فقط بل قديساً ونبياً أيضاً .

تمخض عن حركة تهذيب اللغة القبطية وأدابها الدينية من التأثيرات البيزنطية وعن محاربته للهراطقة والبدع التى ظهرت فى القسطنطينية والشرق أن ظهرت حركة أوسع تتلخص فى يقظة الوعى القومى المصرى ، تلك الحركة التى أخذت فى الاضطراد حتى شملت الحياة الاجتماعية المصرية ، وتطورت فى النهاية إلى درجة الطموح إلى الاستقلال السياسى عن الدولة البيزنطية ، ومن ذلك يتضح أن شنوده كان له اليد الطولى فى أول مشروع استقلالى لهذا الوطن منذ انهياره فى عهد الوثنية القديمة على يدقمبيزالفارسى سنة ٥٢٥ ق . م .ولماذا لا يكون ذلك الطموح إلى الاستقلال والعالم كان حتى ذلك الوقت يتطلع إلى الكنيسة القبطية لتقوده وترشده وتنقذه من براثن الهراطقة وبدعهم ، وكان لشنودة بالذات كما رأينا موقفاً عنيفاً من نسطور والحركة النسطورية بالقسطنطينية .

كان شنودة كبير العزم شديد الإرادة كثير التقى واسع الإطلاع فصيح اللسان قوى الحجة محترماً مهاباً وإذا شئتم قولوا موهوباً .

رقد فى الرب يوم ٧ أبيب سنة ١٦٨ للشهداء .

هذا تاريخ مجيد حافل يجب أن نلقنه لأبنائنا فى كل مناسبة وبمختلف الوسائل حتى نعيد لأديرتنا يوماً شيئاً من مجدها القديم وبهائها التى كانت عليه أيام أنبا شنوده العظيم فتصبح مراكز للاداب المسيحية القبطية ومعاهد للمعارف العصرية فيؤمها أبناء وبنات العائلات الطيبة ويتخرج منهم علاوة على من يتولون المراكز الدينية من يضطلعون بمهام التعليم والتثقيف فنستمد نور العلم والعرفان من أباء الكنيسة ويكون رقينا وصلاحنا على أيديهم ويكونوا مرشدينا ومعلمينا فى الوقت الحاضر كما كانوا فى الزمن السابق .

إنى من الذين يعتقدون أن الإصلاح الحقيقى لأمتنا لا يكون بالاكثار من الجمعيات التى تتباين أغراضها وأهدافها ولكن يكون على أيدى أباء الكنيسة

وما عهد الأنبا كيرلس الرابع أبو الاصلاح خليفة الأنبا شنوده ببعيد وانتظر شمس السعادة فى مقتبل الأيام تبزغ على هذه الأمة من داخل الأديرة ، إن الإصلاح الحقيقى يجب أن يأتى لنا عن طريق الصحراء يوماً من الأيام .

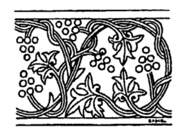
إرجعوا إلى التاريخ

كلما تأملت فى الحوادث القريب منها والبعيد ، زدت إيماناً بأن الخلاص مما نحن فيه من فوضى واضطراب ، هو فى الرجوع إلى تاريخ كنيستنا وتقاليدها ، وبأن اقتحام العلمانيين لحرم الكنيسة والرهبنة ، تحت ستار تلك الحركة الإصلاحية التى ظهرت بوادها عام ١٨٧٤ ، والتى انتهز فرصتها بعض أعيان القبط وأهل العلم فيهم فجعلوا ذلك حقاً لهم بلائحة عام ١٨٨٣ ، التى وضعوها بطريق الإرتجال والإجتهاد دون أن يدخلوا فى حسابهم الأوضاع فى الكنيسة القبطية فى عصرها الزاهر المجيد ، إنما هو سبب مصائبنا وما إنتابنا من كوارث ، فى الثمانين عاما الأخيرة .

وإن أبناء اليوم إذا ذهبوا مذاهب شتى في إلتماس وسائل الإصلاح ، فإن عذرهم فى ذلك أنهم أمام « غزل ملعبك » ، يصعب عليهم الوصول إلى أطرافه ، ولكن النظرة الهادئة والتسلح بمعرفة التاريخ والاستناد إلى قوانين الكنيسة وتقاليدها ، كل ذلك كفيل بالوصول بهم إلى العوامل الأساسية للإصلاح ، التى بمجرد اتخاذها نقطاً للبدء لا نلبث أن نسير قدما دون تعثر ، فنلحق بمن سبقنا ، بل ونتفوق عليه .

وإذا كان العلمانيون قد اقتحموا حرم الكنيسة ، فإن الرهبان أيضا قد جعلوا منها ميدان نشاطهم الأوحد ، بعد أن كانت أحد ميادين الخدمة الكثيرة التى يرتادها الرهبان ، وذلك طوعاً لدعوة الرئيس الأعلى للكنيسة ، لقد تطورت قوانين الشركة الرهبانية فى عهد الأنبا شنوده ، الذى سار بالرهبنة خطوة أخرى إلى الأمام ، عندما أخذ رهبانه على عاتقهم القيام بأعمال الرحمة والمحبة بين مواطنيهم من تمريض وتوزيع أطعمة وصدقات ، وتثقيف وزيارة المسجونين بل والتبشير فى مختلف بقاع العالم ، وقد أخذ عنا الغرب هذا التطور فنراه ممثلا فى رهبان وراهبات الغرب فى أيامنا هذه ، هذه المناحى المختلفة

للخدمة ، كان يصرف الرهبان عليها من أموالهم وأطيانهم الموقوفة عليهم ، دون أى تدخل من الكنيسة ، إذ أن الرهبنة نظام قائم بذاته له قوانينه هو الآخر ، وكانت الكنيسة تحترم حرمتها ، ولا تتدخل إلا بمقدار وفى الأمور التى تمس شئون العقيدة فقط ، وكان مظهر العلاقة بين الكنيسة والرهبنة ، هو تعيين من يدعى «المشرف» على الأديرة وكان فى رتبة أسقف أو قمص وهو ضابط الإتصال بين رؤساء الأديرة وبين الرئيس الأعلى للكنيسة ، ونتبين ذلك بوضوح فى القرن السابع ، إذ كان يوحنا النقيوسى المؤرخ الشهير وأسقف نقيوس « مشرفا عاما » على أديرة وادى النطرون .



الفصل الخامس عشر

الأنبـا شـنودة

(٣٣٣ م ـ ٤٥١ م)

لعل التاريخ لم يظلم شعباً من الشعوب مثلما ظلم الشعب القبطى رغم أنه أعرق الشعوب . ذلك أن القبط لم يعنوا بتدوين تاريخهم بأنفسهم بل تركوا ذلك لقوم غرباء عنهم فلم ينصفوهم وهيهات ..! وأوضح مثال لذلك شخصية الأنبا شنوده الذى عاش فى القرنين الرابع والخامس للميلاد وهى فترة من أزهى فترات التاريخ المصرى ، والذى خلف آثاراً فائقة الأهمية على تاريخ الكنيسة والرهبنة والقومية المصرية فضلاً عن اللغة القبطية وآدابها . ومع ذلك كله فلا نكاد نعرف من أمره كثيراً ولا قليلاً ، فإذا كان الأنبا شنوده زعيماً روحياً وشعبياً كرس حياته للجهاد فى سبيل استقلال كنيسته وبلاده فقد أثارت عليه نزعته الوطنية هذه حفيظة المؤرخين الأجانب من الأقدمين والمحدثين على السواء ، فكان ان بخسوه حقه وحطوا من شأنه وإذا بنا لا نعرف الرجل العظيم كما يجب أن يعرف ولا نقدره كما ينبغى أن يقدر ما دمنا نعتمد فى تاريخنا على ما يكتبه لنا الآخرون .

شنوده الراهب :

ولد الأنبا شنوده عام ٤٩ للشهداء (٣٣٣ م) ببلدة شنلاله (حالياً شندويل) فى تخوم مدينة أخميم بالصعيد الأقصى . وفى التاسعة من عمره أرسله أبوه ليتثقف ويتهذب على يدى خاله الأنبا بيجول الذى كان يرأس حينئذ ديراً متواضعاً على مقربة من مدينة سوهاج الحالية . وسرعان ما استرعى الصبى انتباه خاله فاحتجزه فى الدير وألبسه مسوح الرهبنة فى هذه السن المبكرة ، ثم عكف على تعليمه وتثقيفه فعنى أول ما عنى بتدريسه الكتاب المقدس دراسة عميقة مستفيضة ، ونستطيع أن نلمس ما كان لذلك من الأثر الواضح على أسلوبه الخطابى والكتابى البليغ ، كما اهتم بتعليمه اللغتين القبطية والاغريقية . وأغلب الظن أن الأنبا شنوده لم يفته الاطلاع على كل ما وصل إلى يديه من كتب الوعظ وتاريخ الرسل والقديسين وأقوال الآباء وتعاليمهم . غير أنه كان

لشنوده من الذكاء الفطرى وقوة الحافظة فضلاً عن شغفه بالدرس والتحصيل خير معين على استيعاب كافة ميادين المعرفة التى وقع عليها نظره أو سمعت بها أذنه . ومن ثم سرعان ما اكتملت ونضجت عقليته الموهوبة التى كانت ولا ريب عنصراً رئيسياً أساسياً فائق الخطورة فى تكوين شخصيته الفذة الجبارة .
وهكذا امضى الراهب الصغير سنواته الأولى فى الدير بين الدراسة وبين القيام بشتى الواجبات الدينية المفروضة على كافة الاخوة بموجب القوانين الديرية المعمول بها حينذاك . ولكن ما أن تقدمت به الأيام قليلاً حتى اتقدت نار الغيرة الدينية الكامنة فى أعماق قلبه المضطرم بمحبة الله عن بصيرة وادراك وايمان صحيح ، وإذا به يطمح إلى ذرى الكمال الروحى فيدفعه ذلك إلى حياة الرهبنة المثلى ومن ثم يغرق فى الأصوام والصلوات والتأملات كما يفرط فى أعمال التقوى والتقشف وإذلال الجسد دون أن يحد من اجتهاده أية حدود أو قيود ، بيد أن شنودة ذهب خطوة بعيدة أخرى فى هذا السبيل فقد صورت له غيرته الروحية الملتهبة ان حياة التنسك والتوحد الأولى فى البرارى والقفار حيث الإتصال بذات الله العلية أقرب وأيسر إنما هى حياة القداسة الصحيحة ، فألقى بنفسه فى جوف الصحراء وأمضى خمس سنوات متصلة فى غار مهجور قضاها متوحداً فى صلوات وتأملات ، ثم قفل راجعاً إلى ديره وإذا باخوته الرهبان ينظرون إليه فى اكبار واجلال وكأن هناك هالة من القداسة تشع حول وجهه النحيل الضئيل . وإذا كنا قد اعتبرنا مواهبه العقلية التى شحذها بالدرس والتحصيل عنصراً فائق الأهمية فى تكوين شخصيته فقد وجب علينا أيضاً أن نعتبر مثله الروحية والخلقية التى صقلها بحياة التقوى والتقشف والتوحد عنصراً آخر بالغ الخطورة فى تكوين هذه الشخصية العظيمة .

وبذلك كان لثقافته وقداسته الفضل كل الفضل فى نباهة فكره والتفاف قلوب الاخوة والتلاميذ من حوله فما أن توفى الأنبا بيجول عام ٣٨٣ م حتى خلفه شنودة فى رئاسة الدير ، وإذا الدير المتواضع يزدهر على يديه أيها ازدهار فتتعدد مؤسساته (لا تزال كنيسة الدير الأبيض تقام فيها الشعائر الدينية حتى وقتنا هذا) ويتضاعف عدد رهبانه تضاعفاً هائلاً حتى قفز من ٣٠ إلى ما يقرب من ٤٠٠٠ من الاخوة والأخوات الذين كانوا يمارسون حياة الشركة الرهبانية طبقاً لقوانين باخوميوس بعد أن أضيف إليها ما يقضى بالمزيد من

العبادة والتقشف ولذلك اتسمت بالشدة ، وإذا جموع الأهلين تهرع إلى رحابه اما لتؤدى الشعائر الدينية وتستمع إلى خطبه وعظاته وتعاليمه واما لتستوحى معونته وهدايته فى شتى شئون الدين والدنيا واما لتلتف من حوله وتتتلمذ على يده وإذا شنوده يفتح أبواب ديره على مصراعيه لأولئك وهؤلاء جميعاً . وهنا تقابلنا خطوة شنودة الجريئة فى سبيل توجيه المؤسسات الديرية للخدمة العامة ، فبينما كانت حياة الشركة الرهبانية لا تستهدف حتى ذلك الحين سوى العناية بنفوس الرهبان وشئونهم الخاصة إذ بالأنبا شنودة وتلاميذه يتقدمون للعناية بنفوس الجميع وشئون الجميع ، فيأخذون أنفسهم بنشر التعاليم المسيحية الصحيحة والتبشير بها وتصفيتها مما علق بها من الخرافات والترهات الوثنية ومكافحة الوثنيين والهراطقة ، ثم ويتكفلون من جهة أخرى برعاية الألوف من ضحايا الحروب والأوبئة والمجاعات . ولقد أصبحت هذه المثل الانسانية التى وضع شنودة مبادئها وتلك الخدمات الجليلة التى حققها هو وتلاميذه فاتحة وباكورة صالحة لما قدمته أديرة العالم للانسانية من أعمال باهرة ونبيلة على مر الأجيال .

شنوده الزعيم الوطنى

رأينا فيما سبق كيف جعل الأنبا شنودة من الدير الأبيض معهداً دينياً واجتماعياً منذ فتح أبوابه على مصراعيها لاستقبال جموع الأهالى الوافدين إليه من مختلف جهات الصعيد الأعلى بصفة عامة ومنطقة أخميم بصفة خاصة أما للصلاة واستماع العظات واما لالتماس المشورة والمعونة التى لم تكن ترفض أبداً وقد أدى ذلك إلى ايجاد اتصال مستمر بينه وبين عامة الشعب الذين استهوى عقولهم بشتى مواهبه وميزاته التى أشرنا إليها فيما سبق فضلاً عن حرصه البالغ على العناية بشئونهم وقضاء حاجاتهم مما قربه إلى نفوسهم وحببه إلى قلوبهم فوثقوا به واطمأنوا إليه ومن ثم بثوه شكواهم وكشفوا له عن آلامهم وآمالهم وكانت أحوال المصريين لم تسوء من قبل مثلما ساءت فى تلك الأيام . وهكذا خبر الأنبا شنودة بنفسه شئون مواطنيه وشجونهم وتعرف على شكواهم كما تكشف له عيوب حاكميهم ومغتصبى بلادهم وكانت نزعته الوطنية قد تبدت من قبل منذ حرم الدير الأبيض على الإغريق الذين كان يدعوهم فى خطبه « أيها

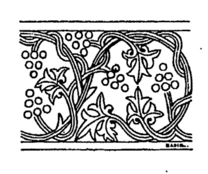
الهللينيون والهراطقة من كل نوع »، وإذا قلبه يضطرم الآن بنيران الوطنية المتأججة فيتفانى فى الاخلاص لوطنه وقومه على نحو ما عهدناه متفانياً فى الاخلاص لعقيدته الدينية وتلاميذه وإذا هو صدى لروح الشعب المظلوم فيعبر عن مشاعره المكتومة ويصور طموحه إلى الحق والانصاف ويدعو إلى استرداد حقوقه المسلوبة وارزاقه المنهوبة وإذا به يحمل حملة شعواء على جماعة الحكام والملاك مصدر كل شقاء وبلاء فيندد بمظالمهم ويكشف عن مساوئهم ويرسم لوحات مؤثرة يقارن فيها بين حياة أولئك وهؤلاء . على أنه لما كان الأنبا شنودة كما عهدناه دائماً لا يقنع بشىء فى سبيل خير مواطنيه فقد أخذ نفسه برد مظالمهم والدفاع عن مصالحهم فكان يرفع شكواهم بنفسه مطالباً باسترداد حقوقهم أمام حاكم الاقليم أو الحاكم العام ان أمكن فإن لم يمكن بسبب محاباتهم لكبار الملاك والأغنياء أو لأنهم قد يكونون هم أنفسهم المدعى عليهم فإلى القسطنطينية حيث يسعى لهذا الغرض لدى الامبراطور وبذلك بصر شنودة مواطنيه بأموالهم وحقوقهم وأيقظ فيهم الشعور بأنه من حقهم الشكوى من الظلم والمطالبة باقرار العدل ولو كان المغتصبون هم أنفسهم الحكام العظام . وكان الأنبا شنودة بما توافر له من قوة الشخصية فضلاً عن شتى عناصر الزعامة الحقيقية من جهة إتصالاته بالأباطرة وحكامهم وقوادهم وبالبطاركة (إشترك الأنبا شنوده فى مجمع أفسس (٤٣١) مع البابا كيرلس الكبير) من جهة أخرى قد أكسبه نفوذاً شعبياً واسعاً فأتت جهوده الجبارة الخير للشعب مضاعفة لذلك حتى أصبح لا يدانيه نفوذ آخر وإذا المصريون يختصونه بأشهى الألقاب وأعذبها فهو عندهم الأب ورئيس المتوحدين والقديس والنبى . لذلك لا ندهش ان رأينا هذه الحركة الوطنية التى كان يرعاها قد تطورت تطوراً خطيراً بحيث سادت الحياة المصرية عامة حتى إذا ما أدين البطريرك المصرى ديسقورس فى مجمع خلقيدونية (٤٥١ م) على النحو المبيت المعروف ، وقفت مصر كلها فى إجماع رائع تظاهر بطريركها رمز أمانيها القومية وكان ذلك مظهراً لمقاومة المصريين وتحديهم للدولة المحتلة على صورة سافرة وإنما تحت لواء الدين دائماً ، وهكذا نمت الكنيسة الوطنية المصرية .

شنوده الكاتب والخطيب

قدر شنودة أهمية اللغة كدعامة من أخطر دعائم القومية لذلك عمد إلى اللغة القبطية وكانت حينئذ لهجة دارجة فما زال بها يهذبها ويصقلها من جهة ويصفيها من الآثار البيزنطية من جهة أخرى حتى استوت على يديه لغة وطنية صالحة للكتابة وكان ذلك منشأ الأدب القبطى . ولما كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه فقد سخر قلمه ولسانه إلى أبعد الحدود فى جهاده الدينى والقومى الطويل ، وإذا بالأنبا شنودة أبرع من كتب وأروع من خطب باللغة القبطية ، وإذا به يترك لنا تراثاً أدبياً ضخماً هو فى الواقع أروع صفحات الأدب القبطى على وجه الاطلاق وهذه المخطوطات موزعة على كثير من متاحف ومكتبات العالم وهى جميعاً باللهجة الصعيدية وتشمل مجموعة من الخطابات وعدداً كبيراً من الخطب والعظات . وقد قام بنشر جانب منها لفيف من العلماء الأجانب إلا أنه لم يعن للأسف حتى الآن بدراستها دراسة دقيقة أمينة .

وشاخ الأنبا شنوده وطعن فى السن حتى بلغ الثامنة عشرة بعد المائة ولكنه ظل على ما عهدناه يتدفق نشاطاً وحيوية إلى أن جاد الرجل العظيم بأنفاسه الأخيرة ظهر يوم ٧ أبيب سنة ١٦٧ للشهداء (يوليه ٤٥١ م) .

(كتب بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة عشرة للأنبا شنودة فى ٧ أبيب سنة ١٦٦٧ الموافق ١٤ يوليه ١٩٥١ م) .



الفصل السادس عشر

من ذكريات شهر أبيب

القديس أنبا شنودة

لم تكن يقظة الشعور المصرى الوطنى فى القرن الخامس مقصورة على الاسكندرية ، بل ان اعلان الجهاد فى سبيل تحقيق الفكرة الاستقلالية بين عامة الشعب كان أمراً طبيعيا . أما الاسباب فهى دينية وسياسية واقتصادية وثقافية ، ولكنها فى جملتها تنبع من سبب جامع هو السبب النفسانى ، اى ايقاظ الوعى القومى المصرى ، الذى تبلور بشكل واضح فى مركزين رئيسيين « الاول » الكنيسة المصرية فى العاصمة ، و « الثانى » فى قلب الصعيد الاعلى ، حيث التفت المصريون حول شخصية من أهم شخصيات القرن الخامس فى منطقة سوهاج ، حول الانبا شنودة الذى وصفه أحد المؤرخين المحدثين عن القبط ، وهو الاستاذ وورل من جامعة متشجان ، بأنه اعجب شخصية أخرجها القبط فى أى عهد من عصورهم الطويلة ، وبأنه مؤسس المسيحية القبطية .

كان شنودة علما من أعلام ايقاظ الشعور القومى ، عاصر أهم الحوادث الخطيرة فى تاريخ مصر والانسانية : عصر الانتقال من الوثنية الى المسيحية ، وعصر المجامع المسكونية وعصر الردة الوثنية سنة ٣٦١ ، ثم عصر الصراع بين الطبيعة الواحدة والملكانية ، وعصر نمو التعاليم الديرية الى أسمى درجاتها .

فى وسط كل ذلك تبدو شخصيته الجبارة تظلل حركة اليقظة ، التى تدل الدلائل على أنها كانت أقدم من مجمع خلقيدونية وأبعد من الاسكندرية فى جوف البلاد المصرية . كان مصلحا اداريا لم تقتصر اصلاحاته على الحياة الديرية وتحويلها من حياة التأمل الى حياة العمل ، بل تعدتها الى الحياة الاجتماعية والى أرض الوطن عامة ، خطب فى حضرة الحكام وكان فى خطبه يعطى آراء اكثر منها نصائح ، وكانوا يدركون قوته الفائقة خصوصا وأنه كافح وانتصر على أسلافه ، ودافع عن بنى وطنه ، وعمل على رفع ما كان يقع عليهم من ظلم المستعمر ، ووصل به الأمر فى مساعدة المظلومين والشكوى من الحكام الى أن ذهب مراراً إلى القسطنطينية .

وكان كاتبا بارعا غزير الانتاج ، وخطيبا مصقعا ، وكان لكتاباته وخطاباته رغم إتسامها بالبساطة فعل السحر على افهام معاصريه ، كان يكتب ويخطب بالصعيدية ، وبفضله أصبحت هذه اللهجة لغة الادب والكتابة . وتدين البلاد الى القديس شنودة بحركة احياء الادب القومى ، تلك الحركة التى يمكن اعتبارها من دعائم اليقظة الوطنية ، ودليلا من أصدق الادلة عليها . ولم تكن حركة عارضة ، بل تعدت حدود الزمن الذى عاش فيه شنودة ، وظلت بحكم قوة الدفع المستمر من الوعى القومى تسير إلى الامام وتزكو ، وكانت فى عهده حتى نهاية القرن السادس تقريبا تحمل طابع الادب الدينى فقط ، ولكنها لم تلبث أن اتجهت الى ناحية الادب الدنيوى ، معبرة بذلك فى صدق وحماس عن الشعور القومى والفكرة الاستقلالية ، واذ بالروح الوطنية التى تغلبت فى أيام شنودة والتى لم تستطع البيزنطية أن تخمد أنفاسها تزكو وتزهو بين المصريين .

جاهد شنودة ضد الوثنية فى شبابه ، ودافع عن العقيدة فى اسلوب مقنع مشبع ، وكان يرد فى حماس وبلاغة على ماكان يثيره فلاسفة الوثنيين ، وبالرغم من صعوبة ذلك الجهاد فى عصره ضد حكام وثنيين لم يهن ولم يضعف .

وكلما تقدم به السن كان يضاعف صومه وصلاته ونسكه ، وكان كثير اللجوء إلى مغارة حيث امضى بها خمس سنوات من قبل .

وبينما ظفر البعض بلقب قديس لشدة تقواه وتعبده وفرط تنسكه مثل المتوحدين والرهبان ، وظفر البعض الاخر بهذا اللقب لشدة كفاحه ودفاعه عن العقيدة ، أمثال البطاركة العظام وغيرهم ، اذ بنا نجد أن شنودة يعتبر قديسا مع هؤلاء وأولئك ، فهو شديد التقشف ، وهو مفرط فى الكفاح ضد الوثنية والدفاع عن العقيدة ، يتعدى الحكام وصنائعهم ، ويكافح الهرطقات ، وهو يفرط فى محبة شعبه والإنصاف له ورد المظالم عنه ، فهو أول زعيم روحى وشعبى .

كان شيخا وقورا تدلت لحيته البيضاء ، وارتسمت على محياه الرقة والحنو والعطف ، ممتزجة بأمارات الجد وقوة العزيمة وصلابة الرأى ، مالم يكن منه بد من الزعيم الدينى فى تلك الايام المضطربة الحافلة بالاحداث .

ولد الانبا شنودة فى ٢٥ يونيو عام ٣٣٤ أو ٣٣٥ ، وتنيح فى اليوم السابع من شهر أبيب عام ٤٥١ فى الساعة السادسة .

(وطنى ٢٠ /٧/ ١٩٦٩)

الفصل السابع عشر

سمات خاصة للحياة النسكية(1)

الحياة اليومية للنساك

كان الناسك فى جبل نتريا والقلالى يلزم قلايته خمسة أيام فى الأسبوع ويجتمع النساك معاً يومى السبت والأحد ، وربما كانت الحياة النصف ديرية فى جبل نتريا قد أوجبت إجتماع الأخوة أكثر من ذلك ، ومن سوء الحظ لا يوجد وصف مرتب ثابت للحياة اليومية وكيف كان يصرفها الناسك ، ولكن نستطيع بقدر الإمكان أن نكون صورة لهذه الحياة بتجميع شذرات متفرقة .

كان أول واجب على الناسك أن يلزم قلايته ، حتى لا تشوش عليه أصوات ومناظر العالم خارجها ، فعندما سأل أشعياء مكاريوس عن نصيحة ، أجابه « أهرب من الناس » ، فسأله « كيف أهرب من الناس ؟ » ، أجاب « أن تجلس فى قلايتك وأن تندب خطاياك » وفى إحدى المرات ذهب ناسك إلى إرسانيوس قائلاً إنه لا يستطيع أن يصوم أو أن يعمل ، وأنه يفكر فى أن يقوم بزيارة المرضى ، ولكن القديس الذى إستطاع أن يكشف أن تلك كانت نصيحة الشيطان ، أجاب « إذهب ، كل وإشرب ونم ولا تعمل ، فقط لاتخرج من قلايتك » ، لأنه كان يعلم أن الناسك بمثابرته على الإقامة فى قلايته لايخرج منها ، يستطيع أن ينظم حياته بعد ذلك .

وبالإطلاع على حديث للأنبا بيمين وصل إلينا ، نستطيع أن نكون فكرة عن كيف يمضى الناسك أيامه الخمسة أسبوعياً ، سأله مرة أحد الأخوة كيف يمضى وقته فى قلايته . فنصحه بأن يعمل بيديه ، وأن يأكل مرة واحدة يومياً ، وأن يلزم الصمت ، وأن يتأمل ، أن لايهمل أوقات التسبحة ، وأن يمضى أوقات راحته فى صحبة خيرة ، وسنحاول الآن أن نعرض هذه الأعمال اليومية فى شكل منتظم .

(1) من كتاب أديرة وادى النطرون تأليف الدكتور منير شكرى ـــ مرجع ضخم يقع فى ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط ، أصدرته جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية ـــ صدر عام ١٩٦٢ م .

فأشعياء الذى من شيهات كان ينصح الناسك بأن يمضى نصف الليل فى النوم ونصفه الآخر فى الصلاة ، وبذلك فإن النهار كان يبدأ فى نصف الليل أو حوالى ذلك ، بصلاة نصف الليل ، وهذه الطريقة التى يبدأ بها الناسك حياته تتفق وقول أنطونيوس «أن يصلى الناسك كثيراً وأنه يرتل المزامير قبل وبعد النوم ، وأن يحفظ عن ظهر قلب الكتاب المقدس». وكان الناسك يؤدى الصلاة فى قلايته ، فإذا كان معه إثنان أو أكثر فإنهم يشتركون معه فيها .

وبعد الإنتهاء من التسابيح « لا يرتاح أو ينام إلى أن يظهر ضوء النهار فيأخذ العمل اليومى مكان تأمل الليل » ، أى أن الوقت بين إنتهاء الصلاة وبدء النهار يقضى فى التأمل .

وبمجرد شروق الشمس يبدأ الناسك العمل اليدوى «بحيث يقوم بتكرار مزمور أو قطعة من الكتاب المقدس عن ظهر قلب ، حتى لا يعطى الناسك فرصة للتخيلات الخطرة أو الأفكار الشريرة ، لأن تقترب منه». ويعطينا كاسيان فكرة عن هذا الإزدواج بين العمل والتأمل فى المزامير والأقوال المقدسة .

وقد بينا نوع العمل اليدوى الذى كانوا يقومون به فى جبل نتريا والقلالى وشيهات ، وهو جدل السلال والحصر ، وكان للناسك ذاكرة قوية فى حفظ ما يرددونه أثناء ذلك ، فنعلم مثلا أن أمونيوس الطويل كان يحفظ عن ظهر قلب العهدين القديم والجديد ، وكذلك الكثير من أقوال الآباء ، وهيرو الذى من القلالى ، عندما ذهب من القلالى إلى شيهات كان يردد أثناء الطريق خمسة عشر مزموراً ، والمزمور الكبير ، والرسالة إلى العبرانيين ، وسفر أشعياء، وجزء من أرميا ، وإنجيل لوقا ، والأمثال .

ومن المحتمل أن يستمر الناسك فى عمله اليدوى حتى قبيل الظهر ، إذ يذكر عن أرسانيوس أنه كان يجدل حتى الساعة السادسة ، كأنه يأتى بذلك عملاً يفوق الحدود المتعارف عليها . وقد يكون وقت الظهيرة ، وخصوصاً فى الصيف مخصصاً للراحة .

وكان أنبا أشعياء ينصح الناسك أن يأكل قليلاً مرة واحدة ، وهذه القاعدة ، كغيرها من قواعد النظام الرهبانى الأنطونى هى الأخرى نتيجة تجارب كما نتبين من قول الأنبا بيمين، سأل أنبا يوسف أنبا بيمين كيف يصوم الإنسان ، فأجابه أنبا بيمين أرى أن يأكل الإنسان قليلاً يومياً ، حتى لا يأكل أكثر مما يلزم ، فقال له أنبا يوسف : عندما كنت أصغر ألم تكن تصوم يومين متتاليين ؟ فأجابه الشيخ : حقيقة ، وحتى ثلاثة أو أربعة أيام فى الأسبوع . وكان الأباء الأقوياء فى الفضيلة يفعلون كذلك ، ولكنهم وجدوا أن الأفضل تناول الطعام يومياً ، على أن يأكل الإنسان قليلاً ، وقد تركوا لنا هذا التقليد ، بوصفه «الطريق الملكى» ، لأنه محتمل . ويبدو أن تناول الطعام مرة واحدة ، كان هو التقليد فى شيهات فى أواخر القرن الرابع عندما كان هناك كاسيان .

وكانت الساعة التاسعة (أى الثالثة بعد الظهر) هى وقت تناول هذه الوجبة ، إتباعا لما كان يفعله انطونيوس ذاته كما يخبرنا القديس أثناسيوس فى تاريخ حياته ، وفى بعض الأحيان كان يؤجل الطعام حتى الساعة السادسة مساء كنوع من إذلال الجسد ، ولكن هذه العادة تركت لأنها كانت تترك الناسك ثقيلاً وفى حالة خمول فى وقت التسبحة فى الغروب ونصف الليل ولا يغير وقت تناول الطعام سوى عند مجيء أغراب فى حاجة إلى الخدمة .

وقد أخبر أنبا موسى كاسيان « أن أباءنا أوصوا الجميع بطعام من الخبز فقط ، وكان رغيفين يزنان معا ما لايزيد على رطل فقط » وقد نصح أنبا موسى أن يؤكل أحدهما فى وقت الساعة التاسعة ويترك الآخر للطوارىء ، كزيارة مفاجئة ، أو إلى المساء . ويبدوأن هذه القاعدة ترجع أيضاً إلى أنطونيوس . وكان الخبز يغمس بالملح .

وفى شيهات لم يكن الناسك يطهى شيئاً فى الأيام الخمسة من الأسبوع ، وكان يشذ عن هذه القاعدة إذا أتاه زائر من مسافة بعيدة

وبينما كان الخبز هو الطعام العادى ، كان البعض لا يتناوله إلا قليلاً أو لا يتناوله إطلاقاً بل يتناول بدله شعيراً وأنواعاً من الحشائش، أما البصل والتين والتفاح والعنب ، فكانت من الكماليات التى تعطى عادة للمرضى . وكان

الزيت يستعمل قليلاً ، وكان إيفاجريوس يستهلك منه حوالى نصف لتر فى ثلاثة أشهر .

وكان الماء هو المشروب العادى للنساك ، وكان يؤخذ بعد تناول الطعام فقط . وبعد تسبحة الغروب كان الناسك يستريح فيخلع حزامه الجلدى . وكان الفراش عبارة عن حصيرة من سعف النخيل على الأرض . وكانوا يستعملون البرنس كغطاء وكانت الوسادة نوعا من الترف الذى لا يليق . ويظل الناسك نائما حتى ميعاد تسبحة نصف الليل .

الزيارات والعادات النسكية

نظراً لأن المتوحدين إنسحبوا إلى الصحراء ليعيشوا عيشة إنفرادية ، فإن الزيارات التى دافعها حب الإستطلاع ، أو الرغبة فى تغيير الوتيرة الواحدة التى تسير عليها الحياة ، هذه الزيارات غير مرغوب فيها كلية ، فتيودوروس الفرمى طرد الأخ الذى قصده ليتعلم منه كيفية صنع السلال . عندما رآه يكثر من الزيارات ، على زعم أن مثل هذه الزيارات توقعه فى تجارب وتقلق خاطره . ووبخ أخيلاوس بيجيمى إذ أقلقه لسبب تافه وهو الرغبة فى إحضار بعض التفاح إليه، وواضع كتاب « تاريخ الرهبنة » فى حديثه عن الوحدة التى يعيشها متوحدو القلالى ، يؤكد أنهم لا يزورون بعضهم البعض إلا فى حالة المرض ، أو فى حالة إعطاء نصائح لمن لا يعرف أسس تلك الحياة ، ونعلم من « أقوال الآباء » أن صغار النساك كانوا يقصدون شيوخهم طالبين النصح والإرشاد .

وكانت فترة الزيارات تقع بين الساعة التاسعة وتسبحة الغروب ، إذا رجعنا إلى نصيحة القديس أنطونيوس ، عندما أشار أن من يريد من الإخوة فى جبل نتريا ، زيارة إخوته فى القلالى ، فيكون فى هذه الفترة ، وأما الزوار الذين يأتون من الدلتا فلا يشملهم ذلك طبعاً .

وعند وصول الزائر يقرع الباب فيفتح له صاحب القلاية ويحييه ويدخله إلى قلايته ويخلع عنه البرنس الجلدى ، ثم يدعوه إلى الإشتراك فى الصلاة ، ثم يدعوه بعد ذلك إلى الجلوس . هذا ماتتبينه من خلال « أقوال الأباء » فى

حديث مكاريوس عن مقابلة « الأجنبيين الصغيرين » له فى قلايتهما ، فيقول « عندما قرعت فتحا لى وحييانى فى صمت بعد أن صليت جلست » وعندما ذهب بعض نساك شيهات إلى يوحنا الراهب حياهم مضيفهم ثم أدار وجهه وإستمر فى عمله فسألوه بشيء من الإشمئزاز قائلين « هل الذى أدخلك الرهبنة يا يوحنا علمك أن لا تخلع عن الإخوة حرملتهم الجلدية ولا تقول لهم صلوا أو إجلسوا ؟ »

أما إذا كان الزوار قد أتوا من مسافات بعيدة ، عندئذ يعد لهم مضيفهم المائدة ، ويقدم لهم طعاماً غير متقيد بميعاد خاص ، ويخبرنا كاسيان أن الأنبا موسى كان ينصح بأن يحتفظ الناسك بنصف خبزه فى الساعة التاسعة إلى المساء فى خوف من زيارة مفاجئة وكان الناسك يقدم مع الخبز طعاماً مطهياً ، ويحتمل أن يكون بعضاً من العدس أو الفول .

وعندما يتناول الناسك كأساً وصحناً كان من المعتاد أن يقول « إسمحوا لى » تأدباً . ففى إحدى المرات جلس تيودوروس الفرمى مع بعض الإخوة فى شيهات يتناولون طعامهم فتناول كل منهم كأسه فى صمت « قد يكون بسبب الحياء » ولم يطلبوا السماح فقال أنبا تيودوروس « لقد دمر النساك عنوان نبلهم : كلمة طلب السماح » وكان الناسك سواء أكان زائراً أو فى قلايته يحاذر أن يتناول الطعام بنهم كنوع من قمع النفس أو العادات الحميدة .

وبعد تناول الطعام ، ينتظر إلى وقت تسبحة الغروب فيتلوها المضيف وزواره معا ، ثم ينامون إلى وقت تسبحة نصف الليل فيستيقظون .

وعندما يهم الزائر بالإنصراف يقول صلوا لأجلى .

وقبل أن نترك الموضوع نرى أن من المناسب أن نأتى على وصف زيارة مكاريوس « للأجنبيين الصغيرين » بشيء من التوسع ، وكان مكاريوس يريد بهذه الزيارة أن يعلم شيئاً عن حياتهما ونسكهما ، ولنتركه يقص علينا خبرها : عندما قرعت فتحا لى وحييانى فى صمت ، وبعد أن صليت جلست ، فأشار أكبرهما إلى أخيه بالخروج ، وجلس يجدل فى صمت تام ،

وفى الساعة التاسعة صفق بيديه فحضر الأخ الأصغر وأحضر قليلاً من الطعام المطهى وأعد مائدة بجوارى بإشارة من أخيه الأكبر ، ووضع عليها ثلاثة أرغفة وظل واقفاً فى صمت . فقلت قم دعنا نأكل ، فقمنا وأكلنا ، ثم أحضر إناء الماء فشربنا . وفى المساء سألانى هل ستبارحنا ؟ فعندما أخبرتهما أنى سأنام معهما ، وضعا لى حصيرة فى أحد الجوانب وأخرى لهما فى أحد الأركان ، ثم رفعا حزاميهما ، ورقدا على الحصيرة أمام عينى ، وعندما أيقنا أنى فى سبات عميق ، ركز الأخ الأكبر أخاه فى جنبه وقاما ، وتمنطق كل منهما بحزامه ورفع يديه إلى السماء .

وعند الفجر ، تظاهرت أنى مستيقظ وفعلا هما كذلك ، وعند ذلك قال لى الأخ الأكبر هذه الكلمة فقط « هل ترغب فى أن تتلو الإثنى عشر مزموراً ؟ » فأجبت نعم عند ذلك رتل الأخ الأصغر الخمس مزامير ، كل منهما فى ستة مقاطع بهليلويا واحدة وكذلك فعل الأخ الأكبر ... وتلوت أنا أيضاً بعضاً منها من ذاكرتى ، وعندما هممت بالخروج قلت : صلوا لأجلى . فأجابا بعلامة الإيجاب فى صمت .)

(مجلة مدارس الأحد ــ مايو /يونيو ١٩٦٣)

الفصل الثامن عشر

من أسس النسك عند آباء البرية

الطاعــة
أو
الإنتصار على الصلف والكبرياء

أوحى إلىّ بهذا المقال تصريح لبابا روما نشر فى أهرام يوم السبت ١٤ /١ /١٩٦٧ تحت عنوان «الديمقراطية ليست للراهبات» جاء فيه : « إن الديمقراطية ليست للراهبات ، وإذا حل نوع من قرارات الأغلبية محل السلطة والطاعة ، فإن الحياة الدينية فى أديرة الراهبات سوف تتعرض لخطر داهم ! » .

والحق أن المنزلة التى كان آباء البرية يضعون الطاعة فيها تجعل من الخضوع صفة ذات علاقة وثيقة بالمسيحية نفسها فى صميم أعماقها .. وإذا وضعنا جانباً إمتداح الطاعة وتعريفها كإحدى الفضائل ،فمما لا شك فيه أن أية جماعة كبرت أو صغرت لا بد من سلطة عليا فيها لحفظ النظام والقانون . وبينما نحاول إلتماس الأعذار وتبيان الأسباب التى تجعلنا نحد من الحرية الشخصية ، فإن آباء البرية كانوا لا ينظرون إلى الأعمال التى تعود بالنفع من حيث قيمتها وما تحاط به من مديح وإطراء ، إذ كانوا يعملون على تنمية فضيلة الطاعة كنوع سام من الخضوع والتواضع أو على إنها الوسيلة الأكيدة للتغلب على الصلف والكبرياء .

وكان الناسك يعترف بأنه يجب أن يخضع لشخصيات أخرى تمثل السلطة العليا ، ولكن ليس إلى الحد الذى يباعد بينه وبين الخضوع والطاعة للخالق .. هذا المبدأ الذى يأخذ به كل إنسان عاقل ، كان يراه هو على ضوء تلك الطاعة العجيبة التى أبداها ابن الإنسان لله الآب إذ بدأ رسالته بإرادة منه ، وقد ثابر على إدائها وأكملها واضعاً نفسه تحت سلطة الحكام .

وإن جميع الأمثال والقصص التى نسمعها عن آباء البرية فى هذا المجال إنما تهدف جميعاً إلى إظهار كيف أن الناسك يجب أن يتجرد من إرادة الرجل القديم

فيه لينمى مكانها نفساً روحانية متجددة كل التجديد .. كانوا يطلبون من المبتدىء الطاعة العامة التامة ، وكانوا يرون فيها أهم رياضة لتكوين الناسك الحديث النسك ، وكان آباء البرية يقولون أن الناسك الذى لا يحقق هذا الإنتصار يصير غير قادر على الإنتصار على الغضب وعلى الحزن وعلى حب التظاهر والفخر ، بل لا يستطيع أن يحافظ على وداعة القلب أو الإتحاد فى حياته اليومية مع إخوته ، بل لايستطيع أن يثابر على حياته الديرية .

فإذا رجعنا إلى زعيم كتابنا عن أدبيات الرهبنة القديس يوحنا كاسيان الذى أقام ردحاً من الزمن فى برية شيهيت (وادى النطرون) فى أواخر القرن الرابع ، نجده يبين لنا فى كتابه «المعاهد» أنه « تبعاً لهذه التوجيهات فإن قانون الطاعة يتبعه شباب النساك إلى حد أنه لا يستطيعون الخروج من القلاية دون إستئذان شيوخهم ، وحتى إذا خرجوا لقضاء حوائج شخصية فلا يكون ذلك دون إستئذان وأيضاً يقومون بعمل كل ما يؤمرون به كأنما هى أوامر منزلة عليهم طاعتها دون أى فحص أو نقاش . وفى بعض الأحيان عندما كانوا يأمرونهم بأوامر من الصعب تنفيذها ، كانوا يتلقون هذه الأوامر بروح الإيمان دون أى تردد فى قرارة نفوسهم . ثم يحاولون تنفيذها بكل قواهم دون أن يتساءلوا عن إمكانية تنفيذها . إلى هذا الحد كان إحترامهم لشيوخهم » .

ويمضى فى موضع آخر من كتابه هذا يبين لنا كيف كانوا يطيعون بمجرد أول إشارة تعطى لهم فيقول : عندما كان هؤلاء النساك الطوباويون فى قلاليهم مواظبين على الصلاة والتأمل ، فمجرد أن يسمعوا الطارق على أبوابهم الذى يدعوهم إلى الكنيسة أو لأجل عمل يؤدونه يهرعون إلى خارج قلاليهم بكل سرعة ممكنة إلى حد أن الذى كان يكتب منهم لا يكمل الكلمة التى كان قد بدأها عند سماعه الطرق .. إنه يهرع على التو دون أن يجسر على أن يتمهل مدة تكفيه على أن يكمل الكلمة التى تركها فى منتصفها . إنه يتركها غير تامة ولا يفكر فى إتمام كتابته بل يفكر فى أن يمارس فضيلة الطاعة قبل كل شىء .. تلك الفضيلة التى يفضلها هؤلاء القديسون على العمل اليدوى وعلى القراءة وعلى الصمت وعلى هدوء القلالى ، وبوجه عام على كل الفضائل الأخرى . وهم

يستعذبون أية مشقة يقاسونها فى سبيل ممارسة هذه الفضيلة السامية التى تتلذذ بها نفوسهم » .

فإذا تركنا القديس كاسيان وإتجهنا إلى القديس جيروم، أو إيرونيموس، الذى قضى هو أيضاً ردحاً من الزمن فى برية شيهيت فى القرن الرابع نجده يقول :

« إن أول واجب يتعهد به الراغب فى الرهبنة فى تلك المؤسسات كان الطاعة للشيوخ وعمل كل ما يشيرون به . وكان المتعارف بين المتوحدين بوجه عام ، أنه لكى يؤسس الناسك حياته على أساس متين من الفضائل فى الحياة الرهبانية يجب أن يبدأ بإخضاع إرادته لإرداة الغير .. وأولئك الذين وصلوا إلى أرق مدارج الكمال هم الذين بزوا إخوانهم منذ البدء فى الزهد فى إرادتهم الشخصية . وكان أول درس يلقيه آباء التوحد لمن يقصدهم ليتتلمذ عليهم أن يتجرد من إرادته وأن يخضعها إخضاعاً أعمى لإرادة معلمه وأن لا يفكر فى الأوامر التى يتلقاها .

لقد كانوا فى بعض الأحيان يأمرونهم بالقيام بأعمال من الصعوبة بمكان ، أو تبدو كأنها مخالفة للمنطق أو البداهة وذلك لأجل أن يعودوهم على الطاعة العمياء . ولقد بارك الرب مراراً طاعة شباب الرهبان لشيوخهم بمعجزات تزيد من شعورهم إلى الحاجة إلى الطاعة وبما لها من قيمة .

وإن من يقصد إلى البرية لأجل الحياة النسكية سواء أذَهب إلى أحد الأديرة أم قصد أحد المتوحدين يجب أن يبدأ بهذه الفضيلة . فإذا قصد أحد الأديرة عهد به إلى أحد الشيوخ الذى يمرنه على هذه الفضيلة كما يمرنه على الفضائل الأخرى اللازمة لحياته النسكية ، أما إذا قصد أحد المتوحدين فإما أن يرسله إلى أحد الأديرة وأما إذ قبله كتلميذ له فالطاعة هى الدرس الأول الذى يلقنه إياه » .

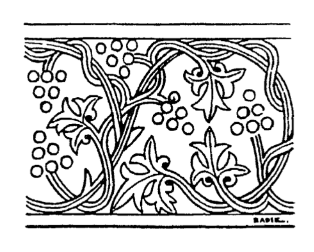
وكانت تمارين الطاعة التى يضعها الشيوخ لتلاميذهم ليست من النوع الذى تقبله النفس بسهولة ، إذ كانت كما بينا إما أعمالا شاقة أو تبدو مجافية للمنطق ، أو تدخل اليأس إلى فكر يحكم المنطق . هذه التمارين كانت كفيلة

بإذلاله وبإخضاعه لأنظمة الزهد المقدس ، ذلك الزهد الذى يكوّن الناسك الحقيقى ، والذى بدونه لا يرتفع أبداً إلى درجة عالية من الكمال . ولذلك يسمى كاسيان معاهده الرهبانية معاهد أولئك الذين يزهدون ، ولا يقصد من ذلك الزهد عن العالم فقط ، ولكن بصفة رئيسية الزهد عن النفس أو إنكار الذات وخصوصاً ممارسة فضيلة الطاعة .

والذى كان يشجع المبتدئين على إطاعة الشيوخ الطريقة التى كان هؤلاء يلقون بها تعاليمهم ، فقد كانوا يلقونها وكأنهم تسلموها ممن سبقهم وليست صادرة عن ذواتهم . وكان من تقاليدهم حفظ أهم الأعمال الفضلى وأشهر الأقوال وتسليمها شفوياً إلى الآخرين وخصوصاً فى تعاليمهم لتلاميذهم ، وكان هؤلاء بدورهم عندما تتقدم بهم السن يسلمونها لتلاميذهم كما تسلموها من معلميهم فى النسك .

ولعلنا بهذه اللمحة عن فضيلة الطاعة نكون قد وضعنا أمام القبط فى عصرنا إحدى الأسس المتينة التى قامت عليها حياة الرهبنة فى عصر الآباء وبلغت أعلى المراتب ، حتى نستفيد منها فى رغبتنا الأكيدة على الرجوع بأديرتنا إلى ذلك العصر الذهبى ، والله ولى التوفيق .

(مجلة مدارس الأحد ــ فبراير /مارس ١٩٦٧)



الفصل التاسع عشر

في الرهبنة القبطية

الطاعـــة

على الرغم مما حظى به «اباء البرية»، فى الدول الأوروبية ، من عناية وإهتمام ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، إلى اليوم ، فإن الكتاب والباحثين هناك ، يرون أن هذا الموضوع ، ما زال فى حاجة إلى الكثير من البحث والكتابة . كما يرون فيه ينبوعاً لا ينضب من القيم الإخلاقية والتربوية والفلسفية والدينية . فهم يفتقرون إلى المزيد بعد ما كتبه هارناك ووينجارتن ، ولوفور ولادوز والأخوان يروميون والآباء البولانديست والمجلدات الثلاثة الضخمة التى كتبها أخيراً إفلين هوايت وغيرها . وكلما قرأت هذا الرأى ، هززت رأسى أسفاً على حالنا ، وتساءلت ما الذى نعرفه عن «آباء البرية»؟ نحن أبناءهم وأحفادهم . ومن منا ضحى ببعض وقته ليغترف من أخبارهم وأقوالهم ؟ وإذا كانت مصر مهد الرهبنة كما يعترف بذلك العالم أجمع ، ألا يكون من دواعى فخرنا أن نعرف شيئاً عن من قاموا بهذه الحركة ، التى لها الفضل على كل من لبس مسوح الرهبنة إلى يومنا هذا ؟ إن من قاموا فى القرن الثالث والرابع والخامس يقصدون الصحارى والجبال ، ليعيشوا عيشة النسك والتجرد والتعبد ، كانوا علمانيين مثلنا قبل أن ينذروا أنفسهم لهذه الحياة ، وإن فى ترسم أخبارهم قبل وبعد الرهبنة ، ما يحرك الكثير مما يكمن فى نفوس بعض أحفادهم ، فيهبون مقتفين أثرهم فى الطريق الصحيح الذى سلكوه .

وإن كتابنا الذين يطرقون مثل هذه المواضيع ، ليؤدون خدمة كبيرة للقبط ، لو قدموا لهم جزءاً مما قدمه كتاب الغرب عن آباء البرية ، وإنى على يقين أن التعرف على هؤلاء الآباء سينير كثيراً من النفوس ، كما سيرفع مستوانا الأخلاقى الذى لنا الحق أن نشكو منه مر الشكوى . وأكثر من ذلك فهو سينير الطريق أمام إخوتنا الذين ينذرون أنفسهم للرب ، ولكن لا يجدون من يأخذ بيدهم ويدلهم على الطريق الصحيح الذى يجب عليهم أن يسلكوه ، حتى يكونوا جديرين بأسلافهم ، وحتى يتجنبوا مزالق كثيرة تعود عليهم وعلى مؤسساتنا الديرية بالكثير من عدم الإستقرار الذى لا داعى له .

وإذا ما تصفحنا ما كتبه شهود عيان لآباء البرية فى القرنين الثالث والرابع أمثال بلاديوس وروفينوس والقديس جيروم وكاسيان ، نجد أن القديس جيروم يخبرنا أن الواجب الأول الذى يجب على الراهب أن يأخذ نفسه عليه ، هو الطاعة المطلقة للشيوخ ، وعمل كل ما يشيرون به . وكانت القاعدة العامة بين المتوحدين ، أنه لكى يبدأ الناسك على أساس متين فى حياته ، يجب أن يبدأ بإخضاع إرادته لإرادة غيره . وإن أولئك الذين تميزوا منذ البدء بإنكار كل ما لهم من إرادة إنكاراً تاماً ، هم الذين وصلوا إلى أعلى درجات الكمال . وكان الدرس الأول الذى يلقنه آباء البرية لمن يقصدهم واضعاً نفسه تحت إرشادهم ، هو أن يتجرد تماماً من إرادته ، وأن يخضع لمعلمه خضوعاً أعمى ، وألا يحاول أن يجادل فى أى أمر يتلقاه . ووصلوا إلى حد أن كانوا يأمرون تلاميذهم فى بعض الأحيان بأوامر مؤلمة ، أو تبدو مجافية للمنطق والبديهة . وكل ذلك لأجل أن يعودوهم على الطاعة العمياء ، وكان الرب يبارك فى أكثر من مرة طاعة التلاميذ لشيوخهم ، بواسطة معجزات تجعلهم يشعرون بإقتناع بالحاجة إلى هذه الطاعة وبالجزاء الحسن الذى يتبعها .

وكل من قصد البرية ليعيش تلك الحياة القدسية ، سواء أقصد ديراً أم أحد الشيوخ ليلبس مسوح الرهبنة ، كان عليه أن يبدأ من هذه النقطة . فإذا قصد ديراً فإنه يضع نفسه تحت تصرف أحد الشيوخ ليمرنه على الطاعة وعلى الواجبات الأخرى التى تقتضيها حالة النسك . فإذا قصد أحد المتوحدين فإما أن يرسله إلى الدير أولاً ليقضى به بعض الوقت ، أما إذا قبله فى قلايته كتلميذ فأول درس يلقنه إياه عن الطاعة . كان ذلك هو المتعارف عليه فى ذاك الوقت بوجه عام إلى درجة أننا لا نجد ما يضاده .

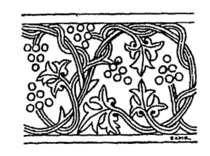
وكانت الأوامر التى يكلف الشيوخ تلاميذهم بطاعتها ، ليست مما يتفق والاعتداد بالنفس أو الكرامة الشخصية ، بل كانت كما بينا إما عبارة عن أعمال متعبة ، أو أوامر لا تتفق والمنطق السليم ، وتحزن شخصاً يستعمل العقل والمنطق فى كل ما يعمل . وليس هناك بأفضل من هذه الفضيلة — الطاعة — ما يستطيع أن يعلمه الوداعة والتواضع ، والخضوع لقوانين الزهد المقدس ، ذلك الزهد الذى يصنع الراهب الحقيقى ، والذى لا يستطيع بدونه أن يرق إلى

معارج الكمال . ولذلك يدعو كاسيان المعاهد الديرية ، معاهد أولئك الذين «يزهدون» ، ولا يقصد من ذلك الزهد عن العالم فقط ، بل الزهد عن النفس بشكل رئيسى ، وبوجه أخص ممارسة الطاعة .

وكان الذى يشجع المبتدئين على الطاعة لشيوخهم ، أن هؤلاء كانوا لا يلقون إليهم بتعاليمهم كأنها صادرة منهم ، ولكن على أنهم تسلموها من الذين تقدموهم ، وكانوا كثيراً ما يرددون أقوالهم وأمثلتهم .

وكان الشيوخ يحفظون تقاليد أسلافهم بواسطة حفظ ما كانوا يقومون به من أعمال الفضائل بوجه خاص ، وبحفظ أقوال مشاهيرهم ، وكانوا ينقلونها شفوياً من واحد لآخر ، وخصوصاً التعاليم التى كانوا يلقنونها للمبتدئين . فإذا ما صار هؤلاء شيوخاً أعطوها لتلاميذهم كما تسلموها من أبائهم .

(مجلة مدارس الأحد ـــ أبريل ١٩٦١ م)



الفصل العشرون

من مظاهر جهلنا أيضا بتاريخنا
كيف جنينا على الرهبنه القبطيه

بينت فى مقالى السابق[1] كيف ظل كرسى مارمرقس بالإسكندرية شاغراً منذ نياحة الانبا كيرلس الخامس الى الان ، أى ما ينوف على ربع قرن مما لم نسمع بمثله فى تاريخ الكنيسة فى أحلك أيامها وذلك إرضاء للنزوة التى قامت فى رؤوس بعض المطارنة بترشيح أنفسهم للكرسى البطريركى تحت سمع وبصر المجمع المقدس والشعب القبطى الجاهل غالبيته بتاريخ كنيسته .

وتركنا بحكم هذه البدعة فى تقليد الكنيسة فى كرسى أسقفية الاسكندرية ، وهو أرفع كرسى فى كنيستنا لان القديس مرقس أول من جلس عليه .

تركنا هذا الكرسى شاغراً طوال هذه المدة ، معتذرين لصاحبه بحب الرئاسة والأمجاد العالية الذى طغى على أساقفتنا .

والغريب بعد ذلك أن جعلنا هذه البدعة تقليداً ثابتا ، ذكرناه وثبتناه فى كل قانون وضعه أراخنتنا وجمعنا المقدس لإنتخاب البطريرك .

واليوم أتحدث إلى ضمير كل من يتحرك شوقا الى النهوض بكنيستنا ، عن مظهر آخر من مظاهر أخطائنا وجهلنا بتاريخنا وهو علاجنا الناقص الغريب لمشكلة النهوض بالاديرة ، أو ما اصطلحنا على تسميته مشكلة أوقاف الاديرة .

فعندما قام حفنة من شباب الامة الناهض عام ١٨٧٤ ينادون بوجوب الألتفات الى فقراء القبط الذين تركوا وشأنهم فى امورهم ، مع أن هناك عقارات فى القاهرة موقوفة لأجلهم ، لم يحل فى خاطرهم شىء اكثر من أن يقوموا بما اصطلح على تسميته الآن (بالخدمة الاجتماعية) .

ولكن تدخل بعض أعيان القبط فى هذه الحركة وحولوها إلى مجلس معترف به من الحكومة ، أنتهز فرصة الجهل الذى كان متفشيا فى الوسط الكهنوتى وأغتصب لنفسه بعض مالا يدخل فى اختصاصه ، ورنا إلى أوقاف الأديرة . فوجد أن أدارتها فكره جميلة سعى إلى تحقيقها منذ سنة ١٨٨٣ إلى الآن .

(١) نشر بجريدة مصر فى ١٢ /٧ /١٩٥٥ وستجده فى صفحة ٦١٨ من هذا الكتاب .

أما العنصر الأصلى من الشباب الذى وجد أن فكرته الأصلية قد أذاها مجلس الأعيان هذا بإنقساماته وخلافاته .

فقد حاول إصلاح الحال بواسطة خطابات ونشرات وزعوها على الإعضاء تارة وعلى الناخبين تارة أخرى .

وأخيرا تحولوا إلى (جمعية المساعى الخيرية) التى أصبحت فيما بعد الجمعية الخيرية القبطيه الكبرى . وأسس البعض الآخر جمعية التوفيق ، الاولى للخدمة الاجتماعية والثانية للثقافة .

وظل مجلس الاعيان هذا أو المجلس الملى العام ينادى الى اليوم، ينادى بأن استيلاءه على إدارة أوقاف الاديرة ، هو السبيل الوحيد للنهوض بالاديرة وبالقبط عموما ، ولو أن بعضهم درس تاريخ الرهبنة القبطية أو كلف نفسه مشقة الذهاب لمدة يومين إلى أحد الاديرة ليرى أن مشكلة (أوقاف الاديرة) ماهى الا جزءا من مشكلة كبرى هى مشكلة (انحطاط الاديرة) وماهى الا مظهر لما وصلت اليه حال الاديره من سوء ، حتى اصبحت على احسن الفروض بقايا اثرية لمؤسسة دينية وروحية غذت العالم بقيم روحية ، مازال يستمد منها عالمنا إلى يومنا هذا .

ان عيب من يقصرون منا الخدمة فى محيط الكنيسة ، على اختلاف ثقافتهم وعلى فرض حسن النية فيهم جميعا ، هو جهلهم بتاريخ كنيستهم مع ان فيه الجواب على كل مايسألون ولذلك تأتى مقترحاتهم فجة غير متناسقة متعدد المناصي ، وذلك لا تلبث أن تموت فى غمرة الخوف .

أتعرفون ماذا عملوا فى الغرب فى القرون الوسطى عندما وجدوا أن أديرتهم انحطت مع أنهم استمدوا وجودها من قانون الشركة الذى وضعه الانبا باخوميوس أب الشركة وقد نجح فى اديرته العديدة بمصر التى كانت تحوى عشرات الالوف .

لقد عقدوا مجمعا من رؤساء الاديرة حينذاك فى بلدة كلونى على الحدود بين فرنسا والمانيا بحثوا فيه أسباب انحطاط الاديرة مستنيرين فى ذلك بقوانين باخوميوس فلم يلبثوا أن عثروا على فقرة فى هذا القانون تقول يجب على رؤساء الاديرة أن يجتمعوا مرتين على الاقل سنويا ، الاولى قبيل عيد القيامة للبحث فى

حاجات الرهبان الروحية والثانية قبيل عيد رأس السنة للبحث فى احتياجاتهم المادية فيشتركون جميعاً فيما ينالون من خير وبركة .

واكتشفوا أنهم نسوا تطبيق هذه الفقرة ، وبادروا بالعمل على تطبيقها .

وها هى اديرتهم زاهرة يانعة نرى آثارها الدينية والثقافية والاجتماعية ليس فقط فى الغرب بل فى جميع أنحاء العالم .

فهل درى بذلك التاريخ من نادي بادارة أوقاف الاديرة طوال سبعين عاما أو أكثر ، واشعلوها حربا عوانا بينهم وبين الرهبان ، وجعلوا فى نفس الوقت من كلمة (راهب) عدواً يحكى عنه الاقاصيص المحزنة والمضحكة ، وشر البلية مايضحك ؟

وتركوا الاديرة تنحدر إلى الحضيض ؟ واخص بالذكر منها اديرة الراهبات ، وقد خلقت المرأة بطبعها أقدر على الخدمة الاجتماعية فجعلنا من الدير ملجأ لها يدار على أسوا الاسس التى تدار بها الملاجىء ...

انى انادى بان يبادر كل دير الى عقد مجمع من رهبانه يقرر على ضوء قوانين الشركه ـــ وكلها اديرة شركة ـــ اساليب النهوض بالرهبنة .

ثم تعرض هذه القرارات جميعا على رؤساء الاديرة ومنهم نعين الرهبان المثقفين كسكرتيرين ، ليضعوها فى قالب يلتـــزم به جميـــع الـــرؤساء ثم يجتمعون بعد ذلك مرتين على الاقل سنويا ، حتى تكون جميع الاديره فى مستوٍ واحد ، وبعد ذلك سيجد الجميع من احفاد انطونيوس وباخوميوس ومكاريوس وشنوده ، من نهوض دينى واجتماعى وانشائى مايسكت إلى الابد المطالبين « بادارة أوقاف الاديرة » ، بما لا يقل عما يقوم به رهبان الكاثوليك بيننا من بناء كنائس ومدارس ومستشفيات ومستوصفات ونوادى لان الراهب الذى وهب نفسه لمجد إلهه وكنيسته وخلاص نفسه أقدر على الالتفات الى هذه المؤسسات وادارتها من عضو المجلس الملى المثقل بالاعباء فى عصرنا هذا .

(جريدة مصر ٢١ /١٢/ ١٩٥٥ م)

الفصل الحادى والعشرون

حول تاريخ دير السريان

ولو أن دير السريان هو أحد الأديرة الأربعة القائمة حالياً فى وادى النطرون ، إلا أننا لا يجب أن نعتبره أحد الأديرة الأربعة الأصلية التى ذكرها يوحنا كاسيان عندما زار أديرة وادى النطرون حوالى عام ٣٩٩ م ، والتى نقرأ عنها فى المستندات القديمة عن برية شيهات .

إنه أحد أديرة «الثيؤتوكوس» أى «والدة الإله» ، وهى أديرة ثانوية ألحق كل منها بأحد الأديرة الأصلية الأربعة ، أقيمت فى حوالى منتصف القرن السادس كأثر خالد لإيمان آباء البرية ، فيما يتعلق بذلك النضال الذى بدأ بالنسطورية ، وكان الرهبان فيه جنوداً مخلصين لكيرلس الكبير . ولكنه لا يظهر كدير مستقل حتى النصف الأخير من القرن التاسع ، عندما نقرأ لأول مرة عن « الأديرة السبعة بوادى هبيب » .

ولدينا أدلة وافية على أن هذا الدير كان جزءاً من جماعة الأنبا بيشوى ، وفى سيرة ذلك القديس نتبين ثلاث نقاط ذات صلة مادية بدير السريان : —

الأولى : نعلم أن هذا القديس خوفاً من أن يجلس إذا تغلب عليه النوم أثناء وقوفه للصلاة ، فقد أتى بعارضة من الخشب وثبتها أفقياً فى الحائط وربط فيها شعره أثناء الصلاة فى قلايته . ولاتزال هذه القلاية والعارضة فى دير السريان .

الثانية : عندما زار أفرآم السريانى الأنبا بيشوى ، نعلم أنه ترك عصاه على باب قلاية القديس . وقد مدت هذه العصا جذورها فى الأرض وأورقت وأينعت ، وصارت شجرة وارفة الظلال فى دير السريان .

الثالثة : وترجع إلى عصر أقدم ، فعند رجوع البرابرة المغيرين إلى بلادهم بعد أن قتلوا الشيوخ التسعة والأربعين ، نعلم من التاريخ أنهم عندما وصلوا إلى دير الأنبا بيشوى ، غسلوا سيوفهم المخضبة بالدماء فى مياه بئر ، ومنذ ذاك الوقت صارت لمياه ذلك البئر قوة شافية عجيبة . هذه البئر نستطيع أن نستدل

عليها فى دير السريان حيث توجد كنيسة قديمة على إسم شيوخ شيهات التسعة والأربعين .

كل هذا لا يدلنا على شيء أكثر من أن دير السريان يقوم فى المكان الذى كانت تقيم فيه جماعات الأنبا بيشوى المتفرقة .

أما الإسم «دير السريان» الذى صار الآن اللقب الرسمى لذلك الدير ، فهو لا يعدو شهرة شعبية ووصفا له . وهناك سلسلة من المخطوطات التى جلبت من هذا الدير مكتوب فيها أن إسمه الحقيقى هو «دير والدة الإله « الثيؤتوكوس » للأنبا بيشوى» ويضاف إلى هذا الأسم جمل وصفية مثل «الذى للسريان»، أو «الذى فى أملاك الأنبا بيشوى» ، فى بعض الأحيان . إذن فقد كان ديراً ثانوياً ملحقاً بدير الأنبا بيشوى . ويعتبر دير السريان الدير الوحيد الباقى من الأديرة الثانوية من عهد الشقاق الذى حدث فى الكنيسة بسبب لقب «الثيؤتوكس» أى «والدة الإله» الذى أنكره نسطور بطريرك القسطنطينية . ويرجع تاريخ إقامته إلى حوالى عام ٥٣٥ أو بعد ذلك بقليل .

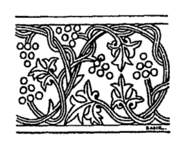
منذ القرن الثامن عشر أخذت من هذا الدير مخطوطات سريانية على جانب عظيم من الأهمية ، وقد وجدت حواشى على جانب من هذه المخطوطات موجودة فى المكتبة الأهلية بباريس ، إستنتج منها المؤرخ افلين هوايت أن هذا الدير قد باعه أحد البطاركة فى القرن التاسع إلى طائفة السريان بإثنى عشر ألف دينار .

أما نحن فنرى أن إستيلاء السريان على هذا الدير ، قد حصل بنوع من التراضى والتغاضى ، بل والتراخى أو البساطة التى إشتهرنا بها نحن القبط . وكان ذلك فى وقت كانت الأديرة فيه خرابا يباباً أثر الغارة العنيفة التى إستهدفت لها الأديرة فى أوائل القرن التاسع . وقد إستغل السريان ما إشتهر به المصريون من تسامح وكرم ، خصوصاً نحو طائفة متحدة معهم فى العقيدة ، وأصبح لها شأن فى مصر خصوصاً بعد أن وصل بعض أفرادها إلى بعض مناصب الدولة العليا فى ذاك العهد ، وكان القبط فى حاجة إلى من يساندهم لدى الولاة . وقد يكون السريان قد أخذوا على عاتقهم عمل بعض

الإصلاحات ، أو إقامة كنيسة ، وهكذا سار الأمر بهدوء ، حتى أننا لا نعثر على أى ذكر خاص لمشكلة تتعلق بهذا الدير فى المصادر القبطية ، ولا يعقل أن لا تشير المصادر القبطية إلى حادث فريد فى تاريخ برية شيهات وأديرتها — وقد رأينا ما كان لها من مكانة خاصة لدى العالم المسيحى عامة وبطاركة الإسكندرية بوجه خاص — ألا وهو حادث بيع أحد الأديرة ، خصوصاً إذا كان بثمن خيالى ، وهو إثنا عشر ألف دينار ، أى ما يساوى فى أيامنا هذه ثلاثين ألف دولار حسب تقدير افلين هوايت نفسه ، وهو ثمن خيالى لدير فى الصحراء ، حتى أيامنا هذه ، فكم بالحال فى منتصف القرن التاسع ، يضاف إلى ذلك أن الأديرة كانت خربة فى ذاك الوقت وهجرها رهبانها وتحتاج إلى إصلاحات كثيرة .

هذا ما وسعه المقام فى هذه العجالة عن دير السريان ، أما من أراد المزيد من أخبار أديرة برية شيهات ، وأبائها وأنظمتها وقوانينها ، فسيجده فى رسالة مار مينا التى تقوم بطبعها ، والتى جاءت مرجعاً عربياً فريداً فى هذا الموضوع .

(مجلة مدارس الأحد — سبتمبر ١٩٦١ م)



الفصل الثانى والعشرون

الإحتفال بمرور ألف عام على أديرة جبل آثوس

منذ بضعة أشهر إحتفلت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بمرور ألف عام على إنشاء أديرة جبل آثوس . فأرسلت دعوة إلى مختلف الكنائس لإرسال مندوبيها لحضور هذا الإحتفال ، وأوفدت كنيستنا مندوبيها لحضور هذا الإحتفال ، ولم تكن تلك الدعوة المظهر الوحيد لهذا الإحتفال فنشرت المجلات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية نبذات وصوراً لهذه الأديرة وما فيها من ذخائر نفيسة .

وعندما قرأت نبأ هذا الإحتفال أدركت كم نحن مقصرين فى حق أنفسنا .

هم يحتفلون بمرور ألف عام على إنشاء أديرتهم ويهرع العالم من مختلف الأنحاء ليرى هذه الأديرة التى بنيت من ألف عام ، ونحن فى مصر ـــ مهد الرهبنة فى العالم ـــ عندنا أديرة رابضة فى صحراء وادى النطرون وغيره من صحارى مصر مازالت عامرة برهبانها ومازالت الشموع توقد على مذابحها والبخور يرفع أمام هياكلها منذ ألف وستمائة عام بالكمال ، ومع ذلك لم نفكر فى الإحتفال بمرور ستة عشر قرنا على وجودها . هذه الأديرة التى وطئتها أقدام أنطونيوس وبولا وشنوده وباخوميوس وموسى الأسود ويوحنا القصير والأنبا يشوى والأنبا أرسانيوس وساويرس الأنطاكى والقديس جيروم وملانيا وباسيليوس الكبير وغيرهم وغيرهم ، والتى مازالت رابضة فى أماكنها الأصلية ، ساندت الكنيسة فى أحلك أوقاتها وحفظت الإيمان ، لاتجد اليوم فى نهضتنا الحديثة من يلفت أنظار العالم إليها . ومن يرد على الكنائس الأخرى بأن عندنا الأديرة التى نبعت منها فكرة الرهبنة والديرية ، الأديرة التى تربى فيها يوحنا كاسيان ـــ الذى أنشأ أول دير فى أوربا ، ونشر عنها مؤلفيه الشهيرين « المواعظ » و « المعاهد » اللذين كان لهما الأثر أكبر الأثر فى إنتشار الرهبنة فى الغرب .

لو أننا قمنا بهذا الإحتفال وأصدرنا نشرة ذكرنا فيها كل ذلك ونشرناه فى المجلات الأوربية والأمريكية لعرف العالم الحقائق التاريخية لنشأة الرهبنة والديرية وأنها نبعت من الكنيسة القبطية الأرثوذكسية .

وفى إمكان مندوبى الكنيسة فى المؤتمرات العالمية الكنسية أن يسهموا فى هذا المضمار بالتوسع فى حمل النشرات والنبذ بالإنجليزية والفرنسية عن كنيستنا ، تاريخها ومعتقداتها ليوزعوها أينما حلوا فيعرفوا العالم بكنيستنا ؟!

وأخيراً لم يفت جمعية مار مينا العجايبى أن تخرج موسوعة عربية عن «أديرة وادى النطرون» بمناسبة مرور ستة عشر قرنا على إنشائها ، وَلكنه مجهود فردى لا يصل مداه إلى أنحاء العالم المسيحى .

فلنأخذ درسا من إحتفال أديرة جبل آثوس ولننظم أنفسنا ولنعمل لأجل مجد كنيستنا دون أى إعتبار شخصى . ولنلتف جميعاً بمواهبنا حول رأس كنيستنا البابا كيرلس السادس الذى يعمل لأجل النهوض بالكنيسة ، ويشجع كل إقتراح يرفع من شأنها ويذيع صيتها .

(مجلة مدارس الأحد ــ نوفمبر ١٩٦٣)



الباب الحادى عشر

آباء الكنيسة



البابا أثناسيوس الرسولى
(٣٢٦ ـ ٣٧٣ م)
بابا الإسكندرية العشرون

الفصل الأول

أثناسيوس الرسولى
بابا الأسكندرية العشرون

(٣٢٦ ــ ٣٧٣ م)

فى اليوم السابع من شهر بشنس الموافق ١٥ مايو هذا العام تعيد الكنيسة ذكرى نياحة حبر من أعظم أحبارها وكوكب من ألمع كواكبها الذين جلسوا على كرسى القديس مرقس الانجيلى . وهذه الذكرى الجليلة تضيف إلى سلسلة أفضال مصر على العالم طوال التاريخ حلقة من أمجد الحلقات ، إذ تذكر المسيحيين فى أقطار العالم بفضل مصر فيما هم يتمتعون به من عقيدة مسيحية صحيحة صافية .

ولا يستطيع المؤرخ مهما أوتى من بلاغة وقوة إيجاز أن يضمن فى عجالة تاريخاً وافياً لمثل تلك الشخصية الجبارة النادرة من جميع نواحيها ، وإنما سأجتهد فى هذه الكلمة أن أظهر شيئاً من صفاته وأخلاقه عسى أن أكون قد قدمت بذلك مثلا حياً لجيلنا الحاضر .

ليس أثناسيوس قديساً مصرياً فحسب ، إعترفت جميع الكنائس بقداسته ، فكان أحد الأساقفة القليلين الذين أحرزوا ذلك اللقب رغم عدم استشهادهم ، بل إنه بطل من أبطال التاريخ المعدودين ، قاوم آباء الكنيسة بأجمعهم وقاوم الامبراطورية أيضاً والعلماء والفلاسفة حتى أن لترجمة حياته ميزة خاصة ومنزلة فوق تراجم غيره من القديسين فى العصور الأولى .

واسم القديس اثناسيوس ــ لأسباب كثيرة ــ يعد رمزاً : فهو يمثل تعاليم خاصة وعقيدة وهو مرادف للقوة ، ففيه تتمثل عقيدة ألوهية الكلمة ومساواته للآب فى الجوهر . تجمعت الكنيسة كلها خارج مصر فى أواسط القرن الرابع تسندها قوى العالم لتقاوم هذه التعاليم ولكنه قاومها وحده ، حتى قال أحد المؤرخين « لقد كانت الكتلتان متعادلتين طالما كان مثل هذا الرجل واقفاً » ، حقا كان يعمل ومن ورائه يعضده كل شعبه وأمته ، ولكنه كان هو وحده قوة حقيقية وكان له شخصية بارزة جذبت اليه الناس ، وقد كان موقفه فى مجمع

نيقية موقف المعارض الوحيد تقريباً للأغلبية التى وافقت على قبول أنصا
ميليتيوس أسقف أسيوط ضد إرادته وعلى الرغم من مقاومته . وكان أيضا فى
كل الحوادث التى شغلت بقية حياته الحبر الوحيد بين أحبار الكنيسة الذى
استطاع بقوة إرادته ويقينه أن يقف موقفا ثابتا لا يتزعزع أمام الأريوسيين ،
رغم ما أحرزوه من المكانة فى البطانة الأمبراطورية وعند المقامات العالية ، حتى
وفى المجامع نفسها فى تلك الأيام .

على أن التقلبات السريعة فى علاقات الأحزاب الدينية بالملوك والشعوب
مابين إقبال وإدبار أو إقصاء وإدناء ، ليست مما يدهش له ، بل أنها من الحوادث
العادية فى تاريخ الكنيسة ، ولكن العجب كل العجب أن يقاوم شخص واحد
كل رأى دينى غير رأيه ، ولا تندحر قوة إيمانه أمام أية قوة ، ولا يخضع لأية
سلطة مهما تمشت مع روح العصر دون الدين . تلك هى ميزة أثناسيوس التى
أكسبت حياته صفة خاصة جعلتها موضع كل إعجاب ، وجعلت الناس
يضربون بها الأمثال وجعلتها أكبر وأجل مثل يمكن أن يقدم للمشتغلين بالعلوم
اللاهوتية ليكون لهم فيها الأسوة الحسنة .

هذه القوة الروحية التى لا تقهر كان يساندها شىء يعلو على القوة البشرية
مهما سمت ، كان يساندها محبة المسيح التى تأصلت فيه منذ شبابه . لقد وضع
نفسه فى خدمة تلك المحبة سواء عندما كان يدافع فى حمية وقوة عن عقيدة
الثالوث أو عندما كان يؤكد حقوق كنيسته التى لا يمكن إنكارها . وهذا
مايفسر تلك الثقة التى كان يشعر بها فى نفسه دون خوف أو وجل فلم يشك
لحظة فى النصر النهائى . هذا النصر كان ينتظره من الرب ، ولكنه لم يتهاون فى
جميع العناصر المؤدية اليه . لقد جمع الحكمة والمرونة إلى القوة ، فعرف فى كل
جولاته كيف يدافع وكيف يهاجم ، وكيف يقاوم وكيف يختفى ! وكيف
يهدىء من حماس بعض أصدقائه الشديد وكيف ينهض همم الضعفاء منهم .
فخلافا لموقف لوسيفير الكاليارى من المرتدين ، عرف كيف يظهر بمظهر
المتساهل المتسامح فى أمور رآها شكلية لا تمس العقيدة فى شىء . نعى عليه
البعض أنه كان يذهب إلى حد العنف فى نضاله ، ولكن لم يكن ذلك من
طبيعته وهو القائل : « ليس الإرغام مما يتفق والدين ولكن الإقناع » .

وليس من شك فى أن المدافع عن أعمق الأسرار الإلهية يجب أن يكون ذا ذكاء خارق وقاد . كان إذا أراد ارساء ودعم عقيدة ما جمع الشواهد بعد أن يقلبها من جميع النواحى ، كما كان يرتب مستنداته بكل عناية لأجل أن يتغلب بها على أعدائه . هذا النوع من الاستعداد بواسطة الوقائع الثابتة كان مما يتوافق وذلك الفكر الإيجابى الصريح الدقيق والذى كان يعبر عما يختلج فيه بلغة هادئة ليس فيها شىء من المبالغة ، والذى كان صاحبه يكتب بترتيب ونهج خاص مؤلفات نتبين فيها دائماً البلاغة .

هذه الصفات جميعاً جعلت من القديس أثناسيوس رجلا عملياً لا يبارى ، وقد وضعها جميعاً فى خدمة أعظم الأغراض . فكان بذلك شبيهاً فى خلقه ببولس الرسول الذى كان يفتخر بأنه قد « جعل نفسه كل شىء لكل الناس » ولم يجد الزمن بشبيه لبولس أو لأثناسيوس من رجال الدين .

قال عنه العالم اللاهوتى الانجليزى ريتشر هوكر (١٥٥٤ ـــ ١٦٠٠ م) فى كتابه « النظام الكنسى » أثناء الحديث عنه عبارة نقتبسها لأنها ألمت على إيجازها بحادثات حياة أثناسيوس فى فترة كانت فيها الأريوسية دين الحكومة والكنيسة « لم يذق أثناسيوس طعم الراحة ولم ير السلام يوماً واحداً فى البست والأربعين سنة التى مضت مابين اليوم الذى ارتقى فيه الأريكة البطريركية والساعة الأخيرة من حياته فى هذه الدنيا » .

قلب له قسطنطين ظهر المجن وتقلب عليه قسطنطس فأنزل به من صنوف التعذيب والإيلام كل مااستطاعت الضغينة والحقد أن تخترعا إذا تذرعتا بالسلطان والقوة النافذة ، ثم أتى يوليانوس فكان أكثر قسوة ، وتبعه فالنس فلم يكن أقل من سلفه شراً . اتهموه بكثير من الجرائم ... حتى إذا ما سيق إلى المحاكمة كان قضاته هم متهموه .

أما الأساقفة وأئمة رجال الدين الذين كان أثناسيوس يقاتل ذوداً عن حوضهم فكان حقاً عليهم أن يأخذوا بناصره وأن يشاركوه فى الدفاع ... هؤلاء كانوا بين شقى الرحى : إذا توددوا اليه جروا على أنفسهم الويلات التى إن لم تحولهم عنه ولو ظاهرياً فلا أقل من أن تبرهن لغيرهم على خطر البقاء على الولاء له ، فلم يكن ثمة بد فى نهاية الأمر من استسلام المجموع ـــ إلا قليلا ـــ

للعوامل الدنيوية وإدبار الناس عن أثناسيوس إن لم يكن عاجلا فآجلا فكان بعضهم قادة الحملة عليه .... ولحق بهم آخرون .. ساقهم إلى التخلف عنه الخوف أو الفاقة أو أن الدنيا حلت فى أعينهم وراق لهم زخرفها فلانوا لتملق المداهنين ، ومنهم طائفة من سليمى النية وقعوا فى أشراك المغررين الخادعين . ولعل الانخداع مع سلامة النية أحسن مايلتمس من الأعذار للمارقين ... وهكذا اندفع تيار تلك الأيام الجارف فأجلى الناس قاطبة له السبيل ... إلا أثناسيوس فإنه فى تلك المأساة الطويلة الشاقة لم يفعل إلا مايخلق بالحكماء ذوى الصدور الأمينة والأحلام الرزينة أن يفعلوا ، وجرب كما هو خليق بالبررة المؤمنين أن يجربوا فيصبروا على طول المدة وشدة المحنة .

وهكذا أنقضت نصف مائة من السنين فى نضال مستمر لا يعلم الناس فيه أى الفئتين هى الغالبة ، فئة الأكثرية التى كان الكل فى جانبها أم الفئة القليلة التى لم يكن لها من صديق إلا الله عز وجل ، أم الموت الذى يقضى على أثناسيوس فتقضى معه متاعبه ..

وإن المثل اللاتينى المشهور Athanasius Contra Mundum أى أثناسيوس ضد العالم ، الذى يضرب للرجل الذى يثبت على رأيه رغم إجماع الناس على معارضته لهو من أجمل الأمثلة على أحقية الفرد فى إبداء رأيه ولو ضد الاجماع ، وعلى إمكان أن يصح حكمه دون حكم المجموع ، وليس الانفراد فى الرأى بطلاناً فيه دائماً ، كما أن القول بأن «السنة الخلق أقلام الحق» ليس صحيحاً على الدوام ، وليس الخذلان دليلا على عدم الانتصار .

كان جميع أباطرة الرومان ينظرون إلى أثناسيوس كمنافس خطير لهم فى مصر على سلطتهم المدنية ، وكان الامبراطور يوليانوس يلقبه « بالزعيم المشاغب » و « البغيض أثناسيوس » و « الثائر المتآمر المفتون » ولكن المؤرخ جيبون Gibbon الذى نقل إلينا هذه النفثات الإمبراطورية يقول لنا فى الوقت نفسه عن أثناسيوس « إنه وإن إتسم بوصمة التعصب إلى درجة ما فقد أظهر من التفوق فى الشخصية والمقدرة وسعة الحيلة وحسن التدبير ، مابرهن به على أنه كان أحق من أبناء قسطنطين نفسه بتولى أعباء تلك الدولة العظمى ، والقيام بإدارة دفة أحكامها خير قيام » .

ويعطينا غريغوريوس النازينسي أيضاً صورة مفصلة لصفات أثناسيوس النادرة حيث يقول عنه « منصف فى الثناء على المحسن وفى لوم المسىء على حسب مقتضى الحال . يهز الجليد ويحرض البليد ويقمع نخوة المتحمس ويزع جمحات المتهوس . حريص فى توقى الداء كما هو حريص فى الاستشفاء . واحد لا يتغير فى مبادئه الشريفة ، كثير الأفانين فى الطرق الموصلة لمقاصده المنيفة . حكيم فى مقالته وأكثر حكمة فى غايته . تراه إذا لم تبله فى مستوى عامة الناس ، ويعلو عند الحاجة فإذا هو أقدم الخواص حجة وأشدهم فى المراس » .

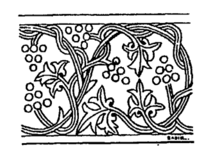
وأخيراً كتب القديس باسيليوس يصف هذا الحبر الوقور فقال : « لقد كللت السنون هامته بإكليل ناصع ... وعاش منذ الأيام التى سبقت المجمع النيقى حين كان السلام مخيما على ربوع الكنيسة حتى هذه الأيام الكاربة التى هبت فيها المشاحنات التى لا حد لها ... هذا هو صموئيل الكنيسة والحكم المبجل بين الجيلين القديم والحديث وواسطة عقدهما ، فهو الطبيب الحاذق القادر على تتبع أقصى مآتى الكنيسة تحت عبئه من الأدواء وعلى شفائها ... يقف على برجه الشامخ ومرقب حكمته فيحيط بصره بكل ماحوله ويلم بكل مايجرى فى العالم . يرى المحيط تلتطم أمواجه بجنبات سرب من مقلعات الفلك ركبت اليم، ثم أخذت تضطرب وتتكفأ من جراء أهاويل الماء الجائش خارجها من جهة ، ومايجرى داخلها من جهة أخرى — وهو السبب الأقوى — من تفريط البحارة وسوء فهمهم وتدابرهم ، ثم تهالك كل من بسفينة على إغراق إخوانه الذين بالأخرى ، أو الزج بهم إلى جانب غير مأمون»... وإنى أختتم مقالى بهذه الصورة فلا حاجة لحكمة أثناسيوس إلى غيرها ، ولا قبل لى تلقاء مصاعب الزمن بالزيادة عليها .

وربما لا يعرف عنه الكثيرون أنه كان مع سرعة خاطره ، حسن الفكاهة فى حديثه . سأله الأمبراطور قسطنطس مرة — موعزاً إليه من أعداء أثناسيوس — أن يقيم كنيسة للأريوسيين بالاسكندرية ، فأجاب على الفور « سأقيم الكنيسة لأهل البدعة بالأسكندرية إذا أقمت أنت كنيسة للأرثوذكسيين بأنطاكية » . وهكذا أفحم الأمبراطور وأعجزه عن تتبع الموضوع . ولما وقف أمام مجمع صور متهماً بقتل أرسانيوس وتقطيع يديه أبرز الجنى عليه ملفوفاً لفاً تاماً فى

حلته ، ثم بدأ يكشف وجهه سائلا متهميه « أهذا أرسانيوس الذى قتلته ؟ » . ثم أظهر إحدى يديه أولا فالثانية وهو يتهكم قائلا « ولا يسألنى سائل عن يد ثالثة له فإن خالق الكل لم يخلق لابن آدم أكثر من يدين » .

هذا هو جانب من الحديث عن هذه العبقرية الفذة الجبارة التى أهدتها مصر إلى العالم والتى تردد تعاليمها جميع المسيحيين فى المسكونة إلى إنقضاء الدهر .

(مجلة مدارس الأحد ــ يونيو/يوليو ١٩٦٥) .



الفصل الثانى

أثناسيوس ضد العالم

إذا أردنا أن نعرف تاريخ الكنيسة فى القرن الرابع من الوجهة الدينية ، أى من حيث شؤونها اللاهوتية وأحوالها الداخلية الخاصة ، فإنا نجده ممثلاً فى حياة أب الآباء أثناسيوس . وإنا لنجد أيضاً فى ترجمة حياة أثناسيوس كل مظاهر الحياة فى عصره ، ونزعات معاملات الكنيسة فى أيامه . وهى مظاهر ونزعات خاصة بذلك العصر وتلك الأيام ، تطبعها حياة أثناسيوس فى أذهاننا ، وتمثلها أمام أعيننا صورا بارزة حقيقية ، قد لا نجد أشباهها ، فى ترجمة أخرى من تراجم أبطال الكنيسة . وإن ما ارتبط بها من الحوادث الكثيرة له شأن وأثر خالد فى حياة الكنيسة ، شرقية كانت أم غربية إلى هذه الأيام ، بل وإلى انقضاء الدهر .

ولا نروم الآن سرد ترجمة هذا البابا العظيم ، لأن ذلك مما لا يسعه المقام ، ولكنا نقصر بحثنا على نقط حياته التى تصور لنا الحالة الفكرية لعصره التى أكبرها فيه معاصروه ، أو انطوت على شىء من الدروس والعظات والعبر التى ورثتها الكنيسة عنه .

يعتبر أثناسيوس أشهر أبطال الكنيسة المصرية وأعظم ممثليها ، ومازالت الكنيسة تحله هذا المحل الأسمى إلى يومنا هذا كما كان بالطبع فى أيام حياته .

وأقدم حادث فى تاريخ أثناسيوس حكاية مشهورة يستبعدها بعض المؤرخين الحديثين ، لكن كل الدلائل قائمة على صحتها ، ذلك أن القديس اسكندر بابا الاسكندرية التاسع عشر كان مجتمعاً برجال كهنوته ذات يوم فى برج عال بكنيسة دار البقر (بوكوليا) يطل على ميناء الاسكندرية ، فرأى صبية يلعبون على الشاطىء لعباً استلفت نظره لغرابته ، فأرسل إليهم بعض الكهنة ليحضروهم . فلما مثلوا بين يديه سألهم عما كانوا يلعبون فأنكروا فى بادىء الأمر ، لكنهم أقروا أخيراً بأنهم كانوا كما شاهدهم البابا يعمدون بعضاً منهم بعد أن أقاموا من بينهم أسقفاً كان يغطس إخوانه فى ماء البحر قائماً بصلاة العماد كما فى الكنائس تماماً . فأقر البابا الخدمة وأكملها بنفسه حيث رشم المعمدين

بالزيت المقدس ، وبلغ من إعجاب البابا بهذا « الأسقف » الصبى وإكباره لعلمه ورزانته أن تولى أمره بنفسه وأخذ على نفسه كفالته وأرسله إلى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية . هذا الصبى الصغير هو أثناسيوس الكبير ، وما لعبة العماد هذه التى جمعت بين الجد واللهو إلا مثالاً لخلق متأصل فى أثناسيوس شب وشاب عليه .

كان أثناسيوس ابناً لعائلة مسيحية ولد عام ٢٩٥ م وكان مصرياً صميماً ، وعندما بلغ ١٨ سنة استأذن من البابا اسكندر أن يذهب إلى البرية ليتتلمذ للقديس أنطونيوس أب الرهبان الذى كان قد ذاع صيته فى ذاك الوقت ... وفى عام ٣١٨ م أى فى سن الثالثة والعشرين استدعاه البابا الذى رسمه رئيس شمامسة له ، وظل فى هذه الرتبة عند حضوره مع البابا فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م ، وقد أبلى أثناسيوس على صغر مرتبته الكهنوتية بلاء حسناً فى هذا المجمع وناضل عن الأرثوذكسية بحدة وشدة ونور يقين أغارت صدور حساده ، كما توجته بإعجاب كل سامعيه المريدين منهم والمبغضين على السواء . وبعد إنفضاض المجمع بوقت قصير تنيح البابا اسكندر وجلس أثناسيوس على العرش الرسولى من بعده عام ٣٢٨ م . وكان البابا المتنيح قد أشار قبل وفاته إلى اختيار أثناسيوس ووافق الشعب على هذا الاختيار . نعم قد نبغ من المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية كثير من علماء اللاهوت ومنهم من تبوأ رآسة كنيسة الاسكندرية ، ولكن قد لا نستطيع أن نستثنى غير ديونيسيوس ، إذا قلنا أن أثناسيوس كان أول بابا اسكندرى ذا شخصية ومقدرة تؤهلانه على هذا الكرسى العظيم عن جدارة واستحقاق .

كانت مدينة الاسكندرية فى ذاك الوقت أقوى وأعظم مدينة فى الشرق ، وكان كرسى الاسكندرية وقتئذ هو الذى يتطلع إليه كأسمى مركز للكنيسة فى العالم ، وكنيسة الاسكندرية المركز الأعظم الوحيد للعلوم المسيحية ، وكان يعتبر عرش البطريركية القبطية — كما هو معتبر اليوم — « العرش الرسولى » أو « الكرسى المرقسى » نسبة إلى مؤسسه القديس مرقس الانجيلى . وكان خليفته الجالس على هذا العرش الرسولى يدعى « أب الآباء » ، أى « بابا » ولم يكن يكنى فى ذاك العصر بهذه الكنية غيره من الآباء الرسوليين .

وأصبح البابا الاسكندرى بعد مجمع نيقية « قاضى المسيحية فى كل العالم » تطاع أحكامه فى جميع أنحاء المعمورة المسيحية فى كل الأمور العلمية دنيويها ودينيها ، حتى قال غريغوريوس النازينسى « أن رأس كنيسة الاسكندرية هو رأس العالم » . وبقيت كل أسقفية تابعة لمصر خاضعة للبابا الاسكندرى خضوعاً لم تبلغه أية سلطة كنسية أخرى فى الغرب ، ولم يكتفِ بالاستئثار برسامة الأساقفة فى جميع أنحاء القطر المصرى ، بل كان يحرم عليهم أن يرسموا من تلقاء أنفسهم أحدا للكهنوت .

أما فى المسائل المدنية ، فقد كان مركز رئيس كنيسة الاسكندرية مركز أمير ذى سلطان وبأس ، يدلنا على ذلك ما ذكره المؤرخ الانجليزى جيبون من أن « بطريرك الاسكندرية وهو على بعد من بطانة الإمبراطورية ، وعلى رأس عاصمة كبرى تمكن تدريجياً من اغتصاب مركز وسلطة قاضى مدنى ، وأصبح حكام القطر المصرى ومديروه الرسميون ترهبهم وتثيرهم تلك السلطة الامبراطورية التى كانت لأولئك الرؤساء المسيحيين » .

ولم يكن تمثيل أثناسيوس للكنيسة المصرية مجرد تمثيل بحكم وظيفته الدينية ولكنه كان تمثيلاً واقعياً فعلياً لا شك فيه ولا غبار عليه . ففى عهده ثم ضم أثيوبيا إلى كنيسة الاسكندرية ، وكان الرهبان وأثناسيوس حليفين لا يفترقان ، وكانت مودته بأنطونيوس وثيقة العرى محكمة البناء ، ومن مؤلفات أثناسيوس ترجمة قيمة لصديقه الحميم أبى الرهبنة . ولعل منشأ هذه الصداقة أن أثناسيوس تعبد بالبرية زمناً قليلاً قبل أن يكون شماس البابا اسكندر ، وكثيراً ما قصد أثناسيوس إلى صديقه فى الصحراء ، و من فرط احترامه له وتودده إليه صب الماء على يديه كما فعل إليشع لإيليا ، وكما هى العادة الشرقية عند المبالغة فى الإكرام والاحترام ، كما أوصى الأنبا بولا بأن يدفن فى الرداء الذى كان أثناسيوس أعطاه لأنطونيوس ليكون ذلك دليلاً على أنه تنيح على ولاء لأثناسيوس ومتمسكاً بعقيدته .

كان أثناسيوس إذن يمثل الشعب الأرثوذكسى تمثيلاً لا مرية فيه ، كما كان الشعب نفسه شديد التمسك بمذهب وأراء أثناسيوس تمسكاً لم يزده كر الأعوام إلا وثوقاً ونماء . وكان من جراء هذا الارتباط المتين أن أصبحت سلطة

الحكومة الامبراطورية وأنصارها بالاسكندرية مهددة يتحداها بنو الكنيسة القبطية الوطنية . وبلغ الانفصام غايته عندما إجتمع مجمع خلقيدونية ونبذ ما كانت تعده الكنيسة القبطية بحق استنتاجاً صادقاً من عقيدة أثناسيوس . كانت الرابطة بين أثناسيوس وشعبه رابطة دينية وطنية فى آن واحد مما ساعد على جعله عدوا مرهوبا ذا بأس شديد على أعدائه ، ولا يمكننا أن نتصور فى التاريخ ملكا يستطيع فى وقت محنته أن يثق برعاياه ويعتمد على إخلاصهم قدر جزء صغير من ثقة أثناسيوس بولاء أبنى كنيسته واعتماده على كتمانهم لسره إذ أراد الاختفاء . وعندما كان يعود من منفاه كان الشعب يحتفي بعودته احتفاء عظيما ويقيم حفلات كانت أقرب إلى حفلات استقبال الملوك منها إلى استقبال أسقف قبطى .

اخوانى الأعزاء ! عندما نتحدث عن أثناسيوس لا نتحدث عن مجرد قديس مصرى ، بل عن بطل من أبطال التاريخ المعدودين ، قاوم آباء الكنيسة بأجمعهم ، وقاوم الإمبراطورية أيضاً فى ذاك الزمن ، حتى أن لترجمة حياته ميزة خاصة ومنزلة فوق تراجم غيره من القديسين فى العصور الأولى .

رأينا فيما تقدم أن أثناسيوس كان يعمل ومن ورائه كل شعبه وأمته يعضدونه ، لكن لا يغيبن عن الذهن أن أثناسيوس كانت له شخصية بارزة خاصة به هى سر قوته ، والسبب الذى حمل الناس على إتباعه وتعضيده ، فقد كان فى كل الحوادث التى شغلت بقية حياته الحبر الوحيد من بين أحبار الكنيسة شرقية وغربية الذى إستطاع بقوة إرادته ويقينه أن يقف موقفاً ثابتاً لا يتزعزع أمام الأريوسيين بالرغم من مكانتهم فى البطانة الامبراطورية وعند المقامات العالية ، حتى وفى المجامع نفسها فى تلك الأيام . فالعجب كل العجب أن يقاوم شخص واحد كل رأى دينى غير رأيه ، ولا تندحر قوة إيمانه أمام أية قوة أو يخضع لأية سلطة مهما تمشت مع روح العصر دون الدين . تلك هى ميزة أثناسيوس التى أكسبت حياته صفة خاصة جعلتها موضوع كل إعجاب ، وجعلت الناس يضربون بها الأمثال ، وجعلتها أكبر وأجل آية يمكن أن تقدم للمشتغلين بالعلوم اللاهوتية ليكون لهم فيها الأسوة الحسنى ، هذا هو الدرس الخالد الذى نتعلمه من حياة أثناسيوس ، وهو نفس الدرس الذى نستخلصه من حياة إليشع فى العهد القديم .

الفصل الثالث

القديس غريغوريوس النازينسى
الثاولوغوس (الناطق بالإلهيات)

تقديم :

فى أعيادنا السيدية ، والمناسبات الدينية الخاصة ، يقال فى كنيسة الاسكندرية القداس الغريغورى ، نسبه للقديس غريغوريوس الثاولوغوس أى (الناطق بالإلهيات) . ويعتبر القداس الغريغورى قمة فى التأمل الإلهى العميق الذى عاشت به الكنيسة سنين طويلة ، من أجل هذا رأيت أن أكتب بتدقيق عن سيرة هذا القديس الناطق بالإلهيات لأجل فائدة النفوس العابدة .

ولقد قابل هذا القديس كثيراً من المتاعب فى حياته ، وأخيراً إتهموه ظلماً أنه كان أسقفاً لثلاثة ايبارشيات ، وبذلك يكون مخالفاً لقرار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م الخامس عشر . والحقيقة أن القديس غريغوريوس كان مثلا فريداً لإحترام قوانين الكنيسة والزهد فى مناصبها الرسمية ، لذلك عندما إنعقد المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١ م لبحث شرعية أسقفيته على القسطنطينية ، كان قديسنا أول الخاضعين لقرارات المجمع مفضلا الرجوع إلى خلوته وتأملاته .

ولقد بذلت قصارى جهدى فى الرجوع لأدق المصادر التاريخية وأهمها — نفعنا الله جميعاً بصلوات القديس آمين ،

عيد السيدة العذراء
١٦ مسـرى ١٦٨٧
٢٢ أغسطس ١٩٧١

الدكتور منير شكرى
جمعية مارمينا للتاريخ الكنسى

ميلاد القديس وتعليمه :

ولد القديس غريغوريوس النازينسيعام ٣٢٨ م (فى بلدة صغيرة تدعى ارياتروس تابعة لمدينة نازينس فى اسيا الصغرى ، من والد يسمى غريغوريوس كان أسقفاً للمدينة المذكورة ، ومن والدة تدعى نونا ، وتربى تربية دينية بفضل والديه ، فأتم دراسة الكتاب المقدس فى مقتبل شبابه . وأرسله والده بعد ذلك إلى قيصرية الكبادوك ثم إلى الاسكندرية واثينا ليتزود بعلوم الفلسفة والتفسير ، مما زاده تعمقاً فى دراسة الكتاب المقدس ، ومكنه من تعلم بعض التفاسير النفيسة .

صداقته للقديس باسيليوس الكبير :

وفى أثينا تعرف بالقديس باسيليوس الكبير فإرتبط معه بصداقة ومحبة كانت مضرب المثل فى العالم المسيحى فى ذاك الوقت . وبعد أن أقام فى أثينا إثنتى عشرة سنة رجع إلى وطنه بعد أن تعاهد مع صديقه القديس باسيليوس الكبير على أن يتبعا حياة النسك بعيدين عن العالم فى الاتحاد مع الله ، فتقبل سر المعمودية استعداداً لذلك ، مكرساً حياته كلها للرب ، ويقول فى ذلك :

« إننى قدمت كل شيء لمن حفظنى لكى أكون بكليتى خاصته ، فقد كرست له جميع ما أملكه وكل مجدى وعافيتى وصحتى وعقلى وموضوعات مخاطبتى ، مع سائر الأشياء التى حصلت عليها من نجاحى وثمار أتعابى ، وكل ما أحتقرته ورفضته ، مفضلاعليها، بل على الموجودات بأسرها ، يسوع المسيح . وقد تعبت كثيراً ، ولكنى أهذب روح الغيظ ، وأضبط اللسان فى حدوده ، وأرتب نظرات عينى ، وأحفظ رسوم القناعة ، وأدوس برجلى مجد العالم بأجمعه » .

رسامته كاهنا لمساعدة والده :

ثم يتذكر قديسنا والده الشيخ ومايحمل من أعباء ، فيرجع لعائلته ليؤدى لها بعض الخدمات فيقول « من حيث أننا بعد العبادة والطاعة والاحترام الواجب علينا لله ، يوجد إلتزامنا الأول نحو إحترام من إتخذنا عنهم الوجود والذين صيرونا أن نعرف الله » ، ثم ذهب إلى حيث كان صديقه باسيليوس منفرداً فى

إقليم نيط ، فإنضم اليه فى حياته التأملية ، ولكنه إضطر إلى الرجوع لنازينس إذ كان قد حدث انشقاق كبير فى ايبارشية والده الذى كان قد وقع على قانون إيمان مجمع ريمينى الأريوسى . فسوى هذا الخلاف ، إذ تراجع والده عن توقيعه عن إقتناع واتحدت الرعية مع راعيها . وعندما هم قديسنا بالرجوع إلى حياة النسك ، أعرب له والده الشيخ عن شدة الحاجة إليه ورجاه أن يمكث معه وحتم عليه قبول درجة الكهنوت دون أن يعطيه مهلة لأبداء رأيه وقد كان له ذلك بمثابة مفاجأة غير مستعد لها ، إذ كان يرى نفسه عاجزاً عن إتمام واجبات هذه الرتبة التى تستلزم علوما سامية ، وفهماً عميقاً مع قداسة كلية فى كل من يرتقى إلى علو مقامها ، فلأجل أن يعد نفسه إعداداً أفضل لخدمتها رجع إلى القديس باسيليوس فى إقليم نيط ، ولكن توسلات والده فى طلبه الزمته بالرجوع خضوعا لواجبات الطاعة له كأب وكرئيس دينى ، مؤملا فى الجود الإلهى أن يكافئه عن قهر إرادته وطاعته السريعة لأبيه ، بأن يمنحه النعم الضرورية للقيام بالتزامات درجة الكهنوت .

كان رجوعه سبب تعزية كبيرة للشعب ، الذى كان يتوق كثيراً إلى سماع كلمة الله بما اشتهر عنه من بلاغة عجيبة وفصاحة مذهلة ، التى قدمها عند قدمى يسوع ، والتى اعتبرت من سماته الخاصة مستخدماً إياها فى كل ما يؤدى إلى البناء . ونظراً لأن الكثيرين كانوا يتحدثون عن مقاومته للرسامة ، ثم عن هروبه بعد رسامته ، فقد رأى من الصواب أن يبرر نفسه مما قيل عنه فى هذا الشأن بغير أساس ، موضحاً ما كان يشعر به من رهبة أمام سمو واجبات هذه الدرجة ، وكان مما قاله فى ذلك :

« من حيث أن الله نفسه قد صير أن تكون درجة الكهنوت فيما بين المسيحيين جليلة ومتميزة بعلامات الشرف والاحترام فهكذا يلتزم الكاهن من جهة أولى أن يمنع عنه كل تلك الموضوعات التى يمكنها أن تسبب الشك فيه ، فلا يترك لأى إنسان مجالا للشك فيه على الأطلاق . ومن جهة أخرى يلزمه أن يكون معاف من كل مايمكن أن يكون فيما مضى وجد فيه من شائبة » . ويستطرد فيقول « يلزم أن يكون الكاهن بعيداً عن كل رذيلة ، لأن ذاك الشىء الذى يوجد فى شخص عادى صغيراً لا بأس منه ، يكون فى شخص راعى النفوس باهظا وخطرا ، لسبب أن نقائص الراعى يتمسك بها الشعب بكل

سهولة ، بخلاف ما يتمسك بفضائله مهما كانت سامية ، لأن الذى يختص بوظيفته يجب أن يكون واسطة فيما بين الله والبشر كما هو الكائن ، فيحتاج بالضرورة أن يكون قد أمات آلامه جميعها ، وأن يكون بقدر ماهو ممكن للإنسان الحامل للضعف البشرى ، ماهراً متروضاً فى مصادمة السهام التى ترشق فى الحرب ، ويضعها اللحم ضد الروح ، ثم يلزم أن يكون قلبه مشتعلا بنار الحب الإلهى ، ويوجد متفقهاً فى أعظم أسرار الكتاب المقدس . ويكون بارعاً فهيماً فى أسمى قواعد الديانة » .

بهذه الصورة لبث القديس غريغوريوس مساعداً لوالده فى مهمات واجبات الأسقفية مدة من الزمن ، وكان يباشر مهمة الوعظ ككاهن بسيط ، وبواسطة دعته وعذوبة ألفاظه وفصاحته اجتذب الكثيرين ، وكان ذلك عام ٣٦٤ م .

رسامته أسقفا على سازيما :

واظب قديسنا على الخدمة لوالده وايبارشيته دون كلل ، وكان القديس باسيليوس قد رسم رئيساً لأساقفة كرسى قيصرية الكبادوك ، وقد رأى أن ينشىء كرسى أسقفية جديدة فى بلدة صغيرة تدعى « سازيما » لها أهمية خاصة بالنسبة لبعض الموارد العينية لكرسيه ، ولم ير من يركن إليه فى هذه الأسقفية خيراً من صديقه القديم غريغوريوس الذى أبى بشدة قبول هذه الرسامة وحدثت بينهما مكاتبات ومراجعات فى هذا الشأن ، وأخيراً التجأ باسيليوس إلى والده ليحثه على قبول الرسامة ، وكادت تنثلم بينهما أواصر الصداقة ، واستعمل الوالد نفوذه ، فخضع له غريغوريوس مكرهاً ، وفى ذلك يقول « لقد أحنيت هامتى لا قلبى لقبول هذه الدرجة » ، وعندما هم بالذهاب إلى ايبارشية (سازيما) بعد رسامته ، تصدى له جند الامبراطور فالانس الأريوسى بإيحاء من الأسقف انتيموس منافس باسيليوس مدعياً أنها تدخل فى حدود إيبارشيته ، فرجع غريغوريوس دون أن يباشر أى طقس هناك ، وذهب لينفرد فى قرية صغيرة خادما لجمهرة من الفقراء فيها .

رجوعه لمساعدة والده :

ولكن والده الذى كان قد ناهز المائة من عمره لم يتركه فى وحدته طويلا ، بل دعاه ليساعده فى خدمة ايبارشية نازينس ، فأطاع وترك عزلته مرغماً ،

وكان أول عمل له أن أعلن لشعب نازينس أنه إنما قدم بصفة مساعده لوالده فقط ، دون أن يطمعوا بدوام هذه الخدمة ، ورقد والده فى الرب عام ٣٧٩ م .

هروبه من رسامته على أسقفية غير أبرشيته :

وأراد أن يرجع إلى انفراده ، فحث الأراخنة على إنتخاب أسقف جديد خليفة لوالده ، ولما رأى تباطأهم فى ذلك خرج سرا من نازينس ، وذهب إلى دير القديسة تكلا فى سلوقية من اقليم إيزوريا ، وهناك انفرد متوحداً مواظباً على التأمل فى الكتب الإلهية مدة نحو ست سنوات .

ذهابه للقسطنطينية لمحاربة الأريوسية :

كانت كنيسة القسطنطينية فى ذاك الوقت فى حالة يرثى لها ، إذ تنتشر فيها الأريوسية ، وخالية من راع أرثوذكسى يعتني بتضميد جروح جسدها الذى مزقته الذئاب الخاطفة ، لذلك أجمع فلول الأرثوذكسيين فى تلك المدينة ، أن يجمعوا صفوفهم تحت رعاية قديسنا ، وبعد مكاتبات كثيرة وإلحاح مستمر قبل أن يقوم بخدمتهم ، بشرط أنه متى حصلت تلك المدينة على راع شرعى قادر على سياستها فهو يكون معتوقا مباشرة من تدبيرها .

ذهب إلى القسطنطينية عام ٣٧٩م، اختارته العناية الإلهية كموسى آخر ليخلص شعب تلك المدينة العظيمة — رأس ممالك الشرق — فى ذاك الوقت من ظلام الأريوسية أو كداود ثان ليحارب جليات الجبار المتكبر ، ويصف نفسه فى وسط تلك المدينة وشعبها فيقول « أنه كان أمراً مذهلا أن يشاهد رجل حقير جداً ، أعين عظماء العالم ، وهو من طائفة غريبة ، مولود فى بلدة صغيرة » وكان إلى ذلك الوقت مختفياً فى الوحدة ، فى جانب مهمل من جوانب الأرض ، متقدماً فى السن ، نحيف الجسم ، برأس منحن ، ووجه فاقد البهاء ، فى ضمور من قبل الإماتات والتقشفات وسكب الدموع ، يرتدى أثواباً رثة خالية من جنس الفضة والذهب ، فقير مسكين ، يتخذ على ذاته محاربة الهراطقة المنتصرين ، والمؤيدين والمعضدين ، من أناس عظماء مقتدرين ، متصفين بالجاه والكرامات والسطوة والسلطة العامة ، أغنياء منتفخين من الكبرياء والادعاء بالعلوم الكاذبة ، حاصلين على كل الوسائط البشرية لتأييد آرائهم ، غير أن قديسنا الذى كان فى الظاهر فاقداً كل معونة

وواسطة بشرية ، قد كان باطنياً غنيا بمواهب سامية ، أى بتعمقه فى أعظم أسرار الكتاب المقدس .

بداية خدمته فى القسطنطينية :

بدأ بانشاء كنيسة صغيرة فى منزل أحد أقربائه ، والتف حوله الأرثوذكسيون تجذبهم إليه فضائله المعروفة وعلى الأخص بلاغته العجيبة . واذا بكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية التى كانت مضطهدة طوال أربعين عاما بواسطة المؤامرات والقوة تنهض فى تلك الكنيسة المتواضعة ، ولذلك دعاها غريغوريوس كنيسة القيامة (انستاسيس) ، وهناك بين عظات كثيرة ، ألقى عظاته الخمسة عن الثالوث المقدس التى تعتبر من أدبيات اللاهوت اليونانى ، والتى أكسبته لقب (الثاولوغوس) أى الناطق بالإلهيات ، ويقول قديسنا « أن كنيسة انستاسيا قد أنهضت إلى حياة جديدة تلك الحقائق الدينية ، التى كانت قد إحتقرت فينما سلفاً بقدر كبير ، فهى المكان الذى فيه إكتسبنا الأنتصار ، وهى أضحت شيلو الجديدة التى فيها تابوت عهد الرب وجد موضوعاً براحة بعد جولاته فى التيه مدة أربعين سنة » وقد تدفق عليها الجمهور أكثر من كنائس الدولة ، فاغتاظ الأريوسيون ، ففى ليلة عيد القيامة عام٣٧٩م قام جمهور منهم صاخب من كنيسة القديسة صوفيا ميمما شطر كنيسة انستاسيس حيث كان غريغوريوس يعمد الموعظين ، فقذفوا المصلين بالحجارة ، وأصاب بعضهم غريغوريوس ، وتوفى آخر ، واعتبر غريغوريوس مسئولا عن هذا الهياج ! وقدم للمحاكمة .

القانون رقم ١٥ من مجمع نيقية

يعتبر آباء الكنيسة أن المجامع المسكونية المقدسة المعترف بها من أهم مصادر التعاليم والأنظمة المكملة للكتب المقدسة والتقاليد ، فالقرارات التى يصدرها عدد كبير من الأساقفة المجتمعين من أنحاء العالم المسيحى بعد مناقشة دقيقة واتفاق جماعى ، لها فى واقع الأمر قوة كلمة الوحى ، وكانوا وفى مقدمتهم أمثال أثناسيوس وباسيليوس الكبير وكيرلس وغيرهم يكنون لقوانين مجمع نيقية المسكونى الأول احتراماً عميقاً ، وكان القديس باسيليوس الكبير ــ الذى يقال قداسه يومياً على مذابحنا ــ يصرخ بأعلى صوته أن ال ٣١٨ أسقفاً الذين

اجتمعوا فى تلك المدينة كانوا ينطقون فى قراراتهم بإلهام الروح القدس ، وأن من أعظم أمجاد أى أسقف أن يكون وريثاً لعقيدتهم ، وأن قانون إيمان ذلك المجمع هو القانون العظيم القاطع . وبلغ من شدة احترامه لتعابيره أنه لم يكن يجرؤ حتى على تغيير ترتيب الكلمات فيه . وكان الفخر كل الفخر فى جميع قرارات هذا المجمع على وجه التقريب لكنيسة الاسكندرية التى أرسلت فى شخص أثناسيوس الشعلة المضيئة لهذا المجمع . وحافظت كنيستنا على تقاليد الآباء ، فنقرأ فى المجموع الصفوى فيما يجب على البطريرك أن يحافظ عليه « حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما ثبت عند الإجماع من أقوال الرسل ، ثم المجامع المقبولة » ومن أهم قرارات مجمع نيقية هو القانون الخامس عشر الذى جاء نتيجة تجارب ونظرة بعيدة إذ يقول « إنه من كثرة السجس والتشويش والمشاجرات الحادثة ، لقد استبان لنا أن نرفع بالكلية تلك العادة الواقعة بخلاف القانون فى بعض النواحى ، وهو أنه لا ينتقل أسقف من مدينة كرسيه إلى مدينة أخرى » .

الامبراطور يريد تعيين غريغوريوس أسقفاً للقسطنطينية :

عندما أراد الامبراطور ثاؤدوسيوس الكبير اختيار غريغوريوس لكرسى القسطنطينية ، عوضاً عن ديموفيلوس الأريوسى ، استجابة لتضرعات الأكليروس والشعب ، ذهب بصحبته يوم ٢٦ نوفمبر سنة ٣٨٠ م إلى كنيسة القديسة صوفيا فى وسط احتفال كبير . وبينما كان الإمبراطور يأخذ مكانه المعد له ، توغل غريغوريوس إلى شرقية الكنيسة وجلس بجوار كرسى الأسقفية ، وتصاعدت الأصوات « غريغوريوس أسقفاً ! » ولكن غريغوريوس ظل فى مكانه صامتاً حائراً ، مما لفت إليه نظر الامبراطور ، وقام أحد الأساقفة الحاضرين وبدأ صلاة القداس نيابة عنه « عن كتاب دوشين » .

مجمع القسطنطينية يبحث شرعية تعيين غريغوريوس أسقفا لها :

وقابلته بعد ذلك مشقات ومتاعب كثيرة وهو يقوم بواجباته فى كنيسة القديسة صوفيا ، وفى إحدى المرات تعرض للاعتداء على حياته ، وظل ينتظر الوقت الذى يتوطد فيه مركزه بصفة نهائية ، أو بعبارة أخرى يبت فى أمره ، عندما يجمع الامبراطور مجمعاً مسكونياً يكل إليه بصفة نهائية مهمة البت فى

مسألة أسقفية القسطنطينية . وكان المفروض أن مسألة الموافقة على تعيين غريغوريوس فى هذا المنصب مسألة شكلية ، فقد قبل رسامة الأسقفية من باسيليوس رغما عن إرادته ، وكان معروفا لدى الجميع أنه لم يتبع هذه الرسامة أى قيام بمهامها الرسمية ، بل استعملت قوة الجند ضد أسقف (سازيما) الذى أحتج لعدم تمكينه من القيام بوظيفته . أما إذا كان قد قام بمهام الأسقفية فى نازينس فإنما كان ذلك لمعاونة والده المسن ، ولكن لم يكن أسقفا لها ، ولكن ذلك لا يستطيع لأحد القول بأنه قد انتقل من كرسيه إلى كرسى آخر ، لقد أتوا به إلى كرسى القسطنطينية من وحدته وليس من أسقفية أخرى . كان كل ذلك واضحا وضوح النهار

قرارات المجمع بتنحية غريغوريوس وتعيين نكتاريوس :

ولكن بالرغم من أن غريغوريوس رأس مجمع القسطنطينية الثانى المنعقد عام ٣٨١م لبحث هذا الموضوع وبالرغم من صداقته للبابا تيموثاوس بابا الإسكندرية الذى حضر ذلك المجمع مع عدد من أساقفته ، وبالرغم من قداسة غريغوريوس المشهود لها من الجميع ، فلم يستطع هذا المجمع أن يمس قانونا من قوانين مجمع نيقية المقدس ، وكان فى ذلك ينظر إلى بعيد ، إلى تثبيت قواعد الكنيسة على تقاليد ثابتة لمنع الشقاق على مر الزمن ، فحكم بتنحية غريغوريوس عن كرسى القسطنطينية وفقاً للمادة ١٥ من قوانين مجمع نيقية ، واختار بدلا عنه موظفا مدنياً من أهالى القسطنطينية يدعى نيكتاريوس ، ولم يكن قد عمد بعد فعمدوه .

أنتخابه أسقفا لنازينس بدلا عن والده :

إغتبط قديسنا لهذا القرار الذى أتاح له العودة إلى وحدته المحبوبة . واستأذن الامبراطور فى السفر ، وذهب إلى نازينس التى كانت فى ذاك الوقت بدون راع ، فإجتهد فى انتخاب اسقف لها ، ولكن لم يمكنه ذلك طوال عامين ، فحمل العبء إلى أن رسم لها عام ٣٨٣ م من يدعى إقلاليوس رجلا فاضلا .

رجوع القديس للوحدة والتأليف :

وحينئذ انفرد فى اريانزوس بلدة مولده ، وهناك قضى مع بعض النساك بقية أيام حياته ، حيث ألف رسائل عديدة ضد الأريوسيين وغيرها من الهرطقات ، وتنيح فى سلام عام ٣٩٠ م، ونقل جسده من القسطنطينية إلى روما حيث دفن فى هيكل خاص فى كنيسة القديس بطرس . صلواته تكون معنا ومبادؤه تكون هداية ومرشداً للجميع .

مراجع الكتاب

1- Duchesne : Histoire ancienne de l'Eglise.
2- S.Cheetham : Church history-Early period.
3- Jean Daniélou : The Christian Centuries.
٤ ـــ الكنز الثمين فى أخبار القديسين لمكسيموس مظلوم .

الإسكندرية لمراسل وطنى :

فى عشية ذكرى السيدة العذراء حالة الحديد بكنيسة القديسين المكرمين مارجرجس والأنبا أنطونيوس بمحرم بك التابعة لوقف الشهيد المكرم مارمينا العجايبى بمريوط . شهدت الكنيسة جمهورا غفيرا للاستماع إلى محاضرة الأستاذ الدكتور منير شكرى عن القديس غريغوريوس الثاولوغوس أى الناطق بالالهيات والمشهور بالنازينزى وقد قام بتلاوة انجيل العشية راعى الكنيسة القس صرابامون نجيب .

(وطنى ٤ /٧/ ١٩٧١ م)

الفصل الرابع

بمناسبة صوم السيدة العذراء

القديس كيرلس الكبير و « آل ثيوتوكوس »

بعد رحيل القديس أثناسيوس الرسولى بابا الأسكندرية العشرين ، قيض الرب للكنيسة الجامعة الرسولية عاموداً آخر من عمد الدين ، هو القديس كيرلس الكبير بابا الأسكندرية الرابع والعشرون (٤١٢ ــ ٤٤٤ م) . وجاء فى وقت عصيب ظهرت فيه هرطقة (النسطورية) ، وكان عالماً لاهوتياً من الطراز الأول ، ويعتبر أعظم شراح عقيدة « التجسد » . كان نشيطاً وذا مهابة . .

ولايتسع المجال هنا لشرح بدعة النسطورية التى إبتدعها نسطور بطريرك القسطنطينية ولكنا نكتفى بأن نذكر أنها كانت تستهدف تجريح لفظ« الثيوتوكوس » وهى كلمة يونانية معناها« والدة الأله » ، وتنبه هو لخطورة هذه البدعة فأخذ يقاومها .

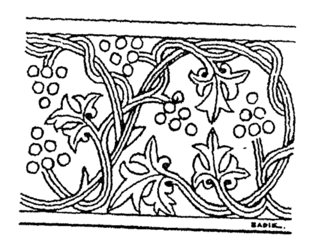
ظن بعض الأساقفة أن ذلك النقاش مظهر من مظاهر التنافس بين كرسى الأسكندرية والقسطنطينية ، إلا أنهم سرعان ما تبينوا خطورته فدعا الإمبراطور إلى عقد مجمع مسكونى فى أفسس عام ٤٣١ م لحسم موضوع النزاع . وإنعقد المجمع برآسة القديس كيرلس الكبير وحكم بحرم نسطور وبدعته ، وإذ بالشعب المسيحى فى تلك المدينة يظهر فرحته بما ثبته المجمع من حقوق للعذراء مريم ، فيحيط الأساقفة بالمشاعل والمظاهرات البهجة أثناء ذهابهم إلى منازلهم عائدين من المجمع . هذه القرارات التى أصدرها مجمع أفسس هى أحد المعالم الهامة فى تاريخ الكنيسة ، وذلك التكريم الذى أولاه للعذراء ولإبنها يبهج قلوب المسيحيين . والكنيسة ستذكر إلى الأبد ذلك العمل العظيم الذى قام به القديس كيرلس الكبير .

وكانت تعاليم البطريرك نسطور المتصفة بقصر النظر والسطحية سبيلاً لتوضيح بعض الحقائق الأساسية لإيماننا ، وكانت لنا نحن مسيحى القرن العشرين بمثابة النور الذى يضىء الطريق .

وقد خلدت كنيسة الأسكندرية ذكرى ذلك المجمع بمقدمة لقانون الإيمان مطلعها « نعظمك يا أم النور الحقيقي ... » .

وأما نساك مصر فقد أقاموا أربعة صروح ملحقة بالأديرة الأولى الأربعة بوادى النطرون وهى أديرة البراموس والأنبا بشوى والأنبا يؤانس القصير ، وأبو مقار ، ليجعلوها ذكرى خالدة لتمسكهم بعقيدة وتعاليم كيرلس وأسموها أديرة « الثيوتوكوس » ، ولم يبق منها اليوم سوى ديرين ، دير « السيدة » البراموس ودير « السيدة » للسريان الذى كان يسمى دير « السيدة للأنبا بشوى » .

(وطنى ٢١ /٨/ ١٩٦٦)



الفصل الخامس

القديس كيرلس
من أمجاد كنيسة مصر : بابا الاسكندرية الـ ٢٤ (٤١٢ــ٤٤٤ م)
معلم الكنيسة الجامعة وعامود الدين

فى اليوم الثالث من شهر ابيب المبارك ، الذى يوافق ١٠ يوليــــو ، تعيد كنيسة الاسكندرية ذكرى نياحة كوكب من المع كواكبها ، وبطل من أعظم ابطال الكنيسة الجامعة ، ولاهوتى من اسمى اللاهوتيين علما وطهارة .

لا نعرف شيئا عن طفولة تلك الشخصية الفذة سوى ماقصه علينا المؤرخ يوحنا النقيوسى ، أسقف نقيوس (زاوية رزين الآن بجوار منوف) ، الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع ، وبمقتضاه نعلم ان القديس ثاوفيلس بابا الاسكندرية الثالث والعشرين تيتم فى طفولته هو واخت له ، وكانا من عائلة مسيحية فى مدينة ممفيس ، فقامت بتربيتهما خادمة اثيوبية وثنية كانت بالمنزل ، وأرادت أن تدخلهما معبد ارتميس وابولون فاذا بالاصنام تقع ارضا وتنكسر ، فهربت بهما خوفا من انتقام الكهنة الى نقيوس ، ولكنها لم تطمئن ايضا هناك خوفا من أن يسلموهما للكهنة : فانتقلت إلى الاسكندرية . وبالهام سماوى أخذتهما الى الكنيسة للتعرف على طقوس المسيحيين ، وهناك كشف الرب للقديس اثناسيوس عن ماهية هذين الطفلين ، فبعد انتهاء القداس توجه اثناسيوس الى الخادمة الاثيوبية وسألها « لماذا فعلت ذلك ؟ ولماذا لم تساعدك الالهة الخالية من الحكمة بل وقعت وانكسرت ؟ من هذه اللحظة صار هذان الطفلان يمتان إلىّ » ، دهشت الخادمة من هذه الأقوال التى دلت على أن هذا القديس قد كشف سر ما اقدمت عليه ، فارتمت عند قدميه وطلبت منه سر العماد ، فعمدهم جميعا ، فاضاءت النعمة قلوبهم وولدوا ولادة ثانية ! أما الفتاة فقد ارسلها الى دير للراهبات حيث تربت الى ان تزوجت من شاب من أهل (المحلة) التى كانت تسمى فى ذاك الوقت بالقبطية (تيشيرى) ، وهناك ولد كيرلس كوكبنا الذى اضاء على العالم المسيحى اجمع بتعاليمه والذى وقد حل عليه الروح القدس تولى الباباوية بعد خاله القديس ثاوفيلس ، اما المحلة فقد دل بحث بعض المؤرخين انها (المحلة الكبرى) ، التى كانت فى ذاك الوقت

احدى المدن المسيحية الهامة وكانت اسقفية حتى القرن الثامن عشر ، عندما تضاءلت كنيستهم الى درجة ان مسيحييها كانوا يذهبون فى الاعياد الكبرى للصلاة فى كنيسة سمنود القريبة منهم .

تربية مسيحية

ولد كيرلس حوالى ٣٧٦ وتولت والدته تربيته تربية مسيحية سامية محورها دراسة الكتاب المقدس ، وتلقفه بعد ذلك علماء اللاهوت فى مدرسة الاسكندرية وعلى رأسهم ديديموس الضرير ، ويقال أنه ذهب أيضا الى أثينا بعض الوقت ، ثم رجع ليمضى ردحا من الزمن فى جامعة آباء البرية ، حيث تتلمذ لإيسيذوروس الفرمى وغيره من آباء النسك فى ذاك الوقت .

ونجده عام ٤٠٥م بجوار خاله يعمل شماسا له ويساعده فى الكثير من أعمال البطريركية ، فكان اداريا منظما واسع الافق ، نشيطا ، لديه شعور عميق بالواجب . واذا كانت العناية الالهية قد اختارت سلفه أثناسيوس ليدافع عن لاهوت السيد المسيح له المجد ، فقد ارسلته هو بصفته المعلم الاكبر الذى كان عليه ان يدافع عن وحدة اقنومه وطبيعته . وقد كان قبل كل شيء لاهوتيا ، بل اعظم لاهوتي انجبته الكنيسة عامة بعد اوريجانوس ، وقد تخصص فى « سر التجسد » .

٣٦ سنة

وعند نياحة البابا ثاوفيلس فى ١٥ اكتوبر ٤١٢ ، أجمع سكان الاسكندرية على إنتخابه رغم معارضة السلطات المدنية ، فانتخب فى اليوم الثالث لنياحة خاله ، وكان عمره حينئذ ٣٦ سنة ، وكأن العناية الالهية قد اعدته اعدادا تاما للقيادة . لقد كان شخصية فريدة ، لها جلد على القيام بالمهام الجسيمة وعلى خوض المعارك ، يتملكه شيء من الاعتداد بالنفس الذى قد يصل الى درجة الصلابة فى الرأى ، والذى قد يكون ورثه عن عائلته ، ولكن يرجع الفضل الى خاله فى اظهاره وتنميته ، كان الرئيس الاعلى بلا منازع لجميع كنائس مصر ، و إن فى لقب فرعون الذى أضافه إليه بعض المؤرخين مايوضح ماكان له من سطوة وقوة وماكان فى اخلاقه من صرامة ، لم يكن بالشخص الذى يتنازل عن أى حق له ، كما لم يتردد عن مهاجمة كل من تسول له نفسه أن ينال أو يغير من

العقيدة التى تسلمتها الكنيسة . ولكن كل ذلك لم يمنعه يوما ما — تماما مثل مافعل اثناسيوس من قبل — من أن يقبل اليه الكنائس الاخرى المناهضة له عندما رجعت إلى الحق وقبلت تعاليمه .

النشاط المتدفق

كان النشاط المتدفق من أهم صفاته ، نتبينه منذ اللحظة التى جلس فيها على كرسى القديس مرقس ، كما نتبين جماع صفاته من مؤلفاته ، وهى من اغزر ماتركه لنا آباء الكنيسة وتتجلى فيها عبقريته ، كما ترينا أن خليفة القديس اثناسيوس لم يكن رجل عمل فقط ، بل كان أيضا كاتبا غزير المادة ومفكرا من الدرجة الاولى . نتبين من إسلوبه انه كان استاذا فى فن النقاش ، اذ كان قويا ودقيقا قاطعا . وتتميز كتاباته بذلك المكان الهام الذى يحتله فيها السيد المسيح له المجد ، فالاله الانسان هو محور تفكير كيرلس الذى كان مستعدا تماما للدفاع عن العقيدة التى تسلمتها الكنيسة فى هذا السر ، وليس النقاش هو الذى زاد من علمه عن السيد المسيح له المجد ، ولكن العلم والثقافة اللذين كانا يتحلى بهما هما اللذان قذفا به الى ذلك النقاش العقائدى ، والذى كان يدور على التجسد وحقيقته . هذه الثقافة كان أساسها الكتب المقدسة كما كانت تشرحها مدرسة الاسكندرية ، وكان أهم ماجذبه فى العهد الجديد انجيل يوحنا ففسره على ضوء عقيدة الثالوث التى كان لها ركنا هاما فى تفكيره، كانت ولايته كلها جهاد . جهاد ضد الهراطقة وضد الوثنيين وضد اليهود .

كانت أهم هرطقة فى بداية عهده (النوفاسية) ، كان نوفاسيوس الهرطوقى من قرطاجنة وكان ينادى برفض توبة جاحدى الايمان ، كما لا توبة للخطايا التى ترتكب بعد سر العماد ، وكانوا يحرمون ايضا الزواج الثانى . ولقد بين لهم قديسنا تفاهة هذه الهرطقة التى تجعل الله جلت رأفته عديم الرحمة وخيرهم بين امرين أما أن يرجعوا عن هرطقتهم وأما أن يخرجوا من المدينة ، ولكنهم ظلوا مصرين على تعاليمهم فأخذ منهم كنائسهم وطردهم وهرب اسقفهم تاوبيتموس فنجت من هذا الوباء مصر كلها لا الاسكندرية فقط .

اليهود والوثنيين

اما اليهود الذين سعوا لدى الحكام والولاة بالرشوة ، وافسدوا ضمائرهم بالهدايا ، فقد انتصر عليهم قديسنا بغيرته وقوة ارادته واخرجهم جميعا من المدينة وهدم كل مجامعهم . وتلفت بعد ذلك نحو الوثنيين الذين كانت فلولهمَ تقطن ضاحية ابى قير ، فقد كان بجوارها فى ضاحية مينوتيس معبد للألهة ايزيس ، وكان الوثنيون يدعون أن عجائب ومعجزات كثيرة تجرى فيه ، وحتى اولئك الذين اعتنقوا المسيحية حديثا كانوا يشاركونهم هذا الاعتقاد ، فرأى فى هذا المعبد خطرا على رعيته وعلى الايمان ، فقام ينفذ امنية كانت لدى البابا ثاوفيلس حالت نياحته دون تحقيقها ، لذا بنى بجوار هذا المعبد كنيسة فخمة كبيرة نقل اليها من كنيسة القديس مرقس بالاسكندرية جسدى الشهيدين اباكير ويوحنا فى احتفال مهيب ، فهجر المعبد وتكسرت تماثيله وغطته بعد ذلك الرمال عندما تهدم . واشتهرت كنيسة اباكير ويوحنا بما كان يجرى فيها من معجزات .

وبعد عام ٤٢٨م هدأ من هذا الجهاد ، وعكف على الكتابة كما أشرنا . ويخبرنا أبو البركات شمس الرياسة ابن كبر فى كتابه (مصباح الظلمة وايضاح الخدمة) ان « القديس كيرلس الكبير بطريرك الإسكندرية له قداس السرائر ويقال انه أخذ قداس القديس مرقس السايح وكمله . وتكميلة القداس بأجوبة الشماس وأوشية البطريرك لا غير .... وجرت عادة المصريين ألا يقدسوا بقداس مرقس الذى كمله كيرلس الا فى الصوم الكبير وشهر كيهك » .

أما مؤلفاته فكان هذا المحارب الجبار كان يعد أسلحته للمعارك الجديدة التى كانت تنتظره . ففى عام ٤٢٨م جلس على كرسى القسطنطينية الأسقف نسطور الذى بدأ ينكر على السيدة العذراء مريم لقب « الثيوتوكوس » الذى كان سائدا فى الكنيسة الأرثوذكسية، فما أسرع أن إنبرى له كيرلس يعطى للكنيسة الجامعة اشارة الخطر كما يفعل الحارس عند اقتراب العدو . وبدأ فارسل رسائل الى نسطور ينبهه بمحبة أخوية الى خطورة تعليمه ، فكانت اجوبة الاخير — الجالس طبعا على كرسى رومية الجديدة ! — كلها عجرفة ومكابرة . واصر

نسطور على رأيه وزاد تكبرا ووقاحة فى ردوده على كيرلس محتقرا أياه ومزدريا رأيه .

كان موقف اللاهوتى فى ذاك الوقت الذى تفشت فيه الهرطقات داخل الجماعات المسيحية هو موقف عدم التساهل ، ليس فقط فيما يمس الايمان الارثوذكسى — وهذا أمر طبيعى — بل وفى التعبير عن هذا الايمان . ولذلك لم يتردد كيرلس فى أن يبعث الى نسطور برسالة فيها اثنا عشر تعبيرا عن الايمان حتمها بحرم من لا يقبلها . فاذا بنسطور يسعى لدى الامبراطور بكيرلس مبينا له أنه هرطوقيا . وكان يوحنا بطريرك انطاكيا يناصر نسطور ، أما أسقف روما فقد أرسل إليه كيرلس يشرح هرطقة نسطور فإنحاز الى جانب كيرلس . لم يجد الإمبراطور بدا بعد ذلك من دعوة مجمع مسكونى حضره مائتا أسقف وانعقد فى افسس عام ٤٣١ م ورأسه كيرلس . وقد حكم المجمع برأى واحد وفى اول جلسة له بعزل نسطور « يهوذا الجديد » . وقد نفاه الامبراطور بعد ذلك .

أهم مؤلفاته

أما كيرلس فقد رجع بعد انتصاره الى الاسكندرية فى ٣٠ اكتوبر عام ٤٣١م وعاش بعد ذلك فى سلام كان يستحقه بعد ذلك الجهاد . وتنيح فى اليوم الثالث من ابيب عام ٤٤٤ م .

ومن أهم مؤلفاته كتب ضد النسطورية وتفاسير للكتاب المقدس ورسالة ضد يوليانوس المرتد ، نرى فى كل ذلك كيرلس لاهوتيا من الطراز الاول ، كما نتبين عقيدة متينة قوية مستمدة من الكتب المقدسة بيد معلم . كان تفكيره متزنا وعميقا وارثوذكسيا خالصا .

(وطنى ١٦ /٨ /١٩٧٠)



الفصل السادس

بمناسبة الكشف عن آثار النوبة المسيحية

البابا تيودوسيوس
(٥٣٦ــ٥٦٨ م)

من المؤسف أن جمهرة الذين كتبوا عن تاريخ كنيسة الإسكندرية بالعربية توقفت كتاباتهم وأبحاثهم عند مجمع خليقدونية ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن تاريخ تلك الكنيسة فى الفترة بين ذلك المجمع المشئوم والفتح العربى ، مع أنه تاريخ عظيم مشرف حافل بالجهاد الشعبى وبعظماء الرجال . وقد سلط عليها فى تلك الفترة أباطرة الرومان كل ما فى جعبة السياسة من مكر ودهاء ، وأردفوه بوسائل العنف المختلفة التى بلغت ذروتها فى عهد البطريرك الملكى أبوليناس الذى دبر مذبحة لشعب الإسكندرية؛ مثل تلك التى دبرها محمد على للمماليك .

وعندما يتصفح القارىء فى أيامنا هذه الجرائد والمجلات ويقرأ عن الكشف عن آثار مسيحية وكنائس فى بلاد النوبة لابد أن يتساءل : متى بُشرت بلاد النوبة بالمسيحية ؟ ومن الذى أرسل البعثات التبشيرية إليها ؟ والجواب على ذلك أن الذى أرسل تلك البعثات هو البابا الثالث والثلاثون لكنيسة الإسكندرية الأنبا تيودوسيوس . ووجه العجب فى هذا الموضوع أنه أرسل هذه البعوث وهو فى منفاه فى القسطنطينية تحت سمع وبصر الإمبراطور الذى رضخ للأمر الواقع .

وإذا كان أثناسيوس رأس الأرثوذكسية فى عصره المناضل ضد قوى الإمبراطورية . فقد كان ثيودوسيوس أيضاً رأس الأرثوذكسية فى زمنه الصامد ضد الإمبراطورية ، وكل منهما بشر قطراً .

أراد الإمبراطور جوستنيان أن يضعضع الروح المعنوية لمسيحى مصر الذين تزعموا معارضى مجمع خلقيدونية فإستدعى بطريركهم ووضعه فى المنفى فى القسطنطينية ، وأرسل إليهم بطريركا ملكيا مرسوما فى القسطنطينية وله سلطة

زمنية بجانب السلطة الدينية وبعبارة أخرى ترك السلك الكهنوتى الإسكندرى بلا رأس وبلا مدبر أو مرشد وأرسل رأساً للأقلية الضئيلة من اليونانيين وغيرهم الذين كانوا يتبعون مجمع خلقيدونية وكان لكرسى الإسكندرية فى ذاك الوقت سلطة روحية عميقة من الصعب زعزعتها خارج الديار المصرية . وإذا كان غير مسموح للبابا تيودوسيوس أن يرسم أساقفة لمصر وهو فى منفاه ، فلم تكن السلطات الرومانية ترى فى ذلك حرج إذا كان الأمر يتعلق بأقطار أخرى خارجها عسى أن يصحب ذلك إمتداد لسلطة جوستنيان عليها فى نفس الوقت .

كان معبد إيزيس فى جزيرة فيلة فى ذاك الوقت آخر معبد للوثنية مفتوحاً للقبائل خارج الحدود بمقتضى معاهدة خاصة . وكان فى جزيرة فيلة أيضاً فى ذلك الوقت مبعوثاً من قبل الكرسى الأسكندرى يدعى الأسقف تيودوروس . ولم تلبث المسيحية أن تغلغلت فى أوساط تلك القبائل ، فأرسلوا مبعوثين إلى البابا تيودوسيوس فى القسطنطينية يطلبون منه أن يرسل إليهم معلمين ، فأرسل إليهم بعثة خاصة تحت رئاسة كاهن من أتباعه يدعى يوليانوس رفعه إلى رتبة الأسقفية . وعلم بذلك المحيطون بالإمبراطور فأرسلوا أيضاً بعثة أخرى عسى أن تستطيع أن تقنع المسيحيين هناك بإتباع البطريرك الخلقيدونى ولكن أهالى الصعيد وحكامه إستقبلوا تلك البعثة إستقبالاً فاتراً وكان موقفهم نحوها موقفاً سلبياً . ونعلم من التاريخ أن الأسقف يوليانوس قام بمهمته خير قيام فى ظروف صعبة للغاية ، إذ إتخذ كهفاً مأوى له وكان يجلس فيه بملابس خفيفة بينما يتصبب عرقاً بعد الظهر لشدة القيظ فى بلاد النوبة . ويرى بعض المؤرخين أن جوستنيان كان يعلم ولا شك أن النوبيين لن ينضموا إلى أية كنيسة خلاف كنيسة الإسكندرية ، وأن البعثة التى أرسلها هو إنما كانت من باب رفع الروح المعنوية للبطريرك الدخيل وأتباعه .

وهكذا تم إقفال آخر معبد للوثنية فى جزيرة فيلة إذ لم يعد له عوز .

ونمت كنيسة النوبة وإزدهرت وكانت عوناً عظيماً لكنيسة الإسكندرية خلال القرون الوسطى ، وكانت تفخر بتبعيتها لكرسى الإسكندرية .

ذكرت أن البابا تيودوسيوس كان ممنوعاً من رسامة أساقفة على مصر بينما هو فى منفاه ، وأود أن أضيف فى هذه العجالة حادثاً يشهد له بسعة الأفق وطول الباع ، ويدل على ما كان يتمتع به بابا الإسكندرية من نفوذ وسلطان حتى خارج حدود الإمبراطورية الرومانية . ففى نفس العام (٥٤٣ م) قام تيودوسيوس برسامة أخرى كان لها أهمية تاريخية أيضا أكبر وأعظم من سابقتها إذ كان لها أثر على جميع البلاد التى كانت تناصر الأرثوذكسية خارج مصر وداخلها . فقد أرسل إليه الأمير العربى الحارث يطلب أسقفاً لقبائله المسيحية ورسم له البابا تيودوسيوس أسقفاً يدعى تيودوروس وإنتهز الفرصة ورسم راهباً ذكياً نشيطاً يدعى يعقوب على مدينة الرها . وكان إختيار هذه المدينة التى تقع فى العراق من نوع التعمية حتى لا يلفت الأنظار لهذه الرسامة بل قيل إن يعقوب هذا لم يرَ مدينة كرسيه هذه إطلاقاً . إنما قام تيودوسيوس برسامته لأجل أن يطوف بجميع البلاد فى الشرق بمهمة رفع الروح المعنوية بينهم وهكذا إبتدع خطة يفسد بها على جوستنيان سياسته فى إضعاف روح المصريين ومن تبعهم بنفيه لتيودوسيوس . هذا الأسقف هو الذى عرف فيما بعد بيعقوب البرادعى ، كان يظهر ويختفى بشكل عجيب ، وكان عملاء الإمبراطور يقتفون أثره دائما دون أن يستطيعوا القبض عليه ، وقد نجح فى مهمته ورسم أساقفة فى الكراسى الخالية بإسم بابا الأسكندرية ورفع كثيراً من معنويات أتباعه .

وهكذا إستطاع هذا الرجل بمفرده أن يلم صفوف معارضى مجمع خلقيدونية وجعل لهم شخصية قائمة . وكان يعمل فى مصر بحذر إحتراما لسلطة من بعثه . وقبل أن يموت جوستنيان عام ٥٦٥ م كان من الواضح أنه إذا كان قد أرسل بطاركة من أتباعه إلى الإسكندرية وأنطاكية فإنه لم يستطع أن يقضى على الأرثوذكسية بل على العكس إتسع نفوذ كرسى الإسكندرية وهو خال ! وصاحبه منفى يدير شئون كنيسته من منفاه ، بالسياسة التقليدية لها .

(مجلة مدارس الأحد ــ يونيو ١٩٦٤ م)

الفصل السابع

القديس الأنبا ديوسقورس
بابا الاسكندرية الخامس والعشرون (٤٤٤ــ٤٥٤ م)

من أصعب الأمور على المؤرخ فى العصر الحديث أن يتناول تاريخ هذا الرجل العظيم لأسباب عديدة أهمها أن أكثر المصادر التى وصلت إلينا عن تاريخ الكنيسة فى عصر الآباء جاءت عن طريق الكنيسة الكاثوليكية أو الكنيسة اليونانية وقد بذل المؤرخون التابعون لهاتين الكنيستين كل جهد لتشويه سمعة هذا البابا الشهيد إلى حد جعلهم يطلقون على مجمع أفسس الثانى الذى عقد عام ٤٤٩ والذى ترأسه البابا ديوسقورس « مجمع لصوص أفسس » ، وهناك سبب هام أيضا وهو أن المعاملة السيئة التى لقيها هذا الرجل العبقرى العظيم لم تكن موجهة إلى شخصه فقط بل إلى الكنيسة المصرية والشعب المصرى أجمع ، ولذلك يجب على المؤرخ أن يستعرض الظروف التى أدت إلى تبوء كنيسة الاسكندرية مركز الصدارة بين الكنائس ، منذ دخول المسيحية مصر ، وما صاحبه من نضال خفى بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة القسطنطينية التى كان أهم ما تتميز به أنها كنيسة عاصمة الإمبراطورية فقط .

من أشهر نوابغ النصف الثانى من القرن التاسع عشر العلامة أوجين ريفيو Eugène Revillout أمين متحف اللوفر فى ذاك الوقت بفرنسا ، والمتخصص فى الآثار ولاسيما ما كان يتعلق منها بمصر عموما وبالقبط خصوصا ، وكان له إلمام تام باللغة المصرية القديمة والقبطية وقد أصدر ما لا يقل عن ثلاثمائة مؤلف ، بين رسالات مختصرة ومجلدات ضخمة من أندر وأنفس ما كتب فى الآثار . ويعتبر رائد من أوائل الرواد فى هذه الدراسات .

ومن مؤلفاته الضخمة سفر مهم فى الشرائع المصرية مع المقابلة بينها وبين الشرائع الرومانية وغيرها ، وقد تناول هذا الكتاب كل ما تهم معرفته فى هذا الموضوع كالأحوال الشخصية والملكية والعقود والتجارة والاقتصاد والسياسى عند قدماء المصريين وغيرذلك ،وعدد صفحاته ١٥٦١ صفحة .

أما ما يتعلق بتاريخ كنيسة الاسكندرية فله تاريخ فى حياة البابا تيودوسيوس وقد تلاه على مؤتمر علمى بفرنسا عام ١٨٧١ . وله كتاب عن مجمع نيقية طبقا للنصوص القبطية وفيه شرح للإيمان والعقائد ، وكتاب فى مذكرات البابا ديوسقوروس عن مجمع خلقيدونية الذى انعقد عام ٤٥١ م .

والقديس البابا ديوسقوروس عالم من أكبر علماء اللاهوت فى العالم ، كان تلميذ البابا القديس كيرلس الكبير الذى لفت أنظار العالم المسيحى إلى بدعة النسطورية التى نادى بها نسطور بطريرك القسطنطينية وقضى عليها فى المجمع المسكونى الثالث الذى انعقد بأفسس عام ٤٣١ ، فأضاف مجدا إلى أمجاد كنيسة الاسكندرية المجاهدة . كان ديوسقوروس كاتم سره وشريكه فى كل ما صدر عنه من رسائل وتفاسير وشروح لعقيدة الطبيعة الخاصة بما جاء فى انجيل يوحنا (والكلمة صار جسدا) .

فإذا كان بابا الاسكندرية قد أصبح بعد مجمع نيقية « قاضى المسيحية فى كل العالم » ، حتى قال اغريغوريوس النازينسى « أن رأس كنيسة الاسكندرية هو رأس العالم » ، فليتصور القارىء اللبيب مركز ذلك البابا بعد أن حارب بدعة النسطورية أيضا بعد الأريوسية وانتصر عليها فى مجمع انعقد تحت رآسته . تولى إذن البابا ديوسقوروس بعد نياحة القديس كيرلس الكبير عامود الدين منصب باباوية كرسى الاسكندرى عندما كان هذا الكرسى أسمى مركز كنسى فى العالم ، وأصبحت كنيسة الاسكندرية المركز الأعظم الوحيد للعلوم اللاهوتية . وكانت عين ذلك البابا لا تغمض عن أى حدث يمس المسيحية فى العالم ، وأصبح الإمبراطور يتبع ما يشير به خليفة كيرلس . وفى ١٦ فبراية ٤٤٨ م صدر مرسوم إمبراطورى يحرم جميع المؤلفات التى لا تتفق وقانون إيمان مجمعى نيقية وأفسس أو مؤلفات المطوب كيرلس وهكذا رفع كيرلس — كما رفع من قبل اثناسيوس — إلى مرتبة واضع أسس الأرثوذكسية .

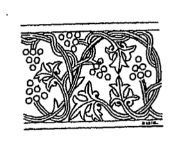
الطبيعة الإنسانية وضعفاتها لم تترك حتى الأساقفة فى أحرج الأوقات التى مرت بالمسيحية ، عندما تدخلت السياسة والسلطات بجبروتها فى الدين وفى شئون الكنيسة ، لقد أثار مركز بابا الاسكندرية فى العالم المسيحى حسد وحقد بطريرك القسطنطينية وأسقفى روما وانطاكيا ، فأنتهزوا فرصة دعوة بابا

الاسكندرية ليرأس أيضا مجمعا آخر فى مدينة أفسس ليفصل فى خلاف عقائدى نشب بين بطريرك القسطنطينية ورئيس أحد أديرتها المدعو أوطيخا ، فإذا بأوطيخا يحضر ليقرر أن إيمانه هو إيمان الآباء فى مجمع نيقية وأفسس وأنه لم يقل بغير ذلك ، بينما فلاتيبيانوس بطريرك القسطنطينية يحضر ليدعو للاعتراف بطبيعتين فى السيد المسيح مخالفا بذلك تعاليم كيرلس الكبير التى يعتبر طبعا ديوسقوروس أجدر مفسر لها ، فحكم بعزل فلابيانوس .

توفى بعد ذلك الإمبراطور تيودسيوس الصغير أثر حادث سقوط من على حصان . فتولت الملك بعده أخته بولخاريا ، بعد أن حنثت بنذرها أن تعيش فى النسك والبتولية وتزوجت أحد القواد المدعو ماركيانوس .

عرف البابا ديسقوروس بذكائه ما يشير إليه هذا الانقلاب ، إذ كان على علم قبل ذلك بكراهة بولخاريا له وكذلك بعواطف الإمبراطور الجديد الموافقة لها . يضاف إلى ذلك ما يصل إلى علمه من أن أسقف روما كان يناصر البطريرك فلابيانوس فى عقيدته .

يذكر البابا ديوسقوروس فى مذكراته التى وجدها ميوريفيو فى إيطاليا والتى تحتوى على معلومات فريدة ، يذكر فى هذه المذكرات مؤتمرا ، لم يعرف عنه شىء قبل ذلك ، عقد قبل مجمع خلقيدونية فى سراى الإمبراطور . وكانت هذه الذكريات المكتوبة بالقبطية بها هامش يذكر أنها تقرأ فى كنيسة الإسكندرية فى كنيسة السيدة العذراء (كنيسة ثيؤناس) سنويا فى يومى العشرين والحادى والعشرين من شهر بؤونة .



الباب الثاني عشر

مجمع خلقيدونية



بطل الأرثوذكسية
البابا ديسقوروس البطريرك الخامس والعشرون
(٤٤٤ ـ ٤٥٤ م)

الأيقونة من رسم الفنان إيزاك فانوس
بكنيسة السيدة العذراء بأرض الجولف بالقاهرة

الفصل الأول

مجمع خلقيدونية ٤٥١ م
والدعوة إلى اتحاد الكنائس

فى أواخر شهر يناير من كل عام يقيم أتباع كنيسة روما أسبوعاً للصلاة من أجل اتحاد الكنائس . ونظراً لأن دعوة الاتحاد والوئام تجد لها صدى فى جميع النفوس فان أتباع الكنائس الأخرى فى مصر ، وفى مقدمتها كنيسة الاسكندرية يشاركون إخوانهم فى هذا الأسبوع ، بنية صافية ووعى مسيحى عميق .

واحتفلت بطريركية الروم الكاثوليك بالاسكندرية بهذه المناسبة ، بتوزيع كتيب فيه نبذة عن الكنائس ، كل كنيسة بقلم أحد أبنائها ، وياليتها لم تفعل ، فقد تكلم عن الكنيسة الكاثوليكية ، أو على الأصح كنيسة روما ، أب فرنسيسكانى ، عوضاً عن أن يحذو حذو الآخرين فيقدم كنيسته فى كلمة قصيرة ، إذ به يطلق العنان لسجيته ، ويتطرق إلى أحد باباوات كنيسة الاسكندرية الأبطال القديسين ، وهو البابا ديوسقوروس الخامس والعشرون ، وخليفة القديس كيرلس الكبير وسكرتيره وكاتم سره قبل ذلك ، فينعى عليه رفضه الانصياع لقرارات مجمع خلقيدونية التى كانت تحدد الإيمان المسيحى ، وينسب هذا الموقف منه إلى الشيطان ، أو مادعاه هو «عوامل الشر والفرقة والانقسام » تلطفاً منه !

أتليق أمثال هذه المغالطات من أحد أباء كنيسة روما فى مثل هذه المناسبة ؟ هل الذى يصلى لأجل اتحاد الكنائس ، والصلاة تصدر من القلب ، يليق به أن يتحدث عن بابا قديس وشهيد بمثل ذلك العنف وتلك اللغة ، فى مقر كرسى خلفائه وأتباعه ؟ فيلمس جرحا حساساً فى جسم كنيسة الإسكندرية ؟

وإنا ننزل إلى الميدان لنرد على تلك المغالطات ، وذلك لنقرر حقائق نأخذها عن أشهر مؤرخى الغرب الذين كتبوا عن تاريخ الكنيسة فى عهد الآباء ، ليعيها الجيل الحالى والأجيال المقبلة ، لأنى على يقين أن من يقرأون مثل هذه الأقوال من أخواننا وأبنائنا يتلفتون حولهم ، ظمآنين إلى كلمة الحق التى تضع الأمور

فى نصابها ، وقد آن لنا أن نقولها دون مواربة أو محاباة إحقاقاً للحق ، وإنصافا للتاريخ .

عقد مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ م فى المدينة التى تحمل هذا الاسم فى آسيا الصغرى ولقد كان الترتيب الأول أن يعقد المجمع فى نيقية حيث عقد المجمع المسكونى الأول ، ولكن لم يوفقوا فى ذلك ، وكأن العناية الألهية لم تشأ لتلك المدينة التى خلد اسمها فى المسيحية أن تشاهد مهزلة هى وصمة عار فى تاريخ المسيحية ، وأن يلطخ بها اسمها .

فى ذلك الوقت كان بابا الإسكندرية يلقب «بقاضى الكنيسة» أو «قاضى المسكونه» ويرجع إليه هذا اللقب منذ أن ترأس كيرلس مجمع أفسس ، ناله عندما هزم نسطوريوس وبدعته بحرومه الاثنى عشر .

وعندما جلس ديوسقوروس على كرسى الإسكندرية خليفة لكيرلس ، ثم عهد إليه برآسه مجمع أفسس المسكونى الثانى عام ٤٤٩ م ، نظرت إليه المسيحية باعتباره « بطريركها العالمى » ، وهنا أستميح الأب الفرنسيسكانى فى أن أستعير ، تعبيره إذ تدخلت «عوامل الشر والفرقة والانقسام»[١] فى نفوس أساقفة روما والقسطنطينية بصفتهم أساقفة عاصمتى الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية .

ولذلك ما أن عقد مجمع خلقيدونية حتى أفلت زمام أعصاب مندوبى أسقف روما فطلبوا على التو من المجمع طرد ديوسقوروس دون مناقشة ، طبقا للأوامر التى يحملونها وراع ذلك بقية الأساقفة إذ وجدوا مجافاة لأبسط قواعد العدل ، واستطاعوا بصعوبة أن يقنعوا المندوبين بضرورة محاكمته أولا .

وعندما رأى ديوسقوروس بوادر الشر هذه أيقن مابييت له ، وانسحب فى هدوء حفظاً لكرامته مضرباً عن الحضور .

وانتهز مندوبو أسقف روما فرصة تغيب مندوبى الامبراطور فى إحدى الجلسات فرأسوا المجمع وأعلنوا عزل ديوسقوروس . لم يكن إذن هناك قانوناً للايمان وضعه هذا المجمع ورفضه ديوسقوروس .

يقول الأب دوشين أن بعد هذا العزل بدأ المجمع يبحث فى طبيعة السيد

المسيح له المجد بقراءة طومس لاون ، ونظراً للخلاف الشديد الذى ساد المناقشات للفرق الواضح بين تعبير كيرلس الكبير الذى كان يعتبر الحجة الوحيدة فى هذا الموضوع حتى فى هذا المجمع وبين تعبير ليون أسقف روما ، فقد تكونت لجنة لوضع مسودة عقيدة خاصة بهذا المجمع .

ومن الطريف أن هذه اللجنة لم تهتد إلى تعليل تبرر به عزل ديوسقوروس ، بل من المضحك — وشر البلية مايضحك — أن بعض أعضاء هذه اللجنة صرح بأن ديوسقوروس قد عزل لأنه تحدث عن طبيعتين للسيد المسيح ! فى حين أن ليون هو الذى كان يتكلم عن الطبيعتين . ورد عليهم الفريق الآخر الذى يترأسه أناطوليوس بأن ديوسقوروس لم يعزل لأجل عقيدته ، بل عزل لأنه حرم أسقف روما ورفض الإمتثال لأمر المجمع بالحضور .

ويتضح من هذا النقاش أن أعضاء المجمع أنفسهم لم يكونوا على علم بالأسباب التى عزل من أجلها ديوسقوروس .

وعندما وضع المجمع تعبيره العقائدى ، الذى أنتزع انتزاعا من أعضائه ، إذ فضلا عن أنه لم يكن يعبر تعبيراً صحيحاً عن عقيدة الأغلبية ، فقد كان الجميع يرون تشابها مثيراً مع عقيدة نسطوريوس ، لأنه كان يتحدث عن طبيعتين للسيد المسيح كما يريد ليون أسقف روما .

وقام فريق يطلب قراءة حروم كيرلس الأثنى عشر حتى يسترشدوا بها فى تعبيراتهم وعارض الفريق الآخر ، رغم موافقته على قراءة رسالتين له ، وإكتفى بالحكم على أوطيخا ونسطوريوس ليبعد الشبهات عن التعبير العقائدى الخاص بالطبيعتين !

وياليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فلأجل أن تتم فصول المهزلة ، أرجعوا جميع أنصار نسطوريوس إلى مناصبهم ، وبعضهم كان أشد حماساً لبدعة نسطوريوس منه هو نفسه أمثال تيودوريت وإيباس ، ولم ير المجمع مانعاً من إعادة هذا الأخير رغم قراءة رسالة له فى الجلسة يهاجم فيها كيرلس وتعاليمه .

وبعد كل هذا لم يمنعهم الحياء من أن يختتموا جلساتهم بقرار أخير يعلنون فيه أن ما اتخذوه من قرارات إنما كان وفقاً لروح نيقية ومبادىء كيرلس ، كان ذلك يكفى لأن يضيفوا على تلك القرارات سيمات الارثوذكسية .

وهكذا نرى أن تعبير «الطبيعتين» الذى حاربه كيرلس ، لم يقبله المجمع فقط بل جعله قانونا للايمان ، وأرجع أصدقاء نسطوريوس الذين كانوا فى الصف الأول فى عداوتهم لكيرلس إلى كراسيهم مبجلين مكرمين أمثال تيودوريث وإيباس ثم يودون بعد كل ذلك لو أن ديوسقوروس وكنيسة ديوسقورس تثبت قرارات مجمع خلقيدونية .

وليس لدينا أى تعليق على جميع هذه القرارات سوى ماصرح به نسطور نفسه عندما علم بهذه القرارات (وكان منفياً فى اقليم اخميم) من أن هذه هى عقيدته ، أى أن مجمع خلقيدونية حرم نسطور وطوب تعاليمه . أما ديوسقوروس فقد ظل يكتب ويردد فى منفاه تمسكه بتعاليم كيرلس « طبيعة واحدة للكلمة المتأنس » يدحض تعاليم أوطيخا كما أن ثلاثة عشر أسقفا من كنيسة الاسكندرية كانوا حاضرين هذا المجمع حرموا تعاليم أوطيخا وأعلنوا تمسكهم بعقيدة باباوات الاسكندرية من القديس مرقس إلى القديس كيرلس . واحتجوا على عزل بابا الاسكندرية وعلى طومس لاون .

ماذا كان أثر مجمع خلقيدونية على العالم المسيحى ؟ وكيف تقبل هذا العالم قراراته ؟

أما فى القسطنطينية نفسها فقد قاومت قوته الأساقفة والشعب ووصلت هذه الثورة إلى ذروتها بعد قرنين من الزمن فى عهد الامبراطور جوستنيان حيث طلب الأساقفة علنا التضحية بطومس لاون فى سبيل الرجوع إلى عقيدة كيرلس .

وأما فى بقية الشرق فقد قام الامبراطور ، مضطرا ، باستخدام الجيوش ليجبر المسيحيين على احترام قرارات مجمع خلقيدونية . ففى فلسطين كان عدد الرهبان كبيرا ولاسيما فى الصحراء شرق أورشليم وحول الاردن والبحر الميت . واندلعت نيران الثورة كما تأكل النار الهشيم ورفضوا أن يسمحوا برجوع جوفينال أسقفهم الذى كان قد حضر مجمع خلقيدونية وأيد قراراته واضطر أن يرسل الامبراطور إليهم جيشاً حاربه الرهبان فى موقعة نابلس ، ولكنهم تقهقروا أمام القوة .

أما فى مصر فقد أدركوا بحصافتهم أن هذه القرارات إنما تمثل نضالا سافرا ، بين المسيحية فى مصر وهى التى أضاءت على العالم المسيحى بمدرستها اللاهونية وبآباء النسك والرهبنة فيها ، أى بقوتها الفكرية والروحية ، وبين المسيحية فى الامبراطورية الرومانية مرتكزة على القوة الغاشمة.

أساقفة مصر يرتكزون فى الدفاع عن الإيمان الأرثوذكسى على تعاليم مدرسة الإسكندرية القوية ، وأساقفة الدولة الرومانية لم يستطيعوا أن ينازلوهم فى هذا الميدان فيلتجئون إلى قوة الامبراطور وعنجهية الدولة الحاكمة المستبدة الغاشمة . جربوا كيرلس فى هذا الميدان فحرم نسطوريوس وتعاليمه وجربوا ديوسقوروس فحرم ليون وتعاليمه ، فحولوا النضال إلى نوع من الانتقام الشخصى وأخرجوه عن نطاق العقيدة والإيمان ، وبعد ذلك لبثوا قرونا يحاولون التمويه بأن النضال إنما كان فى ميدان العقيدة والإيمان ، كتبوا كثيراً وسفكوا من المداد ولكن الحقائق التاريخية ظلت ناصعة غير مطموسة .

كان العالم المسيحى يعلم تمام العلم أن خليفة القديس مرقس هو الرجل الأول فى آباء الكنيسة وأنه المعلم الأكبر للارثوذكسية ، وأوسع اللاهوتيين علماً ومعرفة ، فكان من الطبيعى أن يرى شعب مصر أن قراراته يجب أن تكون محترمة من العالم أجمع . فالقديس أثناسيوس هو الذى هزم الأريوسية والقديس كيرلس هو الذى سحق النسطورية ، وأوضح الإيمان القويم والحقيقة فى حرومه ، فأكبر بدعتين وأشدها خطرا هزمتا بواسطة بابا الإسكندرية ، فلا عجب بعد ذلك أن يعتز شعبه بمكانته وبعزته ، وأن يؤمن إيماناً راسخاً بسلامة موقف بابا الاسكندرية ، وإن مجمعا مثل خلقيدونية بتلك الصورة الهزيلة التى قدمتها يجرؤ على الحكم على إمام المفسرين المجتهدين إنما هو من عمل ابليس .

وكان المصريون يعلمون أن كرسى الاسكندرية كثيراً ماكان فى حالة نضال مع كرسى أنطاكية ، وعلى الأكثر مع كرسى القسطنطينية هى «روما الجديدة» ، ولذلك يجب أن يلى أسقفها أسقف روما . ولذلك لم يعتبروا أن الحكم الذى أصدره مجمع خلقيدونية على بابا الإسكندرية هو مجرد حادث كنسى ، ولكنه اعتداء مبيت على كرامتهم كمسيحيين فى الصف الأول من

المسيحية ، كما أنه اعتداء على الأمة المصرية بأسرها ، إذ كان البابا فى ذاك الوقت هو زعيم الوطنيين وممثلهم أمام الحكم الرومانى .

لقد أغمض المصريون أعينهم ، عن كياسة ، عن ادعاء أسقف روما بتقدمه الشرفى بصفته أسقف عاصمة الامبراطورية ، باعتبار أنه بعيد عنهم فى الغرب ، وقد يساعدهم دون خطر عليهم ضد اليونان ، ولكن ذلك لم يجعلهم يغيرون عقيدتهم بأن بابا الاسكندرية ، هو صاحب الكرسى الحبرى الأول . وكان ديوسقوروس بذلك واقفاً أمام المجمع بصفته «البابا المسكونى» ، ذلك اللقب الذى تشاجر عليه بعد ذلك بقرن ونصف ، روما والقسطنطينية ، كان أول من حمله بابا الاسكندرية ، ومن له أذنان للسمع فليسمع .

بهذه الروح بدأ المصريون نضالهم ضد الامبراطورية الرومانية وضد الوضع الجديد الذى بدأ الامبراطور بتنفيذه وهو أن يرسل إليهم رئيساً دينياً عوضاً عن أن ينتخبوه هم ، وانتصر الشعب فى النهاية ، وبعد نياحة المجاهد العظيم والمستقيم الرأى البطل القديس ديوسقوروس فى منفاه ، انتخب الشعب تيموثاوس الذى حرم مجمع خلقيدونية فنفاه الامبراطور واستمر منفيا سبع سنوات إلى أن أفرج عنه الامبراطور وأعطاه الحرية لعمل مايرى فى سبيل العقيدة ، وعند رجوعه إلى الإسكندرية أستقبل فى كل بلد مر بها استقبالا عظيماً وكانت الجماهير تتدافع لنوال بركته ، ومر فى رجوعه بمدينة أفسس التى شاهدت انتصارات كيرلس على نسطوريوس وديوسقورس على فلابيانوس ، حيث رأس مجمعاً كبيراً ضم عدداً كبيراً من أساقفة آسيا . ووافق عدد من الأساقفة يتراوح بين ٥٠٠ و ٧٠٠ أسقفا على قرار للامبراطور بازيليكوس بالاعتراف بمجمعى أفسس وعدم الاعتراف بمجمع خلقيدونية !

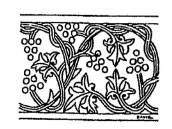
هل يرى رجل عنده ذرة من التفكير الحر أن مجمع خلقيدونية المهلهل كان جديراً بأن يعترف به وبجديته وبقراراته فطاحل مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وعلى رأسهم رئيس الأحبار « البابا المسكونى » ؟ وهل يرى بأن هذا المجمع كان جديراً بالدموع التى تسكب لعدم الاعتراف به ؟

يجب أن نلغى عقولنا واحترامنا للحق والعدل وتمسكنا بالروح المسيحية قبل أن تجيز الموافقة على مثل هذا المجمع .

حيا الله ديوسقوروس الذى أدرك لأول وهلة قيمة مجمع خلقيدونية ، كما أدرك لأول وهلة معانى تعابير طومس لاون الذى صرح نسطور أنه نسخة مطابقة من تعاليمه سرقها منه لاون . إن المسألة فيه كانت مسألة حقد وانتقام . وأنى أهيب باخوننا وأبنائنا أن ينقشوا هذه الحقائق على صفحات قلوبهم ، وأن ينظروا دائما إلى مجمع خلقيدونية كوصمة لا تمحى فى جبين المسيحية يريد أتباعه أن يمحوها بأن يدعونا نحن إلى الاعتراف به .... وهيهات أن يتحق حلمهم ؟

(ملحوظة من الناشر : تفسير مجمع خلقدونية هو أن السيد المسيح « فى طبيعتين » ، اما التعبير الكيرلسى هو « طبيعة واحدة للكلمة المتجسد » ويعنى هذا بأن السيد المسيح كائن واحد وليس مركب ، تماما كما تتحد الروح مع الجسد ليكونا طبيعة واحدة هى الطبيعة الأنسانية ، ولا نتكلم عن الطبيعة الروحية أو الطبيعة الجسدية لأن هذا يعنى بأن الروح كائنة بذاتها والجسد كائن بذاته ، كذلك فأن لاهوت السيد المسيح إتحد مع ناسوته ليكونا طبيعة واحدة هى طبيعة الكلمة المتجسد ، وكلمة طبيعة تعنى المادة زائد خصائصها ، كذلك لا يوجد اى اثبات تاريخى يؤكد ان اوطيخا دافع عن هرطقة ، كما أن محاكمته امام مجمع اللصوص فى خلقدونية كان غيابيا بناء على ادعاءات النساطرة) .

(مجلة مدارس الأحد ـــ ابريل ١٩٦٢)



الفصل الثانى

مجمع خلقيدونية أمام التاريخ

« تحيا عقيدتا فلابيانوس ولاون ! وليحرم نسطور ! هذا هو كل مجمع خلقيدونية فى سطور » (لسان حال نسطور عن كتاب دوشين)

حقاً إن المؤرخ الباحث فى تاريخ مجمع خلقيدونية يعوزه الكثير من الصبر والأناة والمعرفة العميقة بتاريخ الكنيسة القديم ، وبالتيارات السياسية فى ذلك الوقت ، لأجل أن يستخلص الحقائق من بين الصفحات الكثيرة التى كتبت عن ذلك المجمع ، خاصة وأن مؤرخىِ الغرب هم الذين عنوا كثيراً بالكتابة عنه ، لأنهم يعتبرونه حجر الزاوية الذى تستند إليه كنيستا روما والقسطنطينية ، ولشعورهم بالنقص أمام كنيسة الإسكندرية ، وقد استطاعوا فى هذا المجمع أن يمسكوا للمرة الأولى والأخيرة بتلابيب رئيس كنيسة الاسكندرية وأدانوه وحكموا عليه دون محاكمة ... ولكن لماذا ؟ هذا ما أختلفوا عليه منذ اليوم الأول الذى عقدوا فيه المجمع ، وإن هذا التضارب لأبلغ دليل على الشعور بأن هناك خطأ قد إرتكب ، وأن واجبهم نحو الأجيال يقضى عليهم بأن يلبسوه أو يحاولوا أن يلبسوه ثوب الحق ، ثم يثابروا على دعوة الآخرين على الأعتراف بهذا الحق .

عندما جلس ديوسقوروس على كرسى القديس مرقس ، خلفا لعامود الدين كيرلس الكبير ، كانت كنيسة الإسكندرية قد بلغت أوج مجدها ، وأصبح خليفة القديس مرقس الزعيم الروحي للمسيحية فى العالم ، الذى تخضع لتعاليمه الكنيسة جمعاء ، وكان النساك فى جميع العالم المسيحى فى ذاك الوقت ينظرون إليه نظرة الجيش للقائد : أليست بلاده مهد الرهبنة ؟ . أليس هو الذى خضع له أنطونيوس وباخوميوس ومكاريوس ؟ وهم آباء الرهبنة . هذه النظرة وهذا الإعتبار لم يقتصرا على الهيئات الدينية فقط ، بل تعدياها إلى الرآسات المدنية البعيدة عنا ، فلأول مرة فى التاريخ يصدر مرسوم إمبراطورى فى ١٦ فبراير سنة ٤٤٨ م يحرم جميع المؤلفات التى لا تتفق وقانونى إيمان نيقية وأفسس أو

مؤلفات القديس كيرلس ، وهكذا رفع كيرلس بعد نياحته إلى مرتبة واضع أسس الأرثوذكسية .

أما كنيسة الاسكندرية فكانت كنيسة مسكونية أو عالمية بكل معنى الكلمة ، فكانت سلطتها الروحية على مصر بأجمعها وعلى ليبيا والمدن الخمس الغربية ، ثم بعد ذلك على النوبة والسودان والحبشة عندما دخلتها المسيحية ، ثم على أجزاء كثيرة من بلاد العرب مثل نجران وغيرها ، وهكذا امتدت سلطتها إلى خارج حدود الامبراطورية الرومانية . ونعلم من مخطوط من القرن السابع أن قرطاجنة كانت إيبارشية تابعة لها ، ونعلم بعد ذلك من نيلوس وكساباترياس أن سلطتها كانت تمتد على أفريقيا وطرابلس . ويخبرنا ميخائيل السريانى أن جميع أفريقيا كانت تابعة لها ، وعندما جاء فانسليب إلى مصر فى القرن السابع عشر كان هذا التقليد مازال معروفا ، وكان من ألقاب البابا متاؤس (حوالى ١٦٧٤ م) أنه رئيس أساقفة مصر وإثيوبيا والنوبة وأفريقيا وليبية .

وهكذا إذا كان الرومان قد استطاعوا أن يكونوا لهم امبراطورية مترامية الأطراف بالغزو وقوة السلاح ، فقد استطاع المصريون أن يسيطروا على العالم القديم روحيا بعمق إيمانهم بالمسيحية وبقوتهم الذهنية . ولا شك أنه إن عاجلا أو آجلا فقد كان واجباً على الرومان أن يحسبوا لهذه القوة المطردة النمو حسابها ، وأن ينتهزوا أول فرصة لإيقافها ولذلك ماأن تولى مركيانوس زمام الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وهو الوقت الذى بلغت فيه عظمة كنيسة الاسكندرية أوجها ، حتى وشى بعض أنصار نسطور لديه بالبابا ديوسقوروس ونسبوا إليه قوله « إن مصر تمت لى أكثر ما تمت إلى الأباطرة » وهذا إتهام يمس سلطة الأمبراطور ، وانتقلوا بعد ذلك إلى التخصيص بعد التعميم فقالوا « لقد رفض ديوسقوروس أن يتسلم صور مركيانوس وبولخاريا حسب التقليد المتبع عند تولية حاكم جديد » ، وأنه يعتبر هذه الصور رمز العبودية والخضوع ، بينما هو يدعى أنه « حاكم مصر بلا منازع » إذ أنه الممثل الأعلى للأمة المصرية ، وهكذا سلك رجال الدين سبيل تأليب السلطة المدنية عليه .

ولكن ماذا يصنع الأمبراطور وقد جرب قوة شكيمة باباوات الاسكندرية

ومحبة شعبهم لهم منذ عهد أثناسيوس الرسولى ؟ أيأمر بعزله فيشعلها حرباً ضروس ، ويختبىء ديوسقوروس عند الرهبان إلى أن تسنح له الفرصة بالظهور ؟ خصوصاً وأن الرهبان فى ذلك الوقت قد انتشروا فى أنحاء العالم المسيحى وقد يثيرهم مثل هذا التصرف ضد خليفة كيرلس ، يضاف إلى ذلك أن مسيحيي العالم فى ذاك الوقت كانوا ينظرون إليه «كقاضى المسكونة»

ونظراً لأن فلابيانوس أسقف القسطنطينية كان قد عزل فى ذلك الوقت بقرار من مجمع أفسس الثانى سنة ٤٤٩ م تحت رئاسة ديوسقوروس ، فقد هداهم التفكير للايقاع بديوسقوروس أن يتقدم أسقف روما وله مكانته كأسقف العاصمة الأولى للامبراطورية إلى الامبراطور ينصح بدعوة مجمع للنظر فى أسباب عزل فلابيانوس ، ووجد هذا الرجاء صدى حسناً أيضاً فى نفوس الأساقفة أنصار نسطور الذين كانوا يتحينون الفرص للايقاع بخليفة كيرلس ، ولعقد مجمع يعيدهم ثانية إلى كراسيهم .

ولكن هل يعقد مجمع مسكونى للايقاع ببابا الاسكندرية ويترك المكان الذى كان يشغله شاغراً ؟ ومن الذى يستطيع أن يشغله عن جدارة واستحقاق ؟ هل هو كرسى روما أم كرسى القسطنطينية ؟ ورأى أسقف روما لاون أن يتبوأ هذا المركز فأرسل برسالة عقائدية إلى فلابيانوس ، عرفت بطومس لاون ، عن سر التجسد وفيها يعترف بأن فى السيد المسيح طبيعتان » ، بينما تعبير كيرلس « طبيعة » من طبيعتين .

وكانت هذه هى المرة الأولى ، كما نعلم ، التى يدلى فيها أسقف روما برأيه فى المسائل العقائدية . ولكن كيف ينسب فقط لباباوات الإسكندرية التعابير العقائدية ، ولا ينسب شيء منها لأسقف روما ؟

وهكذا اتخذت العوامل السياسية من الدين ستاراً لتوجيه ضربة فى الصميم إلى قلب المسيحية النابض وإلى عقلها المفكر ، وقد اتخذت جميع الترتيبات لتوجيهها بدقة وإحكام .

أما حكاية «أوطيخا» التى جعلوا منها قبة وأكثروا من سردها حتى أرادوا فى مرارتهم وحقدهم أن يلصقوها بنا ، فان أوطيخا هذا لم يزد على أن يكون

رئيس دير ، ورأيه فردى لا يتقيد به أحد ، وليس له سلطة كنسية وهو قسطنطينى الموطن لا علاقة له بنا . وإنما الذى أدى إلى عقد مجمع أفسس الثانى عام ٤٤٩ م والذى ترأسه ديوسقوروس ، إنما هى تعاليم فلابيانوس عن (الطبعتين بعد التجسد) وهو تعبير نسطورى ويخالف ماأوصى به كيرلس وإن ظهور مثل هذه التعابير مرة أخرى وانتشارها على الملأ حتى وصلت إلى أسماع بابا الاسكندرية إنما يدل على نشاط أعوان نسطور ومعلميه واستعدادهم لجولة ثانية ، فأراد ديوسقوروس أن يقضى على تلك الشراذم الباقية والتى تزعمها مرة أخرى أسقف كرسى عاصمة الامبراطورية وهذا شيء له شأنه وخطره .

وقد أثبت مجمع خلقيدونية صدق نظر ديوسقوروس ، فمندوبو الإمبراطور كانوا الموجهين له وتدخلوا فى جلساته بشكل سافر مما لم يسبق له مثيل فى المجامع المسكونية السابقة وأرجع أسقف روما تيودوريت معلم نسطور إلى كرسيه فصادق المجمع على ذلك بعد معارضة ، وأرجعوا إيباس أيضاً الذى تناول كيرلس بكلام جارح ، وأخيراً أصبحت كلمة «الطبيعتين» التى كانت بغيضة لدى كيرلس ليس فقط كلمة مقبولة ولكنها فرضت أيضاً كقانون للايمان ! وبعد أن رأى أنصار ديوسقوروس كل ذلك تساءلوا « ماذا تنتظر أوضح من ذلك ؟ لقد أنتقم نسطور لنفسه ، لقد كان أساقفة مجمع خلقيدونية وعلى رأسهم ملهمهم أسقف روما نساطرة أيضاً ، يالها من مهزلة ! لقد حرموا نسطور وثبتوا عقيدته » .

يخبرنا الأب دوشين الكاثوليكى أن مذكرات نسطور التى كتبها فى منفاه بالسريانية نعلم منها أنه اطلع على مستندات مجمع القسطنطينية سنة ٤٤٨ م وأفسس عام ٤٤٩ م ، وعلم بما كان يعلم خلفه فلابيانوس ، ويقال أنه سر كثيراً من طومس لاون ، إذ تبين له أن فلابيانوس ولاون يفكران مثله تماماً . وقد نصحوا له أن يراسل لاون ، فاذا كان لم يراسله فلم يكن ذلك عن ترفع ولكن مخافة أن تقف كراهية العالم المسيحى له حجر عثرة فى طريق لاون ، الذى كان قائماً بواجبه خير قيام !!

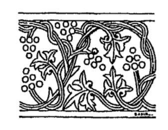
وأخيراً لم ينس المجمع مركب النقص الذى كان يشعر به أسقف القسطنطينية أمام الكراسى الأخرى فذكر فى القانون ٢٨ الشهير أن هذا

الكرسى يلى كرسى روما القديمة مباشرة نظراً لأن كلا من المدينتين «مركز الإمبراطور» .

اتسم مجمع خلقيدونية بمحاولة الجمع بين المتناقضات ، فقد حكم على ديوسقوروس وضحى به ، ولم يحكم على أتباعه ومن انضم إليه ، وقبل تعابير طومس لاون إلى فلابيانوس ، وزعم فى نفس الوقت أنه على وفاق مع تعاليم كيرلس .

والان نسأل بدورنا ماذا يخسر أتباع كنيسة القسطنطينية (الروم الأرثوذكس) وأتباع أسقف روما لو أنهم تخلوا عن الأعتراف بمجمع خلقيدونية ، ورجعت جميع الكراسى القديمة إلى «الأخوة» القديمة ، فلا يعتدى كرسى بماله وقوته على كرسى الآخر ؟ إذن لدخلت المسيحية عهداً جديداً يشابه عهد الآباء وانتعشت روحياً ، ولأبطلنا أسباب الشقاق والخصام بين المسيحيين ، وخصوصاً عندنا فى مصر حيث ينقسم فى بعض الأحيان أفراد الأسرة الواحدة فالبعض يخضع لبابا الاسكندرية والبعض يخضع لبابا روما ! تعالوا إلى كلمة سواء ، وماأحسن أن يجتمع الأخوة معاً.

(مجلة مدارس الأحد ــ يونيو ١٩٦٢)



الفصل الثالث

ما بعد مجمع خلقيدونية

رجع الأساقفة مندوبو الكرسى الاسكندرى من مجمع خلقيدونية فى حالة نفسية سيئة ، فرئيسهم قبض عليه وعزل ونفى إلى جزيرة غانغرا ببحر مرمرة ، وواضح كل الوضوح أن الدين والعقيدة بريئين من ذلك ، فلم يناد ديوسقوروس بعقيدة جديدة ولم يتقدم باقتراح مهين أو مشين ، وإنما هو يقاسى ماقاساه لتمسكه بعقيدة سلفيه العظيمين أثناسيوس وكيرلس .

وأراد الإمبراطور أن يستغل تلك الفرصة المواتية التى جعل مجمع خلقيدونية آلة لتحقيقها ، فأراد أن يجعل من كرسى الإسكندرية وظيفة عامة تخضع لسلطانه ويعين فيها من يشاء ، وفعلا أرسل للجلوس عليه من يدعى بروتيريوس ، فمس بذلك وترا حساساً فى شعور المصريين ، فهاج شعب الإسكندرية وماج ، وقتل بروتيريوس فى وسط الغليان الذى إستولى على الشعب .

وقام الشعب يحافظ على تقليده بانتخاب أسقف الاسكندرية بينما كان الإمبراطور يرسل شخصا آخر .

وفى عام ٤٨٢ م أراد الامبراطور زينو أن ينهى الخلاف بين أتباع العقيدة الأرثوذكسية وبين النساطرة كما كان المصريون يلقبون أتباع مجمع خلقيدونية ، فأصدر تعبيراً عقائديا عرف باسم « الهيناتيكون » أو « وسيلة الإتحاد » ، أراد أن يقرب به شقة الخلاف واعداً القبط بالاعتراف بالبابا المنتخب إذا وافقوا على الهيناتيكون ، وهكذا أصبح من حق الأباطرة أن يضعوا صيغ العقائد ! ولكن المصريين الذين أحلوا عقيدتهم المحل الأسمى من حياتهم الدينية والاجتماعية ربأوا بها أن تكون وسيلة للمساومة ، ولم يروا فى الامبراطور الشخص الأهل لصوغ العقائد .

وجاء الامبراطور جوستنيان فزاد الطين بلة إذ جعل من نفسه فيلسوفاً لا هوتياً فما كان منه إلا أن زاد هوة الخلاف .

استدعى جوستنيان البابا تيودوسيوس إلى القسطنطينية وطلب منه أن يعترف بمجمع خلقيدونية ، ولكنه رفض فما كان منه إلا أن نفاه . وعين جوستنيان بعد ذلك ثلاث بطاركة ملكيين الأول بولس الذى قتل بعد سنتين والثانى دالميوس أو (زويلى) الذى ظل على الكرسى خمس سنوات ثم رأى أن يترك هذا المنصب المحفوف بالأخطار وهرب ، ولم يجد جوستنيان طريقة يثبت بها البطريرك الذى يرسله على كرسيه سوى أن يجعله فى نفس الوقت القائد الأعلى للجيش ! وأرسل من يدعى أبوليناريوس بهذه الصفة . ولنترك البطريرك الملكى والمؤرخ سعيد بن بطريق يقص علينا ماحدث عند وصوله « وعند وصوله دخل هذا الأسقف الجندى الكنيسة فى حلته العسكرية ، وبعد دخوله رفع عنه الرداء الذى تخفى تحته وبدأ خدمة القداس . فقابل القبط هذا الخداع بأن رموه بالحجارة وأخرجوه من الكنيسة ، فما كان منه إلا أن أرسل دعوة بعد ثلاثة أيام يدعوفيهاالشعب إلى التجمع ليقرأ عليهم منشورا إمبراطورياً ، وأحضر فصائل من الجيش قرب مكان هذا التجمع ، وأعطاها تعليمات بأن تهجم على الجمهور بمجرد صدور إشارة خاصة . وعندما قام أبوليناريوس فى هذا الجمع يهدد الشعب ويدعوه إلى قبول قرارات مجمع خلقيدونية رموه بالحجارة مرة أخرى ، فأنقض عليهم الجند وذبحوهم جميعاً دون شفقة أو رحمة » . ويمضى سعيد بن بطريق (البطريرك الملكى) فى سرد تاريخه فيقول « ولكن فر جمع كبير منهم إلى وادى هبيب إلى دير أنبا مكاريوس ... » .

لاشك أن هذه المذبحة حقيقة تاريخية ، وقد أوردها سعيد بن بطريق وهو كأحد أنصار مجمع خلقيدونية ، كان يرى فيها نوعاً من الانتقام المشروع . ونجد هذه القصة فى كتاب (الرد على افتيخوس) لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ، ولكنه لا يذكر مسألة قذف الحجارة . ويذكر كتاب (أخبار الشرق) هذه القصة مرتين ، كما يذكر أن عشرين ألفا من القبط قتلوا «فى الكنائس» ، ويردد المقريزى ماذكره أفتيخوس (سعيد بن بطريق) ، ويقرر أن الضحايا بلغوا مائتى ألف !

لو أن هذا الاضطهاد وقع فى عهد الوثنية لهان الأمر ، ولكنه وقع من الأمبراطور المسيحى ومن البطريرك الملكى على قوم لم تبدر منهم بادرة تحدى أو إنشقاق ، بل كان كل جرمهم تمسكهم بتعاليم رؤسائهم الدينيين الذين طأطأ

العالم رأسه لتعاليمهم . ولكن كل هؤلاء الأباطرة ومن يتبعونهم يشعرون فى قرارة نفوسهم بخطأ وقعوا فيه ، ويتوجسون شرا من ذلك الموقف السلبى الذى اتخذه مسيحيو مصر تجاههم ، بل كان هذا الموقف السلبى بالرغم من المساومات والمغريات ثم الاضطهاد بمثابة اتهام لهم تنوء تحته ضمائرهم ولا يستطيعون مجابهته .

وانقضى وقت وتقادم العهد ، وإذا بنا نسمع نغمة جديدة سداها ولحمتها الزور والبهتان ، فيقولون إن القبط إتبعوا مذهب أوطيخا الذى قال بالطبيعة الواحدة أى أن الناسوت ذاب فى اللاهوت كما تذوب نقطة النبيذ فى كأس الماء ، ولذلك فيعتبروا منشقين وهراطقه ، وهذا هو سبب تسميتهم بأتباع « الطبيعة الواحدة » .

ونسوا أو تناسوا أن القبط كان لديهم فى ذاك الوقت مدرسة لاهوتية وضعت أساس علم اللاهوت المسيحى وأهدته العالم ، ونسوا أن القبط أتباع أثناسيوس وكيرلس فكيف يتركون تعاليم واضعى أسس الارثوذكسية ليتبعوا الأرشمندريت أوطيخا القسطنطينى ، بينما كانت كنيسة القسطنطينية ألد عدو لكنيستهم . أما لقب أنصار الطبيعة الواحدة فلا يأتى من إتباعهم لتعاليم اوطيخا ولكن لتعاليم كيرلس الكبير واضع أسس الارثوذكسية الذى يعبر عن طبيعة السيد المسيح بعد التجسد بأنها « طبيعة واحدة للكلمة المتجسد » أى «طبيعة واحدة » من طبيعتين بينما تعبير فلا بيانوس وطومس لاون أنه « فى طبيعتين »

أرجو من إخوانى القبط أن يعوا ذلك فهم لا يقولون بطبيعة واحدة ولكن طبيعة واحدة من طبيعتين ، وهم ليسوا أتباع أوطيخا لكنهم متمسكين بتعاليم عامود الدين كيرلس الكبير . وأن الإنشقاق لم يأت من قبلهم بل من قبل أولئك الذين حاولوا وضع عقيدة جديدة فى مجمع خلقيدونية الذى أشترك فى أعماله وقراراته معلمو نسطور أمثال ثيودوريت وإيباس .

لم يحد القبط قيد أنملة عن النهج الذى ساروا عليه منذ أن وضع أثناسيوس وكيرلس أسس الأرثوذكسية وهذه حقيقة يتبينها كل منصف فى دراسة تاريخ الكنيسة . وإن المجمع الذى يتولى فيه الأباطرة والجند إدخال الشعوب إلى حظيرته ويستعملون فيه هم وأساقفتهم أبشع أنواع القتل والإرهاب لإرغام

الناس على قبول قراراته لهو مجمع أبالسة لم يرع أنصاره لتعاليم السيد المسيح حرمة وضربوا أسوأ الأمثال فى التاريخ عن تسامح المسيحية .

قد يكون لأتباع كنيسة روما بعض العذر ، عندما يقوم دعاة البروتستناتية بنشر تعاليمهم وأفكارهم ، فى أن يثوروا وأن يعترضوا عليهم . ولكن ماعذرهم تجاه شعب أعزل مغلوب على أمره ، لم يقم بنشر تعاليم أو أفكار جديدة ولكنه أعلن تمسكه بالتعاليم التى قبلها العالم المسيحى ممثلا فى معلميه وكنيسته ؟ لماذا رموه بكل معانى المروق والإلحاد والهرطقة والإنشقاق ؟ لقد قام البروتستانت بنشر تعاليمهم فى أوساط أتباع كنيسة روما وجذبوا إليهم البعض منهم ، ولكنا لم نقم بأى عمل إيجابى سوى أننا سجلنا عليهم أنهم حادوا عن التعاليم التى تسلمناها ، أكنا نستحق كل هذه المذابح ؟

والعجيب بعد كل هذا أن يأتوا فى القرن العشرين ، وبعد أن تفتحت العقول والأفهام وتعمقت الأبحاث ، فيلقبونا بالمنقسمين وينعون على ديوسقوروس خليفة كيرلس وكاتم سره الأمين وشريكه فى كل ماوضع من تعاليم عقائدية أنه اتبع تعاليم أوطيخا ! إنه لمن المضحكات وشر البلية مايضحك !

(ملحوظة من الناشر : العقيدة الخلقدونية هى أن السيد المسيح « فى طبيعتين » كما لو كان الله يسكن أنسان ، وهذا ماعرف بالهرطقة النسطورية ، أما تعليم كيرلس الكبير « طبيعة واحدة للكلمة المتجسد » تعنى بأن السيد المسيح كائن واحد ، تماما كما تتحد الروح مع الجسد ليكونا طبيعة واحدة هى الطبيعة الأنسانية) .

(مجلة مدارس الأحد ـــ أغسطس ١٩٦٢)

الفصل الرابع

على هامش مجمع خلقدونية

مائة عام بعد مجمع خلقيدونية
« قصة الفصول الثلاثة »

بعد أن حكم مجمع أفسس المسكونى الثالث برئاسة القديس كيرلس الكبير بابا الاسكندرية الرابع والعشرين بحرم نسطور وعزله من أسقفية القسطنطينية ونفيه ، كان هناك مازال جمع من الأساقفة السوريين من أشد أنصاره ، بدأوا فى الظهور بعد نياحة كيرلس . فكان الأسقف إيباس أحد أعوان نسطور أسقف الرها مازال متمسكاً بتعاليم ثيودوروس أسقف موبسويست . ولإيباس فى ذلك رسالة شهيرة إلى ماريس يجرح فيها تعاليم كيرلس . كذلك ظهر تيودوريت معلم نسطور مرة أخرى كمعلم كبير ، بعد نياحة كيرلس ، يضارى تعاليم كنيسة الاسكندرية وكان المستشار الخاص لدمنوس أسقف أنطاكيا .

هذه الأسماء الثلاثة تيودور الموبسويستى وإيباس وتيودوريت أنصار ومعلمو نسطور تزعموا معارضة كنيسة الاسكندرية وتعاليم كيرلس بعد نياحته . فكأن مجمع أفسس الأول قضى على الذيل وترك الرأس . وكانوا سبباً فى كثير من القلاقل فى الكنيسة . فعندما عقد مجمع أفسس الثانى عام ٤٤٩ م تحت رئاسة القديس ديوسقوروس رؤى من الحكمة لسلام الكنيسة القضاء على الأساقفة المناصرين لنسطور وهذا عمل منطقى وبمثابة تكملة للحكم الذى وافقت عليه جميع الكنائس ، فبدأ المجمع يعزل الأسقف إيباس وابن أخيه دانيال أسقف حموران ، وعزل كذلك الأسقف ثيودوريت معلم نسطور وحوكم أيضاً دومنس أسقف أنطاكيا غيابياً وعزل ، هكذا أبعد عن حرم الكنيسة جميع أنصار نسطور الذين ناهضوا كيرلس .

وفى عام ٤٥١ م عقد مجمع خلقيدونية وإذ بمندوبى الامبراطور مركيانوس فى أول جلسة يقولون أن ثيودوريت يجب أن يؤذن له بالدخول لأن أسقف روما أزال عنه قرار الحرم ! وأقر ذلك الإمبراطور وقد أثار ذلك القرار لغطاً

كثيراً وهياجاً سواء من أهل اليمين أم من أهل اليسار وكان الصراخ يعلو (إلى الخارج يا معلم نسطور يا عدو الله ، يا يهودى ! إن قبول ثيودوريت هو بمثابة الحكم على كيرلس !) وتدخل المندوبون وهدأ الأساقفة بينما دخل ثيودوريت وأخذ مكانه ضمن ممثلى اتهام ديسقورس وكان دخوله عنوانه واضحاً للروح التى أريد لها أن تسود المجتمع مما تبينه غالبية الأساقفة وكان له أثره الملحوظ فيما أصدره من قرارات . كان الرأى العام ضد هذا المجمع ولم يؤيده سوى أتباع نسطور ، وقد تجلى هذا التأييد بشكل صارخ عندما نظر المجمع فى الأحكام التى أصدرها مجمع أفسس الثانى ضد بعض الأساقفة . فتيودوريت صادق المجمع على قرار أسقف روما بإرجاعه بعد معارضة وطلبوا منه أن يحرم نسطور علناً ففعل ذلك بشىء من التهكم . أما مسألة إيباس فقد كانت أكثر صعوبة ، فقد برأه مجمع صور وحكم عليه مجمع أفسس الثانى ، وقرأوا رسالة من إيباس إلى ماريس الفارسى تناول فيها كيرلس بكلام جارح ، ومع ذلك أعلن مندوبو أسقف روما أنه أرثوذكسى بعد أن حرم نسطور . وهكذا صار النساطرة وفى مقدمتهم ثيودوريت وإيباس اللذان تزعما معارضة كيرلس مقبولين ورفع عنهم الحرم وأرجعوا إلى أسقفياتهم ! ويرى كل ذلك أنصار ديوسقورس فيقولون « وماذا ننتظر أوضح من ذلك ؟ لقد انتقم نسطور لنفسه ، وكان أساقفة مجمع خلقيدونية وعلى رأسهم ملهمهم أسقف روما نساطرة أيضاً ، يا لها من مهزلة ! لقد حرموا نسطور وثبتوا عقيدته ! » ويا ليت نقد هذه المهزلة وقف عند أنصار ديسقورس الذين لقبوا بأنصار الطبيعة الواحدة فحسب ، ولكن مما يدعو إلى الغرابة أن هذا كان رأى نسطور نفسه تماماً عن ذلك المجمع وما تم فيه ، كما يخبرنا المؤرخ الكنسى الشهير الأب (دوشين) .

وبعد المجمع أخذ أباطرة القسطنطينية على عاتقهم مهمة إخضاع الأساقفة والبلدان المعارضة لمجمع خلقيدونية ، ولم يجدوا أمامهم أقوى مراساً وأشد صلابة من مصر . نعم لقد نفى أباء هذا المجمع ديوسقوروس ظلماً وعدواناً ، ولكن لم يكن ذلك السبب الرئيسى الذى جعل آباء كنيسة الاسكندرية يعارضون ذلك المجمع . لقد أرجع آباء مجمع خلقيدونية رسمياً تيودوريت وإيباس إلى كرسيهما بينما كان « معروفاً » فى جميع أرجاء العالم المسيحى أن هذين الأسقفين نسطوريان ، فكأنما أراد المجمع بإرجاعهما تدمير كل ما أتمه مجمع

أفسس عام ٤٣١ م ، بل أنه بعبارة أخرى قبل بقبولهما عقيدة نسطور ، كما رأى آباء كنيسة الاسكندرية فى طومس لاون تعابير لها صدى نسطورى . لقد ذاع فى الشرق أن لاون كان نسطورياً وأن قانون إيمان خلقيدونية كان نسطورياً ولقد ظل المصريون ينعتون أتباع مجمع خلقيدونية بالنساطرة فيقولون الروم والسريان النساطرة .

ولقد دفع المصريون ثمن ذلك الموقف غالياً ، فأمعن أباطرة الرومان فى إذلال الشعب المصرى بأن يرسلوا بطاركة من قبلهم ليديروا الكنيسة منهم من قُتل ومنهم من هرب . وبلغ الاضطهاد ذروته فى حوالى منتصف القرن السادس عندما أرسل الامبراطور جوستنيان المدعو أبو ليناريوس بطريركاً من قبله وعهد إليه فى نفس الوقت قيادة الجيش كوسيلة لتثبيت سلطته . وعند وصوله دخل هذا الأسقف الجندى الكنيسة فى حلته العسكرية ، وبعد دخوله رفع عنه الرداء الذى تخفى تحته وبدأ فى خدمة القداس ، فقابل القبط هذا الخداع بأن أخرجوه من الكنيسة ، فما كان منه إلا أن أرسل دعوة بعد ثلاثة أيام يدعو فيها الشعب إلى التجمع ليقرأ عليهم منشوراً إمبراطورياً . وأحضر فصائل من الجيش قرب مكان هذا التجمع وأعطاها التعليمات بأن تهجم على الجمهور بمجرد صدور إشارة خاصة ، وعندما قام أبوليناريوس فى هذا الجمع يهدد الشعب ويدعوه إلى قبول قرارات مجمع خلقيدونية رموه بالحجارة فانقض عليهم الجنود وذبحوهم جميعاً دون شفقة أو رحمة . ويمضى سعيد بن بطريق (البطريرك الملكى) فى القرن العاشر فى سرد تاريخه فيقول (ولكن فر جمع كثير منهم إلى وادى هبيب ، إلى دير أنبا مكاريوس ، ومنذ ذاك الوقت انتقل كرسى اليعاقبة إلى دير أبو مقار إلى وقتنا هذا) .

ويذكر كتاب (أخبار الشرق) هذه القصة مرتين ، كما يذكر أن عشرين ألفاً من القبط قتلوا (فى الكنائس) .

بعد كل هذه الدماء التى أهدرت لإرغام المسيحى لأخيه المسيحى فى قبول عقيدة لا يقبلها ضميره طوال مائة عام ، أيقن أتباع مجمع خلقيدونية الخطأ الذى وقعوا فيه عندما قبلوا إيباس وتيودوريت وبالتالى أيضاً تعاليم ثيودور المبسويستى معلم إيباس فى المجمع، فأعطوا للمجمع صبغة نسطورية كان من

الصعوبة بمكان الدفاع عنها ، عند ذلك رأى الإمبراطور جوستيان أن يجرب طريقة أخرى ، ففي عام ٥٤٤ م أصدر مرسوماً بعد استشارة أساقفته بحرم (الفصول الثلاثة) ، أو النقاط الثلاثة :

(أولاً) ثيودور الموبسويستى ، شخصه وتعاليمه .
(ثانياً) تعاليم ثيودوريت .
(ثالثا) رسالة إيباس إلى ماريث . (التى وصف فيها السيد المسيح بأنه مثل إله يسكن معبد ، وهو جوهر عقيدة نسطور) .

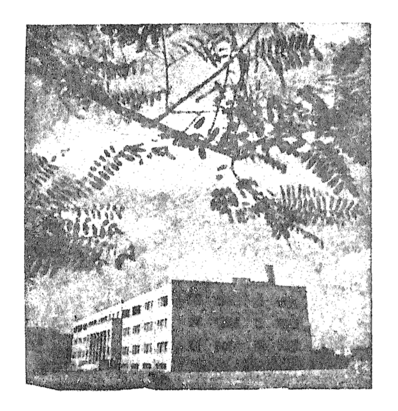
ووافق على هذا الحرم أسقف القسطنطينية وأسقف روما الذى كان موجوداً فى القسطنطينية فى ذلك الوقت ، وتلاهما غالبية أساقفة الامبراطورية وهكذا دب التخبط ووخز الضمير فى أتباع مجمع خلقيدونية ورأوا بعد مائة عام ما رأيناه لأول وهلة . وعقد مجمع القسطنطينية الثانى عام ٥٥٣ فثبت ذلك الحرم ، بينما كان بعض أتباع مجمع خلقيدونية يندبون هذا الحرم الذى يقضى قضاءاً مبرماً على هذا المجمع وعلى قراراته .

وهكذا انتقم القديس كيرلس لتعاليمه ، وشاءت العناية الإلهية أن تداوى الشرخ الذى حدث فى بنيان الكنيسة بالداء الذى تسبب فيه . هذا هو المجمع الذى دعونا إلى إتباعه باللين تارة وبالشدة طوراً وما زالوا يأسفون إلى اليوم لأننا لم نتبع دعوتهم . وقد أثبتوا هم أننا كنا على بينة من أمره وأنه كان يحمل فى صميم قراراته أسباب النفور منه وعدم الاعتراف به . ومازال ذكره بغيض إلى هذا اليوم للفريقين بل كان أساساً لسوء تفاهم طويل بين كنيستى روما والقسطنطينية فى تنازعهما على السلطة وأولوية كل منهما . إن مجرد مطالبة بعض أتباع مجمع خلقيدونية بعد مائة عام بحرم ما أجازه من تعاليم هو دليل على أن ما أجازه لم يكن بإرشاد الروح القدس .

(مجلة مدارس الأحد ــ نوفمبر /ديسمبر ١٩٧٠)

الباب الثالث عشر

فى الدراسات القبطية



معهد الدراسات القبطية
شارع رمسيس مبنى أنبا رويس ـــ خلف الكنيسة البطرسية ـــ القاهرة
وافق المجلس الملى على إنشاءه بجلسة ٢١ يناير ١٩٥٤ م

الفصل الأول

الدراسات القبطية

الدراسات القبطية مهمة من حيث أنها تلقى ضوءا على ما سبقها وما لحقها من تاريخ مصر . كما أنها تفسر الكثير مما اكتنف القرون الأولى للمسيحية فى مهدها ، التى لعبت فيها مصر دورا هاماً .

كما قال أحد المؤرخين البارزين : إن العصر القبطى ينظر إليه كوادى عميق ومظلم يفصل بين القمم المجيدة للتاريخ الفرعونى والمرتفعات الجذابة لمصر الإسلامية .

وقد تعود المؤرخون والمفكرون أن يمروا على هذا الوادى فوق ممر علوى دون أن يقفوا ليلقوا عليه نظرة من علٍ .

ولذلك فإن تاريخ الحضارة القبطية بما فيه من حياة وفكر عميق وجولات روحية وأعمال فنية بالرغم مما مر به من شدائد وضيقات ، لم ينل بسبب أو لآخر من المؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين ، ما هو جدير به من العناية والاهتمام ، وعلى ذلك ظلت صفحات عديدة منه لم تُكتب بعد ، ويكفى أن نعلم أنه اكتشف فى الدير الأبيض فى سوهاج فى ستينات القرن الماضى نحو عشرة آلاف بردية ، لا نعلم شيئا عن أكثرها إلى الآن ، بل أن بعض ما كتب تعوزه الأمانة العلمية أو على الأقل حسن النية ، لأن الغربيين من مذاهب مسيحية أخرى هم الذين تولوا ذلك . ولسنا ننكر أن اهتمام علماء التاريخ المصرى الذى كاد أن يكون قاصرا على الحضارة الفرعونية طوال سنين عديدة ، قد أمتد أخيرا فشمل لغة القبط وأدابهم وفلسفتهم وأفكارهم وعلومهم وفنونهم ، إلا أن الجهود المبذولة فى هذا السبيل ظلت غير متكافئة ، مع ما يحق لهذه الدراسات من التقدير والاعتبار ، لما لها من آثار بالغة الأهمية ليس على التاريخ المصرى فحسب ، وإنما على تاريخ العالم والحضارة والإنسانية جميعا .

وهكذا ظل القبطى المثقف يعرف مع الأسف عن تاريخ غيره من الشعوب

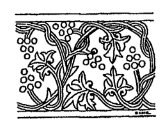
والأم ، أكثر مما يعرف عن تاريخ آبائه وأجداده ، أولئك الذين عاشوا منذ فجر التاريخ بمعدنا أصيلا قد تخبو إصالته ولكنها لا تموت أبدا .

فالعصر القبطى بكل مشتملاته إنما هو جزء من تاريخنا القومى ويجب علينا نحن ابناء مصر أن نُعنى به ، ونحن أحق من غيرنا بذلك إذ نستطيع أن نرى فيه جوانب كثيرة تغيبت عن الغريب . والتاريخ — كما نعلم — يربط بين ماضى الشعوب وحاضرها وعلى ضوء ذلك تستطيع أن تتلمس طريقها نحو المستقبل مهتدية بما يحفل به من العبر الحافزة والذكريات النافعة .

كل هذه العوامل الوطنية والعلمية دفعتنا إلى أن نتطلع إلى مؤرخينا وعلمائنا ، ودعوناهم إلى أن يقبلوا على تراثنا الأدبى القديم الذى لا يزال مغمورا فى بطون المخطوطات وأن يعاونونا بالنشر والتحقيق بما اجتمع لهم من الكفاية العلمية والغيرة الوطنية .

وليس من شك فى أن المسيحية أنعشت الأمل والثقة بالنفس فى نفوس المصريين بمبادئها الروحية المحددة وأحترامها للشخصية الإنسانية بعدما قاسوه على يد الرومان .

فقاموا بانجازاتهم الثقافية فى وجه صعوبات كثيرة ، وقد حافظوا على توازنهم بكل ما فى طاقتهم ، فكانوا الصانعين لذلك الحادث الروحى العجيب وهو النسك والرهبنة المسيحية التى انتشرت من مصر إلى العالم أجمع ، ولكنهم تمسكوا أيضا بما فى الحياة وبالمعقول فكان نساكنا شديدى التقشف ولكنهم ظلوا شفوقين أرقاء القلب وإنسانيين فلم ينغمسوا فى تلك الغرائب التى اتصف بها النساك فى الجماعات المسيحية الأخرى .



الفصل الثانى

برديات نجع حمادى

إن قصة البرديات التى أتى خصيصاً لها علماء اللغة القبطية من فرنسا وانجلترا وأمريكا وهولندا وبلجيكا وسويسرا والدنمارك والسويد وايطاليا ومصر ، والتى عثر عليها فى نجع حمادى منذ ١٥ عاما ، جديرة بالرواية .

ففى عام ١٩٤٥ ، كان بعض الفلاحين يحرثون عند سفح تل يدعى جبل الطريفى بتلك الناحية ، التى كانت تعرف فى العصر اليونانى باسم « كينوبوسكيون » وبالقبطية « سنيست » ، والتى تعرف الآن بقصر الصياد بجوار دشنا بمحافظة قنا ، وإذا بهم يعثرون على جرة كبيرة كان يرقد فيها منذ خمسة عشر قرنا ، ثلاثة عشر كتابا ، كل منها عبارة عن مجموعة صفحات من ورق البردى وغلافها من الجلد ، هذه الكتب يرجع تاريخها إلى القرن الرابع ، ومكتوبة باللغة القبطية وباللهجة الصعيدية ، ووجدت هذه البرديات طريقها إلى القاهرة ، حيث ظلت مخبأة لدى من تدعى الانسة داتارى كريمة أحد هواة جمع العاديات والمسكوكات ، وتشاء الصدف أن يعلم بها المرحوم الدكتور طوجو مينا مدير المتحف القبطى فى ذاك الوقت وأحد علمائنا فى اللغة القبطية وقد أختطفه الموت وهو فى ربيع العمر ، فما زال بصاحبتها يحاول أن يجعلها تتنازل عنها للمتحف فى مقابل مبلغ من المال ، حتى آلت إلى المتحف القبطى ، وعكف الدكتور طوجو مع بعض علماء القبطية الأجانب على دراسة هذه المخطوطات ، فإذا بهم أمام اكتشاف جليل ، ونود أن نذكر فى هذا المجال أن خمسين صفحة من أحد هذه المجلدات لقيت طريقها إلى معهد يونج بزيوريخ بسويسرا ، إذ أن الاستيلاء النهائى على هذه المجلدات كان بين أخذ ورد إلى عام ١٩٥٥ م .

وكان ما فى هذه المجلدات ينقسم تقريبا إلى ثلاثة أقسام : تعاليم غنوسطية بعيدة كل البعد عن المسيحية فى روحها وفى مدلولاتها ، وكتب أبوكريفا مسيحية تختلط بها الغنوسطية بدرجات متفاوتة ، ثم بعض رسائل منسوبة إلى من يدعى هرمس تريسمجيست .

وفى عام ١٩٥٩ ، نشر العالم الفرنسى جان دوريس ، أحد العلماء الذين عكفوا على دراسة هذه المخطوطات ، ترجمة أحد هذه المجلدات وهو « إنجيل توما » الأبوكريفى ، وإذا كنا قد نسينا عالمنا الدكتور طوجو مينا والمجهود الكبير الذى بذله فى سبيل الاستيلاء على ذلك الكنز الثمين ، فان عالمنا الفرنسى تولى عنا اعطاءه حقه وتخليد ذكراه ، إذ أهدى إلى ذكراه هذه الترجمة ، قائلاً الاهداء الآتى : « إلى ذكرى طوجو مينا ، الذى تولى إدارة المتحف القبطى بمصر مدة عشرة أعوام ، وقد تصفحت معه صفحات إنجيل توما هذا فى ربيع ١٩٤٩ ، قبل الاعلان عن اكتشافه » ، ولا يعرف الفضل الا ذووه .

وقد توفى المرحوم طوجو مينا عام ١٩٤٩ .

وجاء بعده الأستاذ الدكتور باهور لبيب لإدارة المتحف القبطى ، فبذل مجهوداً آخر يشكر عليه ، بأن أصدر الجزء الأول من صور فوتوغرافية لهذه المخطوطات ، فجعلها بذلك فى متناول عدد محدود من علماء اللغة القبطية .

والآن يجتمع علماء اللغة القبطية لبحث وسيلة نشر هذه المخطوطات على نطاق واسع ، لما لها من الأهمية ، وكم كنا نود أن يكون بينهم علماؤنا الذين رحلوا أمثال المرحومين يسى عبد المسيح ، والدكتور جورجى صبحى ، والدكتور طوجو مينا ، والدكتور جرجس متى ، والمستشرق القمص يعقوب مويزر ، الذى كتب عام ١٩٤٧ يقول : « الآن قد حان الوقت لننزع عنا رداء التوانى ، وان نقف حائلاً دون تدهور لغتنا ، قبل أن يدركنا السبات العميق فنستيقظ وإذا بصرح قوميتنا قد إنهار وآثارنا إنمحت ، وصرنا أمة بلا آثار وبلا لون .... فليكثر بين القبط المحافظون على لغتهم والمحبون لها ، ولينكبوا جديا على دراستها ليقفوا فخورين مرفوعي الرأس بين مصاف علمائها الأجانب ، وبهذا يمهدون الطريق لاحيائها ، ولتأخذ مكانتها اللائقة بها بين اللغات الحية ... »

(وطنى ٢٠ /١٢/ ١٩٧٠ م)

أكد السيد بدر الدين أبو غازى وزير الثقافة ، حرص وزارته على النهوض بالدراسات القبطية لما لها من أهمية علمية بالغة .

وقد أعلن الوزير هذا التأكيد فى افتتاح مؤتمر علماء اللغة القبطية ، الذى عقد يوم الاثنين الماضى ، بالمتحف القبطى بمصر القديمة ، واستمر ثلاثة أيام ، لبحث وسائل الاستفادة من أوراق البردى القديمة التى عثر عليها منذ نحو ربع قرن فى احدى قرى نجع حمادى بالصعيد ... والتى يعتقد أن لها دوراً هاماً فى تعريف العالم بفلسفة التراث الدينى فى عهود المسيحية الأولى .

(وطنى ٢٠ /١٢/ ١٩٧٠)

الفصل الثالث

بمناسبة العيد الألفى للقاهرة

المسيحية فى مصر فى القرن العاشر

نظرا لأن للحوادث مقدمات ولها نتائج فإن الحديث عن القرن العاشر وحوادثه يقتضينا أن نبدأ حديثنا عند منتصف القرن التاسع ، كما أن ما كان لبعض هذه الحوادث من ذيول يجرنا إلى أوائل القرن الحادى عشر .

حكمت مصر فى هذا القرن أربعة أنظمة من الحكم ، حكمها الطولونيون والعباسيون والإخشيد والفاطميون . وكانت مصر مستقلة طوال هذا القرن ما عدا ثلاثين عاما (٩٠٥ م ـــ ٩٣٥ م) كانت تابعة فيها للخليفة العباسى فى بغداد . وجلس طواله على كرسى القديس مرقس ستة باباوات .

والآن خطوة إلى الوراء ، ففىعام٨٥٩ م جلس الأنبا شنودة الأول البابا الخامس والخمسون على كرسى القديس مرقس ، وبمجرد رسامته أمر الوالى فى ذاك الوقت بالقبض عليه إلى أن يوفى جزية خاصة ، ولكن البابا إستطاع أن ينجو بنفسه بالتنقل بين الأديرة ، ولكن ما أن ترامى إلى مسامعه أن رجال الكنيسة تُسلب أموالهم ويضطهدون بسببه حتى بادر بتسليم نفسه ، ودفع أربعة آلاف دينار ذهبا ثمنا لحرينه . وانتهز بعد ذلك فترة هدوء وإستقرار فعنى بشئون رعيته الروحية والمدنية ، ناصبا نفسه لهم كأب وكحاكم . ونتبين من رسائله الفصيحة أن شنودة كان عالما لاهوتيا من الطراز الأول . وهذا أول من استعمل من الباباوات إختصار جملة (يسوع المسيح ، الابن ، الله) على رأس كتاباته ورسائله بالقبطية ⲒⲤ ⲬⲤ ⲨⲤ ⲐⲤ واستمر ذلك التقليد إلى وقت قريب . وفى عهده حدث تطور كبير فى بناء المساجد على يد أحد المهندسين القبط النوابغ ، ففى عام ٨٨٠ م أراد أحمد بن طولون أن يبنى مسجدا ، فتقدم إليه ابن الفرغانى وتعهد بأن يبنى المسجد على أعمدة وعقود من حجر عوضا عن الأعمدة الرخامية .

ونتبين فى عهد ابن طولون محاولات الولاة لإضعاف شوكة الباباوات بوسائل مختلفة منها :

١ — فرض ضرائب باهظة على البابا .
٢ — إنتهاز فرصة أية شكوى تقدم ضده للنيل منه .
٣ — نقض ما يصدر من أحكام فى حدود سلطة وظيفته ضد بعض رجال الدين إذا التجأوا إلى الولاة .

تنيح شنودة عام ٨٨١ م وخلفه خائيل الثالث . ويميز تاريخه كما نقرأه فى كتاب المؤرخ ساويرس بن المقفع بحادثين هامين ، يدعوان إلى الأسف ، إذ ينمان عن تدهور أخلاق الرعاة وعدم تورعهم عن التنكيل ببعضهم البعض تشفيا وانتقاما ، غير مراعين أصول المحبة الشاملة التى أوصاهم بها سيدهم له المجد .

ذهب الأنبا خائيل لتكريس كنيسة جديدة على اسم القديس الشهيد بطلماوس فى جهة دينوشار التابعة لأيبارشية سخا . وعند وصوله سأل عن الأسقف ، فقيل له أنه مشغول مع بعض الضيوف ، ورجاه من معه من الأساقفة أن يبدأ بإقامة القداس ، وبينما هو يبدأ فى رفع البخور حضر الأسقف منفعلا لعدم أخذ إذن منه قبل الصلاة فى إيبارشيته ، وتمادى فصدر منه ما لا يليق فى حق نفسه وإخوته الأساقفة وخرج غاضبا . وانعقد مجمع بعد ذلك قرر عزله فما كان منه إلا أن ذهب إلى ابن طولون ليشكو إليه البابا ، وتمادى فى نكايته فأخبره بأن لدى البابا من الأموال ما يكفى للصرف على الحملة التى كان الحاكم على وشك إرسالها إلى سوريا ، عند ذلك طلب ابن طولون من البطريرك كل ما لديه من أوانى ، وعندما رفض البطريرك زجه فى السجن لمدة أكثر من عام ، وأخيرا أفرج عنه على أن يدفع عشرة آلاف دينار ذهبا فى ظرف شهر ، ومثلها بعد أربعة أشهر . وبدأ البطريرك فباع قطعة أرض ملك الكنيسة فى بابيلون ، ثم أعطى اليهود كنيسة كان يملكها الملكيون ، ويقال أنه كان بها قبر لأرميا النبى ، وهى ما زالت فى أيديهم إلى يومنا هذا ، وكان بها كتاب للعهد القديم بخط عزرا نفسه وقد اختفى أخيرا . وفرض الأساقفة مبالغ على رعيتهم لمعاونة البابا ولكنها لم تف . وكان هناك عشرة كراسى خالية للأسقفية ، فاقترحوا عليه كوسيلة لجمع المبالغ المطلوبة أن يرسم عليها من يدفع أكثر من غيره ، وهكذا وضع هذا البابا ، الذى كان بدوره فريسة وشاية أحد

الأساقفة ، أساس ما يعرف (بالسيمونية) فى كنيستنا . وقد ندم على ذلك بعد بضع سنوات ندما كبيراً .

وبعد كل ذلك تبقى مبلغ أيضا جمع من كهنة الاسكندرية على أن يسدد لهم على أقساط سنوية ، وقد قدموا ذلك عن طيب خاطر بإعتباره أسقفهم فهم أولى بنجدته وحفظ كرامته ، وقد انتهز بعض البطاركة بعده فرصة هذا الوعد فاتخذوه تكأة للاستمرار فى السيمونية بحجة جمع المال لدفع الأقساط السنوية لكهنة الاسكندرية .

تنيح خائيل الثالث عام ٨٩٩ م ، وظل الكرسى بعده شاغرا بضع سنوات ، وقد يكون ذلك للزهد فى هذا الكرسى الذى كان يقاسى كل من يجلس عليه الكثير من الإرهاق والإهانات،وكانت تلك صورة لحالة عدم الاستقرار الذى كانت تستهدف له الكنيسة فى تلك العصور .

وفى عام ٩١٠ م انتخب غبريال الأول الذى اتبع أيضا السيمونية ، ثم خلفه كوزماس الثالث الذى شغلته أمور كنيسة الحبشة ، ثم جاء بعده مكاريوس الأول (٩٣٣ — ٩٥٣ م) وفى عهده تولى على الملكين البطريرك أوتيخوس أو سعيد بن بطريق ، وهو طبيب ومؤرخ أيضا ولد فى مدينة الفسطاط ، وله كتب فى الطب ولكنه أشتهر بكتابه « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ، فيه التاريخ من بدء الخليقة إلى عهده ، تولى البطريركية بين عامى (٩٣٣ — ٩٤٠ م) ، وقد دب الانحلال بعده فى كنيسة الروم الأرثوذكس (الملكين) ، وذهبت فى سبات عميق مدة خمسمائة عام إلى درجة أن ليس لدينا ذكر عنها فى التاريخ طوال تلك المدة ، كما ليس لها جدول منتظم لبطاركتها .

وعلى العموم كانت مصر فى أواخر القرن التاسع حتى النصف الأول من القرن العاشر مسرحا للثورات السياسية العنيفة انعكست أثارها على الكنيسة وابنائها ، وذلك بالنسبة إلى تقلبات الدول التى تناوبت الحكم فيها .

تولى البابابوية مينا الثانى (٩٥٦ — ٩٧٥ م) ، وفى عهده تجددت الاضطهادات وقد حاول ملك النوبة المسيحى مرارا مساعدة القبط ، وفى

عام ٩٦٣ م نشأت عن ارتباك الحكم فى البلاد مجاعة فادحة وإنتشر الطاعون الذى ذهب ضحيته أكثر من ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، وقد أدى كل ذلك إلى زوال ايبارشيات كثيرة .

وفى عام ٩٦٨ م أغار الفاطميون على مصر وأنشأ جوهر الصقلى القاهرة التى انتقلت الحكومة إليها عام ٩٧٢ م ، وبنى المعز الجامع الأزهر الشهير .

وعند نياحة البابا مينا اجتمع الأساقفة والأراخنة فى كنيسة أبى سرجة ، وبينما هم يتناقشون دخل عليهم من يدعى أفرام السريانى وكان ذا حظوة لدى الخليفة ، فأجمعوا على إنتخابه . ويخبرنا كتاب « تاريخ البطارقة » عن أعجوبة جبل المقطم التى حدثت فى عهد هذا البابا ، وهى تتلخص فى أن وزير المعز اليهودى المدعو يعقوب بن كلس أراد أن يقلل من شأن المسيحية ، فرجا من الخليفة أن يعقد مع البابا جلسة للنقاش الدينى فى حضوره ، وفى خلال ذلك النقاش علم الخليفة أن لدى المسيحيين آية تقول أن من له إيمان يزعزع الجبال ، فطلب من الأنبا أبراهام أن يضع إيمانه وإيمان شعبه فى الامتحان لتنفيذ هذه الآية ، وقد قام البابا بذلك وحدثت الأعجوبة . وتبين أيضا هذه القصة إلى أى مدى ذهب الولاة الفاطميون فى تسامحهم إذ سمحوا بمناقشة المعتقدات المسيحية فى حضورهم . ويخبرنا أيضا ساويرس أن المعز قد سمح للبابا بإعادة بناء دير القديس مقاريوس فى وادى هبيب ، كما اختار أيضا بعض المسيحيين ليشغلوا مناصب هامة . وعند وفاة ابن كلس اختار العزيز وزيرا مسيحيا مكانه وهو عيسى بن نسطور كما لم يفرق فى حكمه بين المواطنين بسبب الدين .

وفى عهد البابا أفرام دخلت إحدى الرذائل فى بعض العائلات القبطية ، خصوصا عائلات الموظفين ، وهى عادة التسرى أى اتخاذ السرارى ، فكان عليه أن يحارب السيمونية والتسرى . وكان أبو السرور أحد كبار الموظفين القبط ، قد عارض أمر البابا فحرمه ، ويقال أنه تربص له مقابل ذلك ودس له السم .

وخلفه فيلوثاؤس (٩٨٠—١٠٠٤ م) ، وفى عهده تمت رسامة ساويرس بن المقفع أسقفاً على الأشمونين حوالى عام ٩٨٥ م ، لقد كان كاتبا مجيدا

ومؤرخا عظيما ، وتعتبر كتبه من أثمن كتب الشرق المسيحى فى القرن العاشر ، ويبدو أن اللغة العربية إستعملت على مدى واسع بين القبط فى هذا القرن ، ولاشك أنه كان لوجود بطريرك سريانى الأصل وهو الأنبا أفرام أثر كبير فى التشجيع على ذلك ، ويخبرنا ساويرس فى مقدمة كتابه تاريخ البطاركة أنه رجا بعض الإخوة المسيحيين الضالعين فى القبطية واليونانية أن يترجموا له كل ما يمت إلى هذا التاريخ ويقال لنا أن لساويرس ستة وعشرين مؤلفا ، وإنما أشهرها كتابان :

١ ـــ تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية .
٢ ـــ كتاب المجامع وهو الذى يدافع فيه عن معتقدات الكنيسة ضد ما كتبه سعيد بن بطريق وقد ترجم وطبع بالفرنسية بواسطة الأب شبلى .

تنيح فيلوثاؤس عام ١٠٠٤ م إذ صمت فجأة بينما كان يقيم القداس فأكمله أحد الأساقفة . وفى عهد العزيز بالله نقل البابا كرسيه من الأسكندرية إلى القاهرة .

خلف زكريا فيلوثاؤس على الكرسى المرقسى ، وهو أحد رهبان دير القديس مكاريوس . وفى عام ٩٩٦م أى قبل ارتقائه ببضع سنوات توفى العزيز وخلفه ابنه الحاكم فى الثانية عشرة من عمره وكانت أمه مسيحية ، وقد حدث فى أيامه أعظم اضطهاد رأته الكنيسة منذ الفتح العربى . وقد بدأ فأمر بالقبض على زكريا وأمر بحبسه ثم أمر بعد ذلك بثلاثة أشهر ـــ كما يخبرنا المقريزى ـــ برميه فى جب الأسود التى لم تتحرك لمهاجمته ولم تمسه بسوء .

إستمر الإضطهاد للكنيسة نحو تسع سنوات قضاها زكريا فى السجن ، وأخيرا زاره الحاكم فى سجنه فأدهشه أن يرى رجلا مسنا ضعيفا يمتد نفوذه وهو فى سجنه من المدن الخمس الغربية غربا إلى الحبشة جنوبا ، أى بما يفوق نفوذه المحوط بالجيوش الجرارة . عند ذلك أمر بوقف الإضطهاد وسحب كل ما أصدره من قوانين وأرجع للمسيحيين أملاكهم . ولكن ما ضاع وما ضرب طوال عشر سنوات ترك أثره على الكنيسة المصرية إلى يومنا هذا . وتنيح زكريا عام ١٠٣٢ م .

الفصل الرابع

على هامش تاريخنا القومى

بمناسبة ألفية القاهرة

مخطوطات عربية لمؤلفين من القبط

منذ القرن العاشر ، ظهر بين القبط كتاب وضعوا لنا مؤلفات ثمينة بالعربية أرادوا أن ينقلوا عقائدنا وطقوسنا وتاريخنا من القبطية ، التى كانت قد إتخذت الأديرة كملجأ أخير لها وتلاوة القداس فى الكنائس باللغة القبطية ، ولسان حالها يردد مع شاعر النيل :

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى ومنكم وإن عز الدواء أساتى

وقام بعضهم بوضع قواعد وقواميس فى اللغة القبطية .

وقد إمتدت أيدى كثيرة إلى هذه المؤلفات ، فى عهود الجهل والظلام التى تردت فيها البلاد خصوصاً فى أواخر عصر المماليك ، وعكف العلماء والأجانب عليها فى لهفة يستخلصون ما فيها من زبد ويترجمونها إلى اللغات الأجنبية لتكون مرشداً دينياً وعقائدياً لهم ، يتبينون فيها خلاصة تلك العقول الجبارة ، التى جمعت بين الدين والفلسفة ، وأخرجت منهما توليفة فريدة فى تغذية الفكر والروح .

وفى عام ١٩٣٩ م نشر الأب بولس سباط فى المجلد الخامس لجمعية الآثار القبطية تحت عنوان « مخطوطات عربية لمؤلفين من القبط » ، ما أمكنه العثور عليه من المخطوطات العربية لبعض كتاب القبط منذ القرن العاشر الميلادى ، فإذا بعدد هذه المخطوطات يصل إلى إثنين وثمانين (٨٢) مخطوطاً لثمانية وثلاثين كاتباً !

وأولهم ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى القرن العاشر وواضع سيرة الآباء البطاركة .

ومما يدل أن كنوزنا قد تسرب أغلبها إلى الخارج أن جميع من بحوزتهم هذه المخطوطات فى الخارج ما عدا أربعة فقط فى القاهرة وهم : القمص بطرس

عوض الله ، ومتى تادرس الكتبى ، ومرقس جرجس الكتبى ، ثم كنيسة السيدة للفرنسسكان بالقاهرة .

وهناك طبعاً مؤلفات كثيرة غير هذه ومؤلفون من القبط غير هؤلاء لم يتوصل إلى معرفتهم الأب بولس سباط . وهذه المؤلفات منتشرة فى مكتبات كثيرة فى الشرق والغرب وفى مكتبة الفاتيكان .

والآن وقد أصبح من السهل نقل كتب بأسرها بطريقة (الميكروفيلم) ، يا حبذا لو أن معهد الدراسات القبطية أعطى منحة لإثنين من أخوتنا الرهبان ذوى الميل للبحث والدرس ، يجوبان بها أوروبا وأمريكا بحثاً عن مخطوطاتنا فى جميع المكتبات الشهيرة فى الجامعات والعواصم وفى الفاتيكان ، ووضع فهرس لها وتبويبها وتصويرها ، فيؤديان بذلك خدمة جليلة للكنيسة وللتاريخ وللمسيحية عموماً ، وذلك عمل سيرفع كثيراً من شأن معهد الدراسات ويجعله مقصداً لكل باحث ودارس فى مخطوطاتنا وكنوزنا ، مما سيؤدى إلى طبعها ونشرها تدريجياً فيغنى مكتبتنا ويسد فراغاً كبيراً فى تاريخنا القومى .

ومن طريف ما نشره الأب بولس سباط مخطوطات من يدعى عبد المسيح الإسرائيلى المُتنّصر، الذى كان يعيش فى مصر فى القرن الحادى عشر ، ومن مؤلفاته :

١ ــ مقالة فى إثبات مجىء السيد المسيح .
٢ ــ مقالة فى الروح أو النفس .
٣ ــ مقالة فى الرد على اليهود .
٤ ــ مقالة فى إنتصار الصليب على اليهودية والوثنية .

ومن الغريب أن الأب بولس لم يذكر فى المؤلفين إسم القديس بطرس السدمنتى من آباء القرن الثالث عشر ، وله أربعة عشر مؤلفاً منتشرة بين مكتبات أوروبا : فى المكتبة الأهلية بباريس ومكتبة الفاتيكان ، وأشهرها كتاب «القول الصحيح فى آلام السيد المسيح»، وفى مقدمة هذا الكتاب مقالة فى التفسير قيمة ، وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة أبى الإصلاح القبطى حوالى عام ١٨٧٤م . ولم نعرف شيئاً عن المؤلفات الأخرى سوى رسالة تقدم بها إلى

جامعة ليون بفرنسا لنيل الدكتوراه الأب بيترفان آكر المستشرق اليسوعى ، بعد أن جاب عواصم أوروبا ثم أديرة المشرق بحثاً عن مؤلفات ذلك القديس المصرى ، الذى كان راهباً بدير مار جرجس بسدمنت الجبل بمحافظة الفيوم .

وأكثر المخطوطات التى نشر أسماءها الأب بولس سباط ترجع إلى مؤلفين من القبط فى القاهرة فى القرن الثالث عشر ، وهذا القرن يزخر بأسماء لامعة ألفت بالعربية كتباً كثيرة قيمة ، وتقتضى كثرة المؤلفين فى هذا القرن دراسة خاصة لأجل دراسة البيئة فى ذاك الوقت ، والدافع لهذه النهضة الأدبية والدينية .

ومن أهم هؤلاء الكتاب المؤتمن أبو إسحق بن فخر الدولة بن العسال وهو أحد ثلاثة إخوة نبغوا فى التأليف بالعربية فى ذاك العصر ، ومن مخطوطاته التى وجدها الأب بولس سباط ما يأتى :

١ ــ الأناجيل المقدسة ــ مقارنة بين النصوص القبطية والعربية والسوريانية واليونانية .
٢ ــ مقدمة فى رسائل بولس الرسول .
٣ ــ تفسير رسائل بولس الرسول .
٤ ــ تفسير سفر الرؤيا .
٥ ــ مجموع أصول الدين ومسموع محصول اليقين .
٦ ــ كتاب الصحائح فى الرد على النصائح .
٧ ــ خطب كنسية .
٨ ــ فصول مختصرة فى التثليث والتوحيد عملت فى القاهرة فى أواخر عام ٦٣٩ هجرية .
٩ ــ كتاب فى تفسير ما ورد فى الإنجيل المجيد عن آلام السيد المسيح حين إبتدأ بها إلى حين صعوده إلى السماء .
١٠ ــ مقالة فى إيضاح تقسيم تدابير السيد المسيح من حين الحبل به إلى حين الصعود إلى السماء .
١١ ــ أرجوزة فى مختصر مواريث النصارى . وهو الذى طبعه المرحوم جرجس فيلوثاؤس عوض بإسم المجموع الصفوى .
١٢ ــ مقالة فى العقائد النصرانية .

١٣ ــ مقدمة البصخة المقدسة .

لو أن هذه المخطوطات فقط كانت مطبوعة لدينا ويدرسها طلبة الأكليريكية لكان خريجوها من فطاحل العلماء فى العقيدة ، فكم يكون الحال لو كان لدينا الـ ٨٢ مخطوطاً ينهل منها طلبة الكلية الأكليريكية ؟ إذن لأصبح حال كنيستنا اليوم فى مستوى أعلى كثيراً مما هى عليه الآن ، ولأصبح كهنتنا ليسوا بأقل شأناً من أسلافهم الذين وجد الإمبراطور هدريان فى كل منهم فيلسوفاً وعالماً فى الرياضيات .

إننا الآن فى القرن العشرين نروم فى أكليروسنا ألا يكونوا أقل علما ومعرفة ومستوى من سائر العلمانيين ، فإذا ما إغترفوا من ذلك التراث الروحى العريق ونهلوا من العلوم الحديثة ، وأتقنوا اللغة العربية والقبطية وبجوارهما لغة حية منتشرة ، وإقترح أن تكون الفرنسية ، إذن لكان لدينا أكليروسا كلهم علماء لا يدانيهم أكليروس آخر فى العالم ، ولكانوا مفخرة لكنيستهم ولوطنهم ، ولوضعوا حلقات كثيرة فى تلك السلسلة القيمة التى تركها علماء القرن الثالث عشر ، ولأكتسبوا إحترام القاصى والدانى . ولكانت أعمالهم ــ ثمرة ذلك التكوين ــ منتشرة فى طول البلاد وعرضها من مدارس ومشاغل ومساعدات إجتماعية مختلفة ، كل ذلك بأساس علمى وفى نظام . ولكانت مؤلفاتهم ذات قيمة يتخطفها أبناؤهم .

إننا نسمع عن آباء يتقدمون لنيل الدكتوراه ، وها هو معهد الدراسات القبطية ، كم من أكليروسنا أو رهباننا تقدم منذ إنشائه برسالة لنيل الدكتوراه ؟ وكم منحة أعطى منذ تأسيسه ؟

إن محور رقى كنيستنا هو فى رفع مستوى أكليروسنا روحياً وعلمياً ، فماذا نحن فاعلون ؟

(مجلة مدارس الأحد ــ أغسطس ١٩٦٩)



الفصل الخامس

رسالة دكتوراة أمام جامعة ليون
عن القس بطرس السدمنتى

بطرس السدمنتى هو احد الكتاب والمؤلفين الذين زودوا مكتبتنا الدينية والكنيسة فى القرن الثالث عشر بالعديد من النفائس . وكان راهبا فى دير مارجرجس بسدمنت الجبل بمحافظة الفيوم، وهو واضع كتاب «القول الصحيح فى آلام السيد المسيح » . والفضل فى معرفتنا بهذا الكتاب يرجع الى المطبعة التى احضرها ابو الاصلاح القبطى الانبا كيرلس الرابع ، فكان بين المخطوطات القليلة التى طبعت بها ، ومما يدعو إلى الاسف أننا ما زلنا نجهل الشيء الكثير من تراث آبائنا . والقس بطرس السدمنتى لهأربعة عشر مؤلفا . وهذه المؤلفات مبعثرة بين الكنيسة الاهلية بباريس ومكتبة الفاتيكان ومكتبات بعض أديرة لبنان . أما الذى عنى بالبحث عنها والتنقل بين هذه المكتبات وهذه البلدان ليخرج تلك الكنوز الى عالم النور فهو أحد المستشرقين (الراهب الجزويتى بطرس فان آكر) جزاه الله خيراً .

ولعل مجهوده هذا ، يحفز أبناء الكنيسة القبطية على البحث عن الحلقات الأخرى فى سلسلة كتابنا فى هذا القرن « الثالث عشر » ، وخصوصا الرهبان الذين قد تسمح ظروفهم بالإطلاع على مكتبات الأديرة ، ولهم أن يتقدموا بنتيجة ابحاثهم الى المعهد العالى للدراسات القبطية ، فنسمع عن رسالات دكتوراة فى ذلك تقدم اليه ، ويتبع ذلك طبع هذه الرسالات فنقرأ عن كنوز كثيرة فى تراثنا الروحى ، وهى غذاء دسم للنفوس ، لا يعلم جيلنا المتعطش الى الروحيات شيئا عنها ، وهى كتب يجد فى بطونها حياة .

وطنى ١٩٦٩/٢/٢٣

الباب الرابع عشر

من تاريخنا الحديث



البابا كيرلس الرابع
البطريرك العاشر بعد المائة من باباوات الكرسي المرقسي
(١٨١٦ م ـ ١٨٦١ م)

الفصل الأول

حفل الذكرى المئوية الأولى لأبى الاصلاح القبطى بالأسكندرية

سيدى مندوب قداسة البابا ، أبائى وإخوتى .

فى هذا اليوم يتم مرور مائة عام على نياحة الأنبا كيرلس الرابع الملقب بأبى الإصلاح والخليفة العاشر بعد المائة للقديس مرقس الإنجيلى . وهو كأسلافه العظام استولى على مشاعره ، وألهمه ، وأنار له الطريق ، وقواه فى الملحمة الكبرى التى خاضها ، ذلك الحب العميق لرعيته التى أقامه الرب عليها . وإذا كان أثناسيوس الرسولى وكيرلس الكبير قد امتازا بمحاربتهما للبدع والهرطقات ، فقد تميز كيرلس الرابع بجهاده ضد عدو آخر للكنيسة لا يقل عنها خطورة ويهد من كيانها مع الزمن ، ومازالت تئن مما خلفه من آثار فى مختلف نواحى نشاطها ، ألا وهو الجهل ، ذلك الشبح البشع ، الذى تكمن تحته مصائب البشرية وآلامها . لقد شن عليه حرباً عواناً دون هوادة ، منذ اللحظة التى قفل فيها وراءه ، دون العالم ، باب دير القديس أنطونيوس ، بعد أن سار إليه من قرية الصوامعة الشرقية بإقليم أخميم ـــ ذلك الإقليم الذى أنبت الأنبا شنوده رئيس المتوحدين ـــ فى تصميم وعزم ثلاثة أيام بلياليها ، تدفعه قوة خفية ، هى تلك الدعوة التى يضعها الرب فى قلوب بعض أبناء هذه الأمة ، فيهبون نادرين أنفسهم لمحبة الرب والبذل والخدمة . هذه الطغمة من الرجال ، هى التى حفظ الرب بواسطتها كنيستنا خلال أحلك العصور إلى وقتنا هذا ، متمماً قوله لها « وها أنا معكم إلى انقضاء الدهر » .

وبعد أن أمضى فى الدير سنتين فى التعبد والتأمل ، أجمع إخوته الرهبان على انتخابه للرئاسة بعد وفاة الرئيس ، وفى ذلك يكتب المرحوم ميخائيل بك شاروبيم فى الجزء الرابع من تاريخه (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) . « ولاه بطرس البطرك على دير أنطونيوس الأعلى فأحسن التدبير ورتب الأمور على أحسن ما يرام ، وشدد فى ملازمة حدود الرهبانية ، فافتتن فى أيامه جماعة الرهبان فتنة كبرى ، ولبثت أياماً حتى تمكن من إخماد نارها » كانت هذه

موقعته الأولى ضد الجهل ، ولم يكتف بكسب هذه المعركة ، وبإقناع الرهبان أن أساس قوانين الرهبنة اعتزال العالم ، بل أراد أن يعالج الداء من أساسه ، فجمع الكتب التى كانت مكدسة فى الدير يعلوها الأتربة ونسيج العنكبوت ، وضم إليها ما استطاع مما فيه فائدة ، وجعلها فى قاعة للمطالعة ، وأوكل عهدتها إلى راهب خاص ، ورتب أوقاتاً للمناظرة فى مواضيع الأدب والتاريخ والدين لينمى مدارك الرهبان ، وعكف هو أيضاً معهم على تنمية مواهبه ومعلوماته .

وتشاء العناية الإلهية أن يرسله الأنبا بطرس فى أواخر أيامه إلى أثيوبيا ليصلح ذات البين بين المطران وبعض الرهبان عقب خلاف نشأ بسبب الجهل أيضاً ، وبينما هو فى مهمته هذه تنيح الأب البطريرك .

وسرعان ما اتجهت الأنظار إلى ذلك الراهب المصلح ، ولكن الجهل وما يكمن تحته من تفكك وانحلال ، شن عليه هجوماً عنيفاً من بعض أبناء كنيسته ، سداه ولحمته الإفك والبهتان ، وذهبوا إلى حد أن اتهموه فى بتوليته كراهب ، فأدعوا أنه تزوج فى الحبشة وله ولدان ، واستشهدوا على ذلك بقس حبشى حاقد عليه ، ولم يصدق أحد هذه الفرية ، ولم تزده هذه الآلام النفسانية التى تحملها بكل صبر وجلد ، سوى إشفاقاً على القبط من هذه الهوة التى ترددوا فيها ، وتصميماً على أن يبذل جهده فى سبيل نشلهم منها .

وأخيراً ، وبعد خلاف دام عشرة أشهر ، استدعى بكل أسف أن يتدخل فيه الأغراب ، أمثال بطريرك الأرمن مرتين ، رضى الفريق المعارض أن يرسم مطرانا عاما فى ١٧ أبريل سنة ١٨٥٣ ، وفى ذلك تقول سيدة أجنبية ، مستغربة هذا الوضع (الغير أصولى بالمارة) حسب تعبيرها ، والذى لم يكن له مبرر سوى حب الإثرة بتنفيذ الكلمة ، تقول السيدة بوتشر فى الجزء الرابع من كتابها (تاريخ الأمة القبطية) « تم الاتفاق بين الطرفين (الأساقفة والعلمانيين) بطريقة تحكيم غريبة : وهى أنه يصير تأجيل انتخاب البطريرك ، ويصير تكريس كيرلس مطراناً لبابيلون أى مصر القديمة ، على شرط أنه إذا ظهر كفاءة تامة فى وظيفة الأسقفية ينتخب بطريركاً ولكن كانت مواد هذا التحكيم الغريبة غير أصولية بالمرة ، لأنه طبقاً لمواد القوانين الكنسية القبطية ، لا يجوز تحليل أو تأويل تلك المواد التى منها عدم جواز انتخاب أسقف لوظيفة

البطريركية ، ولكن بالرغم من ذلك ، فقد قام الأساقفة بمعاهدتهم مع الشعب بكل أمانة . وانتخبوا كيرلس على العرش البابوى الخالى ، حتى قبل أن ينتهى موعد زمن التجربة » . هذا ما قالته السيدة بوتشر .

ونتيجة لقيام الأساقفة بمعاهدتهم مع الشعب بكل أمانة ، أنه ما أن رسم مطراناً حتى تجلت فى أعماله بوضوح صفات الزعامة والعبقرية . تلفت إلى القطيع الغريق ، فوجده هزيلاً عليلاً ، مائة ألف أو يزيدون قليلاً ، خلفتهم أحداث بضعة عشر قرناً ، فى غمرة من الجهل والفقر والمذلة ، فاستولى عليهم الخمول واليأس والانحلال ، حتى نسوا تاريخهم ولغتهم وآدابهم ، وحتى فقدوا عزتهم وكرامتهم وحقوقهم واعتبرهم المؤرخون بسفينة ضائعة ولكنه أحب هذا القطيع واحتضنه ، ناسياً كل ما يصيب شخصه فى سبيل انتشاله من وحدته التى تردى فيها ، ويصف لنا صاحب الكافى حاله فى هذه الفترة فيقول « ولوه مطراناً على كرسى مصر ووكيلاً للكرسى البطريركى ، فلم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة ، ووقع الخلاف ، فتفرقت الكلمة ، وتحزبت الأحزاب ، وذهب كل إلى مذهب فى أمر كيرلس ، وكبرت الوحشة بينه وبين فريق منهم ، وقد كانوا هم مقدمى القوم وأصحاب الكلمة فيهم ، فحجروا عليه فى جميع تصرفاته ، ومنعوه من النظر فى شئون الملة ، واشتدوا عليه شدة بالغة ، فكان إذا أراد النوم لا يجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشاً ، وإذا جاع لا يطعم إلا ما قدموه إليه ، وإذا زاره أحد فلا يأذنون له بلقائه ، وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لا يألوا جهداً فى تأليف القلوب المتفرقة ، والنفوس المتنافرة ، ومازال حتى أفلح فى ضم الكل إلى الكل ، فصاروا على الخير أعواناً ، وفى ذات الله إخواناً ، فطرحوا عنهم الخلاف . فلما كان تاسع رمضان سنة ثمانين ومائتين وألف هجرية (وهو الموافق ٤ يونيو سنة ١٨٥٤) بايعه الأساقفة فى أبهة زائدة ، وطيروا الخبر بذلك إلى الأفاق ، وفرحوا بولايته عليهم ووفد عليه المهنئون من كل صوب وحدب » وكان العمل الآخر الذى قام به فى غيرة كبيرة وتصميم هو وضع أساس نهضة القبط ، بقيادتهم إلى طريق الرفعة والمجد ، حاملاً أمامهم فى عزيمة ثابتة وبيد لا يتطرق إليها الكلل مشعل العلم والعرفان إذ هداه قلبه الكبير وعقله المستنير إلى أن التعليم والتهذيب هما العلاج

الشاق والسلاح الماضى . ويحدثنا فى ذلك مؤرخ سورى ، هو إبراهيم أفندى الطيب فى كتابه « مصباح السارى ونزهة القارى » المطبوع فى بيروت عام ١٨٥٥ فيقول « وفى حارة الأقباط مدرسة عظيمة يعلمون فيها اللسان القبطى القديم والتركى والإيطالى والفرنساوى والإنجليزى والعربى ، وهم يقبلون فيها من جميع الطوائف ، وينفقون على التلاميذ من مال المدرسة ، وهذه بناها البطرك كيرلس القبطى ، وأنفق عليها نحو ستمائة ألف قرش ، وكل هذا بخلاف ما نعهده فى بلادنا من الأكليروس وأوجه الشعب » ، وهكذا أرجع الأنبا كيرلس الرابع لباباواتنا سيرتهم الأولى وأصبح يضرب به المثل فى القيادة الحكيمة والهمة وبعد النظر والسير بأمته إلى مكانة اللائق بها .

وكانت سياسة الأنبا كيرلس فى الكلية تعكس أخلاقه وشخصيته ، ففتحها فى وجه الطلبة من جميع الملل والنحل ، ووزع الكتب والأدوات مجاناً ، ومع ذلك لم يكن بها أكثر من مائة وخمسين طالباً ! وافتتح فى نفس العام — ١٨٥٥م — ثلاث مدارس أخرى واحدة للبنات فى الأزبكية ، ففتح بذلك فى وجه الفتاة لأول مرة فى مصر منذ الفتح العربى باب العلم ، وأخرى للبنات فى حارة السقايين ، والثالثة للبنين فى تلك الجهة أيضاً ، وأحضر أول مطبعة أهلية فى مصر وأنشأ أول مكتبة فى الدار البطريركية ، جمع فيها حوالى الألف كتاب مما وجده مشتتاً فى الدار البطريركية وفى الأديرة والكنائس القديمة ، عاملاً بذلك على نشر الكتب والمعرفة فى أوسع مدى وبين أوساط الأكليروس والشعب .

تنيح الأنبا كيرلس فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦١ بعد أن كانت جذور الإصلاح التى غرستها يده قد نمت ، فتعهدها أبناؤه وتلاميذه من بعده ، يستمدون من روحه قوة رائعة ، فبعد كيرلس الرابع بدأت الموجه الثانية الإصلاحية عام ١٨٧٣ فقام ابناؤه بإنشاء جمعية المساعى الخيرية التى تطورت فيما بعد إلى جمعية التوفيق ، التى عنيت بفتح المدارس، والجمعية الخيرية القبطية الكبرى التى عنيت بأعمال الإحسان ، وقاموا بالدعوة إلى أول مجلس ملى عام ١٨٧٤ وفى ١٧ نوفمبر عام ١٨٧٧ أسس المرحوم المعلم ميخائيل عبد السيد والد الزميل

الكبير أستاذنا الدكتور ابراهيم عبد السيد ، جريدة الوطن وطبعها فى مطبعة أبى الإصلاح فكانت أول جريدة عربية بمصر يديرها ويشرف عليها مصرى .

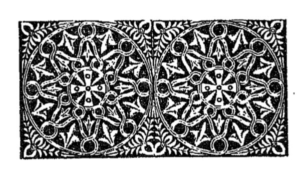
وفى عام ١٨٦٣ م كان للقبط ما لا يقل عن اثنتى عشرة مدرسة من ٥٩ مدرسة خصوصية ، وفى عام ١٨٧٥ كان لهم ١٨ مدرسة ، وفى عام ١٨٧٨ خمسة وعشرون مدرسة ، أى زاد عدد المدارس فى بحر خمسة عشر عاماً إلى أكثر من ١٠٠٪ .

ولأول مرة فى تاريخنا الحديث يبرز من بيننا مؤرخون ، يكتبون تاريخيا ، وكانوا من بين تلاميذه ، المرحوم يعقوب بك نخلة رفيلة ، وضع كتاباً فى (تاريخ الأمة القبطية) وأراد المرحوم ميخائيل بك شاروبيم أن يضع تاريخياً لأبى الإصلاح ، فإذ به يتدرج ويتسع أمامه الموضوع إلى أن وضع كتابه (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) فى خمسة أجزاء .

وقامت جمعية الإخلاص القبطية عام ١٩١١ تدعو إلى الاحتفال باليوبيل الذهبى لنياحته . فإذا بهذه الدعوة توحى إلى المؤرخ المرحوم جرجس فيلوثاؤس عوض كتابه تاريخ أبى الأصلاح .

وإذا كان الاحتفال بمرور خمسين عاما على نياحته قد قامت به بعض الجمعيات واحتفل به فى قاعة سينما بالاس ، وكان المتكلمون فيه من العلمانيين فقط ، واقتصر دور رجال الكنيسة على مجرد الحضور أو إرسال برقية فيها تحية للمحتفلين والمحتفل به ، فإننا نشكر الرب أن جعل الجالس السعيد على كرسى القديس مرقس الانجيلى فى وقت الاحتفال المئوى ، قداسة البابا كيرلس السادس أطال الله بقاءه . إذ حينما أرادت جمعية مار مينا العجايبى أن تقوم بإسمها بإحياء الذكرى ، باعتبارها الجمعية الثقافية التى اعتادت إحياء ذكرى الشهداء والقديسين وعظماء القبط ، رأى قداسته حفظه الله أن يكون احتفالاً إجماعياً مصدره البطريركية . فتفضل قداسته بإرسال كتاب إلينا مؤرخ ١٥ طوبة ١٦٧٧ الموافق ٢٣ يناير ١٩٦١ يتضمن هذا المعنى العظيم إذ يقول « إيماء لما عرضتموه بنوتكم بشأن رغبتكم إقامة حفل بمناسبة مرور مائة عاماً على انتقال مثلث الرحمات سلفنا العظيم البابا كيرلس الرابع ولما كانت هذه الذكرى غالية ومحببة إلى الجميع ، لذلك فستقوم البطريركية باتخاذ اللازم

للدعوة لهذا الحفل تحت رعايتنا وإجراء اللازم ...» الخ، وهكذا لم يمض قرن من الزمان ــ والقرن زمن قصير جداً فى حياة أمة ــ حتى أجلست العناية الالهية على كرسى الرآسة فى كنيستنا رجلاً عظيماً يقدر العظمة ، فكان خير خلف لخير سلف ، وبذا قام القبط كنيسة وشعبا بالاحتفال اليوم ، وهى ظاهرة جليلة تبشر بنهضة مباركة فى عهد قداسة البابا كيرلس السادس . بإذن الله نسأل العلى القدير أن يرعاه برعايته وأن يحفظه بعنايته، . وأن يمد فى حياته أعواماً عديدة وأزمنة مديدة حتى يأخذ القبط مكانهم الأول .



الفصل الثانى

« اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله ، أنظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) .

الأنبا كيرلس الرابع
أبو الإصلاح القبطى

العاشر بعد المائة فى عداد باباوات كنيسة الإسكندرية

ولد حوالى عام ١٨١٦ م وتنيح ليلة الأربعاء ٣٠ يناير عام ١٨٦١ م فى الخامسة والأربعين من عمره .

فى صبيحة أحد أيام عام ١٨٣٨ م، خرج من قرية نجع أبوزقالى من الصوامعة الشرقية بإقليم أخميم ـــ ذلك الإقليم الذى زخر فى عصر أباء البرية بالأديرة الباخومية ، وأنبت الأنبا شنوده رئيس المتوحدين ـــ خرج من هذه القرية شاب يناهز الثانية والعشرين من عمره ، متوسط القامة ، ممتلىء الجسم ، قوى البنية ، حاد النظر والذهن ، طلق الوجه واللسان ، اشتهر بالرغبة الملحة فى البحث والاطلاع ، وبالميل إلى العزلة والانفراد ، خرج تسيره قوة دافعة خفية ، هى النعمة التى يعطيها الرب لبعض أبناء هذه الأمة ، فيهبون لا يلوون على شىء ، ناذرين أنفسهم للخدمة والبذل ومحبة الرب ، متقمصا روح تلك الطغمة من أجداده التى حفظ بواسطتها الرب كنيستنا خلال أحلك العصور والأضطهاد المستمر. وبعد مسيرة ثلاثة أيام أو أكثر وصل داود إلى دير الأنبا أنطونيوس فى الجبل الشرقى حيث دخله تلبية لذلك النذر الذى أحس به فى قلبه .

فى الدير :

توسم رئيس الدير فى ذاك الوقت فى (داود) النعمة ، وآنس فيه بعد قليل الأهلية والأقتداء والغيرة الحقيقية على مصلحة الدير والرهبان فكان يعهد إليه بالكثير من المهام لمساعدته . وبلغت سجاياه مسامع انبا بطرس الجاولى البابا

التاسع بعد المائة فاستدعاه وباركه وشاركه فى منحه البركة الأسقف أنبا صرابمون الشهير بأبى طرحة وتنبأ له بمستقبل حسن فى خدمة الأمة .

ولما توفى رئيس الدير بعد سنتين من دخول داود أى فى الرابعة والعشرين من عمره أجمع الرهبان على اسناد المنصب اليه ، فبدأ عهد إصلاح فى الدير ، بدأه بسكانه فأبطل عادة خروج الرهبان من الدير للتجول فى البلاد بدون إذن الرئيس ، وتشدد فى تنفيذ قوانين الرهبنة ، فى كياسة وسياسة ، حتى فضل الرهبان البقاء فى الدير على الخروج منه ، عاملا فى نفس الوقت على رفع المستوى الروحى والعلمى للرهبان بإنشاء مكتبة وقاعة للمطالعة والمناظرة فى عزبة الدير ببوش ، فتمها أيضا لغير جماعة الأكليروس والرهبان .
ونشب خلاف بين الأحباش واسقفهم فى أخر أيام الأنبا بطرس ، فأرسله لإصلاح ذات البين ، وبينما هو فى مهمته هذه تنيح الأب البطريرك

وسرعان ماالتجهت الأنظار إلى ذلك الراهب المصلح ، فجمعت له التزكيات باجماع شعبى رائع ، وكان من مظاهر التفكك والانحلال وماكان عليه القبط من جهل ، أن قام فريق يعارض ترشيحه ، مستعملا فى ذلك أسلحة الكذب والادعاء الباطل ، ولم تكن لتلك المقاومة أساس حقيقى سوى حب الإثرة بتنفيذ الكلمة . وذهبوا فى هذا السبيل إلى أبعد مدى فأتهموه بالتدخل فى الأمور السياسية وأشاعوا أنه تزوج فى الحبشة وله ولدان على قيد الحياة ، ولم تجد دعواهم أذنا صاغية .

وبعدخلاف دام عشرة أشهر توسط خلاله بطريرك الأرمن مرتين ، رسم مطرانا عاما فى ١٧ أبريل سنة ١٨٥٣ ، وفى ذلك تقول السيدة بوتشر فى الجزء الرابع من كتابها تاريخ الأمة القبطية « تم الاتفاق بين الطرفين (الأساقفة والعلمانيين) بطريقة تحكيم غريبة : وهى أنه يصير تأجيل انتخاب البطريرك ، ويصير تكريس كيرلس مطرانا لبابيلون (مصر القديمة) على شرط أنه إذا أظهر كفاءة تامة فى وظيفة الأسقفية فينتخب بطريركا . ولكن كانت مواد هذا التحكيم الغريبة غير أصولية بالمرة ، لأنه طبقا لمواد القوانين الكنائسية القبطية لا يجوز تحليل أو تأويل تلك المواد التى منها عدم جواز انتخاب اسقف لوظيفة البطريركية ، ولكن بالرغم من ذلك فقد قام الأساقفة بمعاهدتهم مع الشعب

بكل أمانة ، وانتخبوا كيرلس على العرش البابابوى الحالى ، حتى قبل أن ينتهى زمن التجربة » . هذا ما قالته السيدة بوتشر فى الجزء الرابع من كتاب تاريخ الأمة القبطية ، وفعلا احتفل يوم الأحد ٤ يونيو سنة ١٨٥٤ م بإجلاسه على عرش البابوية .

وتلفت الراعى الجديد إلى القطيع العزيق ، فوجده هزيلا عليلا ، مائة ألف أو يزيدون قليلا ، خلفتهم أحداث بضعة عشر قرنا ، فى غمرة من الجهل والفقر والمذلة ، فاستولى عليهم الخمول والياس والانحلال ، حتى نسوا تاريخهم ولغتهم وأدابهم ، وحتى فقدوا عزتهم وكرامتهم وحقوقهم . وكان حظ القبط من التعليم حتى وقته مبادىء القراءة العربية والقبطية والحساب وكسور الفدان ، فى كتاتيب كانوا يجلسون فيها على زعف النخل المضفر كما يخبرنا المرحوم ميخائيل بك شاروبيم فى كتابه الكافى . تعرف بسرعة خاطره كيف يقوم بعمل خاطف يساير به النهضة العلمية التى اجتاحت العالم فى أوائل القرن التاسع عشر ، وينهض به شعبه من الوهدة التى تردى فيها . فكان أول أمر باشره بناء الكلية البطريركية القبطية ، وهى أول مدرسة أهلية للقبط فى القاهرة ومصر ، فاشترى عدة منازل وهدمها ، وأقام على أنقاضها مدرسة فسيحة ذاع صيتها فى الأمصار ، إذ نقرأ لابراهيم أفندى الطيب فى كتابه « مصباح السارى ونزهة القارى » المطبوع ببيروت عام ١٨٥٥ فى كلامه عن مصر ومدارسها « وفى حارة الأقباط مدرسة عظيمة يعلمون فيها اللسان القبطى القديم والتركى والإيطاليانى والفرنساوى والانكليزى والعربى ، وهم يقبلون فيها من جميع الطوائف ، وينفقون على التلاميذ من مال المدرسة ، وهذه بناها البطريرك كيرلس القبطى ، وانفق عليها نحو ستمائة الف قرش ، وكل هذا بخلاف ما نعهده فى بلادنا من الأكليروس وأوجه الشعب »، فأنتم ترون أنه لايشيد فقط بهذا العمل الطريف فى ذاك العهد ، بل يدعو الاكليروس وأوجه الشعب عنده إلى الاقتداء به ».

وكانت سياسة الانبا كيرلس فى الكلية تعكس أخلاقه وشخصيته ، ففتحها للطلبة من جميع الملل والنحل ، ووزع الكتب والأدوات مجانا ، وشجع الزوار الأجانب على زيارتها ، وابداء مايعن لهم من ملاحظات ، وبالإضافة إلى

الرياضيات والجغرافيا والعلوم ، ابدى كما رأينا اهتماما خاصا بتعليم اللغات ، العربية والقبطية والتركية والانجليزية والفرنسية والايطالية ، ومع ذلك لم يكن بها أكثر من ١٥٠ طالبا .

والأنبا كيرلس هو منشىء النهضة النسائية الحديثة فى مصر ، عندما افتتح مدرسة فى حى الأزبكية لتعليم البنات ، فكانت أول مدرسة أنشئت فى مصر لهذا الغرض ، منذ الفتح العربى ، فرد بذلك إلى المرأة المصرية اعتبارها ، وانقذ نصف الأمة من ظلام الجهل .

وتابع برنامجه الثقافى الجبار ، فى النهوض بالأمة فأنشأ مدرستين فى حارة السقايين للبنين والبنات ، كما أنشأ لهم كنيسة ، وكان يزور هاتين المدرستين ويتفقدهما مرة كل اسبوعين على الأقل ، وأنشأ أيضا مدرسة فى المنصورة أغلقت بعد نياحته .

وكان من أثر سعيه لدى الحكومة أن أرسل أول قبطى فى بعثة حكومية إلى أوروبا عام ١٨٥٥ ، عندما أرسل إلى فرنسا البير واصف عزمى لدراسة الحقوق والإدارة ، ورجع عام ١٨٦٠ وترقى فى المناصب إلى أن صار رئيس المحكمة المختلطة عام ١٨٨٣ وتوفى عام ١٨٩٨ .

وفكر الأنبا كيرلس فى إحضار أول مطبعة أهلية ليسير تداول الكتب بين أيدى الطلبة وليحد من الأغلاط التى تتابعت فى الكتب المنسوخة ، فيزيد من أثار هذه النهضة العلمية فى أنحاء البلاد ، فأرسل إلى مطبعة بولاق الأميرية أربعة من شبان القبط ليتعلموا فن صف الحروف والطباعة ، بينما تصرف لهم المرتبات والملابس من البطريركية ، وعهد إلى الخواجا رفله عبيد باستحضار أدوات المطبعة من أوروبا . ووصلت المطبعة إلى الاسكندرية بينما كان هو فى دير الأنبا أنطونيوس يبنى سورا جديدا يضم عينا للماء ومساحة أرض كبيرة حولها ويبنى كنيسة ويجدد قلالى الرهبان ، فأرسل رسالة إلى دار البطريركية فى القاهرة تعكس إيمانه برسالته وأماله فى القدر الذى ستؤديه هذه الالة لهذه الرسالة وفرحة لذلك بوصولها ، أرسل إلى وكيل البطريركية بالقاهرة يأمره باستقبال المطبعة من باب البطريركية بموكب حافل ، يسير فيه الأكليروس بملابسهم

الرسمية ، وينشد التلاميذ أناشيد الفرح ، ورأى البعض فى ذلك بدعة فى الدين ، وعاد من الدير وعلم بما يقال ، فهز رأسه وقال « لو كنت حاضرا لرقصت أمامها كما رقص داود أمام تابوت العهد » ، ويستطيع من يحلل هذه العبقرية الجبارة ، أن يتبين فى هذا الجواب ، الكثير من أخلاقها ونواحيها .

هناك ركن ثقافى آخر لم يغب عن باله ، وهو تنظيم مكتبة بالدار البطريركية ، جمع فيها من خزائن الأديرة والكنائس القديمة الكثير من الكتب النفيسة والمخطوطات ، وضاع منها الكثير للأسف بعد وفاته .

هذه اعمال تضع الأنبا كيرلس الرابع فى الصف الأول فى التاريخ الثقافى فى مصر الحديثة ، وأنه لفخر وأى فخر للقبط ، أن تكون لهم يد طولى ، فى النهضة العلمية والثقافية الحديثة للبلاد ، بفضل هذا العبقرى .

فما جاء عام ١٨٦٣ حتى كان للقبط مالا يقل عن اثنتى عشرة مدرسة من تسعةوخمسين مدرسة خصوصية . وفى عام ١٨٧٥ كان لهم ثمانى عشر مدرسة ، وفى عام ١٨٧٨ خمس وعشرون مدرسة ، ففى خمسة عشر عاما كانت الزيادة فى المدارس تربو على ١٠٠٪ ، وكل ذلك بفضل الأساس الذى صنعه ، وجذور الإصلاح التى غرسها بيده .

وكانت الموجة الإصلاحية الثانية عام ١٨٧٤ عندما قام تلاميذه بالدعوة إلى أول مجلس ملى ، وكان من معالم ذاك الوقت أيضا تأسيس جريدة الوطن فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٧٧ وكانت تطبع فى مطبعة أبى الإصلاح ، فكانت أول جريدة عربية يديرها مصرى .

وكان قد ابطل استعمال التاريخ القبطى إلا فى الزراعة ، ولكن فى أيام هذا المصلح أعيد استعماله ، فيقول صاحب التوفيقات الإلهامية « وفى ابتداء ٢١ شوال سنة ١٢٧١ استعملت التواريخ القبطية بحسابات مصر » ، أى من أول أبيب سنة ١٥٧١ ــ ٧ يوليو سنة ١٨٥٥ ، وبقى مستعملا إلى أول سبتمبر سنة ١٨٧٥ ، عندما أبدل بالتاريخ الغربى المستعمل الآن .

ولم ينس إصلاح الأسرة فوضع حدا أدنى لسن الزواج للفتاة ، ونصح أن تكون الخطوبة دائما بدون عقد إملاك ، حتى يتيح للفريقين فرصة للرجوع إذا

اكتشفا عدم توافق ، وليمنع بقدر الإمكان الطلاق الذى كان يمقته مقتا شديدا .

وعمل على رفع شأن الأكليروس ، من الناحية المادية والمعنوية ، وعين مرتبات خاصة لمن يجيد منهم خدمة القداس باللغة القبطية فكانت خطوة أخرى منه ، نحو احياء تلك اللغة والمحافظة عليها .

ومن رأى أنه لو طال أجله ، لأرجع للأكليروس مجده الأولى أيام اثناسيوس وكيرلس الكبير ، ونظم الشمامسة ووضع لهم الملابس التى نراهم بها الآن .

وأما الرهبان والاديرة ، فيبدو أن خطته نحوهم كانت تتلخص فى تطبيق قوانين اب الشركه باخوميوس تارة بالحكمة وتارة بالشدة ودائما بما اشتهر عنه من حزم . ولقد اثار عليه ذلك موجة عصيان بين الرهبان عندما كان رئيسا لدير انبا انطونيوس ، دامت بضعة أيام ، صمد لها صمودا عجيبا دل على شدة مراسه فى الحق وتمسكه بالنظام وذلك مما جعل الرهبان يلقبونه بابى نبوت

كان الانبا كيرلس الرابع شديد الايمان بحق امته فى البعث والحياة ، وفى أن تتبوأ مكانا لائقا بها بين الأمم فلم يترك ناحية من نواحى الاصلاح ، إلا وطرقها ، وكلما وصل إلى علمه أن هناك حق لأمته مسلوب ، أقدم على استرداده . ولذلك لم يتوان فى السعى لدى والى مصر ، ليساوى بين الأقباط وغيرهم ، فى الوظائف والجندية ، ودخول المدارس العالية ، التى كانت محرمة عليهم ، وكُلل سعيه بالنجاح .

عرف ابو الإصلاح ببعد نظره وثاقب فكره ، أن الكنيسة القبطية ، دفعت ومازالت تدفع ، ثمنا غاليا ، للشقاق الذى دب بين الكنائس المسيحية عامة ، فسعى بين كافة البطاركة ، الذين كانوا ينظرون اليه فى ذاك الوقت ، كزعيم المسيحية فى مصر ، نظرا لشخصيته الجبارة ، ويبدو أنهم اتفقوا على الخطوط الرئيسية ، لا تحاد كافة الكنائس المصرية برياسة بطريرك الاقباط ، بدليل أن بطريرك الروم الارثوذكس ، عندما سافر إلى الاستانه ، وضع شئون بطريركيته تحت اشراف الانبا كيرلس . وهذه حادثة فذّة فى تاريخ الكنيستين ، منذ الانشقاق المعروف فى القرن الخامس .

حقا إن حياة الانسان ، لا تقاس بطول الأيام أو قصرها ، فقد تولى هذا المصلح العظيم شئون البطريركية ، سبع سنوات وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما ، فخلف سجلا حافلا بجلائل الاعمال ، التى عجز عنها الكثيرون فى قرون . لقد أحب أمته ، وآمن بحقها فى الحياة ، وشعر بواجبه نحوها ، فظل يرعاها ، مكافحا مجاهدا فى سبيلها ، حتى قضى شهيدا فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦١ ، بالغا من العمر ٤٥ عاما فقط ، وكانت أيام ولايته خيرا وبركة للكنيسة والأمة .

دعونا جميعا نطاطىء رؤوسنا خشوعا واجلالا لذكرى هذا المصلح الجليل . فقد نقرأ فى سيرته سر الحياة المستمرة .

لقد غزا الأنبا كيرلس الرابع ميادين الإصلاح فى أكثر من جهة حتى لقبه المؤرخون بذلك اللقب الذى أصبح علما عليه « أبو الإصلاح » .



الفصل الثالث

أبو الإصلاح القبطى الحديث
البابا كيرلس الرابع (١٨٥٣ ــ ١٨٦١ م)
العاشر بعد المائة

ولد فى بلدة الصوامعة الشرقية بمديرية جرجا حوالى عام ١٨١٦ ، وإنخرط فى سلك الرهبنة فى الثانية والعشرين من عمره ، بدير أنا أنطونيوس بإسم الراهب داود . وسرعان ماتجلت مواهبه. فأختير للرياسة بعد مضى سنتين أو نحو ذلك .

وماكاد يتولى أمور الدير حتى بعث الحياة دافقة فى شتى نواحيه الروحية والأدبية والمادية جميعاً . ثم أوفده البطريرك نيابة عنه إلى أثيوبيا للتوفيق بين الأحباش ومطرانهم ، فلما عاد بعد قرابة عام ونصف كان الكرسى البطريركى قد شغر بنياحة أنبا بطرس الجاولى ، وبعد فترة إعترض فيها ولاة الأمور على إنتخابه إتفق على أن ينادى به مطراناً عاماً فى أول الأمر على عموم الملة عام ١٨٥٣ م ثم بطريركاً فيما بعد بإسم أنبا كيرلس الرابع (يونيو ١٨٥٤ م).

وتلفت الراعى الجديد إلى القطيع العريق فوجده هزيلاً عليلاً ، مائة ألف أو يزيدون قليلاً ، خلفتهم أحداث بضعة عشر قرناً فى غمرة من الجهل والفقر والمذلة ، فإستولى عليهم الخمول واليأس والإنحلال ، حتى نسوا تاريخهم ولغتهم وآدابهم ، وحتى فقدوا عزتهم وكرامتهم وحقوقهم .

ولكن الراعى الأمين لم يضع وقته هباء ورثاء ، فقد هداه قلبه الكبير وعقله المستنير إلى أن التعليم والتهذيب هما العلاج الشافى والسلاح الماضى ، وكان ذلك قبل قرن من الزمان بدعا . فإذا المدارس القبطية للبنين والبنات تفتح الواحدة أثر الأخرى ، وفى مقدمتها المدرسة الكبرى بالأزبكية الباقية للآن . وإذا أول مطبعة غير حكومية فى مصر تتوسط الدار البطريركية . وإذا لفتة خاصة توجه لرجال الأكليروس ، ولفتة أخرى للغة القبطية فيحتم الصلاة بها فى الكنائس كما يعمم تعليمها فى كافة الكتاتيب والمدارس . وإذا وقته يتسع أيضاً للذهاب مرة ثانية إلى أثيوبيا موفداً من قبل الحكومة لحسم ما شجر من خلاف

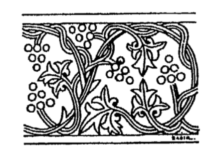
حول حدود البلدين ، وإذا مشروعه الخطير الخاص بالتوفيق بين الكنيسة المصرية وبعض الكنائس المسيحية الأخرى يكاد يؤتى ثمره .

وظل أنبا كيرلس الرابع يعمل جاهداً لإصلاح ما أفسده الدهر ، حتى قضى شهيداً فى سبيل رعيته فى ٣٠ يناير ١٨٦١ ، ولكن بعد أن كانت جذور الإصلاح التى غرستها يده وسقاها دمه قد نمت ، فتعهدها أبناؤه وتلاميذه بعده حتى أتت ولا تزال تؤتى خير الثمرات .

ويكمل سير البطاركة ترجمته فيقول « ومن صفاته أنه كان عالماً شديد القساوة على الأكليروس والشعب ، شديد الإعتصام بقوانين الكنيسة وعقيدتها ، فكان مألوفاً عند جميع الطوائف ، محبوباً لدى حكومة مصر ، مكرماً عند بنى كنيسته » .

المصادر :

— (نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر) الجزء الثانى لتوفيق اسكاروس .
— (تاريخ الأمة القبطية) ليعقوب نخله رفيله .



تفصيل تاريخ الأنبا كيرلس الرابع

(١) بزغ فجر القرن التاسع عشر على الأقباط وهم ، كما وصفهم بعض المؤرخين آثاراً متبقية من أمة ، شربت كؤوس العذاب أشكالاً وألواناً قروناً عديدة ، مائة ألف أو يزيدون قليلاً ، يعيشون فى غمرة من الجهل والفقر والمذلة ، ولم يجدوا من يأخذ بيدهم لإنهاضهم ، فإستولى عليهم الخمول واليأس والإستسلام ، حتى نسوا تاريخهم ولغتهم وآدابهم ، وحتى فقدوا عزتهم وكرامتهم وحقوقهم .

(٢) ولكن فى صبيحة أحد الأيام عام ١٨٣٨ خرج من قرية نجع أبو زقالى من الصوامعة الشرقية بإقليم أخميم ـــ ذلك الإقليم الذى زخر فى عصر آباء البرية بالأديرة الباخومية ، خرج من هذه القرية الشاب داود بن توماس باشوت البالغ الثانية والعشرين من عمره يسيره ويوجهه ذلك النذر الذى يجيش فى صدره ، والذى يهبه الرب لبعض أبناء هذه الأمة ، فينذرون أنفسهم للخدمة والبذل ومحبة الرب . وبعد مسيرة ثلاثة أيام أو أكثر مولياً وجهه شطر الصحراء يقطع فيافيها ويصعد فوق كثبانها وصل إلى ضالته : دير القديس أنطونيوس لينخرط فى عداد رهبانه .

(٣) لم يلبث فى الدير طويلاً حتى ظهرت مواهبه ، وإشتهر بين رفقائه بالذكاء والورع ودماثة الأخلاق والهمة والنشاط . وقد تفرغ للدرس من مكتبة الدير وإكتسب بإجتهاده ما كان معيناً له على بث روح الإصلاح الحقيقى . فأحبه كل من كان معه فى الدير ، فضلاً عن أن كفاءته كانت له أعظم شفيع على ثقة الرئيس به .

(٤) وبعد أن أمضى سنين توفى رئيس الدير فأجمع الرهبان على إنتخابه رئيساً لهم . ولم يبلغ عمره وقتئذ أربعاً وعشرين سنة . ولما علم ذلك الأنبا بطرس الجاولى البطريرك التاسع بعد المائة إستدعاه لديه وثبته ودعا له بالبركة .

(٥) تخبرنا مسز بوتشر فى مؤلفها (قصة الكنيسة المصرية) أن أحد المرسلين الإنجليز ويدعى مستر ليدر أتى وإفتتح مدرسة لتخريج رعاة للكنيسة القبطية ولكنه يأس عندما علم أنه لم يدخل فى سلك الكهنوت أحد من خريجيها فأقفلها عام ١٨٤٨ م . وتضيف أنه لو علم أن مدرسته سيتخرج منها يوماً ما البطريرك المدعو كيرلس المصلح لتشجع وأبقاها .

ويغلب على ظننا أن الراهب داود إنتهز فرصة ذهابه إلى القاهرة عندما علم بوجود هذه المدرسة بجوار البطريركية فقصدها لفترة من الوقت لشدة ميله إلى التزود بالعلوم كما علمنا .

(٦) وعند رجوعه إلى الدير ما أن قبض على زمامته حتى بدأ فعمل على رفع المستوى الروحى والعلمى للرهبان فى كياسة ، فأنشأ لهم فى عزبة الدير مكتبة وقاعة للمطالعة والمناظرة فى مواضيع الدين والأدب والتاريخ . كما أنشأ مدرسة لتعليم أبناء القبط العربية والقبطية والدين .

(٧) وحدث فى ذاك الوقت خلاف دينى بين مطران أثيوبيا وبين الكهنة . وأراد الأنبا بطرس الإسراع فى حسم النزاع ، ونظراً لشيخوخته ومشاق طرق المواصلات فى ذاك الوقت ، لم يجد من يسند إليه مهمة إصلاح ذات البين أحسن من ذلك الراهب الذى أظهر ذكاء وحسن سياسة وتفكيراً سليماً ، فإستدعاه وفوضه أن يكون نائبه المطلق التصرف ، معرباً له عن ثقته فى إخلاصه وحزمه وتفانيه فى خدمة الكنيسة ، وقال له على مسمع من الحاضرين « إذا أديت هذه المهمة على وجه مرض فإنك ستنال نصيباً صالحاً عند عودتك مكافأة لك على أتعابك » ، وقام بهذه المهمة عام ١٨٥١ م .

وقال صاحب الكافى « وقد كان له إقبال وحسن سياسة كادت توصله إلى الغرض المطلوب لولا تدخل السعاية من بعض الدول » . ثم وافاه خطاب من البطريرك يستدعيه للرجوع عاجلاً ، وكان ذلك فى أيام مرضه ، فإستأذن من النجاشى وبعد مماطلة أذن له فقفل راجعاً

بعد أن أقام سنة وبضعة أشهر . ووصل إلى القاهرة بعد نياحة الأنبا بطرس بشهرين ونصف عام ١٨٥٢ م .

وإذا كان مولده عام ١٨١٦ فتكون رهبنته عام ١٨٣٨ ورآسته للدير عام ١٨٤٠ وقضى ثلاث عشرة سنة فى الرآسة ثم صار مطراناً بطريركاً .

(٨) تنيح الأنبا بطرس فى ليلة الإثنين ٢٨ برمهات ١٥٦٨ الموافق ٥ إبريل ١٨٥٢ م وإجتمع الأساقفة وأراخنة الشعب لإنتخاب خلفاً له ، وفكروا أولاً فى القس داود ورشحه بعضهم لمنصب البطريركية ، ولكن لم يصلوا إلى قرار لعدم معرفة حقيقة أمره إن كان باقياً على قيد الحياة ، بينما قد أوصى الأنبا بطرس أن يكون خلفاً له . وألح البعض فى إنتخاب غيره ، وإشتد الخلاف ، كما يخبرنا المرحوم يعقوب نخله رفيله ، فى كتابه (تاريخ الأمة القبطية) وهو ممن عاصروا هذه الأحداث ، وقبل عقد جلستهم الثانية وردت الأخبار لبعض أصدقائه مبشرة بوصوله حدود الديار المصرية ، فقام أنصاره وأصروا على إنتخابه إتماماً لوصية سلفه . وعارض البعض وطلبوا أسقف أخميم ، وطال الجدال على غير جدوى ، وبقى الخلاف مدة لم يصلوا فيها إلى إتفاق حين وصل القس داود إلى القاهرة فى ١٧ يوليو ١٨٥٢ بعد غياب ثمانية عشر شهراً فتلقاه الناس بفرح عظيم وإحتفلوا بمقدمه إحتفالاً جليلاً ونزل بالدار البطريركية ، فإجتمع أئمة الأمة وكبارها وأرادوا التعجيل فى الأمر .

(٩) وإتفقت كلمة الأكثرين على رسامة القس داود ، وجاراهم بعض الأساقفة على غير رغبة منهم ، ورفعوا عريضة إلى عباس الأول لإصدار أمره بإعتماد تزكيتهم ، وهنا كانت المفاجأة قال صاحب الكافى « وكان من عادة هذا الوالى التمسك بإستشارة أصحاب **اليازرجات** والإعتقاد بالفأل . فسألهم فأرجفوا وهولوا وقالوا نطقت **اليازرجات: نكد** ثم خصام وشدة ثم موت الوالى وتمزيق شمل أتباعه . فإضطرب لهذا النطق ، وإستعادهم فلم يروا فى حسابهم غير ذلك ولم

تنطق بغير ما نطق به . فأمر بإحضار جاد أفندى عونى وأفهمه بأن لا سبيل إلى رسامة داود مطلقاً » .

فلم يكن فى وسع جاد أفندى سوى التحيز لأسقف أخميم تنفيذاً لأمر الوالى ، كما لم يكن هدف مريدى القمص داود سوى إنتخاب الأصلح .

(١٠) ولكن شعب الناخبين صمم رغم ذلك أن يثبت إرادته فكتبوا تزكية ثانية بإسمه وقع عليها الكثيرون لتكون شاهداً عدلاً على رضاء الجمهور وفى مقدمتهم الأعيان . وأمام تلك التزكية وإنتقال الخلاف إلى إصرار كل فريق على تنفيذ رأيه ، وبعد أن دام الخلاف عشرة أشهر إنتهى بإقتراح الأنبا كبريل ورتبيت الأرمن بترقية القس داود مطراناً عاماً تحت الإختبار على مصر حتى إذا إتضحت لياقته لمنصب البطريركية لا ينازع فى تنصيبه ، وقد تم ذلك فى ١٠ برموده ١٥٦٩ (١٨٥٣ م) ، وبعد أن رأى معارضوه همته ونبل مقاصده ضموا أصواتهم إلى حزبه ونصبوه بطريركاً عام ١٨٥٤ بعد أن مكث مطراناً سنة وشهرين .

(١١) تناول جميع من كتب تاريخ الأنبا كيرلس الرابع ـــ وكثير منهم كانوا على إتصال بهذه الأحداث وشهدوا لها ـــ مسألة العقبات فى ترشيحه والجهود التى تم بموجبها التغلب على هذه العقبات ، لأن هذه الأحداث كانت الأولى من نوعها فى تاريخ الكنيسة . وها نحن نورد أهم ما كتب عنها لطرافتها :

(أ) يقول المتنيح الايغومانس فيلوثاؤس فيما كتبه للمرحوم على باشا مبارك وأدرج فى الخطط التوفيقية فى آخر الجزء السادس ما يأتى : « العاشر بعد المائة كيرلس الرابع ، كان يدعى أولاً داود ، وكان رئيساً على دير القديس أنطونيوس ، إنتخب للبطريركية وأحضر للقاهرة حالاً ، وإذ كان يوجد فى القوم من لم يخلوا من الأغراض إعتيادياً ، فنظراً لما كان متصفاً به هذا الرجل من الفضل والشهامة ،

وذكاؤه المفرط مما لا يوافق مشرب البعض ، قام البعض من الأمة مضاداً لإنتاخبه ، وإن كان الموافقون أكثر كثيراً والمتحزبون نزراً يسيراً ، إلا أن تحزبهم هذا أثر تأثيراً حده بالغ ، إلى أن أعرض ضده لأولى الأمور المدنية ، ومن ذلك أخر أمره مدة ما . وحيث كانت أصوات المنتخبين أفوق كثيراً كما ذكرنا ، ولم يكن لتقدمه مانع سوى الحزب ، فلتلافى الإصلاح بين الفريقين ، إستقر الرأى بإستحسان ومساعدة الحكم ، على جعله أولاً مطراناً على عموم الملة ، وقد حصل وأقيم مطراناً عاماً فى ١٠ برموده ١٥٦٩ ش ــ ١٨٥٣ م . وبذلك إرتفعت المضادة وإستمر متولياً إدارة أمور الملة برتبة مطران عام سنة واحدة وشهرين ــ وحيث أن تصرفه الخاص ومشروعاته النافعة للأمة كانت تشهد بإنفراده بإستحقاق البطريركية أقيم بطريركاً فى ١١ بؤونة سنة ١٥٧٠ ــ ١٨٥٤ م فى أواخر خديوية المرحوم عباس باشا حفيد الخديو الكبير الذى توفى فى هذه السنة » .

ومما يجد ذكره أن التزكية ــ التى قدمها جمهور الناخبين من أساقفة وأراخنة هى بإسم (القس داود) ترشحه لمنصب البطريركية ــ ما زالت بمكتبةالمتحف القبطى بمصر القديمة ، لمن يريد الإطلاع عليها وهى منشورة فى برواز من الزجاج ، وتتبين فيها أسماء عشرة أساقفة وثلاثة رؤساء أديرة بينها إسم القمص يوحنا رئيس دير السيدة العذراء بالبرموس بشيهيت (وهو الذى صار فيما بعد كيرلس الخامس) .

(ب) قالت مسز بوتشر فى الجزء الرابع من مؤلفها (قصة الكنيسةالمصرية) « وقد كان الأنبا كيرلس المعروف بأبى الإصلاح قبل أن يتولى السدة البطريركية رئيساً منذ سنوات لدير أنبا أنطونيوس الشهير ، وعند عودته من الدير ليشغل

العرش الباباوى إبتهج الشعب القبطى لدرجة فوق التصديق ... حتى أنه لما إجتمع مجمع الأساقفة فى القاهرة لإنتخاب بطريرك وقد نقص عدده عن ١٢ عضواً عن المعتاد لم يسمعوا إلا كيرلس فى فم كل قبطى لإنتخابه بطريرك . ثم أن هؤلاء الأساقفة لكبر سنهم ... غالباً قد ترددوا فى تزكية وتسليم قوة عظمى ليد شاب غيور مثل كيرلس ... ثم إلتزموا أن يرضخوا ويقبلوا صوت نواب الشعب». وبعده تم الإتفاق بين الطرفين (الأساقفة والعلمانيين) بطريقة تحكيم غريبة وهى « أنه يصير تأجيل إنتخاب البطريرك ويصير تكريس كيرلس مطراناً لبابيلون على شرط أنه إذا أظهر كفاءة تامة فى وظيفة الأسقفية ينتخب بطريركاً . ولكن كانت مواد هذا التحكيم الغريبة غير أصولية بالمرة ، لأنه طبقاً لمواد القوانين الكنائسية القبطية ، لا يجوز تحليل أو تأويل تلك المواد ، التى منها عدم جواز إنتخاب أسقف لوظيفة البطريركية ، ولكن بالرغم من ذلك فقد قام الأساقفة بمعاهدتهم مع الشعب بكل أمانة وإنتخبوا كيرلس على العرش البابوى الحالى قبل أن ينتهى زمن التجربة » .

(جـ) أما المرحوم ميخائيل بك شاروبيم واضع كتاب (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) فى خمسة أجزاء فقد كان تاريخ أبى الإصلاح هو الدافع له على وضع هذا الكتاب إذ طلب منه إخوانه أولاً وضع ترجمة وافية له ، فكتبها وكأنها صغرت فى عينيه بجانب ما رآه وما سمعه عن مآثره ، فحدثته نفسه أن يلحقها بتاريخ الحوادث المدنية فى عصره ، وأرق ذات ليلة ففكر فى وضع تاريخ شامل لمصر منذ عصر الفراعنة ، فكان عمله هذا نفحة من روح أبى الإصلاح ، وظل يكتب على مدى أكثر من خمسة عشر عاماً ، وقد كتب فى ترجمة سعيد باشا خديو مصر ما يأتى : « ومات بطرس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أثنتين وأربعين سنة ،

وكان تقياً ورعاً زاهداً متقشفاً محباً للخير قليل الكلام مع هيبة ووقار ، يقضى يومه منكباً على المطالعة ، ولا يجلس إلا على الأرض ، ولا يلبس إلا الصوف الخشن ، ولا ينام إلا على الحصير من القش ، بعيد الغضب ... إذا تكلم فمع التأديب والحشمة ... ولا ينظر إلى وجه سامعه ... قيل ولما إحتضر سأله بعض كبار الأمة عمن يخلفه فى المنصب ، فرفع عينيه إلى السماء لحظة ثم أطرق وقال : داود رئيس عزبة بوش ، فإستقدموه عاجلاً ، وكان قد كتب إليه قبل مرضه بأيام كثيرة أن تحضر ولا تبطىء فإنى فى حاجة إليك ، وكان لا يتعرض إلى امر من أمور السياسة ، ولا يجتمع بأحد من ولاة الأمور ، وإذا سار فى الطريق أرخى على وجهه لثاماً أسوداً ... ولم يصل داود إلى القاهرة إلا بعد موت بطرس بشهرين وخمسة عشر يوماً ، فقد كان رسوله إلى ملك الحبشة لفض الخلاف الذى كان هناك ... فلاقاه الناس بإحتفال عظيم للغاية ونزل بدار البطريركية ضيفاً ولبث بها أياماً على الرحب والسعة ... ثم إجتمع كبار الملة وأصحاب الرأى فيهم وتشاوروا فى إقامة دواد خلفاً لبطرس فإتفقت كلمتهم على ذلك ... وإجتمع جاد أفندى عونى بجميع الأساقفة وأخبرهم بما يريده الوالى ، وقال لهم إختاروا واحداً من بينكم يكفينا مؤونة التطويل ... وأخيراً رسم عباس باشا بإقامة داود وكيلاً لدار البطريركية ، فرضى سائر القبط بذلك ، وقالوا أن أول الغيث قطرة ... فلما كان الأحد التالى إجتمعوا بالكنيسة وبايعوه جهاراً وسموه كيرلس وولوه مطراناًعلى كرسى مصر ووكيلاً للكرسى البطريركى ... ورسم سعيد باشا فى سلخ شعبان من سنة ١٢٧٠ هجرية بولايته للبطريركية ، فلما كان تاسع رمضان بايعه الأساقفة فى أبهة ... » .

(١٢) كان الأنبا كيرلس الرابع رجلاً عظيماً ، بل لعله كان من أعظم

الرجال الذين شهدتهم مصر عامة والقبط خاصة فى القرن التاسع عشر ، تلفت إلى القطيع العريق فوجده هزيلاً عليلاً ، بقية باقية من أمة ، ومن كانوا نور العالم قد أصبحوا ظلمات فوقها ظلمات .

لم يضع الراعى الأمين وقته هباء ورثاء ، فقد هداه قلبه الكبير وعقله المستنير إلى أن التعليم والتهذيب هما العلاج الشافى والسلاح الماضى ، وكان ذلك قبل قرن من الزمان بدعا .

(١٣) وبدأ خطوته الأولى البناءة ببناء مدرسة هى الأولى من نوعها فى مصر لتعليم الشباب بالعلوم والرياضيات واللغات فى ذاك الوقت ، فإشترى عدة منازل وهدمها وأقام على أنقاضها المدرسة الكبرى للبطريركية التى لم تزل إلى اليوم نصباً شاهداً على تلك النهضة العلمية التى قادها .. وكان كأنه يسابق الزمن ، ففى أثناء البناء كان يجود على العمال لكى يشتغلوا بقلوب لا تعرف الكلل إلى أن أنجزوا البناء فى وقت قصير .

(١٤) قال المتنيح الايغومانس فيلوثاؤس ، وهو من تلاميذ هذا الرجل العظيم فيما كتبه إلى المرحوم على باشا مبارك ليضمنه فى الخطط التوفيقية ، « وفى سنة ١٥٦١ ش الموافق ١٨٥٣ م شرع فى عمارة مدرسة كبرى تجاه الكنيسة .. وجلب إليها المعلمين وأباح لأبناء الطائفة القبطية وغيرهم من المسيحيين والمسلمين والإسرائيليين إدخال أبنائهم ليتعلموا فيها ما يريدون من العلوم العربية واللغات المعتبرة والآداب مجاناً ، وكان إفتتاحها سنة ١٥٧١ ش .. وقد نجحت هذه المدرسة منذ أوائلها وشاهد نجاحها مؤسسها » .

ووزع الكتب والأدوات مجاناً ، وشجع أهل العلم من الأجانب على زيارتها وإبداء ما يعن لهم من ملاحظات ، وبالإضافة إلى الرياضيات والجغرافية والعلوم أبدى إهتماماً خاصاً باللغات العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، ومع ذلك لم يكن بها أكثر من ١٥٠ طالباً !!

« أما اللغة القبطية التى كانت قد ماتت فقد وكل أمرها إلى المعلم عريان جرجس مفتاح وهو الذى أنشأ القراءة القبطية الجديدة المحسنة المميزة الألفاظ عند السامع ، ومن ثمة أنتشر هذا التعليم فى المدارس والمكاتب مبتدئاً من المدرسة البطريركية إلى كل الأقاليم المصرية بالوجه البحرى والقبلى رويداً رويداً ، وكان تجديد قراءة القبطية نحو سنة ١٨٥٨ م » .

هذا ماكتبه القمص عبد المسيح صليب المسعودى تتمة لكتاب إبن الراهب .

(١٥) عندما رأى أعماله من ترددوا فى الموافقة على إنتخابه للكرسى البطريركى لصغر سنه إذ لم يتجاوز عمره السابعة والثلاثين ، وكانوا عقبة كؤودا فى هذا السبيل ، لم يسعهم سوى الضم إلى إخوانهم ، وإتحدت كلمة الجميع على إقامته بطريركاً ، بعد أن مكث مطراناً سنة وشهرين وتم ذلك فى ليلة الأحد ٢٨ بشنس سنة ١٥٧٠ . وقد حضر ترقيته جميع أساقفة الكرسى المرقسى ما عدا أسقفى أخميم وأبو تيج ، فبر بذلك الأساقفة بوعدهم بأن يقوموا بذلك رغماً عن عدم وجود سابقة لذلك . وكان ذلك فى أواخر أيام عباس باشا الأول .

(١٦) بعد شهر من إرتقائه للبطريركية تولى العرش سعيد باشا . الذى نشر العدل ومنح القبط الحرية الدينية وأباح لهم بناء الكنائس ، ومضى أبو الإصلاح فى رفع شأن المدرسة فإتخذ له مكتباً فيها لإستقبال الزوار ، وكان يستمع لملاحظات الزوار وذوى الخبرة وكان يدخل الفصول أثناء التدريس وعند خروجه يخاطب الطلبة قائلاً لقد إستفدت اليوم فائدة لم أكن أعرفها من قبل .

ورغماً عن قلة عدد الطلاب فقد إشتهرت المدرسة ، فقال عنها صاحب كتاب (مصباح السارى ونزهة القارى) المطبوع فى بيروت سنة ١٢٨٢ هـ أثناء كلامه عن مصر ومدارسها « وفى حارة الأقباط مدرسة عظيمة يعلمون فيها اللسان القبطى القديم والتركى

والإيطاليانى والفرنساوى والإنكليزى والعربى ، وهم يقبلون فيها من جميع الطوائف وينفقون على التلاميذ من مال المدرسة وهذه بناها البطرك كيرلص القبطى وأنفق عليها نحو ستمائة ألف قرش ، وكل هذا بخلاف ما نعهده فى بلادنا من الأكليروس وأوجه الشعب » .

(١٧) لم يكتف بذلك بل رأى بثاقب فكره أن النهضة التى يرتيها لا تتم وحقوق البنت مهضومة . كان من أثر الظلام الذى كانت فيه الكنيسة القبطية والأضطهادات ، أن القبط لشدة المحافظة على نسائهم كانوا لا يخرجونهن من بيوتهن إلا إلى المقبرة إن لم يكن ثمة ما يدعو إلى الخروج منها . وبلغت المرأة أقصى درجات الإنحطاط والإستعباد فرأى هذا المصلح أن هذه المعاملة تنافى تعاليم الدين ، ولم يشأ أن يتركها بلا تعليم لئلا يكون جهلها مجلبة للضرر بدلاً من الخير ، فقام بإنشاء أول مدرسة للبنات فى مصر فى حين كان تعليم المرأة محظوراً عليها لا لسبب إلا من شدة الخوف وجعلته آماله العظيمة فى ترقيتها يتخطى الحدود التى أوجدها محبو هضم حقوقها ، حتى تعرف كيف تربى أولاداً نافعين . ومدرسته هذه تعد أول مدرسة فى القطر المصرى للبنات بعد الفتح العربى .

(١٨) قال المتنيح الأيغومانس فيلوثاؤس « وكما تسبب (المرحوم) مؤسس المدرسة بالأزبكية فى إنشاء هذه الكنيسة أعنى التى بحارة السقايين كذلك فتح مدرسة بها للصبيان ومكتباً للبنات أيضاً كما فتح غيره لهن بالأزبكية ولم يزالا مستمرين للآن وناجحين فى التعليم والتأديب بموالاة حضرة البطريرك (الحالى) » .

ومما يدل على شدة عنايته بالمدارس وتقدمها ، أن كان يزور مدرسة حارة السقايين ويفحص حالتها بنفسه مرة فى كل أسبوعين على الأقل فضلاً عن أنه كان يكلف المعلم الأول فيها بتعريفه أولاً فأولاً عن حالتها وكيفية سيرها .

(١٩) ولما إنتظمت المدارس وأينعت رأى أن الكتب الخطية فضلاً عن أنها كثيرة الأغلاط لجهل النساخ بما فيها خصوصاً إذا كانوا لايعرفون

العربية جيداً ، فأنها قليلة الإنتشار لغلاء أثمانها . يضاف إلى ذلك أن طلبة المدارس التى أقامها كان ينقصهم الكتب ، ووجود مطبعة يتمم ما كان يهدف إليه من نشر الثقافة ، وتمام الإفادة من هذه المدارس .

لذلك فكر فى إيجاد مطبعة البطريركية لنشر الكتب المفيدة بأثمان زهيدة لكى يتمكن كل فرد من إقتنائها بلا تعب فيستفيد منها ويفيد .

وبعد أن نضجت الفكرة إستدعى الخواجا رفله عبيد وكلفه بإستحضار أدوات مطبعة من أوروبا، وإستصدر أمراً من محمد سعيد باشا بقبول أربعة تلامذة من شبان القبط الأذكياء فى المطبعة الأميرية ببولاق لكى يتعلموا فى صف الحروف والطباعة ، وكان يصرف لهم مرتبات وملابس من البطريركية . وعندما وصلت المطبعة إلى الثغر الأسكندرى وعلم بالأمر وكان وقتئذ فى دير أنطونيوس بالجبل بعث فى الحال إلى وكيل البطريركية بمصر يأمره بإستقبال أدوات المطبعة من مدخل باب البطريركية بموكب حافل يسير فيه الأكليروس بملابسهم الرسمية وينشد التلاميذ أناشيد الفرح فلم يخالف أحد أمره . فظن بعضهم أنه إبتدع بدعة فى الدين وشنع لإستقبال الأدوات الحديدية بمثل هذا الموكب الفخم ، وعندما عاد من الدير وعلم بالأمر قال لهم إنى لمستغرب جداً من إفتكاركم السوء بإستقبال هذه المطبعة غير أنى لو كنت حاضراً لرقصت أمامها كما رقص داود أمام تابوت العهد .

(٢٠) وبينما هو يجاهد فى النهوض بالأمة ونشر العلم كلفه سعيد باشا بأن يقوم بمهمة سياسية فى أثيوبيا فلم يسعه سوى تلبية الطلب ، فغادر مصر فى أواخر مسرى ١٥٧٢ ــ الخميس ٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦ م ، فجأة بدون أن يعلم أحداً من قبل وكان يبدو عليه الكآبة ، وتعلم التركية فى تلك الرحلة الطويلة .

وعند وصوله إلى حدود الحبشة خرج النجاشى ثيوذورس لمقابلته فى موكب حافل وبينما هو هناك قام سعيد باشا بجيشه إلى الحدود

المصرية ، ثم أقنع أعداؤه النجاشي بأن هذا المصلح إنما جاء ليخدعه حتى لا يستعد لمقاتلة سعيد باشا وبذلك يتمكن من أخذ بلاده ، وعندما سمع النجاشي بحشد الجيش المصرى عند الحدود تيقن من خيانة البطريرك له وكان على وشك قتله لولا تشفع الإمبراطورة وأخيراً تيقن النجاشي من براءته ، ورجع البطريرك حاملاً معه الفوز فى مهمته وهى تحديد الحدود . وسمع المتنيح الأيغومانس فيلوثاؤس من الثقات أنه عندما وطئت قدمه الديار المصرية وتخلص من براثن الأمير الحبشى سجد لله شكراً وقبل الأرض لأنه لم يكن منتظراً أن يتخلص من هذا الشرك الذى نصب له وكان خلاصه دليلاً على عناية الله به حتى يتم وضع قاعدة الإصلاح .

وكان وصوله للقاهرة ١٣ فبراير ١٨٥٨ بعد أن غاب سنة ونصف وإستقبله الشعب بفرح عظيم فى يوم مشهود يقول عنه المرحوم يعقوب بك نخله رفيله أنه كان من الأيام التى يندر أن يراها الإنسان فى حياته .

(٢١) بعد أن إستراح قليلاً قام يستأنف أعماله الإصلاحية فرأى ضرورة تجديد بناء الكنيسة المرقسية التى كانت مبنية منذ أيام المعلم جرجس الجوهرى بناء غير متين ظاهر فيها أفلاق النخل ، وشرع فى وضع حجر الأساس فى يوم الخمس ٢٩ برموده ١٥٧٤ (١٨٥٨م) بحضور جميع رؤساء الطوائف وأعيان البلاد ورجال الحكومة .

(٢٢) وبعد ذلك طالب سعيد باشا بتنفيذ الفرمان الذى يقضى بأن يرتقى الأقباط إلى الوظائف العالية على قدر إستحقاقهم بالنسبة للكفاءة الشخصية مادام أنهم مصريون تربطهم مع إخوانهم رابطة الوطنية والجنسية ، كما طلب منه أيضاً أن يأمر بقبول الطلبة منهم فى المدارس العالية كالطب والهندسة فوعده أخيراً .

(٢٣) قال المرحوم يعقوب نخله رفيله « ذهب إلى دير أنطونيوس بالجبل وبقى فيه أكثر من ستة أشهر متشاغلاً عن ذلك بعمارة مهمة أجراها به وأخذ معه بطريرك الروم الأرثوذكس ، وكان من أعز

أصدقائه ، .... ولما شعر المسيو سباتيه قنصل فرنسا فى مصر بمطالبه عرض عليه إستعداده لمساعدته فيما يختص بمساواة الأقباط بالمسلمين ، بشرط أن يتحصل من إمبراطور الحبشة بقبول الرهبان اليسوعين ، ولكنه رفض .

(٢٤) وقد فكر فى التوفيق ما بين الكنائس القبطية واليونانية الأرثوذكسية والأسقفية ، وفى ذلك يقول المرحوم يعقوب بك نخله رفيله « وكان مسالما لجميع طوائف المسيحيين وبينه وبين رؤسائهم مودة عظيمة ، ولا سيما الروم الأرثوذكس. ولما دعت الحالة لقيام بطريركهم إلى الأستانة فوض صاحب الترجمة (الأنبا كيرلس الرابع) مباشرة أعمال بطريركته وإدارة أشغالها حتى يعود من سفره . ويقول العارفون أنه سعى بعد ذلك فى إيجاد الإتحاد والتوفيق بين الكنيسة القبطية والكنيستين اليونانية والأسقفية لأنهما أقرب إليها فى العقيدة من غيرها . والمتواتر على ألسنة الكتاب أن هذه المساعى كانت علة موته » .

(٢٥) فى ليلة الأربعاء ٢٣ طوبة ١٥٧٧ (٣٠ يناير ١٨٦١) قضى نحبه مأسوفاً عليه ليس فقط من جميع أبناء أمته القبطية الذين خدمهم خدمات جليلة ، بل ومن جميع الذين عرفوه من القوم لأنه كان حاذقاً بينهما ذا عناية شديدة بالمنقطعين وذوى البيوت من أمته ومن غيرها ، طلق اللسان عارفاً بالتاريخ مدققاً فى علوم الدين المسيحى ماقتاً للرشوة غير مكترث بالمال وجمعه ، قائماً بأعباء وظيفته حق قيام ، أسف الجميع على موته الحبرى إذ رفع شأن القبط من الحضيض وناضل عن حقوقهم وبموته مات حظ القبط ودفن معه كما يقول ميخائيل بك شاروبيم فى الجزء الرابع من الكافى .

(كتب للنشر فى الموسوعة القبطية)

ملحق عن المدارس القبطية
التى أسسها البابا كيرلس الرابع

بعض نوابغ خريجى مدرسة حارة السقايين
التى أسسها الأنبا كيرلس الرابع

١ ــ المرحوم بطرس باشا غالى رئيس مجلس الوزراء

٢ ــ المرحوم يوسف باشا وهبة .

٣ ــ المرحوم عبد الخالق ثروت باشا .

٤ ــ الدكتور طلعت منصور .

٥ ــ إبراهيم بك منصور .

٦ ــ القمص بولس الكبير وكيل بطريركية الأقباط ومدرس الرياضة بمدرسة حارة السقايين فى عهد البابا كيرلس الرابع ــ وهو خال الأستاذ جورجى إبراهيم .

٧ ــ قلينى فهمى باشا .

٨ ــ كامل عوض سعد الله بك ــ رئيس جمعية التوفيق .

٩ ــ الأستاذ بطرس حنين .

١٠ ــ المستشار إبراهيم يحيى إبراهيم .

١١ ــ الدكتور على يحيى إبراهيم .

١٢ ــ الأستاذ عبد الشهيد توت ــ الذى تزوج بإحدى الطالبات الإنجليزيات بمدرسة بنات حارة السقايين ــ وكانت تدعى جانيت أو حنينة ــ ومن أحفادهما الأستاذ فهمى جورج المحرر بجريدة البورص سابقاً ــ والآن مقيم بفرنسا .

١٣ ــ حسين رشدى باشا ــ رئيس مجلس الوزراء .

١٤ ــ سعد بك عبده من أقطاب الإصلاح ومن أعظم أنصار أبى الإصلاح .

أمر إلى رئيس مجلس الأحكام

بتاريخ ١٣ صفر سنة ١٢٨٠ هجرية صدر أمر إلى رئيس مجلس الأحكام بإشراف نظارة المعارف على المدارس القبطية وامتحاناتها وتوظيف خريجيها وتعريف قداسة البطريرك بالكتب الأميرية الجارى تدريسها بمدارس الحكومة لكى تدرس فى مدرستى الأزبكية وحارة السقايين ورخص بأن يمتحن تلاميذها بين المدرسين أمام لجنة الامتحانات الحكومية وأن يؤخذ من طلاب هاتين المدرستين موظفون للخدمات الأميرية حسب

الإيجاب . كما منحت الحكومة المصرية البطريركية خمسمائة فدان للإنفاق منها على معاهدها بأنواعها .

احتفال الحكومة المصرية بمدارس الأقباط

نقلا عن الوقائع المصرية فى ١٨٧١/٢/١٦ الصفحة الأولى

ما دعينا إليه بمحضر شريف من سادة علماء أخيار ، وقادة أرباب اعتبار ، وأهالى وطنيين وأجانب متفرجين ، فما منهم أحد إلا وقد تهلل وجهه بسمات الفرح وانبسط خاطره لما شاهده وانشرح ، ولكن لا يسعنا إلا أن نصف لمن غاب عنا فى هذا الامتحان ... فما من تلميذ انتصب للامتحان على التمييز أمام الممتحنين إلا ورفعت راية فضله ، وتلقاها هذا المحفل باليمين ... يبدى من اللغة العربية ما يعذب عن قطر الندا ، ومن الفرنساوية والطليانية والانجليزية والقبطية ، ومن الحساب والخط ما يرفع ذكره على المدى ... وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وحق الثناء على حضرة المطران وكيل مسند البطريركية الذى أشرق به هذا الامتحان وزعت به هذه الدعوى الاحتفالية ، كما نقر بأن نجاح هذه المدرسة الهية ، وامتحان هذه السنة الحالية إنما هو من حسن مساعى حضرة ناظرها القمص فيلتاؤس إبراهيم المحتشم ، الجارى فى جميع تنظيمها وجليل ترتيبها على سنن أقوم ، وكذلك حضرات خوجاتنا فإنهم مساهمون فى بذر صلاحية غرس تعليماتها على منهج سديد .

ومقالة الجناب المبدع البادع فى اللغات الأجنبية والفنون الأدبية حضرة مصطفى أفندى رضوان معلم الفرنساوية .

وصلاة وسلام على أنبيائه الأخيار الذين هدوا بما بلغوه من الرسائل والآثار والأخبار .

(عن الوقائع المصرية سنة ١٨٧١) ...

(منقول من مقال للأستاذ عبد الحليم الياس نصير المحامى بمناسبة الأحتفال بالذكرى المئوية للأنبا كيرلس الرابع)



صفحة من تاريخنا الحديث :

ميلاد الوعى الإصلاحى
١٨٧٤ ــ ١٩٦٤ م

« إنه فى ليلة عيد الميلاد الواقع فى يوم ٢٩ كيهك سنة ١٥٩٠ ش ــ الموافق ٦ يناير سنة ١٨٧٤ م كان مجمع جندى أفندى يوسف ويعقوب أفندى نخلة وعزوز أفندى منقريوس البياضى وميخائيل أفندى حبشى فى بيت برسوم أفندى جريس رفيله ، لأجل تعزيته فى فقدان إبن أخته عبد المسيح شنوده الذى كان خوجة مدرسة الأقباط بجهة حارة السقايين ، وحصلت المداولة بينهم عن حالة فقراء الطائفة وما وصلوا إليه من الإضمحلال وعدم السؤال عنهم ممن يهمهم هذا الأمر وبالنسبة لعدم وجود بطريرك على الطائفة وزمامها بيد أنبا مرقس مطران إسكندرية الذى بصفته وكيل البطريكخانة وذاك لا يهمه هذا الأمر ، مع كون كامل أوقاف الطائفة مخصص ريعها للصرف على هؤلاء المساكين كما تشهد بذلك حجج الوقفيات المحررة بهم .

وبعد المداولة فى هذا الأمر رسى الحال بينهم بأنهم يتحالفوا ويتعاهدوا مع بعض بقسم إنهم يدافعوا عن حقوق هؤلاء المساكين لآخر نقطة دم من حياتهم بحيث مهما صادفوه من المصاعب لا يؤخرهم ولا يرعبهم ، فقاموا وصلوا لله عز وجل وتحالفوا مع بعض عن ثبوتهم وإتحادهم بقلب واحد للمباشرة فى هذا المشروع الحسن ، بعدها تداولوا فى الطرق الواجب إتخاذها لنجاح هذا المشروع وتبادل الأفكار بينهم ، ورسى الحال على إعطاء إسم لهذه الجمعية أولاً وأعطى لها إسم جمعية الإصلاح ... » .

هذه شذرة عما خطه قلم أحد «عمد الإصلاح» المرحوم جندى (بك) يوسف القصبجى فى تاريخ نشأة تلك الحركة الإصلاحية المباركة التى تشعبت بعد ذلك إلى شعبتين رئيسيتين :

(١) جمعية المساعى الخيرية التى تسمت بعد ذلك بإسم الجمعية القبطية

الخيرية الكبرى التى أنشأت المدارس والملاجىء والمستشفيات . وتشعبت عنها أيضاً جمعية التوفيق التى عنيت بالناحية الثقافية .

(٢) المجلس الملى .

وهكذا إستطاع بعض شباب ذاك الوقت آمنوا بحق أمتهم فى النهوض أن يصنعوا التاريخ الحديث للقبط . لم تكن الطريق أمامهم ممهدة فقد حوربوا بل وهددوا بالنفى من أولى الأمر بل وأشيعت عنهم إشاعات باطلة كثيرة ، ولكنهم ثبتوا .

أما العنصر الشاب المتوثب الذى أراد أن يعمل ووضع لنفسه هدفاً ، وصمم على الوصول إليه ففضل العمل فى الجمعيات التى أشرنا إليها بعيداً عن القيود الرسمية والمهاترات ، وتركوا عضوية المجلس الملى ، «لذوى الجاه وأعيان الطائفة» وإكتفى هؤلاء بتحويله إلى محكمة للأحوال الشخصية بصفة رئيسية .

واليوم بعد مضى تسعين عاماً على هذه الحركة المباركة ، يجدر بنا أن نلقى نظرة إلى الوراء لنتخذ من الماضى نبراساً ونوراً ينير لنا المستقبل ، ونتخذ منه عبراً لنأمن شر الزلل .

لقد إتسمت تلك السنين بنضال مرير بين المجالس الملية ورجال الدين على السلطة ، وكان محور هذا النضال أوقاف الأديرة ، وكان المجلس يريد أن ينتزع إدراة هذه الأوقاف من أيدى الرهبان ليصرف ريعها على أعمال إنسانية ومساعدات إجتماعية . والمؤرخ المجرد الذى يستعرض أمامه اليوم مراحل هذا النضال ويحلله علمياً ونفسانياً ليعجب أشد العجب من موقف هذه المجالس ويتساءل : ألم تتفتق عبقرية إحداها عن وسيلة أخرى لجمع الأموال لتحقيق مثل هذه الأغراض ؟ هل قرأ أحد أعضاء هذه المجالس أنه كان من أغراض المطالبين بالإصلاح جمع إشتراكات من الشعب ؟ هل تأمل بعضهم فى قول السيد المسيح له المجد « كل بيت ينقسم على نفسه يخرب » فجلس فى هدوء فى إحدى ليالى عيد الميلاد ليتأمل فى معانى المحبة والسلام كما فعل أسلافه ؟ ماذا أقول ؟ هل عندما ننظر إلى الوراء اليوم ، إلى أموال الأوقاف نرى أنها كانت جديرة بنضال التسعين عاما الذى ألهانا عن ألوان كثيرة من النشاط المتبادل بين

الأكليروس والشعب كانت كفيلة بالخير العميم على الجميع .

لقد بلغ هذا النضال من الحدة درجة أن نفى بسببه البابا كيرلس الخامس والأنبا يؤانس وكيل الكرازة إلى ديرين متباعدين . ويقف اليوم المؤرخ مستعرضاً جميع الظروف ويتساءل كيف فكر أبناء الكرازة فى حل مثل هذا لمثل هذه المشكلة ؟

ومن ناحية أخرى إتخذت بعض المجالس الملية من هذه المشكلة ذريعة تبرر بها تقاعسها عن العمل فى الميادين الإنشائية والإصلاحية ، فإنشغالها بالمطالبة بالإصلاح منعها عن العمل لأجل الإصلاح !

ظللنا نتتبع هذه الدائرة المفرغة وقد توالى على رئاسة الكنيسة أربعة باباوات وتوالت على كراسى المجالس الملية جميع الكفاءات دون أن يتبين الشعب القبطى آخراً لهذا الليل .

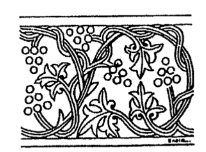
وأخيراً وفى ليلة التاسع والعشرين من شهر كيهك عام ١٦٨٠ ش أى بعد تسعين عاما بالتمام والكمال يكتب البابا كيرلس السادس صفحة فى التاريخ يتمم بها تلك الصفحة التى كتبها بعض الأبناء الأبرار ليلة التاسع والعشرين من شهر كيهك عام ١٥٩٠ ش التى إفتتحنا بها مقالنا هذا . يكتبها بالهام من الروح القدس ولاشك إذ وضع بها فى عيد السلام أساس المحبة والسلام اللذين سيسودان بين الأكليروس والشعب بعد فرقة «التسعين عاما» ، وأنى لعلى يقين أن عظام أبناء حركة عام ١٥٩٠ ش قد تحركت فى قبورها وأن أرواحها ترفرف محيية مبتهجة عندما صرح الحبر الأعظم على رؤوس الأشهاد ونشرته الجرائد يوم عيد الميلاد : « لقد تقرر تخصيص الجانب الأكبر من حصيلة تفويضات الأوقاف القبطية لتنفيذ المشروعات الإصلاحية التى تتبناها الكنيسة » .

واستطرد البابا يقول — كما نشر فى جريدة الأهرام — « إنه حان للمشروعات الإصلاحية التى طالما تطلع إليها الأقباط أكثر من قرنين من الزمان أن تتحقق فى عهد ثورتهم المباركة والرئيس العظيم جمال عبد الناصر ، لأن الإصلاح فى الماضى كان مجرد أقوال تفتقر إلى الأموال والأعمال » . ويضيف إلى ذلك أنه قرر إقامة كنائس قبطية فى أوروبا وأفريقيا .

ها هو رأس الكنيسة يبرىء الجرح الذى ظل ينزف فى جنب الأمة زمناً طويلا بوضع يده المباركة عليه ، وها هو يضع يده فى يد كل مصلح مخلص فى دعوته ، وها هو يخصص أموال الأوقاف التى ستدفع للكنيسة لما كان يدعو إليه المنادون بالإصلاح ، وها هو يضع الشىء فى موضعه ويضع كل واحد فى الموضع اللائق به فيبدأ بدعوة المجمع المقدس ليضع التخطيط ويؤلف اللجان .

وكأنى به نظر إلى جبين الأمة بعد طول نضال فمسح عنه بيمينه فى رفق وحنان كل آثار المعركة ومد إليها يده لينهضها من كبوتها . فإذا كنا نلقب البابا كيرلس الرابع « أبا الإصلاح » فالبابا كيرلس السادس « أبو النهضة القبطية الحديثة » .

(مجلة مدارس الأحد — فبراير ١٩٦٤ م)



من وحى تاريخنا الحديث
طوبة ١٥٩٠ ش ــ طوبة ١٦٧١ ش

«أنه فى ليلة عيد الميلاد المجيد الواقع فى يوم ٢٩ كيهك سنة ١٥٩٠ ش، كان مجتمع جندى أفندى يوسف القصبجى ويعقوب أفندى نخله رفيله وعزوز أفندى منقريوس البياضى وميخائيل أفندى حبشى فى بيت برسوم أفندى جريس رفيله ، لأجل تعزيته على فقدان ابن أخته عبد المسيح أفندى شنوده ، الذى كان خوجة مدرسة الأقباط بجهة حارة السقايين ، وحصلت المداولة بينهم عن حالة فقراء الطائفة وما وصلوا إليه من الاضمحلال وعدم السؤال عنهم ممن يهمهم هذا الأمر ... وبعد المداولة فى هذا الأمر رسى الحال بينهم بأنهم يتحالفوا ويتعاهدوا مع بعض بقسم أنهم يدافعوا عن حقوق هؤلاء المساكين لآخر نقطة دم من حياتهم ، بحيث مهما صادفوه من المصاعب ، لا يؤخرهم ولا يرعبهم ... ورسى الحال على إعطاء إسم لهذه الجمعية أولا ، وأعطى لها إسم جمعية الإصلاح ... وصار تعيين برسوم أفندى جريس نائباً عنها » .

هذا ما رأيت أن أنقله حرفياً دون تصرف من المذكرات الخطية ، لأحد عمد الإصلاح ــ كما لقبهم بحق المرحوم المؤرخ جرجس فيلوثاؤس عوض ــ الذين قاموا ينادون « بإصلاح أحوال الفقراء الذين اضمحل حالهم ومعلوم أمرهم للعموم » ، وفعلا شرعوا فى تحريض سكان المنازل الموقوفة على عدم دفع الإيجار للنظار وتولوا هم الاستيلاء عليها مقابل إيصالات ، ثم توزيعها على الفقراء .

هذه الحركة أحدثت هزة عنيفة فى الأوساط الطائفية والحكومية ، وبدأ « عقلاء الأمة وكبارها » فاستعملوا معهم التهديد فى بادىء الأمر ، الذى وصل إلى حد إخبارهم بأن أمر الخديو قد صدر بنفيهم إلى إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط ، ولكن أبناء الشهداء وتلاميذ الأنبا كيرلس الرابع ، لم يزدهم التهديد إلا ثباتا وإصرارا على فكرتهم ، وأخيرا أمكنهم بواسطة الملاينة أن يُقنعوهم بأن يتركوا « لعقلاء الأمة ووجهائها » أمر تكوين الهيئة الملية التى

تنفذ لهم أغراضهم ، وكان أصحابنا يريدون تحقيق فكرتهم ، لاتهمهم الوسيلة ، وكانوا منكرين ذواتهم إلى أقصى حد ، فلم يرشحوا من بينهم لعضوية المجلس الملى الأول عام ١٨٧٤ م سوى شخص واحد بصفة رمزية وهو المرحوم برسوم أفندى جريس رفيله .

وفى عام ١٨٨٣ م قامت جمعية المساعى الخيرية وعلى رأسها المرحوم بطرس باشا غالى ، بالدعوة إلى انتخاب المجلس الثانى ، وقد قال بطرس باشا فى خطبة له افتتح بها أعماله ، أنهم إنما يقومون بأعمال السبعة شمامسة الذين انتخبهم الرسل ليساعدوهم فى الناحية الاجتماعية .

هذا هو الأصل فى فكرة المجلس الملى ، ولكن الأمور تطورت بعد ذلك بشكل لم يخطر مطلقاً على بال مؤسسيه والداعين إليه ، فقد انتهز أعضاؤه فيما بعد فرصة نفوذهم أو مناصبهم الحكومية فأخذوا يوسعون فى دائرة إختصاص المجلس ، حتى اغتصبت الكثير من سلطة الكنيسة ، ويكفى أن أذكر فى هذا المقام أن لائحة إنتخاب البطريرك وضعها المجلس الملى ! ولم يقف الأمر عند ذلك بل وضع فيها طرقا للإنتخاب وشروطا للشخص المنتخب تخالف تماماً قوانين الكنيسة ، ونسى أيضاً أن بطريرك الكنيسة المصرية هو بابا المدينة العظمى الاسكندرية ! ذلك اللقب الذى أصبح يتنازعه الآن أربعة بطاركة !

وبلغ من جهل أبناء الأمة الذين ينوبون عنها فى المجالس الملية ، بتاريخ كنيستهم وتقاليدها ، أن وضعوا فى اللائحة الجديدة للمجلس المعروضة أمام مجلس الوزراء مادة تعفى رئيس الكنيسة من رآسته ، فكانت بمثابة الخطوة الأخيرة فى سبيل جعل المجلس باختصاصاته الواسعة العريضة جمعية من المدنيين تحكم الكنيسة ، مما لم يسمع به فى أى كنيسة أخرى فى أى وقت من الأوقات . وإنى لواثق ، وقد أصبحت الحال على ما بينت ، بأنه لو تخيلنا أن أى عضو من المجلس أصبح بطريركاً ، لهاله كيف أن المجلس يأخذ عليه جميع المسالك دون دراية أو معرفة بتاريخ الكنيسة ، ودون إحترام لقوانينها وتقاليدها ، وهكذا سيستمر الصدام . وها هى الأديرة قد بدأت تخرج لنا شباباً يتحرق شوقاً إلى خدمة كنيسته وإعلاء شأنها ، صهرته رمال الصحراء بعد أن أتم تعليمه الجامعى ، فزانه الورع والتقى ، ولن يرضى هذا الشباب بوصاية جائرة ، ولن

يرضى بإهدار قوانين الكنيسة فى سبيل إشباع شهوة السلطة والسلطان ، ولن يرى أن رهبان الغرب أحق منه بإدارة أموالهم ، فيخضع لقانون يسجل عليه عدم قدرته على ذلك .

لقد آن الأوان لنعيد النظر فى قانون المجلس الملى الذى مضى عليه ما يزيد على السبعين عاماً ، فى مؤتمر يعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر .



الفصل السادس

رجال الإصلاح عام ١٨٧٤ م
أو
المجلس الملى الأول

سيداتى ، سادتى

إذا حدثتكم الليلة عن رجال الاصلاح عام ١٨٧٤م أو المجلس الملى الأول فإنما أحدثكم عن الثمرة الأولى لتلك النهضة المباركة التى وضع حجر الزاوية فيها أبو الاصلاح القبطى قبل ذلك بعشرين عاماً .

وأحدثكم عن أسلافكم الغر الميامين وبما كان فى نفوسهم وأخلاقهم من قوة وبما ضربوا لنا من أمثلة فى الاعتماد على النفس والمثابرة والعمل لخير الأمة والايمان بعناصر الرق التى تجرى فى دمائها بالرغم مما كان يحيط بهم من اضطهاد مما حجب كثيراً من تلك العناصر فحل الضعف فيها مكان القوة واستولى خوار العزيمة مكان قوة الارادة واحتل التردد مكان مضاء العزيمة ، وإن دراسة الشخصيات العظيمة قد تقارب فى بعض الأحيان دراسة الكتب المقدسة إذ نستطيع أن نأخذ عنها مثلا عليا فى الحياة والتفكير والعمل لصالح المجتمع .

وأحدثكم أيضاً عن حياتنا الاجتماعية والدينية منذ نحو سبعين عاماً .

كانت حالة الأمة فى ذلك العهد يعتريها تفكك وتدهور مستمر فالكرسى البطريركى شاغر منذ بضع سنوات بعد وفاة الأنبا ديمتريوس ، والجمعيات التبشيرية بدأ نشاطها فى الظهور بشكل قوى واضح ، والرعية تحس بخطر السطو على حظيرتها فتتلفت نحو رعاتها لعلها تجد فيهم من يدافع عنها ويبذل نفسه دونها إذا لزم الأمر فتجدهم لاهـون عنها غير مقدرين المسئولية الملقاة على عواتقهم عن جهل فى أغلب الأحيان ولانشغالهم فى أشياء لا تمت إلى الواجب فى بعض الأحيان ، وكان على رأسهم الأنبا مرقس مطران الاسكندرية والقائمقام البطريرك ، رجل كان يطمع فى منصب البطريرك وكان مشغولاً بكل ما من

شأنه أن ينيله أمنيته ، وكان يستغل ذلك الطمع كثير ممن حوله لمصلحتهم الشخصية ، وأما المدارس التى ازدهرت وأينعت فى وقت ما كما حدثتكم فى كلمة سابقة فقد ذبلت وتأخرت وشبهها بعضهم بالمزاود فى قذارتها وعدم العناية بها ، ولست فى حاجة إلى الأطناب فى حال الأديرة وما وصلت إليه فهذه الأحداث جميعها ناطقة بحالها وقتذاك ، فحتى ذلك الوقت كانت كالبجع يقتاتون ترس من الذى أرسله إليهم المعلم ابراهيم الجوهرى ، أوقاف الأمة وأموالها تصرف فى كل شىء إلا فيما قد أوقفت لأجله أو فيما يعود على الأمة بالخير ، فالمرض والعوذ والشقاء والشيخوخة التى تسللت إلى صاحبها فى ليل الحياة لتسلبه الهناء فى أخريات أيامه كل ذلك وجد مرتعاً خصيبا فى الأمة تحت أنظار نظار الأوقاف وسراة الأمة دون مكافحة أو عمل ايجابى .

كانت هذه الحال المحزنة ملفتة لنظر الكثيرين من شباب الأمة المتعلم ومن ثم كانت محلا لتفكيرهم العميق ، كانوا يعقدون الحلقات تلو الحلقات يتساءلون فيها عن علة ذلك التأخر مع ازدياد عدد المتعلمين وتقدم الحركة الفكرية .

وهداهم التفكير إلى أن التقدم العلمى والفكرى لم يسايره تقدم روحى فى نفس الوقت إذ أن الموت عندما عاجل أبا الاصلاح منعه عن القيام بأهم عمل أراد أن يقوم به وهو تأسيس مدرسة اكليريكية كبرى لرفع مستوى الرعاة وبالتالى الحياة الروحية ، كما أن انشغال الأساقفة والاكليروس بالأوقاف وإدارتها والأموال وتدبيرها لم يترك لهم وقتاً كافياً لرعاية النفوس التى اؤتمنوا عليها ، ونتج عن ذلك اضطراب فى الشئون المالية كان محل اشفاق الكثيرين .

هذه الآراء بعد أن درست ومحصت واتفق على طرق علاجها بين نخبة من الشبان ، اجتمع فى ليلة الثلاثاء ٢٩ كيهك سنة ١٥٩٠ للشهداء الموافق ٦ يناير سنة ١٨٧٤ فى منزل المرحوم برسوم بك جريس رفيلة والطيب الذكر المرحومون يعقوب بك نخله رفيلة وجندى بك يوسف القصبجى وعزوز أفندى منقريوس البياضى وميخائيل أفندى حبشى وقرروا تأليف جمعية منهم وممن ينضم إليهم تسمى « جمعية الاصلاح » وانضم إليهم فى اليوم التالى وهبه بك حنا الشماع وحنا بك باخوم ، كانت مهمة تلك الجمعية فى ذلك الوقت

بالنسبة للأمة القبطية تماثل مهمة الوفد المصرى سنة ١٩١٩م إذ قامت تطالب بحق اشراك الأمة فى ادارة شئونها بواسطة مجلس نيابى منتخب ، وقد قوبلت من الجميع بالترحاب والسرور وأسرع كثيرون بالانضمام إليها حتى بلغ عدد أعضائها أكثر من اربعمائة فى أقل من شهر .

افتتحت جمعية الاصلاح أعمالها بأن أرسلت خطابات إلى القائمقام البطريركى تخطره فيها بتكوينها وبأغراضها وتطلب إليه أن يتخذ من الوسائل ما يكفل للأمة الاشتراك فى ادارة شئونها ، واسرع الأنبا مرقس إلى دميان بك جاد شيحه كبير الأمة فى ذلك الوقت راجياً منه أن يظهر من الحزم والعزم ما يوقف هؤلاء المشاغبين عند حدهم ، فوعده دميان بك خيرا وارسل إلى « جمعية الاصلاح » يطلب وفدا لمقابلته ، فذهب إليه وفد مكون من يعقوب بك نخلة وبرسوم بك جريس وجندى بك يوسف وعزوز أفندى منقريوس وغطاس أفندى عريان ومرقس بك ميخائيل مفتاح ، وتقدم إليه يعقوب بك شارحاً أغراض الجمعية فقال : نحن أبناء الأمة نرى أوجه نقص كثيرة فى أمتنا ونريد أن ننهض بها وسبيلنا الرئيسى إلى ذلك المطالبة باشراك الأمة فى ادارة أوقافها واصلاح شئونها بواسطة مجلس نيابى تنتخبه ولسنا نطالب ببدعة إذ أننا نقتفى بذلك أثر أعرق الأمم وهو أيضاً نظام يوجد فى بعض الطوائف حولنا ، لم يسع دميان بك — ككل رجل شريف — إلا أن يشكرهم على غيرتهم وأن يحيى فيهم الشهامة والاخلاص ولكنه رجاهم أن يتركوا مسألة الأوقاف وادارتها حتى يعين البطريرك وهو الذى يستطيع أن يصل معهم إلى حل لتلك المسألة .

ولكن الكرسى البطريركى كان شاغراً منذ بضع سنوات وقد يظل شاغرا بضع سنوات أخرى فتموت تلك الحركة ، وتساءلت الجماعة لماذا لا يؤلف هذا المجلس النيابى ليشترك فى انتخاب البطريرك فيقضى على مناورات الرجعيين ؟ بل أن ايجاده قبل انتخاب البطريرك واجب : وبدأت الحرب بين الجمعية من ناحية وبين نظار الأوقاف والعناصر الرجعية من ناحية أخرى ، فأذاع خصومها أن لتلك الجمعية أغراضا سياسية وأن هناك أيد أجنبية تدفعها وتوجهها ، وقام ولاة الأمور يحاولون القضاء عليها فأرسلوا من قام بتفتيشها وفحص أوراقها وانذرت الحكومة أعضاءها بأن يكفوا عن مطالبهم ، ولكنهم

ازدادوا تمسكا بمطالبهم وتضامنا وأتصل بهم كثيرون من ذوى الجاه والنفوذ فى الأمة يشجعونهم ويؤيدونهم .

وأخيراً قاموا يجربون معهم القوة والتهديد عسى أن يفرقهم اشتاتا ، فاستدعاهم دميان بك وأخبرهم أن الخديوى قد أمر بنفيهم فى إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط ، فماذا كان جوابهم على ذلك الوعيد ؟ لقد كان الجواب هادئاً ولكن حاسماً يرفع من شأن أولئك الرجال الذين قاموا بنهضة سنة ١٨٧٤ ويضعهم فى مرتبة الأبطال ويجعلهم جديرين بأسلافهم من الشهداء الذين رووا شجرة المسيحية بدمائهم الطاهرة .

جواب سيبقى منقوشاً على صفحات الزمن باحرف من نور كمصدر مجد وفخار لأمتنا ويحدث الأجيال المتعاقبة عن روح التضحية وانكار الذات التى كان يتحلى بها أباء المجلس الملى وعمد الاصلاح الحديث فى القرن الماضى ، فقد جاوبه على الفور جندى بك يوسف قائلاً « متى كان المشروع مرضياً للمسيح فهو يخلصنا وإن كان لا يرضيه واقتضت ارادته ذلك فنحن قابلون » ، جواب ليس فيه شىء من العنف أو الثورة ولكنه أحال الصلابة لينا والشدة ضعفاً وهز دميان بك هزا عنيفا .

عندما رأى أراخنة الشعب وأهل الرأى فيه المأزق الحرج الذى وضع الرجعيون فيه « جمعية الاصلاح » هب الجميع يشرحون للقائمين بالأمر براءة تلك الحركة وغرضها السامى شارحين ما وصلت إليه حال الأمة من فساد ، وتحولت الأمة إلى جمعية للاصلاح فطالب الجميع الحكومة بالاعتراف بها كهيئة تمثل الأمة لها حق النظر فى شئونها المالية ، ويشاء الله المطلع على مكنون الضمائر أن تكلل تلك المساعى بالنجاح فصدر أمر بذلك يوم ٣٠ طوبه سنة ١٥٩٠ الموافق ٦ فبراير سنة ١٨٧٤ ، وكان هناك مجلس ادارة للجمعية انتخب يوم ٩ طوبه سنة ١٥٩٠ من اثنى عشر عضوا واثنى عشر نائبا ، وهؤلاء عوضاً عن أن يذهبوا إلى المنفى تولوا شئون الأمة ، وهنا يبرز لنا لأول مرة اسم شخصية عظيمة كان لها يد كبرى فى الوصول إلى تلك النتيجة العظيمة هى شخصية الأيغومانس فيلوثاؤس إذ كان بحكم منصبه مطلع على كثير من المفاسد ودفعه ذلك إلى تقديم مساعدة كبيرة فى الخفاء لجمعية

الاصلاح فكان يخطب فيهم مقويا العزائم وشارحاً لما وصلت إليه حال الأمة.
والمتنيح الأيغومانس فيلوثاؤس كان نابغة عصره وأول صوت ديني في زمانه ، كان له شرف إفتتاح جلسات المجلس وكتب مقدمة للائحته هأنا أقرأها عليكم لما فيها من طرافة :ـــ

« الحمد لله منظم أحكام الأنام ، بما أنعم به على أولياء الأمور من ثواقب العقول والافهام ، وبعد فانه اعتمادا على ما ورد بالانجيل المنير ، من أنه إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فأنا أكون حاضرا معهم ، قد تشكل مجلس رسمى للملة القبطية الأرثوذكسية ، لينظر فى أمورها الخاصة الجنسية ، والمرجو منه تعالى أن يكون اجتماع أرباب هذا المجلس ، مؤسساً على مضمون هذه الآية الشريفة ، أى أن تكون عزائمهم فى الانضمام الرسمى ، مرتبطة ومعولة على ممارسة النظر والحكم فى كل مسألة بما يطابق مرضاته المنيفة ، حتى يكون التآمهم على خط مستقيم ، مبنيا حقيقة وفى نفس الأمر على اسمه العزيز الكريم ، وأن تكون بصائرهم العقلية شاخصة نحوه تعالى ، إذ هو مطلع على ما يهون به ويحكمون ، متيقنين نوال غايته الغريبة واسعافاته العجيبة فيما يقصدونه من المقاصد الخيرية والمزايا الوطنية ويبتغونه ، وتثبت برعايته العليا أمالهم ، وتدوم بين أبناء الجنس ثمرات أعمالهم ، هذا ولما كان لابد لكل مجلس ، من حدود يسرى على موجباتها ، ويركن فى ممارسة الأمور المحولة نظرها إليه ، إلى تحديداتها فقد دعت الحال لترتيب هذه اللائحة على النسق الآتى انسجامه ، وعلى الله التوفيق فى بداية الأمر وختامه » ، ويلى ذلك اثنان وعشرون بندا وقد تليت هذه اللائحة على المجلس يوم الجمعة ١٤ أمشير سنة ١٥٩٠ فوافق عليها وقام بطبعها ومضى يحقق رسالته .

كأن صدى صوت أبى الإصلاح مازال يرن فى أذانهم وطيفه مازال ماثلا فى ذاكرتهم، قاموا يبحثون عن البطريرك العتيد وحمل كل منهم مصباح ديوجين عسى أن يعثر على البطريرك الحازم الكيس الذى يجمع بين النور الروحى والعقلية ذات الأفق الواسع والمدى البعيد ليكون خير معوان لهم فى تأدية رسالتهم ولكن لم يلبثوا أن اصطدموا بالحقيقة السافرة التى مازلنا نصطدم بها إلى الآن وهو تعذر العثور على تلك الشخصية ، ولو أنهم كانوا أوفر منا حظا إذ

أن شخصية أبى الاصلاح كانت مازالت ماثلة فى ذاكرتهم ، وأخيراً رضوا بتولية يوحنا الناسخ الراهب بدير البراموس لهذا المنصب بعد أن أعطى لهم تأكيدات وعهوداً بالعمل معهم لصالح الأمة مع الموافقة على برنامجهم وتم ذلك فى أول نوفمبر سنة ١٨٧٤ .

كان الفشل فى العثور على شخصية عظيمة منبها لهم على الاهتمام أولا بالاصلاح الروحى أو بعبارة أخرى على العمل على محو الجهالة الروحية والعقلية التى كانت الأغلبية العظمى للأكليروس القبطى تتخبط فيها عملا بمبدأ « لاصلاح إلا بصلاح الأكليروس » .

فقاموا يخطون الخطوة التالية وهى تأسيس كلية اكليريكية تخرج لنا وعاظا وكهنة وأساقفة تتوفر فيهم صفتا الورع والزهد مع الثقافة العقلية ، وجعلوا ناظرا لها الأيغومانس فيلوثاؤس ، وفى شهر أمشير سنة ١٥٩١ افتتحت الكلية رسميا بمحفل حافل حضره غبطه البطريرك وحضرات المطارنة والأساقفة ووجوه الأمة وبعض أعيان الطوائف وكثير من أبناء الأمة والرهبان الذين تقرر تعليمهم فيها ، وكان الاحتفال شهيرا جليلا دارت فيه الخطب والتهانى وانتهى على أحسن حال ، فتناقلت ذكره الصحف وذاع أمر المدرسة فى كافة أنحاء الأقطار الشرقية وكان يدرس بها أصول الدين المسيحى وتاريخ الأمة وشرح الانجيل المقدس وكل ما يحتاج له من علم ودين عدا اللغة القبطية والعلوم العربية وترتيب الخدمة الدينية وحمدالله الجميع إذ تيسر القيام بهذه الخطوة المهمة فى ميدان الاصلاح وانتظروا بفارغ صبر الوقت الذى يكون لهم فيه فلاسفة فى علم اللاهوت يرجعون مجد الجامعة اللاهوتية القديمة ويؤدون للأمة أجل الخدم إذ يحتاج الاصلاح إلى فعلة كثيرون ، ولكنها لم تستمر بضعة أشهر ، إذ ذهب الرهبان إلى أديرتهم بمناسبة عيد القيامة المجيد ليحتفلوا بالعيد مع اخوتهم ولم يرجعوا بعد ذلك بالزغم من الأوامر البطريركية إذ كانت ترسل إليهم أوامر عكسية من نفس المصدر أيضاً ، وتوالت على هذا القياس المعاكسات لكل ما أرادوا إخراجه إلى حيز الوجود من برنامجهم ، وهكذا وجد فى الأمة من تفتحت عقولهم واستنارت أفهامهم وسمت مداركهم وتعطشت نفوسهم لحياة روحية واجتماعية أفضل ولكنهم لم يجدوا فى رآستهم

الروحية ما يشجعهم على هذا النهوض وغاب عنها الحقيقة العلمية والالهية « ان الانسان بالروح لا بالجسم انسان » ، وترتب على الفرق فى درجة التفكير والنظر للأمور هذا تلك السلسلة المحزنة التى سجلها تاريخ القرن التاسع عشر وما أنصرم من القرن العشرين من حوادث الاصطدام المريرة بين الاكليروس والشعب ، فبقيت الأمة القبطية تتخبط وتتعثر فى سبيلها بينما نهضت كل العناصر التى تحيط بها سائرة مع الزمن الذى تدور عجلاته سريعة فى عصر السرعة والنهضة .

ولكن رجالنا لم يجعلوا من المجلس الملى غاية ، ولم يرضهم أن يقفوا بعد ذلك مكتوفى الأيدى أمام الأمة والتاريخ بل جمعوا ما بقى لديهم من عزم وإرادة وأعصاب فقاموا يؤلفون الجمعيات الخيرية ويعدون الشباب القبطى ليتسلم منهم رسالة الإصلاح فيتم ما بدأوا به وألفوا جمعية المساعى المسيحية لتقوم بأعمال البر والإحسان ، وأختص يعقوب بك نخلة رفيله بالناحية الثقافية لإعداد شبيبة عالية الروح يسلمون إليها الشعلة لتستأنف الجهاد وما ضاع حق وراءه مطالب ، كان من المجلس الملى بمثابة وزير التربية والشباب إذ كان كل همه وتفكيره منصرفا إلى خدمة شباب الأمة والعناية بأمرهم من الوجهة الثقافية والأخلاقية والدينية ، فعندما اتسعت رقعة القاهرة وصارت المدرسة الكبرى بعيدة عن كثير من الأحياء أنشأ مدرسة وسماها مدرسة الاقتصاد وأدارها بكفاية وعمل على أن تكون انموذجا لمدارس ذاك الوقت فى التربية والتعليم ، وأراد أن يتعهد ويتتبع الشباب بعد تركهم المدرسة فانشأ « النادى القبطى » فى منزله فكان أول ناد للأقباط وتهافت عليه الشباب فكان يبث بينهم مبادىء الاصلاح وانكار الذات ، وادرك ببعد نظره ما سيكون للغة الانجليزية من شأن فى هذه البلاد فانشأ نادى المناقشة أو المساجلة الانجليزى المصرى The Anglo Egyptian Discussion Club ، كانت تعقد فيه حلقات مناقشة ومناظرة باللغة الانجليزية ويديرها استاذ انجليزى ، كان مقره فى بادىء الأمر مدرسة الاقتصاد ولما اتسع نطاقه وزاد عدد قصاده اتخذ له مكاناً خاصاً ، وتأسست جمعية التوفيق القبطية المركزية بالقاهرة فسلمها مدرسة الاقتصاد فأبدلت اسمها ودعتها « مدرسة التوفيق » ولم يكن فقط من أعظم أنصارها بل كان من

العاملين فيها بنشاط واجتهاد ولا سيما فى مطبعتها التى جعلها فى وقت ما تلى المطبعة الأميرية فى الاتقان وحسن النظام .

وخدم أيضاً أمته عن طريق التدوين والتأليف فجمع ما فى تاريخ أمته من كنوز ومن عظمة وبطولة مبعثرة فى مؤلفات كثيرة أو مما تناولته يد التشويه والتحريف سواء عن قصد أو عن حسن نية ، وجعله فى كتاب أسماه « تاريخ الأقباط » جعل همه الأول فيه التكلم عن الشعب وما قاساه وما انتابه من تطورات ، وهو مجهود شاق جبار ، وأراد أن يسهل السبيل لراغبى تعلم اللغة العربية من الانجليز فوضع لهم كتاب « التحفة المرضية فى تعليم الانجليز اللغة العربية » ، وكذلك وضع لمن يرغب فى تعلم الانجليزية من أبناء البلاد كتاب « الابريز فى تعلم لغة الانجليز » ووضع لكل فريق طريقة نطق ألفاظ اللغة المراد تعلمها بلغته الخاصه وطبع هذين الكتابين سنة ١٨٧٤ وألف أيضاً قاموس اصطلاحات عربى انجليزى .

لم يقتصر الأمر على ذلك بل كان هؤلاء السادة يحملون معهم رسالة الاصلاح اينما حلوا فقد كان من نصيب يعقوب بك نخلة أن يقيم فى الفيوم زهاء العشر سنوات فسعى جهده حتى وحد كلمة الأقباط وأسس فيها مدرستين تشهدان بما له من الميل الفطرى إلى العمل لمصلحة أمته ولا يزال أهل الفيوم يذكرون له بالحمد والتقدير ذلك الجميل وأسس هناك أيضاً فرعا لجمعية التوفيق القبطية ، وكان ليلة وفاته يتحدث عن الأمة واصلاحها حتى الساعة العاشرة مساء وهكذا وهب نفسه حتى آخر لحظة لأمته .

وأما الاسكندرية فقد فاتها أن تنال نصيبا من الاصلاح أو النهضة فى عهد أبى الاصلاح لسبب غير معروف إلى الآن ، ولكن اتفق أن وجد فيها اثنان من رجال الاصلاح وهما المرحومان جندى بك يوسف القصبجى وبرسوم بك حنين وانضم إليهما عوض بك بادير أحد تلاميذ أبى الاصلاح وكان رابعهم اسكندرى وهو المرحوم ابراهيم بك نخلة فقاموا بنشاط اجتماعى ثقافى كان أظهره انشاء المدارس المرقسية حوالى سنة ١٨٨٢ أو قبل ذلك بقليل ، ويحدثنا شاهد عيان هو حضرة المربى الفاضل عطية أفندى جرجس أطال الله بقاءه وكان ناظراً للمدرسة معاصراً للمرحوم برسوم بك حنين أنه كان يقوم بكسوة نصف تلاميذ المدرسة باحسن أنواع الأقمشة ويترك للبطريركية بالاتحاد مع أعيان الأمة فى الاسكندرية مهمة كسوة النصف الباقى ، وكان

يعطى أيضاً من هذه الأقمشة لصغار المرتب من المدرسين ، وكانت هذه الأقمشة من الجودة بحيث كان الكثيرون يطمعون فى شرائها منه إذا قبل وفى أيام الأعياد كان يدعو هؤلاء التلاميذ فى منزله لتناول طعام الغذاء ويقف بنفسه ليتولى خدمتهم وكان جميعهم بالمجان ولا تنتهى مهمته عند ذلك بل يقف عند باب منزله ليودعهم واحداً واحداً مهنئاً اياهم بالعيد وواضعاً فى يد كل منهم قطعة من ذات الخمسة قروش ، وذهب إليه فى أحد الأعياد المرحوم الشيخ محمد عبده ليهنئه بالعيد فوجده فى وسط التلاميذ يتولى خدمتهم على المائدة فبهره هذا المنظر ولم يسعه إلا أن قال « إن مثل هؤلاء الرجال يضربون لنا الأمثال » .

وهكذا أثبتوا للملء انهم كانوا جادين فى دعوتهم يعرفون كيف يشقون طريقهم بالرغم مما وضع فيه من عقبات كأداء ، واستقالوا من المجلس الملى وتركوا كراسيه ليعطوا درسا قاسيا لمن أراد أن يحصر الخلاف بينهم وبين الاكليروس فى ميدان الاصلاح القبطى فى النزاع على الأوقاف القبطية ، وبلفظ آخر حصر الخلاف فى مسألة مادية خطيرة بينما هم يريدون أن يوجهوا جهودهم لما هو اسمى وأنبل من ذلك برفع المستوى الأخلاق والروحى للأمة ليتمشى مع الثقافة الفكرية العصرية التى أدخلها أبو الاصلاح ، إذ مما يزيد فى الهوة بين الشعب والاكليروس أن يتقدم الشعب فى الناحية المادية العقلية بينما مقاليد قيادته الروحية بين فئة بقيت فى ظلام روحى وعقلى دامى ، ولقد كان نظرهم صائباً فقد تدهورنا روحياً وتخبطنا بعدهم فى حركتنا بأن جعلنا وجهتنا الاصلاحية النزاع على المادة وحصرها فى الخلاف على ادارة الأوقاف القبطية وحق فينا جميعا قول السيد له المجد « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » .

أيها السادة يجب أن نكون جديرين بمثل هؤلاء الآباء وذلك بأن نقتفى اثارهم ، يجب على كل منا أن يقوم بالواجب نحو أمته ولا يترك ذلك لغيره وإلا فلن يقوم أحد بالواجب ، فإذا أردت أيها الشاب أن تغير ما ترى إلى الأحسن والأفضل فلتقم بذلك بنفسك ولا تلتفت إلى ما يقوم به غيرك ، ولتقم به كأن كل شىء يتوقف عليك وفكر فى هؤلاء الأبطال الذين عملوا قبلك ما تعمل اليوم والذين ينظرون إليك وأيديهم ممدودة نحوك يناشدونك أن تكمل ما بدأوا به وفكر قبل كل شىء فيمن تقوم بخدمته فى المسيح رأس الكنيسة .

الفصل السابع

الحركات الإصلاحية فى العصر الحديث

(١) حوالى عام ١٨٧٣ كان الشباب الذين تربوا فى عهد كيرلس الرابع مؤسس الإصلاح قد تفتحت عقولهم بفعل ثقافتهم وإختلاطهم بأبناء الطوائف الأخرى وبدأو يتدارسون حال الأمة ويقابلونها بحال غيرها من الطوائف الموجودة فى مصر ، وأشفقوا من أن يستمر ما يرونه من خلل فى الشئون المالية خصوصاً فيما يتعلق بشئون الفقراء والذين أخنى عليهم الدهر ، ينقصهم وسائل الحياة الكريمة بينما البعض يتمتع بإيرادات الأوقاف المحبوسة عليه ، ويبددها فى غير ما أوقفت لأجله .

(٢) وبدأوا يبثون أفكارهم الإصلاحية ووسائل الإصلاح التى يرتأونها ، ويهيبون بالعقلاء أن يدركوا الخطر المحدق بالشبيبة من جراء هذا الإهمال .

(٣) إلى ان كان يوم الثلاثاء ٢٩ كيهك عام ١٥٩٠ الموافق ٦ يناير سنة ١٨٧٤ ، إذ إجتمع فى منزل برسوم جريس رفيله كل من جندى يوسف قصبجى ، ويعقوب نخله رفيله وعزوز منقريوس البياضى لأجل تعزيته فى فقدان قريب له ، فتداولوا فيما بينهم عن حال فقراء الطائفة وسوء الحالة التى وصلوا إليها ، مع عدم إهتمام من يهمهم الأمر ، مع أن الأوقاف الخيرية موقوفة للصرف على هؤلاء البؤساء . ولكن ريعها مبدد بين الرهبان والكهنة ، ولا حساب ولا حصر لها .

(٤) ورأوا أن الوقت قد حان وأصبحت الأرض ممهدة ليقوموا بعمل ما بإتحاد وبقلب واحد . وكونوا فيما بينهم جمعية دعوها الجمعية الإصلاحية . وهؤلاء الشبان هم الذين لقبهم المؤرخ جرجس فيلوثاؤس عوض « بعمد الإصلاح القبطى الحديث » ، وجعلوا برسوم جريس رفيله المتكلم بإسمهم — وكان قاضياً بالمحاكم — وبدأوا بالدعوة لضم من يستطيعون لهذه الجمعية .

(٥) وقاموا بإرسال إعلانات إلى الأنبا مرقس وكيل البطريركية وإلى نظار الأوقاف يخبرونهم بتكوين هذه الجمعية وغرضها ، وشرحوا فى هذه النشرات ما وصلت إليه حال الملة وطالبوه بأن يهتم بتنفيذ رغبات الأمة بإصلاح حال المدارس والفقراء .

(٦) دعا الأنبا مرقس عقلاء وأعيان الأمة بالقاهرة وأطلعهم على المنشور الذى وصله . فأخبروه بأن الطلب عادل وأنهم هم أيضاً يضيفون على ما تضمنه التقرير أن الفساد قد تطرق إلى الأوقاف والقضايا . ورأوا أن يتدارك الأمر بحكمته وأن يعقد جمعية من أبناء الأمة بالعاصمة وأن يطلب منهم إنتخاب أربعة وعشرين عضواً يؤلفون هيئة لمعاونته وتعضيده فى تسيير الأعمال بإستقامة ، وإجراء ما يستدعيه الأمر من إصلاحات .

(٧) ولما تم ذلك طلبوا منه أن يلتمس من الحكومة صدور الأمر بإعتماد المجلس بصفة رسمية فلبى طلبهم ، وعرض على الحكومة إلتماساً يرجوها فيه الإقرار على تعيين مجلس إدارة للطائفة لمساعدته على تدبير الأمور ، وصدر بذلك أمر عال بتاريخ ١٥ الحجة سنة ١٢٩٠ وسمى بالمجلس الملى .

ونقرأ من بين أعضاء هذا المجلس أسماء كان لها فيما بعد شأن كبير فى ميدان الإصلاح الملى أمثال : سعد أفندى ميخائيل عبده ، مقار أفندى عبد الشهيد ، ميخائيل أفندى يوسف الباراتى ، باسيلى أفندى تادرس ، بطرس أفندى غالى .

(٨) وشرع هذا المجلس فى القيام بعمل هام لأجل إستقرار الأوضاع . وهو إنتخاب البطريرك وقد وقع إختيارهم على الراهب يوحنا الناسخ من دير البراموس ورسم فى نوفمبر ١٨٧٤م. وطلب منه الأعضاء قبل كل شيء الإقرار على وجود المجلس والإعتراف به فأجاب طلبهم وظلت الأعمال سائرة مدة على أحسن حال ، والإتفاق سائداً بين غبطته وبين الأعضاء . ومن أعظم أعمالهم أيضاً فى هذه الفترة إنشاء مدرسة

للبنات ومدرسة إكليريكية أحضروا لها كطلبة رهباناً أذكياء من الأديرة وإستبشر الناس خيراً .

(٩) ولكن مع الأسف فإن ما حسبوه خيراً كان سبباً فى وقوع مشاكل عديدة أدت إلى إنقسام الأمة على ذاتها .. وقد بدأت هذه المشاكل من نفس بعض الأعضاء الذين داخلهم حب الإستئثار ونفوذ الكلمة والسيطرة ، كما إتصل بعضهم بالبطريرك عن طريق الزيارات التى كان يقوم بها فى منازلهم ونصحوه بأن يكون مستقلاً مطلق التصرف كما كان الذين قبله ووجود المجلس يُغلّ يديه ، وما زال به حتى إستماله إلى آرائه الفاسدة . وكانت النتيجة أن نفر غبطته من المجلس وتخلف عن حضور جلساته ، وتصرف فى الأعمال من تلقاء نفسه .

(١٠) وبعد مداولات ومخابرات طويلة بينه وبين الأعضاء بدون جدوى ، عرض الأعضاء الأمر على الحكومة فأصدرت أمرها بتكليفه بعقد المجلس فى أوقاته المعينة والعمل بالإتحاد مع الأعضاء ، ولكنه إستمر فى سلوكه نحوهم كما ذكرنا فسئم الأعضاء من هذه الحالة فإستقال البعض وإنقطع عن الحضور ، وبذلك إنحل المجلس من تلقاء نفسه ، وبقى منحلاً سبع سنوات زغماً عن المساعى التى بذلت لإرجاعه ، وأبطلت مدرسة البنات والمدرسة الأكليريكية ، وأهمل غير ذلك من التحسينات التى أدخلت .

(١١) « المجلس الملى أنشودة المصلحين » ، بينما كان المجلس معطلاً ، كان كل الذين يهمهم الإصلاح يلحون على أولياء الأمور ولا سيما الأعضاء بإعادة المجلس أو على الأقل إظهار الإهتمام بإصلاح شئون الأمة . فكان بعض الأعضاء ينسبون التوقف للبطريرك والأكليروس ، بينما البعض الآخر يشكون من وجود معاكسين بينهم ، وآخرون يتعللون بأن ظروف الأحوال غير مساعدة . والحقيقة أن من أعظم أسباب تعطيل المجلس وحله طوال هذه المدة ، هو عدم الإتحاد فى أفكارهم ووجود ضغائن بين الأخ وأخيه ، وترفع البعض الآخر على المطالبين بالإصلاح وإعتبارهم دونهم فى المقام أو السن فلا يجب التعويل على

مطالبهم ، وقال البعض الآخر أن الإصلاح لا يقوم إلا بالمال والمال لا يوجد إلا فى خزائن البطريركية .

(١٢) فى أثناء ذلك قام بعض الغيورين الذين رأوا عدم إضاعة الوقت ، يبرهنون على فساد الرأى القائل أن الإصلاح يتوقف على أموال البطريركية ، فأنشأوا جمعية خيرية بإسم جمعية المساعى الخيرية برآسة بطرس باشا غالى ، فقامت بخدمات خيرية جليلة ، فأغاثت كثيراً من المعوزين المهملين ، وهى التى تطورت فيما بعد إلى الجمعية الخيرية القبطية الكبرى . ولم تستعن على هذا العمل الجليل بغير الإشتراكات الشهرية والتبرعات ، وكانت هذه الجمعية مثالاً صارخاً بأن الكثير من إصلاح شئوننا متوقف على إعتمادنا على أنفسنا وإقدامنا على العمل بحزم ومثابرة . وتبع تلك الجمعية جمعيات خيرية أخرى كثيرة فى الوجهين القبلى والبحرى وكلها قائمة بغير أموال الوقف ولا علاقة لها بالأكليروس .

(١٣) ومن ناحية أخرى فقد ساءت الحال فى البطريركية وكثرت شكاوى أصحاب القضايا من ناحية تأخير قضاياهم ولا سيما ما يتعلق بالوراثة ، والعبث بالأوقاف وإيراداتها وإنحطاط حال المدارس ولا سيما تلك التى أنشأها بالأزبكية أنبا كيرلس الرابع ، عاود الناس المطالبة عام ١٨٨٣م بتشكيل هيئة مجلس جديدة ، وإستحصلوا على أمر عال بذلك ، وعارض البطريرك وردت عليه بوجوب تثبيت المجلس وإعادة تشكيله ، وتم الإنتخاب من أربعة وعشرين عضواً ، وشرع المجلس فى العمل بمقتضى اللائحة الجديدة الصادر بها أمر خديو ، ولكن البطريرك لم يستمر فى حضور جلساته محتجاً بأن فى اللائحة بعض مواد مجحفة بحقوقه، ولم ينجح المجلس لذلك لعدم تنفيذ قراراته ولسبب آخر بالنسبة لسلوك بعض الأعضاء كما كان الحال فى المجلس السابق ، وتعطلت جلساته وبقى معطلاً مدة .

(١٤) فى عام ١٨٩١م نهض دعاة الإصلاح إلى تجديد الإنتخاب وإعادة المجلس مرة ثالثة فكلفوا خمسة من أعيان الأمة وأفاضلها وهم المرحوم سعد

بك ميخائيل ويوسف بك وهبه ويوسف بك سليمان ومقار بك عبد الشهيد بأن يطلبوا من البطريرك عقد جمعية للإنتخاب بتطبيق اللائحة ، ولكنه أبى إجابة سؤالهم قائلاً أنه ينوى إدخال بعض تعديل فى اللائحة وهذا لا يتأتى إلا بوجود بطرس باشا فهو ينتظر عودته .

(١٥) وعرض بعضهم الأمر على توفيق باشا الخديوى فأشار عليهم بالإتفاق مع البطريرك ثم شرع دعاة الإصلاح فى تحضير عريضة بطلب التصريح بتجديد الإنتخاب ممضاة من كثيرين من أبناء الأمة برضاهم عن المجلس .

وقام سعد بك ميخائيل عبده يدعو الأعضاء للحضور إلى البطريركية لعقد جلسة وظن البطريرك أنها دعوة لجلسة إنتخاب فإستعان بالشرطة لمنع إنعقاد الجلسة .

(١٦) وعلى أثر ذلك أرسل غبطة البطريرك وإستدعى المطارنة والأساقفة ورؤساء الأديرة ووكلاء الشرائع للنظر فى مسألة المجلس نظراً نهائياً . وإنعقد مجمع أكليريكى بالدار البطريركية تحت رآسة الأنبا يؤانس وكيل الكرازة المرقسية بالأسكندرية ، وتلى عليهم قرار محصله أن تشكيل مجلس مخالف للنصوص الكتابية والقوانين الرسولية ، ووقع عليه جميع الحاضرين ما عدا القمص فيلوثاؤس إبراهيم رئيس الكنيسة المرقسية بالأزبكية والقمص بطرس خادم كنيسة دير الملاك البحرى . وهذا القرار بطوله موجود فى كتاب (القول اليقين فى مسألة الأقباط الأرثوذكسيين) لمؤلفه يوسف منقريوس . وقام البطريرك والأنبا يؤانس بمقابلة الخديو توفيق وعرضا عليه بأن عدداً كبيرا من إبناء الأمة غير راضين عن المجلس ، وأن جميع البطاركة الذين تقدموا كانوا مطلقى التصرف غير مقيدين بهذا القيد .

(١٧) وعند رجوع بطرس باشا غالى من أوروبا أعطاه الخديو توفيق كل ما يتعلق بهذا الموضوع وطلب منه العمل على حسم الخلاف بين البطريرك والمجلس .

وسعى معاليه فى التوفيق بين الطرفين وإزالة كل ما علق بالأفهام ، وفى ٣١ إكتوبر ١٨٩١ عقد المجلس جلسة حضرها البطريرك وقال (أنه لا يأنف من إجتماع المجلس الملى ولا من مشاركته فى الأعمال الصالحة بالإتحاد والإرتباط .) .

(١٨) جمعية التوفيق : وفى هذه الأثناء قام الغيورون على المصلحة فألفوا جمعية للمطالبة بالحقوق المهضومة للأمة ، وترقية شئونها ، وأخذت تسعى فى إستئصال شأفة الفساد ودعيت « جمعية التوفيق » التى نمت بسرعة غريبة وتفرعت فى أنحاء القطر . وعملت على إبادة تلك الروح التى كانت تدس الدسائس لتفوز بمبتغاها فى إماتة المجلس الملى .. وقامت جمعية تواجهها تسعى لدى البطريرك بالمجاهرة بأن المجلس الملى مخالف للدين ، وتسمى « الجمعية القبطية الأرثوذكسية » .

(١٩) وإستمر هذا الخلاف قائماً بين رجال الإصلاح ممثلين فى المجلس الملى من ناحية والأكليروس ممثلين فى البطريرك والأساقفة من ناحية أخرى إلى خمسينات هذا القرن عندما طبق الإصلاح الزراعى على الأوقاف فأراح الجميع ، وإستولت الحكومة على معظم الأراضى الزراعية الخاصة بالأوقاف القبطية .

وفى أثناء ذلك إنتقلت إلى المحاكم قضايا الأحوال الشخصية ، وأصبحت المجالس الملية كهيئة شبه رسمية أمام ولاة الأمور فقط ، فتفرق بعض الأعضاء ثم توقف نشاطها تقريباً .

(٢٠) ونشط رجال الإصلاح فى مجالات أخرى مستقلة فكونت جمعيات عديدة خيرية وثقافية ونشطت تبعاً لذلك حركات التأليف والنشر ، فقام المرحوم ميخائيل بك شاروبيم بوضع كتابه (الكافى) فى تاريخ مصر فى ستة أجزاء طبع منه خمسة أجزاء فقط ، ووضع المرحوم يعقوب بك نخله رفيله كتابه فى (تاريخ الأمة القبطية) ، وظهرت مؤلفات تاريخية ودينية أخرى ساهم فى بعضها رجال الكهنوت الذين أقبل بعضهم من خريجى الجامعات على الإنتظام فى زمرة رجال الدين . وظهرت بين وقت وآخر مجلات ورسالات أضافت كثيراً إلى الوعى

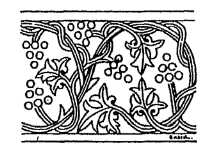
القومى والتاريخى وأهمها مجلة جمعية الآثار القبطية التى ساهم فيها كبار علماء التاريخ والآثار ولها مركز مرموق فى المكتبات العالمية وإستلفت هذا النشاط الإصلاحى نظر الهيئات العلمية فى أوروبا وأمريكا فأخذت الدراسات القبطية مكاناً فى أوساطهم ، وعقدت فيها مؤتمرات خاصة .

كما أسس فى القاهرة معهد عال للدراسات القبطية ، وأنشئت كليات أكليريكية فى بعض عواصم القطر .

المصادر :

١ ـــ كتاب (تاريخ الأمة القبطية) ليعقوب نخله رفيله .
٢ ـــ (مسألة الأقباط الأرثوذكسيين) ليوسف منقريوس .
٣ ـــ (تاريخ الأمة القبطية من ١٨٩٣ إلى ١٩١٢) ليوسف منقريوس .
٤ ـــ (تاريخ حياة الايغومانس فيلوثاؤس إبراهيم) لجرجس فيلوثاؤس عوض .
٥ ـــ بعض مصادر متنوعة أخرى .

(كتب للنشر فى الموسوعة القبطية)



بطرس باشا غالى

كان للمرحوم بطرس باشا غالى نشاطا كبيرا فى المحيط السياسى والملى والخيرى والثقافى ، فكان رئيسا لجمعية المساعى الخيرية التى تطورت فيما بعد إلى جمعية التوفيق ، وله يرجع الفضل فى فكرة إنشاء جمعية الآثار القبطية والمتحف القبطى ، وفى ذلك يقول المرحوم جرجس فيلوثاؤس عوض : « وكان المرحوم بطرس باشا غالى شديد الإحتفاظ بالآثار ميالاً إلى جمعها ، فأوعز إلى جمعية التوفيق المركزية التى إهتمت كثيراً بالأمر ورأت أن يكون على رأس القائمين بالعمل البطريرك لتسهيل مهمتها ، فتألفت جمعية حفظ الآثار القبطية والتاريخ .... ولم ندر ما خبأه الدهر للمرحوم بطرس باشا غالى الذى إغتالته يد أثيمة فى يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠ .... وبعد موته إفتتحوا هذا المتحف وجعلوا يزيدون فيه ولكن النواة الأصلية كانت مما جمعه المرحوم نخلة بك يوسف البارانى مما كان مخزونا من بقايا (الكنيسة) المعلقة فى ثلاثة صناديق ومما أشار المرحوم بطرس باشا غالى بجمعه ، وكان الفضل فى توسيعه لمرقس سميكة باشا الذى جمع من كنائس مصر بعض الآثار وإشترى بعضها بالثمن ... »

(راجع كتاب إبن كبر للمرحوم جرجس فيلوثاؤس عوض ص ٩٤ ، المطبعة المصرية الأهلية بالقاهرة سنة ١٩٣٠) . وكتب حضرة الأستاذ الشيخ محمد بخيت فى تأبين بطرس باشا غالى بأن الأمة فقدت من رجالها « ... رجلاً عظيماً وشهماً كريماً كان حريصاً على جلب منفعتها ودفع مضرتها ذلك هو المأسوف عليه بطرس باشا غالى رئيس مجلس النظار سابقاً أقامت هذا الاحتفال تذكاراً لذلك الرجل العظيم . ذلك الرجل الذى اجتمع فيه من الصفات ما لم يجتمع فى غيره من أهل عصره فى مصر فقد اجتمع فيه مع الرياسة دهاء محمود وحسن السياسة وذكاء نادر وكياسة واجتمع فيه مع رجحان فى العقل ورزانة فى الحركات والسكنات خفة فى الروح والطبع فما كان يراه أحد الا احبه ومال إليه واجتمع فيه مع رفعة الشأن وشهرة الصيت وعظم القدر تواضع فى القول تواضع فى العقل سماحة فى النفس وداعة فى الاخلاق اجتمع فيه مع الشمم واباء النفس وعلو الهمة والتباعد عن سفاسف الأمور حسن المعاملة والمعاشرة لكل الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم ومشاربهم اجتمع فيه لين العريكة ودماثة الأخلاق والتأنى والتؤدة فى كل الأحوال . أنه أعطى قدرة فائقة على تذليل الصعاب وإزالة المعضلات وحل المشكلات سياسية كانت أو قضائية فكنت تراه مع رجال القضاء صاحب الرأى السديد الأول ومع رجال السياسة المحنكين صاحب الرأى الذى عليه المعول » .

(راجع تاريخ الأمة القبطية تأليف يوسف منقريوس ص ٤١٧ ، مطبعة القديس مكاريوس بمصر الجديدة سنة ١٩١٣ م) .

وقد كتب د . محمد حسين هيكل فى كتابه « تراجم مصرية وغربية » عن بطرس باشا غالى ما يلى :

وأعانه فى الحياة إلى جانب ذكائه وقوة ذاكرته ومضاء إرادته صحة متينة كان يدل عليها طول قامته وعضله المفتول . كما كان بريق عينيه بريقاً عجيباً يدل على ذكائه وحيلته . لذلك لم يكد يتخطى أوليات الشباب حتى عرفه أولو الأمر يومئذ وعهدوا إليه بأعمال ذات خطر ومسئولية . فقد دخل فى مسابقة حين كان مدرساً بمدرسة حارة السقايين انتقل بها إلى وظيفة كاتب بمجلس تجار الإسكندرية الذى حلت المحكمة المختلطة بعد ذلك محله . وجعل يرتقى من وظيفته هذه حتى صار رئيس كتاب المجلس الذى حكم

سنة ١٨٧٣ فى قضية ضد مصلحة أحد المحسوبين على إسماعيل باشا المفتش . وإذ كان مجلس التجار تابعاً لنظارة الداخلية ، فقد أوصل المفتش الأمر إلى ناظرها شريف باشا وأبلغه أن بطرس غالى كان صاحب اليد فى إصدار ذلك الحكم الجائر . فدعا الناظر بطرس إليه فأعجبته مناقشته كما أعجب بمعرفته للغات ، ولذلك نقله من عمله وعينه رئيساً لكتاب نظارة الحقانية التى كلف شريف بإنشائها استعداداً لتطبيق نظام الإصلاح القضائى الجديد .

وكانت سنة ١٨٧٤ سنة نشاط كبير فى الحقانية بسبب التحضير لإنشاء المحاكم المختلطة . وكان المغفور له محمد قدرى باشا مشتغلاً بترجمة قوانين هذه المحاكم إلى اللغة العربية . فانضم إليه بطرس وعنى وإياه بتعريب التشريع الذى ما يزال أكثره سارياً فى مصر إلى الوقت الحاضر .

وأتاح له الاشتغال فى التحضير للمحاكم المختلطة التعرف إلى رئيس النظار نوبار باشا ، فكان اتصاله به ذا أثر كبير فى تكوينه السياسى . وما فتئ هذا الاتصال بينهما وثيقاً مستمراً داعياً إلى ثقة نوبار بباشكاتب الحقانية ، حتى كان هو أول من اختاره ليكون ناظراً للخارجية فى وزارته التى ألفها سنة ١٨٩٥ بعد أن أختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ ليكون ناظراً للمالية .

.... هذه الظروف كلها تفسر لك سياسته من بعد ارتقائه إلى منصب وزارة المالية فى سنة ١٨٩٣ وانتقاله إلى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقائه فيها حتى مع تقلده رياسة الوزارة فى سنة ١٩٠٨ برغم ما جرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزراء لوزارة الداخلية .

.... وبقى فى وكالة الحقانية حتى عين ناظراً للمالية فى سنة ١٨٩٣ . على أن أحوال مصر السياسية تغيرت فى هذه الفترة تغيراً كبيراً كان لبطرس بك غالى رأى فيه معروف . ذلك أنه لما حدثت الثورة العرابية وانتهت إلى تدخل الإنجليز وهزيمة العرابيين فى التل الكبير وتشاورهم فى الأمر كان من رأى بطرس أن يلتمسوا عفو الخديو وأن يركنوا إليه . وقد أوفده القوم يومئذ بعريضة إلى الخديو توفيق فيها هذا المعنى . ومع أنه لم يظهر له عمل مباشر فى الثورة ، مما يدل على أنه لم يكن من المطمئنين إليها ، فإن التجاء العرابيين إليه يدل على أنه كان موضع عناية الخديو توفيق وعطفه كما يدل من جهة أخرى على أن ذكاءه وفطنته السياسية كانا موضع تقدير الذين التجأوا إليه ورأوا فيه خير واسطة للتفاهم بينهم وبين الحاكم الذى ثاروا عليه .

مقار باشا عبد الشهيد

ولد فى أواخر سنة ١٨٣٦ م ـــ فى طهطا من بيت قديم مشهور . فكان جده المعلم بشاى قرياقص الراهب الطهطاوى كبير كتاب ابراهيم بك الكبير كبير المماليك حاكم مصر فى ذلك الوقت .

أما والده فكان كاتبا لقسم طهطا . وعندما نقل لديوان الجهادية فى سنة ١٨٣٨ م انتقلت عائلته معه للقاهرة . وعندما بلغ مقار السابعة من عمره أدخله والده بمدرسة بالدرب الأبراهيمى لقسيس يدعى جرجس خادم كنيسة الملاك البحرى ثم نقل الى مدارس اخرى . وعند إتمام دراسته إنتقل لعدة وظائف فى ديوان الجهادية ثم بتفتيش الاقاليم ثم لديوان الخاصة الخديوية بوظيفة رئيس قلم المالية والادارة ومكث به نحو اربعة عشر سنة .

وفى نوفمبر سنة ١٨٧٧ م عين رئيسا للقلم العربى بقسم القضايا بأمر السلطان حسين لما كان ناظرا للمالية . وكان القلم تارة تابع للمالية وتارة تابع للحقانية . وفى سنة ١٨٧٩ م صار فرز الاعمال الادارية من قسم القضايا وجعل قسم مخصوص سمى قلم الدعاوى وعين رئيسا له . وفى ١٦ مايو سنة ١٨٩٢ م عين نائب قسم قضايا الحقانية ثم عمل رئيسا لهذا القسم الذى خدم به مدة ٢٢ سنة إلى أن أحيل الى المعاش فى يناير سنة ١٩٠٠ م .

وفى ٥ فبراير سنة ١٩١٠ م عين عضوا مندوبا عن الحكومة بمجلس شورى القوانين لغاية يوليو سنة ١٩١٣ . حيث الغى المجلس لإنشاء الجمعية التشريعية .

وفى مدة خدمته اكتسب الرتب بالتدريج لغاية رتبة أمير ميرمار والنياشين بالتدرج من الدرجة الرابعة والثالثة مجيدى والدرجات الثالثة والثانية عثمانى ومن دولة الحبشة نيشان سليمان من الدرجة الثانية .

*

* *

وقد كان لمقار باشا عبد الشهيد دورا هاما فى الشئون الطائفية . فكان عضوا بالمجلس الملى الأول الذى أنشأ بالأمر العالى الصادر بتاريخ ١٥ الحجة سنة ١٢٩٠ هـ (سنة ١٨٧٠ م) وكان من أعظم أعمال هذا المجلس انشاء مدرسة للبنات ومدرسة أكليريكية . إلا أنه لم يمضِ زمن حتى دخل بعض الأعضاء حب الاستئثار ووشى بعضهم للبطريرك الأنبا كيرلس الخامس أنه يلزم أن يكون مستقلا مطلق التصرف . فبقى المجلس معطلا مدة سبع سنوات . وكان الذين يهمهم الإصلاح يلحون على أولياء الأمور بإعادة المجلس أو على الأقل لاهتمام بإصلاح شئون الأمة فأسسوا جمعية لمساعدة الفقراء وسموها جمعية المساعى الخيرية التى رأسها بطرس باشا غالى. ولما ساءت الأحوال وكثرت شكوى أصحاب القضايا من تأخير قضاياهم خصوصا المواريث عاود الناس المطالبة فى سنة ١٨٨٣ م بتشكيل مجلس على هيئة جديدة إلا أن هذه المساعى لم تؤدِ إلى نتيجة .

وفى سنة ١٨٩١ م نهض دعاة الإصلاح إلى تجديد الإنتخاب وإعادة المجلس مرة ثالثة فكلفوا لجنة من أعيان الأمة هم : سعد بك ميخائيل ويوسف بك وهبه ويوسف بك سليمان وبطرس بك يوسف ومقار بك عبد الشهيد ان يطلبوا من البطريرك عقد جمعية للإنتخاب بالتطبيق للائحة .

(تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة روفيلة ص ٣٢٣ الى ٣٣٨) .

وكان الخديوى توفيق باشا بمدينة الاسكندرية فسافروا للاسكندرية وعرضوا عليه الامر فأشار عليهم بالإتفاق مع البطريرك كما نصح البطريرك وأعضاء المجمع بأن يكونوا على وفاق تام مع ابنائه . وعلى أثر ذلك حضر بطرس باشا غالى من اوروبا فاعطى له الخديوى جميع الأوراق الخاصة بهذه المسألة وأمره بحسم النزاع .

وإنتهى الأمر بأن وزعت تذاكر الدعوة للإنتخاب بختم بطرس باشا غالى بصفته نائب المجلس . فإجتمع نحو خمسمائة من رجال الأمة وحصل الانتخاب على يد وبحضور محافظ القاهرة . الا إن الخلاف لم يزل مستمرا بين اعضاء المجلس والبطريرك الذى إعتزل بدير البراموس نحو ستة أشهر . عاد بعدها للقاهرة فى ٤ فبراير سنة ١٨٩٣ م فإستقبل بالترحاب فى إحتفال عظيم .

*

* *

ومن الأمور التى إهتم بها مقار باشا مسألة دير السلطان باروشليم . فقد وجه إليه الامبراطور منليك الثانى مرسوما فى ٢٢ /١ /١٩٠٤ م هذا نصه :

ترجمة المرسوم الصادر لنا من
جلالة منليك الثانى امبراطور الحبشة

الأسد الخارج من سبط يهوذا منليك الثانى ملك ملوك الحبشة الى سعادة مقار بك عبد الشهيد .

نهديكم تحياتنا ونبلغكم بشأن اخوتكم الرهبان الاحباش المقيمين باورشليم بدير السلطان الذى هو ملكا لهم بعزمنا على أن نبنى لهم كنيسة فى نفس هذا الدير . فنرجوكم ان تعملوا ما فى وسعكم لكى يسلم لنا بحقوقنا . وكثيرا ما تحرر بهذا الخصوص ولكن مع الأسف لم تأت طلباتنا بفائدة .

ولا داعى لأن نذكر سيادتكم بأننا اولاد كنيسة واحدة تابعين جميعا لمارى مرقس وعلى ذلك فاننا كنا إنتعشم بعدم حصول اعتراض على هذا الطلب الطفيف .

وبما أن اغلب رهبان الحبشة قد اصيبوا بامراض خطرة فمن العدالة أن يكون هذا الدير فى أيدى هؤلاء الرهبان لأنه قد مضى زمنا طويلا ورهبانكم واضعين ايديهم عليه بغير وجه حق وبما انتم عليه من العدالة فنأمل بأنكم تقصدوننا فى طلبنا هذا وأن تعملوا كل ما فى وسعكم لكى يحصل على المرغوب . وقد ارسلنا بطرفكم دزياز مشاشيا والراس مبمس فاكاده فنرجوكم ان تساعدوهم واقبلوا مزيد اشواقنا .

اديس ابابا فى ٢٢ /١ /١٩٠٤ .

ولم يحقق مقار باشا رغبة الاحباش فى امتلاك هذا الدير لأنه ملك للأقباط ولا يزال موضع نزاع ليومنا هذا .

وكان مقار باشا مساهما وعضوا لجميع الجمعيات الخيرية وعلى الأخص الجمعية الخيرية القبطية الكبرى التى كانت لها الفضل فى انشاء المستشفى القبطى فأوقف لها حصة عقارية فى منزل .

ومقار باشا عبد الشهيد هو جد المستشار فريد تادرس الفرعونى ، أطال الله حياته ، وقد ولد فى القاهرة عام ١٩٠٥ م وكان عضوا بالمجلس الملى العام ١٩٥٠ م وأنتخب وكيلاً لمجلس ملى الاسكندرية لمدة ١٨ عاما متصلة (١٩٥٥ــ١٩٧٣ م) ، كما كان عضوا بمجلس إدارة هيئة الأوقاف القبطية (١٩٦٦ــ١٩٧٢ م) وعين عضوا بمجلس إدارة معهد الدراسات القبطية والمجلس الأعلى للتعليم الدينى (١٩٥٨ــ١٩٧٢ م) كما انه مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية لدى مجمع الفاتيكان الثانى المنعقد فى روما سنتى ١٩٦٣ ، ١٩٦٥ م . وبذل جهودا كبيرة لتعطيل وإحباط الوثيقة الخاصة بتبرئة اليهود كما انه أثار الإعتراضات لمنع إعتراف الفاتيكان بإسرائيل وكان لهذا الموقف أهميته لخطورة الموضوع فى ذلك الوقت من الناحيتين العقائدية والدينية والسياسية . عين عضوا ببعثة الشرف القبطية التى تسلمت رفات القديس مارمرقس كاروز الديار المصرية من بابا روما فى يونيو ١٩٦٨ . وكان عمله وكيلاً للمجلس الملى الاسكندرى يجعله يقوم بعمل نائب رئيس مجلس ادارة المستشفى القبطى بالاسكندرية إلى أن ضم المستشفى للتأمين الصحى عام ١٩٦٤ م . وفى مجال النشاط العلمى والثقافى فقد كان من مؤسسى الجمعية المصرية للقانون الدولى أثناء عمله بوزارة العدل عام ١٩٤٢ م وأخيرا عضوا بمجلس الإدارة الأول لهذه الجمعية واستمر فى عضويتها لمدة عشرة سنوات إلى أن نقل الى محكمة إستئناف اسيوط وقد ساهم خلال هذه الفترة فى نشاط الجمعية ومؤتمراتها وله بحوث ومحاضرات عن بعض مواد القانون الدولى كنظرية السيادة والأمن القومى والتأمين الجماعى ومعاهدة مونتريه ومعاهدات الاقامة والوثائق الخاصة بحقوق الإنسان .

عمل نائباً لرئيس جماعة الاتيليه للفنانين والكتاب بالاسكندرية (١٩٤٨ــ١٩٧١ م) . ولايزال يعاون هذه الجماعة كمستشار لها . عين عضوا باللجنة الاستشارية للمتحف والبينالى بالاسكندرية . كما انه ساهم فى نشر بعض المقالات ببعض المجلات الوطنية والاجنبية مثال ذلك : مجلة افريقيا الحية الفرنسية ــ جريدة الشرق ببروت ــ مجلة الاسقفية بكندا . رئيس سابق لنادى الروتارى وعضو عامل فى كثير من الجمعيات الدينية والاجتماعية ، حصل على وسام القديس سيلفستر من طبقة كوماندور وهو من أعلى أوسمة الفاتيكان وذلك من البابا بولس السادس بابا الفاتيكان . وفى أحتفال الكنيسة القبطية بمناسبة ربع قرن على عودة رفات القديس مرقس عام ١٩٩٢ م أصدر كتاباً متضمناً كل الوثائق الخاصة بعودة الرفات بعنوان : عودة رفات القديس مرقس الإنجيلى إلى مصر .

الفصل الثامن

النهضة القبطية الحديثة ونصيب الاسكندرية فيها

أيها السادة :

فى سنة ١٨٧٤م أى منذ نحو خمسين عاماً أو أكثر ظهرت بوادر النهضة القبطية الحديثة التى وضع بذارها أبو الاصلاح القبطى الأنبا كيرلس الرابع سنة ١٨٥٣م عندما قام بنشر نور المعارف والعلوم منقذا أمته من ظلمات الجهل فأنشأ مدرسة الأقباط الكبرى بالدرب الواسع فكانت أول مدرسة من نوعها فى الشرق . قام يحمل لواء تلك النهضة شباب الأمة إذ ذاك الذين أضاء العلم بصيرتهم ووجد فيهم نفوساً طيبة تحلت بالفضائل المسيحية . تشبعوا بالرغبة فى الاصلاح وآمنوا بحق أمتهم وجدارتها لذلك ووطدوا العزم على التضحية وانكار الذات مهما لاقوا فى سبيل ذلك فى قوة واتحاد . لم يستطع أصحاب القوة والسلطان أن ينالوا منهم ولم يستطع حتى التهديد بالنفى أن يفصم عرى اتحادهم فعندما أرسل إليهم الخديو دميان بك جاد شيحة كبير الأقباط يعرفهم أنه قد أمر بارسالهم منفيين إلى البحر الأبيض جادله المرحوم جندى بك يوسف قصبجى قائلاً « متى كان المشروع مرضياً للمسيح فهو يخلصنا وإن كان لا يرضيه واقتضت ارادته فنحن قابلون » . تراجع الجميع أمام هذا الرد وذلك الايمان . وإذا كان سيدنا له المجد قد علمنا أن من له إيمان مثل حبة الخردل يستطيع أن يزحزح الجبال فقد رأينا وسمعنا ذلك عندما انقلب الأمر من تهديد بالنفى إلى التسليم بمطالب الاصلاح على طول الخط، وإذا كان له المجد قد أوعد كل اثنين أو ثلاثة يجتمعون باسمه أن يكون فى وسطهم فإن البركة التى شملت هؤلاء الأبطال لا تدع لنا شكا فى ذلك . صبروا وثابروا ففازوا بأول مجلس ملى فى ٦ فبراير سنة ١٨٧٤ م .

ولكن المجلس الملى وكراسيه لم تكن لديهم إلا وسيلة أساسية للاصلاح إذ به تشترك الأمة فى ادارة شئونها والاشراف على أموال أوقافها . كانت غايتهم أن تبلغ رسالة الاصلاح إلى جميع أفراد الأمة القادرين المثقفين فينضوى الجميع تحت لواء تلك النهضة جنوداً فى تضامن وتآلف لإزالة كثير من مظاهر النقص والتأخر فى مرافق الأمة المختلفة فقاموا ينشئون المدارس لاعداد رجال الغد

والنوادى لبث المبادىء الاصلاحية فيهم ثم الجمعيات المتباينة الأغراض على أن يعمل الجميع فى تناسق وانسجام . كان كل فرد منهم بجماعة وكان مثلاً أعلى للتضحية وانكار الذات استميحكم فى تلخيص سيرة أحدهم حتى أزيدكم تعرفاً بهم ومعرفة بأعمالهم فنقيم تمثالاً لكل منهم فى قلوبنا .

يعقوب بك نخلة رفيله تخرج من مدرسة الأنبا كيرلس الرابع أبى الاصلاح القبطى كريم المحتد عالى الهمة . اتجه إلى التعليم فكان أستاذاً للانجليزية والايطالية فى مدرسة حارة السقايين القبطية ثم تعلم الفرنسية باجتهاده وألم بقواعد اللغة القبطية .

اكتسب من الخبرة فى فنه ما وضعه فى خدمة أبناء أمته عن طريق التدوين والتأليف . أراد أن يسهل السبيل لراغبى تعلم اللغة العربية من الانجليز فوضع لهم كتاب (التحفة المرضية فى تعليم الانجليز اللغة العربية) وكذلك وضع لمن يرغب فى تعليم الانجليزية من أبناء اللغة العربية كتاب (الابريز فى تعلم لغة الانجليز) ووضع لكل فريق طريقة نطق الفاظ اللغة المراد تعلمها بلغته الخاصة . وطبع هذين الكتابين سنة ١٨٧٤ . كما ألف أيضاً قاموس اصطلاحات لهاتين اللغتين .

تعمق فى دراسة تاريخ أمته فرأى أن ما فيه من كنوز ومن عظمة وبطولة مبعثر فى مؤلفات كثيرة أو تناولته يد التشويه والتحريف فى كثير من الأحيان عن قصد أو عن حسن نية . فآلى على نفسه أن يضع تاريخاً مفصلاً بعيداً عن الهوى يضم بين دفتيه مفاخرنا وكل ما كان لنا من مجد فيحفزنا لنصل بأمتنا إلى المكان اللائق بها . ولقد استلزم ذلك الانكباب على المصادر قديمها وحديثها سنين طويلة وكلفه مجهوداً شاقاً جباراً تتقاسمه عدة لجان . حتى أخرج لنا درة نفيسة هو كتاب تاريخ الأقباط . ولأعطيكم فكرة عن المستوى الثقافى لامتنا فى عاصمة القطر الثانية أخبركم انى لم أجد أثراً لذلك السفر الجليل فى أى مكتبة فى الاسكندرية . ومازلت أبحث عنه .

كان كل همه وتفكيره منصرفاً إلى خدمة شباب الأمة والعناية بأمرهم من الوجهة الثقافية والأخلاقية والدينية . عندما اتسعت رقعة القاهرة وصارت المدرسة الكبرى بعيدة عن كثير من الأحياء أنشأ مدرسة وسماها مدرسة

الاقتصاد وادارها بكفاية جاعلا نصب عينيه أن تكون انموذجاً لمدارس ذاك الوقت فى أساليب التربية .

لم يجد أن رسالته قد تمت بعد ذلك المجهود العظيم فى الميدان الثقافى إذ يجب عليه أن يتعهد الشباب بعد تركه المدرسة فقام ينشيء (النادى القبطى) فى بيته فكان أول ناد للأقباط وتهافت عليه الشباب فكان يبث بينهم مبادىء الاصلاح وانكار الذات . وكانت اللغة الفرنسية ويليها الايطالية هما اللغتان السائدتان فى ذلك الوقت وادرك ببعد نظره أن سيكون للغة الانجليزية شأن فى هذه البلاد فانشأ نادى المناقشة الانجليزى المصرى The Anglo Egyptian Discussion Club كانت تعقد فيه حلقات مناقشة ومناظرة باللغة الانجليزية تحت رئاسة أستاذ انجليزى يديرها . كان مقره فى بادىء الأمر مدرسة الاقتصاد ولما اتسع نطاقه وزاد عدد المتضمنين إليه اتخذوا له مكاناً خاصاً .

لم يقتصر على ذلك بل قام يساهم فى الجمعيات القبطية فكان له اليد الطولى فى ايجاد جمعية الاصلاح وهى التى قامت تطالب بانشاء المجلس الملى وكانت تجمع أبطالاً كلهم ذلك الرجل . ثم فى جمعية (الله معنا) الدينية . ثم تأسست جمعية التوفيق القبطية المركزية بالقاهرة فسلمها مدرسة الاقتصاد فابدلت اسمها ودعتها (مدرسة التوفيق) ولم يكن فقط من أعظم انصارها بل كان من العاملين فيها بنشاط واجتهاد ولا سيما فى مطبعتها التى جعلها فى وقت ما تلى المطبعة الأميرية فى الاتقان وحسن النظام .

اقتضت أعماله أن يقيم فى الفيوم زهاء العشر سنوات فسعى جهده حتى وحد كلمة الأقباط وأسس فيها مدرستين تشهدان بما له من الميل الفطرى إلى العمل على مصلحة أمته ولا يزال أهل الفيوم يذكرون له بالحمد ذلك الجميل وأسس هناك أيضاً فرعاً لجمعية التوفيق القبطية .

ظل يعمل فى غير كلل حتى ليلة الوفاة إذ ظل ليلة وفاته يتحدث حتى الساعة العاشرة مساء عن الأمة واصلاحها . لم يكن لديه الوقت الكافى للتفكير فى الزعامة كثمن لخدمة أمته بالرغم من أنه قام ببرنامج عظيم لم يستطع تحقيق مثاه مجلس ملى الاسكندرية فى عشرين عاماً .

أما الاسكندرية فقد أقام بها اثنان أو ثلاثة من عمد الاصلاح حوالى سنة ١٨٨٢م لاشغال مصلحية فقاموا يستأنفون نشاطهم فى ميادين مختلفة وكان اظهر عمل لهم انشاء مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً مع كسوتهم واطعامهم فى بعض الأحيان فكانت نواة المدارس المرقسية ثم رحلوا عنها بعد وقت قصير فكان موقفها سلبياً فى تلك الحركة .

ولكن الاسكندرية قامت تنفض الكرى عن جفونها منذ نيف وعشرين عاماً فظهر فيها لأول مرة الوعظ الارتجالى يحمل علمه الخفاق المرحوم اسكندر حنا فوجد أرضاً خصبة ونفوساً عطشى ودبت الحركة والحياة فى جمعيتنا (١٩٤٥ م). كان كل شىء مهيئاً للسير إلى الأمام وظن الجميع أن يوم الاسكندرية قد أزف لتقوم أيضاً بنهضة مباركة تحمل طالبها فتجعل لنا مركزاً بين الطوائف الأخرى فى عاصمة القطر الثانية يليق بماضينا المجيد . واعطينا كراسى مجلسنا الملى لمن حدثونا كثيراً عن الاصلاح فى نشراتهم واجتماعاتهم ولازلت أذكر نشرة طلعت علينا بها جمعية الاخلاص احتفالاً بمرور خمسين سنة على انشاء المجلس الملى . أجل ! لقد ظننا أنهم سيقتفون أثر السلف الصالح ولكن كم كانت خيبة أملنا عظيمة عندما قاموا يتبعون سياسة لم تتركنا فقط حيث كنا ولكن رجعت بنا خطوات كثيرة إلى الوراء . إنما الأمم بالأخلاق وقد كانت مصيبتنا الكبرى تنصب على الأخلاق . فالتدخل فى انتخابات مجالس ادارة الجمعيات وابتداع نظام الجاسوسية بين أعضائها . وأبطال أو عرقلة كل مشروع لا ينسب فضل التفكير فيه أو تنفيذه للمجلس الملى . ثم الاعتداء على حق الشعب فى انتخاب رعاته وعلى حقوق الرآسة الدينية فى محاسبة هؤلاء الرعاة لم تكن إلا مظاهر لمآسى أخلاقية أبعدت ذوى الضمائر الحية والنفوس الكريمة عن الميدان الملى وتركوه لاشباه الرجال من الوصوليين المذبذبين الذين أوجدتهم هذه الظروف التعسة . وكنا فى كل مرة تتجدد فيها الانتخابات يبرزون لنا ابتكارات حديثة فى وسائل الدعاية ليست من الدين أو الأخلاق فى شىء فكانت معاول تهدم بها الفضائل المسيحية كأنما ميعاد الانتخاب كان ميعاداً لرجوعنا خطوات إلى الوراء ومازال صدى نشرات الكاريكاتورى يحز فى نفوسنا إلى الآن . لقد كانت الضمائر الحية والنفوس الأبية ترزح تحت عبء ثقيل من الألم والأسف على ما وصلت إليه حالة الأمة ولكنها قاومت

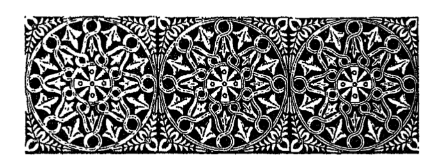
وناضلت وكان أول ثمار ذلك النضال ألصامت أن غير قانون الانتخاب السابق الذى جعل الاسكندرية ترمى بالعقم فلم تلد فى عشرين عاماً سوى ثلاثة أشخاص يقومون بالوصاية على الأمة القبطية .

نعم ! لقد ظللنا عشرين عاماً ندفع ثمن خطئنا فى اختيار من يقود نهضتنا . ولقد تعلمنا فى تلك المدة دروساً كثيرة كانت لنا خير عونٍ فى اختيار جبهتنا العظيمة . فكان ذلك الخير الوحيد الذى استخلصناه من ذلك الشر . لقد كان رائدنا فى ذلك الاختيار أهم صفة تلمسناها طوال عشرين عاماً فلم نعثر عليها وكانت انشودة المصلحين . قمنا نبحث عن انكار الذات فانتقينا من عرفوا بنشاطهم فى المدينة من أدناها إلى أقصاها فى مختلف المرافق وبين جميع الطوائف بدون دعاية وفى غير ضجيج . لقد وجدنا رجالنا بعد أن وجدت القاهرة رجالها بأكثر من سبعين عاماً ولكن علو همة أعضاء جبهتنا وما عرفوا به جميعاً من صفات الجد والعمل واستعدادنا جميعاً لنكون جنوداً مخلصين تحت قيادتهم كل ذلك سيجعلنا نبلغ هدفنا فى وقت قصير نعوض به ما فاتنا فنجعل من يوم أول يونيو سنة ١٩٤٥ يوماً أغر فى جبين الاسكندرية يذكر بماء الذهب فى تاريخ أمتنا كما ذكر يوم ٦ يناير سنة ١٨٧٤ .

وأنتم يا من نضع فيكم ثقتنا وأمالنا عندما تقدمون نتيجة أعمالكم فى آخر مدتكم لا نريد أن نقرأ لكم بأنكم قد زدتم أموال البطريركية وأموال الاحسان ، فتقدم الطائفة فى الميادين الروحية والاجتماعية والثقافية لا يقاس بالملاليم والقروش بل نريد أن تخبرونا بأنكم قد أقمتم صرحاً عالياً للأخلاق فانما الأمم بالأخلاق وبانكم قد رفعتم الروح المعنوية فى الشعب تلك الروح التى اعتبروها فى الحرب الحديثة أقوى وأفعل من جميع أنواع الأسلحة وبأنكم قد وفقتم إلى العمل على تآلف وتضامن أبناء الطائفة إذ بذلك نتخلص من كثير من عللنا ، نريد اصلاحاً فى صميم النفوس لا قشوراً ولا مظاهر براقة . اتخذوا لكم شعار قول سيدنا له المجد « فليضيء نوركم هكذا قدام الناس ليروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات » . انقشوها على الرخام وعلقوها على باب مجلسكم إن شاء الله فتكون الثانية بعد اللوحة الموضوعة فى بيت لحم أمام كنيسة المهد .

أيها السادة : تعيد الكنيسة يوم أول يونيو ذكرى دخول السيد المسيح له المجد أرض مصر وإن أحسن هدية نستقبله بها فى ذلك اليوم هو أن نقدم له فعلة منتقون لكرمته .

فإلى الأمام وإلى الأمام دائما بإذن الله .



الفصل التاسع

النهضة القبطية الحديثة فى الاسكندرية من الناحيتين الاجتماعية والروحية

لا نستطيع أن نتحدث عن النهضة القبطية الحديثة فى أى ناحية من القطر دون أن نذكر فى أكبار وإجلال أبا الاصلاح القبطى الحديث الانبا كيرلس الرابع (١٨٥٣ ــ ١٨٦١ م) . ذلك العبقرى الذى أسس الإصلاح على العلم والتعليم فأخرج للأمة رجالا جمعوا إلى نور المعرفة وسعة الادراك ، إيمانا قويا بحق أمتهم فى النهوض ومحبة لكنيستهم توارثوها عن أبائهم الشهداء الأبرار . وكان من حظ الإسكندرية أن وفد إليها وأقام بها بعض هؤلاء الرجال من أعضاء « جمعية الاصلاح » التى قامت تطالب بإنشاء المجلس الملى عام ١٨٧٤م ونجحت فى مطالبها ، وذلك فى المدة التى بين سنتى ١٨٨٠ و ١٨٩٥ م . فحملوا معهم بين جوانحهم بذور الجهاد والكفاح لرفع شأن أمتهم . وقاموا يستوحون روح معلمهم ويقتفون أثاره فافتتحوا مدرسة مجانية قبطية لتعليم أبناء الأمة القبطية . وتوسلوا إلى ذلك بمختلف الرغبات التى كانت أظهرها كساء التلاميذ سنويا بملابس من أجود الأقمشة . وكان يقوم بذلك أحدهم وهو المرحوم برسوم بك حنين القاضى سابقا بالمحاكم المختلطة . فقد رزقه الله بسطة فى العيش وقلبا كبيرا . ذهب لزيارته فى أحد الاعياد المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده للمعايدة اذ كان وقتذاك قاضيا فى الاسكندرية . ولم يجده فى (المضيفة) فسأل عليه فأخذوه إلى غرفة المائدة حيث وجده واقفا يخدم فى سرور التلاميذ على مائدته فكان ذلك محل اعجاب وتقدير عظيمين من الاستاذ الامام ولا يعرف الفضل إلا ذووه . كان لا يكتفى بذلك بل يقف على الباب عند إنصراف التلاميذ مكررا لهم التهنئة وواضعا فى يد كل منهم قطعة جديدة من ذات الخمسة قروش !

وتلقى رسالة الاصلاح عنهم ونسرت هذه الروح بين بعض أهالى الاسكندرية فنقرأ فى تاريخ الأمة القبطية للمرحوم يعقوب بك نخلة رفيلة إهتمام بعضهم بالشئون المالية وتوسطهم بين غبطة الانبا كيرلس الخامس والمجلس الملى للصلح فى أزمة سنة ١٨٩٢ م التى انتهت بنفى البطريرك والانبا يؤانس وكيل الكرازه المرقسية إلى الأديرة .

ولم تأت سنة ١٩١٠م حتى بدأت الجمعيات الخيرية فى التكون وكان أكثر أعضائها من صغار الموظفين الذين وفدوا على المدينة بحكم وظائفهم . وبدأت أعمالها بشيء من النشاط الذى تتسم به أعمال كل جماعة جديدة وكل نشاط طريف . ولكن يظهر أن الوعى الإجتماعى والروحى القبطى لم يكن قد تملك بعد من نفوس الكثيرين وتغلغل فى افئدتهم ، ولا عجب فى ذلك إذ ظلت الإسكندرية إلى نحو عشرين عاما مضى تتعثر بكنيسة واحدة وراع واحد ، وكان من نتيجة ذلك أن ظهر كثير من الزوان فى محيط النشاط الاجتماعى والروحى ممن نزلوا إلى ذلك الميدان لمأرب شخصى قبل كل شيء مجردين تماما عن الصفات التى يجب أن تتوافر فيمن يتصدى للخدمة العامة . وبدأ التذمر والركود يكتنف النشاط الطائفى .

ولكن تلك المدرسة القبطية التى كانت رمزا للاصلاح فى أواخر القرن الماضى هى التى بزغ منها نور الاصلاح مرة أخرى فى أواخر الربع الأول من القرن الحالى . قيد الله لها لإدارة دفتها زهاء خمسة عشر عاما منذ عام ١٩٢١ م يد قديرة جمعت أيضا إلى نور المعرفة وسعة الإدراك إيمانا قويا بحق أمتها فى النهوض، وقلباعامرا ومحبة للكنيسة . فما زالت بالتلاميذ تنفخ فيهم من روحها تعمل على أن تخرج منهم رجالا قبل كل شيء يحبون كنيستهم ويضعون مواهبهم لخدمتها حتى تكونت منهم خميرة صالحة بدأنا نسمع صوتها ضئيلا كحفيف أوراق الأشجار وما لبث أن إشتد حتى شابه زئير الأسد .

وترتفع الستار فى سنة ١٩٤٥م عن مجلس ملى هو ثمرة جميع هذه التطورات ، كان ظهوره على المسرح الطائفى إيذانا ببدء نشاط جديد ، ومعالجة الشئون الطائفية الاجتماعية والروحية باسلوب طريف مساير للزمن . فها هى مدارس الأحد ترصد لها الأموال فى سخاء ويفتح لها مدرسة خاصة لالقاء محاضرات على المتطوعين لها ، وها هو مكتب ينشأ فى البطريركية للخدمة الاجتماعية لبحث كل ما يتصل بالفقراء وإعاناتهم ووسائل إيجاد عمل للقادر منهم على أحدث الأساليب العصرية يديره خريجو مدرسة الخدمة الاجتماعية ، وها هو مشغل لمن فاتهن سن التعليم من البنات الفقيرات ، وليشعر كل فرد بانه عضو عامل فى كنيسته بواسطة الاشتراكات الشهرية فى مقابل

مزايا عديدة . ثم ماذا أيضا ؟ ليكن لكل كنيسة مجلسها الذى يشرف على كل ما يتعلق بها ويعمل على تحسين انظمتها ، وليعد الشباب القبطى للاعمال الحرة فتفتتح مدرسة تجارية وأخرى صناعية . وأما الأكليروس فلنساعد على خلق مكانة خاصة لهم بين الشعب وليكن لكل منهم دخل شهرى يكفل له راحة عقلية وجسدية تساعده على الانتاج والبحث فيرجع سيرة السلف الصالح أمثال ابن كبر والأيغومانس فيلوثاؤس ابراهيم كما يجد مجالا للقيام بواجبه فى رعاية النفوس . كل ذلك ولما يمض عليه أكثر من سنتين .

وجنبا إلى جنب مع كل هذا قام نوع جديد من الجمعيات غرضه نشر الثقافة الدينية والتاريخية فقامت المحاضرات والاحتفالات باعياد القديسين والشهداء وابطال المسيحية وكتبت النبذ والمنشورات فى ذلك فى علم ودقة مثبتة أن تاريخنا ليس مجموعة أساطير ولكن حقائق تؤيده شواهد كثيره . كل ذلك فى روح جديدة أيضا تتميز بإنكار الذات ومحبة الكنيسة فى ثقة وصبر .

ويعجم عيدان من حوله وينتقى كل من له استعداد للخدمة العامة فيكل إليه مهمة أو مهمات وهكذا تجد الجميع يعملون فرحين مسرورين بهذا التقليد الجديد وتلك الروح الجديدة .

وقد أراد المجلس الملى أن يُوالَى الدعوةَ ، الى سلسلة اجتماعات ، يبغى بها إيقاظَ الشعور الملى ، بين جميع الطبقات ، وتهيئة الوسائلِ ، لظهور ذلك الشعور ، فى ميدان العمل . وقد أراد منها أيضا ، أن تكونَ إيذانا بالبدء ، فى نهضةٍ قبطيةٍ شاملة ، بالمدينةِ العظمى الاسكندرية . وقد رأى ببعد نظرِه ، أن أجدرَ هذه الدعواتِ بالاهتمام ، هى دعوةُ خريجى الجامعاتِ والمدارس العالية ، من ابناء الشعبِ القبطى بالاسكندرية ، إلى الاجتماع — كما يعبرُ البعضُ — فى صعيد واحد ، حتى يتمَّ تعارفهُم وتآلفهُم ، إستعدادا لتلكَ النهضةِ المباركة . فكان الحادثُ الأولَ من نوعه ، وكانت خطوة موفقة حَكيمة أتت فى حينها ، وحركت أشياءً كثيرةً فى نفوسنا . فله منا أجزلُ الشكر ، ومن رب كنيستنا العزيزة احسنُ الجزاء . فقد طالما تاقت نفوسُنا إلى مثل هذه الإجتماعات ، وطالما تمنينا أن نجلسَ جنبا إلى جنب ، نتبادلُ الآراءَ فى شئون أمتنا ، وكيفية العملِ لإنتشالها ، مما وصلت إليه من تأخرٍ وتفككٍ ، والوصولِ بها إلى مكانِها اللائق بماضيها ، وبأبناء هذا الجيل ، وبمدينتنا العظيمة .

وها قد وجدنا أخيرا فؤاد ابراهيم جرجس باشا وصحبه ، يتقدمون الصفوفَ فى سبيل جمع شملنا ، وتحقيق ما نصبو إليه جميعا . وكلهم ذلك الرجلُ الذى جعل من حياتِه ونجاحِه فى عمله ، صفحاتٍ يأخذ منها ويقتبس ابناء امتنا ، أروعَ الامثلة ، فى الكدِ والعملِ والجهادِ والرجولة ، وقوة الأخلاق ، وفعل الخير اينما وجدوا اليه سبيلا ، دون دعاية أو طنطنة . وقد كان هناك صفةُ تُلمعُ فى كل صفحةٍ من هذه الصفحات ، وهى صفة إنكار الذات . لقد لفتت الانظار كثيرا ، وكان فيها جاذبيةُ خاصة ، اذ أن الشعب القبطى بالاسكندرية ، افتقدهَا كثيرا ، فى العشرينَ عاما الأخيرة بوجه خاص ، فلم يجدها . كل ذلك كان من أقوى الدوافع ، التى جعلت الاجماع ينعقدُ على اختيارِ صاحب السعادة فؤاد ابراهيم جرجس باشا ، والخواجة منصور قلادة انطون رجل الأعمال الهندسية ، الذى يريد أن يعرف دائما أن المستقيم والمستقيم فقط هو أقصرُ خطٍ بين نقطتين . والاستاذ المربى الفاضل اسكندر ابراهيم يوسف والاستاذ توفيق عبده غبريال رئيس جمعية التوفيق والاستاذ اسعد ميلاد المحامى .

لقد تأخرنا كثيرا فى المحيط الاجتماعى والعلمى والدينى ، عن الطوائف الأخرى ، ولا أرانى فى حاجةٍ إلى الاسهابِ فى شرحِ اسبابِ ذلك ، فان تتبعكم المستمر فى السنين الأخيرة ، لكل ما يمسُ كنيستكم عن قربٍ أو بعد ، ولكل ما يحيطُ بأمتِكم من ظروف ، يجعلكُم على علمٍ صحيح ، بتلك الأسباب ، ومن تسبب فيها . وليس فى الوقتِ متسعٌ الآن للنظرِ إلى الوراء ، سيما ونحن فى عصر السرعة . ولكن لنحزم أمرنَا ونوطنْ أنفسنَا على أن نضعَ حدا لذلك الماضى ، ونحولَ على الأقل ، دون أن تجرىَ حياتُنا الملية على وتيرة واحدة ، بينما كلُ شىء فى الوجود ، يتجدد كلُ لحظة . أناشدُ كلا منكم أن يقدِر الفرصةَ المواتية لنا الآن ، لنقطعَ كلَ صَلةٍ بيننا وبينَ عهدِ التأخرِ والانحطاط ، فنولدُ ولادةً جديدة . وان تلك المخلوقةَ الساحرةَ المسماة (الفرصة) ، اذا ولت عنا انقلبت عضة .

وإن لنا فى علوِ همةِ اعضاء جبهتنا ، وما يتحلوْنَ به من انبل الصفات ، وإستعدادِنا جميعا لوضع مواهِبنا فى خدمة امتنا ، ما يجعلنا نبلغُ هدفَنا فى أقصرِ

وقت ، ويعوض علينا ما أضعناه من زمن فنجعلَ من يومِ أول يونيو ١٩٤٥ يوما أغَر فى تاريخ أمتنا ستحتفلُ الكنيسةَ فى هذا اليومِ بذكرى دخولِ السيد المسيح له المجد أرضَ مصر ، وهى ذكرى تهتزُ لها تلك الارضُ طرباً ، اذ وطِئَتْها قدماهُ الصغيرتان ونحن إذ ننحنى فى ذلك اليوم ، لنقبِّل هاتين القدمينِ الطاهرتين ، لا يفوتنا أن نقدمَ له هَديةَ الترخيب ، ولتكن هَديتُنا له لسنة ١٩٤٥ م ، أن تقدمَ له فَعَلةً منتقون لكَرْمَتِه .

وانتم يا من نضع فيكم ثقتَنَا وامالَنا ،إزاء ما قدمتم نتيجة اعمالكم ، لا نريدُ أن نقرأ لكم ، بانكم قد زودتم دخل البطريركية ، وأموالَ الاحسان ، كدليل على تقدم امتكم ، فان التقدمَ فى الشئونِ الملية ، لا يقاسَ بالقروشِ والمليمات ، كأنه دخلُ مصلحةِ الجمارك ، إنما يلجأُ إلى ذلك من أعْوَزَتْه المقاييسُ الصحيحة ، أو غابت عن ادراكه . سيكون الحكمُ على ما أحرزتم من نجاح ، وما بلغته الأمةُ فى عهدكم من رقى وتقدم ، عندما تخبرونا كيف جعلتم القانونى والمهندسَ والطبيبَ ورجل أعمال وغيرهمَ من ذوى الكفاءات ، يعملون فى تضامنٍ وتوافقٍ وانسجامٍ لخير الفقراء والارامل والايتام ولرفع شأن أمتهم . وعندما تخبرونَنا كيف توصلتم إلى القضاءِ على الاثار التى عَلِقَتْ باخلاقِ بعضِ ابناء الشعب منذ العصور المظلمة ، عصور العبودية والاضطهاد ، عوضا عن تنميتها واستثمارها ، كما رأينا فى العشرين عاما الماضية ، فكانت نكبتُنا فى الاخلاق ، اكبر نَكَباتِنا مما نفَّر أبناء الأمة ذوى النفوس الأدبية ، والضمائر الحية عن العمل فى الميدان الملى . نريد أن تبنوا للأخلاق صرحاً عالياً قوياً ، فانما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت . وإنه لواجب خطير ينتظركم .

اتخذوا لكم شعارا قولَ سيدنا له المجد « فليضىء نوركم هكذا قدام الناس ليروا اعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات » . ويا حبذا — بعد نقشها على صفحات قلوبكم — أن تنقشوها على الرخام وتعلقوها على باب مجلسكم القادم إن شاء الله ، فيراها الجميع ، وتكون الثانية بعد اللوْحَةِ الموضوعةِ فى بَيْتِ لحم أمامَ كنيسة المهد .

فإلى الأمامِ والله يرعاكم جميعا .

الفصل العاشر

الأنبا يؤانس التاسع عشر
بابا الاسكندرية الـ ١١٣
(١٩٢٨ ــ ١٩٤٢ م)

(١) ولد الأنبا يؤانس فى بلدة دير تاسا من أعمال مركز البدارى بمديرية أسيوط عام ١٥٧١ للشهداء وفى قول آخر ١٥٧٣ من أبوين فاضلين ، ويذكر القمص عبد المسيح صليب البرموسى المعروف بالمسعودى الصغير أنه دخل دير البرموس باسم (بخيت سيداروس) فى برمهات سنة ١٥٩١ ش، مارس سنة ١٨٧٥ وهى السنة التى رسم فيها كيرلس الخامس بطريركاً للقبط،

وتعلم القراءة والكتابة فى كتاب البلدة كأبناء جيله . ولما بلغ الخامسة عشر من عمره توجه ليتعلم فن الكتابة والحساب فى ديوان المديرية بأسيوط ، ولما كانت تربيته دينية محضة وكان من صغره متقشفاً وزاهداً الدنيا ، فقد قصد بعد ذلك إلى دير المحرق فى أول الأمر ، وبعد أشهر عاد إلى بلدته اجابة لالحاح والديه عليه ، وهناك عاودته الفكرة فقصد إلى العاصمة ، وكان ذلك فى نفس السنة التى رسم فيها سلفه الأنبا كيرلس الخامس بطريركاً ، وقدم نفسه إليه فقبله وأرسله إلى عزبة دير البرموس فى طوخ النصارى ، ثم إلى الدير فى برية شهيت حيث سار سيرة الطاعة والخضوع والاستقامة ، فلم تمض عليه سنة حتى زكاة الرهبان وسيم راهباً فى برمودة سنة ١٥٩٢ وعمره إذ ذاك عشرين عاماً .

وصل إلى البطريرك الراحل خبر نشاطه وورعه واجتهاده فدعاه إليه وجعله تلميذاً له فأطاع الأمر ، ولم يلبث طويلاً حتى اشتاق إلى حياة الهدوء والتعبد فى الدير ، فأذن له البطريرك فى العودة إليه . وقد رسم قسيساً سنة ١٥٩٣ أى وهو فى سن العشرين ، ثم قمصاً فى برمهات ١٥٩٤ (مارس سنة ١٨٧٨) باسم يوحنا ، وفى الوقت ذاته اسندت إليه رآسة دير البرموس ، فحمل أعباء إدارة الدير مدة عشر سنوات .

وخلا كرسى البحيرة فزكاه شعب هذه الايبارشية مطراناً عليهم ، فاحتفل

برسامته يوم الأحد ٥ برمهات سنة ١٦٠٣ ، ١٣ مارس سنة ١٨٨٧ باسم يؤانس ، وصار أيضاً وكيلاً لكرسى الكرازة المرقسية فى الاسكندرية .

وفى أثناء هذه المدة مرض المتنيح الأنبا يؤانس مطران كرسى المنوفية مرض الشيخوخة فناب غبطته عنه فى تدبير شئون هذه الايبارشية وافتقادها ، وبعد وفاته زكاه شعبها فضمت إليه .

وقد زاد فى أوقاف الاسكندرية وبنى ثلاث مدارس اثنتين للبنين وواحدة للبنات .

تنيح الأنبا كيرلس الخامس فى يوم الأحد أول مسرى ١٦٤٣ الموافق ٧ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، واجتمع المجمع الأكليركى العام المقدس فى ١٠ أغسطس وقرر انتخاب الأنبا يؤانس قائماً مقاماً بطريركياً ، وظل كذلك إلى ٧ ديسمبر ١٩٢٨ ، عندما انتخب للبطريركية .

وقد تميز هذا الانتخاب بمخالفته لما جرى به التقليد الكنسى طوال عشرين قرناً وكان السبب المجمع الاكليريكى العام المقدس،إذ انعقد المجمع الأكليريكى العام بحضور أثنى عشر أسقفاً ومطراناً وثلاثة رؤساء أديرة وقرر « العمل دائماً بمبدأ وجوب ترقية أحد المطارنة أو الأساقفة إلى رتبة البطريركية عند خلو الكرسى » .

وهذا بعد خلاف احتد عن أشخاص المرشحين الذى كان أحدهم القمص يوحنا سلامة وكيل مطرانية الخرطوم (أنظر الرثاء صفحة ٧٠١) .

وأما المجلس الملى العام فبعد أن اتفق مع القائم مقام البطريركى بتنظيم مسألة أوقاف الأديرة ، وبعد أن شعر أن السلطات العليا يهمها الاسراع فى انتخاب البطريرك ، فقد رأى ارجاء التصديق على نظام ترشيح وانتخاب البطريرك فى هذه الدفعة فقط ويرجو الحكومة بما له من الثقة فيها أن يراعى فى الناخبين والمرشحين للكرسى البطريركى ما يقتضيه قانون الكنيسة وتقاليدها وما يتفق مع رغبات الشعب .

وهناك مخالفة أخرى لطقس الكنيسة حدثت فى طقس الرسامة ، فموهبة الروح القدس تعطى منذ العصر الرسولى بوضع اليد ، وبصفته أسقفاً فقد نال

هذه الموهبة منذ أن رسم مطراناً قبل ذلك باثنين وأربعين سنة ، وهناك حروم فى جميع الكنائس الرسولية على كل من وضعت عليه اليد مرة أخرى من الأساقفة وعلى من وضع اليد . وما وظيفة المطران والجاثليق والبطريرك الا علاقات رئيس بمرؤوس ، وإنما هى قبل كل شيء رتبة الأسقفية ، ولذلك فالبطريرك هو فى نفس الوقت أسقف مدينة الاسكندرية ولذلك فلا يرسم أسقفاً على مدينة كرسيه (أى الأسكندرية) .

يضاف إلى كل ذلك التقليد الرسولى بأن الأسقف قد تزوج أبروشيته ولا انفصام عنها إلا بالموت ، وقد أورده يوسابيوس القيصرى فى كتابه عن حياة الامبراطور قسطنطين ، وهو أحد آباء مجمع نيقية . والأنبا يؤانس كان أسقفاً لكرسى البحيرة .

وجميع هذه المخالفات تكررت مع جميع البطاركة الذين انتقلوا من كراسيهم بعد الأنبا يؤانس . رغما أن هناك حروم صدرت من مجمع أكليريكى مقدس عام ١٨٧٣ عندما كانت هناك محاولة عند البعض بزعامة المرحوم وهبه بك رزق الله كبير موظفى المالية بترشيح الأنبا مرقس القائم مقام بطريرك بعد نياحة الأنبا ديمتريوس الثانى البطريرك الحادى عشر بعد المائة ، والحرم هو على كل من يرشح نفسه للبطريركية من الأساقفة . وكل من يعطى صوته له .

هذه الحروم خولفت لأول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٩٢٨ عند رسامة الأنبا يؤانس ، وفى هذه الرسامة ورسامة المطارنة الذين رسموا بطاركة بعده استعملت تقاليد الرسامة العادية إذ ليس لدينا كتب رسامة خاصة بالمطارنة الذين يقلدون وظيفة البطريركية . (يعقوب مويزر فى العدد العاشر من مجلة الآثار القبطية صفحة ١٧١) وفى (طقس رسامة بطريرك الاسكندرية) ترجمة المرحوم بورمستر ، الصفحة الرابعة ، والناشر جمعية الآثار القبطية عام ١٩٦٠ .

كما أصدر المؤرخ جرجس فيلوثاؤس عوض بهذه المناسبة كتاباً عنوانه (عثرة الكنيسة القبطية فى القرن العشرين) (المطبعة المصرية الأهلية بالقاهرة عام ١٩٣٠) . كما صدر بقلم الأستاذ بشارة بسطوروس فى هذا الموضوع كتاب بعنوان (سقوط الجبابرة أو شهوة البطريركية) المطبعة التجارية الحديثة بالقاهرة عام ١٩٤٧ .

(كتب للنشر فى الموسوعة القبطية)

الفصل الحادى عشر

البابا مكاريوس الثالث (١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ م)
الرابع عشر بعد المائة

(١) ولد فى ١٨ فبراير ١٨٧٢م وسمى عبد المسيح ، بالمحلة الكبرى . فى سن السابعة عشرة قصد دير الأنبا بشوى حيث ترهبن بإسم عبد المسيح المحلاوى ، ورسم قساً . وفى عام ١٨٩٥م إختاره الأنبا كيرلس الخامس تلميذاً له ، ورسمه قمصاً بإسم القمص عبد المسيح المحلاوى البراموسى .

(٢) وفى يوم الأحد ١٢ يوليو ١٨٩٧ رسم الأنبا مكاريوس مطراناً لأسيوط ، وظل مطراناً لها حتى إرتقى كرسى الباباوية فى ١٣ فبراير ١٩٤٤ م .

ذهب إلى أسيوط فوجد شعباً ممزقاً وكنيسة تعمها الفوضى من جراء تغلغل المذاهب البروتستانتية فى ربوعها ، فإستطاع بشخصيته الطاهرة النقية وغيرته الشديدة على كنيسته أن يجمع أقباطها حوله ، وقام بمجهودات جبارة لإصلاح هذه الإيبارشية ورفعها إلى مكانة مرموقة . فأقام كنائس عديدة بها ، كما إهتم بإصلاح الكنائس وترميمها .

وإهتم بالتعليم فأنشأ المدرسة القبطية الكبرى للبنين فى أسيوط عام ١٩٠٠ ، وفى عام ١٩٠٤ أنشأ درة أعماله أول مدرسة قبطية عالية للبنات فى الصعيد وعين لها مديرة إنجليزية من خريجات جامعة أكسفورد ، يعاونها مدرسات مصريات وإنجليزيات وفرنسيات . وأنشأ فى قرى الإيبارشية ما يقرب من ثلاثين مدرسة أولية لتعليم أبناء الفقراء التعليم الأولى ومبادىء الدين واللغة القبطية ، وأنشأ ثلاثة ملاجىء ووضعها تحت إدارة المجلس الملى ، كما أنشأ عدداً من الجمعيات الخيرية لإعانة الفقراء ، وجمعيات دينية وأدبية لبعث روح الفضيلة فى الشباب

وقرر لها إعانات من المجلس الملى الذى كان على وفاق تام معه مدة وجوده فى أسيوط . وترك له حرية التصرف فى أموال الأوقاف ليصرف منها على الكنيسة وحاجات الشعب ، وتفرغ هو للأعمال الروحية والإجتماعية .

(٣) هذا التفاهم بينه وبين المجلس الملى ، وهو ما كان ينشده رجال الحركات الإصلاحية منذ عام ١٨٧٤ بينهم وبين رئيس الكنيسة ، هو الذى جعلهم — وكلهم فى ذاك الوقت من أعضاء المجلس الملى العام — يرشحون الأنبا مكاريوس لكرسى البطريركية بجانب المطارنة الآخرين المرشحين ، إذ كان ولابد أن يرشح مطران لذلك المنصب . فهو لم يتقدم للترشيح بل حثه ودفعه إلى ذلك هؤلاء الرجال ، الذين كانوا يعلمون فى نفس الوقت أن له برنامج إصلاحى ، خصوصاً فيما يتعلق بالأوقاف وأموال الأديرة وإرتفاع مستوى الرهبان والأكليروس . وأسرعت الهيئات والجمعيات بتأييد هذا الترشيح ، رغماً عن أن الكنيسة القبطية أو كنيسة الأسكندرية تحرم على الأساقفة ترشيح أنفسهم للكرسى الباباوى ، إذ هو أسقف قبل كل شىء ، والتقليد الرسولى هو أن الأسقف الذى رسم على إيبارشية فقد تزوجها ويجب أن يصير أميناً لها مدى الحياة ، وبالرغم من أن الشعب كان يؤيد قوانين الكنيسة ، إلا أن الرغبة فى الخلاص من هذا الخلاف المستحكم المستمر بين رجال الإصلاح والرآسة الدينية جعلت الشعب ينسى هذه القوانين المقدسة ويرشح رجلاً مصلحاً . وبعد إتمام عملية الإنتخاب يوم الجمعة ٤ فبراير ١٩٤٤ وظهور النتيجة هتف وكيل المجلس الملى فى ذاك الوقت ثلاثاً بحياة الأنبا مكاريوس .

(٤) ولكن المطارنة ورؤساء الأديرة الذين كانوا يرفضون أية رقابة عليهم من المجلس الملى العام تحفزوا لمقابلة هذا التحدى حسب تصوراتهم .

(٥) كان من بين مشروعه الإصلاحى ضرورة إقامة جامعة لاهوتية فى أحد الأديرة مثل الدير المحرق يتخرج منه الرهبان المثقفون . كذلك توحيد أوقاف الأديرة فى الدار الباباوية وإنشاء مجلس أعلى للأوقاف ، وتوحيد

إدارة شئون الكنيسة تحت رآسة البابا ويعاونه بعض الأساقفة والرؤساء الروحيين . وإنشاء إدارة للمعارف فى الدار البابوية تقوم بإنشاء كتاتيب بالقرى لتعليم الأطفال المبادىء الدينية واللغة القبطية وترتيبات الكنيسة . كذلك عمل سجل للفقراء فى الدار البطريركية .

(٦) هذا هو ملخص مشروعاته الإصلاحية التى وضعها عام ١٩٢٠م ولطالما منى نفسه بتنفيذها . ولكنه كما يقولون وقع بين شقى الرحى فلم يُرضِى المجلس الملى أو المجمع المقدس ، ولم يتركوا له فرصة لعمل أى شىء ، بل وصل الأمر بالمجمع المقدس أن كان ينعقد بناء على دعوة أحد المطارنة وتحت رآسته . وقد قابل كل ذلك بروح مسيحية عالية .

لقد أصدر المجمع المقدس قرارا يقول : « أن البابا قد تنازل عن سلطاته للمجلس الملى ... ولذلك يقرر المجمع المقدس أن جميع تصرفات غبطة البطريرك الأنبا مكاريوس مخالفة لقوانين الكنيسة » .

ومن الناحية الأخرى تصل إليه شكاوى ضد المطارنة أو المجلس الملى يتدخل لتجريد أحد المطارنة وهذا من صميم إختصاص البطريرك .

ولم يجد أجدى من أن يترك كل شىء ويذهب إلى دير أنبا بولا ليقضى فيه بقية حياته ، وبعد بضعة أشهر وبعد إلحاح مستمر من بعض المصلحين والمطارنة رجع إلى كرسيه ولم يلبث أن تنيح فى سلام فى أغسطس ١٩٤٥ ، بعد أن أمضى ثلث مدة البطريركية فى الأديرة الشرقية على أثر الخلافات التى نشبت ، وتنيح دون أن يتمكن من تنفيذ مشروعاته الإصلاحية .

المصدر

(البابا مكاريوس الثالث) لجنة تلاميذ المسيح بكنيسة مار مينا بشبرا .

(كتب للنشر فى الموسوعة القبطية)

الفصل الثانى عشر

مدارس الأحد

حضرة صاحب النيافة الحبر الجليل مندوب غبطة البابا المعظم
حضرة صاحب السعادة رئيس المؤتمر

سيداتى سادتى

تفضلت لجنة مؤتمر مدارس الأحد فأسندت إلى مهمة التحدث إليكم عن موضوع علاقة مدارس الأحد بالأسرة والكنيسة ، وإنى إذ أشكر للجنة المؤتمر ثقتها بشخصى الضعيف فإنى أود أن أعرب عن سرورى برؤية مثل تلك المؤتمرات السنوية فى مدينتنا العظيمة والتى يرجع الفضل فيها إلى مجلسنا الملى الموقر الذى صار مثلاً يحتذى به فى جميع أنحاء القطر والذى أسعدنا الحظ بأن يكون فى مقدمة العاملين فيه رجل مثل سعادة فؤاد باشا ابراهيم جرجس أحاط بأحوال أمته ونظر إليها نظرة الخبير العارف ، ثم بدأ فوراً فى تنفيذ برنامجه مضحياً فى ذلك كل ما يستطيع ، أعانه وساعده على ذلك رجال من نفس المعدن ونفس الصنف .

إن العلاقة بين مدرسة الأحد وبين الأسرة هو نوع من التعاون المشترك على تنشئة الطفل نشأة مسيحية صالحة . فالأسرة تبث فى نفس الطفل المبادىء الخلقية فى الديانة المسيحية وتكمل مدارس الأحد هذا العمل .

وفى سبيل ذلك يجب على مدارس الأحد أن تخلق شتى الظروف والمناسبات لتتصل بالأسرة سواء عن طريق المكاتبة أو الحفلات أو المؤتمرات . وفكرة المؤتمرات بدأت فى أمريكا عندما انعقد أول مؤتمر عام ١٧٩٠م فى مدينة شارلستون بكارولينا الجنوبية ، إلى إن إنعقد أول مؤتمر عالمى لمدارس الأحد فى لندن فى شهر يوليو من عام ١٨٨٩ م .

كما يجب على الأسر حث أبنائهم على المواظبة ، وأظهار شىء من الاهتمام بما يحصلون عليه وارسال ما يعن لهم من ملاحظات إلى اللجنة المركزية .

وإنى أعتقد أن الفتور الذى ينتاب العائلة القبطية فى بعض الأحيان نحو مدارس الأحد ، إنما مرجعه اعتقادنا أن شئونها لا تمس سوى الأطفال ، بينما

هذه نصف الحقيقة وإنما مدارس الأحد النموذجية فى العالم تحتضن الصغار والكبار فيجتمعون كهيئة منظمة للدراسة الدينية فى مواظبة وفق مناهج خاصة . كما إننا لا ننسى أن تلك المدارس تقدم لهم المدرس المتصف بالحب والإيمان وحسن تصريف الأمور والغيرة والصبر مع إستعداد كامل وقوة روحية وشجاعة ومثابرة .

أما علاقة مدارس الأحد بالكنيسة فهو موضوع ينقسم إلى قسمين (أولا) واجب الكنيسة نحو مدارس الأحد . لا تعدو مدارس الأحد أن تكون قسماً من أقسام الكنيسة وهى بهذا الوصف تستحق منها الرعاية والإرشاد والمعونة .

ويجب أن يكون راعى الكنيسة هو راعى مدارس الأحد ومرشدها .

وبينما الشئون التنفيذية تكون فى يدى غيره ، فله حق الإشراف العام وهو مسئول إلى حد كبير عن نجاح أو فشل الأقسام التى يشرف عليها . وهو له أيضاً مركزه فى مدارس الأحد كرئيس روحى لها ، فيجب أن يعنى عناية خاصة بالعقائد التى تدرس فيها ، فلا نسمع شكاوى مختلفة من أن فى بعضها تدرس عقائد تخالف عقائد كنيستنا سواء عن حسن أم عن سوء نية . إن الراعى الفطن يجد فى مدارس الأحد مجالاً فسيحاً للقيام بواجباته الروحية والرعوية .

(ثانيا): أما واجب مدارس الأحد نحو الكنيسة القبطية فهو واجب عظيم الأهمية تدعو إليه ظروف الأمة القبطية الخاصة . فبينما تقوم مدارس الأحد فى أوروبا وأمريكا بمهمة دراسة الكتاب المقدس فقط ، فإننا يجب أن نضيف إلى ذلك فى مدارسنا شطراً آخر وهو تعريف كنيستنا للناشئة ، ولعل فى هذه النقطة يظهر ما أعنى من تعبيرى :

يجب أن تؤقلم مدارس الأحد بحيث تلائمنا نحن أبناء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وتعود على الكنيسة بأجزل الفوائد .

وهذا التعريف بالكنيسة يكون :

أولاً : بتفهيم الجيل الناشىء أصول الإيمان الأرثوذكسى ، والقواعد التى يرتكز عليها من تعاليم السيد له المجد والرسل .

ثانياً : وكذلك أسرار الكنيسة وطقوسها وتقاليدها وألحانها مع الحث على ممارستها عن وعى وإدراك صحيح .

ثالثاً : غرس تقديس يوم الرب فى نفوس الناشئة وضرورة الذهاب إلى الكنيسة فى ذلك اليوم لمشاهدة نور فجر القيامة بحضور القداس الإلهى الذى وضعه لنا السيد له المجد .

رابعاً : تدريس تاريخ الكنيسة فى مختلف مراحل الدراسة . وأى شىء أدعى إلى التعلق بكنيستنا والولاء لها من معرفة تاريخها الحافل بالأمجاد ، وبالجهاد فى سبيل تثبيت الإيمان الصحيح والقضاء على البدع ، ثم بعد ذلك فى سبيل المحافظة على ما تسلمته وما ورثته .

ولذلك ظلت الكنيسة القبطية قبلة أنظار القبط ومحط رجائهم ومنتهى أمالهم على مر الأجيال ، وقد ركزوا جميع أمانيهم الوطنية ومشاعرهم القومية فى المحافظة على استقلالها . وأحاطوها بسياج من حبهم لها لم تستطع الضربات المعادية أن تنجح فى اختراقه — بالرغم من نجاحها فى شتى نواحى الحياة القبطية — بل سقطت جميعاً عند أقدام الكنيسة الخالدة . وأكبر دليل قاطع على ذلك هو اللغة القبطية فقد طوردت من بيوتنا وأعمالنا وشتى نواحى حياتنا الثقافية والاجتماعية ، ولكن لم تستطع قوة أن تزحزحها من الحصن الأخير الذى التجأت إليه وهو الكنيسة القبطية الأرثوذكسية . فأى كنيسة جديرة بالحب العميق مثل كنيستنا هذه .

علموهم أيضاً أن الحركات الإصلاحية والمشاريع التى لا تقوم فى حجر الكنيسة أو التى لا تحتضنها الكنيسة ، أو التى لا تهدف قبل كل شىء إلى مجد الكنيسة ، لا يكتب لها الخلود وأضربوا لهم الأمثلة على ذلك من مظاهر الحضارة القبطية فى عصر الكنيسة الذهبى ومن واقع الحال الذى نحن فيه، فبالرغم من كثرة جمعياتنا المنتشرة فى جميع أنحاء القطر فما زلنا نحس بنقص لا ندرى ما هو ومازلنا نكتب ونطالب بالإصلاح ، وبعد ما نراه من تقدم اجتماعى فى نواحى كثيرة تزداد صيحاتنا كأن الاصلاح سراب كلما اقتربنا منه بعُدُ عنا . وليس لذلك من سبب فى نظرى إلا ضعف التعاون بين الشعب والرعاة .

الفصل الثالث عشر

فن قيادة الجماعة
وتطبيقه على التدريس فى مدارس الأحد

١ ــ **الدراسة** : يجب أن يكون المدرس قد أعد نفسه إعدادا كافيا ، بواسطة الإطلاع والدراسة . إذ يجب أن يكون على أكثر من مجرد دراية سطحية لموضوع الدرس، كما يكون الحال عندما يطلع عليه إطلاعا سريعا قبل الذهاب إلى الدرس بمدة قصيرة . إن الإستعداد الكافى للمدرس مهم للتعليم المثمر . ويجب أن يعلم المدرس عن موضوع الدرس أكثر بكثير مما يُطلب منه إلقاؤه .

٢ ــ **وضع خطة للتدريس** : يجب التفكير دائما فى الطريقة التى سيلقى بها مدرس مدارس الأحد درسه ، فبدون هذه الطريقة أو تصميم خطة فى فكر المدرس ، يكون تدريسه خاليا من النظام ومفككا . وينتج عن ذلك من التشويش الفكرى ما يحول دون الحصول على فكرة صحيحة عن الحقائق فى الدرس . ولمنع التكرار الممل يجب تغيير هذه الطريقة بين وقت وآخر .

٣ ــ **الطرق البسيطة** : كلما كانت طريقة التدريس بسيطة ، كلما كان ذلك أحسن : فيحضّر المدرس وفق طريقة تجعله سهل الفهم ، يستفيد منه أغبى تلميذ فى الفصل . ويجب أن يدخل فى حسابه قدرة التلاميذ ومقدار تقدمهم ، عندما ينتقى الدرس الذى يريد أن يلقيه والطريقة التى يلقيه بها . يجب أن يفسر الكلمات والتعابير ولا يفرض أن التلميذ يعرف معانيها ، مهما تراءى له سهولتها .

٤ ــ **الكتاب المقدس فى الفصل** : يجب أن يدخل المدرس إلى الفصل وفى يده الكتاب المقدس ، لا مجرد كتيب صغير فيه الدرس مشروح أو غير ذلك من الكتب الصغيرة . حقيقة أنه لهذه الكتب الصغيرة نفعها ولكن إذا كان يمكن الإستغناء عنها فلا تستعمل أثناء إلقاء الدرس .

ينفع الكتاب المقدس للرجوع إليه فقط ، ثم أنه مظهر يليق بمن يدرس كلمة الله أن يبحث عنها فى الكتاب المقدس لا فى وريقات . إن إستعمال كتيب الدروس المشروحة أثناء الدرس لا يعرّف التلاميذ بالكتاب المقدس وكيفية البحث عن أجزائه المختلفة .

٥ — **جذب الانتباه** : إن أول ما يجب أن يوجه إليه المدرس نشاطه فى إفتتاح الحصة ، هو إنتباه التلاميذ . ولا فائدة من التدريس قبل الحصول عليه . وإن مجرد طلب الإنتباه لا يؤدى إلى الغرض المرجو . وهنا قوة ملاحظة وحكمة المدرس لهما دور مهم . وفى بعض الأحيان قد يؤدى إلقاء الأسئلة على التلاميذ إلى جذب إنتباه بعض التلاميذ المخلين بالنظام

٦ — **كيف يبدأ الدرس** : قد يكون من المستحسن أن يبدأ الدرس بملخص عن الدرس الماضى إلى أن يصل إلى صلته بالدرس الحاضر . ولا يعنى كثيرا بالتفاصيل ، وعلى كل حال تأكد من أن التلاميذ قد فهموا وجه الصلة بينهما وموضعهما من الكتاب ووقت ومكان حدوث الحوادث فى الدرس .

٧ — **إلقاء الاسئلة** : ليس هناك وسيلة للتعليم أحسن من إلقاء الأسئلة . والمسيح نفسه كثيرا ما إستعمل هذه الطريقة ، لقد كان أول تدريب له كمعلم دين ، عندما وقف فى الهيكل بين رجال الدين وكان « يسمعهم ويسألهم » ويجب أن تكون الأسئلة قصيرة وبسيطة ومباشرة . ولا يجب أن توضع بحيث توحى بالإجابة ، إذ لا تؤدى بنا إلى قياس معلومات التلميذ . كما لا يجب أن تكون الأسئلة بالدور بحيث يعلم كل تلميذ متى عليه أن يجيب ، فيلتفت إليها الجميع سواء منهم الغبى والذكى . وهناك طريقة حسنة وهى أن تستنبط الأسئلة من الفصل فتثير الإنتباه .

٨ — **الكلمات السهلة** : يجب أن يكون التدريس بلغة سهلة بحيث يفهمها الفصل . لقد كانت تعاليم المسيح بسيطة سلسة العبارة بحيث يفهمها

ذو الذكاء المنخفض ولذلك كان عامة الشعب يسمعونه بفرح . فلم يستعمل الكلمات الفنية فى علم اللاهوت بل كان بسيطا إلى حد أن كان الأطفال يفهمونه ، وتعاليمه فى الأناجيل الأربعة هى أمثلة يجب أن تحتذى .

٩ ــ **إعطاء الكثير فى وقت واحد** : أنها لغلطة كبيرة محاولة إعطاء الكثير فى وقت واحد . إعط الأهمية للنقط الأساسية . أنه من الأفضل أن تنتقى فكرة واحدة وتركز التعليم حولها من أن تكثر من الكلام دون أن يكون هناك محور للكلام . من المهم جدا التركيز حول حقيقة واحدة ظاهرة فى الدرس .

١٠ ــ **استعمال وسائل البيان** : إظهار الدرس بواسطة الإستشهاد بالحوادث والأشياء هو عامل مهم فى التدريب الناجح . إن معلمنا ، الذى فاق كل معلم ، كان معتادا أن يستعمل ما حوله فى الطبيعة من زهور وسنابل قمح وطيور كوسائل للشرح .

١١ ــ **ختام الدرس** : يجب أن يختتم الدرس بملخص قصير يثبت الحقائق . وهذا هو التطبيق ، ويعول عليه كثيرا لتثبيت كل ما قيل أثناء الدرس . ومن المستحسن لو أن المدرس يعطى بعد ذلك فكرة عن الدرس الآتى ويعطى كل واحد واجبا للأسبوع الآتى . مثل بعض أسئلة للإجابة عليها ، أوبعض الابيات لحفظها ، أو إظهار مدن ومواضع على الخريطة أو أى عمل آخر يراه المدرس مناسب .

١٢ ــ **ما يجب أن تتجنبه :**

أ ــ النقاش والجدال على مسائل تافهة تضيع الوقت . كل من يظهر هذه الروح يجب أن يوضع له حد .

ب ــ التعنيف والتبكيت . إذ يجب أن يكون مدرس الأحد لطيفاً فى مظهره رقيقا مع الجميع .

جـ ـــ طريقة للتدريس توحى بالكسل . يجب أن تكون متنبها وأن نعطى الفكرة بأنك مهتم بالدرس لتسترعى الإنتباه .

د ـــ إنصراف الفصل عن الاستماع إليك . إجعل الجميع فى عمل كأنك مكلف بإدارة مصنع يجب أن يعمل فيه الجميع .

هـ ـــ التدريس بطريقة آلية باردة . يقول أحد علماء التربية « يجب أن نعلم عشرة أمثال ما علينا أن ندرسه »

المعلم المثالى : هو الذى فيه محبة وإيمان ودقة حساسية وحماس وصبر وجيد التحضير وقوة روحية وشجاعة ومثابرة .

الصفات وواجبات رائد مدارس الأحد

١ ـــ يجب أن يكون ذا شخصية دينية قوية ، فيكون فى حياته وتصرفاته مثالا للتعبد والتقوى .

٢ ـــ يجب أن يكون مستواه العلمى من السمو بحيث يكتسب إحترام مدرسته ، ويكون قادرا على توجيه وقيادة المدرسين الذين يعملون تحت إدارته .

٣ ـــ يجب أن يكون إداريا حازما ومنظما قديرا ، يدفع الآخرين إلى العمل ، وله من قوة الملاحظة والإحساس بالفروق الدقيقة ما يجعله يضع كل من يعمل معه فى مكانه اللائق به .

٤ ـــ يجب أن يكون على دراية واسعة بالعمل فى مدرسة ليتمكن من توجيه النشاط فى الأقسام المختلفة فيها ، وإن احتكاكه المستمر بها يمكن من معرفة ما فيها من نقص ، ومن إعطاء النصيحة اللازمة والتشجيع الواجب .

٥ ـــ يجب أن يكون متيقظا دائما للمشاريع والفرص المؤاتية لتحسين المدرسة والنهوض بها ، مطلعا على أحسن الوسائل التربوية .

الباب الخامس عشر

تقاليد كنيسة الإسكندرية فى الرتب الكهنوتية



البابا كيرلس السادس (١٩٥٩-١٩٧١ م)
أعتلى كرسى القديس مرقس الإنجيلى حسب تقاليد كنيسة الإسكندرية

الفصل الأول

مقدمة فى تقاليد وقوانين وطقوس
الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

أخى الحبيب

سبب متاعبنا الجهل ، الجهل بكل ما يتعلق بكنيستنا من تقاليد وقوانين وطقوس ، ففى القرن العشرين عصر التقدم السريع فى الطبع والطباعة ، والمطبوعات التى تنهمر كالمطر ، لا يعرف القبطى شيئا عن أمور كنيسته وما فيها من جواهر ثمينة ، فمن فينا يعرف شيئا عن رسائل اثناسيوس الرسولى الفصحية ؟ أو بعض مؤلفات أوريجانوس فى التفسير ؟ أو رسائل كيرلس الكبير ؟ أو البابا ثاؤفيلس من منا يعرف شيئا عن تلك النهضة الأدبية فى القرن الثالث عشر وما بعده ؟ من منا يعرف حتى عدد مؤلفات الصفى بن العسال أو شقيقه أو مؤلفات بطرس السدمنتى أو ابن الراهب أو شمس الرياسة بن كبر أو الأنبا يوساب أسقف فوه أو السمنودى أو ساويرس بن المقفع أو غيرهم وغيرهم ؟؟

كل هذه كنوز حوت كل شيء عن قوانين الكنيسة وتقاليدها وطقوسها ، ولقد أخذ الكثير من هذه المخطوطات وطبعت بالخارج ، وأصبح القس الكاثوليكى المتخرج من معهد الكنائس الشرقية يعرف عنها أكثر منا بمراحل .

إن البقايا الموجودة الآن فى المكتبة البطريركية فيها الكثير أيضا ، وكثير مما ذكرت طُبع باللغات الأجنبية ولكن بكل أسف ليست طبعا فى متناول حتى الطبقة المثقفة لأن طبعاتها محدودة وثمينة . ويوم نقوم بنهضة قوية لطبع ونشر كل ذلك نقوم بأجّل خدمة لجميع الأجيال .

ونحن هنا فى هذه العجالة حاولنا أن نقدم لك لمحة صغيرة منها تخص ذلك الموضوع الهام الذى يشغل بال كل قبطى كلما خلا منصب البطريرك ، لإعطائك فكرة عن ذلك الجهل بأمور كنيستنا الذى وصلنا إليه كبارا أو صغارا ، ولإرشاد كل من يهمه الأمر إلى الوضع الصحيح ، وعسى أن نكون قد قمنا ببعض الواجب .

فى ١٨ اكتوبر ١٩٧١

الفصل الثانى

تقليد إختيار البطريرك عند القبط

١ ــ للقبط قانون يجهلونه قد حافظ عليه السلف الصالح . وعندما قامت المنافسات بينهم فى وقت إقامة كيرلس بن لقلق خامس سبعى البطاركة جمع العالم الكبير الصفى بن العسال مجموعه قبل عام ١٢٣٩ م .

٢ ــ يقول كتاب الرسامة المطبوع فى روما « يجب أن تعلم أن الإيغومانسية ليست بدرجة كهنوتية بل منزلة أى رتبة » . أو بالحرى وظيفة إدارية فقط للرآسة كالأسقفية فى الأيبارشية ، هكذا القمص (الإيغومانس) فى البلد .

وكان لا يوجد إلا قمص واحد فى البلد أو الدير ومن تحت يده القساوسة .

٣ ــ يقول الباحث والمستشرق القمص يعقوب مويزر فى العدد العاشر من مجلة الآثار القبطية لعام ١٩٤٤ ص ١٢٨ أنه بالاطلاع على الجداول فى رتب بطريركية الأسكندرية لا يوجد مطلقا رتبة خور ابسكوبوس مثل بطريركية انطاكيا ، أو بلاد سيليسيا أو كبادوكيا أو ارمينيا أو قبرص .

٤ ــ البطريرك هو أسقف المدينة العظمى الإسكندرية ورئيس أساقفة الكرسى المرقسى ولا يمكن إذا اتخذ من الأساقفة أن توضع عليه اليد بل تعلن ترقيته إلى الوظيفة الادارية الجديدة فقط ، ولكن يبقى كرسى الإسكندرية خاليا لم يرسم عليه أسقف وبالتالى لايستطيع تلقيب البطريرك الذى كان أسقفا بلقب بابا الذى يلقب به من يجلس فقط على كرسى أسقفية الإسكندرية . أما الأسقفية فقد نالها بوضع اليد عليه .

ونظرا لأنهم لم يتخذوا من الأساقفة فى الكنيسة القبطية بطريركا ، بل متى كرسوا واحداً على كرسى صار وقفا عليه إلى أن يموت فإنهم قد وضعوا النظام الخاص الذى لا يختلف كلية فى تكريز البطريرك أو المطران أو الأسقف .

أما فى حفل تنصيب الأنبا يؤانس فقد جردوه من وظيفته وأرجعوه مبتدئا ثم ساموه بطريركا بعد ذلك فصار الأب ابنا والرئيس مرؤوسا ، فكان ذلك جهالة منهم بأصول الدين .

حافظ القبط على قانونهم السنين الطويلة من عهد نشأة كنيستهم على يد الكاروز مرقس الإنجيلى : وسام خليفته حنانيا الإسكافى أول من آمن على يديه أسقفا . وأخذوا بعده ينتخبون من يليق للرئاسة ، وإذا ما إختلفوا فى أمر واحد ولم يمكن ترجيح أحد المنتخبين عن بعض عمدوا إلى القرعة الهيكلية . وكان الشعب وحده صاحب الشأن فى إنتخاب من يليق وليس للأساقفة سوى الأشتراك فى وضع اليد .

فى الباب الخامس من قوانين الصفى بن العسال « أن يكون راهبا أو ممن له بعض مراتب المذبح ولا يصلح علمانيا إلا بعد ضرورة بعد أن يشرط على نفسه حفظ القوانين المقدسة .. وهذا ما ورد فى قوانين أثناسيوس بطريرك القسطنطينية وهو مستقر فى بيعتنا أحسن أن يكون راهبا أو كاهنا » (مج ٥ : ٥) ثم قال أن يكون برضاء الشعب الذى يقام عليهم ... ويزكى من جماعة ممن كان له سيرة حسنة لا مفتر ولا مرآءويقدر أن يفسر الكتب .

الإنتخاب للشعب وما على الأسقف سوى وضع اليد والاشتراك فقط . ولقد جرت على ذلك الكنيسة فى كل أيامها الأولى . وقد أوضح ذلك الصفى ابن العسال فى مجموع القوانين ، وأخذه عن ابن كبر ، فى كتابه « أصول الدين ومسموع محصول اليقين » ، وكلاهما قد عاش منذ سبعة قرون ، وشمس الرأسة قسيس المعلقة المعروف بابن كبر قد قال ما فعله سابقوه مجملا فى كتابه « مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة » : « أن يكون إنتخابه باتفاق أهل الاختيار من أعيان رؤساء الأراخنة الفضلاء الأخيار » ثم يقول عن المرشحين « ويكون المختار ممن يرضاه أكثر أهل طائفته ... بعد علم المختارين له باشتماله على أقسام الأهلية المنصوص عليها ...وإذا ما عينت جماعة لهم بهذه المزية أمعن النظر فى الترجيح ، وأختير منهم من يميز الامتياز الصحيح من المتساوين فى

الحال ، المتماثلين فى الفعال ، وعملت لهم قرعة بأسمائهم ثم توضع فى هيكل الرب فى أول قداس ، وعند فراغه ترفع منها ورقة واحدة على يد صبى طاهر أو قديس ماهر ، ممن يكون حاضرا فى الوقت الحاضر ... وليس للأساقفة إلا التكريز ، وأما التعيين فهو للأراخنة المعتبرين الذين يكونون بأهل الإقليم عارفين » . (مقدمة الباب العاشر فى تقدمة البطارقة) .

وها نحن الآن لا نتبع أى طريق من الطرق التى اتبعت مدى التسعة عشر قرنا الماضية، بل نريد هدم كل قانون .

فقد كانت تقام حفلة الرسامة فى الإسكندرية مركز الكرسى الباباوى الذى سيجلس عليه الأسقف المرسوم خليفة القديس مرقس الإنجيلى . وبعد الحفلة يركب البابا من كنيسة السوتير (وقد اندثرت وكانت عند باب سدره) مع مقدمى القبط وغيرهم فيخترقون المدينة ويصلون فى مواقف معينة ويظللون فى موكبهم إلى أن يصلوا إلى بيت أولاد السكرى حيث الكنيسة المرقسية الحالية فيكشفون على رأس مرقس الانجيلى ويتبارك منه البطريرك ويغير الثياب التى عليه . وظلت هذه العادة إلى عهد بطرس الرابع بعد المائة فى باباوات الإسكندرية ، الذى يقول عنه التاريخ « ثم توجه إلى الإسكندرية وقبل رأس مرقس ، ولما أراد الرجوع علم أن جماعات بالاسكندرية تكلموا على الرأس فأخفاه فى الدير فى ذلك الوقت » . وكان ذلك فى اغسطس ١٧١٨ م .

وفى الباب الثالث والخمسين من كتاب « أصول الدين ومسموع محصول اليقين » تأليف أبى اسحق بن المفضل المعروف بابن العسال من كتاب الأدب القبطى العربى فى القرن الثالث عشر ، وصف دقيق عما كان يجرى منذ سبعة قرون كما شاهده هذا الكاتب بنفسه فى الإحتفالات التى عملت فى عهده أقتطف منها :

قسمته قمصا على جميع كرسيه : لا يخلو من أن يكون له رتبة من مراتب المذبح أو لا يكون . فإن لم يكن فيكرزه أكبر الأساقفة ومن يليه فى الطقس شماسا ثم قسا ثم قمصا بحضور المذكورين أجمعهم . وإن كان له بعض هذه الرتب فينقل فيها إلى أن يصير قمصا .

سيره إلى ثغر الاسكندرية ليقام بها بطريركا : بعد تكريزه قمصا يمضون فى خدمته من مصر إلى ثغر الإسكندرية المحروس . فإن وصل إليها قبل يوم الأحد (إقامة الأساقفة أو البطاركة يوم الأحد نظام قديم) فيبقى ظاهرها إلى صبيحته . حينئذ يخرج شعبها يتلقونه ويدخلون جميعهم فى خدمته إلى كنيسة السوتير أى المخلص وعرفت بالسوتير .

تكريسه وقسمته بها : فإذا استقربها يصلون بها صلاة باكر الأحد ، ثم يقدس أكبر الأساقفة طقسا أى أقدمهم عهدا بالرئاسة من الوجه البحرى ولو كان أصغر من أساقفة الوجه القبلى . وإذا فرغوا من قراءة سفر من أعمال الرسل ، يصعد الأساقفة فوق الكرسى ، ويجعل وجهه إلى الشرق ، ويدير الأساقفة وجوههم إلى الغرب ويغسلون أيديهم (لكى يتبرأوا من دمه ما دام منتخبوه راغبين فيه) ويضعونها عليه والشعب قياما بسكوت وخوف عظيم ، ويقولون : إنا نضع أيدينا على هذا العبد المختار باسم الأب والإبن والروح القدس ، لإقامته فى رتبة صالحة ثابتة للكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية بلادنس بيعةالله الحى الغير المرئى ، يفعل حكم العدل ، وإعلان مقدس وتعليم روحانى ونعمة طاهرة . آمين . هذا هو الذى صار للكنيسة الجامعة الرسولية من جهة الثالوث المقدس بسر الصليب الكريم . ويصرخ كبير الأساقفة قائلا : ارتضيتم أن يكون هذا بطريركاً عليكم وحاكما فيكم لكم وعليكم ــ ثلاث مرات ــ ثم يقول فى الثالثة : رضيتم أن يكون هذا رئيسا عليكم وتعلموا أنه مستحق لهذه الرتبة ؟ فإذا قالوا مستحق يدير وجهه إلى الشرق ويقول صلاة ويرفع البخور ويضع أول الأساقفة وكبيرهم فى الطقس وثانيه يده عليه ويكرزه بصلاة القسمة المعروفة ،(ولتكريزه كتاب مفرد يتضمنها مخطوط بالقبطية ، وترجم أيضا عربيا وطُبع فى روما قبطيا وعربيا). وكلما نزلت الأساقفة درجة يطلع هو درجة إلى أن يصير هو فى الدرجة الأولى أعلى من جميعهم ، وعند قراءة الانجيل يحمله له أكبر الأساقفة بين يديه ، ويقرأ البطريرك الفصل الذى هو : أنا الراعى الصالح ، ويقولها ثلاث مرات ، وفى كل دفعة يضع كبير الأساقفة يده على رأسه ويصرخ قائلا : مستحق ، مستحق ، مستحق ، ويقول الشعب جمعية اكسيوس أى مستحق . وبقراءته كمل القداس . وبعد تركيزه تُقبّله الأساقفة بأفواههم على طقوسهم وبعدهم

الكهنة كذلك والخدام والأراخنة وسائر الشعب يقبلونه ويدعون له بأن يكمله الله بصالح رعايته لهم ويكملهم به . وإذا كمل القداس على سياقه يتناول هو أولا السرائر المقدسة ويعطيهم كلهم منها على الطقس ويسرحهم بسلام وبركة ودعاء .

وبعد ذلك يعيد له ويقبل رأس مرقس الإنجيلي الذى فى دار أولاد السكرى بالثغر المحروس : ثم بعد ذلك يعيدون له ثلاثة أيام بفرح كبير عيدا روحانيا فى قلاية البطريركية بالكنيسة المذكورة . وفى اليوم الثالث يمضى والشعب جميعه إلى دار أولاد السكرى (الكنيسة المرقسية الآن) التى فيها رأس مرقس الإنجيلي ، رزقنا الله بركاته ويرحمنا الله بصلاته ، آمين . ويقيمون الصلاة فى المكان الذى فيه الرأس ضمن صندوق ويرفعون البخور ويجعلون الصندوق فى حجرة ويفتحونه له ويُقبّل الرأس ثم يغلقونه ويقبله الشعب جميعه .

خروجه من الاسكندرية ومضيه إلى دير القديس العظيم مكاريوس وبقية الأديرة : وبعد ذلك يخرج من الثغر المذكور إلى دير القديس مكاريوس ، وإذا قرب منه يخرج الرهبان للقائه ، وحال اجتماعهم للقائه ، وحال اجتماعهم به وبخدمته يضربون له المطانوة ثلاث مرات ، وبعد ذلك يترجل هو من ذاته ويضرب لهم المطانوة ويضربون له المطانوة أيضا ثلاث مرات ويُركّبونه ... وكهنة القديس مكاريوس خاصة يقرأون ويسبحون الله إلى حين يصلونه إلى هيكل القديس بنيامين بالكنيسة الكبيرة التى فيها أجساد القديسين . عند ذلك يسجد الأب البطريرك قدام الهيكل ، ويقرأ عليه القمص التحليل ويدخل الهيكل . وبعد ذلك يقدس عليه ، ويتناول من السرائر المقدسة ويقبل أجساد القديسين ويتبارك بهم ويطلع إلى قلاية الآباء البطاركة ، ثم ينتقل منها إلى باقى الأديرة (دير أنبا يحنس ودير أنبا بيشوى) يقدس فيها وإن إختار باقى الأديرة بالبرية المذكورة فالامر له جائز . (وقد بطلت عادة زيارة الأديرة بعد ذلك) .

خروجه من الأديرة وعودته إلى مصر القديمة والقاهرة : يخرج من برية الديارة المذكورة عائدا إلى مصر والقاهرة المحروستين ، وإذا وصل إلى دير نهيا

بالجيزة (وقد خرب الآن) يدخل إليه ويبارك رهبانه ويقدس فيه ، ثم ينتقل منه إلى دير الشمع (بمنية شماس بالجيزة وقد خرب الآن) يقدس فيه ثم ينتقل إلى كنيسة الملاك ميخائيل برأس الخليج (وقد دثرت ولم يبق لها أثر ولوح مذبحها موجود فى كنيسة أبى سيفين على مذبح الهيكل الكبير) ظاهر مصر يقدس فيه ، وينتقل منه إلى كنيسة المعلقة داخل المدينة المذكورة باكر يوم الأحد لا غيره يقدس بها بحضور الأساقفة والكهنة وجمهور الشعب ويبارك عليهم ويدعو لهم ويسأل الله أن يكمله بهم ويكملهم به ، ثم يفعل ذلك فى بيت القديس أبى سيفين وبعدها فى كنيسة حارة الروم بالقاهرة المحروسة . ويقرأ تقليده بثغر الاسكندرية وبالديارة جميعها وبكل بيت يدخل إليها ويقدس فيها . ويعتمد هذه الرسوم جميعها التى وردت أكثرها القوانين المقدسة ، وبعضها جرت به العادات من الآباء البطاركة الذين قبله أدام الله حياته آمين ونيح نفوسهم ورزقنا الله بركاتهم آمين » . هذا فصل من كتاب الباب الثالث والخمسين من كتاب أصول الدين ومسموع محصول اليقين لأبى اسحاق بن العسال ، (يظهر أنه كتب هذا الكتاب فى عهد كيرلس بن لقلق خامس سبعى البطاركة أو فى عهد خليفته) .

ومن هذا الوصف الدقيق الذى يضعه معاصر رأى بعينه ما جرى ، لأنه كان من المقدمين والأراخنة العظام ، يرى أن كل ما اعتادوا عليه فى السابق لم يبق له أثر الآن بل قد إكتفوا برسامة البابا فى القاهرة .

أما فى الكتاب المطبوع فى روما فلم يرد ذكر الأديرة بل يقول بعد التكريس « بعد هذا يركب البطريرك والأساقفة دوابهم ويرتل قدامهم إلى دار البطريركية فيُصعِدونه إلى مجلسه ويجلسونه ويرتلون الأناشيد والمدائح والأصوات ويسجدون له ويعيدون له ثلاثة أيام مثال سر الذى قام من بين الأموات فى اليوم الثالث . اليوم الأول فى كنيسة الانجيلى والثانى فى بيعة رئيس الملائكة ميخائيل والثالث فى كنيسة القديس مرقس ويكمل القداس . ويأخذ فى حضنه الرأس الرسولية التى للناطق بالإلهيات مرقس لأنه صار له خليفة وهو مستعد أن يقتفى أثره » . (وذلك فى نسخة تاريخها ١١ أبريل ١٣١٢ م) .

ويبدو كأنما استقى معلوماته وما كتبه ابن كبر فى الباب العاشر من كتابه « مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة » من مصدر واحد ، فقد جاء فى الباب العاشر من هذا الكتاب ما يأتى : « وبعد هذا ينزل البطريرك والأساقفة إلى دار البطريركية بالترتيل والمدائح والأصوات . وإذا جلس يسجدون له ويعيدون له ثلاثة أيام مثال سر الذى قام من الاموات فى اليوم الثالث . اليوم الأول فى كنيسة الإنجيلين ، واليوم الثانى فى بيعة رئيس الملائكة ميخائيل ، واليوم الثالث فى كنيسة القديس مرقس ويكمل القداس ويأخذ فى حضنه الرأس الرسولية الذى للناظر الإله مرقس لأنه صار له خليفة وهو مستعد أن يقتفى أثره . ولربنا المجد والسجود إلى أبد الآبدين آمين » .

فى القانون السادس من قوانين مجمع نيقية « تحفظ السنن القديمة فى مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية فى أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها لأنه الحاكم عليها جميعا » .

القانون الكنسى يقول « أى أسقف أو قسيس أو شماس نال قسمتين فليقطع هو والذى قسمه إلا أن يظهر أنه أقسم من جهة هراطيق » . (قانون الرسل) إن الرسامة كالمعمودية لا تعاد . وهذا النظام متخذ من الكتاب المقدس فى عهد الرسل أنفسهم ولا يمكن لمجمع أن يحله .

وجاء فى قانون نقله العلامة جورج جراف فى المجلة الألمانية (الشرق المسيحى) عام ١٩٢٧ ومنه نسخة فى المتحف القبطى تحت رقم ٢٣٩ طقس وعمل فى يوم السبت الموافق ٨ سبتمبر سنة ١٢٤٠ م فى عهد كيرلس بن لقلق بحضور جميع أساقفته « مدينة اسكندرية صارت أما لكل مدائن مصر بقبولها الأب البشير مرقس الإنجيلى الرسول مبدأ إيمان أهلها ، على يديه صار لها الطقس الأكبر ، أى من استحق الجلوس على كرسى مرقس الرسول كان الرئيس على أساقفة مدينة الإسكندرية (لعله يقصد أساقفة كرسى الإسكندرية) ، وهو الناظر عليهم ، كما يشهد بذلك كتاب الدسقولية وهو المكهن والمكرز لهم وهم تحت طاعته وخاضعون لأوامره الشرعية والرتب البيعية ولهذا الوجه أستقر طقس أساقفة الوجه البحرى لقربهم وسكنهم من مدينة الإسكندرية كما شرفت البلاد المجاورة للأرض المقدسة » .

ويرى من هذا القانون الذى حذفت بقيته لطوله أن إجماع المتقدمين هو تقدمة أساقفة الوجه البحرى على القبلى لاعتبارات مهمة جدا .

وختاما القانون يقول بصراحة « ولا يرأس فى النصرانية أو يخص بتدبيرها إلا من يعرف شرائعها وسننها ويعمل بها ، فإن كان مخالفا لذلك فليعزل عن الرئاسة مقهورا » (مج ٥ : ٨٩) ، ولا رئيس إلا من يعرف شرائع الكنيسة وسننها ويحافظ عليها ولا يهملها كلية .



الفصل الثالث

حكم القانون الكنسى والتقاليد فى إنتخاب أسقف الإسكندرية

هو أول أسقف أقيم فى مصر ، فى المدينة التى كانت عاصمة القطر فى ذاك الوقت ، ومركز الحركة الفكرية فى العالم ، فكانت تُدعى المدينة العظمى الإسكندرية . أقامه بيده القديس مرقس الإنجيلى خليفة له ، ولذلك دُعى كرسى الأسقفية فيها بالكرسى المرقسى والإسكندرى ، أو كرسى أسقفية الإسكندرية . وتعرف كنيسة مصر فى التاريخ الكنسى باسم كنيسة الإسكندرية .

وفى عهد الأنبا ديمتريوس البطريرك الثانى عشر (١٨٠ — ٢٣٢ م) اتسعت شئون الكرازة فرسم ثلاثة أساقفة ، ومالبثت المسيحية أن إنتشرت فى طول البلاد وعرضها بسرعة استدعت أن يرسم خليفته البابا ياروكلاس عشرين أسقفا . وأضفى الشعب على أسقف الإسكندرية لقب «بابا» أى «أب الأباء» ، فكان أول أسقف فى العالم لقب بذلك اللقب ، ومنذ ذاك الوقت أضيف هذا اللقب إلى طلبات القداس ومازال ثابتا فيها إلى اليوم .

وحتى القرون الوسطى كان شعب الإسكندرية هو الذى ينتخب راعيه شأنه فى ذلك شأن رعية جميع الإيبارشيات الأخرى فى إنتخاب أساقفتهم ، وكانت رسامة البطريرك تتم فى هذه المدينة التى كانت مقر إقامته أيضا . ومما تفخر به كنيسة الإسكندرية إلى اليوم أنها أقدم كنيسة حافظت على هذه المبادىء الديموقراطية حتى أن التزكية التى كانت تكتب جاء فيها « نحن الأساقفة الذين إجتمعنا سطرنا هذه التزكية ، وشهدنا فيها وكل الذين إجتمعوا محبين الله : الكهنة الفضلاء والرهبان الزهاد ، وكل الشعب المحب للمسيح الذى للمدينة العظمى الإسكندرية » .

وفى عام ٣٢٥ م انعقد المجمع المسكونى المقدس الأول تحت رآسة الإمبراطور قسطنطين وحضره ٣١٨ أسقفا من جميع أنحاء المعمورة وفى

مقدمتهم البابا إسكندر: اسقف الإسكندرية التاسع عشر ، يصحبه رئيس شمامسته القديس أثناسيوس الذى هز أعواد منبر ذلك المجمع بفصاحته ومتانة حججه فكان كوكبه اللامع وقلبه النابض . وقد ثبت هذا المجمع وضع أسقف الإسكندرية فى قانونه السادس الذى يقول « تحفظ السنن القديمة فى مصر وليبيا وبندا بوليس (الخمس مدن الغربية) ، فى أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها » .

أما لقب بطريرك فقد لقب به للدلالة على أنه رئيس الأساقفة أو الأسقف الأول ، ولكن لم يغير ذلك شيئا من الحقيقة الأساسية ، وهو أنه أسقف الاسكندرية ويكون انتخابه بنفس شروط الأساقفة الأخرين . ولذلك يقول القانون الكنيسى فى نهاية الباب الرابع وهو الباب الخاص بشروط إقامة البطاركة « وتتمة الكلام فى البطريركية من شروط إقامته ونحو ذلك ورد فى القوانين بإسم الأسقف لأنه أسقف مدينة كرسيه ، ولذلك لا يعمل بطريرك كرسى الإسكندرية أسقفا للإسكندرية » ، فمجرد رسامة أسقف الإسكندرية على هذا الكرسى تجعله إذن بطريرك الإسكندرية بلا منازع .

فليست إذن بطريركية الاسكندرية رتبة ينعم بها على أى أسقف ولكنها لقب ملازم لكل من يُرسم أسقف على كرسى الاسكندرية . وهو لقب الرآسة لأنه يخلف القديس مرقس الإنجيلى فى هذا الكرسى ، فله هو وحده حق رآسة كنيسة الإسكندرية . فعندما أتينا فى العصر الحديث بأسقف البحيرة والمنوفية ثم بأسقف أسيوط وأسقف جرجا وجعلناهم رؤساء على كنيسة الإسكندرية كان عملنا هذا غير قانونى وكان تعديا على حق هذا الكرسى الذى ظل خاليا طبعا طوال تلك المدة . وبعد أن كان كرسى الإسكندرية وبالتالى أسقفها هو الذى يرأس الكنيسة طوال تسعة عشر قرنا ، قلبنا الأوضاع ودسنا على القانون والتقاليد وقرارات المجامع المسكونية وأتينا بأساقفة كراسى أخرى وجعلنا لهم السلطان على كنيسة الإسكندرية ، وكانوا هم مدركين أن الانتقال غير جائز ولذلك لم يرسموا أساقفة على كراسيهم ، وأصبح اللقب الرسمى الكنيسى لكل

منهم أسقف البحيرة وبطريرك الكرازه المرقسية ، ثم أسقف أسيوط وأسقف جرجا ، أى محونا معالم كنيسة الإسكندرية التاريخية . ونزعنا عن كرسى القديس مرقس الإنجيلى حق رآسة كنيسةالإسكندرية، من أى فئة إذن يختار أسقف الإسكندرية'؟

لم يترك القانون الكنسي فى هذا الموضوع تعبيرا عائما أو يستدعى التأويل والتفسير . ولأجل زيادة التوضيح فى نظرة الكنيسة إلى هذا المنصب ، عندما تكلم عن شروط من يستحق البطريركية فى الباب الرابع الخاص بالبطريرك ، أحالنا إلى الباب الخامس الخاص بالأسقف فيقول « وأكثر ماورد للأسقف يلزم البطريرك ، لأنه يسمى فى بعض القوانين : الأسقف الكبير والأول ، ورئيس الأساقفة » ، ويقول فى موضع آخر من هذا الباب « أى أسقف أو مطران أو بطريرك لأن السبيل فيهم واحدة ... » . إذن الشروط التى يجب أن تتوافر فى الأسقف هى التى يجب أن تتوفر فى البطريرك عند إنتخابه ، لا فرق بينهما سوى فى الإيبارشية التى أختير كل منهما فى الجلوس عليها . ولذلك عندما يقسم شروط من يستحق البطريركية إلى قسمين رئيسيين (أ) نقلية و (ب) عقلية ، فإنه يحيلنا إلى الباب الخامس فى الشروط النقلية إذ يقول « وقد ذكرت فى أول باب الأسقف » . ولا أطيل على القارىء فى إيراد جميع هذه الشروط ، وإنما أقف به عند الشرط الذى نتجاهله أو نتحداه فى هذه الأيام ، وجاءت اللائحة مخالفة له ، هذا الشرط يقول « أن يكون راهبا ، أو ممن له بعض مراتب المذبح ، ولا يصح علمانيا إلا بعد ضرورة ، وبعد أن يشرط على نفسه حفظ القوانين المقدسة»، فالأسقف أو البطريرك يختار من هذه الفئات فقط ، وبعض مراتب المذبح تعنى أن يكون كاهنا لا تعلو درجته درجة قمص ، ويردف المجموع الصفوى هذا الشرط. بما يؤكده فيقول « أعنى يكون راهبا أو كاهنا » . ولا يُعقل أن يُختار أسقفٌ لوظيفة أسقف لأن النقل ممنوع أيضا منعا باتا كما سنرى .

لماذا لا يجوز ترشيح أسقف أو مطران لمنصب البطريرك
أو
لماذا لا يجوز نقل أسقف من إيبارشية إلى أخرى

بينا فيما سبق أن أسقف مدينة الإسكندرية تلازمه رتبة البطريرك دون غيره ، وأضفى عليه الشعب لقب «بابا» ، لأن القديس مرقس الإنجيلي شخصيا هو الذى أنشأ هذا الكرسى . وجاء مجمع نيقية المقدس المسكونى الأول المنعقد تحت رآسة الإمبراطور قسطنطين وبحضور ٣١٨ أسقفا فإعتراف بهذه الرآسة فى قانونه السادس كما ذكرنا آنفا . وقد ذهب هذا المجمع إلى أبعد من ذلك فى سبيل السلام والإستقرار فى الكنيسة ، فرأى بإرشاد الروح المقدس أن يضع قانونا للمستقبل يضع به حدا لتنازع الأساقفة على من يكون بطريركا منهم ، ولمطامعهم فى الكراسى الأرقى ماديا أو أدبيا ، فيعمل كل منهم جهده للإستيلاء عليه بأية وسائل ، ولو كان غير مستحق ، ومتى إرتقى تحكّم فى رقاب معارضيه ، وينجم عن ذلك أنقسامات خطيرة ، فخشية من هذا الطمع ومايجر إليه من عواقب وخيمة ، وضع هذا المجمع المقدس قانونا فى غاية الحكمة وبُعد النظر ، وهو القانون الخامس عشر الذى يحرم فيه إنتقال الأسقف من الإيبارشية التى إنتخبه شعبها إلى إيبارشية أخرى .

وتتابعت بعد ذلك القوانين التى تؤيد هذه النظرة الحكيمة وتوقع الحرومات على مخالفيها نتيجة تجارب .

(أ) ففى المجمع المسكونى الثانى الذى إنعقد فى القسطنطنية عام ٣٨١ م ، حكم المجمع بتنحى القديس غريغوريوس النازينسى عن أسقفية القسطنطينية ، لأنه سبق أن رُسِم على أسقفية أخرى ، رغما عن إرادة الشعب والإمبراطور ، وماقدموه من حجج تبريرا لذلك الإختيار والإنتقال . وكان المجمع مكونا من ١٥٠ أسقفا . فنظر إلى أبعد من الشخصيات وإلى المستقبل البعيد وإلى السلام الذى يجب أن يسود

الكنائس وكأن ال ٣١٨ + ال ١٥٠ الذين اجتمعوا فى هذين المجمعين كانوا يتنبأون بما سيحدث فى القرن العشرين فى أعرق الكنائس وأقدمها وأعمقها أثرا فى العالم المسيحى وأكثرها محافظة ، فى كنيسة الاسكندرية !

(ب) عقد مجمع فى عصر الامبراطور تيودوسيوس عام ٤٢٧م فى مدينة قرطاجنة ، حرم فيه نقل الأسقف تحريما قاطعا ، ووضع هذا النقل فى مستوى إعادة سر المعمودية ، إذ جاء فى القانون الخامس والثلاثين والقانون السابع والخمسين له أيضا « لا تسمح إعادة المعمودية وإعادة الشرطونية أو نقل الأساقفة » .

(جـ) إنعقد مجمع فى إنطاكيا جاء فى القانون ال ٢١ منه تحريم إنتقال أسقف من إيبارشية إلى أخرى فيقول « لا يجوز للأسقف أن ينتقل من إيبارشية إلى أخرى ، ولا يلقى ذاته متعديا ، لا بإختيار منه ، ولا بإلزام الشعوب ، ولا بإلزام الأساقفة أيضا ، بل يجب عليه أن يقيم فى الكنيسة التى دُعِى إليها من حال الأصل ولا ينتزح عنها ، وذلك حسبما صدر به الحد سابقاً » ولذلك عندما أراد أحد الملوك أو الولاة فى إنطاكيا ، فى عهد البابا خائيل الأول بابا الأسكندرية السادس والأربعين (٧٤٣ ــ ٧٦٧ م) ، أى فى القرن الثامن ، قَبْل ابن العسال والمجموع الصفوى بخمسة قرون ، أن ينقل أحد الأساقفة من كرسيه إلى كرسى انطاكيا الذى خلا بوفاة صاحبه ، عارض الأساقفة هناك هذا النقل ، وقالوا لا يجوز أن يكون الأسقف بطريركا . فأرسل هذا الملك إلى البابا يأمره بإرسال أسقفين لإتمام هذه الرسامة ، ويتوعده إن خالف أمره . ولكن البابا وجد أن الأمر جد خطير ، فيقول ساويرس بن المقفع فى كتابه «تاريخ بطاركة الكرسى الإسكندرى» «فجمع البطريرك الأساقفة بالصعيد والوجه البحرى والكتاب ووقفوا على الكتب » ، كان إذن طلبا مخالفا للقانون والتقاليد ، والكنيسة السريانية شقيقتنا وتقاليدها مستمدة من تقاليدنا ، وفوض

المجمع الكبير الأمر للبابا قائلين « هو شريكك وأخوك وهذا الأمر هو لك خاصة » ، فأجاب البابا على رسالة الملك فى شجاعة وإستعداد لتحمل المسئولية مهما كانت النتائج « إن الموت والحريق لى أجود مما أخالف ماقد أحرمت بخطى أن أسقفا يصير بطريركا ... » ، وكرر خليفته البابا مينا (٧٦٧ — ٧٧٥ م) السابع والأربعين نفس الحرم . فلائحة الإنتخاب تخالف هنا أيضا القوانين والمجامع والتقاليد ، التى تخوف من مخالفتها البابا نفسه فدعا مؤتمرا من المجمع المقدس والأراخنة وفتشوا الكتب قبل أن يبت فى الأمر .

شاهد عيان يصف ما كان يجرى منذ سبعة قرون
فـــى
رسامة البطريرك

للصفى بن العسال الذى جمع ماتوراثته كنيسة الإسكندرية من قوانين ، فترجمها عندما صارت اللغة القبطية غريبة على أهلها ،ولمّ شتاتها فى «المجموع الصفوى» ، فكانت من أعظم الإنجازات التى تمت فى أوائل القرن الثالث عشر ، شقيق يدعى أبا اسحاق بن المفضل بن العسال ، كان هو الآخر من علماء عصره ، وله مؤلفات جليلة ، منها كتاب « أصول الدين ومسموع محصول اليقين » ، وفى الباب الثالث والخمسين من هذا الكتاب ، وصف دقيق عما كان يجرى منذ سبعة قرون فى رسامة البطريرك ، كما شاهده هذا الكاتب بنفسه فى الاحتفالات التى عملت فى عهده نقتطف منها بعض شذرات :

قسمته قمصا على كرسيه : لا يخلو من أن يكون له رتبة من مراتب خدمة المذبح أو لا يكون . فإن لم يكن فيكرزه أكبر الأساقفة وثانية فى الطقس شماسا ثم قسا ثم قمصا بحضور المذكورين أجمعهم ، وإن كان له بعض هذه الرتب فينقل فيها إلى أن يصير قمصا .

سيره إلى ثغر الإسكندرية ليقام بها بطريركا : بعد تكريزه قمصا يمضون

فى خدمته من مصر إلى ثغر الإسكندرية المحروس ، فإن وصل إليها قبل يوم الأحد فيبقى ظاهرها إلى صبيحته ، حينئذ يخرج شعبها يتلقونه ويدخلون جميعهم فى خدمته إلى كنيسة السوتير أى المخلص (وقد اندثرت ولم يبق لها أثر ، ويظن أن مكانها كان عند باب سدره) .

تكريسه وقسمته بها : فإذا إستقر بها يصلون صلاة باكر الأحد ، ثم يقدس أكبر الأساقفة طقسا (أى أقدمهم عهدا بالرئاسة من الوجه البحرى ولو كان أصغر من أساقفة الوجه القبلى) ، وإذا فرغوا من قراءة الأبركسيس عند ذلك تطلع الأساقفة جميعهم فى خدمته فوق الأترانس أى الكرسى ، ويجعل وجهه إلى الشرق ، ويدير الأساقفة وجوههم إلى الغرب ويغسلون أيديهم (لكى يتبرأوا من دمه مادام منتخبوه راغبين فيه) ، ويضعونها عليه والشعب قياما بسكوت وخوف عظيم ، وتضع الأساقفة أيديهم عليه ويقولون : إنا نضع أيدينا على هذا العبد المختار لله ، بسم الأب والابن والروح القدس ، لإقامته فى رتبة صالحة ثابتة للكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية بلا دنس ، بيعة الله الحى الغير المرئى ، لفعل حكم العدل وإعلان مقدس وتعليم روحانى ونعمة طاهرة ، آمين . هذا هو الذى صار للكنيسة الجامعة الرسولية من جهة الثالوث المقدس بسر الصليب الكريم . ويصرخ كبير الأساقفة قائلا : إرتضيتم أن يكون هذا بطركا عليكم ، وحاكما فيكم لكم وعليكم ثلاث دفوع ، ثم يقول فى الثالثة : رضيتم أن يكون هذا رئيسا عليكم وتعلموا أنه مستحق لهذه الرتبة ؟ فإذا قالوا : مستحق ، يدير وجهه إلى الشرق ويقول صلاة ويرفع البخور . ويضع أول الاساقفة وكبيرهم فى الطقس وثانيه يده عليه ويكرزه بصلاة القسمة المعروفة ، ولتكريزه كتاب مفرد يتضمنها ، وكلما نزل الأساقفة درجة يطلع هو درجة ، إلى أن يصير هو فى الدرجة الأولى أعلى من جميعهم ، وعند قراءة الإنجيل يحمله له أكبر الأساقفة بين يديه ، ويقرأ البطريرك الفصل الذى هو : أنا الراعى الصالح ، ويقولها ثلاث دفوع ، كل دفعة يضع كبير الأساقفة يده على رأسه ويصرخ قائلا : مستحق ، مستحق ، مستحق ، ويقول الشعب

ⲁⲝⲓⲟⲥ أى مستحق . وإذا قرأه كمّل القداس . وبعد تكريزه تقبله الأساقفة بأفواههم على طقوسهم ، وبعدهم الكهنة كذلك والخدام والأراخنة وسائر الشعب يقبلونه ويدعون له بأن يكمله الله بصالح رعايته لهم ويكملهم به ، وإذا كمل القداس على سياقه يتناول هو أولا السرائر المقدسة ويعطيهم كلهم منها على الطقس ويسرحهم بسلام ودعاء » .

ومن هذا الوصف الدقيق الذى يصفه معاصرٌ رأى بعينه ماجرى منذ سبعة قرون ، لأنه كان من المقدمين والأراخنة العظام ، والغالب أنه وصف رسامة كيرلس الثالث بن لقلق البابا الخامس والسبعين ، نقرأ ذلك الشرط المأثور الذى يكوّن محور شروط اختيار البطريرك وهو « **لا يخلو من أن يكون له رتبة من مراتب خدمة المذبح أو لا يكون** » ، ثم يرقى إلى أن يصير **قمصا فقط** . ولقد قالها بتلك البساطة التى ينطق بها الإنسان البديهية المتواترة .

وضـــع اليـــد

هذا الموضوع الذى كان أيضا من البديهيات منذ العهد الرسولى ، والذى لم يثر بشأنه أى نقاش منذ تأسيس الكنيسة أثار ضجة بين جميع الطوائف المسيحية الرسولية التى حضر ممثلوها حفلة إرتقاء المتنيح الأنبا يؤانس التاسع عشر عام ١٩٢٧م منصب رآسة الكنيسة ، إذ كان الأنبا يؤانس قد وُضِعت عليه اليد عندما رُسِم أسقفا قبل ذلك باثنين وأربعين سنة ، وإذ بهم يضعونها عليه مرة أخرى كما يضعونها على القمص الذى يرسم أسقفا ، وكان ذلك مخالفا مخالفة صريحة للتقليد الرسولى الذى تسلمته الكنيسة ، لأن إعادة وضع اليد تعد كفرا بموهبة الروح القدس ، وتوجب قطع واضع اليد والذى وضعت عليه ، إذ يقول القانون « أى أسقف أو قسيس أو شماس نال قسمتين فليقطع هو والذى قسمه ، إلا أن يظهر أنه أقسم من جهة هراطيق » ، فكان هذا العمل فضيحة لأن الرسامة كالمعمودية لا تعاد . وهذا النظام مستمد من الكتاب المقدس فى عهد الرسل أنفسهم ، ولا يمكن للأئمة أن تحله أو المجمع أن يحله أيضا لأنه لم يسنه مجمع حتى يحله مجمع آخر ، ونعلم من رسائل القديس

بولس لتلميذه الأسقف تيموثاوس عن النعمة التى أوتيها بوضع الأيدى ، أن سر الكهنوت حينما ناله الأسقف يضفى عليه رسما من النعمة الإلهية لا يمحى أثره ، ومن ثم لا ينال أحد شرطونية ثانية للرتبة الكهنوتية الواحدة ، أى أن سر الكهنوت لا يعاد . فيقول القانون الثامن والستون للرسل « وكل أسقف أو كاهن أو شماس ينال شرطونية ثانية من أحد يقطع هو والذى شرطنه » ، وفى القانون الخامس والثلاثين لمجمع قرطاجنة « لا تسمح إعادة المعمودية وإعادة الشرطونية أو نقل الأساقفة » .

فكان هذا الحادث فى حفل إرتقاء الأنبا يؤانس موضع إستغراب جميع الحاضرين من أكليروس الطوائف الأخرى ، الذى إن دل على شىء فعلى عدم إحترامنا للكتاب المقدس وجهلنا بالقوانين .

حقوق الشعب فى الإختيار
و
القرعة الهيكلية

فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ظهر بعض الكتاب القبط الغيورين ، الذين عنوا بإيضاح ما خفى فهمه على القبط فى ذاك الوقت ، فبحثوا ونقبوا ، ودونوا كل الشروط التى يجب مراعاتها عند إقامة البطريرك ، ليرجع إليها جيل بعد جيل كلما إحتاجوا إلى من يسوس أمورهم فيرجعون إليها ويراعونها ، أى كانوا من الحكمة أن جمعوا كل التقاليد والقوانين التى تحتاج إليها الكنيسة عند ملء هذا المنصب الرسولى الجليل ، فكانت هذه اللائحة إحدى مفاخر كنيستنا ، ولا يجب أن يكون لنا بديل لها يخالفها . وهؤلاء الكتاب هم :

(أولا) الصفى بن العسال الذى ذكر فى البابين الرابع والخامس من المجموع القانونى الذى جمعه والمعروف بالمجموع الصفوى ، شروط الانتخاب وما يجب عمله عند الإختلاف . (وكتابه هو قانون الكنيسة القبطية) .

(ثانيـــا) الشيخ الرئيس البار المؤتمن الدين المسيحى ، مؤتمن الدولة ابو اسحاق بن الفضل المعروف بابن العسال (وهو أخو السابق) ، وقد أفرد بابا خاصا فى كتاب « أصول الدين ومسموع محصول اليقين » وهو الباب الثالث والخمسون ، لما يجب عمله وقد اقتطفنا منه بعض شذرات .

(ثالثـــا) أفرد الأب الفاضل شمس الرياسة المسمى بأبى البركات المعروف بابن كبر الباب العاشر من كتاب « مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة » لموضوع البطريرك .

يضاف إليها فى موضوع إنتخاب البطريرك كتب الرسامة .

ونبدأ بابن كبر فى البطريرك واختياره « البطرك هو خليفة السيد المسيح ورسله ، والحاكم فى عقد شرعه وحله ، وتفسير اسمه : الأب الأول » ويستطرد فيقول « والشروط المعتبرة فى تقدمته ، المستوعبة فى أهليته ، واردة فى القوانين المقدسة الرسولية وقوانين المجامع المقبولة فى البيعة ، والآباء العلماء أئمة الشريعة ، وليس هذا موضع إستقصائها والإتيان على إستيفائها . وقد أوردت منها لمحة لطيفة ، لتدل على بعض المقصود فى من يرشح لهذه الوظيفة ، ويرجح لهذه التقدمة المنيفة ، وهى أن يكون انتخابه باتفاق أهل الإختيار من أعيان رؤساء الأراخنة الفضلاء والأخيار الناميين فى أفهامهم ، الكاملين فى إيمانهم ، المعروفين بصحة أذهانهم ، وعدم إدهانهم ، وجودة امتحانهم ، ووثوق الأكثرين بهم فى مايقلدونه ، وإعتماد الجماعة عليهم فى من يعينونه ، لديانتهم المتينة ومعرفتهم المبينة ، وحسن إنتقادهم الذى لا يبهرجه الإعتبار ، ولا ينافى خبرة الإختبار ، ويكون المختار ممن يرضاه أكثر أهل طائفته .

ويختارون بعدم رياسته ، بعد علم المختارين له بإشتماله على أقسام الأهلية المنصوص عليها فى أصله وأبوته ، ونسكه وبتوليته ، ودينه وعقيدته، وحواسه وعقله ، ونفسه وجسده ، وعلمه وعمله ، ودرايته ودربته ، وفضله وسياسته ، وثبوت إمتلائه من الفضائل ، وإعتلائه عن الرذايل ، عند العلماء

بالعلم والعامة بالتقليد والمؤلفين بإشهار الفضل ، والمخالفين بتواتر النقل . وإذا ما عُنيت جماعة لهم بهذه المزية أمعن النظر فى الترجيح ، وأختير منهم من يميز الأمتياز الصريح ، من المتساويين فى الحال ، المتماثلين فى الفعال وعملت لهم قرعة بأسمائهم ، ثم توضع على هيكل الرب فى أول القداس ، وعند فراغه ترفع منها ورقة واحدة على يد صبى طاهر ، أو قديس ماهر ، ممن يكون حاضرا فى الوقت الحاضر ، ومن اختاره الله عن المعينين الذين حصل الإتفاق عليهم ، والركون إليهم ، تقدم كالوضع والعرف الدينى » ، ويكمل فيقول « وليس للأساقفة إلا التكريز ، وأما التعيين فإنه للأراخنة المعتبرين ، الذين يكونون بأهل الإقليم عارفين » .

هذا ماذكره ابن كبر عن الإختيار وعن القرعة الهيكلية .

وأما ابن العسال فيكتب فى المجموع الصفوى « أصحاب الإختيار يلزمهم تقليد هذه الرآسة لمستحقها ، فإن توقفوا لزمهم الإثم » ، ثم يقول « إذا وجد الإختيار جماعة توجد فيهم شروط هذه الرياسية ، وجب أن يختاروا أتمهم شروطا ، ومن تسارع الناس إلى طاعته بالأكثر ، فإن إعتفى منها ولم يقبلها فليختاروا منهم غيره ، فإن لم يوجد غيره وجب أن لا يعفى .

« فإن وُجِد اثنان متكافئان فى الشروط قدم أسنهما ، مع أن زيادة السن عن كمال العمر المشترط ليس بشرط ، فلو قدم أصغرهما سنا لجاز ، وإن كان أحدهما أكثر علما والآخر أصلح تدبيرا روعى مايوجبه حكم الوقت . فإن كانت الحاجة إلى فضل العلم أدعى بسبب ظهور البدع قدم الأعلم ، وإن كانت الحاجة إلى صلاح التدبير قدم صاحب التدبير .

« وإن تنازع متساويان من كل وجه ، أو تنازعها لهما غيرهما ، رجع أمرهما إلى القرعة الهيكلية ، والأصلح إختيار غيرهما إن وجد ، لأن تنازعهما إياها تجريح لهما . وليس وجود الأفضل مانعا من إقامة المفضول إذا تمت له الشروط ، لأن زيادة الفضل مبالغة فى الإختيار ، وليست معتبرة فى شروط الإستحقاق » .

وذكر الشيخ المؤتمن فى كتابه أصول الدين « ووجوب تقليدها على أهل الاختيار لمن يقوم بها .. وجب على أهل الاختيار وهم الأساقفة والكهنة والأراخنة والمعلمين تقليدها لمن يقوم بها وجوبا عقليا وشرعيا ، فإن توقفوا وأهملوا ذلك مع قدرتهم عليه وتمكنهم منه لزمهم إثم مايفوت الشعب من صلاح فسادهم برعيته وتكملتهم به » .

وفى كتاب رسامة الأساقفة والبطاركة يقول « فليختر من جماعة الأساقفة وكل الشعب، كمسرة الروح القدس » .

وهكذا أجمعت القوانين على أن للشعب الحرية التامة فى إنتخاب من يليق للرياسة عليهم ويرغبون فيه مكلفين بذلك من يكون فيهم أهلا للإختيار ، ولم يكن للأساقفة والمطارنة حقوق أكثر من حقوق الشعب الذى إنتخبهم ، فلكل واحد منهم صوت كغيره من المؤمنين ، والشعب هو الذى ينتخب ويشرك معه البقية من الأكليروس كأنهم من الأفراد .

وفى الأمر الصادر بإعتماد إنتخاب البابا كيرلس الخامس الصادر فى أول نوفمبر سنة ١٨٧٤ م نقرأ « أنه سبق إجتماع رؤساء الطائفة ووجوهها ، ورسا الحال على إنتخاب القمص يوحنا الراهب بدير البرموس للياقته لتلك الوظيفة » .

شرط السن

نقرأ فى الدسقولية « وهكذا سمعنا ربنا يسوع المسيح يقول : يجب للراعى الذى تجلسونه أسقفا للكنائس فى كل مكان أن يكون بلا وجل ولا علة ، ويكون طاهرا من كل ظلم الناس ليس عمره دون خمسين سنة » .

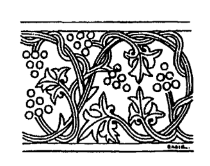
ولكن فى القانون ١١ من قوانين مجمع قيصرية الجديدة وهو أقدم المجامع المكانية المعروفة نقرأ « وسبيل الذين تختارونهم أن يكون كل واحد منهم قد تجاوز ثلاثين سنة » . ولكن إذا تأملنا فى الشروط الأخرى التى يجب أن يتصف بها الأسقف تجعل سن الخمسين قانونيا .

شروط مدة الرهبنة

هذا لم يأت به نص أو قانون أو حتى مجرد إشارة ، فالرهبنة ليست أساسا للأسقفية ، وهى طبعا غير البتولية التى تُعتبر شرطا أساسيا لها . ولذلك فإن اللائحة قد خالفت فى هذا الشرط قوانين الكنيسة وتقاليدها أيضا .

رجـــاء

وأخيرا لنا رجاء إلى جميع أبناء كنيسة الإسكندرية ، أن يحافظوا على الأمانة المقدسة التى تسلموها من أسلافهم الذين عضوا عليها بالنواجز حتى يوصلانها إلينا سالمة ، مضحين بأنفسهم ومتحملين مختلف أنواع المشاق والمتاعب ، وأن يسلموها للأجيال المتعاقبة كما تسلموها ، ففيها يكمن سر حياة الكنيسة وسط مختلف الأنواء والشدائد التى صادفتها ، وكانت لها سياجا منيعا حماها من هجمات الهراطقة والمنشقين ومنعها من التشتت . لنحافظ على هذا التراث الثمين الذى تسلمناه « غير ناظر كل واحد إلى ماهولنفسه، بل كل واحد إلى ما هو للآخرين » .



الفصل الرابع

إنتخاب البطريرك
فى
كنيسة الإسكندرية

(١) كنيسة الأسكندرية أو الكنيسة القبطية الأرثوذكسية كنيسة رسولية أسسها القديس مرقس الإنجيلى حوالى عام ٦٢ ميلادية . وتمكن من تأسيس كرسى للأسقفية فى مدينة الأسكندرية وكنيسة فى بيت حنانيا (أنيانوس) أول من آمن على يده وأقيم خليفة له .

(٢) ويخبرنا أبو المكارم سعد الله جرجس بن مسعود من مؤرخى القرن الثالث عشر ، وسعيد بن طريق الطبيب المؤرخ المعروف أيضاً بإسم أفتيخوس بطريرك الملكيين فى مصر فى القرن العاشر للشهداء « وصير مرقس مع حنانيا أثنى عشر قسيساً وأمرهم إذا مات البطريرك يختارون واحداً من الأثنى عشر ، ويضع الأحد عشر الباقون أيديهم على رأسه ويباركونه ويصلحونه بطريركاً ، ثم يختارون رجلاً فاضلاً فيصيرونه قسيساً » .

(٣) وأول من رسم أساقفة هو الأنبا ديمتريوس البطريرك الثانى عشر ، وقد أقام ثلاث مطارنة لمعاونته ، وتولى بعده البطريرك ياروكلاس فأصلح عشرين أسقفا ، وهو أول من أطلق عليه لقب « بابا » ، ومعناها « أبو الآباء » .

(٤) وعندما تولى الأنبا ألكسندروس البطريرك التاسع عشر أمر « أنه إذا مات البطريرك أن يجتمع الأساقفة ويصلحوا البطريرك ممن يختار وأن يكون فاضلاً عالماً » .

(٥) وعندما إجتمع المجمع المسكونى الأول فى نيقية عام ٣٢٥ م ثبت رآسة أسقف الأسكندرية وتقدمه على جميع أساقفة مصر ، إذ جاء فى قانونه السادس « تحفظ السنن القديمة فى مصر وليبيا وبنتابوليس

(الخمس مدن الغربية) فى أن أسقف الأسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها » .

(٦) وعندما تولى أثناسيوس الرسولى بابا الأسكندرية العشرون أسقفية الأسكندرية إحتاج الأمر إلى زيادة الأساقفة ، فإختار أساقفة من بين الرهبان ، وله فى ذلك رسالة شهيرة إلى دراكونتيوس الراهب يحثه فيها على ترك ديره مثل رهبان آخرين ليقبل الأسقفية . وهذه الرسالة مستند ثمين من القرن الرابع . وكلما تقدمنا بعد ذلك فى تاريخ الكنيسة القبطية يقل إختيار الأساقفة من بين الأكليروس العلمانى .

(٧) وفى كتاب (طقس رسامة بطريرك الأسكندرية) للدكتور برمستر الأمين السابق لمكتبة جمعية الآثار القبطية ، والذى أصدرته الجمعية عام ١٩٦٠م والمأخوذة عن أقدم مخطوط معروف يتضمن هذا الطقس ومؤرخ ١٠٨٠ ش و ١٣٦٤ م نتبين أن المفروض فى المنتخب أن يكون راهباً . وهذا ما حافظت عليه الكنيسة إلى القرن العشرين .

(٨) وفى عام ١٨٧٣ م عقب نياحة الأنبا ديمتريوس البابا المائة والحادى عشر ، قام البعض بجمع تزكية لإنتخاب القائمقام بطريرك فى ذاك الوقت الأنبا مرقس مطران البحيرة لمنصب البطريركية ، فإجتمع مجمع مقدس من تسع أساقفة وهم : أثناسيوس أسقف أبوتيج ووكيل عن الأنبا مكاريوس أسقف أسيوط ـــ باسيليوس مطران كرسى أورشليم ـــ مرقس مطران البحيرة ووكيل الكرازة بالأسكندرية ـــ توماس أسقف المنيا ـــ إيساك أسقف الفيوم ـــ يؤانس مطران المنوفية ـــ إبرآم أسقف منفلوط ـــ متاؤوس أسقف إسنا وأصدروا القرار الآتى « كل من يطلب رتبة البطريرك من الأساقفة أو المطارنة أصحاب الكراسى أو سعى فيها أو رضى بها أو أحد سعى له فى شأن يطلبوه لها ، كاهن كان أو رئيس كهنة أو علمانى يكون محروماً » .

(٩) ويخبرنا يوسابيوس القيصرى أبو التاريخ الكنسى وأحد الذين حضروا مجمع نيقية فى كتابه عن (حياة الامبراطور قسطنطين) « أن هناك

قاعدة قديمة وهى تقليد رسولى بأن لا ينقل أسقف من الكرسى الذى رسم عليه ، بل يظل زوجاً أميناً للإيبارشية التى تزوجها » .

كما يحرّم مجمع نيقية فى قانونه الخامس عشر نقل أو ترقية الأسقف من كرسيه إلى آخر لأنه ضد القانون ، ويوجب على من إنتقل الرجوع إلى مكانه الأصلى أما إذا رفض فيفرز .

(١٠) ويقول الأنبا بطرس أسقف مليج فى كتابه (بدع الطوائف) عن بدع السريان « نقلهم الأساقفة من كرسى إلى كرسى بزيادة بعضهم على بعض » .

(١١) ولكن هذا التقليد الذى تمسكت به الكنيسة القبطية إلى القرن العشرين قد نقض لأول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٩٢٨م عندما عين الأنبا يؤانس مطران البحيرة بطريركاً للكرازة المرقسية ، وبعد ذلك عند إنتخاب الأنبا مكاريوس مطران أسيوط ثم الأنبا يوساب مطران جرجا لمنصب البطريركية .

(١٢) وقد جاءت هذه الإنتخابات نتيجة قرار المجمع الأكليركى المنعقد فى ١٨ يوليو سنة ١٩٢٨م من أحد عشر مطراناً وأسقفاً جاء فيه « قرر المجمع الأكليريكى العام المقدس العمل دائماً بمبدأ وجوب ترقية أحد المطارنة أو الأساقفة إلى رتبة البطريركية عند خلو الكرسى » .

(١٣) هذا القرار خالف القانون السادس الصريح لمجمع نيقية الذى قرر رآسة كنيسة الأسكندرية لأسقف الأسكندرية ، ولقرار المجامع المسكونية الأخرى المعترف بها من الكنيسة، إذ سلب من أسقف الأسكندرية حق الرآسة هذه وجعله حقاً مشاعاً لأى أسقف أو مطران لكرسى آخر ، فأصبح مطران البحيرة أو أسيوط أو جرجا رئيساً لكنيسة الأسكندرية .

ولأجل إعتبار رآسة كنيسة الأسكندرية « ترقية » للأسقف أو المطران كان لابد من إبقاء كرسى الأسكندرية خالياً ، لأن رسامة أسقف على هذا الكرسى ليعطيه الحق بلا منازع فى رآسه كنيسة

الأسكندرية . وهذا ما حدث إذ لم يرسم أسقف على كرسى الأسكندرية طوال ٣١ عاماً إلى أن رسم عليه الأنبا كيرلس السادس الذى كان راهباً وقمصاً .

ولم يجرؤ أحد هؤلاء المطارنة على رسامة أسقف على كرسيه الأصلى لأنه يعلم أن هذا ضد التقليد الرسولى الذى يجعله زوجاً على كرسيه .

(١٤) ويبرز نتيجة هذه المخالفة الصارخة هذا السؤال : من يرأس الأسكندرية ، أسقف مدينة الأسكندرية أو أسقف مدينة أخرى ؟

(١٥) ومنذ أن بدأت هذه المخالفة نهض الفكر القبطى يواجهها محافظة على تقاليد الكنيسة ومنعاً للبلبلة والإنقسام، فوضع المؤرخ جرجس فيلوثاؤس عوض كتاباً عنيفاً فى شأن إقامة الأنبا يؤانس بطريركاً عام١٩٢٨ بعنوان (عثرةالكنيسة القبطية فى القرن العشرين) طبع عام ١٩٣٠، وللمرحوم الأستاذ يسى عبد المسيح أمين مكتبة المتحف القبطى سابقاً والعالم المشهور فى الدراسات الكنيسية مقال فى مجلة مدارس الأحد السنة الثامنة (يونيو /ويوليو ١٩٥٤) بعنوان عدم قانونية إختيار البطريرك من بين الأساقفة قدم له نظير جيد (الأنبا شنوده الثالث حالياً) ، ولهذا الأخير مقالات ودراسات عديدة فى تأكيد المبدأ من بينها ما نشره فى مجلة مدارس الأحد السنة السابعة (سبتمبر١٩٥٣) والسنة الثامنة (إبريل ١٩٥٤) .

كما كتب الأنبا أغريغوريوس أسقف الدراسات العليا (وهيب عطالله سابقاً) يؤكد نفس الرأى ، مقالة بعنوان البطريرك الحزين فى مجلة مدارس الأحد السنة الأولى، العدد الثامن (نوفمبر ١٩٤٧) ص ٣١ و ٣٢ وللأستاذ ألبرت برسوم سلامة دراسة هامة أوضح فيها الأسانيد القانونية والتاريخية لهذا المبدأ .

(١٦) وجاء فى الإتفاقية التى وقعها الأنبا كيرلس السادس مع الكنيسة الأثيوبية فى البند الرابع ما يأتى « يرفع مركز مطران الكنيسة

الأرثوذكسية للإمبراطورية الأثيوبية وهو خليفة القديس تكلا هيمانوت إلى مركز بطريرك جاثليق ، ويختار وفقاً لقوانين وتقاليد كرسى القديس مرقس بالأسكندرية من بين الرهبان الأثيوبيين الذين لا تزيد رتبتهم عن درجة القمص ، وهو المبدأ المعمول به أيضاً فى سائر الكرازة المرقسية » . ووافق عليها أعضاء المجمع المقدس ووقع عليها غبطة البابا .

(١٧) وبعد نياحة الأنبا كيرلس السادس تقدم للترشيح للكرسى البطريركى ستة أساقفة ثلاثة منهم ذوى لقب جديد إستحدثوه وهو (أسقف عام) أى بلا كرسى وبرروا على هذا الزعم تقدمهم للإنتخابات البطريركية . ولم يحدث فى تاريخ الكنيسة القبطية أن منحت الأسقفية لشخص بدون إيبارشية ، أى بدون مجموعة من البشر ينتخبون الأسقف الذى يقوم بخدمتهم ورعايتهم . أنه يكون بمثابة تصور وجود رأس بدون جسد تحيا به ، وأن الدرجة الكهنوتية فى هذه الحالة تعتبر إستحالة قانونية وتسقط فى فراغ .

(١٨) يدعى هؤلاء الأساقفة بأن (أ) بطرس الجاولى البابا التاسع بعد المائة و(ب) كيرلس الرابع البابا العاشر بعد المائة ، كانا أسقفين عموميين وصارا بطريركين . ورداً على ذلك نورد ما يأتى :

(أ) البابا بطرس الجاولى

البطريرك ١٠٩ (١٨٠٩ ـــ ١٨٥٢ م) جاء فى كتاب (تاريخ الأمة القبطية) الحلقة الثانية تأليف كامل صالح نخله وفريد كامل عضوا لجنة التاريخ القبطى : أراد سلفه البطريرك مرقس رسامته مطراناً للحبشة فلم يتم له ذلك ، فرسمه مطراناً لمصر وجعله إلى جانبه بالدار البطريركية وساعده فى إدارة مصالح الأمة وبعد موته خلفه على كرسى البطريركية ويقول كتاب سلسلة تاريخ البطاركة الحلقة الخامسة من مطبوعات دير السريان فى ص ١١٤ « وبعد المشاورة فى أمر من يصلح لهذا المركز الخطير (الحبشة) وقع الإختيار على القمص مرقوريوس الجاولى فإستدعاه البابا لرسامته لهذا الكرسى

العظيم ، ولكن إرادة الله الذى يدبر كل الأمور السياسية وحكمته أوحت إلى البابا القديس أن يرسم مرقوريوس مطراناً عاماً على الكرسى المرقسى ... وظل مقيماً مع البابا فى القلاية البطريركية معيناً له فى تدبير أمور البيعة وإدارة الأعمال الكنيسية لشيخوخة هذا البابا » . ويقول كتاب تاريخ الكنيسة القبطية طبعة ١٩٢٤ ص ٦٥١ « أنه رسم مطراناً على الكنيسة عموماً بإسم وكيل الكرازة المرقسية » ، أى أنه كان يباشر نفس إختصاصات البطريرك ولذلك رسم بطريركاً فى اليوم الثالث بعد نياحة سلفه . إذ كان يباشر فى واقع الأمر نفس الإختصاصات .

(ب) البابا كيرلس الرابع

البطريرك ١١٠ (١٨٥٤ ـــ ١٨٦١ م): لما خلا الكرسى المرقسى بنياحة الأنبا بطرس الجاولى حضر الأساقفة إلى العاصمة ليتحدوا مع كبار الأمة والأراخنة فى إختيار خلفه ، وعند إجتماعهم للمرة الأولى كان إسم القمص داود مقدماً للرياسة بناء على ما أوصى به سلفه كما قيل وقت إحتضاره وألح البعض فى إنتخاب غيره وإشتد الخلاف كما يخبرنا المرحوم يعقوب نخله رفيله فى كتابه (تاريخ الأمة القبطية) ، وإنفضوا من جلستهم الأولى دون إتفاق . ومازال الخلاف قائماً بهذا الشأن نحو عشرة أشهر حتى إنتهى بتوسطورتبيت الأرمن بتعيين القس داود مطراناً عاماً على مصر ثم إذا إتضح أنه لائق يتقلد البطريركية وسمح عباس باشا الأول بذلك وسيم القس داود سنة ١٨٥٣ م .

ويقول يعقوب نخله رفيله « ومن ذاك الحين أخذ يباشر أعمال البطركخانة ، وكان أول عمل باشره بناء مدرسة وهى أول مدرسة أقيمت لتعليم شبان الأقباط ... فكان بناؤها موجباً لإجماع الجميع على إختياره ليلة الأحد ١١ بؤونة ١٥٧٠ ش (١٨٥٤ م ولقب كيرلس الرابع . وما زالت التزكية التى قدمها جمهور الناخبين من أساقفة وأراخنة ترشحه لمنصب البطريركية بإسم (القس داود)

بمكتبة المتحف القبطى ونتبين فيها أسماء عشرة أساقفة وثلاثة رؤساء أديرة .

أن رسامة البابا كيرلس الرابع إنما كانت رسامة أسقف للأسكندرية ورئيساً للكنيسة إذ لا تصلح رسامة مطران فى غيبة البطريرك ، حتى أنه فى القرن الثالث عشر قبيل إنتخاب كيرلس الثالث الملقب بإبن لقلق ، خلا الكرسى البطريركي أكثر من تسعة عشرة سنة ، ولم يتبق من الأساقفة أحياء سوى إثنين فقط وهما اللذان قاما برسامة كيرلس الثالث ، ومع ذلك لم يجرؤ أحد على رسامة أساقفة إذ لا يمكن أن يقام أسقف إلا بحضور البطريرك أو بأمره . فرسامة كيرلس الرابع هى إذن رسامة رئيس الكنيسة مباشرة ، أما تسمية الرتبة فقد كانت وسيلة لتهدئة خاطر الوالى .

وتقول المسز بوتشر فى مؤلفها (تاريخ الأمة القبطية) مستغربة « ولكن كانت مواد هذا التحكيم الغريبة غير أصولية بالمرة ، لأنه طبقاً لمواد القوانين الكنائيسية القبطية ، لا يجوز تحليل أو تأويل تلك المواد ، التى منها عدم جواز إنتخاب أسقف لوظيفة البطريركية » .

ويقول المرحوم ميخائيل بك شاروبيم فى الجزء الرابع من تاريخه (الكافى) « وولوه مطراناً على كرسى مصر ووكيلاً للكرسى البطريركى ، ورسم عباس باشا فى ملخ شعبان من سنة ١٢٧٠ هـ بولايته للبطريركية ، فلما كان تاسع رمضان بايعه الأساقفة فى أبهة ... » .

كذلك ورد فى كتاب سلسلة تاريخ البطاركة ص ١٩٧ الحلقة الخامسة (مطبوعات دير السريان) ، « لم يكن أسقفاً مثل باقى الأساقفة ، إذ كانت له صفة العمومية ، كان مسئولاً عن الكرازة كلها كما يتضح ذلك من منشوراته الرعوية ومشروعاته العامة ، كما يتضح أيضاً من تصريح الخديو الذى وافق على أن يكون أنبا كيرلس مطراناً على طائفة الأقباط ، أى على الشعب القبطى كله وقد وضحها أيضاً بقوله « يدير أشغال البطركخانة » .

فهل يوجد فى الكنيسة الآن أسقف عام بهذا المفهوم ؟

المصادر :

— بوارق الإصلاح ٦ (الجزء الأول) لجرجس فيلوثاؤس عوض .
— بوارق الإصلاح ٦ لجرجس فيلوثاؤس عوض (طريق الإصلاح المنشود) .
— بوارق الإصلاح ٧ كيفية إنتخاب البطريرك ونائبه لجرجس فيلوثاؤس عوض .
— إبن كبر لجرجس فيلوثاؤس عوض .
— التراث الكنسى القبطى — فى إختيار الجالس على كرسى القديس مرقس للدكتور وليم سليمان .
— خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر ، الحلقة الثانية ، للجنة التاريخ القبطى .
— عثرة الكنيسة القبطية فى القرن العشرين لجرجس فيلوثاؤس عوض .

(كتب للنشر فى الموسوعة القبطية)



الفصل الخامس

انتخاب البطريرك

السيد المحترم الاستاذ جندى عبد الملك

تحية واحتراماً ، وبعد لعله من يمن الطالع ، ومن علامات الساعة ــ ساعة الاستيقاظ ــ أن وضعتكم العناية الألهية فى مركز تستطيعون فيه أن تخدموا القبط بما أوتيتم من صفات ومواهب ، استطاع الكثيرون من أمثالى أن يتبينوها فيكم فى زيارتكم الأخيرة للإسكندرية فى عطلة عيد الفطر المبارك ، مما شجعنى على أن أقوم بمجهود أخير فى سبيل قانون من قوانين الكنيسة ، كان فى رأيى من أهم أسباب تماسكها وبقائها إلى الآن ، أو بعبارة أصح إلى نحو ثلاثين عاما مضت ، ألا وهو مبدأ إنتخاب البطاركة من الرهبان دون سواهم. ولقد تعرضتم لهذا المبدأ فى قانون إنتخاب البطريرك الأخير الذى وضعته اللجنة المستقلة ، وأقرت بأنه كان القاعدة ، وإعترفت بأن مبدأ انتخاب المطارنة أخيرا هو خروج على ما جرت عليه طوال الأجيال ، ولكن رغم كل ذلك رأت جواز إنتخاب مطران ضمن المرشحين (لما يقتضى الأمر فى عصرنا هذا من الدربة والدراية) أو ما فى حكم ذلك القول . لقدخانها التوفيق حقا ، وكأننا لم يكفنا ما جربناه من المطارنة الذين إنتخُبوا بطاركة ، وما نحن فيه من هوان وما إنحدرنا إليه من جراء هذا المبدأ .

وإنى أود أن أحيطكم علما أن أسلافنا لم يفوتهم ضرورة أن يكون البطريرك على بينة من الأحوال السائدة فى زمانه وما يحيط بكنيسته عند إنتخابه ، وكان علاجهم لذلك أن ينتقى البطاركة شابا أو أكثر من الذين يتوسمون فيهم القداسة والمعرفة وبعد النظر ، فيجعلونه مقربا إليهم ويضفون عليه ــ مع التبتل ــ رتبة الشماسية . فإذا ما تنيح البطريرك كانت صفات ومواهب مثل هؤلاء الشبان قد ظهرت للعيان ، فيجمعون على إنتخابه فلا تتبلبل الأفكار ولا تتشتت الجهود . وأنت اذ تقرأ تاريخ البطاركة الذين خلدوا ذكرهم على الدهر تجدهم من هذا الصنف . فأثناسيوس الرسولى كان رئيس شمامسة البابا الكسندروس وديوسقورس كان رئيس شمامسة البابا كيرلس الكبير وهكذا .

وفى العصر الحديث كان البطاركة ينتقون رهبانا من الاديرة مشهودا لهم بالكفاءة والقداسة إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر . فالانبا بطرس الجاولى إنتقى القمص داود رئيس دير القديس انطونيوس الذى ظهرت مواهبه منذ دخوله الدير ، وقربه إليه وكان يعهد اليه بمهام كان أبرزها الذهاب إلى الحبشة لإصلاح ذات البين بين الامبراطور والمطران فى ذلك الوقت . وقد إنتخبه الشعب عند نياحة الأنبا بطرس فكان ابرز من تولوا منصب البطريركية فى عصرنا الحديث ولقبهالشعب « بأبى الاصلاح القبطى » .

فيا حبذا لو أنك سعيت لحذف جواز ترشيح مطران لمنصب البطريركية ، إذن لحفظ لك تاريخ الكنيسة تلك اليد ، وأن تستعيض عنه بانتخاب شاب أو أكثر من أولئك الشبان الذين يملئون رحاب دير السريان والذين يحملون أسمى الشهادات الجامعية واللاهوتية والذين تزينهم القداسة ، فترسلوهم إلى الدار البطريركية ليعاونوا فى تصريف الأمور ، وفى معرفة الأحوال والرجال الذين يعملون فى ميدان الكنيسة من كهنوت وعلمانيين ، حتى اذا جاء وقت الإنتخاب قدمتم للأمة أهم ما تحتاج إليه للسير قدما فى ركب الاصلاح ، قدمتم لها الرأس المدبرة الحكيمة البعيدة النظر ، التى تجعل منها القداسة ملاكا يجلس على الكرسى المرقسى ، فتضعون بذلك أساس الاصلاح ، وتصفون العلاج الشافى لحالة عدم الإستقرار والإضطراب والتذمر والفوضى التى تسود أحوالنا .

جربوا زيارة لمدة يوم إلى دير السريان ، وتمتعوا بالوجود بين إخوتكم الرهبان الذين تركوا كل ما ينتظرهم من مستقبل باهر ومن مجد عالمى ، فى سبيل أن يتمكنوا من خدمة كنيستهم ، سواء عن طريق الصلاة والتأمل كما هو جارى الآن ، أو عن طريق العمل فى حقلها اذا دعاهم يوما داعى الواجب فأستجابواله ، إذن لاقتنعتم بوجوب اخراج تلك الكنوز إلى ضوء الشمس ليراها الناس ، فيتجدد فى نفوسهم الرجاء فى نهضة الكنيسة وفى إقالتها من كبوتها ، واذا أنت استطعت أن تُدخل الرجاء فى نفوس كثيرة إستولى عليها اليأس ، فان ثوابك لعظيم عند رب النفوس والارواح .

إخذفوا جواز إنتخاب مطران لمنصب البطريركية فتشيعوا السلام بين المطارنة ، وتجعلوا كلا منهم ينصرف إلى العناية بايبارشيته ، وينصرف رؤساء الأديرة إلى العناية برهبانهم فيجعلوهم أمثلة حية للحياة والمبادىء المسيحية .

وأن الزمان ليجود علينا بميزة انقطعت منذ العصر الذهبى للكنيسة ، وهى ميزة وجود شباب مثقف تزينه القداسة فى الأديرة ، فإنتهزوا هذه الفرصة وثبتوا تقاليد الكنيسة وارجعوا إلى الحق ، ان الرجوع إلى الحق فضيلة .

دعكم من العلاجات الوقتية والمسكنات ، وإرجعوا إلى التقاليد التى وضعها أباؤنا وأجدادنا عن بينة وتجارب ووزن صحيح دقيق للظروف ومقتضيات الحال ، وأن حذف مبدأ ترشيح مطران للكرسى البطريركى لأجدى على الأمة وأبقى ، من مجلس بطريركى مثلا ، الذى وان كان ضروريا فى ظروفنا هذه ، إلا أنه لا يعدو أن يكون من المسكنات ، على أن يقترن مبدأ الحذف بضرورة العمل على الإتيان ببعض الرهبان الذين يعملون على أن يُرجعوا للكنيسة مجدها القديم ، عن طريق خدمتها الخدمة الصحيحة ، ليكونوا بالبطريركية كمعاونين للبطريرك تحت رآسة مطران ثبت زهده فى الكرسى البطريركى وله مكانة خاصة بين الجميع مثل الأنبا اثناسيوس مطران بنى سويف .

وفقكم الله إلى اتخاذ هذه الخطوة الهامة البعيدة الأثر ،

وتفضلوا بقبول وافر الاحـــترام ،،

الاسكندرية فى ٢٧ من مايو سنة ١٩٥٥

المخلص

دكتور منير شكرى

استاذ تاريخ القديسين

بالكلية الاكليريكية بالاسكندرية

الفصل السادس

مشكلة إنتخاب البطريرك

عندما وضعت اللجنة المستقلة قانون انتخاب البطريرك ، تمثل أمام عينيها ولاشك ذلك الجهد المضنى الذى قامت به لجنة من المجلس الملى العام فى الطواف بالاديرة لاختيار الرهبان الذين يصلحون للترشيح لذلك المنصب الجليل ، ورجوعها فى آخر الأمر ، وقد اتفق أعضاؤها على عدم عثورهم على ضالتهم المنشودة ، وكان أهم سبب لذلك هو الجهل الذى كان متفشيا فى الاديرة فى ذاك الوقت ، أما الاقلية الضئيلة التى كانت على شىء من العلم فكانت على نقص بيِّن من الناحية الروحية .

وتمثل بعد ذلك أمام اللجنة ما يجب أن يحيط به المرشح لهذا الكرسى من الدراية والعلم ببعض شئون العالم والبيئة ، ولذلك لم تجد مناصا ، بعد أن قدمت لما تريد أن تصل اليه بسلسلة طويلة من الاعتذارات ، شأن الذى يروم أن يقر استثناء له ، من ان **تجيز ترشيح مطران للكرسى البطريركى .**

وأحب أن أقرر أن الكنيسة القبطية لم يفتها فى جميع الاجيال التدقيق فى انتخاب البطريرك من حيث كفاءته العلمية من الناحيتين الروحية والدنيوية ، ولذلك كانت فى أيام العصر الذهبى لمدرسة الاسكندرية المسيحية تنتخب البطريرك من أئمة هذه المدرسة ، حتى كان شبه تقليد فى ذاك الوقت .

وأما بعد ذلك فكانت عادة البطاركة أن يقربوا اليهم واحدا أو أكثر من الشبان الاتقياء الأذكياء المتعلمين الحائزين لاحدى رتب الكنيسة الصغرى ، فيلمون بكل ما يحيط بهم من مشاكل ، ويكونون بمثابة سكرتيرين ومستشارين ، فاذا ما تولوا البطريركية كانوا فى بعض الاحيان على صغر سنهم يعرفون كيف يجابهون ما يعترضهم من مشاكل عويصة وامثال ذلك اثناسيوس وكيرلس الكبير وديوسقورس وهم الذين وضعوا أسس الإيمان كما يعرفها العالم اليوم .

وعندما اقبلت عصور المماليك المظلمة ضاع هذا التقليد مع ما أهمل من تقاليد أخرى وبدأنا نتخبط فى انتخاب البطريرك .

وفى القرن التاسع عشر أحيا الأنبا بطرس الجاولى هذا التقليد عندما قرب اليه القمص داود رئيس دير انبا انطونيوس . فاوكل اليه القيام ببعض المهام ، وارسله قبيل نياحته الى الحبشة ليصلح بين الامبراطور والمطران فى ذاك الوقت .

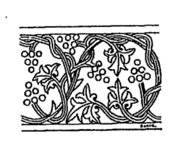
ولذلك عندما انتخبه الشعب بعد نياحة سلفه باسم الانبا كيرلس الرابع قام باعمال إصلاحية لفت اليه بها أنظار الشرق أجمع واستحق من أجلها لقب أبى الاصلاح القبطى .

وكلى أمل فى أعضاء المجلس الملى العام ان يتكاتفوا فى محو هذا الاستثناء الذى أوجد منذ عام ١٩٢٨ جرحا أليما فى جسم الامة مازالت تئن منه ويهدد مستقبلها تهديدا خطيرا .

وأن يستعيضوا عنه باستدعاء بعض الرهبان العلماء فى علوم الدين والدنيا الذين يملأون قلالى دير السريان فى هذه الأيام والذين هم فى موضعهم الحالى بمثابة كنوز مدفونة وان يوكلوا اليهم مهمة تلميذ البطريرك والسكرتير المدنى والسكرتير الروحى فيملأوا دار البطريركية بملائكة أطهار وبرؤوس مفكرة مدبرة ، تلم مع الزمن بجميع مشاكلنا وتتعرف على كل من يمت الى تلك الدار بصلة حتى اذا جاء اليوم الموعود عرف الشعب من ينتخب وعرف من تولى البطريركية انواع الرجال الذين يحيطون به فيضع كلا منهم فى مكانه .

ان من يتصفح تاريخنا يجد فيه حلولا لجميع مشاكلنا لكثرة ما مر بنا من تجارب .

(جريدة مصر فى ١٢ /٧ /١٩٥٥ م)



الفصل السابع

وضع اليد
فى المسيحية عامة
وفى كنيسة الإسكندرية خاصة

هو تكريس كل من توظف فى الوظائف الدينية من الرئيس إلى المرؤوس ، وهذا التقليد يمارس بغاية الدقة عند القبط منذ إنشاء كنيستهم على يد القديس مرقس الإنجيلى ، فكان القسوس يختارون من بينهم من يجعلونه رئيساً عليهم ، ثم كما سلهم القديس مرقس كانوا يعملون عمل الرسل فى انتخاب بدل من نقص منهم ثم يضعون أيديهم عليه عند رسامته ، على أن يكون له من الصفات ما يجعله فى مصاف الرعاة . وبعد ذلك حصروا وضع اليد فى الأساقفة ومنعوا القسوس منها . وأستمر ذلك التقليد فى الكنيسة .

وفى الربع الأول من القرن العشرين ، رأى المجمع المقدس عندما إنتخب الأنبا يؤانس مطران البحيرة والمنوفية ليكون بطريركاً ، أن يوفد الأنبا لوكاس مطران قنا فى ذاك الوقت ومعه فرنسيس العتر إلى المتحف القبطى ليطلعا على كتاب التكريز الخاص بالبطاركة الموجود بخط اليد ويستخرجان منه برنامجا لحفلة والتكريز ويسرعان فى طبعه قبل الحفلة فقاما بعملهما. وفات المجمع المقدس أنه وقد رسم أسقفا فإنه لا يجوز أن يضعوا عليه اليد مرة ثانية ، وأن الكنيسة وقد درجت على إنتخاب البطريرك إلى ذاك الوقت ممن لهم بعض مراتب المذبح فقط، فإن هذا الكتاب موضوع لرسامة البطاركة الذين يأخذونهم من درجة القسوسية فقط لأنه لا يجوز عند القبط ولا السريان الأرثوذكس أن يرقى أحد من الأسقفية إلى البطريركية ، وأن وضع اليد لا يتكرر كالمعمودية ، وإلا عد القابل والمقبول مقطوعين لأنهما قد أصبحا كافرين بنعمة الروح القدس .

وكان البحث دائرا من قبل على هذه النقطة وهو : هل يصح وضع اليد عليه مرة ثانية ؟ وقد وضعوا اليد عليه كما يضعونها على المبتدىء ، وبين الذين وضعوا اليد عليه ، من كان هو من واضعى اليد عليهم عند تسقيفهم أى من كانوا يعدون أولاده قد صار هو ابنا لهم بوضع يدهم عليه . وكان ذلك مخالفا للقانون المجمع عليه فى عموم الكنائس المسيحية لما يأتى :

(أولا) قانون القبط صريح العبارة لا يقبل تأويلا فقد أبان فى الباب الرابع الخاص بالبطاركة « وأكثر ما ورد للأسقف يلزم البطريرك لأنه يسمى فى بعض القوانين الأسقف الكبير ورئيس الأساقفة » . (مج ٤ : ١) ، ويقول القانون السادس من قوانين مجمع نيقية « تحفظ السنن القديمة فى مصر وليبيا وبندابوليس (الخمس مدن) فى أن أسقف الاسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها لأنه الحاكم عليها جميعاً » ، ويقول القانون الكنسى أيضاً فى نهاية الباب الرابع « وتتمة الكلام فى البطريرك من شروط إقامته ونحو ذلك ورد فى القوانين بإسم الأسقف لأنه أسقف مدينة كرسيه ، ولذلك لا يعمل بطرك كرسى الاسكندرية أسقفاً للإسكندرية » (مج ٤ : ٣٧) ويقول فى الباب الخامس « أى أسقف أو بطريرك أو مطران لأن السبيل فيهم واحدة .. » (مج ٥ : ٣٤) فإذن الأسقف هو البطريرك وقد وضعت عليه يد الأسقفية قبلا . ويقول القانون « أى **أسقف أو قسيس أو شماس نال قسمتين فليقطع هو والذى قسمه إلا أن يظهر** أنه أقسم من جهة هراطيق » (مج ٥ : ٧٥) ويقابله عند الروم « أيما أسقف أو قسيس أو شماس قبل شرطونية ثانية من أحد فليقطع هو والذى شرطنه ، ما خلا إذا ثبت أن شرطونيته الأولى كانت من هراطقة لأن الذين تعمدوا أو شرطنوا من مثل هؤلاء لا يمكن أن يكونوا مؤمنين ولا كليروسية » (قانون الرسل ٦٨) .

وقد جاء هذا القانون فى نسخة قبطية كانت باللهجة الصعيدية ثم كتبت بالبحيرية وتوجد منها نسخ فى كل الأديرة وكذلك فى مكتبة الدار البطريركية . وقد قام العلامة الأسقف الإنجليزى تتم Tattam فطبع هذا الكتاب أى قانون الرسل باللغة القبطية البحيرية وترجمه إلى الإنجليزية ترجمة صحيحة كالعربية الموجودة فى مكتبة الدار البطريركية بالقاهرة ، وقد طبعه فى لندن عام ١٩٤٨ م ونص القانون قبطياً وإنجليزياً .

68. If presbyter, or deacon, shall receive a second ordination; let him be deposed, he, and the person who ordained him, unless the thing is evident that he was ordained by the heretics. For it is not possible that those who have been baptised or ordained by them can ever be faithful men, or clergymen,

وقد أثار وضع اليد هذا على الأنبا يؤانس التاسع عشر أثار انتقادا شديدا لمخالفتنا القانون والكتاب المقدس لأن الرسامة لا تعاد كالمعمودية ، وفى تاريخ البابا بطرس خاتم الشهداء أن امرأة كانت مع ولديها فى مركب ، وعندما رأت أن المركب كادت تغرق فى وقت ما عمدت ولديها بنفسها ولما نجت وأتت إلى البابا إعتمد تعميدها وإكتفى بمنحهما البركة .

ومن المؤسف أن نسمع عند القبط نغمة غريبة فى هذه الأيام « إن الذين وضعوا القوانين ناس ونحن ناس مثلهم » ، وهذا خطأ بيّن لأن هذا النظام مستمد من الكتاب المقدس فى عهد الرسل أنفسهم ، ولا يمكن حتى لمجمع أن يحله لأنه لم يكن قد سنه مجمع حتى يحله آخر ، هذا فضلاً عن أن الكتاب المقدس يؤيد هذا المبدأ للإحتفاظ بموهبة الروح القدس وعدم التفريط فيها أو خلعها .

ومن المؤسف حقاً أن برنامج الحفلة المطبوع كان فيه ذكر وضع اليد ، كما جاء ذلك أيضاً فى وصف الحفلة فى الصحف السيارة فى ذاك الوقت .

(ثانياً) عند الروم ــ كما عند القبط والكنائس المسيحية عامة ، وقد جاء فى كتاب (الأنوار فى الأسرار) تأليف العلامة جراسيموس مسرةاللاذقى : « ثم إن سر الكهنوت حينما يناله الأساقفة والكهنة والشمامسة بحسب درجاتهم يرسم فى نفس كل واحد منهم رسما من النعمة الإلهية لا يمحى أثره ، ومن ثم لا ينال أحد منهم شرطونية ثانية للرتبة الكهنوتية الواحدة أى أن سر الكهنوت لا يعاد ، فالحقيقة الأولى من هاتين الحقيقتين قد علمها بولس الرسول حيث ذكر مرتين لتلميذه الأسقف تيموثاوس عن النعمة التى أوتيها بوضع الأيدى (١ تى ٤ : ١٤ و ٢ تى ١ : ٦) . وأما الحقيقة الثانية فمذكورة فى القانون الثامن والستين للرسل القائل « وكل أسقف أو كاهن أو شماس ينال شرطونية ثانية من أحد يقطع هو والذى شرطنه » وفى القانون الخامس والثلاثين لمجمع قرطاجنة (وهو المجمع الذى عقد حوالى عام ٤٢٧ م فى عصر الإمبراطور تيودوسيوس الصغير أى قبل عصر الإنشقاق وبذلك تعترف به الكنيسة القبطية) ، والقانون السابع والخمسين له أيضاً القائل « **لا تسمح إعادة المعمودية وإعادة الشرطونية أو نقل الأساقفة** » ، (ويلاحظ هنا أنه قد وضع

الحرم على نقل الأساقفة فى مستوى إعادة الشرطونية والمعمودية) ، وبالإجمال إن الكنيسة قد إعتبرت عدم إعادة المعمودية والشرطونية قانونياً لا يخالف فى ظرف من الظروف ، غير أنه يشترط فيهما أن تكونا قد تمتا قانونيا ، وهكذا تفعل اليوم فإنها لا تعيد شرطونية الراجعين إلى الأرثوذكسية من الأكليروس إذا كانت قانونية . وقد حكم قديما مجمع فى رومية (قبل الإنشقاق) على دوناتوس لإعادة شرطونية الذين سقطوا حين الإضطهادات من الأساقفة والكهنة إذ خالف نواميس الكنيسة الجامعة ، والقديس باسيليوس الكبير وبخ أوسطاتيوس أسقف سبسطية لإعادة الشرطونية . أما الشرطونيات غير القانونية وغير المشروعة المقامة من الهراطقة فلم تعرفها الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة . فكانت تشرطن الأكليروسيين الذين كانوا يأتون إليها منهم بعد أن تفحصهم وتجدهم أهلا للكهنوت (قانون ١٩ للمجمع المسكونى الأول و ٤ للثانى و ٥ للثالث و ٨ لمجمع اللاذقية) وهكذا سلكت مع أتباع أريوس وباليكيوس وبالإجمال مع جميع الذين سيموا من أساقفة كذبة ولم يقاموا فى الكنيسة إقامة قانونية (قانون ٤ للمجمع الثانى المسكونى) . وهى لم تزل على هذا السلوك إلى الآن مع أكثر الخارجين عنها وعلى الخصوص مع البروتستانت . وهنا نقول ما قلناه عن تعميد الهراطقة أيضاً وهو أن شرطونية أكليروسهم ليست إعادة شرطونية بل هى الشرطونية الحقيقية إذ أن الشرطونية التى نالوها ليست فعلية ولا حقيقية بل هى بالإسم شرطونية ليس إلا » . (الأنوار فى الأسرار . الكتاب السابع فى سر الكهنوت الفصل الثانى ــ المطبعة اللبنانية فى بيروت سنة ١٨٨٨) .

فالروم الأرثوذكس أيضاً لا يمكن أن يعيدوا وضع اليد لأنها ثابتة لا يمحى أثرها كلية لقول مبشر الأمم لتلميذه تيموثاوس « لا تهمل الموهبة التى هى فيك التى أوتيتها عن نبوة بوضع أيدى الكهنة عليك » (١ تى ٤ : ١٤) ــ وقوله أيضاً « فلهذا السبب أذكرك أن تذكى موهبة الله التى فيك بوضع يدى » . (٢ تى ١ : ٦) . فكأنه كان يتنبأ عن أن الأكليروس دائماً ميالون إلى عدم الإهتمام بالمحافظة على هذه الموهبة التى وهبت لهم مجاناً بوضع اليد ، ويريدون نبذها ليكونوا فى حال أرقى فيقعون فى وهدة لا يقومون منها ، أو لأن الوظيفة

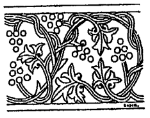
صارت قديمة فيريد بعضهم أن يخلعها عنه ويلبس غيرها جديدة فيقع فى هدة لا يمكن القيام منها .

وقد أبدى ممثلو الطوائف الذين كانوا حاضرين حفلة الرسامة يومذاك إستغرابهم حدوث هذا الحادث الذى دل على جهل تام بالقوانين وعدم إحترام الكتاب المقدس .

(ثالثاً) عند السريان : كما عند القبط ، لأنهم قد إتبعوا القانون الذى حافظ عليه المصريون ، وهم السريان الأرثوذكس الذين إنضموا إلى القبط منذ المجمع المسكونى الرابع ، والذين يدعوهم بعض المؤرخين باليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعى .

(رابعاً) السريان الكاثوليك كذلك لا يكررون وضع اليد عند ترقية أحد أساقفتهم إلى رتبة البطريركية . وكذلك جميع الكاثوليك لم يسمع بأنهم أعادوا وضع اليد على أسقف رق إلى رتبة البابوية ، كما عمل عندنا عن جهل ، ومما زاد الطينة بلة فى ذاك الوقت أن المطران الذى إهتم بترتيب البرنامج قال (إذا كنا نضع أيدينا على القمص فمن باب أولى نضعها على البطريرك) — وهذا كلام فى غاية الغرابة لأن القمصية لم تكن بدرجة كهنوتية بل هى وظيفة إدارية بحتة أى مدبر أو رئيس للدير ، فى أصل استعمالها ، كالأرشمندريت (رئيس المتوحدين) ، ولكنها صارت فى الكنائس للرئاسة ثم أتخذت بعد ذلك لقب شرف للقساوسة ، فالقسيس والقمص عملهما واحد ولا فرق بينهما إلا فى الرئاسة والمرؤوسية ، فوضع اليد على القمص خطأ بحت .

ملحوظة : هذا المقال منقول بتصرف عن بحث كان قد كتبه المرحوم المؤرخ جرجس فلوثاؤس عوض بمناسبة رسامة الأنبا يؤانس للبطريركية (عثرة الكنيسة القبطية فى القرن العشرين ، طبع سنة ١٩٣٠ م) ، والرب يحافظ على كنيسته .



الفصل الثامن

كيف يقام
بابا الاسكندرية
وبطريرك الكرازة المرقسية

امتازت مصر على سائر الأقطار التى دخلتها المسيحية بوجود ذلك الشعب العريق بها الذى كان لأبائه فضل وضع أسس المدنية فى العالم . وكانت الاسكندرية فى وقت مجيء القديس مرقس الإنجيلى لينشر شريعة الحق والكمال عاصمة العالم الفكرى ، تموج بالفلاسفة والمفكرين والعلماء ، فكان الجو إذن مهيأ لينظم القديس مرقس الهيكل الإدارى والروحى للكنيسة منذ بدء بشارته ، فكانت أول كنيسة لها نظام كهنوتى منذ نشأتها وعنها أخذ غيرها من الكنائس . وفى ذلك يخبرنا الشيخ المؤتمن أبو المكارم جرجس بن مسعود فيقول « وصير مرقس هذا مع حنانيا إثنى عشر قسيسا وأمرهم أنه إذا مات بطريرك أن يختاروا واحدا من الإثنى عشر قسيسا ويضع القسيسون الباقون الأحد عشر أيديهم على رأسه ويباركونه ويقيمونه بطريركا ، ثم يختارون رجلا فاضلا عالما فيصيرونه معهم بدل الذى صيروه بطريركا ليكونوا اثنى عشر قسيسا أبدا ، ولم يزل القسوس على رسمهم بمدينة الاسكندرية يقيمون البطاركة إلى وقت الألكسندوس بطريرك الاسكندرية الذى كان من جملة الثلاثمائة وثمانية عشر (الذين اجتمعوا فى مجمع نيقية المسكونى الأول) ، فإنه منع أن يصلح القساوسة البطريرك وأمر أنه إذا مات البطريرك أن يجتمع الأساقفة ويصلحوا البطريرك ممن أختير وأن يكون فاضلا عالما ، واسم البطريرك « بابا » وتفسير اللفظ « الجدود » . وقال أبو صالح الأرمنى « وأول من قسم أساقفة على بلاد مصر وأعمالها ديمتريوس البطريرك وهو فى العدد الثانى عشر . »

وأما سعيد بن بطريق الطبيب ، الذى يعرف أيضا باسم أفتيخوس بطريرك الملكيين فى مصر ، والمؤرخ المعروف فى القرن العاشر ، فبعد أن ذكر عبارة أبى المكارم تقريبا قال « فأما لَمَ سمىّ بطريرك الاسكندرية « بابا » ، ومعنى بابا الجد ، فإن من حنانيا الذى أصلحه مرقس البشير بطريركا إلى وقت ديمتريوس بطريرك الاسكندرية لم يكن فى مصر أسقف ، ولم يكن البطاركة الذين يصلحون أساقفة ،

فلما صار ديمتريوس بطريركاً أصلح ثلاثة أساقفة ، وهو أول بطريرك بالاسكندرية عمل أساقفة . ولما صار ياروكلاس بعده بطركا على الاسكندرية أصلح عشرين أسقفا . فواحد من هؤلاء الأساقفة خالف الشريعة فاتصل خبره بياروكلاس البطريرك فجمع جماعة من الأساقفة وسار إليه وكشف عن مقالته ، ورده إلى الحق فسمع العامة الأساقفة يدعون البطريرك « أبا » فقالوا : نحن نسمى الأسقف « أبا » ، والأسقف يسمى البطريرك « أبا » فيجب علينا نحن أن نسمى البطريرك « بابا » أى الجد إذ كان أبا لأبينا الأسقف ، فسمى بطريرك الاسكندرية من عهد ياروكلاس البطريرك بابا . »

هذا الترتيب كان معروفا منذ القدم ، ولذلك عندما انعقد مجمع نيقية عام ٣٢٥ م للنظر فى بدعة أريوس ، وكان هناك بعض أمور تختص بأنظمة الكنائس والكهنوت يجب أن توضع لها حدود لأجل أن يعترف بها من الجميع ، نقرأ فى القانون السادس لهذا المجمع المقدس « تحفظ السنن القديمة فى مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية فى أن أسقف الاسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها لأنه الحاكم عليها جميعا . »

حافظ القبط على تقليدهم هذا ، وعلى قرار مجمع نيقية حتى العشرينات من هذا القرن عندما قام أسقف البحيرة والغربية وتلاه مقلدين أسقف أسيوط ثم جرجا وكان لسان حالهم يقول « وإيه يعنى التقليد وإيه يعنى مجمع نيقية ؟ لماذا لا يكون أسقف البحيرة أو أسيوط أو جرجا هو الذى له السلطان على هذه كلها ؟ » ، وفاتهم أن هذا القانون وضع ليضع حدا لأسقف أسيوط ملاتيوس الذى قام فى أوائل القرن الرابع يقول هذا القول . ولكنهم تجنبوا الصدام بأن تركوا كرسى القديس مرقس خاليا طوال بطريركيتهم ، ولا يستطيعون القول بأنهم كانوا جالسين على كرسى القديس مرقس ، لأن القانون الكنسى كما جاء فى المجموع الصفوى فى الباب الخامس يقول « لا يحول أسقف من البلدة والكورة التى صار عليها أسقف إلى غيرها ... فإن هذا غير جائز وإنما لكل إنسان قسمته من الله . » (مج ٥ : ٥٥) . ونقرأ فى تاريخ الأنبا مينا البابا السابع والأربعين « إن الموت والحريق لى أجود مما أخالف ما قد أحرمت بخطى أن أسقفا يصير بطريركا . » إن القبط على مدى تسعة عشر قرنا لم ينقلوا أسقفا (أو مطرانا أو

جاثليقا) إلى رتبة بطريرك ، لأن القانون الخامس عشر من قوانين مجمع نيقية المسكونى المقدس الذى ظل أثناسيوس الرسول يدافع عن قوانينه وقراراته طوال حياته حتى لقب بطل مجمع نيقية ، يمنع أن ينتقل أسقف من كرسيه إلى كرسى آخر .

أما القانون الذى تمسكت به الكنيسة القبطية واعتبرته نبعا لذلك فهو الذى ذكره الصفى بن العسال فى الباب الخامس من المجموع الصفوى فيشترط فيمن يجلس على كرسى القديس مرقس ، أسقف مدينة الإسكندرية ، ورئيس أساقفة الكرازة المرقسية « أن يكون راهبا أو ممن له بعض مراتب المذبح ، ولا يصلح علمانيا إلا بعد ضرورة وبعد أن يشرط على نفسه حفظ القوانين ، وهذا ما ورد فى قوانين أثناسيوس بطريرك القسطنطينية وهو مستقر فى بيعتنا، أعنى أن يكون راهبا أو كاهنا . » (مج ٥ : ٥) ، فنرى أنه ذكر أن يكون علمانيا إذا لم يوجد الراهب الجدير ولكن لم يذكر إجازة نقل أسقف ، لأنه كان من البديهيات أن من يكرس على كرسى من الأساقفة صار وقفا عليه إلى أن يموت . ثم قال « أن يكون برضاء الشعب ... الذى يقام عليهم ويزكى من جماعة إن كان له سيرة حسنة لا مفترولا مرآء ... ويقدر أن يفسر الكتب . » .

فالإنتخاب للشعب وما على الأسقف سوى وضع اليد والاشتراك فقط . ولقد جرت على ذلك الكنيسة فى كل أيامها الأولى ، وقد أوضح ذلك الصفى بن العسال فى المجموع الصفوى ، وكذلك أخوه فى كتابه « أصول الدين ومسموع محصول اليقين» ، وكلاهما عاش منذ سبعة قرون ، وكذلك ذلك الفيلسوف القبطى القدير المطلع على علوم المتقدمين فى الكنيسة والذى عاش فى القرن الرابع عشر شمس الرياسة المعروف بابن كبر قسيس كنيسة المعلقة بمصر القديمة المتنيح عام ١٣٢٣ م . فقد قال ما فصله سابقوه مجملا فى كتابه « مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة » : « أن يكون انتخابه باتفاق أهل الاختيار من أعيان رؤساء الأراخنة الفضلاء الأخيار . » ثم يقول فى المرشحين « ويكون المختار ممن يرضاه أكثر أهل طائفته ... بعد علم المختارين له باشتماله على أقسام الأهلية المنصوص عليها ... وإذا ما عينت جماعة لهم بهذه المزية أمعن النظر فى الترجيح ، واختير منهم من يميز الأمتياز الصحيح من المساوين فى الحال ، المتماثلين فى الفعال ،

وعملت لهم قرعة بأسمائهم ثم توضع فى هيكل الرب فى أول قداس ، وعند فراغه ترفع منها ورقة واحدة على يد صبى طاهر أو قديس ماهر ، ممن يكون حاضرا فى الوقت الحاضر ... وليس للأساقفة إلا التكريز ، وأما التعيين فهو للأراخنة المعتبرين، الذين يكونون بأهل الإقليم عارفين . » (مقدمة الباب العاشر فى تقدمة البطاركة .)

غريغوريوس النازنيسى
وكرسى القسطنطينية

ذكرنا فيما سبق ما جاء فى القانون الخامس لمجمع نيقية المسكونى الأول الذى كان لكنيستنا فيه دور رئيسى فى جميع قراراته وقوانينه ، والقانون الخاص بإنتقال الأساقفة من كرسى إلى آخر وتحريم ذلك . وتشاء الصدف بعد خمسة وخمسين عاما أى فى عام ٣٨٠م أن يعين القديس غريغوريوس النازينسى أسقفا على كرسى القسطنطينية بإرادة الإمبراطور تيودوسيوس . وكان قد رسم قبل ذلك أسقفا على كرسى سازيما بأسيا الصغرى ، ثم عمل مع والده أسقف نازينس كمعاون له . وبالرغم من أنه كرس على كرسى سازيما بواسطة القديس باسيليوس الكبير رغما عنه وأنه لم يباشر عمله فى هذا الكرسى مطلقا ، وبأنه لم يكن فى نازينس إلا معاونا لوالده ولكنه لم يكن أبدا أسقفه الأصيل ، وبذلك لا يكون قد إنتقل من كرسى إلى آخر ، بل وفوق ذلك لقد أتوا به من وحدته وليس من كرسى آخر ليكون أسقفا على القسطنطينية ، بالرغم من كل ذلك ، فعندما أتى به تيودوسيوس فى شهر نوفمبر عام ٣٨٠م ودخل به فى وسط إحتفال كبير فى كنيسة القديسة صوفيا ، جلس تيودوسيوس على الكرسى الملكى الذى أعد له ، وأما غريغوريوس فقد دخل إلى شرقية الكنيسة وجلس بجوار كرسى الأسقف ! (يراجع تاريخ الكنيسة القديم للأب دوشين .) . أطاع الإمبراطور بالمجىء إلى كنيسة القسطنطينية ولكن ليس بأسقفها .

ورأى تيودوسيوس أن يحسم هذا الأمر فدعا مجمع مسكونى ليبت فى أمر كرسى القسطنطينية وأجتمع المجمع المسكونى الثانى وحضره البابا تيموثاوس بابا الاسكندرية الثانى والعشرون ، وحضره ١٥٣ أسقفا ورأى هذا المجمع أن كل ما سبق من حجج لا يشفع لغريغوريوس النازينسى، الذى رسم على كرسى آخر قبل

ذلك ، فتنحى غريغوريوس عن طيب خاطر . ونظرا لأن الأريوسية كانت مازالت سائدة فى تلك الأقطار ، فقد عين المجمع رجلا علمانيا شهد له أهالى القسطنطينية يدعى نكتاريوس ، بل تبين لهم بعد الاختيار أنه لم يكن قد تعمد بعد ! فعمدوه . كل ذلك فضله المجمع على تعيين أسقف من كرسى آخر ، حتى ولو كان فى قداسة غريغوريوس النازينسى الذى ذهب بعد ذلك ليعيش متوحدا متعبدا . ولذلك لم يأت الصفى بن العسال بجديد أو بشىء من عندياته عندما ذكر أن قانون كنيستنا يحتم على البطريرك المتخب « أن يكون راهبا أو ممن له بعض مراتب المذبح ولا يصلح علمانيا إلا بعد ضرورة . » ، لأن السوابق فى تاريخ آباء الكنيسة قضت بذلك . وهذا المبدأ حافظت عليه كنيستنا ، طوال عشرين قرنا ، وإذا بنا فى عشرينات هذا القرن ، نعيش فى شقاق ونضال وتأخر فى المحيط الكنسى لأن ثلاثة أساقفة من ثلاثة كراسى أخرى أرادوا اغتصاب حقوق كرسى الاسكندرية وتركه خاليا خاويا ينعى من أسسه ، ولكن كان غريغوريوس النازينسى أعلم منهم وأعرف منهم بنفسه فجلس بجوار الكرسى الذى نقل إليه ولم يدع أنه أسقفه ، وتنحى عنه طواعية واختيارا عندما أسرع المجمع المسكونى الثانى إلى نجدته ، وهو الناطق بالإلهيات الذى نذكر قداسه فى كنيستنا .

يقول البعض أن هناك ثلاثة حالات فى تسعة عشر قرنا من تاريخ كنيستنا حدث فيها نقل للاساقفة ، وبالرجوع إلى تاريخ كنيستنا وجدنا فى تلك المدة ما يأتى :

١ــ ذكروا بأن أسقف فوه فى القرن الثانى عشر نقل إلى الحبشة . وبيان ذلك أن الصليبيين كانوا قد خربوا تلك المدينة ولم يعد فيها أحد ، فأرسله البطريرك إلى هناك إذ لم يجد البطريرك فى ذاك الوقت راهبا لائقا لهذا المنصب يرضى بالذهاب وأشتكى رسل الحبشة من طول مقامهم فى مصر ، وكان هذا الأسقف يدعى كانيل بن الملبس من أهل طوخ موتر من أعمال الغربية وفى عهد الأنبا يؤانس بن أبى المجد بن غالب رابع سبعى البطاركة ، ولم يلبث هذا المطران بعد ذلك أن قطع لاتهامه باستعمال العنف .

٢ــ أما ما يقال عن بطرس الجاولى التاسع بعد المائة من البطاركة . فقد كرز

بطريركا بعد نياحة سلفه الأنبا مرقس بيوم واحد ، وفى قول آخر بثلاثة أيام وكان ذلك عام ١٨٠٧م ، فى وقت وصف القبط فيه بأنهم البقايا الأثرية لأمة ، وهذا الوصف يغنى عن الإطناب، بعد الذى قاسوه تحت حكم المماليك . فلم تكن هناك مواصلات للذهاب إلى الأديرة بسرعة وانتقاء من يصلح ، وكانت البلاد فى عهد انتقال من حكم المماليك إلى حكم محمد على . كتب المتنيح الأيغومانس فيلوثاؤس للمرحوم على باشا مبارك (كما هو مذكور فى الجزء السادس من الخطط التوفيقية) « وفى عهد رياسة سلفه انتخب للمطرانية بقصد تعيينه لبلاد الحبشة ، ولأمر يعلمه الله تأخر تعيينه ، ورسم مطرانا على الكنيسة عموما واستمر فى الدار البطريركية مدة . فلما تنيح مرقس اتفق الجماعة بصوت واحد على إقامته بطريركا ... » ، فهو إذا أول مطران عام بدون كرسى يرقى إلى منصب البطريرك فى عهد كان الجهل والفقر يسود فيه البلاد ، فلا يجب أن يؤخذ قياسا فى القرن العشرين وبعد هذا التقدم الذى ساد البلاد ، وبعد أن تفتحت أعين أبناء الكنيسة على جواهرها ولآلئها .

٣ــ أما الثالث فهو كيرلس الرابع أبو الإصلاح . إن الشعب اختار القمص داود رئيس دير أنبا انطونيوس ليكون بطريرك الكرازة المرقسية ، ولازالت تزكيته معروضة إلى الآن بهذا الإسم فى مكتبة المتحف القبطى ويجدها كل زائر منشورة بين لوحى زجاج . ولكن إرادة فوق إرادة الشعب فى ذاك الوقت تدخلت لإفساد هذه التزكية ، وحدث شقاق بين أفراد الشعب استدعى تدخل بعض رؤساء الطوائف المسيحية الأخرى ، وأخيرا إتفقوا على رسامته ، وطبعا هذه الرسامة تمت إلى التزكية السابقة وإلا لما رسم ، ولكن تحايلا على الظروف القاهرة لقبوه بمطران عام على مصر ، وعندما واتتهم الظروف بعد سنة وشهرين أجلسوه على الكرسى الذى زكى لأجله . لأن وضع اليد كالمعمودية لا يتكرر ، وإلا عد واضع اليد والذى وضعت عليه اليد مقطوعين لأنهما أصبحا كافرين بنعمة الروح القدس .

وكانت حفلة الرسامة تقام فى الاسكندرية مركز الكرسى البابوى الذى سيجلس عليه الأسقف المرسوم خليفة القديس مرقس الإنجيلى . وبعد الحفلة يركب البابا من كنيسة السوتير (وقد اندثرت وكانت عند باب سدره) مع مقدمى القبط وغيرهم فيخترقون المدينة ويصلون فى مواقف معينة ويظلون فى

موكبهم إلى أن يصلوا إلى بيت أولاد السكرى حيث الكنيسة المرقسية الحالية فيكشفوا على رأس مرقس الإنجيلى ويتبارك منه البطريرك ويغير الثياب التى عليه . وظلت هذه العادة إلى عهد بطرس الرابع بعد المائة فى الباباوات الذى يقول عنه التاريخ « ثم توجه إلى الإسكندرية وقبل رأس مرقس ، ولما أراد الرجوع علم أن جماعات بالاسكندرية تكلموا على الرأس فأخفاه فى الدير فى ذلك الوقت . » وكان ذلك فى اغسطس ١٧١٨ م .

وفى الباب الثالث والخمسين من كتاب « أصول الدين ومسموع محصول اليقين » تأليف أبى اسحق بن المفضل المعروف بابن العسال وصف دقيق عما كان يجرى منذ سبعة قرون كما شاهده هذا الكاتب بنفسه فى الاحتفالات التى عملت فى عهده اقتطف منها :

قسمته قمصا على جميع كرسيه :

«لا يخلو من أن يكون له رتبة من مراتب المذبح أو لا يكون . فإن لم يكن فيكرزه أكبر الأساقفة ومن يليه فى الطقس شماسا ثم قسا ثم قمصا بحضور المذكورين أجمعهم . وإن كان له بعض هذه الرتب فينقل فيها إلى أن يصير قمصا . » وفى كتاب الرسامة المطبوع فى روما عن مخطوط عربى قبطى أخذ من الأديرة تاريخه « ١١ إبريل ١٣١٢م» نقرأ فى التركية «... فطلبنا من الثالوث المقدس بقلب نقى وأمانة مستقيمة لكى يكشف لنا من هو كفء لهذه الخدمة وهذه الوساطة لنقدمه على هذه الدرجة التى هى الرياسة ، فبمنحة علوية وفعل الروح القدس واتفاق منا كلنا وطيب قلب واتفاق رأى الجماعة ، فكشف لنا أن ننظر إلى (فلان) الجزيل العبادة لله **القس الراهب الذى للدير البهى** (الفلانى) واصطفيناه لنا رئيس أساقفة على الكرسى الرسولى الذى للقديس الإلهى العجيب مرقس المتكلم بالإلهيات الإنجيلى الذى للمدينة العظمى الاسكندرية وكل كورة مصر ونواحيها ... »

فالأكليروس والشعب مشتركون فى انتخاب الرئيس والشهادة له وأنه لا يقلد إلا باتفاق الجميع معا لأنه لم يكن بطريركا إلا على رعية مكونة من اكليروس وشعب . ويقول الصفى بن العسال فى مجموعه « وتتمة الكلام فى البطرك من

شروط إقامته ونحو ذلك ورد فى القوانين باسم الأسقف لأنه أسقف مدينة كرسيه ولذلك لا يعمل بطرك كرسى الاسكندرية اسقفا للاسكندرية . »

هذه الجملة « لأنه أسقف مدينة كرسيه » فيها كل الحجج اللازمة لعدم جواز نقل أسقف أم مطران إلى كرسى الاسكندرية وبالأحرى نواله ربة البطريركية . فماذا يفعل الأسقف الذى يريد أن ينتقل إلى كرسى الاسكندرية ؟ أيترك كرسيه الذى رسم عليه وشعبه الذى اختاره ؟ طبعا هذا ضد القانون الكنسى وبالتالى فى غير إستطاعته ، أم هل يرسم أسقفا آخر على كرسيه الأصلى ؟ بالتالى غير جائز طوال حياته . إذن يجب أن يرسم أسقفا على الاسكندرية لأن كرسى أسقفها سيترك خاليا فى هذه الحالة ، وهذا لا يستطيعه لأن الذى يجلس على هذا الكرسى هو فى واقع الأمر وبمقتضى القانون الكنسى رئيس أساقفة كنيسة الاسكندرية وهو الوارث الشرعى للقب (بابا) الاسكندرية حسب التقليد الكنسى أمام جميع كنائس العالم . وتكون النتيجة باختصار كما يلى :

(١) كل من يطمع فى تقلد كرسى البطريركية من الأساقفة إنما يترك كرسيه وشعبه الذى أختاره لأجل أن ينال رتبة بطريرك .

(٢) لا يستطيع أن يدعى أنه أسقف مدينة الاسكندرية لأنه لم يرسم على كرسى القديس مرقس ، ولا يستطيع أن يرسم مرة أخرى على هذا الكرسى لأن ذلك محرم فى القانون الكنسى، حروم على من يضع اليد وعلى من يقبل اليد أما مجرد النقل من كرسى إلى اخر فهو محرم بالقانون الكنسى والقانون ١٥ لمجمع نيقية .

(٣) فى هذه الحالة يكون أسقف أى كرسى هو الذى له سلطان على جميع كراسى الكرازة المرقسية وهذا مخالف للقانون السادس لمجمع نيقية المسكونى الأول وأيضا مخالف « للسنن القديمة ». فماذا يكون الحال لو عصى أمره أحد الأساقفة الآخرين ؟

(٤) لا نستطيع أن نضفى على هذا البطريرك فى هذه الحالة لقب «بابا»، هذا اللقب الذى نسيناه فى جملة ما نسينا من قوانيننا وتقاليدنا ، لأن هذا اللقب ينفرد به فقط الأسقف الجالس على كرسى الاسكندرية خليفة القديس

مرقس الإنجيلى . سيصدر المرسوم حاملا هذا اللقب ولكن كنسيا لا يحمل هذا اللقب ، وتكون الكنيسة كنيسة أخرى غير كنيسة الاسكندرية

وكل التقلقل فى محيط الكنيسة لماذا ؟ ألأجل شهرة البطريركية ؟ ولماذا لا ندع قوانين الكنيسة وتقاليدها هى التى تسود فيكون المرشح راهبا له بعض مراتب المذبح ؟ خصوصا فى هذه الأيام التى تعمر فيها أديرتنا برهبان فضلاء متعلمين .

نصل إلى الحديث إن القانون المعمول به الآن صدر فى أثناء غيبة البطريرك ، ولم تسمح الظروف أو يتسع الوقت أمام المتنيح الأنبا كيرلس السادس ليعدل هذا القانون ، ولكن فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٢م أصدر بعض أصحاب النيافة المطارنة نداء إلى ناخبى البطريرك « الغيورين » ليريحوا ضمائرهم أمام الله وأمام التاريخ أورد هنا نصه لأهميته إذ يتصل بالقانون المعمول به الآن

بسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد آمين

نحن المطارنة والأساقفة ورؤساء الأديرة الموقعين على هذا رأينا بإرشاد الروح القدس أن نوجه رأى أبنائنا المحبوبين المخول لهم حق إنتخاب أبينا المكرم الآب البطريرك القادم بعد أن أحسسنا بمظاهر الخلاف التى بثت بدعايات قد تكون سببا فى التضليل والخروج على تعاليم الكنيسة وقوانينها وتقاليدها ليكون فى ذلك إرشاد كافٍ للجميع حتى يبتعدوا عن مواطن الخطأ وتكون تزكياتهم واختيارهم فى عملية الانتخاب مطابقة لهذه القوانين المفروض عليهم احترامها وتقديسها .

وتعاليم الكنيسة وقوانينها وتقاليدها التى استندت إليها لائحة انتخاب البطريرك الصادر بها الأمر الملكى رقم ٣٧ لسنة ١٩٤٢م فى المادتين الأولى والثانية صريحة فى أن البطريرك ينتخب من بين طغمة الرهبان المتبتلين الذين لم يسبق لهم زواج وفى عدم جواز إدخال أى تعديل فى القوانين الكنسية أو إحداث أى مخالفة لتقاليدها أثناء خلو الكرسى البطريركى ، مما يقطع الطريق على من يقول بإجازة ترشيح أحد من غير طغمة الرهبان التى جرت الكنيسة على تفسيرها على أنها تلك الطغمة التى لها بعض مراتب المذبح الغير المتجاوزة رتبة القمص ، وقد جاءت المذكرة التفسيرية فى البند السابع مؤيدة لوجهة نظر الكنيسة فى هذه النقطة .

لهـــذا

رأينا بروح المحبة أن نلفت الشعب فى انتخابهم للآب البطريرك القادم إلى احترام هذه التعاليم والتقاليد التى حافظ عليها الآباء الأجيال الطوال وألا يحيدوا عنها فلا يرشحوا إلا راهبا متبتلا لم يسبق له زواج ولم يكن له رتبة فى خدمة المذبح تتجاوز رتبة القمص أى ألا يكون أسقفا أو مطرانا . ونحذرهم ألا يخرجوا على هذه التعاليم صيانة لوحدة الكنيسة وسلامة تقاليدها .

وإله السلام هو القادر أن يرشدكم إلى إختيار الراهب الصالح الذى يرعى شعب الكنيسة بطهارة وبر . ونعمة الرب تشمل جميعنا ولعظمته الشكر دائما .

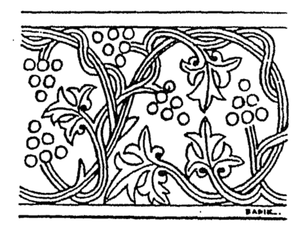
القاهرة فى ١٣ كيهك ١٦٥٩ ش ـــ ديسمبر ١٩٤٢ م

مطران صنبو وديروط وقسقام، ورئيس دير المحرق	مطران المنيا والأشمونين	مطران كرسى البلينـا
أغابيوس	**ساويرس**	**أبـرآم**

مطـــران اخميم وسوهاج	مطـــران بنى سويف والبهنسا
بطـرس	**أثناسيوس**

وتدور الأيام ويعين آخرهم المتنيح الأنبا أثناسيوس مطران كرسى بنى سويف قائمقام بطريرك بعد نياحة الأنبا يوساب ، وبالرغم من أن اللائحة الموضوعة لم تمنع الأساقفة فقد حرم أن يتقدم أحد من الأساقفة ، وكان له وقاره وهيبته وكان معروفا أنه عالم فى الطقس الكنسى كما كان آخر من رسمهم المتنيح الأنبا كيرلس الخامس . وفعلا تقدم للقرعة الهيكلية ثلاثة قمامصة وكان الاختيار الإلهى الباهر بانتخاب الأنبا كيرلس السادس الذى نعمت الكنيسة فى عهده بالهدوء والسلام بعد أكثر من ثلاثين عاما لم تذق فيها طعم الراحة فى عهد ثلاثة من المطارنة العظام !

ولم يبق من المطارنة الخمسة الذين أصدروا النداء سوى الأنبا ساويرس مطران كرسى المنيا والأشمونين أطال الله حياته . فهل نعمل اليوم أيضا بهذا النداء الذى اختبرنا قيمته وصحته بل وقداسته ؟ فنحفظ للكنيسة كرامتها وقوانينها ولنحفظ لهذا المنصب الخطير ما هو جدير به من كل تعظيم واحترام .



الفصل التاسع

كيف تقام الدرجات الكهنوتية فى الكنيسة

« فتشوا الكتب »

(يوه : ٣٩)

من أمجاد كنيسة الاسكندرية الخالدة ، أنها كنيسة ديمقراطية ، إستمدت ديمقراطيتها من سيرة حياة السيد المسيح له المجد على الأرض ، ومن التقاليد التى وضعها الرسل أنفسهم ، كما وصلتنا فى سفر أعمالهم . ولذلك كان من حق الشعب أن يعرف حقوقه وواجباته ، فى ميدان هذه الكنيسة الرسولية . وخصوصا تلك الحقوق التى لم يتنازل أبدا عنها أمام شدائد وعواصف عديدة ، والتى ضمنت للكنيسة بقاءها طوال تسعة عشر قرنا ، والتى جعلته يفديها بالنفس والنفيس كلما تعرضت لتلك الإضطهادات المريرة التى أودت بكنائس عديدة أصبحت فى خبر كان ، فخلد له فى ميدان الإستشهاد ذكرا خالدا فى تاريخ الكنيسة فى العالم .

وكنيستنا كنيسة محافظة ، وقد حتمت عليها هذه المحافظة الإضطهادات التى تعرضت لها فى مختلف العصور ، حافظت على قوانينها وتقاليدها ولغتها ، فخرجت من كل ما أصابها دون أن تفقد شيئا من معالم شخصيتها .

ونظرا لأن أكثر المراجع التى نرجع إليها لمعرفة هذه التقاليد والقوانين لم يطبع بعضها وبعضها إستولت عليه المكتبات والمتاحف فى الخارج ، والقليل هو الذى طبع على نطاق ضيق منذ أكثر من نصف قرن ، فقد أتى علينا القرن العشرون والغالبية العظمى من أبناء كنيستنا أكليروسا وشعبا يجهلونها ، أو على علم بأشتات متفرقة منها إطلعوا عليها بمحض الصدفة .

ولقد رأت جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية ، كجمعية تعنى بكل مايتعلق بتاريخ المسيحية والكنيسة فى مصر ، رأت واجبا عليها أن تبصر الشعب بحقوقه نحو رعاته ، حتى تستمر تلك الصلة قائمة التى نعتقد أنها من أهم العمد القائمة عليها شخصية كنيستنا . فلقد بلغ جهلنا بالقوانين الكنيسية حدا أنه فى

الربع الأول من القرن العشرين رقى لأول مرة فى تاريخنا مطران أحد الكراسى بعد أن أمضى فيه اثنتين وأربعين سنة إلى رتبة البطريركية ، ووضعت عليه اليد مرة ثانية ! فكانت المخالفة مخالفتين كما سنبين فيما بعد . وكانت هذه التولية وتلك الرسامة بحق « عثرة الكنيسة القبطية فى القرن العشرين » . بل جرت محاولة فى العصر الحديث لحرمان الشعب من حق إنتخاب البطريرك ، ذلك الحق الذى تمسك به منذ فجر المسيحية .

كيف نشأت الوظائف فى الكنيسة

نتبين من سفر أعمال الرسل ومن رسائل الرسل أنفسهم أنه لم يكن فى الكنيسة المسيحية فى العصر الرسولى سوى الأسقفية أو القسيسية أو الشيوخ ، والشماسية . ونتبين من الكتاب المقدس وقوانين الرسل أن وظيفة الأسقفية هى تدبير شئون الرعية . وكلمة ЄΠΙСΚΟΠΟС يونانية الأصل تعريبها « مدبر » ، أما وظيفة القسيس فقد قصد بها الراعى . ولما إتسع نطاق التبشير دعى أسقف المدينة الكبرى مطرانا ويكون تحت يده أساقفة ، إلا أن هذا اللقب إتخذه بعض الأساقفة فى الأيام الأخيرة زيادة فى التفخيم . ويلى ذلك البطريركية ، والبطريرك ما هو فى واقع الأمر إلا أسقفا له الرآسة على الأساقفة الذين تحت يده فقط ، فهو أول كل شىء أسقف مدينة كرسيه ورئيس الأساقفة التابعين له ، ويبين ذلك فى كنيستنا البابان الرابع والخامس من المجموع الصفوى ، وهو قانون الكنيسة .

وفى أول عهد النصرانية كانت جميع هذه الوظائف واحدة فى العمل ، فكان الأسقف هو الراعى ويدعى من معه من المساعدين قسوسا وشيوخا . فكان جميعهم يعنون برفع شأن المنتمين إليهم روحيا وتنظيم حياتهم الاجتماعية . ولما إتسع نطاق التعليم وإمتدت سلطة الكنيسة تولى القسيس شئون الرعاية ويرأسه الأسقف الذى إمتاز بسلطة وضع اليد . ولما زاد عدد الأساقفة التزموا أن يرجعوا إلى رئيس لهم . هذا الرئيس دعى بطريرك أو البابا لا يمكن أن يقام أسقف إلا بحضوره أو بأمره ، بعد عمل التزكية القانونية .

كنيسة الإسكندرية
وكيف نشأت الوظائف فيها

عندما جاء القديس مرقس الإنجيلى إلى الديار المصرية لينشر كلمة الخلاص ، كانت الإسكندرية فى ذاك الوقت ، ليس فقط عاصمة البلاد ، بل كانت مركز العلوم والفكر أيضا ، إذ كان بها أكبر جامعات العالم فى ذاك الوقت ، وكان يحج إليها من أقاصى الشرق والغرب رجال العلم والفضل ، وقد إستطاع قديسنا بالمواهب التى كانت له من الروح القدس ، أن يجتذب إليه الكثيرين فى وقت قصير ، سيما وقد كان بالإسكندرية أكبر جالية يهودية بعد أورشليم ذات ثقافة يونانية . وعندما هم بالذهاب إلى ليبيا لتثبيت المؤمنين هناك رأى أن يؤسس كرسى أسقفية بمدينة الإسكندرية وكنيسة فى منزل أنيانوس أول من آمن على يده وأقيم خليفة له .

لم يترك لنا القديس مرقس إنجيله فقط ، بل ساعده ذلك الوسط الثقافى الذى كان يحيط بالمؤمنين على أن يضع نظاما خاصا للكنيسة ، لعله أول نظام وضع لأية كنيسة فى العالم حينذاك ، وهو مايجب أن نعيه وأن نفخر به وأن نحافظ عليه ، فكنيستنا عريقة فى القدم ، ولا نبالغ إذا قلنا أنه عنها أخذت معظم الكنائس ، وكان لها القدح المعلى فى التنظيمات الكهنوتية التى أقرها مجمع نيقية المقدس المسكونى الأول عام ٣٢٥ م .

ولا نستدل على هذا النظام بما تدون فى كتاب الدسقولية فقط ، وقد جعل فى الكنيسة خليفة له ينتخب من زملائه المقيمين معه الملازمين لخدمة الكلمة ، وقد بقى النظام الذى رتبه ثلاثة قرون ، إلى أن تعدل فى الترتيب — لا فى الجوهر — تبعا للأحوال ولزيادة عدد المؤمنين . فيخبرنا سعيد بن بطريق الطبيب والمؤرخ ، بطريرك الملكيين فى القرن العاشر وأبو المكارم جرجس بن مسعود من مؤرخى القرن الثالث عشر « وصير مرقس مع حنانيا اثنى عشر

قسيسا — وأمرهم إذا تنيح البطريرك يختارون واحدا من الإثنى عشر — ويضع الأحد عشر قسيسا (أو شيخا) الباقين أيديهم على رأسه ويباركونه ويصلحونه بطريكا ، ثم يختارون رجلا فاضلا عالما فيصيرونه قسيسا معهم بدل الذى صيروه بطريركا ، ليكونوا اثنى عشر قسيسا أبدا . فلم يزل القسوس (رسمهم) بمدينة الاسكندرية يصلحون البطاركة من القسوس الإثنى عشر إلى وقت الأكسندرس بطريرك الإسكندرية ، الذى كان فى مجمع الثلثماية والثمانية عشر (أى مجمع نيقية) فإنه منع من أن يصلح القسوس البطريرك (وإنقطع ذلك الرسم) ، وأمر أن لا يصلح البطاركة إلا الأساقفة ، وأمر أنه إذا مات البطريرك أن يجتمع «الأساقفة ويصلحوا البطريرك ممن يختار وأن يكون فاضلا عالما » ، هذاماذكره هذان المؤرخان الشهيران .

إذن كان النظام الأولى فى كنيسة الإسكندرية بإقامة أسقف واحد رئيسا لمن يعاونونه فى خدمة الكلمة وهو البطريرك ، فلا يقام البطريرك إلا من القسوس الذين كانوا يضعون اليد عليه ويقيمونه رئيسا عليهم ، ثم يقيمون بدله من العلماء الأفاضل القادرين على العمل الغير مطعون فيهم . ويكون إنتخابه على حسب الشروط التى جاءت فى الدسقولية المأخوذة عن الكتاب المقدس . وظل هذا الترتيب معمولا به إلى أيام البطريرك ديمتريوس الذى عاصر كبار علماء مدرسة الاسكندرية اللاهوتية : بنتينوس وأكلمنتس الإسكندرى وأوريجانوس . كانت المسيحية قد إنتشرت فى أيامه فى أنحاء البلاد . ويكمل المؤرخ سعيد بن بطريق فيقول «فأما لمَ نسمى بطريرك الاسكندرية « بابا » ومعنى بابا الجد ، فإن من منذ حنانيا الذى أصلحه مرقس الرسول البشير بطريركا للإسكندرية إلى وقت ديمتريوس بطريرك الاسكندرية — وهو الحادى عشر (أى من حنانيا خليفة مرقس) — لم يكن عُمل فى مصر أسقف ولم يكن البطاركة الذين قبله يصلحون أساقفة . فلما صار ديمتريوس بطريركا أصلح ثلاثة أساقفة ، فلما مات صير بعده ياروكلاس بطريركا على الاسكندرية فأصلح عشرين أسقفا . فواحد من هؤلاء الأساقفة خالف الشريعة فإتصل

خبره بياروكلاس البطريرك فجمع جماعة من الأساقفة وسار إليه وكشف عن مقالته ورده إلى الحق ، فسمع العامة الأساقفة يدعون البطريرك « أبّا » فقالوا : إذاً نحن نسمى الأسقف « أبّا » والأسقف يسمى البطريرك « أبّا » فيجب علينا نحن أن نسمى البطريرك « بابا » . وذكر أبو المكارم فى موضعين : أن ديمتريوس البطريرك هو أول من قسم أساقفة بمصر .

وقد كرر المقريزى كل العبارات المتقدمة التى ذكرها ابن بطريق وأبو المكارم كأنه نقل عنهما بعد تحريف قليل فقال « ولما أقام مرقص حنانيا ويقال له :«أنيانو» بطرك الإسكندرية جعل معه اثنى عشر قسا وأمرهم إذا مات البطريرك أن يجعلوا عوضه واحدا منهم ويقيموا بدل ذلك القس واحدا من النصارى حتى لا يزالوا أبدا إثنى عشر قسا ، فلم تزل البطاركة تعمل من القسوس إلى أن إجتمع ثلثماية وثمانية عشر . وكان بطرك الإسكندرية يقال له البابا (صحتها الأبا أو الأب) من عهد حنانيا هذا أول بطاركة الإسكندرية إلى أن أقيم ديمتريوس وهو الحادى عشر من بطاركة الإسكندرية (بالنسبة إلى حنانيا) ولم يكن بأرض مصر أساقفة ، فنصب الأساقفة بها وكثروا فغيرها فى بطريركته هرقل (أى ياروكلاس) ، وصار الأساقفة يسمون البطريرك الأب (وصحتها البابا) ، والقسوس وسائر النصارى يسمون الأسقف الأب (الأبا) ، ويجعلون لفظة « البابا » تختص ببطرك الاسكندرية ومعناها أبو الآباء » ، ثم قال بعد ذلك عن تسمية أسقف رومية بابا « ثم إنتقل هذا الإسم عن كرسى الاسكندرية إلى كرسى رومية .. فصار بطرك رومية يقال له البابا وإستمر على ذلك إلى زمننا الذى نحن فيه » .

فبطريرك القبط أو أسقف الإسكندرية أو رئيس أساقفة الكرسى المرقسى هو الذى تسمى إذن « بابا » أولا ، ويؤيد ذلك أيضا طلبات القداس .

وضع اليد

هو تكريس كل من توظف فى الوظائف الدينية من الرئيس إلى المرؤوس ، ومن عهد المسيح إلى الآن يمارس بغاية الدقة عند القبط منذ إنشاء كنيستهم على يد القديس مرقس الإنجيلى . فكان القسوس يختارون من بينهم من يجعلونه رئيسا عليهم كما رأينا كما سلمهم القديس مرقس ، أى كانوا يعملون عمل الرسل فى إنتخاب بدل من نقص منهم ، ثم يضعون أيديهم عليه عند رسامته ، وينتخبون غيره ممن لهم من الصفات مايجعلهم فى مصاف الرعاة ، وبعد ذلك حصروا وضع اليد فى الأساقفة ومنعوا القسوس منها . ولما إختص الأساقفة بوضع اليد تركوا لغيرهم حق الانتخاب فلا يتداخلون فيه إلا بصفة شخصية ، ولا صوت لأسقف إلا كأنه أحد أفراد الشعب فى الإنتخاب . وقد جاء فى القانون الأول من الخمسة والثمانين قانونا التى نسبت للرسل « والأسقف يسام من أسقفين أو ثلاثة » .

كما جاء فى هذه القوانين أيضا « أى رجل أوتى به ليصير أسقفا فليكن برضاء أهل أبروشيته جميعا ، وليحضر تصييره أسقفان أو ثلاثة ، وذلك لقول الكتاب : تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة (مت ١٨ : ١٦) ، وقول السيد المسيح : إن إتفق اثنان منكم على الأرض فى أى شىء تطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبى الذى فى السموات ، لأنه حيثما إجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم (مت ١٨ : ١٩ و ٢٠) » .

ونستطيع أن نرى توافقا بين أقوال المؤرخين التى مرت بنا وماجاء به هذا القانون كما يلى :

(أولا) إن النظام الذى وضع فى الكنيسة القبطية كان مبنيا على نصوص كتابية صريحة لايوجد فيها فرق بين الأسقف والقسيس الذى يدعى أيضا شيخا ، إذ الصفات التى جاءت فى (١ تى ٣ : ١ — ٧) هى التى وردت فى (تى ١ : ٥ — ٩) .

(ثانيـــا) إن لوقا الإنجيلى فى كتابه أعمال الرسل يقول « وبولس عندما إستدعى قسوس كنيسة أفسس أوصاهم هكذا : احترزوا إذن لأنفسكم ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى إقتناهابدمه. (أع ٢٠ : ٢٨) » ، فدعاهم قسوسا ورعاة وأساقفة وخدام الله .

(ثالثـــا) جاء فى الدسقلية « الأسقف كالراعى » ، ونقله الصفى بن العسال فى مجموع القوانين (المجموع الصفوى) ، وهذا مطابق لما جاء فى الكتاب من أنه راع ومدبر وشيخ وناظر وخادم (١ كو ٣ : ٥ و ٤ : ١ و ٢ وكو ٣ : ٦ و ٤ : ٥ و ٦ : ٤ وكو ١ : ٢٣ واتى ٤ : ٦ + ٣ وتى ١ و ١ تى ٥ : ١٧ و ١ بط ٥ : ١ ـــ ٤ و أع ٢٠ : ٢٠ ـــ ٨) .

تقسيم الوظائف

فى الثلث الأول من القرن الثالث عشر حدثت منافسة شديدة على البطريركية ، وإشتد الخلاف وتدخل الولاة ، وظل منصب البطريركية تبعا لذلك شاغرا أكثر من تسعة عشر عاما ، وإنتهى أخيرا بتولى البابا كيرلس الثالث الملقب بابن لقلق خامس سبعى الباباوات للكرسى المرقسى . ويبدو أن ما حدث كان درسا قاسيا لفت الأنظار إلى وجوب جمع القوانين الكنيسية وتبويبها للرجوع إليها عند اللزوم منعا للخلاف والبلبلة . وقد تكفل بذلك الصفى بن العسال أحد علماء ذاك القرن ، فجمع هذه القوانين وعربها من القبطية واليونانية وهى المعروفة الآن «بالمجموع الصفوى» وهو المرجع لقوانين الكنيسة إلى يومنا هذا ويتضمن اللائحة المعمول بها منذ القدم .

ونعلم منه أن الأسقفية قد قسمت إلى :

أ ـــ **البطريركية** : والبطريرك كلمة يونانية πα·τριαρχнс ومعناها الأب الرئيس . وكان المصريون ـــ كما تقدم ـــ يدعونه فى بادىء الأمر منذ عهد ياروكلاس « بابا » وهى كلمة يونانية الأصل παππας ومعناها

الجد ، لأن الشعب والكهنة يقولون للأسقف أبا αππα فلكى يميزوا الرئيس الأعظم عما سواه دعوه « بابا » ، ونظرا لشيوع تسمية رئيس الأساقفة باسم « بطريرك » أهملوا لفظة « بابا » ، ثم عادوا أخيرا فى زماننا الحاضر إلى إحياء التقليد الذى كانوا هم أول من وضعه فأحيوا لقب « بابا » الذى كان فى الأصل خاصا ببطريرك الاسكندرية .

ب ــ **الجثلقة** : ولفظة الجاثليق يونانية الأصل καθολικος. ويقول الصفى بن العسال « والحبش فلا يبطرك عليهم بطرك من علمائهم ولا باختيار منهم فى أنفسهم ، لأن بطركهم إنما يكون من تحت يد صاحب الإسكندرية ، وهو الذى ينبغى أن يصلح عليهم قاثوليقا الذى هو دون البطرك ومن قبله . فإذا بطرك عليهم هذا المذكور بإسم القثلقة فليس له مطلقا أن يمطرن مطارنة كما يمطرنهم البطاركة ، لأنه إنما يكرم بإسم البطركية من غير أن يكون له سلطان ذلك » ، وقد رسم المتنيح البابا كيرلس السادس بطريركا جاثليقا لأثيوبيا لأول مرة فى عصرنا الحديث ، بعد أن كان يرسم لهم مطران .

جـ ــ **المطرانية** : وكلمة مطران يونانية πιμμετροπολιτης تعريبها أم المدينة . وهو أسقف المدينة ورئيس الكهنة تحت يد البطريرك كالجاثليق . وقد يكون رئيسا على أساقفة . ولم تكن الكنيسة القبطية سابقا تعرف إلا مطران دمياط فقط . ولكن أصبحت فى أيامنا هذه وظيفة شرف تمنح لأساقفة بعض المحافظات بحكم أقدميتهم فى وظيفة الأسقفية فى بعض الأحيان ، دون أن يكون تحت يد أحد منهم أساقفة ، أو ثمة موجب لترقيتهم إلى هذه الدرجة .

د ــ **الأسقفية** : والأسقف أيضا كلمة يونانية πιεπισκοπος أى المدبر . وهو رئيس الكهنة ، إما تحت يد مطران أو تابع مباشرة للبطريرك ، ومع أن الأسقفية هى التسمية الأولى التى جاءت فى الكتاب المقدس إلا أنه لوحظ أخيرا أن بعض الأساقفة لا يميلون إلى التلقب بها بل يطمعون دائما فى لقب مطران ، ومما يذكر فى هذا الصدد أن المتنيح أنبا أفرام ،

أسقف الفيوم لم يرد أن يحمل إلا لقب الأسقفية لإعتبار أنها من أشرف الألقاب . وفى واقع الأمر فإن المطرانية والأسقفية إسمان لمسمى واحد ، كما أن الجاثليق لا يمتاز عنهما فى شىء لأن هذه المسميات قد وضعت لوظيفة واحدة وإنما لقّب من كان منهم ذو رعية أكبر وبالتالى مسئولية أكبر بلقب يميزه عن الآخرين .

هـ ــ **الخوريسبقوبية** : والخوريسبقوبوس هو أسقف القرى ، يستمد الرأى من الأسقف وتابع له ، وهو يعادل فى وقتنا الحاضر القمص ، وأصبح الآن لا أثر له فى كنيسة الاسكندرية .

أما القسم الثانى وهو القسيسية ففيه درجتان :

أ ــ **القمص** : وهو تعريب . ⲡⲓϩⲩⲅⲟⲩⲙⲉⲛⲟⲥ إيفومانس أى المدبر ، ويعرف الآن بوكيل الشريعة ، وهو كالأسقف إلا فى وضع اليد ، ويسمى أيضاⲡⲣⲱⲧⲟⲥأى الأول أو المقدم لأنه كان رئيس الكهنة بعد الأسقف ، ويكون تابعا للأسقف أو للبطريرك مباشرة . وقد خصصت هذه الرتبة فى الأديرة للرئيس ، ولكنها أصبحت الآن كالمطران وظيفة شرفية ، فبعد أن كان فى الكنيسة قمص واحد وهو الرئيس ، أصبح الغالبيه فى المدينة الواحدة قمامصة .

ب ــ قسيس أو راع أو شيخ : ويرى البعض أنها معربة عن الكلمة القبطية رئيس الرعاة ، أخذها اليهود والسريان أولا ثم عربت عنهم وصارت لقبا للراعى الدينى ، ووظيفته كالقمص إلا فى الرآسة فقط . ويدعى باليونانية كما جاء فى الكتاب ⲡ̀ⲡⲣⲉⲥⲃⲩⲧⲉⲣⲟⲥ ويسمى أيضا خادم الكنيسة .

فهذان القسمان ــ أى الأسقفية والقسيسية ــ فى الكتاب المقدس لا تتميز صفات الواحد عن الآخر ، وإنما فرقوا بين الوظائف وميزوها فى الرآسة فقط حفظا للنظام والفصل بين إختصاص كل عامل منعا للفوضى والإنفرادية فى العمل .

أما القسم الثالث فهى الشيماسية وهى درجة تشمل الشماس ورئيس الشمامسة (الأرشيدياكون) وهذه الأخيرة وظيفة فقط للرآسة لا تكسبه درجة خلاف درجة الشماسية .

وفى أول عهد النصرانية كانت الوظائف واحدة فى العمل فكان الأسقف هو الراعى ويدعون مساعديه قسوسا ومشائخ ، وكانت أعمالهم مرتبطة بيعضها ارتباطا كليا يعملون يدا واحدة فى رفع شأن المنتمين إليهم الخاضعين لهم . ثم غلوا أيدى القسوس عن وضع اليد فقط وجعلوه من إختصاص الأساقفة لما زاد عددهم وإحتاجوا إلى رابطة تربطهم معا ، **ثم جعلوا وضع اليد على الأساقفة من حقوق البطريرك كتقديس الميرون** ، ونعلم من ترتيب وضع اليد على البطريرك أن الأساقفة وكبار القسوس يشتركون فى وضع اليد عليه حين رسامته .

إنتخاب البابا

بينا فيما مضى أن المصريين كانوا أول من وضع نظام الوظائف الكنسية عقب تنصرهم على يد الكاروز مار مرقس الأنجيلى الذى أسس كرسى الإسكندرية ، التى كانت فى ذاك الوقت عاصمة البلاد وكان بها أكبر جامعات العالم ، ولذلك يدعى البطريرك أسقف الإسكندرية ، وأصبح الكرسى الإسكندرى علما على الكرازة المرقسية ، ولذلك يشترط قانون الكنيسة **ألا يعمل بطريرك كرسى الاسكندرية أسقفا للإسكندرية** ، بل يقيم وكيلا له هناك عرف حديثا « بوكيل الكرازة المرقسية بالإسكندرية» . وذلك وفقا أيضا للقوانين المجمعية إذ ينص القانون السادس من قوانين مجمع نيقية المسكونى الأول الذى إجتمع فيه ٣١٨ أسقفا عام ٣٢٥ م بحضور الإمبراطور قسطنطين « فلتحفظ السنن القديمة التى فى مصر وليبيا وبندابوليس فى أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها » ، إذن لا يصح قانونا أن يلقب « وكيل الكرازة بالإسكندرية» إذا كان مطرانا لإيبارشية أخرى « بمطران الإسكندرية » لما تقدم بيانه .

وقد دوّن الكُتاب المتقدمون كل الشروط التى يجب مراعاتها عند إقامة البطريرك ، لنرجع إليها ونراعيها عندما نحتاج إلى من يسوس أمورنا . فهى قانون أو لائحة إنتخاب ثابتة عملنا بمقتضاها حتى الربع الأول من القرن العشرين ، والكتاب هم :

(اولا) الصفى بن العسال الذى جمع المجموع القانونى المعروف بالمجموع الصفوى ، وهو قانون الكنيسة القبطية ، وقد ذكر فى البابين الرابع والخامس شروط الانتخاب وما يجب عمله عند الإختلاف .

(ثانيـــا) الشيخ الرئيس البار المؤتمن الدين المسيحى مؤتمن الدولة أبو اسحق بن الفضل المعروف بابن العسال (وهو شقيق السابق) ، وقد أفرد باباً خاصا لهذا الموضوع فى كتاب « أصول الدين ومسموع محصول اليقين » ، وهو الباب الثالث والخمسون ، ضمنه مايجب عمله .

(ثالثـــا) أفرد الأب الفاضل شمس الرياسة المسمى بأبى البركات المعروف بابن كبر الباب العاشر من كتاب « مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة »

وقد رأينا أن ننقل بعض المقتطفات الهامة من هذه الكتب التى تضع النقط فوق الحروف فى هذا الموضوع الهام .

قال ابن كبر « البطرك هو خليفة السيد المسيح ورسله والحاكم فى عقد شرعه وحله ، وتفسير إسمه : الأب الأول » .

« ويكون انتخابه باتفاق أهل الإختيـار من أعيان رؤساء الأراخنة الفضلاء الأخيار ، النامين فى أفهامهم الكاملين فى إيمانهم ، المعروفين بصحة أذهانهم وعليم إدهانهم وجودة امتحانهم ، ووثوق الأكثرين بهم فى مايقلدونه وإعتماد الجماعة عليهم فى من يعينونه ، لديانتهم المتينة ومعرفتهم المبينة ، وحسن انتقادهم الذى لا يبهرجه الإعتبار ولا ينافى خبره الاختبار » .

« ويكون المختار ممن يرضاه أكثر أهل طائفته ، ويختارون بعدم رياسته ، بعد علم المختارين له باشتماله على أقسام الأهلية المنصوص عليها فى أصله وأبوته ، ونسكه وبتوليته ، ، ودينه وعقيدته ، وحواسه وعقله ، ونفسه وجسده ، وعلمه وعمله ، ودرايته ودربته ، وفضله وسياسته ، وثبوت إمتلائه من الفضائل ، وإعتلائه عن الرذائل ، عند العلماء بالعلم ، والعامة بالتقليد ، والمؤلفين بإشهار الفضل ، والمخالفين بتواتر النقل . وإذا ماعينت جماعة لهم بهذه المزية ، أمعن النظر فى الترجيح ، وأختير منهم من يميز الإمتياز الصريح من المتساوين فى الحال ، المتماثلين فى الفعال وعملت لهم قرعة بأسمائهم ، ثم توضع على هيكل الرب فى أول القداس ، وعند فراغه ترفع منها ورقة واحدة على يد صبى طاهر أو قديس ماهر ، ممن يكون حاضرا فى الوقت الحاضر ، ومن اختاره الله عن المعنيين الذين حصل الإتفاق عليهم والركون إليهم ، تقدم كالوضع والعرف الدينى » .

« ويكون بطريركا بحضور من يتهيأ من الأساقفة إما جميعهم ، أو إثنا عشر أسقفا منهم ، وأقل من يعتبر حضوره منهم إذا تعذر إجتماعهم لأسباب مانعة وضرورات قاطعة أسقفان ، ولا يكرز من أسقف واحد جملة ، وليس للأساقفة إلا التكريز ، وأما التعيين فإنه للأراخنة المعتبرين ، الذين يكونون بأهل الإقليم عارفين » . (مقدمة الباب العاشر فى تقدمة البطاركة) .

وقال الشيخ المؤتمن بن العسال « البطريرك هو مدبر الشعب وراعيهم ورئيسهم ومقدمهم وإمامهم وخادم السيد المسيح فيهم ، وهو الطالب عنهم فى الليل والنهار ، وخليفته وخليفة رسله عليهم ، القائل لهم : من قبلكم فقد قبلنى ، ومن قبلنى فهو يقبل من أرسلنى ، وهو طبيب نفوسهم الروحانى ، ورياسته رياسة كهنوتية على المطارنة والأساقفة والكهنة والخدام والأراخنة وسائر شعب كرسيه . وهى أيضا خلافة مسيحية فى الدنيا على صيانة الدين ، وحفظ المؤمنين وسياستهم سياسة شرعية روحانية ، ورعيته لهم يلزمه فيهم حفظهم من الذئاب الخاطفة » . (مقدمة الباب ٥٣) .

وقال الصفى بن العسال « البطريركية خلافة مسيحية فى الدنيا على حراسة الدين وسياسة المؤمنين سياسة شرعية روحانية ، وتقليدها لمن يقوم بها فرض على المؤمنين واجب بالإجماع ، ويدل عليه الشرع والطبع . أما الأول فلما تقدم — (أى ماجاءت به القوانين) — والثانى فلما فى طباع العقلاء من الإعتماد على رئيس يرشدهم إلى علم الحق وعمل الخير ، ومن التسليم إلى مقدم يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم فى التنازع والتخاصم ، فإذا قلدت لمستحقها حصل القيام بفرضها ، وإلا وجب على أهل الإختيار خاصة أن يختاروا رئيسا للأمة .

والشروط المعتبرة فى أهل الأختيار ثلاثة :

(اولا) العدل .

(ثانيــا) العلم الذى يتوصل به إلى معرفة من يستحق هذه الرئاسة .

(ثالثــا) الرأى والحنكة المؤديان إلى إختيار من هو لأهل الوقت أصلح ، وبتدبيرهم أقوم وأعرف .

وشروط من يستحقها على قسمين :

نقليـــة : وقد ذكرت فى أول باب الأسقف .

عقليـــة : وهى أربعة أقسام ،

أما عن الشروط **النقلية** فقد جاء فى الباب الرابع من المجموع الصفوى « **وأكثر ما ورد للأسقف يلزم البطريرك ، لأنه يسمى فى بعض القوانين :** الأسقف الكبير والأول ، ورئيس الأساقفة » ، أما عن الشروط التى قال عنها أنها ذكرت فى باب الأسقف فقد قال « الأسقف كالراعى ، كما ورد فى الدسقولية ... والشروط الموجبة ثمانية : الأولى والثانية والثالثة والرابعة فى سيرته وأخلاقه وعمره واختياره .... وسبيل الذين تختارونهم أن يكون كل واحد منهم قد تجاوز ثلاثين سنة » .

« الخامس ، أن يكون راهبا أو ممن له بعض مراتب المذبح ، ولا يصح علمانيا

إلا بعد ضرورة وبعد أن يشرط على نفسه حفظ القوانين المقدمة » ويضيف « أعنى يكون راهبا أو كاهنا » زيادة فى التفسير والتدقيق .

« السابع ، ولا يقلد الأسقف سريعا دون إختباره فى معرفته وإيمانه وسيرته وحسن الثناء عليه » ، وأخيرا أورد ما جاء فى القوانين عن تزكيته وتجربة من يستحق « إن كانت له سيرة حسنة لا مفتر ولا مراء ويقدر أن يفسر الكتب » .

أما الشروط العقلية فهى أربعة : (١) سلامة العقل (٢) سلامة الحواس والأعضاء كالبصر والسمع واللسان والرجلين واليدين (٣) السلامة من الأمراض المانعة له من اجتماعه بمرؤوسيه كالجذام والبرص (٤) ما يتعلق بسياسة الرعية من، جودة الخلق وصحة الرأى والتجربة والحنكة .

« وإذا وجد أهل الاختيار جماعة توجد فيهم شروط هذه الرياسة ، وجب أن يختاروا أتمهم شروطا ، ومن تسارع الناس إلى طاعته بالأكثر ، فإن إعتفى منها ولم يقبلها فليختاروا منهم غيره ، فإن لم يكن غيره وجب ألا يعفي » ..

« فإن وجد إثنان متكافئان فى الشروط قدم أسنهما ... وإن كان أحدهما أكثر علما والآخر أصلح تدبيرا روعى مايوجبه حكم الوقت ، فإن كانت الحاجة إلى فضل العلم أدعى بسبب ظهور البدع قدم الأعلم ، وإن كانت الحاجة إلى صلاح التدبير قدم صاحب التدبير .

« وإن تنازع متساويان من كل وجه ، أو تنازع لهما غيرهما رجع أمرهما إلى القرعة الهيكلية . والأصلح إختيار غيرهما ، إن وجد ، لأن تنازعهما إياها تجريح لهما ». « وأصحاب الأختيار يلزمهم تقليد هذه الرآسة لمستحقها ، فإن توقفوا لزمهم الإثم » .

حقوق الشعب فى الإنتخاب

أوردنا فيما سبق ماذكره ابن كبر فى كتابه «مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة» ، عن دور الشعب فى إختيار البطريرك ، ونورد هنا ماقاله أيضا الصفى بن العسال فى المجموع الصفوى « **أن يزكى من جماعة** ، وإن كان

موضع المؤمنون فيه قليل ، ولم يكثر الجمع ليصنعوا التزكية للأسقف إلى حد إثنى عشر رجلا ، فليكتبوا إلى الكنائس القريبة من الموضع الذى يكون المؤمنون كثيرين ، لكى يحضر ثلاثة من المؤمنين الثقات المختارين ويجربوا بثبات من يستحق » .

وهذا التقليد الذى سارت عليه كنيسة الإسكندرية إنما إستمدته من الرسل أنفسهم ، إذ عندما أرادوا إنتخاب بديلا ليهوذا الإسخريوطى وعندما أرادوا إنتخاب سبعة شمامسة لم ينفردوا بالعمل ولا إنتخبوا من بينهم من يقوم به بل أناطوا الشعب بإنتخاب من يكون أهلا للعمل وما كان عليهم سوى وضع اليد فقط .

وتعطى كنيسة الإسكندرية للشعب الحرية التامة فى إنتخاب من يليق للرياسة عليه ويرغب فيه ، على أن تكلف بذلك من يكون أهلا للإختيار . وقد ذكر الشيخ المؤتمن فى كتابه أصول الدين « ووجود تقليدها على أهل الاختيار لمن يقوم بها ... وجب على أهل الإختيار وهم الأساقفة والكهنة والأراخنة والمعلمين تقليدها لمن يقوم بها وجوبا عقليا وشرعيا » .

وفى كتاب رسامة الأساقفة والبطاركة يقول « فليختر من جماعة الأساقفة وكل **الشعب** كمسرة الروح القدس » . وذلك كما جاء فى القانون ٣٦ من الدسقولية ، وكذلك فى التزكية .

فنرى أنه بالإجماع لم يكن للمطارنة والأساقفة حقوق أكثر من حقوق الشعب الذى إنتخبهم، بل لكل واحد منهم صوت كغيره من المؤمنين . والشعب هو الذى ينتخب ويشرك معه البقية من الأكليروس كأنهم من الأفراد :

وقد جاء فى الأمر الخديو الصادر فى أول نوفمبر سنة ١٨٧٤م بإعتماد إنتخاب البابا كيرلس الخامس :

« عرض لمسامعنا هذا الإعلام المتقدم من مطارنة المنوفية والبحيرة والقدس وأرباب مجلس بطريكخانة الأقباط الأرثوذكسيين يلتمسون فيه تعيين بطريركا لطائفتهم لإقامة رسوم ديانتهم على مناهجها وأنه سبق اجتماع رؤساء الطائفة ووجوهها ورسا الحال على انتخاب القمص يوحنا الراهب بدير البرموس للياقته لتلك الوظيفة ويرجون صدور أمرنا لتقليده بها » .

وفى التزكية الموجودة فى كتاب الرسامة والتى تشهد بديموقراطية كنيستنا منذ أقدم العصور نقرأ « نحن الأساقفة الذين إجتمعنا سطرنا هذه التزكية وشهدنا فيها وكل الذين إجتمعوا محبين لله : الكهنة الفضلاء والرهبان الزهاد وكل الشعب المحب للمسيح الذى للمدينة العظمى الإسكندرية ... ثم يقول ، وبعد كتابة الأساقفة يكتب ثلاثة قسوس من الإسكندرية وثلاثة شمامسة يكتبون شهاداتهم بأيديهم ... وبعد هذا قمص شيهات وأراخنة من الإسكندرية ومصر فليكتبوا كلهم شهاداتهم » (الباب العاشر من كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لابن كبر وفى كتاب رسامة البطاركة الذى أخذ من أديرة وادى النطرون وطبع فى روما) .

فإذا توغلنا أيضا فى التاريخ نجد فى التواقيع التى أصدرها السلاطين إلى البطاركة كما جاء فى « صبح الأعشى » ذكر « أهل الملة » أو « الشعب » كما يلى :

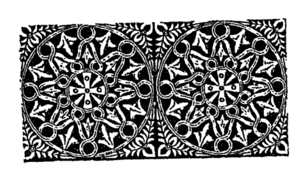
« وسأل الإله أن يزين لأهل ملته ما يأتى به من أقواله وأفعاله فوقع إختيارهم عليه وسألوا صدقاتنا الشريفة إلقاء أمرهم إليه » وأيضا « ولما كان البطريرك فلان هو المجمع على صلاحيته للبطركية على شعبه » أو « فلان ، ممن إتفق على شكره أبناء جنسه » .

نرى من كل ذلك بوضوح أن للشعب الصوت الأعلى طوال تاريخه الطويل المملوء بالعرق والدم والدموع مما جعل الصلة بينه وبين كنيسته وثيقة متينة لم تنل منها الأيام . ومن المؤسف حقا أن نرى فى العصر الحديث محاولات لسلب

هذا الحق من الشعب ، فيهدمون بذلك دعامة من دعامات كنيستنا وإحدى معالم شخصيتها التى تمسكت بها لأنها ورثتها عن الرسل أنفسهم .

ونختم بحثنا هذا بترديد ماذكره ابن كبر « ليس للأساقفة إلا التكريز وأما التعيين فإنه للأراخنة المعتبرين » فالشعب له الصوت الأعلى فى الانتخاب ، ولشعب الإسكندرية مركز خاص فى هذا الإنتخاب لأن البابا هو قبل كل شيء أسقفهم .

إن كنيستنا لتفخر بأنها تمسكت بكل ماورثته من تقاليد وقوانين ، سواء مما جاء فى الكتاب المقدس أو من الرسل أو أباء الكنيسة الجامعة أو المجامع المسكونية التى تعترف بها ، وكان التمسك بهذه التقاليد والقوانين مما جعلها تصمد أمام كل مامر بها من تجارب ، بل كانت هذه التجارب البوتقة التى انصهرت فيها هذه القوانين والتقاليد فخرجت صافية ثابتة ، وإنا لندعو جميع الأجيال من إكليروس وشعب إلى التمسك بها لأجل مجد الكنيسة وحفظا لشخصيتهم وشخصيتها .



الفصل العاشر

خواطـــر

نشرت إحدى الزميلات الصباحية فى يوم ١٥ الجارى بالاجتماعيات أن قداسة البابا كيرلس السادس « يعود إلى مقر كرسيه » صباح السبت (إلى القاهرة) .

والخبر بهذا الوضع قد لا يلفت نظر الكثيرين ، ولكن تكمن وراءه غلطة تاريخية لابد من تبيانها خدمة للتاريخ .

فمقر كرسى قداسة البابا كيرلس السادس هى مدينة الإسكندرية، وما إنتقاله إلى القاهرة إلا لأنها العاصمة ليكون بقرب الهيئات الرسمية .

وكان باباوات الاسكندرية يقيمون بها ، إلى عهد خريسطودولوس البابا ٦٦ (١٠٤٧ــ١٠٧٧ م) فنقل الإقامة إلى القاهرة فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ليكون قريبا من مركز الحكومة ، وأقام فى الكنيسة المعلقة .

وكانت قد جرت عدة محاولات لتنصيب مطران على القاهرة ينوب عن البابا فى الاتصال بولاة الأمور .

ولكن نتج عنها من سوء التفاهم ما جعل الاصوب أن يقيم البابا فى القاهرة .

إن رئيس الكنيسة المصرية هو قبل كل شىء رئيس أساقفة مدينة الاسكندرية .

« فمقر كرسيه » لا ينتقل اذن بل هو باق فى الاسكندرية .

وكان أول من جلس عليه ، القديس مرقس الإنجيلى .

وقبل أن يجلس على ذلك قداسة البابا كيرلس السادس ، ظل خاليا حوالى الثلاثين عاما طوال الوقت الذى يرأس فيه كنيسة مصر أحد مطارنة الكراسى الأخرى .

فالأنبا يؤانس كان « مقر كرسيه » البحيرة .

والأنبا مكاريوس كان « مقر كرسيه » أسيوط .

والأنبا يوساب كان « مقر كرسيه » جرجا .

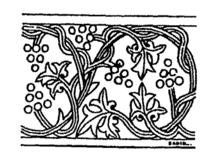
وبما أن القوانين الكنيسة تحرم انتقال الاسقف من كرسى الى آخر .

وبما أن رئاسة كنيسة مصر تنعقد للجالس على كرسى الاسكندرية خليفة للقديس مرقس الإنجيلى مؤسس هذه الكنيسة فقد استوجب تعيين أحد مطارنة الكراسى الأخرى رئاسة هذه الكنيسة أن يترك كرسى الاسكندرية خاليا .

وكان كل من هؤلاء البطاركة الثلاثة الذين خالفوا العرف والتقاليد بقبولهم ذلك المنصب يعلم تلك الحقائق ولذلك لم يرسم أحد منهم مطرانا فى كرسيه طوال حياته .

ولذلك نأمل فى المستقبل أن يقال عند انتقال قداسة البابا الى الاسكندرية **« إنتقل إلى مقر كرسيه »** .

جريدة مصر ٢١ /٥/ ١٩٦٠م



الفصل الحادى عشر

للحقيقة والتاريخ

حــول
قصة ٢٠ قرناً فى تاريخ الكرسى البابوى

نشرت جريدة وطنى فى عدد ١٣ /٦ /٧١ تحت عنوان « قصة عشرين قرناً فى تاريخ الكرسى البابوى » ، ما عدته « رحلة خاطفة عبر عشرين قرناً تعرض لحياة البطاركة الذين جلسوا على الكرسى المرقسى خلفاً بعد سلف » ، وقام بالإعداد الأستاذ فيكتور سلامة .

وأول ما يلاحظ فى هذا المقال أنه صور « الرهبان » كقوم متهالكين على كرسى البابوية ، تضيق الأمة بهم ذرعاً فتنتخب تاجراً للتخلص منهم ومن سيطرتهم ، وفات الأستاذ فيكتور أن جميع أساقفتنا فى العصر الحديث هم من الرهبان أصلاً ، وخلال العصور كانت قلة قليلة من الأساقفة حتى أوائل القرن التاسع عشر ، من المتزوجين ، ولذلك مازلنا نسمع بين ألقاب بعض العائلات القبطية عائلة « الأسقف » ، وبطريرك الكرازة المرقسية وبابا الاسكندرية ما هو إلا أسقف ، وقد ورد البطريرك فى القوانين الكنسية باسم الأسقف لأنه أسقف مدينة كرسيه التى هى الاسكندرية ، ويقول الأستاذ فيكتور تحت عنوان « الكرسى البابوى ينتقل إلى القاهرة » ما يأتى « عندما جلس على الكرسى الإنجيلى البابا خريستودولو انتقل إلى القاهرة وأقام الكنيسة المعلقة التى صارت مقراً للبطريركية بدلاً من الكاتدرائية المرقسية بمدينة الاسكندرية التى عين لها أسقفاً وجعله أيضاً وكيلاً للكرازة المرقسية ، ولقد ظل تعيين أسقف لمدينة الاسكندرية ووكيلاً للكرازة المرقسية تقليداً متبعاً حتى نهاية عام ١٩٢٨ عندما اختير الأنبا يؤانس مطران الاسكندرية ووكيل الكرازة المرقسية وقتئذ بطريركاً ... » ، بكل أسف هذه النبذة بالذات تظهر ذلك الجهل الفاضح بقانون كنيستنا الذى حافظ عليه السلف الصالح ، فعندما قامت المنافسات فى وقت إقامة كيرلس بن لقلق المعروف بكيرلس الثالث خامس سبعى البطاركة ، جمع العالم الكبير الصفى بن العسال كل ما كان محفوظاً من قوانين الكنيسة باللغة القبطية وترجمه فى مجموعه المعروف بالمجموع الصفوى قبل عام ١٢٣٩ م ، وفى هذا القانون نص صريح عن البطريرك يقول فيه « لأنه أسقف مدينة كرسيه (أى الاسكندرية) ، لذلك لا يعمل بطريرك كرسى

الاسكندرية أسقفاً لمدينة كرسيه » ، (مج ٤ : ٣٣٠ صفحة ٢٩) ونظراً لإقامة البطريرك فى القاهرة عاصمة البلاد فقد كان يعين فى مدينة كرسيه من ينوب عنه فقط ، ولم يكن الأنبا يؤانس مطراناً للاسكندرية ، كما يقول صاحب المقال ، وإنما كان لقبه « مطران البحيرة والمنوفية ووكيل الكرازة المرقسية بالاسكندرية » ، فهو كان مطرانا لكرسى بجوار الاسكندرية ، وكان وكيلا للكرازة فى الاسكندرية ، ولم يعين فى تاريخ الكنيسة إطلاقا أسقفا أو مطرانا للاسكندرية ، لأنها مدينة كرسى البطريرك .

يقول صاحب المقال « واستطاع خلال قيامه بأعمال البطريرك (أى الأنبا يؤانس عام ١٩٢٨) أن يعد لائحة جديدة بشأن « ترشيح وانتخاب البطريرك » ، وقد نصت هذه اللائحة مستندة على قرار من المجمع الأكليريكى على جواز ترشيح المطارنة والأساقفة للمنصب البابوى» وماذا كان فى اللائحة القديمة التى جرى بمقتضاها انتخاب البطريرك فى جميع العصور حتى القرن التاسع عشر ؟! لقد كانت تنص هذه اللائحة كما جاء فى المجموع الصفوى المشار إليه فى الباب الخامس « أن يكون راهباً أو ممن له بعض مراتب المذبح ولايصلح علمانياً إلا بعد ضرورة... وهو مستقر فى بيعتنا أعنى أن يكون راهباً أو كاهناً » ، فلماذا نهدم فى القرن العشرين قانوناً اتبعته الكنيسة مدى تسعة عشر قرناً ، ووصلت إلينا بموجبه — والحمد لله — على أتم استقرار ؟ وأضيف على ما سبق فيما يقوله المجموع الصفوى — وهو قانون كنيستنا إلى يومنا هذا — فيما يجب على البطريرك أن يتعهد بالمحافظة عليه « حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما ثبت عند الإجماع من أقوال الرسل ، ثم **المجامع المقبولة** » (المجموع ٤ : ٢٩) ، وأول هذه المجامع هو مجمع نيقية المقدس ، الذى ينص فى قانونه السادس أن أسقف الاسكندرية هو رئيس الكنيسة المصرية ، وفى قانونه الخامس عشر على عدم جواز إنتقال أسقف من كرسى إلى آخر ، فكيف يستطيع بطريرك جاء تنصيبه مخالفاً لهذين القانونين أن يتعهد « **بحفظ المجامع المقبولة** ؟ » وإن أحسن ما أختم به ملاحظاتى هذه هو ذلك البيان الرائع الذى يعتبر صفحة خالدة فى تاريخ الكنيسة الذى أصدره أيضاً قائمقام بابوى عام ١٩٧١ ، أى بعد تجربة ثلاثة وأربعين عاما ، والذى يقول « أنى أشعر بارتياح تام لو قصرنا الترشيح على الرهبان فقط أسوة بما حدث عام ١٩٥٩ ... إنما أقول هذا تعبيرا عن عقيدة أؤمن بها وأستريح لها ورأى أعتز به » .

الفصل الثانى عشر

الشماس فى الطقس الكنسى

شماس كلمة سريانية معناها (خادم) ، وهى الرتبة التى تلى رتبة القسوسية ، وينطوى تحت هذه الرتبة ثلاث درجات : أبودياكن أى (معين أو تابع الشماس) ، وأغنسطس أى (قارىء) ، إبصليتس أى (مرتل) .

ووظيفة الشماس فى الكنيسة أن يساعد الكاهن فى الهيكل ويقرأ الأناجيل . وكان يلقى على عاتق الشمامسة مهمة تعليم وإعداد الموعوظين ، وإذا احتاج الأمر يؤذن لهم بحمل الكأس فقط ويقربوا الشعب ، فهم خدام الكهنة ، ووظيفتهم المساعدة لا التتميم كما يقول القديس ديونيسيوس .

أما خارج الكنيسة فيقوم الشماس بأعمال المحبة والإحسان فى مختلف مظاهرها ، مثل زيارة المرضى ، وتوزيع الصدقات للمحتاجين . وكان الأساقفة يتخذون من بينهم ما يعرف اليوم (بالسكرتيرين) ، فيساعدوهم فى القيام بمهامهم أينما ذهبوا ، كما ساعد الشماس أثناسيوس البابا الكسندروس فى مجمع نيقية ، وكانوا بذلك أذان وأعين ولسان الأسقف . وكان يعهد إليهم أيضا بإرادة أملاك الكنيسة .

وكان الواجب على الشماس أن يحتفظ ببتوليته ، وأن يشترك مع الكاهن فى تلاوة التسبحة يوميا ، وأن يلبس ملابس خاصة به ، ولم نعثر مع الأسقف على ذكر زى خاص لرأسه ، ولكن نتبين فيما وصل إلينا من رسومات منذ القرن السابع ، أنه كان يضع على رأسه طاقية صغيرة مثل تلك التى يلبسها رهبان الفرنسيسكان ، وفى الكنيسة اليونانية يضع طاقية سوداء .

ويقال أنه فى روما شماس واحد ثم صاروا سبعة ، وكان فى أفسس ثمانية وثلاثون شماسا ، وفى عهد جوستنيان كان يوجد مائة شماسا فى القسطنطينية ، ولكن مجمع قيصرية منع إقامة أكثر من سبعة شمامسة فى مدينة واحدة .

وكان الكهنة ينتقون غالبا من بين الشمامسة ، وفى بعض الأحيان الأساقفة أيضا ، كما حدث عندما انتخب الشماس اثناسيوس على كرسى الاسكندرية .

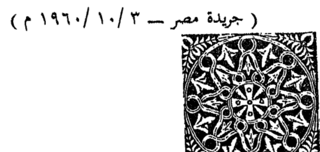
ومنذ القرن التاسع أو العاشر تضاءلت وظيفة الشموسية ، وحتى فى الكنائس الغربية اقتصر إعطاء هذه الرتبة على طلبة الكليات الاكليريكية ليمكثوا فيها فترة قبل ارتقائهم إلى وظيفة القسوسية . وكان الشماس يرسم بين الثالثة والعشرين والخامسة والعشرين .

أما رتبة الأرشيذياكون فلم يقصد بها فى مبدئها سوى إقامة رئيس للدرجات الثلاثة التى تقوم بالخدمة فى الكنيسة يكون مسئولا عن النظام بينهم . وكان بهذه الصفة يترأس عليهم فى توزيع الصدقات والعطايا ، وعلى ذلك فكلما كانت موارد الكنيسة كبيرة ، كلما زادت سلطته وهيبته بين الجميع ، وانتهى به الأمر إلى أن يشارك الاسقف الوظائف الإدارية خارج الكنيسة ، وصار له مركز مرموق بين الكهنوت ، واضطرت المجامع أن تضع حدا لتدخله وسلطانه ، إذ جاء وقت فى الكنيسة الغربية كانت الأسقفيات فيها مقسمة إلى (أرشيذياكونات) ، أى كان رئيس الشمامسة يختص بإدارة جزء من الأسقفية . ولا يوجد اليوم فى بلد كبير كفرنسا مثلا وظائف رآسة شمامسة .

أما فى كنيسة الاسكندرية فكون كهنتها جميعا من العلمانيين لم يتح لهذه الوظيفة أن تخرج بوجه عام عن المعنى الأولى الذى انشئت لأجله ، وهى رآسة الشمامسة فى كنيسة خاصة لمساعدة الكاهن ، وكانت هذه الوظائف لا تنشأ سوى فى الكنائس الكبيرة فى المدن ، وعلى كل حال لم نسمع عنها فى التاريخ إلا قليلا .

أما الأبوذياكن فكان يخدم الشماس ويحمل الكتب ويصلح المصابيح فى القداس . والقارىء يقرأ الكتب ، والمرتل يرتل فقط .

(جريدة مصر ـــ ٣ / ١٠ / ١٩٦٠ م)



الفصل الثالث عشر

حكمة فى كنيسة الاسكندرية
غابت عن كنيسة روما

تحت عنوان (بوادر أزمة فى الفاتيكان) نشرت جريدة الأهرام فى عدد ٢١ يناير ١٩٧٠ م ، أن كنيسة هولندا الكاثوليكية تطالب بحرية زواج القساوسة . وزواج القساوسة قاعدة معمول بها فى كنيسة الاسكندرية منذ فجر المسيحية . وكان التبتل مقصوراً على أسقف الاسكندرية فقط اقتداء بأول أسقف على الاسكندرية القديس مرقس الانجيلى ، ولأن أسقف الاسكندرية كان ينتقى فى غالب الأحيان من رؤساء مدرسة الاسكندرية اللاهوتية التى كان زعيماها اكليمندس الاسكندرى وأوريجانوس يدعوان إلى حياة النسك والتبتل. وتعتقد كنيسة الاسكندرية أن القس الذى يوكل إليه رعاية المؤمنين وقبول اعترافاتهم يجب أن يكون متزوجاً حتى يستطيع أن يتفهم الكثير من الأحوال الإجتماعية والنفسانية للعائلات التى يرعاها وبالتالى يكون طبيباً روحياً ونفسانياً خبيراً فى حل مشكلاتهم . وزوجة القس بصلاتها الإجتماعية تستطيع أن تكون خير معين لزوجها فى مهمته الرعوية ، إذا تفهمت مركزها وواجباتها . وقد أثبت هذا النظام على مر العصور فاعليته وجدارته . ولولاه ، ولو أن كنيسة الاسكندرية حتمت أيضاً أن يكون قساوستها متبتلين — أى من طغمة الرهبان — لتشتت القطيع فى غمرة الاضطهادات فى عصور الظلم والظلام ، عندما تخربت الأديرة وهدم معظمها وهجرها قاطنوها ، ولأصبحت كنيسة الاسكندرية فى خبر كان .

حقيقة أن مصر مهد الرهبنة ، ولكن الرهبنة لم تنشأ فى حضن الكنيسة . كان الأنبا باخوم أب الشركة يحرم على رهبانه قبول الرتب الكنسية . ولم يكن بياء البرية وفى مقدمتهم الأنبا أنطونيوس والأنبا باخوم والأنبا شنوده والأنبا مكاريوس والأنبا آمون من الكهنة وظلوا كذلك طوال حياتهم . وكان الأنبا باخوم يستعير كاهناً من القرى التى حوله لأجل خدمة المذبح . وكان فى وادى النطرون قمص واحد للخدمة يلقب (بقمص شيهيت) .

وفى القرن الرابع فكر القديس أثناسيوس الرسولى أن يدعو النساك إلى

خدمة الكنيسة على أن يكونوا من أمرائها فقط أى أساقفة ، وله فى ذلك رسالة شهيرة إلى الناسك سرابيون يلح عليه فيها فى قبول الأسقفية لخدمة الرب وخدمة القريب . وكان له فى ذلك حكمة وهى أن من قضى ردحاً من الزمن يعيش تحت قوانين الرهبنة الصارمة ، يعرف كيف يحافظ بدقة على النظام الكنسى الذى يشبه النظام العسكرى فى دقته . فالناسك الذى كان يرى جديراً بخدمة الكنيسة كان يدعى للأسقفية فقط ، ومع مرور الزمن استحسن أن يكون جميع الأساقفة من طغمة الرهبان حتى يكونوا متفرغين لخدمة الرب والقريب دون أن يحنثوا بنذرهم .

وإذا كانت كنيسة الاسكندرية قد حادت عن تقاليدها عندما أنعمت على الرهبان دون تمييز وبدون سبب برتبة القسوسية بعد وقت قصر أو طال — لحكمة لا أفهمها — فى العصور الأخيرة ، مما جلب عليها وعلى الرهبان الكثير من المتاعب .

واليوم ، فى القرن العشرين ، يستصوب المفكرون فى الكنيسة الكاثوليكية النهج الذى سارت عليه كنيسة الاسكندرية ، بل يرون أن مقتضيات العصر ، مع التقدم الفكرى والتكنولوجى ، يحتم أن يكون القس متزوجاً ، وقد كشف قرار كنيسة هولندا على ما كان يجيش فى الصدور منذ وقت طويل.

(مجلة مدارس الأحد — مارس وابريل ١٩٧٠ م)



الباب السادس عشر

بعض التراجـــم



كان الدكتور منير شكرى يهتم كثيرا بنشر الوعى الإجتماعى والثقافى بين الشباب وأفراد المجتمع . والصورة له فى إحدى المحاضرات الثقافية بجمعية الشبان المسيحية بالاسكندرية .

الفصل الأول

بعض التراجم التى كتبت للنشر فى الموسوعة القبطية
جرجس فيلوثاؤس عوض

(١) ولد فى طنطا فى ١٧ أكتوبر عام ١٨٦٧ م .

(٢) دخل فى خدمة الحكومة موظفاً فى السكك الحديدية ، بوظيفة تذكرجى فرع رشيد بمحطة الباب الحديد بالأسكندرية .

(٣) وعمل فى نفس الوقت وكيلاً ومكاتباً لمجلة التوفيق وجريدة مصر ، فطلب من الأنبا يؤانس وكيل الكرازة المرقسية نقله من المدينة لأن المجلة والجريدة المذكورتين كانتا تناصران رجال الإصلاح القبطى فى خلافاتهم مع البطريرك .

(٤) نقل إلى القاهرة عام ١٩٠٠ م ، حيث مكث ست سنوات كان يحرر فيها فى مجلة التوفيق . ثم عاد إلى الأسكندرية عام ١٩٠٦ .

(٥) وعندما تنيح حموه الأيغومانس فيلوثاؤس إبراهيم إشترى مكتبته التى كانت زاخرة بأندر الكتب والمخطوطات ، وترك خدمة الحكومة .

(٦) وإفتتح مطبعة بإسم المطبعة المصرية الأهلية بحارة شق الثعبان المتفرعة من شارع كلوت بك وعكف على الكتابة والنشر مما فى حوزته من كتب قديمة ونفيسة مثل المجموع الصفوى لإبن العسال ، وقد بلغت مكتبته حداً أن وضعها فى شقة خاصة فى شبرا ، وجعل لها أميناً راهباً من دير القديس أنطونيوس يدعى القمص يوحنا السبكى .

(٧) ومن مؤلفاته وما نشره مما أثرى به المكتبة التاريخية والدينية :

١ ــ حكمة الشريعة فى ترجمة صلوات البيعة .
٢ ــ تنوير المبتدئين فى تعليم الدين .
٣ ــ الحجة الأرثوذكسية .
٤ ــ الله الواحد .
٥ ــ الخلاصة القانونية فى الأحوال الشخصية .

٦ ــ مجموعة خطب للأيغومانس فيلوثاؤس .
وجميع هذه الكتب من تأليف الأيغومانس فيلوثاؤس .

ثم من وضعه وتأليفه :

٧ ــ تاريخ الأيغومانس فيلوثاؤس .
٨ ــ تهذيب الأخلاق ليحيى بن عدى .
٩ ــ تاريخ أبى الإصلاح القبطى (كيرلس الرابع) .
١٠ ــ خطبة النيروز .
١١ ــ تاريخ المجلس الملى ولائحته .
١٢ ــ خطبة ماسبيرو إفرنكى وعربى .
١٣ ــ ميمر القديسة دميانة .
١٤ ــ المجلة القبطية .
١٥ ــ القضاء الشخصى .
١٦ ــ القول اليقين فى وجوب إنتخاب البطاركة من المتزوجين .
١٧ ــ مبحث فى وجوب إصلاح قوانين الأحوال الشخصية عند الأقباط الأرثوذكسيين .
١٨ ــ محاضرة عن مشروع الأحوال الشخصية .
١٩ ــ محاضرة عن الزواج القبطى .
٢٠ ــ أساس التقاويم ، مبحث فى شم النسيم والأعياد المتنقلة والتواريخ .
٢١ ــ الجدول الدهرى لإستخراج الأعياد المتنقلة عند الأقباط .
٢٢ ــ اللغة القبطية والنطق بحروفها (الكتاب الأول) .
٢٣ ــ الجزء الأول من طريق الإصلاح المنشود .
٢٤ ــ ملحق الجزء الأول من طريق الإصلاح المنشود .
٢٥ ــ مشكلة دير السلطان .
٢٦ ــ القبط .
٢٧ ــ عثرة الكنيسة القبطية فى القرن العشرين .

يعقوب بك نخله رفيله
(١٨٤٨ ـ ١٩٠٥ م)

رجل له تاريخ جليل ويد طولى فى الحركة الإصلاحية الحديثة التى بدأ ظهورها على يد من تخرجوا من مدرسة الأنبا كيرلس الرابع . فقد سعى مع زملاء له عام ١٨٧٤م فى إيجاد أول مجلس ملى للقبط .

كان أستاذاً للغة الإنجليزية والإيطالية فى مدرسة حارة السقايين ونبغ عليه كثير ممن أرتقوا إلى الوظائف العالية فى ذاك الوقت ، وتعلم الفرنسية بمجهوده الشخصى وإشتغل بها ، وكان أيضاً ملماً بقواعد اللغة القبطية .

ثم ترك المدارس وخدم الحكومة فى المطبعة الأميرية ، وإكتسب خبرة واسعة فى المطابع وشئونها ، وعندما أنشئت مطبعة التوفيق عين رئيساً لها ودرب عمالها ، كما كان مرشداً فى إنشاء مطبعة الوطن القديمة وجريدتها .

وعين فى مصلحة الأملاك الاميرية حيث شغل مركزاً جليلاً ، وأحيل بعد ذلك إلى المعاش وأنعم عليه بالرتبة الثانية .

وعندما أنشئت شركة سكة حديد الفيوم الضيقة عين سكرتيراً عاماً لها إلى أن توفاه الله .

إهتم بالتاريخ القبطى ، وكان ثقة فيه يعتمد عليه ، وقد تمكن بعد جهد شديد وإطلاع على كثير من المخطوطات والمراجع من وضع كتاب (تاريخ الأمة القبطية) سنة ١٨٩٩م مازال يعتبر من أهم المراجع خصوصاً فيما يتعلق بالعصر الحديث وأهم الحركات الإصلاحية فيه .

ووضع كتاب (التحفة المرضية فى تعليم الإنكليز اللغة العربية) ، خدم به راغبى تعلم اللغة العربية من البريطانيين .

وكذلك وضع لمن يرغب فى تعلم الإنجليزية كتاب (الإبريز فى تعلم لغة الإنكليز) وكان يحض كثيراً على تعلم اللغة القبطية التى هى مفتاح التاريخ المصرى .

وما أن سمع أول نداء فى سبيل الإصلاح حتى كان أول الملبين فى سبيل النهوض بمرافق القبط والإنتصار للفقير والمعوز فإنضم إلى « الجمعية القبطية الإصلاحية » عام ١٨٧٤ فكان أحد عمدها ، وفى إنتخاب المجلس الملى الثانى عام ١٨٨٣ م إنتخب ضمن النواب وكذلك فى المجلس الثالث عام ١٨٩٢ م.

وكان له اليد الطولى فى تأسيس جمعية دينية فى ذلك الوقت تسمى جمعية « الله معنا » وأسس فى منزله « النادى القبطى » أنشأه فى بادىء الأمر لأغراض علمية ثم مالبث أن تغلبت عليه روح الإصلاح ، فجعله وسيلة لبث تلك الروح فى أفئدة قصاده ، وصادفه فى ذلك نجاح كبير ، فأعد من الرجال من له عوناً على الإصلاح ، كما أسس نادياً علمياً دعاه Anglo-Egyptian Discussion Club كان مكانه فى بادىء الأمر فى مدرسة الإقتصاد التى صارت تدعى فيما بعد مدرسة التوفيق . ولما إتسع نطاقه وزاد عدد قصاده ، إتخذ له محلاً خاصاً وكان غرضه من إنشائه زيادة التعمق فى اللغة الإنجليزية ، وكان يرأس الجلسات فيه أستاذ إنجليزى من المتضلعين فى تلك اللغة وآدابها ، يحاضر فيه الشبان ويتناقشون ويتحاورون بها أيضاً ، وقد إستمر طويلاً وأفاد الكثيرين من الشباب فى تلك الأيام .

ولما تأسست جمعية التوفيق المركزية بالقاهرة كان من أعضائها العاملين ومن أعظم أعضاءها ..

لم يمل عن المطالبة بالإصلاح وحفظ حقوق الأرامل والأيتام وعدم التلاعب فى الأموال الموقوفة عليهم .

وعندما أنتقل إلى الفيوم أسس فيها مدرسة للصبيان وأخرى للبنات وفرعاً لجمعية التوفيق . وتوفى يوم الجمعة ١٤ إبريل سنة ١٩٠٥ فى الثامنة والخمسين من عمره .

المصدر

ـــ كتاب تاريخ الأيغومانس فيلوثاؤس إبراهيم ـــ لجرجس فيلوثاؤس عوض .

ميخائيل عبد السيد
فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر

(١) كان مدرس أول اللغة الإنجليزية فى مدرسة الأقباط الكبرى التى أنشأها الأنبا كيرلس الرابع .

(٢) تخفى مع تادرس بك وهبى الذى كان ناظر هذه المدرسة وجندى بك إبراهيم ودخلوا الجامع الأزهر للتعمق فى اللغة العربية .

(٣) أنشأ جريدة الوطن فكانت أول جريدة ينشئها مصرى ، ولم يكن [illegible] فى ذاك الوقت سوى جريدة الأهرام . ومالبثت أن صار صوتها عاليا ولكلمتها وزنها فى أواخر حكم إسماعيل وأوائل حكم توفيق . وكانت تطبع فى المطبعة التى أحضرها أبو الإصلاح أنبا كيرلس الرابع .

(٤) وإشترك مع آخرين فى إنشاء مكتبة لبيع الكتب التى كانوا يطبعونها على هذه المطبعة سواء أكانت أدبية أو دينية أو تاريخية . وكانت معروفة بكتبخانة الوطن . وكان مكانها على يمين الداخل إلى الدرب الواسع من ناحية شارع كلوت بك .

(٥) من أبنائه الطبيب الشهير والإنسان والعالم دكتور إبراهيم عبد السيد باشا ، الذى كان رئيساً لقسم الأمراض الباطنية فى المستشفى المواساة بالأسكندرية .

المصادر

١ ــ (تاريخ الأنبا كيرلس الرابع) من كتاب (نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر) لتوفيق إسكاروس ، الجزء الثانى .

٢ ــ الأقباط فى القرن العشرين ــ الجزء الأول لرمزى تادرس .

دكتور أخنوخ فانوس
العلامة المتشرع

(١) ولد فى أبنوب عام ١٨٥٦م. أدخله والده الخواجه فانوس روفائيل من أعيان مديرية أسيوط، مدرسة أسيوط الإنجيلية فتعلم فيها مبادىء اللغتين العربية والإنجليزية والعلوم اللاهوتية .

(٢) ثم قدم إلى القاهرة مع أولاد خاله المرحوم الخواجة واصف خياط وإنتظم فى مدرستها الإنجيلية حيث أظهر تفوقاً ملحوظاً مما دعا أسرته إلى إرساله إلى الجامعة الأمريكية ببيروت لإتمام تعليمه عام ١٨٧٠م. حيث نال شهادة البكالوريوس ، وكان أبرع الطلبة فى الخطابة وأشدهم ذكاء .

(٣) وعند عودته إلى وطنه إشتغل بالتجارة وتمكن بذلك من درس الحياة الإقتصادية عملياً ، وخصص جزءاً من وقته فى خدمة الإنسانية فسعى مع الساعين فى تأليف الجمعيات الخيرية . وفى عام ١٨٧٨م نقصت المواد الغذائية فى الصعيد بشكل ملحوظ فألف جمعية خيرية فى أسيوط لمساعدة المنكوبين مما خفف عنهم الكثير ، حيث تمكن بمكانته ونخوته من جمع مبلغ طائل خفف به هذا الشقاء الكبير عن عاتق الكثيرين .

(٤) ومازال يجد ويجتهد فى خدمة وطنه بما يوحيه به إخلاصه وعلمه حتى نال ثقة الأهالى وتقدير الحاكمين فإنتخبته أبنوب نائباً عنها عام ١٨٨٣م. ثم إختاره الأمريكيون نائباً عنهم فى أسيوط بعد إعتماد نظارة الداخلية لما أظهر من كفاءة وفضل على أبناء وطنه وخصوصاً على أهل بلدته الذين يذكرون إلى اليوم أنه أنشأ لهم مدرستين كبيرتين على نفقته الخاصة لتعليم البنين والبنات .

(٥) وعند إفتتاح المحاكم الأهلية عام ١٨٨٤م إشتغل فى المحاماة وأظهر من

ضروب البراعة فى التشريع ما جعل له مركزاً سامياً بين رجال القضاء والمحاماة . وإنتخب رئيساً للمجلس الإنجيلى الأعلى فى القاهرة .

وبالإجمال فقد كان خطيباً بارعاً ومحامياً شهيراً وكاتباً بليغاً إستخدم مواهبه فى خدمة أمته القبطية . كما كان متشرعاً نابغة مما جعل الجامعة الأمريكية ببيروت تمنحه درجة الدكتوراه فى القانون عام ١٩١٠ .

المصدر

ـــ (الأقباط فى القرن العشرين) الجزء الثالث للأستاذ رمزى تادرس .

عطية بك وهبى
(١٨٧٨ ـــ ١٩١٤ م)

(١) كان أحد رجال الإصلاح المرموقين فى العشرينات الأخيرة للقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، الذين حملوا شعلة الإصلاح وجاهدوا ليتبوأ مواطنوهم المركز اللائق بهم وبتاريخهم بين الأمم . كان له ولع بالتاريخ والأدب وشغف بالسياحة فى البلاد الأوروبية ، حيث قام بزيارة المتاحف والمؤسسات العلمية وإتصل ببعض نوابغ الغرب فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وروسيا ، مما وسع مداركه وجعله ذا ثقافة واسعة .

(٢) ولد بناحية طليا مركز أشمون مديرية المنوفية ، وبعد التعليم الأولى فى قريته ، ذهب إلى مدرسة المرسلين الأمريكان فى القاهرة ، ثم أتم دروسه العربية والفرنسية بمدرسة الأقباط بحارة السقايين ، وهى المدرسة التى كانت فى ذاك الوقت قبلة طلاب العلم والراغبين فيه ، أنشأها الأنبا كيرلس الرابع أبو الإصلاح ، ومنها تخرج المرحوم بطرس باشا غالى وغيره من نوابغ ذاك العصر .

(٣) ودخل فى خدمة الحكومة عام ١٨٨٦ م حيث إمتاز بالكفاءة والنزاهة والإخلاص ، ونال الرتبة الثانية عام ١٩٠٩ م .

(٤) ولم تحل كثرة أعماله دون إشتغاله بالعلم والأدب والبحث والتحرير مما أهله للإتصال برجال الأدب والعلم والصحافة فى ذاك الوقت .

(٥) ومنذ عام ١٨٩٢ م أخذ يهتم بالشئون القبطية والمالية ، وإبتدأ فكان أحد المؤسسين لجمعية التوفيق ، وساعد فى تحرير مجلتها ونشراتها ، ثم إنضم كعضو عامل فى جمعية النشأة القبطية بحارة السقايين حيث تولى فيها الشئون الثقافية بالمحاضرات القيمة التى كان يلقيها فيها .

وإستطاع عام ١٩٠٣ م أن يقدم للمجمع العلمى المصرى بحثاً تاريخياً طريفاً عن المرأة وما كانت عليه فى العصور الفرعونية .

(٦) وإمتد نشاطه الثقافى إلى خارج مصر ، فإنتخب عضواً فى الجمعية الأسيوية بباريس التى نشرت له العديد من أبحاثه فى مجلتها . كذلك كان عضواً بالجمعية الإجتماعية بفرنسا برآسة المسيو ادمون ديمولان واضع كتاب (سر تقدم الإنجليز السكسونيين) وعند إنعقاد مؤتمر الأثار الدولى بالقاهرة عام١٩٠٩م قدم بحثاً قيماً عن الفنون القبطية وعلاقتها بالفنون الفرعونية . وفى عام ١٩١١ نشر بحثاً عن القوانين الدولية فى أيام الفراعنة . وفى عام ١٩١٠ ألقى محاضرة عن الإقتصاد السياسى عند قدماء المصريين .

(٧) بل دفعته غيرته فى نقل كا ما فيه تقدم بنى وطنه أن شرع فى ترجمة كتاب وضعه ادمون بعنوان (سر تقدم الإنجلوسكوسنيين) ، وبينما هو فى سبيل ترجمته إذ يهديه صديقه أحمد فتحى زغلول باشا نسخة قام بترجمتها لذلك الكتاب ، فحمد الله أن هناك من شعر بشعوره وتقدم فى نشر أجمل وأنفع الكتب لخير مصر والمصريين .

(٨) وقامت جماعة من المصلحين يطالبون بإعادة المجلس الملى الذى كان قد أوقف نشاطه منذ بضع سنوات ، فكان فى مقدمة من أنضم إليهم ، وألفوا جمعية سموها أولاً (جمعية التوفيق المركزية) فى ٢٤ أغسطس ١٨٩١ إنتخب سكرتيراً لها ، وسرعان ما كونت فروع لها فى بعض عواصم القطر ، وفازت بمبتغاها .

(٩) وبعد ذلك وفى أثناء ذلك كرس جزءاً كبيراً من جهوده لترقية المرأة مؤمناً بأن تعليمها وإعطاءها الحرية هما أهم ضمان لرفع شأن الأمة وتقدمها ، إستأذن المرحوم قاسم أمين فى ترجمة كتابه عن تحرير المرأة وأذن له ولكن وقفت أمامه كعقبة الناشرون الفرنسيون ، وقامت جمعية لإنشاء كلية للبنات تحت رآسة المرحوم نجيب بطرس غالى باشا فكان أكبر المتحمسين لها ، وجرد قلمه وفصاحته للدعوة إلى التبرع لها ومساعدتها ، وتنقل فى سبيل ذلك فى بعض عواصم القطر كالمنيا وأسيوط والفيوم والأسكندرية ، وظل علمها الخفاق إلى أن وافته المنية عام ١٩١٤ م .

(١٠) كان عطية وهبى شعلة من الذكاء والغيرة القومية والنشاط ، لم يدع وسيلة إلى تقدم بنى وطنه تفوته ، وإعتقد بأنها فريضة عليه القيام بها بكل ما أوتى من قوة ، ولكن المنية لم تمهله لموالاة مجهوده فى هذه الخدمة المقدسة ، فبعد مرض طويل توفى فى ٣٦ نوفمبر ١٩١٤ بالغاً من العمر ٤٦ عاماً .

المصدر

ـ (الأثر الذهبى للمرحوم عطية بك وهبى) للأستاذ راغب إسكندر المحامى .

باسيليوس بك

(١) يقول المؤرخ الإنجليزى باتون فى كتابه (تاريخ الثورة المصرية) المطبوع عام١٨٦٣م الجزء الثانى ص ٢٨١ : « لم يأخذ الباشا (محمد على) فقط ما يستطيع من القبط ، الذين قبل ومنذ الفتح العثمانى أظهروا دائماً مهارة فريدة فى الحساب ومسك الدفاتر ، ولكنه رفع أيضاً أفراداً عديدين من هذا الجنس إلى رتبة البيكوية .. وكان باسيليوس بك رئيس إدارة الحسابات (مثل منصب وزير المالية الآن) أكثرهم ذكاء . توفى فى نوفمبر عام١٨٤٧م وأسف عليه كثيراً المسيحيون والفرنسيون » .

(٢) ويخبرنا القس جورج مقار أن محمد على ، وقد أراد أن يصلح الظلم الكبير الذى تم فى زفتى بقتل والد هم المعلم غالى ، فقد أكرم أبناءه الثلاثة وأضفى عليهم رعاية أبوية وأنعم عليهم بالرتب ، فكان باسيليوس أكبرهم أول قبطى أنعم عليه برتبة البيكوية .. وإستطاع بمقدرته الكبيرة أن يلى والده فى منصبه وأن يصير الذراع اليمنى لسمو الخديوى ، إذ عينه مدير عام المالية المصرية ، وبعبارة أخرى وزير المالية ووصل إلى أسمى ما يمكن أن يصل إليه مصرى .

وإقتسم أخواه معه هذا التكريم ، فعين دوس بك باشكاتب الخازندار وكان منصباً هاماً فى ذاك الوقت ، وعين طوبياً بك مفتشاً عاماً للأقاليم .

(٣) ولما قتل المعلم غالى دعا محمد على باسيليوس وقال له « أن أباك قد مات » فأجابه « حاشا لله ياسيدى فإنى لا أعرف لى أبا غير أفندينا » فسر الباشا لجوابه هذا وخلع عليه محاسبجى الحكومة المصرية وغمره بأنعامه وإحسانه وأنعم عليه بالرتبة الثانية وهو أول من حازها من النصارى وبقى فى هذه الوظيفة حتى مات .

وكان محبوباً عند الباشا ولما مات حزن عليه وأسف لفقده . ولا يزال إسمه يذكر بين النصارى بالثناء والتبجيل . وكان الوالى يعول عليه كثيراً فى بعض الأمور ومما يحكى عنه أنه غضب عليه مرة وأمره أن يلازم بيته ولا يخرج منه . وإتفق أنه كان جالساً ذات مرة مع ذوات حكومته فسألهم إذا كان يوجد نوع من الزرع يعطى الفدان منه أربعين أو خمسين أردباً فقالوا لا يوجد فأرسل فى الحال وأحضر باسيليوس بك وسأله هذا السؤال فقال نعم يوجد ما يعطى أكثر من ذلك بكثير جداً وهو البصل فسر الباشا من جوابه ورضى عنه . (تاريخ الأمة القبطية) .

المصادر

١ ــ كتاب (تاريخ الايغومانس فيلوثاؤس إبراهيم) لجرجس فيلوثاؤس عوض .
٢ ــ كتاب (تاريخ الأمة القبطية) ليعقوب نخله رفيله .

المعلم عريان جرجس مفتاح
توفى عام ١٨٨٠ م

كان يعرف جيداً اللغة القبطية فعينه الأنبا كيرلس الرابع أستاذاً لها فى المدرسة التى أنشأها بجوار الكنيسة المرقسية . وهو أول من علمها على حسب القواعد فى المدارس الحالية وأوجب على كل قبطى أن يتعلمها . وينقل إلينا المؤرخ جرجس فيلوثاؤس عوض عبارة مكتوبة فى نسخة أجرومية جاء فيها ما يأتى « أن أول رجل علم اللغة القبطية هو عريان جرجس فى المدرسة الكبرى القبطية بمصر . وهو ألف أجرومية فى هذه اللغة على النسق العربى ، ألف أيضاً الأعراب وهو هذا المؤلف (يقصد أجرومية المعلم عريان والأعراب الذى نسبه بعضهم لنفسه) ، وركب جملاً ومحاورات مكتوبة فى كتب أخرى . وأنشأ الكلمات إنشاء اللغة كما هو مثبوت فى الكتب القديمة التى جمعها قدماء معلمى هذه اللغة » .

المصادر

— كيرلس الرابع أبو الإصلاح القبطى لجرجس فيلوثاؤس عوض .
— تاريخ القمص فيلوثاؤس إبراهيم لجرجس فيلوثاؤس عوض .

المعلم غالى

(١) هب محمد على من قلب مقدونيا إلى أرض الفراعنة فرأى فى القبط بقية أمة تحلم بأمير عادل يخرجها من طور الرق الذى كانت ترزح فيه فى عهد المماليك الحالك الظلام إلى نعم الحرية ، وكان هو ذلك الأمير المرتجى، بسطت له أكفاً وتفتح له حزناً ، وبعاونته برجالها الذين وجد فيهم رؤوساً مفكرة ، كما وجد فيهم إخلاصاً شديداً فى خدمة الأمة وتفانياً كبيراً فى حفظ الوطن وسلامته من الطوارىء ، فقدم لهم هذه الصفات بذكائه .

(٢) وقد إستوزر محمد على عقب توليه عرش مصر رجلاً عصامياً كان وكيلاً لمحمد بك الألفى الزعيم الأكبر للمماليك . إستوزره لذكائه وبعد نظره ، وقوة إرادته ، وما كان يتحلى به من وطنية عالية وحزم . وكما يقول يعقوب نخله رفيله فى كتابه (تاريخ الأمة القبطية) كان يعرف من أين يؤكل الكتف ، وهو المعلم غالى .

عينه محمد على باشا عام ١٨٠٥ م فى منصب أكثر قليلاً من وزير المالية فى عصرنا الحالى ، ويقول القس جورج مقار الذى صار بطريركاً للأقباط الكاثوليك بإسم كيرلس مقار فى كتابه (تاريخ كنيسة الأسكندرية) ، أن الفرعون الجديد أحضر يوسف الجديد وسلمه الإدارة العامة للمالية فى مصر .

(٣) وقد ساس هذا الوزير الملك بحكمة ودبر الأعمال برزانة حتى تمكن خلال خدمته من أن يحفظ عرش مصر من الدسائس التى كانت تحيط به ، وساعد الباشا على تنفيذ أغراضه فى الرقى بالبلاد ، بنشاطه فى تحصيل الأموال التى كان محمد على فى أشد الحاجة إليها ، خصوصاً عندما قام الجنود الألبان بثورتهم لزيادة مرتباتهم ، بينما كانت الجنود المصرية تقاتل فى البلاد العربية الوهابيين : وكان بهذه الصفات يزاحم وينافس المعلم جرجس الجوهرى فى الحظوة والمكانة لدى الباشا .

وفى ذلك يقول الجبرتى فى كتابه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) عند حديثه عن الذين ماتوا عام ١٢٢٥ هـ « لم يزل على حالته ــ أى المعلم جرجس الجوهرى ــ حتى ظهر المعلم غالى وتداخل فى هذا الباشا وفتح له الأبواب لأخذ الأموال ، والمعلم جرجس يدافع فى ذلك ، وإذا طلب الباشا طلباً واسعاً منه يقول له هذا لا يتيسر تحصيله فيأتى المعلم غالى فيسهل له الأمور ويفتح له أبواب التحصيل فضاق خناق المعلم جرجس وخاف على نفسه فهرب إلى قبلى ثم حضر بأمان وإنحط قدره ولازمته الأمراض حتى مات ، وخلا الجو للمعلم غالى وتعين بالتقدم ووافق الباشا فى أغراضه الكلية والجزئية » .

(٤) إحتاج محمد على إلى بنادق لجيشه ، ولما رأى أن ثمنهافىأوروبايوازى نحو نصف المبالغ التى يجب إنفاقها على صنعها فى مصر جمع وزراءه وشاورهم فى الأمر فإتفقوا جميعاً على مشتراها من أوربا إلا المعلم غالى الذى قال يجب أن تصنع فى بلادنا حتى ينتفع أبناء وطننا والصناع منهم فوافقه محمد على وأكبر قدره .

(٥) وقام فى سبيل وضع أسس منظمة لجمع الأموال الأميرية بمسح عموم أراضى مصر وجزأها إلى بلاد ثم جزأ أطيان كل بلدة إلى حياض وجعل لكل منها زمام خاص وبذلك عرفت الحكومة ميزانيتها ، ونمت إيراداتها نمواً عظيماً .

(٦) وأشفع تلك الخدمة الجليلة بخدمة أخرى فقسم القطر إلى أقاليم وإخطاط منظمة وجعل لكل إقليم عاصمة يستقر فيها الوالى ولكل خط بندراً يستقر فيه الحاكم وكان يسمى أغا .

(٧) وبعد أن أتم هذه الأعمال الجليلة كثر حساده ، ويقول المؤرخ الفرنسى مانجان فى كتابه (تاريخ مصر فى عصر محمد على) وكان شاهد عيان لذلك العهد « أن المال فى الدول الشرقية هو سبب جميع المصائب » ، وفى ذلك يقول يعقوب نخله رفيله فى كتابه (تاريخ الأمة القبطية) ، « إتفق أن الباشا كان قد توجه إلى الأسكندرية

لمهمة وإحتاج لنقود فطلب من المعلم غالى صرف ستة آلاف كيس كانت باقية عليه فإعتذر بعدم قدرته على الإتيان بها ، وهو ساع فى تحصيلها ، فلم يقبل منه هذا العذر وأرسل إلى كتخدا فى مصر بالقبض عليه وعلى أخيه فرنسيس وأمينه المعلم سمعان وسجنهم فى القلعة حتى يدفعوا هذا المبلغ ، وخاف المعلم جرجس الطويل وحنا أخوه سوء العاقبة وكان فى نفسهما شيء من جهة المعلم غالى فأخذا يحطان عليه ووسوسا للباشا أنه إذا حوسب يظهر عليه ثلاثون ألف كيس ، وتعهد بأنه إذا فوض لهما عمل حسابه ولم يظهر عليه هذا المقدار يكونان ملزمين بأدائه للخزينة ، فإشتد غضبه عليه وعزله من رآسة الكتبة وولى آخر مكانه ، وضيق عليه فى الحبس وأهانه إهانة شديدة ، وكرر الضرب على أمينه حتى أشرف على الهلاك ، وإستمر سجن المعلم غالى ، وأفرج عن أخيه ليأتى بالمال المطلوب ، وبعد جهد جهيد لم يفلح فى الإتيان بأكثر من عشرة آلاف كيس ، وتشفع الكثيرون له لدى الوالى ، وتدخل الطبيب الخاص لمحمد على وإستطاع أن يجعله يتنازل إلى ١٢ ألف كيس. والغريب أنه بعد كل هذا أرجع المعلم غالى إلى منصبه ، وإضطر الوشاة إلى تكملة المبلغ المطلوب » ، ويضيف الجبرتى أنه منذ ذلك اليوم زادت ثقة محمد على فى المعلم غالى حتى جعله (كاتب سره) . وكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الأقاليم ، وإستمر فى هذا المنصب الجليل حتى قتل عام ١٨٢٢م لأسباب لاتزال حقيقتها خافية ، وكان ذلك فى مدينة زفتى بيد إبراهيم باشا إبن محمد على ، وكان إبنه الصغير طوبيا بك حاضراً تلك المأساة التى وقعت فى أوائل شهر مايو عام ١٨٢٢ م .

(٨) يقول ثلاثة من المؤرخين الفرنسيين الذين كتبوا عن عهد محمد على أن الشيء الوحيد الذى كان يمكن أن يلام عليه المعلم غالى هو صراحته فى شيء من العنف والإعتداد بالنفس ، وكانت تنقصه الرقة فى معاملاته .

(٩) ويفرد القس جورج مقار كل ما أصاب المعلم غالى من سوء سواء أكان حبساً أو نفياً أو جلداً إلى حسد زملائه وحقدهم عليه لإعتناقه

مذهب الكثلكة ، وهو هنا يتكلم بعقلية رجل الدين فى كتاب ينعى فيه على القبط عدم إعتناقهم مذهب الكثلكة وإتباعهم لكنيسة روما .

المصادر

١ ــ كتاب (تاريخ الأمة القبطية) ليعقوب نخله رفيله .

٢ ــ فذلكة فى تاريخ الأمة فى القرن التاسع عشر من كتاب (تاريخ حياة الايغومانس فيلوثاؤس إبراهيم) لجرجس فيلوثاؤس عوض .

٣ ــ (الأقباط فى القرن العشرين) الجزء الثانى ، لرمزى تادرس .

المعلم ملطى يوسف

كتب يعقوب نخله رفيله فى كتابه (تاريخ الأمة القبطية) المطبوع سنة ١٨٩٩م ما يأتى « لما إستقر الفرنسيون فى مصر شرعوا فى ترتيب ديوان للنظر فى قضايا التجار والعامة ، فكان مركباً من أثنى عشر عضواً ستة منهم من النصارى والقبط وستة من تجار المسلمين وجعلوا المعلم ملطى القبطى رئيساً له . ولا نعرف شيئاً عن هذا الرجل سوى أنه كان فى الأصل كاتباً عند أيوب بك الدفتردار ، ثم ترقى فى أيام الفرنسيس إلى أن صار رئيساً لهذا الديوان . ولما خرج الفرنسيين من مصر قبض عليه الوالى العثمانى وقتله » .

وكتب توفيق اسكاروس فى الجزء الثانى من كتابه (نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر) عن الجبرتى ، بما لا يخرج عما كتبه يعقوب نخله رفيله .

الايغومانس فيلوثاؤس إبراهيم
راعى الكنيسة المرقسية بالأزبكية
(١٨٣٧ ــ ١٩٠٤ م)

(١) خطيب الكنيسة القبطية وواعظها ولسانها وفمها الذهبى .

(٢) هو فلتاؤس إبراهيم بن بغدادى من أعيان طنطا ، ولد عام١٨٣٧م وتعلم فى الكتاب مبادىء العلوم الأولية ، ثم إستخدم فى أحد المحلات التجارية ببلدته حيث ترقى فى مدة قصيرة إلى أن صار رئيساً لكتبة هذا المحل ، وتعلم اللغة الإيطالية ، لغة التجارة والحركة فى ذاك الوقت .

(٣) فى سنة ١٨٥٥ عين كاتباً فى مديرية روضة البحرين التى كانت تشمل الغربية والمنوفية ولبث فيها سنتين .

(٤) ثم إستقال منها وذهب إلى العاصمة قبيل عودة أبى الإصلاح القبطى الأنبا كيرلس الرابع من أثيوبيا عام١٨٥٧م بوقت قصير . ويروى يعقوب نخله رفيله أن البطريرك رأى علامات الذكاء بادية على محياه فحثه على تعلم اللغتين القبطية والعربية وأصول الدين المسيحى فى مدرسته التى أنشأها فى البطريركية . ولم يهمل التقدم فى اللغة الإيطالية فى نفس الوقت .

(٥) تعين ناظراً فى مدرسة قبطية أنشئت فى المنصورة ، وقام فيها بتدريس اللغة القبطية ولكن بوفاة الأنبا كيرلس الرابع توقفت هذه المدرسة وإضطر أن يعود إلى القاهرة حيث تعين الأستاذ الأول للغة القبطية فى مدرسة حارة السقايين ، ومساعداً للأستاذ عريان مفتاح فى المدرسة الكبرى ، التى قام أيضاً بتدريس اللغة الإيطالية فيها .

(٦) وبعد وقت قصير دخل فى هيئة الكهنوت فصار راعياً لأنفس المؤمنين الذين أؤتمن عليهم ، وأصبح من رجال الدين المعدودين الذين لهم

مآثر عظيمة فى الخدمة العمومية ويدأعاملةفى الإصلاح العصرى ، فكرس قساً عام ١٨٦٣ على كنيسة طنطا ورقى عام ١٨٦٥ إلى رتبة قمص ، ثم أنتخب عام ١٨٧٤ واعظاً للكنيسة المرقسية الكبرى بالقاهرة التى عين بعد ذلك رئيساً لها وبقى فيها إلى أن تنيح عام ١٩٠٤ م .

(٧) ومن أثاره الخالدة تأسيس كنيسة طنطا بعد أن وقفت فى سبيلها العثرات وجمعه لكتاب المجموع الصفوى .

(٨) وعند إفتتاح أول مدرسة إكليريكية عام ١٨٧٥ قام بالتدريس فيها لأصول الدين المسيحى وتاريخ الأمة وشرح الإنجيل واللغة القبطية وترتيب خدمة القداس . وهو أول من قام فى العهد الجديد بالوعظ الإرتجالى ورغماً عما لاقاه من سوء المعاملة ومنعه من الوعظ فقد إستمر فى عمله .

(٩) كان يتلو القداس بالقبطية ثم يترجمه بالعربية وكان رائداً فى هذا المجال ، وكان يعارضه فى ذلك اقلاديوس بك لبيب الذى أصدر نشرة فى تحريم ترجمة القداس عام ١٨٩٩ م ، ورد عليه الايغومانس فيلوثاؤس برسالة بعنوان (حكمة الشريعة فى ترجمة صلوات البيعة) .

(١٠) كان يسافر المرة بعد الأخرى إلى الوجهين البحرى والقبلى ليقوم بالوعظ والإرشاد ، ومن أشهر سفرياته قيامه عام ١٨٨٣ إلى أسيوط إجابة لإلحاح كبار شعبها ليقوم بإرشاد من تشتت شملهم من أبناء الكنيسة القبطية ، وكان ذلك بناء على أمر من البطريرك وبطرس باشا غالى أيام المجلس الملى الثانى ، ومكث هناك ٤٥ يوماً مواظباً على الخطابة وتفسير نصوص الكتاب بهمة لم تعرف الملل ، وقد كتب له النجاح . وأثناء وجوده هناك طلب منه الأسيوطيون تشكيل مجلس ملى فرعى فشكله لهم حسب لائحة ١٤ مايو سنة ١٨٨٣ . كما كان ينوب عن البطريرك فى المأموريات المهمة لدى الحكومة .

(١١) كان عدم نجاح المجلس الملى الثانى وإختلال الأعمال الطائفية قد أثر تأثيراً سيئاً فى التقدم والنهوض بشئون الأمة ، وفتح باباً للعوامل

الخارجية تمكنت بواسطته من الولوج فيه وإجتذاب الكثيرين إلى غير كنيستهم ، فإستأذن من البطريرك فى أن يقوم بجولة فى أنحاء الوجه القبلى ليعيد إلى أحضان الكنيسة أبناءها ، وبدأ من مدينة أسوان عام ١٨٨٩ ، ونجح فى حضهم على التمسك بالإيمان القديم وربح نفوساً كثيراً ولبث فى رحلته زهاء الشهرين .

(١٢) لم تفته الحركة الإصلاحية فى عصره ، بل كان قطباً من أقطاب الإصلاح الملى ، وكان من أهم العاملين على السعى فى إيجاد مجلس ملى . وكان يحث الأعضاء على الإتحاد ، ويستنهض هممهم للنظر إلى مصلحة الأمة . وعندما إجتمع مجمع من المطارنة والأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار القسوس برآسة البطريرك وقرروا بأن المجلس الملى مخالف للدين إعترض القمص فيلوثاؤس على هذا القرا(أولاً) مراعاة لجانب الحكومة التى أصدرت أمرها بإيجاد المجلس الملى (ثانياً) أن مثل ذلك القرار يوجب الشحناء ويوجب البغضاء بين أبناء الأمة وبالتالى يؤدى إلى الخراب ، وقد رفض التوقيع رغماً عن الإلحاح .

(١٣) وخلاصة القول فقد إستخدم بلاغته ومواهبه الخطابية وعلمه فى الكتاب المقدس فى خدمة الأمة القبطية خدمة لم يقم بمثلها كاهن فى عصره ، كما وضع مواهبه هذه فى خدمة الحركة الإصلاحية فى ذاك الوقت .

(١٤) كان صريحاً وجريئاً فى الحق ويقول (لا) عند اللزوم ولا يخشى لومة لائم ، وبلغ من شجاعته الأدبية أنه عندما رأى البطريرك لا يتحرك من مكانه عندما كان يتقدم إليه الكاهن بالبخور ، أعلمه بأن الواجب عليه هو الإشتراك مع الكاهن .

(١٥) **مؤلفاته** : تدل مؤلفاته على تضلعه فى العلوم الدينية واللاهوتية والفلسفية فضلاً عن تمكنه فى اللغات العربية والقبطية والإيطالية . ومن مؤلفاته :

١ ـــ كتاب (الحجة الأرثوذكسية ضد اللهجة الرومانية) ينفى فيه ما يدعيه بابا روما من الرئاسة المزعومة .

٢ ــ كتاب (نفح العبير فى الرد على البشير) ــ فى المحاماة عن عقيدة الكنيسة المرقسية الأسكندرية .
٣ ــ خطبة عن ميلاد السيد المسيح .
٤ ــ خطبة عن القيامة .
٥ ــ كتاب (تنوير المبتدئين فى علم الدين) .
٦ ــ نبذة بعنوان (الله واحد) .
٧ ــ (الخلاصة القانونية فى الأحوال الشخصية) .
٨ ــ (تتمة الكلام على الكنائس والأديرة المصرية) .
٩ ــ نبذة بعنوان (حكمة الشريعة فى ترجمة صلوات البيعة) .
١٠ ــ رسائل أخرى لم تنشر .

(١٦) وقد نال وسامين من الخديو فى ذاك الوقت ووسام من إمبراطورية الحبشة .

(١٧) وبعد أن جاهد جهاده المشهور فى رعاية النفوس وفى معاونته للمصلحين على إتمام أمانيهم رقد فى سلام بالغاً من العمر ٦٨ سنة ، قضى منها ٤٣ سنة فى خدمة الكهنوت ، بعد أكثر من ثلاثين سنة فى الكنيسة المرقسية بالقاهرة . وكان الأسف لوفاته شديداً ، وأقامت له جمعية التوفيق إحتفالاً كبيراً وقف فيه الفضلاء والأدباء معددين مناقبه وأعماله الخالدة .

المصادر

١ ــ كتاب (تاريخ حياة الايغومانس فيلوثاؤس إبراهيم) لجرجس فيلوثاؤس عوض .
٢ ــ كتاب (الأقباط فى القرن العشرين) الجزء الثالث لرمزى تادرس .

الأنبا كيرلس مقار
أول بطريرك للقبط الكاثوليك (١٨٩٩ م)

(١) كان القس جرجس مقار كاهناً قبطياً كاثوليكياً غزير العلم ومتمكناً من اللغة الفرنسية . وضع كتاباً باللغة الفرنسية عن (تاريخ كنيسة الأسكندرية) حوالى عام ١٨٩٥ . وقد إتجه بهذا التاريخ إتجاهاً خاصاً إذ جعل مهداه ولحمته دعوة الكهنوت القبطى الأرثوذكسى والشعب القبطى بأن يضعوا أنفسهم تحت سيادة وسلطة بابا روما . مدعياً أن كنيسة الأسكندرية هى فى الأصل ربيبة كنيسة روما .

(٢) أمام هذا النشاط كوفىء من بابا روما بأن رسم أسقفاً على قيصرية فيلبس ثم أول بطريرك للقبط الكاثوليك فى مصر عام ١٨٩٩ ، بعد إنقطاع البطريرك الملكى منذ منتصف القرن الحادى عشر ، مما يفسر الخطبة التى ألقاها المنسنيور أغناطيوس يرزى أسقف القبط الكاثوليك بطهطا يوم تجليس البطريرك كيرلس مقار فى كنيسة درب الجنينة إذ قال : « هل لكم أيها الأقباط (الكاثوليك) أن تروا ـــ بعد إنصرام عشرة أجيال (قرون) ونيف ـــ بطريركاً كاثوليكياً جالساً على الكرسى الأسكندرى » . إلى أن قال مخاطباً هذا الكرسى : « إنهض من هذا الظلام وإرفع نظرك إلى النور ، فقد أشرقت عليك شمس الصلاح والفلاح ، إخلع عنك الحداد لباس المذلة ، وتسربل بحلة المجد ، فإن زمان ترملك قد إنقضى ، وأتاك عريسك كيرلس مقار متجملاً بكل الفضائل ، مزداناً بكل العلوم » (مطبوعة بالمطبعة المرقسية الكاثوليكية عام ١٨٩٩ صفحة ١٨) .

(٣) ونقرأ فى قائمة أعضاء المجمع المصرى عام ١٩٠٤ أنه قد إنتخب لعضويته وقد تلقب بلقب كيرلس الثانى . وله فيه بحث عن (إصلاح التقويم الأسكندرى) .

(٤) وله كتاب بعنوان (الوضع الالهى فى تأسيس الكنيسة) وضعه باللغة

الفرنسية وتولى ترجمته إلى العربية الأنبا مكاريوس مطران أسيوط بالإشتراك مع الأنبا إيسيذوروس (نعوم السرياني) فيما بعد .

(٥) حدث خلاف بينه وبين بابا روما فطلب منه البابا أن يستقيل من كرسي بطريركية الأسكندرية ، عندئذ أدرك أن بطريركيته لذلك الكرسي لم تكن إلا بطريركية وهمية ! فطلب إلى من بيدهم الحل والعقد من أحبار الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أن يقبلوه كأحد أفراد الهيئة الأكليريكية .

(٦) وله أيضاً مؤلف عنوانه (أخيراً نتكلم) باللغة الفرنسية مطبوع بالأسكندرية عام ١٩٩٠ .

(٧) ذهب بعد ذلك إلى بيروت حيث قضى بقية حياته .

(٨) وظل الكرسي الأسكندري للقبط الكاثوليك شاغراً بعد ذلك مدة أربعين عاماً .

المصدر

كتاب (الأمة القبطية وكنيستها الأرثوذكسية) للأستاذ فرنسيس العتر .

(كتب للنشر في الموسوعة القبطية) .

الفصل الثانى

الترحيب بالدكتور عزيز سوريال عطية



طيب الذكر الدكتور عزيز سوريال عطية الذى يرجع إليه الفضل فى تأسيس معهد الدراسات القبطية وفى إصدار أول موسوعة قبطية Coptic Encyclopedia .

سيداتى ، سادتى

إنه فضل عظيم من الله ، أن هيأ لنا هذه الفرصة الطيبة ، فى هذا المكان ، حيث التأم كل هذا الجمع المثقف ، للاستماع للمؤرخ العظيم ، الدكتور عزيز سوريال عطيه بك ، فباسم جمعية مارمينا العجايبى أرحب بحضراتكم أجمل ترحيب وأوجه خالص الشكر لإدارة المدرسة المرقسية ، ثم أقدم لكم فى كلمات سريعة خاطفة ، محاضرنا الذى سيحدثنا هذا المساء ، على هامش التاريخ القبطى .

ولست أدرى ان كان الأستاذُ المحاضر ، لا يزالُ يحتاجُ حقاً ، لمن يقدمُه لمواطنيه وبنى جنسه . وكل ما أعرفه على وجه التحقيق ، أن شهرته العلميةَ ، طبقت آفاقَ العالِم الغربى ، منذ عشر سنوات أو يزيد ، عندما طلع على الهيئاتِ والمعاهِد العلميةِ والتاريخيةِ هناك ، بسلسلةٍ من البحوث والدراسات ، التى سرعان ما أصبحت ، مراجع علمية وتاريخية ، لا يستغنى عنها رجال التاريخ بصفة خاصة ، ومؤرخو العصور الوسطى بصفة أخص ، فتهافتت عليه جامعات الغرب ، حتى ظفرت به جامعة بون بألمانيا ، فأجلسته فى إكرام وتكريم ، على كرسى الأستاذية لتاريخ القرون الوسطى ، ولعله كان حينذاك ، فى غنى عمن يقدمه ، أو يعرف به الناس هناك .

واليكم بعض هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر :ـــ

1 - The Crusade of Nicopolis.

2 - The Crusades in the late Middle Ages.

3 - Egypt and Aragon. Embassis of diplomatic Correspondence.

ويهمنا هنا أن نشير اشارة عابرة ، للمؤلف الأخير فقط ، الذى طبع عام ١٩٣٨م فى ليزيج . فهو فى صميم التاريخ القبطى ، ويتضمن وثائق ومخطوطاتٍ ، تاريخيةً خطيرةَ الشأن ، اكتشفها الدكتور عزيز بنفسه ، فى برشلونه عام ١٩٣٢ م .

ولا يخفى على حضراتكم أن العلماء المصريين كانوا إلى عهد قريب ، يكتفون بالرجوع إلى المؤلفات الغربية فيترجمونها ، أو يقتبسون منها ، أو ينقلون عنها ، وكفى الله المؤمنين شر القتال . أما أستاذنا الجليل الذى حبته الطبيعة ، بمواهبَ عقليةٍ ممتازة ، فقد كانت لديه الشجاعة الكافية ــ شجاعة القلب والعقل ــ فدخل البيوت من أبوابها ، وأمضى السنواتِ الطويلة ، فى برج عاجى كما يقولون . وما كان برجه العاجى سوى مكتبته ، التى انطوى فيها على نفسه ، يدرس ويبحث ويحقق ، فى صبرٍ ومثابرةٍ وطولِ أناه ، حتى إذا ما نضج الثمر ، ودنت القطوفُ من تلقاءِ نفسِها ، خرج على العالم العلى ، بمؤلفاته التى طرق فيها موضوعاتٍ جديدةً Original ضمنها أراءُ خطيرة ، غيرت كثيراً من الحقائق ، التى كان مسلما بها حين ذاك ، فكان بذلك أولَ عالِمٍ مصرى ، أثبت للعالم أجمع ، أن الدمَ المصرى ، الذى قاد العالم القديم ، وغمره علماً وحكمةً وفناً جميلاً ، لا يزال له ولله الحمد وجود .

أما مقالاتُه المنشورةُ فى كثيرٍ من المجلات العلمية ، ومحاضراته الخاصةُ والعامةُ ، فى مختلف الهيئات والبيئات ، فليس هنا بالطبع ، مجالُ تعدادِها أو الاشارةِ إليها .

أنه عالم حق وكفى !

وكما حبته الطبيعة بالتفوقِ العقلى والنبوغ ، فقد وهبته والحمد لله ميزاتٍ خُلُقيةً مثالية ، فهو رجل وديع ومتواضع بالطبيعة ، إلى أرق حدود الوداعة والتواضع ، حتى لتراه يقدمُ لزملائِهِ وطلابِهِ ، النصحَ والارشاد ، ويمدهم بالمعونة والتعضيد ــ فى بساطةٍ وحكمة ــ وكأنه يلتمس منهم هذه وتلك جميعاً . أما قلبُه الكبير فقد اتسع لمحبةِ الجميع وللعطِف على الجميع ، فهو دائماً يذكر الحسنات ، بل ويبرزها وينسى السيئات بل ويهملها .

إنه رجلٍ ذو خلق مثالى وكفى !

وعند الدكتور عزيز سوريال عطيه ، ضعف كما يقول الفرنسيون ، نحو أمته وبلاده ــ وطن الأباء والأجداد ، فتجده فى كل ما يكتب يهيىء الفرصةَ المناسبة ، ليتحدثَ عنها حديثاً صحيحاً صريحاً ، مدافعاً تارة ومهاجماً تارة

أخرى . كل ذلك فى كياسة ولباقة . والآن رجعةٌ إلى الوراء — إلى الماضى البعيد . فكل من له المام بالتاريخ المصرى القديم ، وبمميزات الأجداد الأولين ، فى أزهى عصورهم ، سواء من الناحية العقلية أو الخلقية ، لتبهره الحقيقة الواقعة ، وهى أن هذه وتلك ، قد تمثلت وتركزت جميعاً ، فى شخص هذا الرجل العظيم .

أنه مصرى صميم وكفى !

ولطالما تحدثنا بذلك نحن عارفى فضله وعلمه . ولكن فى غيابه ، وأنا عليم بأن حديثنا هذه المرة فى حضوره ، سيسيئه كثيراً ، ولعله سيحاسبُنا عليه حساباً عسيراً ، ولكن هل قلنا سوى أنه عالم حق ؟ ورجل مثالى حق ؟ ومصرى حق ؟ وهى صفات أراها ماثلة بكل وضوح فى العنوان البسيط المتواضع الذى اختاره بنفسه لمحاضرة هذا المساء (على هامش التاريخ القبطى)

الفصل الثالث

بانوب حبشي



طيب الذكر الأثرى بانوب حبشى
أول رئيس لجمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية

رجولة كاملة وشخصية قوية وحيوية متدفقة ، تربت ونمت وترعرعت فى أحضان كاهن وقور جليل من كهنة الكنيسة القبطية فى مركز قويسنا . تثقف ثقافة أثرية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهيأت له الأقدار منصباً محترماً فى المتحف اليونانى الرومانى بمدينة الاسكندرية ، فاتصل بعلماء التاريخ والآثار ، وعكف على مطالعة كتب المتحف النادرة وعلى الأخص كل ما اتصل بالمسيحية والقبط . هذه الظروف جميعها ، التربية والثقافة والبيئة ، وجدت أرضاً طيبة ، وارثة الكثير من صفات آبائنا وأجدادنا الطيبة ، فقدمت للقبط عالماً أثرياً ومؤرخاً من الطراز الأول . وقام يضع مواهبه ومعرفته فى خدمة أمته وكنيسته ، فاستطاع حوالى عام ١٩٤٥م أن يجد نفراً من الخلان مستعدين هم الآخرين لوضع كل ما أتوا من علم ومعرفة فى القيام بعمل إيجابى يرفع من معنويات الشباب ، ويخلق جيلاً ينأى عن الاجتهاد والارتجال فى ميدان الإصلاح ، متخذاً من تاريخ كنيسته وأمته نبراساً يهديه سواء السبيل ، ويجنبه مواطن الزلل . وقاموا بالعمل على نشر ذلك التاريخ فى دراسات علمية مبسطة .

وفى عام ١٩٤٦ وقف فى وسط خرائب مدينة كاملة شاملة ، قامت حول كنيسة مار مينا العجايبى فى صحراء مريوط ، فى عصر المسيحية الذهبى فى مصر ، وقف يخاطب ضمير القبط أجمع ، ممثلاً فى رهط من أصحابه ، قائلاً : « يتشكك بعض الناس فى سير شهدائنا وأبطالنا ، فها نحن نقدم لهم صفحة من صميم التاريخ القديم ، تؤيدها المخطوطات وتؤكدها المجموعات الأثرية المنتشرة حولكم وفى كل مكان ، فليست الحقائق التاريخية إذن هى التى تعوزنا ، بل يعوزنا ما هو أسمى وأعظم ، نعم يعوزنا الإيمان ... الإيمان القوى الصادر من الأعماق !!! فى معتقداتنا وفى أعمالنا وفى أقوالنا ، ثم فى حق أمتنا القبطية المجاهدة فى البعث والحياة والخلود . أيها الإخوة : إيمان مثل حبة خردل ... وكفى !!! » .

واتخذت تلك الجماعة من اسم « مار مينا العجايبى » زعيم شهداء القبط ، الشاب ، الجندى ، الشجاع ، الناسك ، ذى الثلاثة أكاليل ، شعاراً لها . وبدأت فقامت بإلقاء المحاضرات التاريخية فى الكنائس فى مناسبة أعياد الشهداء

والقديسين والبطاركة ، فلفتت إليها الأنظار ، وأردفتها بتوزيع نشرات تاريخية مجانية فى تلك المناسبات أيضاً ، وتدرجت إلى الرسائل وكان أهمها « رسالة القيامة » و « رسالة النيروز عن اللغة القبطية » و « الرهبنة القبطية » تلك الرسالة الفريدة التى تعتبر المرجع العربى الوحيد فى هذا الموضوع الممتع و « صور من تاريخ القبط » وأخيراً « صفحة من تاريخ القبط » ، وكان فى مقدمة من أخذ بيدها وشجعها فى تلك المؤلفات الأساتذة المشتغلون بالدراسات القبطية . وإذا بالأنظار تتجه إلى الدراسات القبطية التاريخية ، وتتسع دائرة هذه الدراسات فيفتح لها معهد عال فى القاهرة ! ولأول مرة فى الاسكندرية منذ العصور الوسطى تُنشأ كنائس تحمل اسم الشهيد القبطى العظيم مار مينا العجايبى ، وتسعى الجمعية فتستطيع الحصول على إذن بنقل أربعة أعمدة بقواعدها وتيجانها من صحراء مريوط لتوضع حول المذبح فى كنيسة مار مينا العجايبى بفلمنج بالرمل ، فكانت درة يتيمة خالدة فى هذه الكنيسة . وقام الكثير من المشتغلين بالدراسات القبطية من الأجانب يتصلون بالجمعية للحصول على ما يحتاجون إليه من معلومات .

ألست ترى معى أيها القارىء أن بانوب حبشى كان شخصية قوية ورائداً عظيماً فى هذا الميدان الذى بدأنا جميعاً نشعر بأهميته وبحاجتنا إليه . هذه الشخصية كانت تؤدى كل ذلك وغيره فى منتهى التواضع وإنكار الذات ، وكان أهم ما يزينها تقى عميق وإيمان أرثوذكسى قويم . وكان بانوب إلى جانب ذلك دمث الأخلاق ، حلو الحديث ، حاد الذكاء ، سديد الحكم ، موجز العبارة ، مرتب الذهن ، مرهف الحس ، هادىء الطبع .

وبينما هو فى أوج نشاطه وفيض حيويته ، إذا بمرض عصبى عضال خبيث يتسلل إليه فى بطء وهدوء فيؤدى إلى شلل أعضائه عضواً عضواً ، وبالرغم من علمه بعدم قدرة الطب عن إيقاف ذلك المرض عن السير إلى نهايته المحتومة ، فقد ظل دائم البشاشة ، شاكراً الرب على نعمه وأفضاله ، يجمع كل ما يتبقى له من جهد ليساهم فى كل رسالة .

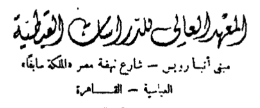
كان له أسلوب خاص فى الكتابة يمتاز بالمتانة والدقة والقصد فى التعبير ، وكأنه بناء ماهر لا يضع حجراً قبل أن يطمئن إلى أن سابقه بات فى مكانه

تماماً . كنت أدخل عليه وهو جالس فى منزله بجوار سريره ، يكتب مقاله الفريد الخالد ، عن ذلك القديس القبطى العظيم الذى رفعه معاصروه إلى مرتبة إيليا النبى « الأنبا شنوده » فى كتاب « صور من تاريخ القبط » ، والذى يعتبر أعظم مرجع عربى عن هذا القديس ، فكان القلم يهتز فى يده ، والعرق يتصبب من جبينه بينما هو يجمع شتات أفكاره ، وظل يوالى هذا المجهود أكثر من شهرين حتى أخرج لنا درته اليتيمة ، وهو لا يدرى كيف استطاع أن ينجزها !

وعندما أخرجنا رسالتنا الأخيرة « صفحة من تاريخ القبط » رجوته أن يملى علىّ مقدمة صغيرة ، وبعد إلحاح شديد أملى علّى فى صوت خافت يسمع بكل جهد المقدمة ، وكأنه كان ينشر على الملء الرسالة التى اضطلع بها فأداها أحسن أداء حين يقول : « ليس التاريخ فيما يزعم البعض أقاصيص تحكى وأخبار تروى على سبيل الفكاهة أو التسلية ، إنما التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب على السواء ، إنه يغذى الروح ويقوم النفس ويوحى بالفضائل والمثل العليا والمبادىء السامية الكريمة ، وهو فوق هذا كله يربط بين ماضى الشعوب وحاضرها ، وعلى ضوء ذلك تستطيع أن تتلمس طريقها نحو المستقبل ، مهتدية بما يحفل به من العبر الحافزة والذكريات النافعة » .

وفى صبيحة يوم الأحد ٣ يوليو ١٩٥٥ انطفأ ذلك القبس الوهاج وهوى ذلك الكوكب اللامع ، دخلت عليه وكان قد أغمض عينيه للمرة الأخيرة وقد أمسك بمسبحة بيسراه وبالصليب بيمناه ، فتمثلته أحد أولئك القديسين الأبطال المجاهدين الذين نرى صورهم على جدران كنائسنا ، رحم الله بانوب وعزى فيه الأمة والكنيسة القبطية وعوضنا فيه خيراً .

(مجلة مدارس الأحد ـــ سبتمبر ١٩٥٦ م)



المعهد العالى للدراسات القبطية

مبنى أنبا رويس — شارع نهضة مصر «الملكة سابقاً»

العباسية — القاهرة

رقم الملف ١٦/١/١ — ٩٠

مرفقات

السيد نائب رئيس جمعية مار مينا العجايبي

أتشرف بمناسبة جناز الاربعين على فقيدنا المرحوم الاستاذ بانوب حبشى رئيس جمعيتكم السابق، بأن اتقدم اليكم بالاصالة عن اخوانى وزملائى اساتذة معهد الدراسات القبطية، وبالنيابة عن نفسى، بارسال كلمات التعزية القلبية اليكم، بما يتفق وقدر الفقيد، ومكانته فى خدمة الكنيسة والتاريخ القبطى والاثار القبطية ؛ فقد قام رحمه الله بأجل الخدمات فى هذا الميدان، اذ اسس جمعية مار مينا العجايبي التى انجزت بواسطته منذ تأسيسها، البحوث الحديثة فى الدراسات القبطية، فاشغلت بها صفحات عدة مجلدات، تعتبر من اثمن ما يملكه الاقباط فى ايامنا، وقد كان الفقيد بهذا العمل الجليل، من اكبر العاملين على نشر الثقافة القبطية نشرا علميا مليا، ستذكره له هذه الامة طوال ايامها، ويسجله له اليوم معهد الدراسات القبطية . واننا لا زلنا نترنم بشجاعة الفقيد، الذى ظل يواصل جهوده اثناء مرضه الطويل المضنى، وهو على فراش الموت، مما يجب تسجيله له امام الاجيال القادمة . وهو بهذا الجهاد يذكرنا بسيرة اولئك الاباء القديسين، الذين زخرت بهم الكنيسة القبطية، فى عهدها الاول الغابر، فقد كان بانوب حبشى مقداما مخلصا، الى آخر لحظة من حياته، العامرة بالخير والانتاج العلمى والروحى

تغمد الله الفقيد برحمته الواسعة واسكنه مع قديسيه فى جنة الخلد .

مدير المعهد

(توقيع)

« دكتور عزيز سوريال عطيه »

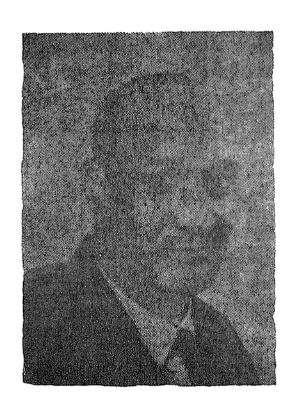
القاهرة فى ١٩٥٥/٢/٢٥

صورة للخطاب الذى أرسله الدكتور عزيز سوريال عطية بإسم المعهد العالى للدراسات القبطية بالقاهرة فى تأبين الأثرى بانوب حبشى .

الفصل الرابع

يسى عبد المسيح

(١٨٩٨ ـ ١٩٥٩ م)



فى أسى بالغ وحزن عميق تلقيت خبر وفاة العالم اللغوى والمتضلع فى الطقس الكنسى الأستاذ يسى عبد المسيح . وضعت جانبا الجريدة التى نشرت خبر نعيه ، ونشرت فى نفس الوقت أنه أحد ثلاثة علماء فى مصر فى اللغة القبطية وأصولها ، وتمثلت تلك الشخصية الهادئة الوديعة المتواضعة ، تمثلتها فى ركنها المعهود فى مكتبة المتحف القبطى ، حيث كان يجلس فى هدوء ، بعيداً عن الضوضاء وضجيج العالم ليبحث ويطلع ، وليقدم مساعدته القلبية الخالصة لكل من يقصده من طلاب البحث من الشبان والعلماء ، فى بساطة وإنكار ذات .

لقد نال تقدير ومحبة كل من أحتك به ، ولكنه ظل مغموراً فى ركنه ، لأنه « ليس من أصحاب الشهادات العالية » ، فلم يحظ بأى تقدير جدير به فى محيط عمله ، ولكن لم ينل منه ذلك ، ولم يثنه عن أبحاثه وعن خدماته ، بل وعن محبته للجميع . لقد كان كالناسك يجلس فى محرابه مكتفياً بالقليل ، حتى فى علاج مرضه .

ولكن مما يحز حقاً فى النفس أسى ، أن كنيسته التى أحبها من كل قلبه وخدمها بكل إخلاص ، لم تلتفت إليه يوماً ، بل ولم تستفد من بحر علمه وإخلاصه . ولو كان الأستاذ يسى — نيح الله روحه وطيب ثراه — عند طائفة أخرى ، لا أقول فى الخارج ولكن فى مصر ، لقربه رجال الكنيسة وأنعموا عليه بالألقاب والرتب ، ليغمروه بعد ذلك بالتقدير المادى ، حتى يشعر بالراحة والطمأنينة ، ويكون ذلك حافزاً لكل من أراد خدمة الكنيسة عن طريق التبحر فى طقوسها وعلومها . لقد قالوا أن علماء اللغة القبطية اليوم فى مصر ثلاثة — وقد صاروا الآن اثنين — فهل فى شباب هذا الجيل من يستطيع أن يحل محلهم ؟ لا أظن ! لأنهم يرون أن فى ذلك مخاطرة من الناحية المادية والأدبية !

لقد تشكلت لجان منذ عام ١٩٤٨م لوضع لائحة انتخاب البطريرك مثلاً ، وكانت تؤلف فى الغالب من أشخاص لا عهد لهم بخدمة الكنيسة أو بالتبحر فى تاريخ الكنيسة وطقوسها . فهل فكروا يوماً فى أن يشركوا معهم ذلك العالم الجليل ؟ لا ! بل قد تطوع ، رحمه الله ، وكتب كثيراً فى طقس الكنيسة

المتعلق بذلك الموضوع وغيره ، فلم يلتفت إليه أحد ، لأنه ليس من أصحاب المؤهلات والرتب ، بل حتى رجال الكنيسة مع اعترافهم بفضله وعلمه كانوا ينظرون إليه كرجل « غلبان » ، عوضاً عن أن يرفعوه ويغدقوا عليه ، تكريماً للعلم وتشجيعاً لغيره .

فعسى أن تكون وفاته نقطة بداية ، تبحث فيها الكنيسة عن علمائها العلمانيين وتحلهم المحل اللائق بهم ، وتستفيد من علمهم وخبرتهم إلى أقصى حد ، وتعمل ما فى وسعها لتكريمهم ، وتعرف لكل ذى حق حقه ، فتضع بذلك أساس نهضة فى محيطها سداها العلم ولحمته العمل .

ويا حبذا لو قامت مجلة مدارس الأحد مثلاً بجمع أبحاثه التى نشرها فى كتاب ليكون نبراساً للكثيرين الذين يعملون فى حقل الرب .

نيح الله نفسه بقدر ما قدم من خدمات لأمته ، وأسكنه فسيح جناته ، وألهمنا جميعاً الصبر والسلوان .

(مجلة مدارس الأحد ــ أبريل /مايو ١٩٥٩ م)

قالوا عن الأستاذ يسى عبد المسيح

نيافة الأنبا غريغوريوس (أسقف الدراسات العليا والثقافة القبطية والبحث العلمى):

عالم جليل من علمائنا الأقباط الذى تتلمذت أنا عليه فترة ما فى الشباب المبكر عندما كنت طالباً بالكلية الاكليريكية فى الثلاثينات وكان هو يقوم بتدريس اللغة اليونانية وبعض القبطيات ، ولكننى بعد ذلك ، وفى غير ذلك تتلمذنا على كتاباته ، وظلت صلتنا به قوية إلى يوم وفاته .

القمص منقريوس عوض الله (أستاذ علم طقوس الكنيسة بالكلية الاكليريكية سابقاً):

كان حجة فى العلوم الكنيسة ، عاش للعلم الكنسى وكرس حياته المباركة لخدمة الكنيسة . تبحر فى معرفة طقوسها الكنسية واللغة القبطية واللغة اليونانية . لقد كان حجة علمية ومرجعاً اكيدا لا يكاد يخلو مؤلف قبطى من مجهود مشكور للأستاذ يسى عبد المسيح . إنه المثل الأعلى للرجل المتفانى فى حب كنيسته وفى خدمة علومها .

الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية :

إنه ينبغى ألا ينسى المسئولون من المهتمين بالدراسات القبطية الأستاذ يسى عبد المسيح وما قدمه من دراسات فتحت الطريق أمام الكثيرين حتى سمعنا عن أهتمام المتحف القبطى بالأشتراك مع اليونسكو فى الكشف عن الدراسات الغنوسية Gnosties وعن رسالة توما وترجمتها .

الأستاذ الدكتور أزولد برمستر :

كان ذا خبرة خاصة بالأسلوب الكنسى فى اللغة العربية ، وبطريقة الكتابة لكتاب العربية الدينيين فى العصور الوسطى ، مما جعل لإشتراكه فى نشر تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية قيمة فائقة ... وقد وضع عدة بحوث ومقالات هامة عن الذكصولوجية والمزامير القبطية ، والكتب غير القانونية وتاريخ القديسين .

الأستاذة إيريس حبيب المصرى :

الأستاذ يسى عبد المسيح كان أول من علمنى اللغة القبطية وبالتالى أوصلنى إلى تعلقى الشديد بكنيستى المحبوبة مما جعلنى أندفع فى التأريخ لها .

الأستاذ الدكتور مينا بديع عبد الملك :

إن كنت لم أحظ برؤيته شخصياً لصغر سنى فى ذلك الوقت ، ولكن عندما بدأت الأهتمام بالدراسات القبطية وبالأخص فى مجال الطقوس الكنسية وجدت فى البحوث التى كتبها الأستاذ يسى معيناً لا ينضب وذخيرة حية . بل وأقول اكثر من هذا أنى وجدت روح كنيسة أصيلة متغلغلة فى هذه البحوث .

الفصل الخامس

القمص يوحنا سلامة

نعى الناعى فى هذا الأسبوع فى أسطر قليلة نياحة القمص يوحنا سلامة وكيل مطرانية الأقباط الأرثوذكس بالخرطوم سابقاً ، فى صفحة الوفيات بجريدة الأهرام . وقرأ هذا النعى أبناء هذا الجيل ، أو غالبية القبط كما يمرون على نعى أى كاهن .

القمص يوحنا سلامة خدم كنيسته أجل خدمة فى احرج وقت لها .

ففى مستهل القرن العشرين ، كان قد تكون بين القبط جمهرة من المتعلمين المثقفين الذين شعروا بحاجة ماسة إلى تفهم طقوس كنيستهم ومعتقداتها وإذا بالقمص يوحنا أحد رهبان الدير المحرق وناظر مدرسته فى ذاك الوقت (عام ١٩٠٩) ينبرى لسد هذا النقص ويصدر فى جزأين كل منهما فى نحو الستمائة صفحة كتابه « اللآلىء النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة » .

وصار مرجعاً ثميناً مازال جمهرة كهنتنا يغترفون من فيضه .

وقالت جريدة الوطن فى عددها الصادر يوم ١٧ مايو عام ١٩٠٩ « لم يكن للأقباط قبل اليوم وسيلة يستعينون بها على معرفة ما يجب معرفته من طقوس كنيستهم وترتيبات عبادتهم — فهم مازالوا إلى الآن يدخلون إلى البيع ودور الصلاة فلا يفهمون إلا القليل مما يرونه بأعينهم ويسمعونه بآذانهم من جهة لأنهم لا يجيدون اللغة القبطية .

ومن الجهة الأخرى لأنهم لم يتعلموا منذ صغرهم من كتاب أو من أستاذ ما هى أصول تلك الطقوس وأسباب وضعها بهذه الكيفية وما أودع فيها من الأغراض الروحية والمقاصد الدينية السامية » .

بقى هذا الأمر نقصاً ظاهراً لدى الأقباط وتردد ذكره على أقلام الكتاب الغيورين وأشاروا بضرورة تفهم القداس وشرحه لكل شاب متعلم حريص على كنيسته وتمنى الجميع لو أن العناية الإلهية تتيح لهم الوسيلة إلى ذلك فأجاب الله هذا السؤال بواسطة جناب الأب الورع القمص يوحنا سلامة ناظر مدرسة

الرهبان الأكليريكية بالدير المحرق ، فهزته الغيرة على مجد كنيسته ودفعته المحبة لبنى قومه ، فوضع كتاباً يسد هذا النقص ويقضى الحاجة المبتغاة .

وبعد نياحة الأنبا كيرلس الخامس قام فريق من رجال الأمة من عارفى فضله ومقدرى خدمته لكنيسته ، يرشحه لكرسى مار مرقس ، ولكن كان قد بدأ عصر ترشيح المطارنة لكرسى البطريركية ، فوضع حداً لمثل ذلك السعى .

ولم نعد نسمع بعد ذلك عن ذلك الجهد الجبار الذى إستطاع أن يحصر لنا طقوس ومعتقدات الكنيسة فى أعظم مرجع فريد من نوعه ، حتى نعاه الناعى بالأمس .

وقفة خشوع وترحم على القمص يوحنا سلامة الذى خدم الكنيسة خدمة جليلة .

(جريدة مصر ٢٨ إبريل ١٩٦٠ م)

كتب المؤرخ جرجس فيلوثاؤس عوض فى كتابه « عثرة الكنيسة القبطية فى القرن العشرين » المنشور عام ١٩٣٠ م ما يلى :

وبينما القبط يعملون على ترشيح الكفؤ الذى ينتظر منه أن يعمل على الإصلاح لأن أحوالهم قد أمست فى حال يرثى اليها من أعمال رجال الدين ، وكانت الأنظار متجهة الى القمص يوحنا سلامة وكيل مطرانية الخرطوم وبعضهم يميل الى أحد رؤساء الأديرة، ظهر بينهم من يطلب اقامته (الأنبا يؤنس مطران البحيرة والمنوفية) بطريركاً ناسبا ذلك الى ايعاز سلطة كبرى نافذة القول وبعد أن ذهب وفد من الجمعيات حيث قابلوا أعضاء المجلس الملى فكانت اجابتهم انهم بعيدون عن فكرة تعضيده وقرروا عدم ترشيحه . وما هى الأ عشية وضحاها حتى صدر الأمر الملكى رقم ٨٤ فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٨ م ونشر فى عدد من الجريدة الرسمية اسماء خاصة ابدت رأيها من قبل بتعضيده ليكون دون سواه بطريركا . ولم يدرك احد السر فى ذلك الأ » بعد أن نشفت البركة وبانت زقازيقها » . (أى إن أسماء الأعيان من الأقباط التى صدرت فى الجريدة الرسمية لإنتخاب البطريرك كانت معظمها من المؤيدين للانبا يؤنس مطران البحيرة والمنوفية) .

الفصل السادس

إسكندر قصبجى
(١٨٩١ ـ ١٩٦٣ م)



المستشار اسكندر قصبجى
مرتدياً وسام الليجيون دونور Legion d'honneur الذى منحته له الحكومة الفرنسية

رجل من رجالنا القلائل الذين قلما يجود الزمان بأمثالهم ، والذين يضيفون بأعمالهم إلى معالم طريق النهضة والإصلاح الذى يجب أن يسير فيه كل شاب ، مؤمن بحق أمته القبطية الجاهدة فى البعث والحياة والخلود .

وشخصية قوية جذابة ، قوتها فى تفكيرها الراجح السديد ، وجاذبيتها فى التواضع ودماثة الخلق ، تكسب محبة وإحترام كل من يسعده الحظ بالتعرف بها والعمل معها . هذه الشخصية التى أضاءت فى سماء البلاد والكنيسة ردحاً من الزمن ، هوت يوم ١٥ يونيو وهى تجاهد فى سبيل الكنيسة وفى سبيل العلم والثقافة ، لا تعرف حداً لذلك الحب الذى يملأ قلبها العامر بالإيمان.. وبينما هو يشعر فى أيامه الأخيرة بشدة وطأة المرض عليه لا يرجو من الأيام شيئاً سوى أن تمهله ليتم آخر عمل قام به ، إذ يكتب فى أوائل هذا العام ويقول : « الحقيقة أنى محتاج لسنة لأستكمل القاموس القبطى العربى الفرنسى الإنجليزى » .

لقد بدأ هذا القاموس منذ بضع سنوات، بينما كان يجاهد فى ميدان آخر ، إذ رأى أن حى الزمالك يفتقر إلى كنيسة ، فقام مع نفر من أصحابه يجاهد فى سبيل الحصول على المال وفى سبيل بناء كنيسة تتفق ونهضتنا والحى الذى تقام فيه . وما أن أتمها حتى عمل فيها شماساً ومعلماً للغة القبطية التى أحبها منذ شبابه وآلى على نفسه أن يهب لها شيئاً من الحياة ، وكأنه فى كل ذلك يوفى نذراً غالياً عليه محبباً إلى نفسه .

كل ذلك شرع فيه بعد أكثر من ربع قرن من الجهاد فى الميدان الطائفى الإجتماعى والكنسى والثقافى فى صمت وشعور بالواجب .

فإسكندر قصبجى عضو المجلس الملى العام يكسب إحترام إخوانه وثقتهم إذ يقوم بكل مايعهد به إليه من أعمال بدقة . ويجلس على منصة القضاء فى الأحوال الشخصية فيضع دائماً أمام ناظريه مصلحة الأسرة المسيحية عاملاً على توثيق عراها .

وتلجأ إليه الجمعيات كناصح أمين فيسدى إليها النصح خالصاً ويساعدها بكل ما يستطيع من قوة .

وينتخب عضواً فى مجلس إدارة معهد الدارسات القبطية فيقوم بدور عملى فى تنفيذ البرامج الثقافية وتعرف له الكنيسة جهوده وفضله فتنتدبه أكثر من مرة للسفر إلى أثيوبيا ليشترك فى محادثات دقيقة ، فكان خير الممثل لكنيسته الذى يمثل فى حديثه وسلوكه الدبلوماسى الواسع الأفق المرن ، وإنتدبته بعد ذلك فى مجلس الكنائس العالمى وبالرغم من توعك صحته فقد سافر إلى الهند وحضر إجتماعات اللجان فكانت له مكانة مرموقة بين الأعضاء .

وكان يتوج كل هذه الأعمال الهدوء والتواضع والبعد عن الدعاية .

وإذا كان الولد سر أبيه ، فقد كان والده المرحوم جندى بك يوسف القصبجى على رأس الحركة الإصلاحية القبطية التى ظهرت بوادرها عام ١٨٧٤م عندما قام مع نفر من صحبه — وهم الذين لقبهم المؤرخ جرجس فيلوثاؤس عوض بعمد الإصلاح — يطالبون بإنشاء مجلس يشرف على الأموال الموقوفة على البر وعلى تنفيذ وصايا الواقفين ، وإنتهى الأمر بإنشاء المجلس الملى . وإشترك جندى بك بعد ذلك فى تأسيس جمعية المساعى الخيرية التى عرفت فيما بعد بإسم الجمعية الخيرية القبطية الكبرى . وترك لنا مذكرات قيمة عن هذه الفترة وحوادثها وهى التى أعتمد عليها المرحوم جرجس فيلوثاؤس عوض فى كتابه عن تاريخ المجلس الملى وعندى نسخة مخطوطة منها .

تشرب إسكندر بهذه الروح الإصلاحية وعمر قلبه بحب بلاده وكنيسته وسار على الدرب الذى وضع والده معالمه ، فكان بحق الإبن البار .

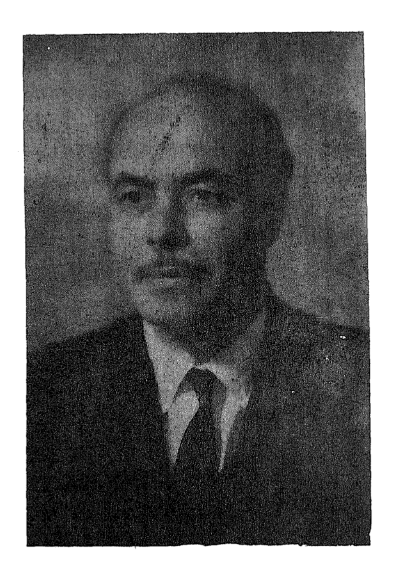
وبعد فقد كان إسكندر كاتباً بليغاً باللغة الفرنسية يكتبها كأحد أبنائها النابهين وله أسلوب ممتع تذوقه وأعجب به كل من كان يقرأ له فى الجرائد الفرنسية بمصر أو من قرأ له بعض مؤلفاته الفرنسية وقد سخر قلمه هذا فى خدمة القضية المصرية منذ الحركة التى قام بها سعد زغلول .

هذا هو الرجل الذى فقدناه والذى سيزداد شعورنا بفقده كلما مرت الأيام ، والذى يجب علينا أن نحيى ذكراه فى قلوبنا بأن نترسم خطاه ونخدم بلادنا وكنيستنا بالحماس والإخلاص اللذين خدمهما بهما .

(مجلة مدارس الأحد — أغسطس ١٩٦٣ م)

الفصل السابع

بديع عبد الملك غطاس
١٩٠٨ ـ ١٩٧٩ م



طيب الذكر الأستاذ بديع عبد الملك غطاس عضو مجلس إدارة جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية.
والأثرى بالمتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية .

أيها الإخوة الأحباء

كم يعز عليّ أن أقف اليوم لأرثى صديقى وزميلى المرحوم الأستاذ بديع عبد الملك ، صادقته وزاملته منذ أن كنا طلبة فى المدرسة العباسية الثانوية ثم فى جمعية مار مينا العجايبى بالإسكندرية فكان نعم الصديق المخلص الوفى . كانت الوداعة وحب الخدمة وإنكار الذات أهم صفاته ، تجلت فى أبهى مظاهرها عندما ساهم مع رئيس جماعتنا السابق المرحوم الأستاذ بانوب حبشى والزملاء الآخرين فى تأسيس جمعية مار مينا العجايبى ، فأصدروا نداءً إلى أبناء الأمة القبطية عام ١٩٤٥ قالوا فيه « تأسست جمعية مار مينا العجايبى بنعمة الرب لتخدم كنيستكم المجاهدة وأمتكم الخالدة عن طريق الثقافة الدينية والتاريخية ، وهى ناحية لم تنل حتى الآن أية رعاية أو أهتمام جدى رغم ما لها من أثر فعال فى حياة الأمم ونهضة الشعوب ... » وختموه بقولهم « والعاملون فى الجمعية يدركون تمام الإدراك ما يتطلبه ذلك من جهد وأعباء ، ولكنهم يؤمنون برسالتهم من الأعماق ، ويتطلعون إلى الجميع راجين منهم النصح والإرشاد والمعونة » .

وعندما أصدرنا رسالتنا الأولى عام ١٩٤٧ بعنوان (رسالة مار مينا فى عيد القيامة) والتى صمم غلافها الطريف فقيدنا العزيز بفنه الرفيع وذوقه السليم ، تطوع الأستاذ المؤرخ الكبير دكتور عزيز سوريال عطية بكتابة كلمة فى صدرها جاء فيها « وشعلة اليوم هى تلك الجماعة الصغيرة المتواضعة التى التفت حول اسم مار مينا العجايبى معتصمة بأساليب المحبة ونكران الذات والتضحية التى مات هو من أجلها منذ قرابة سبعة عشر قرناً تحت حكم دقلديانوس العاتية فى القرن الثالث الميلادى .

لقد درست نشاط هذه الجماعة ، فوجدته نشاطاً هادئاً مضطرداً ، تشمله بساطة المبدأ السليم ، تظلله أجنحة السلام الداخلى ، فى تواضع من غير ضعة ، وفى حماس من غير جلبة ، وتزينه ثقة العلم ورجحانه ، جنباً إلى جنب مع حرارة الإيمان وحلاوته » . وكأنه كان يصف فقيدنا العزيز الذى كانت تتجلى فيه هذه الصفات . وتوالت بعد ذلك رسالاتنا الطريفة التى كان لها صدى واسعاًوعميقاًفى أوساط الشباب بل والأوساط العلمية ، إذ يقول مؤرخنا

الكبير فى موضع آخر ومناسبة أخرى فى رسالة إلينا « لقد أنجزت جمعيتكم منذ تأسيسها البحوث الحديثة فى الدراسات القبطية فامتلأت بها صفحات عدة مجلدات تعتبر من أثمن ما يملكه الأقباط فى أيامنا » .

وفى خلال تلك المدة كانت قد ثبتت فى أذهان بعض المهتمين بالدراسات القبطية الذين اشتركوا معنا فى مسيرتنا ، وفى مقدمتهم الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية فكرة إنشاء معهد الدراسات القبطية ، إذ وجدت مؤلفاتنا أرضاً خصبة وجمهوراً متشوقاً إلى المزيد من هذه الدراسات ، واستعداداً طيباً من شبابنا المتشوق إلى المعرفة والثقافة .

وهكذا كانت هذه الجماعة التى ساهم فيها فقيدنا العزيز بكل ما أوتى من مواهب لإنجاح رسالتها ، من أكبر العاملين على نشر الثقافة القبطية نشراً علمياً سليماً .

واليوم إذ نذكر له مشاركته وفضله فيما قامت به جمعيتنا من أعمال جليلة فى هذا الميدان نرجو رب الكنيسة أن يعوض كل من له تعب فى ملكوت السموات ، وأن يتغمد فقيدنا العزيز برحمته الواسعة ويسكنه مع قديسيه فى فردوس النعيم .

وإنى نيابة عن أسرة الفقيد وعن الجمعيات المشتركة فى هذه الذكرى أشكر جميع الإخوة الذين شاركونا وأرجو الرب أن يجنبهم كل سوء .

له المجد فى كنيسته دائماً أبداً أمين ،،،

(كلمة ألقيت فى ذكرى الأربعين بكنيسة السيدة العذراء ـــ محرم بك ـــ الإسكندرية فى ١٢ فبراير ١٩٧٩ م) .

بديع عبد الملك غطاس

وُلد فى ١٠ يوليو ١٩٠٨ م ببلدة سدود محافظة المنوفية ورقد فى الرب فى فجر عيد الميلاد المجيد ٧ يناير ١٩٧٩ م . تدرج فى مراحل التعليم المختلفة بمدينة الإسكندرية فحصل على الشهادة الأبتدائية من مدرسة محرم بك الأبتدائية بالإسكندرية ثم شهادة البكالوريا (القسم العلمي) من المدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية عام ١٩٢٧ م . وفى الفترة بين أول يناير ١٩٣٢ م إلى آخر ديسمبر ١٩٣٩ م عمل بالمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة والذى كان قد بدأ يزاول عمله فى مصر أعتباراً من ١٧ مايو ١٨٩٨ م وكان مدير المعهد فى ذلك الوقت عالم الآثار الفرنسى مسيو شاسينا Chassinat وفى فترة عمله بالمعهد أشترك مع بعثة المعهد فى العمل بمعبد دندرة بمحافظة قنا (١٩٣٢ م ـــ ١٩٣٣ م) وأيضاً معبد أدفو (١٩٣٥ م) ومعبد مدينة هابو (غرب الأقصر) . سافر إلى باريس ـــ فرنسا عام ١٩٣٧ م لمتابعة العمل فى كتاب معبد دندرة الذى أصدره المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ثم عاد إلى مصر عام ١٩٣٩ م إبان الحرب العالمية الثانية . ومما جاء فى مقدمة كتاب معبد دندرة : « لقد نُفذت الألواح ذات الخطوط بواسطة رسام مصرى شاب ـــ بديع أفندى عبد الملك ـــ الذى أستطاع فى وقت قصير ـــ أن يكتسب الثقة والدقة فى العمل الذى نُعجب به لدى اجداده القدامى » . وفى ١٢ أبريل ١٩٤١ م ألتحق للعمل بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية . فى مجال التنقيب عن الآثار عمل مع بعثة المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية فى المناطق الآتية : كوم الشقافة بالإسكندرية (١٩٤١ م ـــ ١٩٤٢ م) ، عمود السوارى بالإسكندرية (١٩٤٢ م ـــ ١٩٤٣ م) ، سيرين الليبية (مايو ، أغسطس ١٩٤٣ م) ، كوم الدكة بالإسكندرية (١٩٤٩ م ـــ ١٩٥٢ م) ، قرية « كافلة » مركز أبو حمص ـــ محافظة البحيرة (١٩٥٩ م ـــ ١٩٦٠ م) ، وفى عام ١٩٥١ م قام بعمل أربع لوحات فرعونية للمتحف البحرى التابع لوزارة الحربية والبحرية الملكية بالإسكندرية فى ذلك الوقت . وفى أثناء عمله بالمتحف ألتحق للدراسة بكلية الآداب جامعة الإسكندرية وحصل على ليسانس التاريخ عام ١٩٥٦ م . ولخبرته فى شئون رسم الآثار أستدعاه المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية لمرافق بعثة المعهد للعمل بجزيرة فيلة وذلك ضمن المشروع العالمى لإنقاذ آثار النوبة فى يوليو ١٩٦١ م . ساهم بفنه وخبرته فى رسم الآثار فى العديد من المؤلفات التى تجاوزت ثمانية مؤلف تعتبر من أمهات المراجع فى علم المصريات ولها شهرتها العالمية فى الأوساط العلمية .

فى مجال الدراسات القبطية كان أحد المؤسسين لجمعية مارمينا العجايبى للدراسات القبطية بالإسكندرية التى تأسست عام ١٩٤٥ م وساهم أيضاً بفنه فى الرسائل التى أصدرتها الجمعية منذ عام ١٩٤٧ م .

كما أن هيئة الصحة العالمية بالإسكندرية أسندت إليه مسئولية إعداد جميع النشرات التى كانت تصدرها بالعربية والإنجليزية والفرنسية للتوعية الصحية فى جميع أنحاء العالم بالإضافة إلى إعداد كتاب التقرير السنوى للهيئة . كان يجيد اللغة العربية الفصحى بالإضافة إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، مما ساعده على الإطلاع والإلمام بالثقافات العربية والإنجليزية والفرنسية .

الباب السابع عشر

متنوعـــات



تمثال الراعى الصالح بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية

الفصل الأول

سفر التثنية ونظرة المسيحية إليه

عنى آباء الكنيسة والمفسرون فى عصر الآباء وعلماء مدرسة الإسكندرية ، وفى مقدمتهم العلامة أوريجانوس ، بسفر التثنية فى كتاب العهد القديم .

ويطلق اليهود على هذا السفر (خامس كتب الشريعة الخمسة) ، فهو الكتاب الخامس للشريعة الموسوية ، وتلخيص للقوانين والحوادث التى سبق ذكرها فى الكتب الأربعة السابقة . وقد اقتبس الشراح ــ شراح العهد الجديد ــ من سفر التثنية أكثر من أى كتاب آخر من كتب الشريعة الموسوية . ورغماً عن أن بعض الكتاب قد حاول أخيراً التشكيك فى نسبة هذا السفر إلى موسى ، فإن إعتقاد اليهود وبعد ذلك المسيحيين فى أن موسى هو واضعه لم يتطرق إليه الشك منذ ثلاثة آلاف سنة ، فكثيراً من الأقوال فى سفر القضاة وراعوث وصموئيل والملوك وأرميا وأشعيا وهوشع وعاموس فى كتاب العهد القديم ، والمقتبسات فى أقوال يسوع والرسل فى العهد الجديد ، توحى بلا جدال بالاعتقاد بأن موسى هو واضعه . ويقتبس القديس بولس من سفر التثنية فى رسالته إلى الرومانيين فى الاصحاح العاشر الآية التاسعة عشرة ، وينسب ما اقتبس إلى موسى نفسه .

وهذا السفر هو فى واقع الأمر مجموعة من ثلاث خطب أو مواعظ ، خطبها موسى بينما كان فى سهول موآب شرقى نهر الأردن قبل نياحته ، ووفقاً لما جاء فى الإصحاح الأول لهذا السفر والآية ٣ ــ ٥ ، بدأ موسى أقواله فى اليوم الأول من الشهر الحادى عشر من السنة الأربعين منذ خروج اليهود من مصر ، وتنيح بعد ذلك بشهر واحد بالغاً من العمر مائة وعشرين سنة .

فمحتويات سفر التثنية قيلت وسجلت إذن فى مدى شهر واحد باستثناء الفصل الأخير الذى أضيف بعد نياحة موسى ، ربما بواسطة يشوع لأجل أن يختم السفر .

وكانت الغالبية العظمى التى استمعت إلى هذا السفر ، عندما نطق به موسى ، من الجيل الجديد حينذاك ، إذ عندما خرج اليهود من أرض مصر

تحدوهم روح عالية وآمال واسعة ، هلك الكثير منهم فى صحراء سيناء ، ولم يتبق من البالغين الذين كانت سنهم تزيد على عشرين عاماً عند الخروج قبل ذلك بأربعين عاماً غير موسى ، سوى يشوع وكالب . ولذلك فقد كانت غالبية من استمع إلى خطب موسى فى آخر أيامه هم الشباب الذين كانوا يجهلون تلك السقطات الخطيرة المؤسفة التى عاقت تحقيق آمالهم ، وما كان يريده الرب لو أنهم ظلوا على وفائهم من سرعة نقلهم إلى أرض الموعد . وكان من الضرورى أن يعلم موسى النشء بخلاصة ما قابله من تجارب ، فيعلمون سبب ما اعتراهم من تأخير وما طرأ على الخطط الإلهية من تغيير وكان إعادة ما قابله وما قابل آباءهم من تجارب ، وما صادفهم من أحداث تاريخية ، منذ وجودهم فى جبل سيناء ، على مسامع الجيل الجديد ، وكذلك إعادة سرد القوانين والأوامر التى تنظم سلوكهم وعباداتهم ، كل ذلك كان ضرورياً لهم لإعدادهم لدخول أرض كنعان ، ألقاه عليهم موسى ليس بروح المعلم كما بروح المؤرخ الذى يستخلص من الماضى تعاليم وعظات لأجل أن تتبصرها أجيال المستقبل .

ويستنتج من دراسة هذا السفر أن موسى أكمله فى ثلاث خطب فقط ، وكانت أطولها الخطبة الثانية . وتكون الآيات ١ إلى ٥ من الأصحاح الأول مقدمة الخطبة الأولى التى تنتهى بالآية ٤٠ من الأصحاح الرابع . ويرى البعض أن الآيات ٤١ — ٤٩ لهذا الاصحاح كتبها شخص آخر ليخبرنا بما حدث تحت قيادة موسى على الضفة الشرقية لنهر الأردن .

ويقص علينا موسى فى الخطبة الأولى باختصار قصة الرحلة من صحراء سيناء إلى الأردن ، وهو يؤكد تدبير العلى فى قيادة شعبه فى ذاك الوقت إلى أرض كنعان مباشرة من جبل الشريعة ، معدداً الحوادث الرئيسية التى قابلتهم فى رحلتهم عبر تلك الصحراء الجرداء الموحشة حتى وصلوا إلى حدود أرض الميعاد .

وكان موسى يروم بوجه خاص إعلام الجيل الناشىء بنبأ تلك الثورة التى قام بها بنو إسرائيل نتيجة الأخبار التى جاء بها الجواسيس العشرة ، كما أراد أيضاً استتباباً للنظام ووحدة الصفوف أن يعلم ذلك النشء بمصير الثائرين وأحكام

الإعدام التى صدرت ضدهم ، كما أعاد على مسامعهم ما انتابهم من حرات أثناء اجتيازهم البرية .

ونعلم أيضاً من الخطبة الأولى بهزيمة العمالقة وبحصار مدنهم المسورة، والتقدم بعد الانتصار نحو نهر الأردن . هذه الإعادة لحوادث الماضى مع ذكر خاص للسقطات التى أدت إلى تأخرهم عن بلوغ هدفهم مدة ثمانية وثلاثين عاماً ، كانت إعداداً ضرورياً لذلك الأمر الذى كان موسى على وشك أن يلقيه على الشباب بشأن ضرورة إطاعة شريعة الرب ، والتحذير من المخالفة وعبادة الأوثان .

وتستغرق الخطبة الثانية الأصحاح الخامس إلى السادس والعشرين ، وفيها يذّكر موسى بنى اسرائيل بالشريعة التى تسلمها على قمة جبل سيناء ، مكرراً لهم الوصايا العشرة ، إذ لم تسمعها أكثريتهم طبعاً من فم الرب فى تلك المقابلة الجليلة ! ثم يحثهم على إطاعتها على أساس المحبة ، كما يحثهم على تلقينها لأبنائهم .

وقد أردف النصح بالوعيد لكل مخالف ، والعقبى الحسنى للمؤمنين ، كما وعدهم بالنصر على الكنعانيين الوثنيين وأعطاهم التعليمات الخاصة بطردهم عن أرض الموعد وتدمير كل أوثانهم ، كما بين لهم أن رعاية الرب لهم وقيادتهم والمحافظة عليهم طوال رحلتهم الشاقة يستوجب منهم الطاعة له والإيمان به ، وحذرهم من الغرور والتفاخر الروحى . ولم يحل نياحة هارون على جبل حور دون تسلسل الكهنوت الهارونى الذى استمر فى ذريته .

وتشمل الاصحاحات ٢٧ إلى ٣٠ الخطبة الثالثة ، وفيها أمرهم موسى بضرورة نقش الوصايا العشرة على لوحين من الحجر على جبل عيبال بعد دخولهم أرض الميعاد . وعدد لهم النعم التى ينالها المطيعون والنقم التى تلحق بالمخالفين . أما إذا سادت المخالفة لهذه الوصايا فقد تنبأ لهم بأنهم سيتشتتون بين جميع الأمم ويجعلهم الرب عبرة لمن يعتبر ومثلاً للأمم المخالفة . أما إذا رجعوا هم وأبناؤهم إلى الرب بكل قلوبهم فسيكتب لهم النجاة من هذا المصير ويرجعهم من سبيهم ويعطف عليهم . فكان أمر تحقيق هذه النبوة مشروطاً إذن بسلوكهم .

وختم موسى خطبته بنداء يصح أن ينطبق على جميع الأجيال ، قال فيه إن شريعة الرب تضع الناس عند مفترق الطرق ، وإن القرار الذى يتخذونه يتوقف عليه مصيرهم الأبدى « أنظر ! قد جعلت قدامك الحياة والخير والموت والشر ، بما أنى قد أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك فى طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه ، لكى تحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك فى الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها ... أشهد عليكم اليوم السماء والأرض ، قد جعلت قدامك الحياة والموت ، البركة واللعنة . فاختر الحياة لكى تحيا أنت ونسلك ، إذ تحب الرب إلهك وتسمع لصوته وتلتصق به لأنه هو حياتك والذى يطيل أيامك لكى تكن على الأرض التى حلف الرب لآبائك ابراهيم واسحق ويعقوب أن يعطيهم إياها . » تثنية ٣٠ : ١٥ — ٢٠ .

إن التاريخ ليشهد بوضوح بالحقيقة الخالدة ، وهى أن مصير الناس والأمم مرهون بموقفهم نحو الشريعة الأخلاقية التى نزلت من سيناء ، وهى مقياس الاستقامة والقاعدة التى يقام عليها الحكم يوم الدين .

ثم يتبع نبذة نتبين فيها أن حياة موسى تقترب من نهايتها ، ونعلم أن يشوع قد انتخب ليخلفه ، وأن الكهنة قد ائتمنوا على الشريعة ، يقرأونها على الشعب كل سابع سنة بمناسبة عيد المظال . ثم أمر موسى بكتابة لحن يخلد به ما قابل بنى إسرائيل من أحداث ، بل كتبه هو وعلمهم إياه .

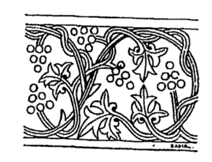
ثم نادى على الشيوخ ليسمعهم وصيته الأخيرة « لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به ويصيبكم الشر فى آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم . » ، ثم سار موسى نحو جنازته — إن صح هذا التعبير — على قمة جبل نبو قبل أن يسلم القيادة لخليفته . وكان موسى الرجل الوحيد الذى سار نحو جنازته ودفنته الملائكة تكريماً لحياته العظيمة ولشخصيته .

ويرى بعض الشراح أن الأصحاح الثالث والثلاثين وكأنه أعد بواسطة كاتب آخر نيابة عن موسى ، ومن المؤكد أن الأصحاح الأخير ألحق ليخبرنا عن موته ودفنه ، وهو حلقة الاتصال بين سفرى التثنية ويشوع ، ويعتقد أنه

كان فى وقت ما ملحق بالسفر الأخير ، ويجب أن نعلم أنه فى الوقت الذى كتبت فيه هذه الأسفار لم تكن مقسمة إلى إصحاحات . ولذلك كان من الصعب أن نعلم بنهاية سفر بالذات ، ولكن ليس هناك من شك فى أن يشوع هو كاتب وصف نياحة ودفن موسى .

وقد كتب أحد الشراح مبيناً أهمية سفر التثنية للكنيسة فقال « نستطيع التأكيد بكل ثقة أنه لا يكاد يوجد سفر آخر يفيد المسيحى من أسفار العهد القديم أكثر من سفر التثنية . » ، فيجب على المسيحى إذن أن يقرأ هذا السفر بتمعن كجزء من الإستعداد الواجب عليه لدخول كنعان السماوية .

(مجلة مدارس الأحد ــ مارس /أبريل ١٩٧١)



الفصل الثانى

فى الصلاة

وضعت لنا الكنيسة القبطية الأرثوذكسية منتخبات من المزامير والطلبات لأدائها فى أوقات معينة من النهار . وقد أخذت عنها جميع الطوائف المسيحية الأخرى مع شيء من التعديل والتحوير . وتبتدىء هذه المزامير بتمجيد العلى وتتدرج منها إلى طلبات وتضرعات فيها تعزية وفيها إيمان وفيها رجاء ، وما أجملها صلاة تذكر الصديق برحمة الله وتشدد عزيمته أمام مصاعب الحياة وتحيى الأمل فى قلبه فى ساعات اليأس عندما يصرخ قائلا (كثيرة هى ضيقات الصديق ومن جميعها ينجيه الرب) ، ونتلو المزمور المائة والثلاثين فنذكر الأموات ، ونطلب من أجل عمار منازلنا فنتلو المزمور المائة والسابع والعشرين والمائة والثامن والعشرين ، ونطلب ايضا احتياجاتنا الروحية فنتلو المزموز الخامس عشر من أجل الأمانة والكمال ، والمزمور المائة والعشرين من أجل الصدق والبعد عن الغش ، والمزمور المائة والحادى والثلاثين من أجل التواضع ، والمزمور المائة والثانى عشر من أجل البر والرحمة ، ويقف كهنتنا ليرددوا المزمور المائة والثانى والثلاثين .

إن ترديد مثل هذه الطلبات والتضرعات يوميا تذكرنا بواجبنا نحو الله والناس وتحفظنا من ضربات العدو ، وتسمو بنا إلى حياة روحية أفضل لا نلبث أن نشعر بآثارها فى مختلف نواحى حياتنا .

القــــداس

إن الذبيحة المقدسة التى يرفعها الكاهن يوميا على المذبح هى نفس الذبيحة لتى قدمها الكاهن الأعظم على الجلجثة ، وقد وضعها لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا، وذاك الذى بلا عيب ولا دنس. ولذلك وجب علينا أن ندخل الكنيسة فى كل خشوع ووقار راشمين علامة الصليب فى انحناء للرأس ، ساجدين ركعا إذا وصلنا إلى عتبة الهيكل، ذلك الإنحناء والسجود الذى يبدو أن كثيرين منا قد نسوه ونسوا معناه ومدلوله ، بل أنهم أصبحوا لا يكلفون أنفسهم حتى رشم علامة الصليب ، ورحم الله آباءنا وأجدادنا فقد كانوا يرشمون علامة الصليب فى

كل مناسبة اثناء خروجهم ودخولهم إلى المنزل ، قبل تناولهم الطعام أو شربهم كوب ماء ، وقبيل قيامهم بأى عمل .

وأنت حين تذهب إلى الكنيسة لحضور القداس الإلهى يجب أن تثبت أفكارك فى الرب ، ولكن لا تنسى قريبك ، أعطه نصيبا فى عبادتك وفيما تجلبه من نعم ، فإن الصلاة من أجل الآخرين عمل من أعمال المحبة نقدمه إلى الرب ، فإذا مثلا صليت قائلا (لتكن مشيئتك) مبديا رغبتك فى أن تشعر بإرادة الله سائدة فى قلبك ، اتجه بفكرك إلى قلب زوجتك أيضا وابنائك بل وسائر البشر فى كل قطر من أقطار العالم ، وبذلك تقدم إلى الرب فى نفس الوقت ما يتضمن عملا من أعمال المحبة .

وعوض عن أن تتبع الكاهن فى صلاته لترددها فى صوت عالٍ ـــ وهى عادة ممقوتة وتشوش على من يصلى فى هدوء بجانبك ، فضلا عن أن الكنيسة تحرمها ـــ تستطيع أن تصلى سرا كما يلى :

١ــ اثناء الاستعداد فى الهيكل ، صل لأجل الكاهن والخدام وجميع رؤساء الكنيسة .

٢ــ اثناء تلاوة الرسائل والانجيل ، صل من أجل جميع الذين يبشرون بالانجيل فى انحاء العالم .

٣ــ عقب تلاوة قانون الإيمان مباشرة ، لأجل سمو التعاليم المسيحية ولأجل من يقوم بها .

٤ــ اثناء تلاوة القداس بعد ذلك ، لأجل جميع احتياجاتنا الروحية والجسدية ، ثم لأجل السلام واتحاد القلوب واستتباب القانون والنظام .

وعندما يقول الكاهن أين هى قلوبكم فإنه إنما ينبهنا لكى نصلى من أجل جميع أخوتنا وخصوصا أولئك الذين يكرسون حياتهم ليقربونا من ملكوت السموات ، وغير ذلك هناك فى القداس قطع كثيرة توحى إلينا بصلوات مختلفة لمن ينتبه إليها .

صلى مع الكاهن لأجل الأساقفة وسائر المؤمنين ، وعندما يذكر الأموات ، ويترحم عليهم اذكرهم معه .

اذكر أن يسوع المسيح ابن الله الحى حاضر يرفع أفكارك وطلباتك إلى الله الآب .

وتوج صلاتك بالتناول سواء أكان هذا التناول روحيا وفكريا أم بالتقدم من الأسرار المقدسة . وعندئذ يسبح ويمجد كل أفكارك ونفسك وقلبك اسم الله القدوس .

لا تكثر من تكرار الطلبات والسؤالات فإن أباكم الذى فى السموات يعلم احتياجاتكم ، وتعود أن ترى إرادة الله فى كل شىء فذاك خير من كثير من أنواع العبادات الأخرى فى العالم .



الفصل الثالث

منظمات الشباب
وتكوين المواطن الصالح

نشرتم للدكتور إبراهيم جمعة مقالا عن منظمات الشباب بإنجلترا ، تحدث فيها عن أهمها من حيث إعداد الشباب للحياة العسكرية . وسأتحدث عن إحدى هذه المنظمات التى تعد الشباب ليكون مواطنا صالحا . ففى عام ١٨٧٧ م تكونت فى انجلترا جمعية القديس يوحنا للإسعاف ، وكان الغرض من إنشاء هذه الجمعية ، نشر مبادىء الإسعاف الأولى بين الشباب . ولم تلبث أن تبينت أن بعض المبادىء الأولية عن فن التمريض ضرورية أيضا للشخص الذى تضطره الظروف إلى العناية بمريض فى حالة عدم وجود ممرضة . وقد انتظم فى عضوية هذه الجمعية آلاف الشباب من الجنسين ، وقد يسرت لهم الحصول على هذه المعلومات بطبع الكتب فى (الاسعاف الأولى) و (التمريض المنزلى) . وكان كل من يلتحق بها يقسم بأن يكون مواطنا صالحا .

ولم تلبث هذه الجمعية أن نظمت دراسات ، تساعد أيضا على بلوغ ذلك الهدف ، بزيادة معلوماتهم عن معنى الخدمة العامة . وكان أهم ما فى برنامج تلك الدراسات توسيع معلوماتهم عن الخدمات الاجتماعية ، وأن ينتقى كل منهم أحد الموضوعات الأربعة الآتية ، وأن يكون مستعدا للإجابة بتفصيل عن الأسئلة التى توجه إليه بشأنه :

١ـــ نظام التعليم ، ويشمل المدارس وأنواعها ، والكليات ، والدراسات التكميلية ، وأنواع الخدمات التى تؤدى للشباب .

٢ـــ الخدمات الصحية ، ويشمل عمل المستشفيات والزائرات الصحيات ، وعيادات رعاية الطفل ، والمفتش الصحى .

٣ـــ التأمين الصحى .

٤ـــ المساكن وأنواعها لمختلف الطبقات .

يضاف إلى ذلك :

(أ) وجوب معرفة الجهة التى يقيم فيها بحيث يستطيع أن يرشد أى غريب إلى الشوارع الرئيسية والمبانى العامة والأماكن ذات الأهمية الخاصة فيها .

(ب) وجوب معرفة الصناعات الرئيسية القائمة فى الجهة التى يقيم فيها ، والأمكنة ذات الأهمية التاريخية .

(جـ) أن يكون قادرا على إعطاء أسماء ستة أبطال وطنيين ينتقيهم ، ممن كان لهم تأثير فى مستوى الحياة العامة ، مع ذكر سبب شهرتهم . ثم يذكر حياة أحدهم مع شيء من التفصيل .

أما الخطوة الثالثة التى خطتها هذه الجمعية فى سبيل تكوين (المواطن الصالح) ، فهى انشاء مخيمات للشباب ، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ويتعلم الشباب فى هذه المخيمات أن يعيشوا حياة جماعية ، وأن يعنوا بغيرهم كما يعنوا بأنفسهم ، وأيضا يكوّنوا أصدقاء جدد ، ويوجهون اهتمامهم إلى أشياء طريفة ، كما يتعلمون العناية بأنفسهم فى ظروف لم يتعودوا عليها . هذا علاوة على أن المخيمات تتيح لهم الفرصة ليقضوا اجازة فى مرح وتحت شروط صحية بأقل التكاليف ، وهى بالنسبة للكثيرين من الشباب ، تغيير تام بالنسبة للحياة العادية التى ألفوها .

هذه الجمعية تضم الآن عشرات الألوف من الشباب ، ولها مكتبة كبيرة فى لندن تبيع كل ما تستلزمه هذه الثقافة التى تهدف الى تعريفهم بكل ما يتعلق بالخدمة العامة وبالتالى بتكوين (المواطن الصالح) ، من مؤلفات ووسائل .

وإنى أعتقد أنه بشيء من التنظيم والتوسع فى الأهداف ، نستطيع الإفادة من منظمات الشباب للأسعاف الأولى والتمريض فى جمعية الهلال الأحمر ، لتكوين (المواطن الصالح) .

ثبت تاريخي بكتابات الدكتور منير شكري
مرتبة بحسب زمن صدورها

١٩٤٧

١ ـــ مارمرقس ، نبذة تاريخية من جمعية مارمينا العجايبى (٣٠ برمودة ١٦٦٣ ش ٨ مايو ١٩٤٧ م)

٢ ـــ مع يسوع إلى الجلجثة : رسالة مارمينا فى عيد القيامة (ابريل) . ص ٧ ـــ ١٦ .

٣ ـــ نهاية وبداية : رسالة مارمينا فى عيد القيامة (ابريل) . ص ١٩ ـــ ٢٢ .

٤ ـــ اللغة القبطية ونصيبها من الحركة الاصلاحية : رسالة مارمينا فى عيد النيروز (سبتمبر) . ص ٣١ ـــ ٣٣ .

١٩٤٨

٥ ـــ آباء البرية : رسالة مارمينا الثالثة (الرهبنة القبطية) . ص ١٤ ـــ ٢٨ .

١٩٥٠

٦ ـــ أثناسيوس الرسولى : رسالة مارمينا الرابعة (صور من تاريخ القبط) ص ٤٩ ـــ ٨٩ .

١٩٥٢

٧ ـــ نبذة تاريخية من جمعية مارمينا العجايبى بالأسكندرية بمناسبة الإحتفال بتكريس البناء الجديد للكنيسة المرقسية بالإسكندرية (٣٠ بابة ١٦٦٩ ش ـــ ٩ نوفمبر ١٩٥٢ م) .

١٩٥٤

٨ ـــ المسيحية وما تدين به للقبط : رسالة مارمينا الخامسة (صفحة من تاريخ القبط) . ص ٥٥ ـــ ٩٢ .

١٩٥٥

٩ ــ شذرات عن آباء البرية : مجلة مدارس الأحد (يونيو) . ص ٤٢ ــ ٤٤ .

١٠ ــ مشكلة إنتخاب البطريرك : جريدة مصر (١٢ أغسطس)

١١ ــ كيف جنينا على الرهبنة القبطية : جريدة مصر (٢١ ديسمبر) . ص ٣ .

١٩٥٦

١٢ ــ عائلة أوريجانوس : مجلة مدارس الأحد (مارس ، أبريل) . ص ٧٨ ــ ٨٠ .

١٣ ــ بانوب حبشى : مجلة مدارس الأحد (سبتمبر) . ص ٢٤ ــ ٢٦ .

١٤ ــ سان موريس وصحبه : مجلة مدارس الأحد (نوفمبر) . ص ٤ ــ ٦ .

١٩٥٧

١٥ ــ كنيسة مارمينا العجايبى على مر العصور : نبذة أصدرتها كنيسة مارمينا العجايبى بفلمنج (يونيو) . ص ٣ ــ ٩ .

١٦ ــ مجمع نيقية المسكونى الأول : مجلة مدارس الأحد (يوليو) . ص ٧ ــ ١٠ .

١٧ ــ مارمينا العجايبى : مجلة مدارس الأحد (ديسمبر) . ص ٣٣ ، ٣٤ .

١٩٥٨

١٨ ــ الضجر أو السّأم : مجلة مدارس الأحد (يناير) . ص ٣١ ــ ٣٣ .

١٩ ــ استشهاد مارمينا العجايبى : مجلة مدارس الأحد (ديسمبر) . ص ١١ ــ ١٣ .

١٩٥٩

٢٠ ــ أبو الاصلاح القبطى (الأنبا كيرلس الرابع) : مجلة مدارس الأحد (فبراير) . ص ١٥ ــ ١٧ .

٢١ ــ القديس ديونيسيوس : مجلة مدارس الأحد (مارس) . ص ٢٤ ــ ٢٩ .

٢٢ ــ يسى عبد المسيح : مجلة مدارس الأحد (أبريل ، مايو) . ص ٦٥ ــ ٦٦ .

٢٣ ــ الشهيدة التى تحتضر : مجلة مدارس الأحد (أكتوبر) . ص ٣٧ ــ ٤٠ .

٢٤ ــ ذكرى العثور على رأس مارمرقس وتكريس بيعته : رسالة مارمينا (نوفمبر) . ص ٤ ــ ٨ .

١٩٦٠

٢٥ ــ مجد الإسكندرية الروحى يتجدد : جريدة مصر (١٠ مايو)

٢٦ ــ خواطر : جريدة مصر (٢١ مايو)

٢٧ ــ القمص يوحنا سلامة : جريدة مصر (٢٨ أبريل)

٢٨ ــ تذكار تكريس كنيسة مارمينا العجايبى : مجلة مدارس الأحد (يونيو) . ص ١٤ ، ١٥ .

٢٩ ــ رسالة مارمينا فى عيد النيروز : جريدة مصر (١٢ سبتمبر)

٣٠ ــ الشماس فى الطقس الكنسى : جريدة مصر (٣ أكتوبر)

٣١ ــ القديس مينا العجايبى وكنيسته : نبذة تاريخية من جمعية مارمينا العجايبى (١٦ هاتور ١٦٧٧ ش ــ ٢٥ نوفمبر ١٩٦٠ م)

ــ أبو قير ، الضاحية الجميلة لمدينة الإسكندرية (مع الدكتور لبيب حبشى) .

١٩٦١

٣٢ ــ الأنبا كيرلس الرابع : مجلة مدارس الأحد (فبراير) . ص ٣٠ ــ ٣٤ .

٣٣ ــ فى الرهبنة القبطية (الطاعة) : مجلة مدارس الأحد (أبريل) . ص ٢٨ ، ٢٩ .

٣٤ ــ فى ذكرى إستشهاد مؤسس كنيسة الإسكندرية : مجلة مدارس الأحد (مايو) . ص ٢٩ .

٣٥ ــ فى الرهبنة القبطية (الرهبنة الانطونية) : مجلة مدارس الأحد (يونيو) . ص ١٧ ، ١٨ .

٣٦ ــ فى الرهبنة القبطية (الرهبنة الباخومية) : مجلة مدارس الأحد (يوليو) . ص ٢٤ ــ ٣٠ .

٣٧ ــ حول تاريخ السريان : مجلة مدارس الأحد (سبتمبر) . ص ٢٣ ، ٢٤ .

٣٨ ــ مارمينا العجايبى ، نبذة تاريخية من جمعية مارمينا العجايبى بمناسبة الإحتفال بوضع حجر أساس الكاتدرائية الجديدة بمريوط (١٥ هاتور ١٦٧٨ ش ــ ٢٤ نوفمبر ١٩٦١ م)

٣٩ ــ استشهاد مارمينا العجايبى : مجلة مدارس الأحد (نوفمبر ، ديسمبر) . ص ٦٩ ، ٧٠ .

١٩٦٢

٤٠ ــ كنيسة مارمرقس بالأسكندرية (٦٢ م ــ ١٩٦٢ م) : رسالة خاصة لجمعية مارمينا العجايبى

٤١ ــ أديرة وادى النطرون : رسالة مارمينا السادسة . كتاب يقع فى ٣٤٦ صفحة .

٤٢ ــ القديس أنطونيوس : مجلة مدارس الأحد (مارس) . ص ٣٨ ــ ٤٠ .

٤٣ ــ مجمع خلقيدونية : مدارس الأحد (ابريل) . ص ٢٦ ــ ٣١ .

٤٤ ــ مجمع خلقيدونية أمام التاريخ : مجلة مدارس الأحد (يونيو) . ص ٣٠ ــ ٣٣ .

٤٥ ــ ما بعد مجمع خلقيدونية : مجلة مدارس الأحد (أغسطس) . ص ٣٤ ــ ٣٦ .

٤٦ ــ اللغة القبطية : مجلة مدارس الأحد (سبتمبر) . ص ٣١ ، ٣٢ .

١٩٦٣

٤٧ ــ سمات خاصة للحياة النسكية : مجلة مدارس الأحد (مايو/يونيو) ص ٤٦ ــ ٥٠

٤٨ ــ إسكندر القصبجى : مجلة مدارس الأحد (أغسطس) . ص ٢٩ ، ٣٠ .

٤٩ ــ الإحتفال بمرور ألف عام على أديرة جبل أتوس : مجلة مدارس الاحد (نوفمبر) . ص ٣٠ .

١٩٦٤

٥٠ ــ ميلاد الوعى الاصلاحى : مجلة مدارس الأحد (فبراير) . ص ٤ ــ ٦ .

٥١ ــ الإسكندرية تستعيد مجدها : مجلة مدارس الأحد (مايو) . ص ٣١ ، ٣٢ .

٥٢ ــ البابا ثيؤدسيوس: مجلة مدارس الأحد (يونيو) . ص ١٩ ــ ٢١ .

٥٣ ــ كيف إنتصرت الكنيسة على عوامل الظلم : مجلة مدارس الأحد (سبتمبر) . ص ٩ ــ ١٢ .

٥٤ ــ صفحة مشرقة من تاريخ العجايبى : مجلة مدارس الأحد (نوفمبر ، ديسمبر) . ص ١٦ ــ ١٩ .

١٩٦٥

٥٥ ــ القديس أنبا أنطونيوس أب الرهبان : مجلة مدارس الأحد (يناير) . ص ٢٩ ، ٣٠ .

٥٦ ــ القديس الأنبا بولا : مجلة مدارس الأحد (فبراير) . ص ٣٥ ، ٣٦ .

٥٧ ــ أثناسيوس الرسولى بابا الاسكندرية : مجلة مدارس الأحد (يونيو ، يوليو) . ص ٥٢ ــ ٥٦ .

٥٨ ــ فى ذكرى الشهداء : مجلة مدارس الأحد (سبتمبر ، أكتوبر) . ص ٢٦ ، ٢٧ .

١٩٦٦

٥٩ ــ القديس مينا ومدينته العجيبة : نبذة أصدرتها جمعية مارمينا العجايبى (مارس) . ص ٥ ــ ١٠ .

٦٠ ــ ديديموس الضرير : مجلة مدارس الأحد (مايو) . ص ٣٩ ، ٤٠ .
٦١ ــ جامعة البرية : رسائل ميناء الخلاص (دير الشهيد بمريوط ــ سبتمبر) . ص ٧ ، ٨ .
٦٢ ــ القديس كيرلس الكبير : جريدة وطنى (٢١ أغسطس)
٦٣ ــ رأس السنة المصرية ١٦٨٣ ش : جريدة وطنى (٤ سبتمبر)

١٩٦٧

٦٤ ــ الطاعة أو الانتصار على الكبرياء : مجلة مدارس الأحد (فبراير ، مارس) . ص ٣١ ــ ٣٣ .
٦٥ ــ نهاية وبداية : مجلة مدارس الأحد (مايو/يونيو) ص٦ ــ ٩
٦٦ ــ خواطر فى ذكرى الجلوس البابوى : مجلة مدارس الأحد (مايو ، يونيو) . ص ٢٢ ــ ٢٤ .
٦٧ ــ عشرون عاما فى خدمة التاريخ القومى والكنيسة : مجلة مدارس الأحد (سبتمبر) . ص ٢٨ ــ ٣٢ .
٦٨ ــ رأس السنة المصرية ١٦٨٣ للشهداء : جريدة وطنى (٤ سبتمبر) . ص ٥ .

١٩٦٨

٦٩ ــ الابن الضال : رسالة مارمينا السابعة . ص ٥ ــ ١٠
٧٠ ــ هوذا حمل الله : رسالة مارمينا السابعة . ص ١١ ــ ٢٥
٧١ ــ مع يسوع إلى الجلجثة : رسالة مارمينا السابعة ص ٤٠ ــ ٥٢
٧٢ ــ اللص اليمين : رسالة مارمينا السابعة . ص ٥٣ ــ ٥٨
٧٣ ــ نهاية وبداية : رسالة مارمينا السابعة . ص ٥٩ ــ ٦٣
٧٤ ــ الانتصار على الموت : رسالة مارمينا السابعة . ص ٨٨ ــ ٩٢
٧٥ ــ تلميذا عمواس : رسالة مارمينا السابعة . ص ٩٣ ــ ٩٩
٧٦ ــ هوذا حمل الله : مجلة مدارس الأحد (ابريل) . ص ٩ ، ١٠ .
٧٧ ــ القديس مرقس الانجيلى : مجلة مدارس الأحد (أغسطس ، سبتمبر) . ص ٣٢ ــ ٣٧ .

١٩٦٩

٧٨ ــ رسالة دكتوراه أمام جامعة ليون عن القس بطرس السدمنتى : جريدة وطنى ٢٣ /٢/ ١٩٦٩ م .

٧٩ ــ الانتصار على الموت : مجلة مدارس الأحد (مارس ، أبريل) . ص ١٢ ــ ١٥ .

٨٠ ــ ما أهدته الاسكندرية إلى العالم المسيحى : جريدة وطنى (٢٢ يونيو) . ص ٢ .

٨١ ــ الأنبا باخوم والأديرة الباخومية : مجلة مدارس الأحد (مايو ، يونيو) . ص ٢٨ ــ ٣٤ .

٨٢ ــ القديس الأنبا شنودة : جريدة وطنى (٢٠ يوليو) . ص ٢

٨٣ ــ مخطوطات عربية لمؤلفين من القبط : مجلة مدارس الأحد (أغسطس) ص ١ ــ ٣

٨٤ ــ الرسل : مجلة مدارس الأحد (أغسطس) . ص ٢٢ ــ ٢٥ .

٨٥ ــ من مؤلفات أكليمنتس الإسكندرى : جريدة وطنى (٩ نوفمبر) . ص ٧ .

١٩٧٠

٨٦ ــ أضواء على الرهبنة القبطية : مجلة مدارس الأحد (يناير ، فبراير) . ص ٣٤ ــ ٣٧ .

٨٧ ــ حكمة فى كنيسة الاسكندرية : مجلة مدارس الأحد (مارس ، أبريل) . ص ١ ، ٢ .

٨٨ ــ بين كيرلس الرابع وكيرلس السادس : رسالة مارمينا فى عيد الجلوس البابوى (مايو) . ص ٤ ــ ٨ .

٨٩ ــ القديس مرقس : جريدة وطنى (١٧ مايو) . ص ٢ .

٩٠ ــ فى ذكرى استشهاد القديس مرقس : مجلة مدارس الأحد (مايو ، يونيو) . ص ٣٢ ــ ٣٥ .

٩١ ـــ أقدم عيد لأقدم أمة ، النيروز أكليل السنة : جريدة وطنى (١٣ سبتمبر)
٩٢ ـــ كنيسة مارمرقس بالاسكندرية : نبذة أصدرتها جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية (سبتمبر) . ص ٥ ـــ ٧ . (طبعة ثانية)
٩٣ ـــ القديس كيرلس معلم الكنيسة الجامعة وعامود الدين : جريدة وطنى (١٦ سبتمبر) . ص ٢ .
٩٤ ـــ المسيحية فى القرن العاشر : مجلة مدارس الأحد (سبتمبر ، أكتوبر) . ص ٣١ ـــ ٣٧ .
٩٥ ـــ البابا كيرلس السادس يبعث تراث الشهيد مارمينا العجايبى : جريدة وطنى (٢٢ نوفمبر) . ص ٢ .
٩٦ ـــ مائة عام بعد مجمع نيقية : مجلة مدارس الأحد (نوفمبر ، ديسمبر) . ص ١٣ ـــ ١٥ .
٩٧ ـــ برديات نجع حمادى : جريدة وطنى (٢٠ ديسمبر) .

١٩٧١

٩٨ ـــ رسالته الخالدة لا تموت : جريدة وطنى (٢١ مارس)
٩٩ ـــ سفر التثنية ونظرة المسيحية إليه : مجلة مدارس الأحد (مارس ، أبريل) . ص ٣٩ ـــ ٤٢ .
١٠٠ ـــ رسالة خالدة لا تموت : مجلة رسالة المحبة (ابريل ، مايو) . ص ١٣٩ .
١٠١ ـــ من الأعماق .. كلمة وفاء .. : جريدة وطنى (ابريل) . ص ٢ .
١٠٢ ـــ العائلة المقدسة وأمجاد مصر المسيحية : جريدة وطنى (٦ يونيو)
١٠٣ ـــ إنتخاب البطريرك : مجلة الطليعة (سبتمبر) . ص ١٧١ .
١٠٤ ـــ مشكلة انتخاب البطريرك : جريدة مصر (سبتمبر) .
١٠٥ ـــ القديس غريغوريوس : مجلة مرقس (أكتوبر) . ص ٣٩ ـــ ٤٥ .

١٩٧٢

١٠٦ ـــ جمعية مارمينا بالاسكندرية : مجلة مرقس (يناير) . ص ٤٦ ـــ ٤٨ .

١٠٧ ــ انجازات هذا القديس .. كيرلس السادس : جريدة وطنى (٢٠ مارس) . ص ٢ .

١٠٨ ــ فى ذكرى البطولة والاستشهاد : مجلة مرقس (سبتمبر) . ص ٤٨ ــ ٥٠ .

١٩٧٨

١٠٩ ــ القديس أثناسيوس الرسولى : رسالة مارمينا الثامنة . كتاب يقع فى ١٠٤ صفحة .

١٩٨١

١١٠ ــ عبقرية الأنبا باخوم : رسالة مارمينا التاسعة . ص ١ ــ ٨٠ . (مع الدكتور عزيز سوريال عطية) .

١٩٨٣

١١١ ــ النوروز أو النيروز : رسالة مارمينا العاشرة فى عيد النيروز . ص ٧ ــ ٩ .

١١٢ ــ كنيسة مارمرقس بالاسكندرية : رسالة مارمينا العاشرة فى عيد النيروز . ص ٧١ ــ ٧٧ .

١١٣ ــ مقاومة مصر للاستعمار الرومانى : رسالة مارمينا العاشرة فى عيد النيروز . ص ٨٧ ــ ٩٠ .

١١٤ ــ شهداء مصر فى العصر الرومانى : رسالة مارمينا العاشرة فى عيد النيروز . ص ٩١ ــ ٩٨ .

١١٥ ــ البابا بطرس خاتم الشهداء : رسالة مارمينا العاشرة فى عيد النيروز . ص ٩٩ ــ ١٠٤ .

قالوا عن جمعية مارمينا العجايبى للدراسات القبطية بالإسكندرية

• **العالم المؤرخ الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية**

(فى تصدير الرسالة الأولى لجمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية ــ أبريل ١٩٤٧ م) .

... ولقد درست نشاط هذه الجماعة ، فوجدته نشاطاً هادئاً مضطرداً ، تشمله بساطة المبدأ السليم ، وتظلله أجنحة السلام الداخلى ، فى تواضع من غير ضعة ، وفى حماس من غير جلبة ، وتزينه ثقة العلم ورجحانه ، جنباً إلى جنب مع حرارة الإيمان وحلاوته فتراهم يحجون فى رحلاتهم إلى أديرة أبى مينا بالصحراء الغربية والبراموس والسريان وأنبا بيشوى بوادى النطرون وغير ذلك من الأماكن الأثرية ، فيغذون أرواحهم بما تحمله هذه المؤسسات بين ظهرانينا من الورع ، ويسرون أعينهم بما تراه فيها من تاريخ حافل بالأحداث الجليلة فى سفر الأنسانية بأكملها . وها هم ينظمون محاضراتهم فى جو العلم والإصلاح والتقى فى صعيد واحد ، فمن متكلم فى تاريخ القبط ، إلى متحدث عن أبى الأصلاح كيرلس الرابع الكبير ...

• **المؤرخة الكنسية القديرة الأستاذة إيريس حبيب المصرى**

(قصة الكنيسة القبطية ــ الكتاب السادس (ب) ــ ١٩٨٥ م)

كلنا يعرف أن تتالى الأيام لا يتوقف مهما بلغت فداحة الأحداث . وكلنا يعرف أن الكنيسة حية باقية بقوة فاديها ومحبته لها ... ومن أمثال هذا الأستمرار ــ بل النمو ــ جمعية مارمينا العجايبى التى تأسست فى الإسكندرية عام ١٩٤٥ م ... ومن أوضح الأدلة على نكرانهم ذواتهم أنهم حتى فى الكتاب الذى نشروه أحتفاء بيوبيل جمعيتهم لم يذكروا أسماء المجموعة الأولى التى أسست الجمعية بل أكتفوا بذكر أسم رئيسهم لأنه كان قد أنتقل إلى الفردوس ــ وهو العالم الأثرى بانوب حبشى ... ولقد ساندتهم نعمة الله فتمكنوا من إصدار سلسلة من الرسائل تحتوى كل رسالة على مجموعة غاية فى الأهمية بأقلام كبار

العلماء القبط . كذلك أصدروا عدة مؤلفات كان لها أكبر الأثر على تاريخ الحركة الثقافية فى مصر ... ومن نعم الله الوفيرة على كنيسته أن جمعية مارمينا العجايبى مازالت فى جهادها الحسن ، ومازالت تعمل فى مختلف المجالات التى عاهدت الشعب على العمل فيها ... إننا نرى فى الخطة التى أنتجتها جمعية مارمينا العجايبى صورة من ذلك التوازن العجيب الذى يوجده الآب السماوى بين أبنائه رعاية منه لهم ومحبة للكنيسة .

• **دكتور رودلف مرقس يني** (رئيس تحرير المجلة الفصلية Coptic Church Review التى تصدر بالولايات المتحدة الأمريكية)

(الرسالة ـــ السنة الحادية عشر ـــ العدد الخامس ـــ يولية ١٩٩٢ م)

... الكنيسة هى جسد المسيح الواحد الذى تعتمد حياته على أختلاف الأعضاء وعلى أختلاف المواهب (١ كو ١٢ : ١٢ـــ١٣) الروح القدس الذى بدأ النهضة فى أوائل القرن هو الذى يصحح مسارها فى منتصفه . هنا ظهر فى الكنيسة من يدعو إلى العودة إلى الآباء ، وهذا ما بدأته جمعية مارمينا العجايبى فى الأربعينيات ، ليتسلمه منها آخرون فى الجيل التالى ... أما عمل الجمعية الرئيسى وهو النشر فقد ركزته على سلسلة من الرسائل ... وقد جاء صدور هذه الرسائل فى وقت كانت الحاجة ماسة إليها . وشعر بها أبناء الكنيسة فى الحال ، اذ كانت لهم بمثابة الغيث المنهمر على الأرض المتعطشة ... كانت بحوثاً علمية جادة عن أعمال الآباء وكتاباتهم وحياتهم مستندة إلى أدق المصادر سواء المخطوطات القديمة أو أبحاث العلماء فى الغرب أو أقوال الآباء أنفسهم التى لم تكن فى متناول الأقباط فى تلك الأيام ... حين صدرت النشرة الثالثة بعنوان « الرهبنة القبطية » عام ١٩٤٨ م ، لم يكن من المصادفات أن يبدأ فى نفس العام دخول أفواج من الشباب القبطى الجامعى إلى الأديرة . من بين هؤلاء كان عدد كبير من قادة الكنيسة منذ ذلك الحين وإلى الآن ... وإذ أحس البابا كيرلس السادس بالجهود النبيلة التى تقوم بها الجمعية أنتهز فرصة أحتفالها فى ١٢ نوفمبر ١٩٧٠ م باليوبيل الفضى لتأسيسها ، فأناب عنه أسقف البحث العلمى للمشاركة فى الأحتفال كما أرسل طرس البركة للجمعية ... لا تزال رسالة مارمينا تصدر إلى الآن ويقوم بتحريرها جيل جديد من الباحثين .

مركز الدلتا للطباعة
٢٤ شارع الدلتا ـ اسبورتنج
تليفون : ٥٩٥١٩٢٣

مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي بالإسكندرية

١ - رسالة مارمينا فى عيد القيامة	(نفذ)	(١٩٤٧)
٢ - رسالة مارمينا فى عيد النيروز	(نفذ)	(١٩٤٧)
٣ - رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية	(نفذ)	(١٩٤٨)
٤ - صور من تاريخ القبط	(نفذ)	(١٩٥٠)
٥ - صفحة من تاريخ القبط	(نفذ)	(١٩٥٤)
٦ - أديرة وادى النطرون	(نفذ)	(١٩٥٤)
٧ - المرجع فى قواعد اللغة القبطية	(نفذ)	(١٩٦٣)
٨ - القديس أثناسيوس الرسولى معلم الكنيسة	(نفذ)	(١٩٦٩)
٩ - عبقرية أنبا باخوم وأثرها على الرهبنة والحضارة الغربية	(نفذ)	(١٩٨١)
١٠ - رسالة مارمينا فى عيد النيروز بمناسبة مطلع القرن التاسع عشر القبطى	(نفذ)	(١٩٨٣)
١١ - رسالة مارمينا فى الدراسات القبطية (الجزء الأول : طقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وعقائدها)	(كمية محدودة)	(١٩٨٦)
١٢ - صور من تاريخ القبط (الجزء الثانى)	(كمية محدودة)	(١٩٩٠)
١٣ - مارمينا العجايبى ومدينته العجيبة	(كمية محدودة)	(١٩٩١)
١٤ - قراءات فى تاريخ الكنيسة المصرية		(١٩٩٣)